

الأطباء في العصر الفاطمي

الأستاذ الدكتور
محمد زغلول سلام

الناشر
مطبعة دار الكتب
بلاطون



الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جمال حمزى وشركاه

٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

الادب فى العصر الفاطمى

— ٢ —

الشعر والشعراء

دكتور

محمد زغلول سلام

الناشر // مكتبة الفيلادلفيا
جلال حوزى وشركاه



الفصل الأول

حال الشعر والشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

حال الشعر :

يبدأ العصر الفاطمي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وهو القرن الذي ارتقى فيه الأدب العربي عامة وازدهر الشعر والنثر ، فأخرج كبار شعراء العربية أمثال أبي الطيب المتنبي والشريف الرضي ومهيار الديلمي والصنوبري وأبي العلاء المعري من شعراء الشرق والشام ، كما أظهر من شعراء الغرب ابن هاني وغيره من شعراء الأندلس .

وفضلاً عما خرج في هذا القرن من كبار الكتاب أمثال أبي هلال الصائغ ، وأبي حيان التوحيدى ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وهدى الزمان الحمذاني ، والخوارزمي ، ومن الأدباء والنقاد وعلماء العربية الكبار كالأمنى ، والقاضي الجرجاني ، وأبي هلال العسكري والحافى .

وما تلا ذلك من القرنين الخامس والسادس كان امتداداً للقرن الرابع وما أفرزه في ميادين الحضارة والفكر والأدب . وإن اختلفت الدرجة ، وتغيرت الملامح تبعاً لتغير ظروف العصر .

وكان للشعر في القرنين الخامس والسادس دوره الكبير في الحياة الأدبية وإن نأفسته الكتابة وحولت أن تتقدم عليه ، وتدفع به إلى مكانة متأخرة ، ذلك أن الشعراء الكبار الذين كانوا يفرضون وجودهم على الرأي العام الأدبي ، بأبلاغهم المتفوق ومكانتهم الفنية قد قلوا بل ندر وجودهم ، على غير الحال في القرون السابقة . ولهذا لم نجد اسماً بارزاً في هذين القرنين يستطيع أن يحتل المكانة التي احتلها المتنبي مثلاً في القرن الرابع ولا أبو تمام والبحتري وابن الرومي في القرن الثالث اللهم إلا من كان علامة ظاهرة كأبي العلاء المعري .

ومن هنا كان الشعراء في هذين القرنين من الطبقة الوسطى في فهم الشعرى ومكانتهم الإبداعية . كان ذلك لأسباب كثيرة .

وظهر في هذين القرنين طبقات من الشعراء غير « المحترفين » — إذا صح هذا التعبير — لم يتكسبوا بالشعر ، وإن غلب على معظم الشعراء التكسب ، ومن بين غير المحترفين جماعة من الكتاب نظموا الشعر إلى جانب الكتابة ، وألحقوا هنا

النظم بكتاباتهم فاختلط فيها النثر بالشعر وكانت ظاهرة هذين القرنين التي عمت من بعد واتبعها الكتاب في العصور التالية .

وكانت الدولة الفاطمية في مصر ، وقد حكمت خلال القرنين الثلاثة ما يقرب من مائتي عام — قد اهتمت بالشعر والشعراء اهتماماً فاق اهتمام الولاة والحكام السابقين في عهد الطولونيين والإخشيديين ، حتى إن عدد الشعراء الذين قيل لهم وقفا على قبر أحد وزرائهم لرائه وهو ابن كلس بلغ مائة شاعر^(١) .

وشجع الفاطميون الشعر والشعراء ، لأن خلفاءهم كانوا عرباً يتذوقون الأدب والشعر ويقرؤونه . وقد رويت أشعار لمعظمهم ، كما قام على تشجيع الشعر والشعراء وزراء الفاطميين الكبار أمثال يعقوب بن كلس ، والأفضل بن بدر الجمالي ، والصالح طلائع بن رزك ، وجمع بلاط هؤلاء جماعة من الشعراء ، إلى توافد الشعراء وتكاثرهم حول بلاط الخلفاء ، وإلى مجالس الوزراء وكبار رجال الدولة من القادة ، والقضاة . وأجزل هؤلاء العطاء للشعراء . ورثبت الدولة لهم ديواناً جعلوا عليه كيماً . وكان الوزراء والقادة يعتبرون شعر المديح ضرباً من الخدمة التي يتقدم بها الشعراء لسلطانهم ، كما كان الخلفاء يعتبرونه كذلك . ولم تكن مناسبة من المناسبات دينية أو اجتماعية أو عيداً من الأعياد العامة كميد وفاة النيل أو كسر الخليج والنيروز ، وما إليها تمر دون أن يقول الشعراء فيها . وقد خصص الخليفة الأمر في أحد مناهرة طلائع بأسماء الشعراء في خدمته منها يأخذون الجائزة المقررة وعليها صور كل منهم^(٢) .

ولما جاء الأفضل إلى الوزارة أجزل للشعراء الجائزة وفق ما يسمع منه فيطريه . قال المقرئى : « فإن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية .. ولا فيما قبلها على الشعر جار ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستجاشه للشعر من الشعراء منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة » .

وبما دعا إلى ازدهار الشعر أن القائمين على شؤون البلاد اتخذوا منه وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية . وكانوا يشجعون الشعراء في مدائحهم على الحديث عن

(١) الخطط ٢ / ٨ .

(٢) روى المقرئى أنهم كانوا يجزون لبعض الشعراء وروثب جلوية من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير ، الخطط ٢ / ٢٤٣ وراجع ١ / ٤٨٦ .

المذهب وأصول الدعوة الفاطمية، وعقائدهم في الأئمة والعلم الباطن، وكما يتحدثون عن حقهم السياسي في الخلافة.

وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والندود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء، فأغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التي جعلت الشعراء يحرصون على إتيان الشعر مع الأكثر من الإنشاء، فكثرت الشعراء وكثر انتاجهم^(١).

ويقول أحمد أمين^(٢) « وفي الحق أن الشعر في العهد الفاطمي في مصر كان أول شعر مصري قيم من عهد فتح العرب لمصر، إذ كان قبل ذلك ليس له قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج، أما شعر المصريين أنفسهم فكان محاللات أولية، حتى إذا جاء الفاطميون جاء الشعر وجاد ».

وشعراء العصر لم يكن لهم استقلال في مواردهم المالية، أو موارد العيش غالبا، وإنما كان معظمهم يتكسب من الشعر، ولهذا كان الشعراء يلجأون إلى كسب ود ذوي النفوذ والأمر.

ومن هنا كنا نرى بين شعراء العصر من يبذل نفسه لأجل نيل الخطوة عند هذا أو ذاك من الخلفاء والوزراء والأمراء، على أساس أن المدح وقول الشعر بين يدي فلان أو فلان كان حرفتهم التي يرتزقون منها.

واتخذهم الخلفاء والولاة أدوات للمباهاة بالسلطان، فضلا عن الدعاية السياسية التي أشرنا إليها. وكان مثلهم في ذلك مثل ما تضمم مجالسهم من ألوان الترف، وما يجمعون من أسباب النعم، فالشعراء كانوا عند هؤلاء من ضروب الزينة والمتعة والمسامرة أو التسلية، يبذلون لهم ما يريدون كي يرضوا نزعتهم، ويحسبوا رغباتهم، ويلبوا طلباتهم فيما تهديه إليه مخارقههم وشطحاتهم.

ونجد في هذا العصر — لا في مصر وحدها — بل في سائر بلاد العرب والمسلمين ودولهم شرقا وغربا — شعراء يغفلون على قصور السادة، ويبذلون لهم — وينفلتون ما يطلبون منهم، وتقلب بهم الأهواء، فيتقلبون بتقليبهم معهم، ونسمع كثيرا عن شعراء يمدحون أناسا، ويمدون فيمدحونهم، ثم يمدحون آخرين أعداء

(١) محمد كامل حسين في أدب مصر الفاطمية، ص ١٥٩.

(٢) ظهر الإسلام ١/ ٢٠٥.

لهم . والعكس ، قد يكون عدواً في عصر يهجمونه فيعودون لمدحه لأن المنفعة عمل عليهم ونحى الشعر ونظمه .

يقول الدكتور باغى عن شعراء القروان في العصر نفسه^(١) :

« والثراء الرخى أو الثرف المثرى يدفع بذهبه إلى صنوف كثيرة من الفراغ اللامى حين يتاح لهم أن يخلدوا إلى الفراغ ، فلم يكن يجد المثرى (بن باديس) مضيقاً للوقت في أن يعقد مجلساً يستدعى شعراء ، لا لشئ إلا لينظموا في وصف طعام من الأطعمة أو شراب من الأشربة أو صنّف من الفاكهة . وما زال يحول بين السلطان ، وبين تسخير الشعر لفراغه حين يركن إلى الفراغ ، وغره حين يطلب اللهو ، ولذته حين يطلب اللذة ؟ وهو الذى سخر الشعر في شعونه السياسية وجعل من الشعراء ألسنة تلهج بالمدح الذى يجد فيه متاعاً ، وبما يصلح أن يسليه حين تنزل به نازلة أو تصيبه كارثة .

وقد كاد السلطان أن يجعل الشعراء لا يحبون إلا له ، ولا يقولون إلا فيه ، ولا يعيرون إلا عماً يدور بخلفه .

فكان الشعراء إذا بعض حاشية السلطان ، لا يرضيه أن يتجه الشاعر بالخدمة إلى غيو ، وهذا ما حدث لابن مكتبة الشاعر المصرى في عصر الأفضل بن بدر الجمالى أهدم الخليفة المستمل .

فقد ذكر أن ابن مكتبة لم يتل الخطوة لدى الأفضل لأنه مدح أحد الرجال العاملين بمصر وهو أبو مليح جد الأسعد بن مماتي الشاعر المشهور ، وكان أبو مليح هذا من كبار موظفى الدولة الفاطمية ، وكان نصرانياً . وأكثر فيه المديح ، وقصر شعره عليه قبل الإتصال بالأفضل ، قال أمية : « قلما أنتقل الأمر إلى الأفضل تعرض لامتداحه ، فلم يقبله ، ولم يقبل عليه ، وكان سبب حرمانه ما سبق من مديحه لأبى مليح ، ولا سيما قوله فيه :

طَوَيْتُ سَمَاءَ الْكَرْمِ	بِ وَكُورَتِ شَمْسِ الْمَدِينِ
مَا كَانَ بِالْكَسِ الدَّنْبِ	نَسِي مِنَ الرِّجَالِ وَلَا الشُّبَّاحِ ^(٢)

(١) حياة القروان ، ص ٧٩ .

(٢) الرسالة المصرية .

ويبدو أن الأفضل استُكثِرَ أن يمدح ابنُ مكنسة غيره بهذا القول ، لما يمكن من نفسه في الدولة ، فعال الحاكم الأمر ، ولم يكن معقَّب على قوله ، حجب الخلفيتين المستعين والأمر .

ومع ذلك فقد كان الأفضل يجمع في مجلسه كثيرا من الشعراء ، وكان يقدِّم إليه الشعراء من المشرق والمغرب . فصلده بن جُبوس من الشام ، وأمّية بن أبي الصلت من الأندلس وغيرهما كثيرون .

يقول المقرئ (١) : « وله مروعة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه أمداح كثيرة ، مدحة ظافر الحداد وأمّية بن أبي الصلب وغيرهما » .

« وعرف كثير من رجال الدولة الفاطمية بتشجيع الشعراء وتقديرهم ، وإحزال العطاء لهم مثل مكين الدولة ابن أبي الحديد قاضي الإسكندرية أمام الأمر .

وكان الوزير الخطير والشاعر الأديب طلائع بن رزّك يعقد في منزله مجلسا في ليالي الجمع ، يجمع بعض جلسائه من المقرئين من الأدباء والشعراء والفقهاء ، ويضم هذا المجلس كثيرا من الشعراء المصريين وغيرهم كالمهذب بن الزبير وعمارة اليمنى والقاضي الجليسي ، وأسامة بن منقذ ومجير بن محمد بن مجير الصقلي .

(١) الخطط ١ / ٤٨٥ .

موضوعات الشعر

وخاض الشعر في كثير من قضايا العصر ومشكلاته واهتمامات الدولة فضلاً عن الموضوعات السائدة والتقليدية من مدح وغزل وثناء وهجاء ووصف ، كما كثر في هذا العصر حديث الشعراء عن صور مباحج الطبيعة ، وزينة الحياة وسرابتها من منازة وأعياد ، ووصف للروض والزهر ، والفناء والآلة ، والموسيقى والرقص ، وألوان المتعة .

وأول ما نعرض له حديث الشعراء عن الدعوة الفاطمية ، وما تناولوه في هذا الحديث من معان وتردد كثيرا في أشعار الدعاة وبعض شعر المدح لقادتهم وخلفائهم . وبعض هذه المعاني تكرر في شعر ابن هاني الأندلسي في مدائحه للخليفة المعز لدين الله قبل مجيئه إلى مصر .

فإلى جانب الصفات العامة في المدح التي مدح بها ابن هاني المعز لدين الله ونجده قد مدحه أيضا ببعض الصفات الدينية التي خلعها الفاطميون على أئمتهم فقد سمي المعز (وصي الأوصياء) :

نَزَّمْ وَصَى الْأَوْصِيَاءَ وَتَوَنَّهُ صُدُورُ الْقَنَا وَالْمُرْفَقَاتُ الْبَوَائِكُ

وقد ذهب في هذا الشعر ملهبه الشعري في المبالغة — وكذلك قوله :

رَأَيْتُ أَنْ يُسَمَّى مَالِكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا فَلَمَّا رَآهُ قَالَ : ذَا الصُّدِّ الْوَتْرِ

وأرجع أنه لم يأت بلفظ الوتر إلا للقافية ، ولو لم تكن القافية أتى بلفظ القرآن « الأحد - الصمد » .

وكذلك وصَفَ الإمام المعز بصفات الله تعالى التي وصف بها نفسه في القرآن كقوله :

مَا شَعَتْ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ فَأَحْكَمَ فَأَنْتَ الْوَاجِدُ الْقَهَّارُ (١)

ويقول الدكتور محمد كامل حسين : « قد يكون لابن هاني بعض الأعداء في أنه مدح الإمام بمثل هذه الصفات ، فقد ذكرنا كيف نفى الفاطميون هذه

(١) الدكتور محمد كامل حسين — ديوان ناعي الدعاة ، ص ١٦٠ ، طبع دار الكتاب .

الصفات عن الله تعالى ، وقالوا أنها صفات المبدع الأول الذى هو ممثل الإمام ، وهذا مدح ابن هانيء إمامه بصفات المبدع الأول الباطنية (١) .

وذكر ابن هانيء كثيرا من المعاني الفاطمية ومصطلحاتهم الباطنية التى جرت بها تأويلاتهم وعقائدهم ، كالتأويل وأصحابه ووجوب ستره ، وضرورة وجود الإمام فى كل عصر ، وأن الدنيا خلقت للإمام ، كما خلق الجسم للنفس ، وأنه معصوم إلى غير ذلك من الأقاويل (٢) .

وقد نهض بالحديث عن تلك المعاني والتبشير بها فى الشعر جماعة من شعراء الدعوة وبخاصة « داعى الدعوة المؤيد شمس الدين » (٣) .

واهتم شعراء الفاطميين فى مدائحهم للخلفاء والقادة بإبراز جهادهم ضد أعداء الإسلام والملة من خوارج ، وروم وفرنجية ، وكان للعداء بين العباسيين والفاطميين دور كبير فى هذا الجدل الشعرى السياسى والدينى . يقول تميم ابن الممر ، وهو يرد على ابن المعتز فى ادعائه حق العباسيين فى الخلافة ووراثة النبى فى قيادة الأمة ومدايتها :

أتى رسبي لآل هنب وداري درسا غير ملعب ومنتاري
يقول فيها ذاكرا الخليفة العزيز بالله أخاه :

هاشمي إذا نسبت ومخصو ص بيت من هاشم غير عار
أخزئل الغيظ في قلوب الأعداي وأحل الجبار دار الصغار
ويقول مخاطبا العباسيين :

يا بنى هاشم ولستأ سوءة فى صغار من العلا ويكلو
إن نكنز ننتمى لجد فانا قد سبقناكم لكل فحار
ليس عباسكم كمثل على هل تقاس التجوم بالأقمار

وركز شعراء الفاطميين على وصاية على ، وهللوا واكثروا من الحديث عن يوم « غدیر حُتم » الذى يعتقدون أن النبى ﷺ أوصى فيه لعلى رضى الله عنه ،

(١) ديوان داعى الدعوة ، ص ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه وراجع له كتاب أحب مصر الفاطمية .

(٣) سيد الحديث عنه بعد .

وجعله من بعده إماما ولكن أبا بكر وعمر اغتصبا حقه — فيما يدعون —
وأشادوا بفضل يوم « غدیر خم » فجعلوه عيدا كما ذكرنا وقللوا من شأن العباس ،
وأشاروا إلى أنه لم يكن سابقا إلى الإسلام كعلي ، بل جاء إسلامه متأخرا رغم ما
أشاع العباسيون من فضله ودوره .

ولا نريد الخوض في تفصيلات موضوعات هذا الشعر ، فقد سبق إلى تفصيل
الحديث فيه غيرنا .

ومن موضوعات شعر المذبح للأئمة الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وقادتهم
موضوع الجهاد والحروب ، فترى ابن هانيء يشيد بحروب المعز لدين الله في
أفريقيا ضد أعدائه حتى دانت له البلاد ، كما أشاد بحربه مع الروم ومنلوته من
الأمويين ملوك الأندلس .

وكذا فعل تميم بن الميز في مديحه لأبيه وأخيه بمصر . يقول في أخيه العزيز
مشيرا إلى تصديه لحرب الخوارج والثائرين بالشام من الأتراك والحمدانيين
والقرامطة^(١) :

نَهَضَتْ بِهَا إِذَا عَجَزَتْ كُلُّ نَاهِضٍ	وَمَزَنَ رِدَاها يَنْهَمِي وَبُصُوبُ
وَقَدْ خَلَّاتِ أَرْضَ الشَّامِ وَقَائِعًا	قِبَائِلَ مَنْ مَرَّاقِهَا وَشَعُوبُ

ويقول فيها :

وَمَا حَارِثُكَ التُّرْكُ إِلَّا وَبَيْنَهَا	وَبَيْنَ الْبَهْدَى وَالْمَكْرَمَاتِ حُرُوبُ
وَمَا جَحَلُوا الْحَقَّ الَّذِي لَكَ فَضْلُهُ	وَلَكِنْ بِهِمْ عَنْهُ عَمِي وَهَرُوبُ
وَأَنْ يَصْبِيحُوا تَرْكًا وَرَبَجًا وَذَيْلًا	فَأَنْتَ إِمَامٌ لِلَّذِينَ نَسِيبُ

وعارض تميم ابن المعتز في القصيدة التي يدعم فيها حق العباسيين في الخلافة
ويقول مطلعها^(٢) :

إِلَّا مَنْ لِنَفْسِي وَأَوْصَالِهَا	وَمَنْ لِدُمُوعِي وَتَسْكِينِهَا
--------------------------------------	----------------------------------

فيقول :

(١) ديوانه ص ٥٤ .

(٢) ديوان ابن المعتز .

ألا قل لمن ضل من هاشم
أوساطها مثل أطرافها
وأولها مؤمننا بالإله
بنى هاشم قد تعاضم
أعباسكم كان سيف النبي
أعباسكم كان في بئر
أعباسكم قاتل المشرك
أعباسكم كوصي النبي
أعباسكم شرع المشرك
عجبت لمرتكب بغيه
يقول فينظم زور الكلا
(لكم حرمة هابى بيه
وكيف يجوز سهرم البين
بنا أنزل الله آى القرآن
لقد حارف القول عبد الإل

ورام اللحاق بأربها
الرؤسها مثل أذناها
وأول هادم أنصاتها
فخلوا المعالي لأصحابها
إذا أبدت الحرب عن ثابها
يذود الكتائب عن غابها
حين جهاداً ومالك أسلابها
ومعطي الرغاب لطلابها
ب وثق مقل أبوابها
غوى المقاتلة كتابها
م ، ويحكيم تميم أذهاها
ولكن بنو العم أولى بها
بنو العم ، أتى لغصابها
أتمون عن نص إسهابها
ه وقاس المطايا بركابها^(١)

ويشير الشعراء إلى تحاذل العباسيين أمام أعداء الأمة الإسلامية ، وانصرافهم إلى ضروب اللهو والعبث ، بينا الأعداء يتكالبون عليها من كل جانب على عكس الفاطميين الذين نلوا أنفسهم للجهاد ، والتصدى للخارجين في كل مكان .

وهو تصور قيم بطولية العزيم في ميدان القتال ومناجزة الأعداء فيقول^(٢) :

بدا لهم دارعاً في المعاج
كصبج بنا طالعاً من دجى
يكر ويسيم في موقف
هوى الكماق به قد بنا
ولم يخلل السيف منه يدا
ولم يسكن الزرع منه حشا
يقود إلى الحرب من جند
أسود رجال كاسيد الشرى

ويقول في مناسبة أحد الانتصارات بالشام مفتخراً :

(١) يقصد بهيد الإله عبد الله بن المعتز .

(٢) ديوانه ص ١٠ .

وإِنَّا لَنَقُومُ نُرُوعُ الزَّيَادَ وَلَسْنَا نُرَاعُ إِذَا مَا سَطَا
وَمَنَا الْإِلْمُ الْعَزِيزُ - الَّذِي بِهِ عَادَ سَيْفُ الْهَيْدَى مُتَضَيَّ
سعى للشام وقد أَصْبَحَتْ بِهَا الْحَرْبُ نَزَاعَةً لِلشُّبَى
ولما تَقَابَلَتِ الْجَحْفَلَاتُ وَعَادَ كَجَنَجِ الظَّلَامِ الضُّحَى
ولم يبقَ فِي الصَّفِّ مِنْ قَائِلٍ هَلُمَّ وَلَا مِنْ مُجِيبٍ أَنَا

ويقول ذاكرة العزيز ومنشدا بالبربريين حكام بغداد (١):

أُرِيَهُمْ وَقَعَاتٍ نَزِيدُ عَلَى وَقَعَاتِ الدُّهُورِ الْأَلَى
بِعِدَادٍ مِنْ ذِكْرهَا جَوْلَةٌ تُلَوِّدُ عَنْ الْمَارِقِينَ الْكَرَى
فَأَنْفَسُ دَلِيلُهَا تَغْتَسِي وَتَمْسِي عَلَى مِثْلِ جَمْرِ الْقَضَا
إِذَا سَجَعُوا بِالْإِلْمِ الْعَزِيزِ أَسَاعُوا الظُّنُونِ وَحَلَّوْا الْحَبَا
يَخَافُونَ مِنْ بَأْسِهِ وَقَعَةٌ تُلَوِّرُ عَلَيْهِمْ يَقْطِبُ الرُّحَا
يَنَادِي بُوَيْهَهُ بَنِيهِ بِهَا وَيَنْدُبُهُمْ وَهُوَ رَهْنُ الْبِلَا
وَقَدْ قَرَّبَ الْوَقْتُ فَلْيَاذُنُوا بِوَسْطِكَ الزُّوَالِ وَسُوءِ الْقَضَا

وكنا يتكرر هنا المعنى ، في مدح الشعراء للخلفاء الفاطميين وهنا داعي
الدعاة شمس الدين وقد جاء بعد تميم بن المعز بأكثر من نصف قرن من بلاد فارس
ليمدح الخليفة المستنصر بالله ، ويدور في مدحِهِ حول معاني ابن هانيء وتميم بن
المعز ، وإن أجمع في ذكر عناصر العقيدة ويبيان مكان الأئمة من الأمة ، ووجوب
الطاعة على الرعية ، وضلال المخالفين المعاندين ممن ينكرون دعوتهم .

ومن ذلك قوله بولاية الفاطميين (٢):

وَهُمْ أَوَّلُوا الْأَمْرَ أئِمَّةُ الْهَيْدَى عَصَمَةٌ مِنْ لَأَذِ بِهِمِ مِنَ الرُّدَى
مَفْرُوضَةٌ طَاعَتُهُمْ عَلَى الْأُمَمِ قَابِلِيَةٌ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ
إِقْرَأْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَا ثُمَّ أَوَّلِ الْأَمْرِ بِهِمِ مَوْصِلَا
ثَلَاثَ طَاعَاتٍ غَلَّتْ مَعْلُومَةٌ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مَنْظُومَةٌ

وهو ترجمة لقول المعز لدين الله : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَضَّلَنَا وَشَرَّفَنَا وَاخْتَصَّنَا
وَاصْطَفَانَا وَأَفْرَضَ طَاعَتَنَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَنَا أئِمَّةً عَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ » .

(١) ديوانه ص ١١ .

(٢) ديوان دعوى الدولة ص ٧١ .

ومنه تأويل بعض آى القرآن لصالح عبقة النبى ﷺ كآويلهم النجوم بأنهم أهله فى قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) (١) . فقال المؤيد بذلك فى شعره (٢) :

وبه فى القرآن قد أقسم الله به ، وحق بمثله الأقسام
إن معنى مواقع الأنجم الزحف يسر ، هم العبقة الهداة الكرام

موضوعات الشعر التقليدية :

وطبىعى أن تظل موضوعات الشعر التقليدية مجالاً لقرايح الشعراء ، وبظل المدىح على رأس تلك الموضوعات كثرة ، واهتماماً من الشعراء ، لأن المحترفين منهم خاصة كانوا يعتمدون عليه لكسب أرزاقهم .

ومن هنا كان مدىح التكسب أول درجات المدىح ، وأعمه بين شعراء العصر وكل العصور المتعاقبة ، ومن بعده مدىح التملك والقرى من الرؤساء ابتغاء الرضا والقبول ، ومنه مدىح الصداقة والعلاقة بين الأدباء أو مدىح الوفاء والرجاء .

وعلى رأس من مدحهم الشعراء خلفاء الفاطميين ، وكانوا يفهمون الشعر ويتلوهون ويحزون عليه الجوائز السنية .

ومدىح الخلفاء تدور معانيه حول معانى الإمامة الدينية ، وأحقيتهم فى وراثة النبى ، ومن بعد هذه المعانى الخاصة ، تأتى المعانى العامة التى اعتادها الشعراء فى المدىح من الصفات الأخلاقية ، والسداد ، وحفظ الرعية ، والدفاع عن حوزة المسلمين وحماهم ، ومتابعة الدين والعمل على منالفة أعدائه ، والعدل فى الرعية ورعاية شعوبهم ، وتوفير أسباب الطمأنينة لهم .

وما خص به خلفاء الفاطميين من معانى المدىح بلاغة المنطق ، وإجادة الخطب كإشارة تميم بن المعز فى مدىح أخيه العزيز بالله ، بقوله :

(١) سورة الواقعة آية ٦٥-٧٦ .

(٢) ديوانه ص ٧٦ .

وقعت بهم في منبر المُنك خاطباً
وأصنعت حتى ليس إلاك مُفصّل
تُبشّر طوراً بالإله وثارة
بياناً ووعظاً قد تناهت فيهما
وأثبت في الأسماع برهان حكمة
لأنك في بحر البلاغة مُعرق
بما لم يَقم ملكٌ سواك فيخطب
وأسهّت حتى ليس إلاك مُسهّب
تخوّف من عصيانه وثرهّب
كأنك لم يسبقك قسٌ ويعرّب
يُقصّر فيها من يقول فيطيب
وفي باحتى أرضي الثبوة مُنجب

ويركز تميم في مديحه لأخيه الخليفة على عرويته ، وأنه يتصدى لغير العرب من الزنج والترك والديلم الذين كادوا للإسلام وأضرروا بما ارتكبه من فتن وثورات .
يقول :

وما حازتلك الترك إلّا وبينها
وما جحلوا الحق الذي لك فضلُه
فإن يصبحوا تركاً وزنجياً وديلماً
ومدح الشعراء كبار الدولة ، وقادة جندها ووزراءها .

وكان يعقوب بن كلس من الممدحين ، مدحه كثير من شعراء العصر ، يقول
أبو البرقع :

لم يدع للعزیز فی سائر الأُر
ولمذا اجتباه دونَ سِواه
لم تُشيدْ له الوزارَةُ مجلداً
بل كسافها وقد تُخرمها الذهبُ
هكذا كَلَّ فاضلٌ : يدُ تُسبِ
فامتجره فليس يأمنُ إلّا
ض عدوا إلّا وأحمدَ نازة
واصطفاهُ لتَفسيه واختاره
لا ولا قبلَ رُفعتْ مِقْدَارُهُ
سرُ وكُدَ الخطوبُ بالبدلِ غارة
سى وتُضجى نفاةً ضرارة
من تقياً بظلي واستجاره

ومن موضوعاته التقليدية الهجاء ، وتناول الشعراء بألسنتهم رجال الدولة الكبار وبعض الموظفين ، والقائمين بأعمال إدارية كالقائمين على تحصيل المكوس الخاسين وغيرهم . كما تهاجى بعض الشعراء . من ذلك هجاء الشاعر عبد الودود القرطبي في ابن قادوس الديعاطي (١) :

(١) غرينة القصير ١ / ٤١٥ تحقيق عمر السويق .

تَسَلُّ فَلْأَيَّامَ بَشَرٍ وَتَعْيِشُ فَلَا تُثَعْمَى تَلَوُّمٌ وَلَا يَبُوسُ
وهي قصيدة طويلة يقول فيها :

وَقَالُوا ابْنُ قَادُوسٍ تَقْدُسُ اسْمُهُ وَمَنْ هُوَ قَادُوسٌ ، فَلَا كَانَ قَادُوسُ
أَيَا مِنْ غَدَا ضَلَا لِكَلِّ فَضِيلَةٍ وَنَجْمُهُ فِي طَالِجِ السَّعْدِ مِنْكَوسُ

ويعدُّ الواساني من أشهر الشعراء المهجائيين في العصر . وهو شامى يشبه في هجائه ابن الرومي لكثرة تعريضه بالعورات ، فقد هجا الوزير المصري منشأ الذي عينه الخليفة العزيز بالله مستولاً عن أعمال دمشق والشام فضائق الناس . وكان منشأ هنا يهودياً ، كرهه أهل الشام وتلأوه حتى اضطر العزيز إلى عزله ، قال الواساني (١) :

إِنْ يَنْشَأُ قَدْ زَادَ فِي الثَّيِّبِ وَزَادَ فِي شَاتِنَا تَعْلَبِ
فَلَا ابْنَ هَيْدٍ ، وَلَا ابْنَ ذِي يَزِيدٍ وَلَا ابْنَ مَاءِ السَّمَا يُدَانِيهِ
وَهُوَ مَغِيظٌ عَلَى الْوَصَى وَمِنْ يُعْزَى إِلَيْهِ وَمِنْ يُؤَالِيهِ
يُذَكِّرُ أَيَّامَ خَيْبَرٍ بِهِمْ وَهُمْ قَدْ جَعَلَ فِي مَاقِيهِ

وهجا بعضهم القضاة لجورهم في الأحكام أو ميلهم مع الهوى ، أو تقاضيتهم الرشوة . قال أبو الشرف الدجرجاوى (٢) :

قَاضٍ إِذَا انْفَصَلَ الْخِصْمَانِ رَدَّهَا إِلَى الْخِصْمِ بِحُكْمٍ غَيْرِ مُنْفَعِلٍ
يُتَبَيُّ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا جَهْرًا وَيُقْبَلُ سِرًّا بَعْرَةُ الْجَمَلِ
مُهْلَلُ النَّهْرِ لَا فِي وَقْتِ هَيْلَلَةٍ وَيَلْزِمُ الصَّمْتَ وَقْتَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَمَا أَسْمِي لَكُنْتُ نَعْتُ لَكُمْ نَعْتُ أَدْلُكُمْ فِيهِ عَلَى الرَّجُلِ

ومن الشعراء المهجائيين الحسين بن بشر (٣) :

واكثر من هجاء الوزير يعقوب بن كلس ، وعرض برفع العزيز للنصارى وأهل الكتاب بمشورة وزيره . يقول :

(١) بئمة الدر ١/ ٤١١ .
(٢) المحرقة ٢/ ٦٦ (قسم شعراء مصر) .
(٣) اللؤلؤ بالرفيات ١٢/ ٣٤٢ .

تَنْصَرُّ فَالتَّصَرُّ دِينَ حَقٌّ عليه زماننا هذا يدلُّ
فيعقوبُ الوزيرُ أبٌ ، وهذا الـ عزيزُ ابنِ ، وروح القدس فضلُ

الوصف :

والوصف هو أقرب موضوعات الشعر إلى الفن ، وإلى روح الشعر .
ففيه تتجلى أحاسيس الشاعر ، ومواقفه من الأشياء ، وتلوه لجمال الجمال في
الطبيعة .

وحظيت بعض منارة القاهرة ومعالمها ، بل معالم مصر شمالا وجنوبا ومشاهد
الطبيعة ، وعناصر حسناتها وبنائاتها بقدر كبير من اهتمام الشعراء ، ونجليات
قرائحهم .

يأتى النيل ومناظره ، وشواطئه ، ومهرجان وفاته وكسر الخليج في مقدمتها .
قال نعيم بن المعز (١) :

نظرتُ إلى النيل في مئة بموج يزيد ولا ينقصُ
كانَ معاطف أمواجهِ معاطف جارية ترقصُ
ويقول (٢) :

يومٌ لنا بالنيل عتصرُ ولكل يوم مسرة قصرُ
والسفنُ تصعدُ كالخيول بنا في موجِ الماء ، ينحيرُ
فكأنما أمواجه عكنُ وكأنما داراه سرُ

وجدير بالملاحظة احساس المتعة في شعر نعيم ، وربطه لذة المتعة بالنيل بلذة
النساء في مجالها ، فيشبه موج النيل بمعاطف الجارية الراقصة وبجسد المرأة عارية ،
وما يجتذب مراً الرجل فيه من متعة جسدية ، عكن وسرر .

ويصف مشاهد النيل في حلوان فيقول (٣) : (يصف نزهة في مركب نيلي
بحلوان) :

(١) ديوانه ص ٢٥٥ .
(٢) ديوانه ص ٢٤١ .
(٣) ديوانه ص ٣٢٤ .

ياحبذا حلوان فالتيل
رحت ومركبي به أدهم
كأنه في التيل زنجية
والتيل في روثي شمس الضحى
حتى إذا ما درجته الصبا
فهو لمن أبصر جوشن
أو حبك ترصيعها جوهر

ربع بحسن اللوى ماغور
على جناح للريح عمور
ها من الموج أكاليل
سى سيف صيقل والمتن مسلول
ماج منه العرض والطول
على بهاد الأرض مسلول
مبلد فيهن علسول

ومن الشعراء الوافدين من المغرب أو المشرق من وقف أمام نيل مصر معجبا
كالفقيه أبى الفضل يوسف المعروف بأبن النحوى (ولد سنة ٥١٣ هـ) .
قال (١) :

أين مصر وأين سكّان مصر
حدثاني عن نيل مصر فأني
رق قلبي حتى لقد جدت للقي
ما ترائي أبكي على كل ربع
روشن من رواشن (٢) التيل خير
ومن القصر قصر شاداك المش
إن مصرأ لها مقان لعمري
هذه الأرض إنما هي را

بيننا شقة الثوى والبعاد
منذ فارقه إلى الماء صادي
ه عين أبدي الزوار والعواد
ما ترائي أهم في كل وادي
يعد من دجلة ومن بغداد
رف المرتقى ، ومن سيناد (٣)
قد تأت على جميع البلاد
د البكا حاجبي إلى الإسعاد

ويبدو النيل أجمل وأبهى في أيام الإحتفالات والمناسبات والأعياد ، وفي يوم
الاحتفال بوفاء النيل ، وكسر الخليج والمهرجان . ووصف الشعراء هنا فقال أمية
بن أبى الصلت يوم المهرجان واحتفال الوزير الأفضل بن بدر الجمالي له قال ،
وكتب بها إلى الوزير (٤) :

أبدعت للناس منظراً عجبا
جمعت بين الضنن مقتلرا

لازت تحيي السرور والطرا
فمن رأى الماء خالط للها

(١) غريدة القصر قسم شعراء المغرب ٤٠٦/١ .

(٢) الروشن : الشقة .

(٣) شاداك ملك من ملوك اليمن بنى قصرا مشهورا في الطرخ وأما سنداد قصر عظيم كان بالكوفة .

(٤) الخريدة ١ / ٥ قسم شعراء المغرب تحقيق عمر السقوي وعبد العظيم .

كأنما النيل والشموعُ به أفقُ مساءٍ تآلقتْ شُهبا
قد كانَ من بضبةِ قصيرِ توقدُ النارُ فوقه ذُهبا

يسجل الشاعر هنا منظر النيل وقد أوقدت على شواطئه الشموع ، واحتفى الوزير فأوقد من الشموع على شاطئه ما تلالأت أضواؤها على مياهه ، فبدت سماء تناثرت فوقها الشهب .

وكان الخلفاء والوزراء في مصر أيام الفاطميين يحتفلون يوم كسر الخليج . قال المقرئ (١) : « يجلس الخليفة في عيخته الكبيرة غربي النيل قرب قطرة السكره ويتقدم إليه أحد رجاله ويسعى النائب فيقدم الشعراء حسب منازلهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإنشاد . وفي إحدى تلك المناسبات تقدم شاعر يقال له ابن جبر وأنشد :

فَنَحَ الخليجُ فسأل منه الماء وعلث عليه الرأبة البيضاء
وصفت موارده لنا فكأنه كف الإمام فعرّفها إعطاء

فانتقد الناس عليه في قوله : « فسأل منه الماء » ، وقالوا : أى شيء يخرج من البحر غير الماء ؟ . فضيع ما قاله بعد هذا المطلع .

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جبر ، وأنشد :

ملازل هنا السد ينظر فتحه إذن الخليفة بالثوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجهه وسطا عليه كل حامي لمعول
فجري كأن قد ديف فيه عنبر يعلوه كافر بطن بطيب التل

فانتقدوا عليه أيضا قوله في البيت الثاني ، وقالوا أهلك وجه الإمام بسطوات المعلول عليه ، وإن كان يقصد فتح السد ، بالمعول ، لكن نظمه كان قلقا . ثم تقدم شاعر شاهد يقال له كالى الدولة أبو العباس أحمد وأنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضي الأثير ابن سنان ، فإنه عملها بحضوره بديا :

لمن اجتماع الناس في ذا المشهد للتل أم لك يا ابن بنت محمد
أتم لاجتماعكما معاً في موطن وافئتما فيه لأصدق موعد

(١) الخطوط ١ / ٤٧٨ .

ليس اجتماع الخلق إلا للذي
شكروا لكل منكم لوفائه
ولئن إذا اعتمد الوفاء قبيلة
هذا بقي ويعود يتقص تارة
وقواه إن بلغ النهاية قصرت
فالآن قد ضاقت مسالك سعيه
فاذا أردت صلاحه فافتح له
وأمر بقصد العرق منه فما شكا
واسلم إلى أمثال يوبك هكذا

فأمر له على الفور بخمسين ديناراً ، وخلع عليه ، وزيد بجارية .

ومن مشاهد الطبيعة المصرية التي حظيت باهتمام شعراء العصر بركة
الحبش^(١) . وبما اهتموا به بعض الأديرة ، وكان موضوع الأديرة ، وما حولها من
منارة وبساتين وما فيها من شراب ، وما يدور من احتفالات دينية .

كان هذا كله يستهوي شعراء العصر كما استهوى الشعراء في بغداد وغيرها من
البلاد العربية . ومن أشهر الأديرة التي نالت حظوة الشعراء واستأثرت بقصائد
عبثت عن مناسبات مختلفة لهم فيها « دير القصير » بالمقطم قرب القسطنطينية^(٢) .
قال الشاعر محمد بن عاصم الموقفي من شعراء البيتمة^(٣) :

إن دير القصير حاج اذكاري
وزماناً مضى حبيلاً سريعاً
عزفتي ربوعه بعد نكبي
ولو أن الديار تشكو اشتياقاً
ولكدت نحوي تسير لما قد
وكأني إذ زرته بعد هجري
إذ صعدى على الجياذ إليه

هو أيامي الحسان القصلي
وشباباً مثل الرداء المعلي
فعرفت الربوع بالإنكلي
لشكت جفوني وبعد مراري
كنت فيها سيرت من أشعري
لم يكن من منازلٍ ودناري
واغداري في المصحات الجوزي

(١) راجع ما جاء عنها في الجزء الأول من الكتاب .

(٢) راجع ما جاء عنه بالجزء الأول من الكتاب .

(٣) بيضة النمر ١٢/١ .

وكلاب على الخوشن ضواري
ولنفسى فيه من الأوطار
والمصايح حوله كاللوارى
ع مشياً بمفرق المستطار
بصفار عثونة وكبار
فتنة للقلوب والأبصار
عن سماع العبدان والمزارى
ساء منها وتخذها الجنارى
هى فيه ولا نأى نى مزارى
قدير القصير صوب العشارى
بنعيم الرهبان فى الأسارى
حصى ياناباً على الانكسار
سد بلبل معاقب بنهار
وعلى المستعير رد العواري

بعقور إلى الدماء صواري
منزلاً لست عصياً ما لقلبي
منزلاً فى غلوه كسماء
كم خلعت العنار فيه ولم أر
كم شربنا على التصاوير فيه
صورة من مصور فيه ظلت
أطربنا من غير شئ فأغثت
لا وحسن العينين والشفة اللعيب
لا تخلفت عن مزارى ذرأ
فسقى الله أرض حلوان فالتخل
كم تنهت من لذائذ نوى
والنواقيس صالحات ثنائى
قبل أن يتلى الجديد الجديد
إنما هذه الحياة عواري

والقصيدة هنا حلم يقظة يسترجع فيها الشاعر أوقاتا سعيدة له قضاها بدير
القصر ، مستعرضاً مشاهد متعته به ورحلته إليه ، وما كان يفعله من تصيد
بالخيول والطير الضواري وكلاب الصيد فى تلال المقطم ، وأنشأ إلى النيل مصعداً
إلى حلوان على الجوارى السابحات ، أو تنزه بمنزله حلوان وساتين النخيل من
حولها .

وتخص بالحدث الدير ، فوصف وضعه مشرفاً على مكان عالٍ : « منزلاً فى
علوه كسماء » .

ويستريحه ضوء المصايح من حوله تبدو كاللوارى أو كالنجوم .

فالصورة التى يرميها له مقبلاً عليه ، تستدعى صورة السماء بنجومها ،
فالسما للعلو والرفعة ، والنجوم للمصايح المتألقة حوله أو تطل أنوارها من
منافذه ويستريحه من جئاته وساتيه صوت الطيور ، واعتماده أصوات الطيور
لبعث الإحساس بالساتين والشجر من حوله تحوّل بمخاطبة الوجدان ، أو تمثل
مشاهد الجمال من مدارك البصر إلى مدارك السمع ، ويستخدم اللفظ المناسب

للطير تعبيرا عن الأثر النفسى فيقول : « فطارت بفؤاد المنيم المستطار » وإن بدت في تراكيبه وأبنية لفظة بعض الكلفة .

وينتقل إلى داخل الدير ، وما كان يفعله من تحرر من قيود الحياة وتكاليف العمر ، فهو قد غادر سن الشباب ، سن المتعة ، والأخذ بأسباب الحياة ، إلا أن الدير وما فيه من مغان قد استفزه ، وعاد به إلى الشباب فخرج عن ثوب الشيب ليعود من جديد إلى حياة الشباب ، اللهو ، والشراب والمتعة .

ويصف الشراب ، ويعود إلى مشاهد البصر فيسترعيه التصاوير على جدران الدير ، وتفتنه الصور ، وصنعة المصور فيقف أمامها وقفة مستمل مستمتع بهجة الجمال الذى يطرب صامتا ، وهنا يمزج بين فتنه البصر وفتنه السمع :

« أطربتنا من غير شئٍ فأغثت عن سمّاع العيدان والمزمار »
ويمضى الشاعر في وصف صور الدير :

ولا وحوّر العينين والشنة اللَّمِيمِ ساءَ منها وخَلَّها الجُلَّتاري
لا تخَلَّفْتُ عن مزارى دبراً هى فيه ولا نأى بى مزارى
ويدعو لهذا الدير وما حوله من منازة حلوان بالخمر ، لأنه أسعده في حياته كثيرا ، فكُم تنبّه من نومه على صوت الرهبان يرتلون بالأسحار وصوت النواقيس تفرع في البكور .

ويختتم بتذكر آتية الحياة ، وقصر العمر ، وأن تعاقب الزمان يأتيه الليل والنهار سيختم هذه العارية ، ويعود الحياة إلى بارئها :

إنما هذِهِ الحَيَاةُ عَواري وعلى المستجير رُدُّ العَواري

وهذه القصيدة الوصفية لدير القصير جنوبى الفسطاط تمثل نموذجا فذا في هذا اللون الوصفى ، فقد نفّضَ الشاعر فيها أحاسيسه واجترّ ذكرياته وانطباعاته ، ثم ارتد بعدها إلى نفسه ليعبر عن آتية الحياة ، ذلك الإحساس الذى يورّق الإنسان — كل إنسان على الأرض .

وهذا الدير قديم ، يقول عنه الشافعى :

« دبر القصر قرب حلوان ، هو على رأس جبل مشرف على النيل ، وغاية في النزاهة والحسن ، وفيه صورة السيدة مريم ، وفي حجرها المسيح ، كان حماروية بن أحمد بن طولون يكثر غشياته للشرب على الصورة . وقد أمر الحاكم بأمر الله بهدمه لكثرة ما يقع بالدير من آثام !! » .

وصف مباهج الفاطميين وقصورهم :

ومن ذلك وصف مواكب الخلفاء في الأعياد ، وكانوا يحتفلون بها ، ويكسبون الأعياد مظاهر البهجة والأبهة تتجلى في قول تميم بن المعز يصف موكب الخليفة العزيز بالله يوم عيد الفطر من قصره إلى المسجد لصلاة العيد . يقول (١) :

من الله للمرضيِّك فيه بشيرُ	هنيئاً لك العيد الذي أنت بالرضا
تكاذ به الأرضُ القضاء تمورُ	برزت كبدٍ التَّم تقلمُ تجحفلا
وللاسد ركض تحتها وزئيرُ	فلليضي برق في أعاليه خاطفُ
لما القوها سندسٌ وحيرُ	كان الدروعُ السابغاتِ عليهمُ
وكلهم صالَى الضميرِ شكورُ	وقد منحوك اللحظ من كل جانبُ
ومن أصبح منهم إليك تُشيرُ	فمن مقلّة منهم عليك حيسةُ
عليك المصلّي أو أتاك تُسيرُ	ولو نطقت أحجارُ أرضٍ لسلمتُ
له بك فضل لا يُنال كبيرُ	فلما بلغت المنبر الطاهر الذي
خطيباً، وكلّ اللحظ عنك حسيرُ	تواضعت للرحمن ثم علوته
تفجر منها للصواب بحورُ	وأسهبت في حمد الإله بخطبةُ

ومن الموضوعات الشيقة في الشعر وصف مظاهر الترف المادي في قصور الخلفاء ، وما على جدرانها من صور تمثل اهتمام الفنان المصري برسم وتصوير مشاهد الحياة والناس ، في تشكيل مجمع يبعث المسرة في النفوس .

يقول عمارة الجني (٢) في وصف الصور والتماثيل ، ويديع الزخرف في قاعات أحد قصور بني زُرّيك ، مخاطباً صاحبه :

أنشأت فيها للعيونِ بدائياً	زُرتُ، فأذهل حُسْنُهما من أبصرَا
فمن الرخام مسوراً ومُسهما	ومنمنماً ، ومدرهماً ، ومُدترا

(١) ديوانه ص ١٤٣ .

(٢) النكت المصرية ص ١٠٣ .

العاج بين الآبنوس كأنه
قد كان منظرها يهيجاً راقياً
ألبستها يفض السور وحرها
فمجالس كسيت رقيماً أيضاً
لم يبق نوع، صابت أو تالطقت
فيها حدائق لم تجدها ديمة
والطير قد وقفت على أغصانها.
لا تعلم الأبصار بين مروجها
أنست نواقر طيرها بسياعها
وبها زرافات كأن رقابها
نوبة المناشئ بك من المها
جبلت على الإقعاء من إعجابها

أرض من الكافور ثبتت عبثاً
فجعلتها بالوشي أبهى منظرًا
فانت كزهر الروطى أبيض أحمرًا
ومجالس كسيت طويماً أخضرًا
إلا غدا فيها الجميع مصوراً
أبدًا، ولا زنت على وجوه الثرى
وعلموها لم تستطع أن تُقرأ
ليثاً، ولا ظيها برجرة أعفرًا
فظبلوها لا تنقى أسد الشرا
في أطول ألوية ثوب المسكرا
رؤفاً ومن بزل المهاري مشفراً
فتخالها للشيء تمشي الفهرا

وهيك عمارة في هذا التسجيل الشعري لقصر آل رنك ما جمع القصر من
حدائق وحيوان . ويستريح الزراف بخلفته الغريبة التي تجمع بين الغزلان والثور .

وصف الغناء والموسيقى :

ولاهتمام الفاطميين بالسماع والطرب ، وإقبال الناس في أعيادهم ومناسباتهم
السارة على الموسيقى والغناء ، ترددت في الشعر صور مجالس الغناء وآلات الطرب
وصور المغنين والمغنيات . وأكثر تميم بن المعز من ذكر مجالس الغناء والمغنى
(وكذلك فعل الشريف العقيلي) .

وظهر في هذا العصر الفاطمي في مصر ضرب من الغناء عُرف « بالزكالكش »
كان يُغنى فيه بالنظم العامى من مثل :

فديتك أين ما قد كنت قلتي أحلتي عن مودتنا وزلتي

وقد غنى به المغنون تميم بن المعز^(١)، كما نظم هو لهم للغناء فيه . وما قاله أحد
الشعراء في وصف غناء مغنٍّ^(٢) :

(١) ديوانه ص ٨٥ .

(٢) الحديقة : قسم شعراء المغرب ١ / ٦٠ .

إذا غَنَّى يُزِيلُ الهمَّ عَنَّا وَيَأْتِينَا بِمَا نَهْوَاهُ مِنْهُ
 له وَثَرٌ يَطْلُبُ كُلَّ هَمٍّ يَوْتِرُ ، فَالْهُمُومُ تَقَرُّ مِنْهُ
 ويتصل بالغناء وصف آلات الطرب كالعود ، والناي ، والمزهر ، والطنبل ،
 والدَّفْ وما إليها .

فمما وصف به تميم العود قوله^(١) :

شكا العودُ بالآوتار شجواً فأطربا وترجم عن معني الضمير فأعربها
 فلم أرَ شاكٍ مثله بثَّ شجوهُ فافرح محزوناً وفكَّ مُعذَّباً
 وقال أيضا^(٢) :

وقد حكى العودُ أنينَ الهوى لكنه جودَ لِمَا حَكَى
 وقال^(٣) :

فلما استوى نطقُ أوتاره حكى نقرها حسنَ لفظِ الحبيب
 تُجسُّ الأناملُ دُستانهُ^(٤) كما جسَّ عرقَ العليلِ الطيب
 فيسبغُنا خركاتِ السُرور ويكشفُ عَنَّا بناتِ الكرب
 وما قاله في الناي ، وهو يحلور المزهر في جوق الموسيقى^(٥) :

أما ترى كيف نادى النايُ مزهرهُ : وأذن الطبلُ : اللّهُو للزّل
 والنأي يشكو لي عَجْظِي ضيائتُهُ شكوى الحبِّ إلى المحبوبِ في مهل
 كأنَّ ضجّة صوّبَ الطبلُ بينهما ضجيجُ عزٍّ أرى المتصور في النولِ

ولكلف بعض شعراء العصر بالغناء والموسيقى بَدَلُوا بوصف مجالسه قصائد
 الملبَّح على غير عادة شعراء العرب ، وربما كان هذا الاتجاه منهم تطويراً لاتجاه
 بعض شعراء بغداد في عصر العباسيين من أمثال أبي نواس يبدع قصائدهم
 بوصف الخمر ومجالس الغناء .

(١) ديوانه ص ٤٩ .

(٢) ديوانه ص ٣٠٤ .

(٣) ديوانه ص ٧٤ .

(٤) الممتعات بجمع لوتر العود في عتقه .

(٥) ديوانه ص ٣٢٤ ، ولحنك — قلري اسم آلة موسيقية .

ولم يتخرج تميم بن المعز وهو الأمير الشاعر من بدء قصائد المدح لوالده المعز لدين الله ، وأخيه الخليفة العزيز بالله بلذكر الغناء ومجالسه . والتخلص تخلصاً لطيفاً ليربط الغناء بالمدح ، كما كان يتخلص الشعراء من النسيب والغزل إلى ذكر المملوح في المدح التقليدي .

وكما أنهم أعجبوا بالغناء الجميل ، من المطرب المجيد المتقن صاحب الصوت الطلي المعجب ، ضاقوا بغناء غير المحسن الذي يتصدى للغناء دون صوت طلي ، ولا صورة ترخ السامعين .

يقول الشاعر الصقلي^(١) :

ومغنٌ لو تَغَنَّى	لك صوتين لثنا
سميح الخلقبة غت	ينحت الأذان نحتا
ويغنى ما أنتهه	لا يغنى ما أردنا
كلما قال : اقترح	قلت : اقترجى لو سكتنا !!

والشاعر يجيد التعبير عن جفاء غناء هذا المغنى ، وقبح وقع صوته على الأذان بقوله « ينحت الأذان نحتا » .

ويقول في مغنٍ قبيح :

غنى كمن قد صاح في خايبة	لا وهب الله له العافية !
ما أحد يسمعه مرة	فهيتهى يسمعه ثانية

ويقول :

ومغنٌ غن من	بين أسقام وكرية
يضربُ العودَ ولكن	ضربه يُوجبُ ضربة

يصف أمية بن أبى الصلت (الحكيم) أحد المغنين بجودة الغناء وقبح الوجه فيقول :

مُسِمِّعًا ما في الزمان له يُند	ولكنه في قبيح صورته فود
تباين حاله ، فهنا يهجو	إذا ما سمّت حال تحيقها الضد

(١) هو أبو عبد الله الطوسي . الخريدة قسم شعراء المغرب ١/ ٦ وذكره المسبجي عن لثيم من الشعراء بمصر .

وَيُطْرِفُ طَرْفِي حِينَ يَلْحَقُ وَجْهَهُ
تَعَادَلُ مَرَاهُ بِأَحْسَابِ فِعْلِهِ
هُ وَيَنْعَمُ سَمْعِي ذُوهُ عِنْدَمَا يَشْتَلُو
بِخِصَاءٍ، فَلَا تَخْسُ يَوْمٌ، وَلَا سَقْدُ

ويتصل بالغناء ، والموسيقى الرقص . يقول الشاعر في وصف راقصة (١) :

وراقصة كالغُصْنِ من فوقه
تُلْهُبُ مِثْلَ النَّارِ فِي رَقْصِهَا
بَلَرَّ يُبِيرُ تَحْتَ ظِلْمَاءِ
وَهِيَ مِنَ التَّعْمَةِ كَالْمَاءِ
كَأَنَّمَا فِي رِجْلِهَا عُوْذُهَا
سَاحِرَةٌ الرِّقْصِ غَلَامِيَّةٌ
إِذَا بَلَّتْ تَرْقُصُ مَا يَبْتَئَا
فِيهَا دَوَائِي وَبِهَا دَائِي
يَرْقُصُ قَلْبِي بَيْنَ أَحْشَائِي

ومن علامات النوق المترف ، المتشلى لمعان الحياة وزيتها الاهتمام بالزهر على اختلاف أشكاله وألوانه ، فقد عنى الشعراء بالزهر ووصفوه ، وأعجبوا بحسن كل نوع منه وصوروه .

يقول تميم بن المعز يصف الزهر المتعدد الألوان من بنفسج ورنجس وورد في بستان وقت الريح (٢) :

لعمرك إنما الدنيا عروسٌ
بنفسجها ورنجسها ووردٌ
جلاها القيث من تحت الثقاب
يخضاب في يَخْضَابٍ فِي يَخْضَابٍ

ويقول في البنفسج وقد اهدى إليه أخوه العزيز باقة منه (٣) :

مَدَّ الْعَزِيزُ يَمِينَهُ يَنْفَسِجُ
فَكَانَ زُرْقَتَهُ عَلَى مُحَرَّمِهَا
وَبُورِدُوْهُ مَقْطُوعَةٌ لَمْ تُنْهَجْ
أَثَرُ يَحْكُدُ نَاعِمٍ مُتَضَرِّجُ

وقال في السوسن من أبيات بعث بها إلى أخيه العزيز ومعها سنبله وسوسن أحمر :

إِلَى بَعْدَتْ طَرِيفًا وَهِيَ سُنْبُلَةٌ
وَسُوسَنًا تَمَّ مَرَاهُ وَخَبِيرَةٌ
تَمَّتْ، فَتَمَّ لِرَائِهَا الْأَعَايِبُ
فَقَدْ تَكَامَلَ فِيهِ الْحُسْنُ وَالطَّيْبُ
لَهُ بَتَانٌ مِنَ الْجَنَائِ مَحْضُوبُ
كَأَن مِصْصَهُ بِالْكَفِّ مُتَّصِلُ

(١) التخريلة قسم شعراء المغرب ص ٦٠ .

(٢) ديوانه ص ٥٨ .

(٣) ديوانه ص ٨٠ .

وقال يصف اليا سمينَ والجُرْمَ (١) :

وأصفرَ من ياسمينِ الرِّياضِ يلوخُ على زُرْقَةِ الخُرْمِ
فثبَّتَ هذا بالسُّمِّ بَلَّتْ في صفارٍ من الأنجمِ
أو الشرِّ المستمرِ الَّذي تطأيرَ عن قبرٍ مُضْربِ
ويصف زهرَ الثَّلَوفِ على بركةٍ وقد طفا يسبحُ مرهوا :

وبركةٍ تزهو بتلَوِّفِ نسيمةٍ يُشبهُ نشرَ الحبيبِ
مفتُحَ الأجفانِ مِنْ نومي حتَّى إذا الشمسُ دنتُ للمعيبِ
أطبقُ جفنيهِ على خديهِ وغاصَ في البركةِ خوفَ الرقيبِ
وذكره وقد امسكت به فتاةً وأشارت إليه مُداعبةً (٢) :

يا حبيبا ثومي بتلَوِّفِ قد ركبته فوق غنائه
ثشمه طورا وأرواحها على زناح الثور غلافة
فقلت: نيلوفة هذو؟ أم بفراوى أنت لها؟!

شعر المطاعم والدعوة إلى الطعام :

وظهر بصورة واضحة في شعر العصر الوصف للطعام بألوانه ، والدعوة للمآدب ، ويحكى الشريف العقيلي في شعره صورا لألوان من الطعام وأوصاف لمآدبه ، والدعوة إليها على نحو لا نجد في شعر من سبقوه .

والزائسائي قصيدة فكاهية طويلة نادرة يصور فيها دعوة على الطعام ، ويرسم كيف جاء المدعويون في حيات مضحكة ، وكيف تناولوا طعامه ، فجلعوا على ما كان أعداه ، وكلَّ قد بدا متحفزا للوليمة يطعم منها ، وبما أعد بها من شراب ، وألوان شواء .

وكانت هذه القصيدة الفريدة بمناسبة عقد قران . يقول في ختامها :

لم يكن القرآنَ إلا على شؤي مي، فويل من نخس ذاك القِران

(١) الخُرْم نبات كاللبلبا له ورق قبل العرض يتفجى اللون ، وله رائحة حسنة .

(٢) ديوانه ص ٤٩ .

واعجبت العاللي أياتها فقال : « قد أحسن في هذه القصيدة غاية الإحسان ، وأبان فيها عن مغزاه أحسن بيان ، وتصرف فيها وأطال وأمكنه القول فقال » (١) :

من لعيني تجودُ بالهملاين ولقلب مدله وهاين
ياغليلي أقصيرا عن ملايني وارثيا لي من نكيتي وارحماني
يقول فيها :

ماالذي ساقنى الحينى إلى حتفى ؟ وما عالى ، وماذا . دهاينى
من عذيرى من دعوة أوهنت عظمى ، وهدت بيولها أركانى
يقول :

كان عيشى صافيا فكثره أهد سل صفائى بنو أئى صفوان
فارزوا لي بامشتر الناس من ضرى ، ومن طول عطلى وانتخابى
ضرب البوق فى دمشق وناذوا لتفتائى فى سائر البلدان
هل سمعتم بممشر جمعا الخيل وساروا فى الرجل والفرسان
رحلوا من يوتهم ليلة المر فع من أجل أكلة مجان
لست أنسى مصيبتى يوم جاورنى وقد غص منهم الواديان
ورزوا ليلة الخميس علينا فى تخميس ملو الرها والمحاني
يقلم القوم هاشمى هربث الشد سدى رحب الجعى طويل المسان
هر نمس الدجاج والبطة والإرز ، وذئب النعاج والجرفسان
واهتم الشعر بجوانب الحياة الجادة ، وهو مهملها وصراعاتها .

ومن جاد الموضوعات فى الشعر نقد الحياة والمجتمع ، وتناول بعض قضايا العقيدة من الجوانب الفكرية والفلسفية . وظهر أبو العلاء المعرى مبرزا فى هذا الجانب فى القرن الخامس الهجرى ، فكان شعره سجلا لأفكاره وآرائه فى الحياة والناس والدين والمجتمع ، والسلوك والأخلاق . ويقول محمد كامل حسين (٢) : « فالمعرى فى ديوان اللزومات ليس بشاعر ، وإنما هو ناظم صاغ آرائه فى قالب الشعر ،

(١) بنية النحر ١/ ٤٢٤-٤٢٥ .

(٢) ديوانه المتهجد ص ١٥ المقدمة وراجع حديثا عن أئى العلاء بعد

والتزم فيه ألبانا من القوافي وضروب الوزن ، فكان تقيده بما لا يلزم ، وما حمل ألفاظه من آراء علمية وفلسفية سببا في أن يبعد ديوان اللزوميات عن دائرة الشعر الخالص ويجعله أقرب إلى النظم منه إلى الشعر .

ومن موضوعات شعر العصر غير التقليدية وصف الرسائل وتقريبها فمن ذلك قول ابن أبي الصلت في رسالة بعث بها إليه أحد أصدقائه — أير الضوء^(١) :

أبا الضوء وإفاني كتابك يزدهي به الثُّرُّ من تلك البلاغة والنظم
كتاب لو استدعى به العُصم قانص لم استعصمت من أن تخجله العُصم
ولما ففضضت الختم عنه تَضَوَّعت لطيمة سقر فض عن مسكها الختم
وسرحت طرقي في رياض محاسن وشأها الحيا المنهل ، بل علمك الجَم
ويقول آخر :

كتاب نفي اكشاكى به ونلت الأمانى بظل الأمان
أنى من بعيد مرامى الضمير والفكر مرف غرب اللسان
ذرى فى الترسيل بابي العميد كما قد شأى فى القرىض ابن هانىء
فتقرب من فرجى من كل ناء وأبعد من ترعى كل داني
صفى نأى ودنا ذكره فتاب السماع مناب العيان

قال الشاعر ابن البشائر البلتونى — ممن وفد على الأفضل — فى وصف كتاب^(٢) :

وصل الكتاب وكان آنس وأصل عندى وأنس قادم لقاء
لا شيء أنفس منه مهذى جامعا شمل المعانى للذى أهداه
ففضضته وجعلت الأثم كل ما كتيه أو مرت عليه يده
وفهمت مودعة فرحت ببطية جنلان مبهجا بما أداه
وعجبت من لفظ تناسق فيه ما أعلاه ، ما أجلاه ، ما أحلاه
كالروض باكرة الحيا فتفتحت أزهاره ، وتضوعت رياه

(١) خرقة القمر ١/ ٢٤٦ .

(٢) الخرقة قسم شعراء المغرب ١/ ١٥٠ .

كالعقد وصل للؤلؤ وزجداً فتقابلت أولاه مع آخراه
در ترقيع قدره عن قيمة منظومة كبراه مع صغراه

لغة الشعر وموسيقاه :

اعتمد الشعر في هذا العصر لغة الشعر العربي في القرن الرابع ، ودخل البديع عنصراً فنياً من عناصر التعبير دون إسراف أول الأمر ، حتى كان القرن الخامس فزاد اهتمام الشعراء بالبديع ، وأسرف بعضهم فيه ، وبخاصة في بديع اللفظ من جناس ، ومقابلات ، وطباق ، وترصيع وتوشيح وتوشيع .

وظهرت في آخريات عصر الفاطميين في الشام ألوان من الشعر عرفت بالمجانس يعدد فيها الشعراء إلى التجنيس في القافية ، وهو مغالاة فيما التزمه أبو العلاء المعري في لزومياته .

وكان لوفود الشعراء إلى مصر من المشرق والمغرب أثره في ظهور ألوان فنية متعددة اختلطت وتزولجت ، ونتج عنها ألوان من التعبير والصياغة ينتمي بعضها إلى أصول مشرقية ، وبعضها إلى أصول مغربية أو أندلسية وبدأت تظهر صور مبكرة للتوشيح أو ألوان مشابهة من النظم خارجة على نظام القصيدة منذ القرن الرابع الهجري من مثل قول تميم بن المعز :

دمُ العُشَّاقِ مَطْلُوبٌ وَدَيْنُ الْحَبِّ مَحْطُوبٌ
وَسَيْفُ اللَّحِظِ مَسْلُوبٌ وَمَيْدَى الْحُبِّ مَعْلُوبٌ
وإن لم يصغ للأكم

وأحرر ساحر الطرف يفوق جوامع الحب
مليح الدلّ والظرف جنت ألاحظه حفي
فمن يُعدى على الظالم

يُعْتَفَى عَلَى حُبِّي وَيُهْجَرُنِي بِلَا ذَنْبٍ
كَأَنِّي لَسْتُ بِالصَّبِّ لِقَهْوَةِ رَيْحِ الْعَذَبِ
أما في الحب من رآجِم

على أن هذه الصورة المبكرة للموشح في شعر تميم بن المعز نادرة في القرن الرابع إلا أننا نعث في القرنين الخامس والسادس من العصر الفاطمي على صور

أخرى لنظم الموشح ، ومن نظموه في القرن الخامس في آخره وأوائل السادس على
بن عباد الإسكندري : قال العماد الأصهباني في ترجمته^(١) : « وقرأت له في
مجموع في مدح محمد بن أبي أسامة كلمة ذات أوزان موشحة :

يا من ألوذ بظله في كل خطب معضل
لازلت من أصحابه متماسكا بيد السلامة
آمنا من بأس
في الحوادث والظروف
وأعوذ منه لفضله في كل أمر مشكل
ما لاح فجر صوابه كالشمس من خلف الغمامة
لا تميل إلى شماس
دون موضعها الشريف

ومن نظم الموشح من المصريين في القرن الخامس أو أوائل السادس ظافر
الحداد الإسكندري .^(٢)

(١) الخريدة شعراء مصر ١/ ٤٤ .

(٢) راجع ذلك في موضعه من هذه الدراسة .

شعراء العصر

كثر الشعراء في العصر كثرة ملفقة ، وكان لتشجيع الفاطميين أثره في وفود كثير منهم من المشرق ومن المغرب . وما ذلك إلا باهتمام الأئمة والقادة والرؤساء بعرض افكار الدعوة الفاطمية ، واتخاذ الشعر منبرا من أهم منابر إعلامهم ، كما كان الشعر معرضا لأحوال الأئمة والرؤساء وتقريبهم من الناس ، وتوددهم إليهم بنشر محاسنهم وجميل أعمالهم .

وكان للشعراء ديوان ومستولون يتولون أمورهم ، وكانوا يجزون الجزاء الأوفى على ما يقدمون ويعلمون ، ويزيتون أحيانا .

ومع كثرة شعراء العصر إلا أن ما وصل إلينا من شعرهم قليل ، ولا تتعدى دواوينهم عدد أصابع اليدين ، وتناثرت بقية أشعارهم في الكتب والمصادر .

وهذا نذر يسير لا يشفى غلة لشعراء جاوزوا المئات في عصر دام قرنين . ونقرأ في تلك المصادر عن مؤلفات لعدد من العلماء عن شعراء العصر ونخب من أشعارهم ، لعلها تذهب في نهجها مذهب اليتيمة والخريدة من مثل « جنان الجنان » ، و « رياض الأذهان » . وفي شعراء الفاطميين من المصريين للمهذب بن الزبير ، وقد نقل عنها كل من العماد ، وابن سعيد في كتابي الخريدة ، والمغرب^(١) . ولعل بن منجب مجموع عن شعراء عصره^(٢) .

وكتاب الخريدة لأمية بن أبي الصلت ، نقل عنه العماد ، وكتاب « المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » لابن بشرون المهدي^(٣) .

وتقسم الشعراء على أقاليم مصر وبلدنها ، فمنهم من نشأ بصعيدها ، واشتهر ووفد إلى القاهرة والفسطاط ، فمدح الأئمة والرؤساء ، وكبار رجال الدولة وجالس العلماء والفضلاء ، وأنشدتهم من شعره ، فذكروه ، وألحوا إلى بعض أقواله .

(١) راجع الخريدة قسم شعراء مصر ص ٦١ .

(٢) الخريدة شعراء المغرب ص ٢١٠ .

(٣) راجع الخريدة شعراء المغرب ١ / ١١٤ .

وبعضهم نشأ بالإسكندرية ، أو دمياط أو غيرها من بلاد الدلتا ومنهم
القاهريون أو أبناء القسطنطينية ، ومنهم الوافدون المقيمون ، ومنهم الوافدون العابرون
وعند العماد من شعراء مصر في الخريدة مائة شاعر .

ونذكر من شعراء الصعيد ممن تردد ذكرهم :

١- الكاسات - وهو لقب للفقير أبي محمد عبد الله بن أبي سعد ، وترجم
له ابن سعيد في المغرب .

٢- وأبو الرضا سالم بن علي بن أبي أسامة ، وكان بنو أسامة من أصحاب
الديوان في زمان الخافض .

٣- وأبو المشرف الدجرجاوي - من دجرجا أو جرجا . ذكره ياقوت في
معجم البلدان .

٤- والقاضي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن النضر المعروف بالأديب
من صعيد مصر ذكره العماد في الخريدة ، وترجم له الأديفي في الطالع
السعيد^(١) ، تولى القضاء بأخميم زمن الأفضل الجمالي .

٥- وأبو الغمر الإنساوي محمد بن علي الهاشمي (توفي سنة ٥٤٤ هـ)
وترجم له العماد بالخريدة ، والأديفي^(٢) في الطالع السعيد .

٦- وأبو الفرج سهل بن الحسن الإنساوي .

٧- وبنو عرام وهم جماعة .

٨- وأبو القاسم عبد الحميد بن عبد الحسن بن محمد الكتامي المقيم
بأسيوط .

٩- وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصوفي - عرف
بأبن يونس واشتهر بالتنجيم (ت ٣٩٩ هـ) .

وكان يقول الشعر ويضرب بالعود ، قال صاحب شذرات الذهب^(٣) :

(١) راجع الخريدة ٢/ ٩٠ ، والطالع السعيد ٢٢٠ ، ونبذة الرقة ٣٥٣ .

(٢) الخريدة ٢/ ١٥٨ ، والطالع السعيد ٣١٥ .

(٣) شذرات الذهب ٣/ ١٥٧ ، وراجع البيعة للتمالي ١/ ٣٤٥ ، وابن خلكان بالوفيات ٢/ ٨٥ ،
والتفطى ص ٢١٠ .

« وله شعر حسن ، منه قوله :

أَحْمَلُ نَشْرَ الرِّيحِ عِنْدَ هَيْبِهَا رِسَالَةً مُشْتَقِي لُوجِهِ حَيْبِ
وكان يحضر مجالس الحكم .

وترجم له الثعالبي ، وابن خلكان والقفطى .

ومن شعراء مصر أو الفسطاط :

١- المهجر الشحجوب المصرى :

ترجم له ابن سعيد ، نقل عن القُرطبي قوله : « إنه من أنبته الفسطاط
وتفقات عنه ييضا ، من الشعراء الذين أجادوا ، وأفرطوا في الرحلة عن أوطانهم
غاية الإفراط » . وهو من شعراء المائة الخامسة .

وترجم له الباهرزى في الدمية .

٢- ومن شعراء الفسطاط الرسيون من آل طباطبا . وكانوا بيتا علويا من
أشراف حمص الحسينيين . وعرف منهم في عصر الفاطميين جماعة أشهرهم :

* أبو عبد الله الحسيني بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم
بن إبراهيم (طباطبا) الشريف الحسيني الرسى (ت ٣٦٥ هـ) (١) .

* وكان أدبيا شاعرا . وقفا . قاسم الأمر تميم بن المعز شرف النسب وعلو
الحسب ، وأمارات الفضل والأدب . وكان بينهما مودة ومراسلات شعرية رقيقة .
وكان أبوه نقيب الأشراف في مصر وكان جده أبو القاسم أحمد بن محمد ابن
إسماعيل نقيب الأشراف أيضا شاعرا أدبيا مجيدا . (ت ٣٤٥ هـ) أو (سنة
٣٥٢ هـ) وعاصر النحلة الإخشيدية وكانت وفاته في عصر كافور وسنه آنذاك
٦٤ عاما .

وكان من السرور والتبل وجمال القدر على ما هو معروف مشهور . وله أدب
واسع وشعر في الزهر والغزل مليح .

٣- وكانت بلاطات الوزراء مجمعا لشعراء مصر والوافدين عليها وأشهر

(١) راجع ابن خلكان ، والمغرب ص ٨٥ ، وديوان تميم ص ٣٠ .

مجالسهم مجلس الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى فقد جمع عديدا من شعراء العصر
أمثال ظافر الحداد السكندرى، وعلى بن مُثَنَّب الصيرفى الكاتب، ومسعود الدولة،
ومحمد بن اسماعيل المعروف بالتاريخ، وحسن بن زيد الأنصارى .

ومن وفد إليه من المشرق ابن حيّوس ، ومن المغرب أمية بن أبى الصلت ومجير
بن محمد بن مجير الصقلّى (ت ٥٤٠ هـ) .

٤- كما ضمت مجالس الوزير الصالح بن رزىك جماعة من مشاهير شعراء
القرن السادس الهجرى فى مصر وغيرها من بلاد المشرق والمغرب من بينهم القاضى
الرشيد بن الزبير ، وأخوه القاضى المهذب ، والققيه عمارة البمنى ، والقاضى
الجليس عبد العزيز بن الجباب (ت ٥٦١ هـ) وأبو محمد يحيى بن الحسن بن
جير^(١) ، وأسامة منقذ .

٥- ومن شعراء الإسكندرية ظافر الحداد ، الشاعر المبدع ، وأبو بكر
الطرطوشى الفقيه الصوفى عاش زمن الأفضل وتوفى سنة ٥٢٠ هـ .

وهو محمد بن الوليد القرشى الفهرى ، ونسب إلى طرطوشة بالأندلس نزل إلى
الأسكندرية ، ووفد إلى القاهرة ورحل إلى المشرق فحلّ ببغداد وأخذ على
علمائها .

وكان إماما زاهنا ورعا متقشفا ، متقللا راضيا بالقليل . له شعر رواه ابن
العماد وله كتاب « سراج للملوك » ألّفه للوزير الفاطمى المأمون البطائحي وعاش
إلى زمن الأفضل^(٢) .

ومن الأسكندرية ابن معبد القرشى الأسكندرى (ت ٥٥٨ هـ)^(٣) ومنها أبو
الريح سليمان (ت ٥٦٦ هـ)^(٤) .

ومنها ابن بُغْسَان الكاتب (ت ٥١٥ هـ)^(٥) .

(١) الخريدة ٢ / ٢٣١ .

(٢) راجع ترجمة ابن خلكان ، وشذرات الذهب ٤ / ٦٣ .

(٣) ترجمته بالخريدة ٢ / ٢٣٣ تولى الأفضل سنة ٥١٥ هـ .

(٤) الخريدة ٢ / ٢٠٠ .

(٥) الخريدة ٢ / ٢٢٧ .

وابن مكنسة الشاعر المشهور (ت في حدود ٥٠٠ هـ) ، وترجم له أمية بن
أبى الصلت في الرسالة المصرية ، أعجب بشعره ، وأورد مقتطفات منه . وكان قد
أنشد الأفضل إلا أنه أعرض عنه^(١) .

وابن قتادة المعدل : أبو الفتح منصور بن ابراهيم^(٢) .

ومن شعراء دمياط :

أبو الفتح محمد بن إسماعيل بن قلدوس (ت ٥١١ هـ) . وابنه محمود بن
قلدوس من شعراء ابن رزيك .

وكان معظم كتاب العصر الفاطمي المشهورين ممن عرضنا لهم فيما سبق من
حديث — ينظمون الشعر .

وأما الوافدون فكثيرون من المشرق والمغرب ، وأكثرهم من المغرب والأندلس
بدأوا مع وصول ركب المعز من المهديّة إلى القاهرة ، وتعاقت أرساطهم تطرق باب
الاسكندرية وتعرج على القاهرة .

ومن أشهر الوافدين المغاربة الرقيق القيرواني ، وأمّية بن أبى الصلت ، وابن مجير
الصلقى . وابن القطاع ، والتجيبى .

كما وفد من الشام ابن حيوس أبو الفتيان ، وأسامة بن منقذ ومن قبلهما
الواساني والرقعقي والوزير المغربي ، والتهامى .

وفد من اليمن عمارة اليمنى ، واستقر بمصر حتى مات .

(١) راجع الرسالة المصرية وابن علكان والخليفة ٢/ ٢٠٣ ، وفيلت الويليت ١/ ٢١ .
(٢) الخليفة ٢/ ٢٢٩ .

الفصل الثاني
شعراء مصريون
في القرن الرابع

تميم بن المعز

يبدو شعر تميم بن المعز على محاور ثلاثة .

المحور الأول : الأمر وهمم الإمارة ، واهتماماتها .

المحور الثاني : الإنسان وحياته الخاصة والعامة وسلوكياته وأخلاقه .

المحور الثالث : الفنان وتذوقه للحياة والجمال .

أما الأمير

فقد ولد الشاعر للخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، وكان أكبر أبنائه ، لكن الصلة بينه ووالده لم تكن مستقرة ، وشابها كثير من الغموض ، فلم يكن الأب فيما يبدو محبا لولده كل الحب ، ولا مقتنرا فيه الرجل الذي يمكنه أن يحمل أعباء الدولة كما ينبغي ، ربما لأن الأمير كان يميل إلى اللهو ، أو إلى أن يعطى نفسه قدرا من المتعة على حساب الأمور الرسمية ، أو مهام الملك والخلافة ولعل الأمير أدرك ذلك من أبيه ، وأدرك أنه لا يثق فيه كل الثقة بل لعله أدرك أنه يقدم عليه أخويه الآخرين .

وبما هذا الإحساس في قلب الأمير فأرتد ، وأقلقه ، ولعله دعاه إلى زيادة الإنغماس في همومه وملاذه ، واتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن هذه الهموم والملاذ جميعا ، بل لعل نفسه حدثته بأن يأخذ حقه لنفسه ، وإن أغضب ذلك والده ، أو بدا لهذا الأب ومن حوله من رجال دولته ، وكأنه يحاول اغتصاب الأمر ، وربما رأى بعض شباب الدولة والطامعين الطامعين في الأمير إرعوته وأدركوا ما يكتم في نفسه فأرادوا أن يدبروا معه أمرا طائشا غنمين النفس بالفوز بمنصب إن تم الأمر للأمير الخائف .

ويؤكد هذا ما ذكره الأستاذ جودر أقرب الرجال إلى المعز كما جاء في سيرته ذكر أنه نعى إليه اتصال الأمير ببعض أمراء البيت الفاطمي ، وابن أمير صقلية ، واتفقوا على تدبير أمر ما ، فأطلع جودر الخليفة المعز عليه وكان في المهديّة قبل مجيئه إلى القاهرة ، فكان رد المعز بمحاصفته ودهائه على جودر أن اكتم الأمر ، وكتب إلى مستشاره يقول :

« يا جوذر كثر الله من أوليائنا مثل أحمد — أمير صقلية وولده الأمير الشاب طاهر الذى ظن اتصاله بتميم — فوالله ما كان يشبه عندنا ، ويصوره بغير صورته إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبي الشقى ولده. صحبه من كان سبب شقوته فوالله إن ترجعنا به لترجعنا بمن لنا — يقصد ابنه تميم — لكن ابن أحمد يرجى فيما يستقبل من الزمان ، ومدبرنا نحن لا يرجى أبياً إذ كانت الخطة التى يرفعها الله بها أولادنا هلى خطة الطهارة ، ومن عدوها كان كلا على مولاه . والحمد لله على ما ساء وسر . فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامتنعه ، وتشفع له عنده وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شمنه يلحقه عارها ، ويبقى ذكرها مع الأيام ، فما يخفى عليه أن ذلك يبقى فى الأعقاب. فليمسك ، ويعجل ما يصلح فيما يستقبله فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد كان ليسعى به بينهما » (١) .

وهذه الرسالة التى وجهها المعز إلى جوذر تحمل كثيرا من المعانى التى أشرنا إليها فى مقدمة حديثنا عن تميم والعلاقة بوالده .

وكان دهاء المعز وحسن تدبيره مما دفعاه إلى كتمان مثل هذا العيب الصياني حتى لا تصير معرة ، ولا يظهر الخلاف فى البيت الفاطمى أمام الرعية . وهو أعلم بولده وطيشه وانغماسه فيما لا يظهر من ملاذ . وما لا يليق بإمام ينبغي أن يكون قلدوة لشعبه ، يبعده عن كل ما يفسد المروءة ، ويشين الصورة النقية ولو فى الظاهر .

وظلت العلاقة هكذا بين الوالد وولده الأكبر تميم الذى لقب نفسه باسمه فكان يكنى المعز بأبى تميم ، ولاشك أن الخليفة كان يشعر فى أعماقه بالأسى لسلوك ابنه الأكبر هذا المسلك ، وكان يحمل بين جنبيه صراعا بين الحب الأبوى لهذا الابن ، والألم والأسى لاضطراره أن يبعده عن دائرة المسئولية لأنه غير أهل لها فيما يرى من سلوكه .

وقد أداه هذا إلى أن ينحيه عن ولاية العهد مرتين ، فيزيد هذا فى حرج الأمير ، وينطوى صدره على آلامه لا يجد ما يفرجها أو يخفف منها إلا المزيد من الانغماس فى اللذات ، وإذابة آلامه فى الشعر .

(١) من سيرة الأستاذ جوذر ، ص ١٢٠ .

ويذكر بعض المؤرخين أنه نفي عن ولاية العهد لأنه لم ينتجب ، ولأنه كان عقيما ، ولم يكن هذا السبب بالضرورة سببا حاسما ، بل السبب الحاسم هو ما ذكرناه .

وقد ظل الأمير يجتهد آلامه ، وجاء إلى مصر مع والده وإخوته ، ومات المعز بعد حضوره إلى مصر ولم يمض بها إلا ثلاثة أعوام تزيد أو تقل قليلا ، وأوصى من بعده لابنه العزيز بالله الإبن الثالث ، وتجاوز عن الأكبر الأمير تميم وتولى العزيز الخلافة ، وعرف أنه اخذ حقا لأخيه ، فكان يجزل له العطاء ، ويغلق المال ، ويدعه يفرق في النعماء ، لعله ينسى أمر الخلافة ، وينزل عن حقه فيها ، إلا أن الأمير تميم تظاهر بالزهد في الملك ، وأبدى من طرف لسانه الطاعة لوالده أولا وللخليفة العزيز بعد توليه ثانيا ، ولم يدع مناسبة إلا أبدا هذه الطاعة في قصيدة يبعث بها إلى والده أو إلى أخيه بعد توليه الأمر لكن ما كان يخفيه في نفسه لم يستطلع كتمانها ، بل كان يتسرب وعيا منه أو غضبا ، كلما فاضت نفسه ، ومنعت بالفضيق . فلا تلبث أن تقلت منه أبيات تتم عما يكتم كأن يقول^(١) :

سَأَطْلُبُ حَقِّي إِنْ قَضَى اللَّهُ لِي بِهِ	وَأَفْتَحُ مِنْهُ كُلَّ مَا كَانَ مُرْتَجَا
فَلَسْتُ وَإِنْ عَاقَرْتُ كَأُمِّي بِسَالِكِي	مِنَ الْأَمْرِ فِيهَا كُلِّ مَا كَانَ أَسْمَجَا
وَلَا مُشْتَرٍ بِالْمُجِدِّ مُسْتَحْسِنُ الصَّنَا	وَلَا مُشْتَرٍ طَرَقَ الْمَهَالِكُ بِالنَّجَا
وَلَكِنِّي مُؤَبَّرٌ لِنَفْسِي حَقُّوقَهَا	وَرِائِضُهَا فِيمَا اسْتَوَى وَتَوَجَّأ

ولكن العزيز لم يغفل عن رغبة أخيه ، وما كان يخفيه ، وكان يدله ، ويقبل عليه ، ويقابله الشاعر بالمثل فيبدي الطاعة والولاء ، وقدم بين يدي أخيه الخليفة قصائد المدح في المناسبات . كأن يقول مادحا في مناسبة إقبال شهر رمضان ومهتئا^(٢) :

يَا شَهْرُ مُفْتَرَضِ الصُّومِ الَّذِي خَلَصْتُ	فِيهِ الضَّمَائِرَ بِالْإِحْلَاصِ فِي الْعَمَلِ
أَرْمَضْتُ يَا رَمَضَانَ السَّيِّئَاتِ لَنَا	بِشَرِّتَنَا لِلتَّقَى عَلَا عَلَى نَهْلِ
صَوْمٍ وَبَرٍّ وَتَسْلُكٍ فَيْكَ مُتَّصِلٍ	بِصَالِحٍ وَخُشُوعٍ غَيْرِ مُفْصِلِ
يَالَيْتَ شَهْرَكَ حَوْلَ غَيْرِ مُنْقَطِعٍ	وَلَيْتَ نَظْرَكَ عَنَا غَيْرِ مُتَّقِلِ
مَا أَنْتَ فِي أَشْهُرِ الْحَوْلِ الَّتِي سَلَفَتْ	إِلَّا كَيْفَ تَزَالُ فِي بَيْتِ الرُّسُلِ

(١) ديوانه ص ٨٩ .

(٢) ديوانه ص ٣٤٠ .

ويتضح في هذه الآيات محاولته مداراة مشاعره الحقيقية والنطق بغير ما يجب ، فهو بالنسبة إلى رمضان يظهر القول بتمنى بقاءه حولا ، وهو لا يجب هنا في سريره ، لأن شهر رمضان يمنعه من ممارسة لذاته ، فهو في الحقيقة شهر غير محبوب لديه ، ونلاحظ في نهاية الآيات كيف قرن بين هذا الشهر الذي يظهر محبته ، ويخفى غير ذلك ، كيف قرن بينه وبين أخيه فجعله مثله ، وهذا ظاهر المدح ، لكنه يخفى وراءه ما يخفى !

ويقول في مناسبة العيد يصف موكب الخليفة إلى صلاته^(١) :

لقد مضى الصُّومُ من مناك في نكسٍ	لئن ألقى العيدُ من لقياسك في فرحٍ
وقد أعلتْ ضحكك النقعَ كاللقعِ	برزت فيه بُرُوزُ الشمسِ طالعةٌ
والأرضُ في زهجٍ والجوُّ في زجلٍ	والبيضُ زُرُورٌ والأعلامُ حلقةٌ
إلا إلى سابعٍ في الأرضِ أو بطلٍ	فليس يعرف لحظَ العينِ مرسله
في جفوها بمتونٍ بيضٍ والأسلِ	والشمسُ فوق مدارِ الجيشِ قد حُجبتْ
خشوعٌ جُلُك في أزمانه الأولِ	حتى بلغت المصلّى خاشعاً نيكاً
بكل مُفصلٍ نثرًا ومُفصلٍ	فقمّت فيهم خطيباً مصفهاً لسناً
وخطبةٌ لم تُلها مُهملُ الخطيلِ	بلاغةٌ نبوّى النظمِ مُحكمها
من الهدى فتجلى كلُّ مُشكِلٍ	أنتَ بالحقِّ ما قد كان مُشتَبها

' ولا يخفى ما في هذا الشعر من تصنع ، يقره من أن يصبح إعلاناً رسمياً في هذه المناسبة ، لا ينطق فيه عن عاطفة صادقة ، بل لعنا نحس بأنه يكاد يرمض الألفاظ رصاً دون إحساس حقيقي ، فالشعرية فيه منعمة ، والمناسبة الرسمية تملك عليه لفظه ومعانيه .

وربما كانت نغمة الشاعر في هذه المناسبات الرسمية ، وتسجيل مظاهر الخلافة وشعائرها أكثر دفاءً ، وخاصة إذا اتصل ذلك بالعقيدة ، أو مواجهة الأعداء المترصين بالدولة ، والدعوة الفاطمية التي هي عصب ملوكهم ، ومناط شرعيته .

وهو في مثل هذه الأمور يرى نفسه جندياً ومسؤولاً كأخيه وغيره من أبناء البيت الفاطمي فلا بد له من الدفاع والحماس ، وإظهار القدرة والقرّة أمام الطامعين المترصين بهم جميعاً . يقول — على سبيل المثال — في مناسبة الصراع

(١) ديوانه ص ٣٤١ .

بين الدولة مثلة في الخليفة العزيز بالله وأحد أعدائها الأقياء بالشام القائد التركي أفكين . ومعتزا بنصر العزيز عليه ومفتخرا :

أَعْدَاءَ وَمَا عَدَدْتَنِي الثُّهَى	وَلَا طَرَدَ الْجَلْمَ عَنِّي الصَّبَا
وَكَيْفَ تَلُومِينَ صَغَبَ الْمَرَا	وَتَلَجَّيْنَ بِغُلَى كَهْلَ الْجَبَا
بَلَوْتُ الزَّمَانَ وَأَحْدَاثَهُ	عَلَى السَّلَامِ مِنْهُنَّ لِي وَالْوَفَى
فَمَا فَلَّتْ حَرْبُهَا لِي شَبَا	وَلَا اِزْدَدْتُ بِالسَّلَامِ عَنْهَا رِضَى
إِذَا قُلْتُ لَمْ أَغْدُ فَصَلَّ الْخِطَابُ	وَأِنْ صُلْتُ أَقْبِضْتُ عَنِّي الرِّدَى
أَرْنِي التَّجَارِبُ مَا قَدْ بَدَا	فَصَيَّنْتُ بِهِ كُلَّ مَا قَدْ خَفَى
وَلَمْ يَلْبِغِ الْعَمُرُ مِنْ سِنِّهِ	ثَلَاثِينَ حَتَّى بَلَغْتُ الْمُدَى

حتى يقول :

يَهْوَى عَلَيَّ صَعَابُ الْأُمُورِ	وَيَصْغُرُ عَنِّي جَمِيعُ الْوَرَى
أَنَا ابْنُ الْمُعِزِّ سَلِيلُ الْأُمَلَا	وَصِيْتُ الْعَزِيزِ إِمَامُ الْهَدَى
سِمَا لِي مَعْدٌ إِلَى غَايَةِ	مَنْ الْمُجِيدُ مَا فَوْقَهَا مُرْتَقَى
فَرَحْتُ بِهَا فَاطِمَى التُّجَارِ	حَسْبِيَّةَ عَلَوَى الْجَنَى
وَلَمَّا لَقِيتُ نُرُوحَ الزَّمَانِ	وَلَسْنَا نُرَاعُ إِذَا مَا سَطَا

ووجدان الشاعر هنا هو الذي ينطق . وضميره المكنون يكشف عن دخيلته فهو الأمير الكبير صاحب الشأن ، فاطمي النسب والأرومة ، ينتسب إلى الحسين ابن علي الشهيد المناضل للحق وبالحق في مواجهة الباطل المستبد ، وفي هذه الأبيات ذات القافية المطلقة والألف المقصورة تتألف فيها موسيقى الكلمة وإيقاع السياق مع نفثة الشاعر من صلسر مصدور ، تلذعه حرقه يحس بأوجاعها فيقلقها رقة تمتزج فيها اللوعة والكبرياء ، وتتلاقى فيها آلام الماضي ، وأحزان قومه من العلويين الشيعة ، بآلامه هو فيتذكر أنه فاطمي حسيني علوي ، ولم لاقت فاطمة وابنها الحسين ولم لاقي علي !!

ومع ذلك فهو ينتصر على لوعته ، وعلى أحداث الزمان ، ومعاندته وحره لآل علي ، وما يحسه هو ، وشيعته من مرارة تلك المعاندة وذلك الظلم الذي يتفقهم ، فهم صاملون رغم ذلك ، لا يستسلمون ولا يخضعون : (نروع الزمان ولسنا نراع إذا ما سطا) .

امتزجت لغة الشاعر إذا مع محنة قومه عذبة ، ولكن محنته وإن عظمت عليه وأقنعت مضجعه إلا أنه يضطر إلى كتبها ومداواتها ، لا يفرج عنها ، ولا يتنفس عن مصلوده إلا بينه وبين نفسه أو بينه وبين عشيرته الآقرين تقيّة أو تحنّياً لأزمات ، ولأحداث قد تجرّ ويلات ، وتثير نارا يكون وقودها ، ولا يصل إلى مبتغاه .

ظل يراوده إذا حلم الخلافة والمُلْك ، وظلت تحترق في نفسه الصور وتتداعى في مخيلته الأحلام ، ويلوم زمانه ، ونفسه ، ويلوم بعض عشيرته الذين أحجم ولا يملك في النهاية إلا أن يظهر خلاف ما ييطن ، وأن يلقي أخاه العزيز الخليفة ورمز السلطان الفاطمي بوجه الأمير الموالى ، والرعية المطيع ، والأخ الحبيب الوفي .

فيمدح العزيز ويجماله في كل مناسبة رسمية أو خاصة ، ولا يفتأ يؤكد ولاءه لأخيه ، كأنه يحس دائما بأنه متهم بعدم الولاء أو عدم الرضا مما دفع بعض الكائدين الذين أشار إليهم كثيرا في شعره ، والذين يصطادون دائما في الماء العكر ، وينتقون إلى ذوى السلطان بالوشاية ضد من يريدون فهم كيداً بوشايتهم ، أو ذريعة يتوصلون بها إلى صاحب الأمر . فيتخذ هؤلاء الكيد تميم وسيلة للقرى من العزيز ، وتنطق بعض آياته بهذا فيقول (١) :

أَنْتَ إِمَامٌ لِي بَلَا تَقِيدُ	وَلَا هُمْ فَاشْهَدُ شِمَ لَا هُمْ أَشْهَدُ
إِنْ نِزَارًا غَايَتِي وَمَقْصِدِي	وَمَوْجِلِي وَمَعْقِلِي وَمُسْتَعِدِي
وَعَلَّقِي وَعَمْدُكِ وَمَعْقِدِي	وَأَنَا بَرَاءٌ مِنْ عَدَاكِ مُفْتَدِي
إِنْ لَمْ تَكُنْ ذِي بُيُوتِي لَمْ أَسْعِدِ	لَوْلَاكَ لَمْ أَسْمُ وَلَمْ أَسُدْ

ويقول في مناسبة أخرى مشيراً إلى أولئك الكائدين الذين يضمرون له الشحناء (٢) :

كَمْ مُضْهِبٍ لِي عُقْدَ الشَّحْنَاءِ	يَنْسُبُنِي فَيْكَ إِلَى السَّوَاءِ
جَبْهَتُهُ بِالسَّرْدِ وَالْإِقْصَاءِ	وَلَمْ تَكُنْهُ مِنَ الْإِصْقَاءِ
حَفِظْتُ لَطَاعَتِي وَالْإِنْخَاءِ	حَتَّى انْتَشَى مَحَرَّقُ الْأَخْشَاءِ
وَالْعَدْلُ جَبُّ الْكَاشِحِ السَّعَاءِ	لَا ، وَالذَّمُّ الْجَارِي بِكَرْبَاءِ

(١) ديوانه ص ١٣٧ .

(٢) ديوانه ص ١٧ .

(٣) الجبهة المقابلة بما يكره المرء أن يواجه .

ويقول :

ومن بها من دائم الشؤاء
ينى على وينى الزهراء
ذوى التناهى وذوى السلام
ما جلت عن مستحسن الصفاء
فيك، ولا عن خالص الولاء
فى ظاهري يننى ولا خفاء

وليت الأمر استقر بين الشاعر الأمير وأخيه الخليفة ، فالنفوس مهما خلصت
تزلزلها أطماع وآمال ، وترتادها نزوات ، وقد يسمع الخليفة والنفس مهياة لأن
تطقي قولاً عن أخيه الأكبر ، وقد تنور نفس الشاعر الأمير ، أو تحدته فينطق
علانية في مجالسه الخاصة بين شيعته وأهله ، كلمة لا تسر الخليفة عن حق
مختصب أو عن أمل يراوده ، فيخضب عند سماعها ، ولا يخفى على ذوى السلطان
خافية ، فلا يعلمون من يشي بمن . يعنى القرى على حجاب اللؤفاء والمروءة .

وعلى أية حال فإن الأمور لم تصف بين الأخوين ، واعتكر الماء الجارى وربما
أضمر الخليفة أمراً ، أو لعله بعث لأخيه . من يحطوه ، أو يتفوه ، ثم من ينصحه
بالابتعاد عن القاهرة ، ويختار لنفسه منفى .

ويتلقى الأمير التحذير ، فيقع من قلبه مرقع الملوة على لسان لم يذق إلا حلو
العيش فى بلهنية السلطان ، ورحاب القصور الخليفية ، ويساتين العز .

كان ذلك حول عام أربع وسبعين وثلاثمائة (٣٧٤ هـ) . ويخرج الشاعر
الأمير من القاهرة متجهاً شرقاً إلى ميناء قفلسطين حيث اختار الإملة بها
مقصداً ، ويشير إلى ذلك فى قوله مسجلاً أحداث ما بين الأخوين :

رضيتُ بحكم سابقة القضاء	وإن أضحت تكثُر صفو مالى
وهل يستطيع أهل الأرض خلاً	لِتعدي شدة من فوق السماء
إلى كم نهدم الأحداث ركني	وترينى بجور واعتداء
يعاقبنى الزمان بغير ذنب	وتخذلنى يدي وذوى اصطفاي
ويسعى لى لمن لو جاء ساع	به عتدي لحضب بالقماء

حَيَاتِي بَيْنَ وَاشٍ أَوْ حَسُونٍ
 فَإِنَّ وَشِيَّ عَلَى الزُّورِ بَاغٍ
 وَمَا أَنَا يَا أَيُّهَا الْمَنْصُورُ إِلَّا
 أَنْتَ لَمْ كَيْفَ كَانَ لَكَ أَنْتَ عَاطِفِي
 أَحِينَ مَلِكْتَنِي وَالثَّاسَ طَرَا
 وَحِينَ رَجَوْتُ نَصْرَكَ لِي فَإِنِّي
 بِمُحِبَّتِكَ مُبْغِضٌ لِي سَاعِيًا بِي
 فَبِعَاطِفِي زَوِجْ سَالِمًا لَمْ

ويظل يوالى هذا العتاب المر لسماح أخيه وشى الوشاة حتى يقول :

فَقَدْ طَيَّبْتُ عَيْشِي فِي سُرُورٍ وَقَدْ أَنْعَمْتَ بَالِي فِي رَحْلَةٍ
 وَعَيْشِي زَالِدٌ طَيِّبًا إِذَا لَمْ يُكَلِّدُوا لَدَيْكَ بُشُورَ الزَّانِ

قصيدة مفعمة بالألم ، ينفضها قلب مزقته المعاناة في تلك العلاقة الحساسة بين
 الأخوين أحدهما صاحب السلطان والكلمة المطاعة ، وكل الناس يتوددون إليه
 والآخر مظلوم مهضوم الحق مع أنه الأكبر سنًا ، لكنه رضى بما قسم الله له لأمر
 كما يقول فخرى يعقد من السماء لا يحله أبناء آدم على الأرض ، مؤمن بالقضاء
 والقدر وأن هذا قدره وهو يحس بأن الزمان يتعقبه ، على الرغم مما يعيش فيه من
 نعمة ظاهرة ، لكنها نعمة حس ، تخفى شقاء للروح ، وعذابا للنفس ، وما
 أشقى النفس التي تنكب فيمن تحب ، وتشقى بمن ترغى على يديه إسعادها .

ويزيد عذابه أن يرى أخاه الأصغر الذي أحبه ، وكان له فيه رأى يرتضيه يرى
 هذا الأخ جلاده بعد أن ملك زمام السلطة ، وأمسك بمقاييد الأمور ولكن هكذا
 الدنيا .. وهكذا السلطان لا يراعى حرمة ولا رحما . ويصدق في ذلك المثل
 « السلطان من ابتعد عن السلطان » .

ويمر الأمير في طريقه إلى منفاه الذى اختاره أو اختير له ، ويمر بعين شمس
 فهجس في نفسه هاجسة رهبة الشعر ، ويحرم حوله شيطانه فتلور على لسانه
 أبياته (١) :

(١) ديوانه ص ١٤٧ .

ولمّا أناروا البُزْلَ وهنّا وأشاموا
 وحالَ الأسَى دونَ البِكا فعيونا
 أنطنَ دَمَقسى المَلا عن رِواديّ
 فلم تغصْ مُبلطان المِدامِج مُقلتي
 أجْدك لا أنفك في كَلِّ ليلَةٍ

ويذكر بليس في طريق رحلته الشامية ، وينزل بالعبّاسة (١) :

هَذَا الْفَرَاقُ فَهَلْأَ أَمِهَا الْحَادِي
 اسْتودِعَ اللَّهُ مِنْ فَقْدِي لِرُثَيْتِهِم
 لَوْلَا دُمُوعِي فِي يَوْمِ الْوَدَاعِ إِذَا
 فَإِنْ قَضَى بِالتَّلَاقِي اللَّهُ ثَانِيَةً

واستقر به النوى. بالرملة ، وهناك طافت برأسه رؤى الوطن وأحبابه بالقاهرة
 ومنازلها فكتب يشوق (٢) :

تَغَيَّرَ بَعْدَكُمْ خَالِي
 وَلَا وَاللَّهِ مَا قَلْبِي
 وَدِدْتُ لَوْ أَنَّكُمْ تَدْرُونَ
 وَدَمَعِي عِنْدَ ذِكْرَاكُمْ
 فَهَلْ تَلْقَوْنَ مَا أَلْقَا
 لِقَاؤُكُمْ وَقُرْبَكُمْ
 عَلَى أَلَى وَإِنْ كُنْتُ الْمُدَّ
 لِأَلِيمِ حُبِّكُمْ قَلْبِي
 فَهَلْ أَنَا شُغْلُ أَنْفُسِكُمْ

كتب من الرملة إلى من تخلف بالقاهرة من الأهل (٣) :

أَنْتُمْ فِي الْمَتَامِ حُلُمِي وَأَنْتُمْ
 كُلُّ عَصْرِ مِئِي إِلَيْكُمْ مُشَوِّق

في انتباهي سؤلي ، وأنتم مُرادى
 زائِد تَوَقُّعِي عَلَى الْإِبْعَادِ

(١) ديوانه ص ١٢٢ .

(٢) ديوانه ص ٣٥٢ .

(٣) ديوانه ص ١٤٨-١٤٩ .

لم أنزلكم ولكن جسي
فهنئاً لكم بكائي عليكم
كلما حنني اشتياقي إليكم
بأن عنكم وحل فيكم فؤادي
وحنيئاً للعين طول السهاد
قلت ليك أنت نعم المنادي

وبعد ذلك حنة الأمير الشاعر مع الخلافة والأب والأخ ، عبر عنها من خلال هذه النثبات الشعرية التي أطلقها وبقيت منها تلك الآيات في ديوانه ، ولعله نطق كثيرا ولم يبق لنا مما نطق إلا ذلك القدر ، وهو قدر يسمح على كل حال بأن تتصور حاله وإن لم يقفنا على تفصيلاتها ، وتقلب أمورها .

ولقد شغلت أحوال أسرة المعز قدرا من شعر تميم الأمير الشاعر ، كما شغل بنفسه في شعره ، فافترس وكشف عن مخبات صدره ، وعن عقيدته وعلاقته . بغيه ممن أحب أو كره .

وطبيعي أن يشغل شاعر أمير بأحوال قومه ، وأحوال نفسه فهو لم يتخذ الشعر وسيلة للتكسب والحصول على المال فيمدح هذا من الملوك أو الرؤساء أو ذاك من الأمراء والقادة لقاء جائزة ، فهو غنى عن هذا بما لديه ، وهو إنما يتخذ من الشعر أداة للتعبير عن مواجده ، في أفراحه وأتراحه . فهو إذا مدح فإنما يمدح الخليفة لأنه أخوه ، ولأنه رمز السلطة والدولة الفاطمية والإمام المطاع وولي الأمر ، وواجب عليه الولاء له وتقديم هذا الولاء في كل مناسبة أبياتا من الشعر بين يديه .

وإذا مات أحد أبناء الأسرة الفاطمية رثاه كذلك وتجمع عليه ، فمرأته كمدائحها كلها في أقربائه وأعز الناس لديه ، لا رياء ، ولا مجاملة ، ولا ابتغاء قربى من أحد .

ومن مرأته قوله يرثي أخاه عبد الله (١) :

أئى خطب أرى وأئى ليل
دهم الناس صرفها المخذور
ويقول فيها :

كيف لم تسقط السماء على الأرض
يوم مات الأمير بل يوم مات
، ولم تهو شمسها والبدور
الصبر فيه ، بل يوم مات السرور

(١) ديوانه ص ١٤٩ .

يَوْمَ بَلَ الثَّرَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّمِ
يَوْمَ حَطَلَتْ عَمَائِمٌ وَأَذَاعَتْ
يَوْمَ أَبْكَى الْعَيُونَ حَتَّى يَكَاهُ
فَبَرُوا شَخْصَةً وَوَارُوا سَنَاهُ
كَمْ نَصِيرَ لَهُ هُنَاكَ وَلَكِنْ
حَجَّ وَقَفَلْتُ عَلَى الْقَلْسُوبِ الصُّلُورُ
سِرَّهَا فِيهِ أَدْوَرُّ وَخُلُورُ
الْأَسَدِ الْوَرْدِ وَالْقَزَالِ الْغَرِيرُ
وَتَذَلُّوا وَالْفَائِزُ الْقَبُورُ
لَيْسَ مِنْ سُورَةِ الْجَمَلِ نُصِيرُ

★ ★ ★ ★ ★

يَا أَخِي ، أَيُّ عِبْرَةٍ لَيْسَ تَهْمِي
يَا أَخِي ، وَإِنْ بَكَتْكَ عَيْنِي فَأَتِي
يَا أَخِي عَبْدَ اللَّهِ أَيُّ مُسَاحٍ
يَا أَخِي إِنْ صَاحِبِي وَأَخِي بَعْدُ
وَفَوَادٍ عَنِ السُّلُوكِ عَنِيدُ
كَتَبَ مِلءَ الْجُفُورِ نُورًا فَأَمَسَ
وَفَوَادٍ عَلَيْكَ لَيْسَ يَطِيرُ
بِالْيَكَا وَالْأَسَى عَلَيْكَ جَدِيرُ
لَمْ يَفْقَهُنَّ سَعْيِكَ الْمَبْرُورُ
كَ تَلْهَابٍ لَوْعَةٍ وَزَفِيرُ
وَمِنْ الصَّبْرِ وَالْعَزَاءِ نَفُورُ
سَتْ مَلُوهَا مَذْمُوعٌ عَلَيْكَ غَزِيرُ

هذا رثاء غير رسمي ، من أُنْخَ لأخيه ، ولوعته فيه لوعة صادقة ، ودمعهُ دمع محترق بالفراق ، وشعوره بأن الدنيا ضاقت وأظلمت شموسها وتهاوت بنورها ، شعور غير كاذب ، لأنه طبيعي من أُنْخَ نحو أُنْخَ أحبه ورافقه ، ودرج تحت عينيه ، ولعبا معا صبيين ، أو صبيا وقتي .

ومثل لوعته ورثائه لأخيه عبد الله كانت لوعته ورثائه لأخيه عقيل الذي ولاه المعز ولاية عهده ، متجاوزا الأمر الشاعر تميما ، وحقه فيها . ومع ذلك لم يمنع ذلك الأمر الشاعر من أن يسكَبَ دمه ، ولا لِسَانَهُ من أن يَزِفِرَ هذه الزفرة ليقول (١) :

فِسْمَةُ الْمَوْتِ قِسْمَةٌ لَا نَجُورُ
يَسْتَوِي كَلٌّ مِنْ أَذَاقَتِهِ مَنَا
نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَلِلْمَوْتِ فِينَا
نَسْتَطِيبُ الْمَتَى وَهْمُنْ غَوَاصِي

ويقول فيها :

(١) ديوانه ص ٢٢٦ .

- أَمْرُ الْمَوْتِ صَفَقَ عَيْنِي وَفَسَلَ فِي الْآ
 قَتِ تَذَكَّرْتُ بِالْمَصَائِبِ قَوْمِي
 فَرَقْتِهِمْ يَدِ الْمُنُونِ فَبَادُوا
 سَلَفَ صَالِحٍ وَأَمْلَأْتُ صِدْقِي
 ثُمَّ عِشْنَا ثَلَاثَةَ لَفِمْ الْحَا
 فَعَمَرْنَا بِذَلِكَ مُدَّةَ ذَهَبٍ
 لَمْ يَمِشْ لِلْمَعَزِ نَسْلَ مِيوَانَا
 فَأَصَابَتْ يَدُ الْمُنُونِ مَنَا عَقِيلًا
 حِينَ هَزَّ الشَّبَابُ أَعْطَافَهُ الْغَيْبِ
 لَمْ يُجَاوِزْ حَدَّ الثَّلَاثِينَ إِلَّا
 أَيْنَ تِلْكَ الْبَشَاشَةُ الْغَضَّةُ الطَّلَعِ

★ ★ ★ ★ ★

صَارَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْآنَسِي وَحْشًا
 آهَ مِنْ لَوْعَةٍ لَهَا فِي سَوَادِ الْعَب
 كَيْفَ يَبْقَى امْرُؤٌ تَوَلَّى أَبُوهُ
 وَهُوَ فِي قَعْرِ حُقْرَةٍ مَهْجُورُ
 سَجَنَ دَمْعٌ وَفِي الْقَوَادِ زَفِيرُ
 وَأُخْوَهُ فَجَبَلُهُ مَبْتُورُ

وظاهر من هذه الآيات أن أخاه عبد الله توفي قبل أخيه عقيل وبالضرورة قبل
 نزار العزيز بالله ، ولعل الذي تولى الأمر قبل وفاة أبيه المعز كان عبد الله بشهادة
 هذه الآيات ، فهو يذكر أن من تبقى بعد وفاة المعز ثلاثة أخوة هم على هذا ومن
 واقع هذا الشعر عقيل ، ونزار ، والشاعر تميم ، فأما نزار فقد أصبح الخليفة العزيز
 بالله بعد موت المعز لدين الله . وظل الأمير عقيل وتيمم ينعمان بالعيش إلى جوار
 أخيهما الثالث الخليفة حتى اختار الله إلى جواره عقيل فلم يبق من الأخوة إلا تميم
 ونزار الخليفة .

وهكذا تَأَتَّى هذه المِثْرَةُ وقد فقد الأمير أخاه الأزل عبد الله وقد بعده أباه
 المعز ، ومن بعدهما عقيل ، فالمرتبة تعاقب على أعز أهل وأحبابه ، ومن هنا كانت
 بداية الحديث أول الشعر عن الموت وقسمته ، وأن كأس المنية تدور وتلتور ،
 ويذوقها كل حي ، فالمرتبة قريب منه يخطف أعز من أحبه ، وعائشهم ، ولا يفوته
 أمير ولا مأمور .

ويشعر بأثر الموت في عيشه ، وعيش أسرته الأقربين ، ومن سلف منهم من
الفواطم أبناء الحسين . فهم كلهم في ملحمة الموت خلف عن سلف :

ففرقتهم يَدُ المتوَنِّ فبادُوا وحوثُهُم بعدَ القُصُورِ القُبُورُ

وتختلف هذه المراثية في تعبيراتها ومعانيها ، وفي نبضها عن مراثيته في عبد الله ،
وهو اختلاف أدى إليه السن والتجربة ، فالشاعر الأُمير قد بلغ مبلغا من التجريب
والعلم ، والسن هدهد فيه من اللوعة ، فلم يكن حزنه صراخا وعويلًا وبكاء فياضا
يروي الذي ولم تهو الشمس ولا تبددت الأقمار ، ولا برزت ربات الخدور ، ومآل
الذين آوتهم القبور في ظلماتها ووحشتها .

هناك فرق لاشك بين هذه الآيات وتلك سببه السن والعلاقة الخاصة بين الأخ
المتوفى والشاعر ، وبين الأخ المتوفى والأسرة مجتمعة في الأول والأسرة وقد غاب عنها
كثيرها وأحد أفرادها ، وتعقبها الموت في الثاني .

تقييم الإنسان

في شعر تميم ملاحظ إنسانية ، تكشف عما في باطنه من عواطف وأحاسيس إنسانية ، ونجدها في كل إنسان مكتمل البناء ، صحيح النفس ، سليم الباطن فيه شفافية الروح التي أودعها الله إياه ، ويمرّ عن غيره من سائر الحيوان وتمثل تلك الشفافية فيما تعارف عليه الإنسانية من سمو الخلق ، والترفع عن الدنيا والحب للناس والأشياء والرغبة في الخير ، والطموح إلى الجمال وإلى كل ما هو جميل .

وندرّك من قراءتنا لشعر تميم أنه رغم انشغال فكره بأحوال دنياه وصراعات الناس من حوله ، ودسائس الملك والسلطان ، وما خيم على العصر من اضطراب وخوف ، وقتال وموت ، وتساؤل عن المصير . أقول على الرغم من هذا كله نجد أنه يكن في داخله تلك الصفات الإنسانية التي ما تلبث أن تنكشف لنا هنا وهناك في أبيات ينثرها في طيات قصائده .

وأول ما نلاحظه اهتمامه بالصدقة والعلاقات الإنسانية ، والروابط الأخوية بين الأفراد ، تلك العلاقة السامية التي تحكمها سلوكيات تزيد من وثوقها وتلاحمها . ويؤكد معنى وفائه لأصدقائه وأحبابه في قوله^(١) :

لا أدعى الفضل قبل يشهد لي به أدنى الدنا وأقصاها
ولا أرى على للصديق بدا نفسد أنغامها بنغمها
من اصطفاي برؤي فله عندي يد كالجبال صخرها

وكان من بين أصدقائه الذين وفي ضم ، وتبادل وإياهم رسائل المحبة والوفاء ، شعرا صديقه الشاعر أبو عبد الله الحسيني بن إبراهيم الرسي كتب إليه مرة :

لا شيء أحسن من خليلي غبطة يتراضعان لبان كل وفاء
هنا يُناجي ذا هوى وحبّة أبداً ، ولم يستمتعاً بلقاء

وفي الرسائل الشعرية المتبادلة بينه وبعض خلانته معان كثيرة من الود .

قال — وقد كتب بها إلى بعض أصحابه — وكان قد اعتنر هذا الصاحب عن أمر جرى منه^(٢) :

(١) ديوانه ٤٣٩ .

(٢) ديوانه ص ٢٧٥ .

وقد قبلنا اعتذارك المحض لما
وصفحتنا عن زلة لم تكن في
وقد علمنا أنك الخليل الحافظ
لك عيني ففر عينا من المكث
ليس نصري لك الغداة بناء
كم متينا عندك عند الإمام العبد
وكسونا زينا جناحك لما
وأنا في الجميل عنك لنفسي
إني ناظر إليك بعيني

جئت مستجديا لغفر مغاف
لك مرادا، ولا أت عن خلاف
للغيب والولي الصائبي
ما لا تحصيه مني القوافي
عنك مني ، ولا جفاطي بغاف
ذلي إذ قتلوا بسم زعاف
عريا من قواديم وخوافي
شاكرا حامدا وخائرا مكاف
من صفا وده صفاء السلاف

وتطوى هذه الآيات على معاني وسلوكيات محبة في العلاقة بين الصديقين والمحين . معاني التواصل ، والصفح عن الزلل غير المقصود ، والتماس العذر للصديق ، وعدم تصديق ما قد يقع إلى سمعه من حاسد أو حاقد أو مبغض أو ناقم ، أو غير راضى عما بين الصديقين من تواد وتواصل ، وانتصار للصديق في مواقف الضيق ، والوقوف إلى جانبه ومساندته عند حكم عدل كل هذا إلى الوفاء وجزاء كل عمل جميل من الصديق بما يستحقه من جزاء مقابل ، والتقرب إليه بكل ما يحفظ لتلك الصداقة متانتها ، ويهد من أزرها .

وأنا في الجميل عنك لنفسي
إني ناظر إليك بعيني

شاكرا حامدا وخائرا مكاف
من صفا وده صفاء السلاف

ومعاني حلوة ، ليتها تكون دستورا للعلاقة بين الناس ، فتصفو لهم الدنيا ، وتحلو من الكدر كصفاء السلاف !!

ومع ذلك فالنفس الصافية قد تلقى في الحياة نفوسا مظلمة ، وكثيرا ما هي فتعاني ضد ما ترغب فيه ، وتتمصر ألما لما تلقاه على غير ما تحب .. من قلة الوفاء والكران . ولا أشد دلالة من هذه الصرخة^(١) :

وي فتحت للناس كل غريبة
ومن كان ذا علم بأهل زمانه
وأنهم لا يسترق جفاظهم

وحكمة بنشئ منها الصفا الصل
تقرن أن الناس كلهم وعد
وفاء ، ولا يغنى لهم أبلا جفد

(١) ديوانه ص ٣٤٠ .

إِذَا فَرَّقُوا أَبْلُوا وَدَادًا وَذِلَّةً وَأَنْفُسُهُمْ حَرْبٌ وَالْأَنْفُسُ لَذَّةٌ

أولئك الذين جعلت قلوبهم ، وخرت نفوسهم ، لا خير يدفع إليهم بنافع
لديهم ولا يسترق حفاظهم وفاء ، ولا يفنى لهم أبداً حقد ، فيهم اخلاق العبيد ،
إذا خافوا توددوا وأبلاو المحبة والصفاء ، وإذا أمنوا ، تَنَمَّرُوا ، وانقلبوا ، وغدروا ،
وأوقعوا ، ووقعوا ، وسلطوا السنة لكذا ١١.

تميم الإنسان الملعوب في سعيه ، وفي حظه ، والملعوب في علاقته ، لاشك تمر
به لحظات من الضيق ، فلا يجد غير الشكوى ؛ الشكوى من الزمان والناس ،
والشكوى من هذا الحظ العائر .. فنفسٌ شقية تنفث هموماً ؛ يقول (١) :

أَقُولُ الْمَرْبُ مِنْ حَمَامٍ عَرْضَ لِي
وَيَسْكُنُ فِي خَضْرَاءِ نَاعِمَةِ الرِّبَا
بِوَارِحٍ لَا يَحْشَيْنَ بَيْنًا وَلَا نَوَى
فَقُلْتُ هِنِيفًا لِلْحَمَامِ أَمَانَهُ
أَمِيرِبِ الْحَمَامِ لَوْ لَقِيتُ بَعْضَ مَا
وَلَوْ قَدْ عَلِمْتُ الْبَنَى أَنَا عَالِمٌ
وَمِنْ جَرَّبِ الْآيَاتِ تَجَرَّبَتِي لَهَا
فَحَسْبُكَ يَازْهَرُ، اصْطَلَيْتُ بِنَارٍ مِنْ
وَأَكْثَرُ مَا أَهْجُوكَ يَا زَيْبِي بِهِ
ذِمَّتُكَ يَا صِرْفَ الْحَوَادِثِ فَانْتَصِرْ

يَفْرُدْنَ مِنْ فَوْقِ الْغُصُونِ وَيَنْدُبُنَا
أَتَيْقَةُ رَوْضِ الثَّيْبِ، أَنَسَةِ الْمُغْنَى
رَوَّاحٌ لَا يَعْرِفُنْ هَمًّا وَلَا حُزْنَ
وَإِنْ كَانَتْ الْآيَاتُ لَمْ تُعْطِنِي أَمْنًا
الْأَقْبَى لِأَصْبَحْتُ أَوَّلَ مَنْ يَضْنَى
لَمَّا نَاحَ مِنْكُمْ هَاتِفٌ، لَا، وَلَا غَنَى
دَرَى أَنَّهُ لَيْسَتْ تَلُومٌ عَلَى مَعْنَى
لَوْ أَنَّكَ سَمَّ فِي تَرْاقِيهِ مَا أَنَا
مِنَ الْفِعْلِ أَتَى لَمْ أَحْسِنْ بِكَ الظَّنَّ
وَسَوْنَاكَ يَا رَبَّ الزَّمَانِ فَخُذْ مِنَّا

وتلاحمت هموم الشاعر وأحزانه مع هموم قومه وعشيرته من الشيعة الذين
يحبسون في أعماقهم اضطهاداً وظلماً، ذروته وحديثه الدامي مأساة الحسين، التي
كثفت الظلم الواقع عليهم من المجتمع الإسلامي ككل .. وتراه في مناسبة هذه
الذكرى الأئمة ذكرى استشهاد الحسين في كربلاء تفيض نفسه بأبيات ينوح فيها
نوح الحمام ، ونحن أئمة الكلوم . يقول في واحدة :

أَعَاذِلُ لِي مِنْ نَسْحَةِ الصَّبْرِ مَذْهَبٌ . وَلِلَّهِ غَيْرِي مَأْلَفٌ وَمَصَادُ
ثَوْتُ لِي أَسْلَافٌ كِرَامٌ بِكَرِيلاً هُمْ لِلشُّعُورِ الْمُسْلِمِينَ سَدَادُ

(١) ديوانه ص ٤٣٧ .

وعاجلهم بالثأرين حصاة
وجار على آلِ التي زياد
وكأدوهم والحق ليس يكاد
عليهم رماح للثأق جداد
دهائم بها للثأرين كباد
بها جئت الأبرار ليس نعاذ
جواد إذا أعبى الأنعم جواد
وجوه بها كان الثأج يكاد
ويجزى لمن عاذاهما وعاذ
فيقطر حزنا أو يلجئ فؤاد
أكل قلوب العالمين جماد ١٩

أصابهم من عبء شمس عداوة
فكيف يلد العيش عفواً وقد سطا
بثارات بئر طالبوهم ومكة
فحكمت الأسياف فيهم وسلطت
فكم كربة في كربلاء شديدة
وكم بأعلى كربلاء من حفاير
بها من ينسى الزهراء كل سيدع
معفرة في ذلك القرب منهم
فللهفي على قتل الحسين ومسلم
ألا كيد تفنى عليهم صباة
ألا مقله تهجي ، ألا أذن تبعي

والإنسان في مسيرته الدنيوية يحس بالموت كلما زال عنه رونق الشباب ، أو جافته أحداث الدهر وتصاريفه ، وليس كشاعرنا إحساسا بالموت لخصتين الأولى أنه شيعي وأن موت الحسين في مأساته إحساس دائم مسلط على نفوس الشيعة ، فهم في حزن أبدي ، والموت عندهم ملجأ ومهرب أحيانا ، ونهاية وعلمية تقلق الجسد الحى ، وإن كانت تسعد الروح لفكاكها من قيد المادة ، وظلم الطين ، وظلمته .

وأيات تميم هذه تردد المعالي نفسها :

يُرْدُهُ عَلَّلَ مِنْ حَيَا	تخليلي في ظمأ ما أراه
فللري شيم يبرق الظبا	فلا تستشجما بروق السحاب
على طول مسراه يشكو الوحنى	أعينا أحنأ لكما لم يث
ولم تحل أحشاؤه من جوى	ولم تستريح قلبه من أسى

تيمم الشاعر المستمتع الفنان

عاش تيمم حياة حافلة ، جمع فيها متع الحياة ، لم يترك فرصة تفلت من بين يديه إلا واقتنصها ليتذوق جمال الدنيا ، ويعبُّ بما تحفل به من الجمال واللذة .

لذا تراه يمارس لذات الحياة بين الخمر والنساء واللهو والصيد والطرب ، والتنزه في الروضات ، وأشباع العين من جمال الدنيا ومفاتيح الطبيعة .

أحب تيمم الحياة وعبُّ منها ، وربما كان منشأً على ذلك طبيعة وخلقة ، وأتاح له حياة القصر ، وثرء الإمارة كلَّ ما رغب فيه فلم يغيب عنه وطر ، ولم تقصر همته عن صيد للذة .

والخمرُ من لذات الشاعر القديم والحديث ، ألم يقل امرؤ القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم اتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروى ولم أقُل لخلي كزى كرة بعد إجفال

فاللذات الأربع التي ذكرها امرؤ القيس : المرأة والصيد والخمر والغارة ، جمع منها تيمم ثلاثاً وأضاف إليها اثنتين هما حب الموسيقى والغناء ، والتقى من جمال الطبيعة ومباهج الحياة .

وشارك الشاعر في حب الخمر من سبق من رصفائه منذ امرؤ القيس وطرفة والأعشى والأخطل وأبى النواس . وهو يشربها ليتسلى ويدفع هموم النفس ، ألم يقل فيها الشعراء أنها جالبة للمسرة ١١ . يقول (١) :

قهوة تهرمُ الهُموم إذا ما نازلتها وتطربُ الندماء
إن دعيتها الأنوفُ فاحت عيبراً أو رنتها العيونُ لاحت ضياء
فهى كالوردِ حُمرٍ وذكاء وهى كالليلِ جرأةً ولقاء

وله كأنى نواس زورات ليلية إلى دور الخمر وحاناته ، ومن ذلك قوله يصف زورة إلى محبرة امرأة شمطاء ، يقول فيها :

فأفضى بنا الإدلاج بعد تمسُّف إلى زُرَّة شمطاء منزلها رَحْبُ
مُزَّرَّة أما أبوها فتعصرُ وحسبك ملكٌ جدُّه قيصَرُ حَسْبُ

(١) ديوانه ص ٢٣ .

قَصِيرِيَّةٌ دَرِيَّةٌ هِرَقْلِيَّةٌ تقاصر منها الخطر وأخلدوب الصلْبُ
وقالت لنا أهلاً وسهلاً ومرحباً قليل لكم متى البشاشة والرحبُ

ولكن الأمير وهو مهتم ببلذاته ، بل إن هوم الأمير قد تأنى على لذاته
وتستعصى ، ويريد أن يصرفها بالسلى والإنغماس في ملاذ الحواس ، فراه في
ممارسته لمتعه مع من أحب ، أو وهو يعجب كأس الشراب ، تقتحم عليه صفو
اللحظة خواطر الإمارة ، ومرارة الذكرى لما عاناه فيما اشرنا إليه ، فيقول مزجاً
الأمم باللذة بعد حديث تنعمه بوصال الحبيب الذي بات ضجيجها (١) :

وإني لألقى كلَّ خطبٍ بمُهْجَةٍ يهونُ عليها منه ما يتصعَّبُ
واستصعبُ الأهوالُ لي كلَّ موطنٍ ويُعزِّجُ لي السمُّ الزعافُ فأشربُ
وأغضيتُ على بئس الأسفةِ صابراً ولو شئتُ لم أصيرُ ولل سيفِ مضربُ
ولستُ بإقبال وإن سر فارحاً ولا من عجيب يعجب الناسُ أعجبُ

والخمر في زحمة تلك الهوم لا تقوى على مغالبتها ، فيقول :

تحليلي ما في أكوس الرّاح راحتي ولا في المثاني راحتي حين تُطربُ (٢)
ولكنني للمعجِدِ أرتاحُ والغلا وللجوْدِ والإعطاءِ أصبُ وأطربُ

ومع هذا فهو لا يقوى على ترك لذاته ، فهي تشده إليها وكأنه خلق لها
وخلقت له ، يجمع إلى الخمر المرأة ، وله معها جولات .

تقيم والمرأة :

والمرأة في شعر تميم ليست صاحبة ، ولا زوجا ، بل هي غالبا غانية أو قينة ،
من نساء المتعة ، تمتعه حسا ، بمتع الجسد ، وصوتا ، بلذة الغناء . وغزله عامة
يدور في هذا المجال ، وهو رقيق مناسب لموضوعه . يقول (٣) :

وابأبى الظبي الذي لو بدا للبدرِ قال البدرُ وأظلمتْ
أثرتُ الأحاطة في خدِّهِ فانتصفتُ مِنِّي له مُفَقَّدة
ثم رمى قلبي بالأحاطة وابأبى أحاطه من رُماة
كم سفكتُ أجفانه من دم نمتُ عليهنَّ يو وجنته

(١) ديوانه ص ٤١ .

(٢) وترى ه تُضرب ه والمثاني الأوتار الثانية بعد الأول في النعيم .

(٣) ديوانه ص ٣٩ .

يا قوم ما بَالُ ظَلَامَاتِنَا
فَمَنْعَ الْغُيُوبِ مِنْ زَهْوِهِ
لَا تَطْلُبُوا خُلُقًا بِقَتْلِ سَيِّئِ
لَوْ قِيلَ لِي مَا تَشْتَهِي لَمْ أَقُلْ
يَا مَنْ بَرَأَى حُبَّهُ وَانْتَهَى
مَنْعَتِي الطَّيِّفَ بِمَنْجِ الْكَرَى
وَاللَّهِ لَا أَنْسَى لَهَا قَوْلَهَا
مَتَى اسْتَوَتْ فِي الْحُبِّ أَقْدَارُنَا

فِي الْحُبِّ لَا يَنْظُرُ فِيهَا الْقَضَاءُ؟
وَتُصَنَّفُ الْعَاشِقُ مَعْنَى جَفَاءُ
فَوَاتِي اللَّحِظِ وَوَرْدِ الشَّفَاءِ
شِفَاءُ سَيِّئِ قَلْبٍ عَيُونِ الْوِثَاءِ
بِى الْعَنَا مِنْ هَجَرِهِ مُتْنَهَاءُ
مِثْنَى فَكَلَرْتُ عَلَى الْحَيَاءِ
مَنْ تَخَلَّفَ سِجْفُ السَّرِّ وَاضْيَعَتَاهُ
حَتَّى أَوَاتِيهِ وَأَبْنَى رِضَاءُ 11

غزل رقيق ، فى بسيط من اللفظ ، وتدلّه ظريف ، مع عبارات جارية من متداول الحديث ، عامية ، لكنها تُطَرَّفُ فى سياق هذا الخطاب ا

والشاعر كفيو من الغزلين يكثر من حديث أحواله مع المرأة ، وتقلبها بين اللقاء والفرق ، والشوق ولواعجه ، واللقاء ومتمتع بين تقبيل وعناق ودمع يجرى حُرْقَةً أحياناً ، وسعادة أحياناً ، يقول فى وصف الفرق فى تعبير رقيق لا كتعبيرات غيره مما ألفناه (١) :

ما ذُمَّ يَمُّ الْفِرَاقِ إِلَّا
أَوَّلُهُ أَنَا وَقُرُوفُ
لَا نَقْبَى فِيهِ عَيْنَ وَاشٍ
إِنْ هَاجَ حَرُّ الْوَدَاعِ شَوْقِي
لَوْلَا الْفِرَاقُ الَّذِي دَهَانَا

مَنْ غَابَ عَنْ مَوْقِفِ الْفِرَاقِ
لَلْتَمِّمِ وَالضَّمِّ وَالْعِنَاقِ
وَلَا تُكَلِّرِي ذَوِي التَّفَاقِ
فَبِالْوَدَاعِ اشْتَقَى اشْتِيَاقِي
وَالْيَمِّ مَا أُمَكَّنَ التَّلَاقِ

ويرد هذه المعانى نفسها فى موقف الفرق ، وإن بدت متعارضة فيقول :

يَمُّ الْفِرَاقِ أَهَاجَ بِي حُرْقًا
قَبَّلْتُ مِنْ أَهْوَى بَرَضِيهِمْ
وَأَبْنَيْهِمْ أَكْسَى أَوْدَعُهُمْ
لَوْلَا الْوَدَاعُ يَا مَلِيحَةً مَا

وَشَفَى الْقَوَادِ وَسَكَنَ الْأَرْقَا
فِي الْجَهْرِ لَا خَلْسًا وَلَا سَرَقًا
وَسَرْتُ قَهْوَةَ خَلْجِهِمْ دَفَقًا
قَبَّلْتُ وَجْهَهُ حَمْسَةً نَسَقًا

أرأيت هذا الظرف النواصي ، وكيف جمع بين لوعة الفرق ، ولذة العناق .

(١) ديوانه ص ٣٠٠ .

ومكنا حديث تميم في غزله عندما تصفو نفسه من كدر الملك وأعبائه وهمومه
ويتخلو إلى نفسه ، ويرق ويعذب قولاً عن المرأة حين^(١) يودعها فيقول :

قالت وقد نالها للبين أوجعه واليسن صعب على الأجل موقعه
إجعل يدك على قلبي فقد ضعفت قواه عن حمل مما فيه أضلعه
كأننى يوم ولت حسرة وأسى غريق يجر يرى الشاطئ ويمنعه

ويخاورها تارة فيلطف ، ويقول في دل عمري :

قالت: أغنرأبنسالى الحب اقلت لها لا نال غاية ما يرجوه من غنرا
قالت : فلم لم تزرنا؟ قال : زاركم قلبي ، ولم يدرى جسمي ولا شعرا
قالت : كلنا يكتم العشاق حبهمو فينعمون ويحنون الهوى نضرا ؟
قلت : اسمحى لى بتقبيل أعيش به قالت : وأى محب قبل القمرا ؟

ويقول وفي قوله سمة الحضارة والامارة^(٢) :

رائسى ونبى كفى ورد أشمى وأرفعه جبا على العيس والعبد
فقلت: تذكره وجنتى باحبراره فقلت: ولم لا؟ يذكروا الورد بالورد

ونظرف كذلك فى رواية حديث دها تياهة ليقول :

شبهتها بالبر فاستضحكت وقابلت قولى بالتكر
وسفحت قولى وقالت متى سمجت حتى صيرت كالبر
البر لا يرئو بعين كما أرئو ولا ييسم عن نحر
ولا يميط البرط عن ناهيد ولا يشد العقد فى نحر
من قاس بالبر صفتي فلا زال أسوأ فى يدى هجرى

وتزوج تميم فى شعره بين المرأة ومفاتنها ومتعته بجمالها ، وبين الموسيقى والغناء ،
فيجمع بين لذة الحس والنظر ولذة السمع والطرب ، ويرى أن الغناء جالب له
السروى :

ليس إلا الغناء يظهر بى ويؤوى على جيش السروى

(١) ديوانه ص ٣٠١ .

(٢) ديوانه ص ١٣٠ .

يا نديمي ألتفد ميّاي فإني
سيما إذا بنا بلفظ رَجيم
لست أخفى بئوي مشي وزهر
وتروى بلحظ طرف سحور
ويكشف عن متعة السمع ، وما يحدث الغناء من لذة فيقول (١) :

ألسب ترى سحابَ اللهو بهي
ورجع الزهر يشكو ما ألقى
على اللذاتِ أمطارَ السُرور
إلى الأوتارِ من ألم الزفير
وصوت الطبل بينهما يتأذى
فألب من مُشاهدة تجلّ
بظاير حُسبها هم الصلور
ألا هبوا إلى شرب الكبر

فالغناء ، والموسيقى بالآلاتها بين مزمар وعود ، ويريض وجنك ، وطبل تطهر صدره من عناء الهم .

ويتذكر الحبيب في مجلس الغناء بين الكأس والزهر ، لا تذكرى عنترة لعل
وسط المعركة وبين قتال العجاج حين تلمع فيها السيوف كبارق ثغرها المتبسّم ؛
يقول تميم في مجلس أنسه وطربه متذكرا محبوه :

ذكرك لي ما بين كَر الكؤوس
وقد جابوب الزهر في جذبه
وقد أقبل اللهو مُرَجِي اليان
مع ألبم ترجيع صوب المثاني
وجابوب قمرسة فاجت
وعالتها نغمات الهيان

والزهر وزر العود الرقيق ، وهو أحد الأوتارِ نغما ، والبم ، وتره الغليظ والشاعر
في هذا الحفل الموسيقى الغنائي وسط الطبيعة ، بهج والدنيا كلها فرحة من حوله
تتجاوب أغاني القيان مع نغمات العود ، وترانيم أوتاره مع شلو الطير بين أغصان
الروضة ، ألا ترى كيف أحس الشاعر في أعماقه بالطرب ، وبأن الحياة كلها من
حوله في وحدة حسية ، وسبعة وجلانية يخلق فيها ، بعيدا عن واقعة في أفاق من
المتعة والرواء !

ومثله يقول في مقطوعة :

كنت يا واحد الأملاك والبشر
وقد بنا الثاني في شكوى صباهه
والراح لم تبق لي لئلا ولم تلب
مجاوبا لأنين الطبل والوتر

(١) ديوانه ص ١٤٧ .

وَنَعْنُ فِي طَرَبٍ مَا يَنْتَلُهُ طَرَبٌ يَسْتَصْجِبُ اللَّهُوْ فِي مُسْتَقْبَلِ الْعُمَرِ
وَفِي غِنَاءٍ إِذَا حَتَّتْ أَوَائِلُهُ أَغْنَى التَّدَامِي عَنْ الْأَتْوَالِ وَالزَّهْرِ

ويؤله أن يفقد من كان يغنيه ويشجيه ، ويذكر بفقده مجلس غنائه ومتمتعته ويرى
في فقده ضياع دنياه ولذته ، ألا يقول في رثاء قينة مغنية (١) :

ذَكَرْتُكَ بِالرَّيْحَانِ ذِكْرَةً مُرْدَدَةً كَادَتْ لَهَا النَّفْسُ تُرْهَقُ
فَلَمَّا تَنَاولَنَ الْغِنَاءَ شَوَادِبًا وَاتَّبَعَ مَرْمُومًا مِنَ الضَّرْبِ مُطْلَقُ
تَبَيَّنَتْ الْعَيْنَانِ شَخْصُوكَ فِيهِمْ فَلَمَّا نَأَى ظَلَّتْ دُمُوعِي تَرْقُقُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُرُ فَقَدْ هَامَ مِثْلَ مَا شَكَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ أَلَمَّاءُ عِطْشَانُ مُوَقِّقُ
كَأَنَّ فَوَادِي مُنَدَّ بِأَنِّهَا الرَّدَى جَنَاحٌ وَهَتْ أَجْزَاؤُهُ فَهُوَ يَخْفِقُ

صورة واقعية شجية ، زعمها الشاعر بكلماته الصادقة يعبر عن فقده لهذه
المغنية التي غيبتها الموت فجأة ، لقد اعتاد التطلع إليها وسط رفيقاتها في جوقة
الغناء ، فيحظى طرفه باستجلاء جمالها ، ويحظى سمعه ، بهذب غنائها وغابت
فتطلع الطرف يبحث عنها في لهفة وقد تردد صوت الغناء وارتفع الضرب وحلجل
اللحن ، فلم نرها العينان ، وأحس الشاعر بالفقد فجرت دموعه وغاب عن
مجلسه ليحس بأن الردى اختطف منه أنسه فاقتص من جناحه المحلق في فضاء
المتعة ، فهوى .

والطبيعة مكملة دائما للمرأة والخمر والغناء والموسيقى وكان غرامه بالطبيعة
كغرامه بغيرها مما يحس فيه بأنس اللقاء ، ومتعة الاندماج والتسامي بوجوداته
وأحاسيسه ، يستمع إلى الناعورة تن في حقول القسطاط أو حولها في حلوان وعلى
شاطيء نيل القاهرة ، تدور ويتدفق الماء من أضلاعها فيقول :

وَنَاطِقَةٌ كَلَّمَا حُرِّكَتْ وَلَيْسَتْ بِنَاطِقَةٍ فِي السُّكُونِ
يَحْنُ إِذَا كَارَ دَوْلَابُهَا فَطَرِبْتُ سَابِغَهَا بِالْأَيْنِ
وَنَبِكِي وَلَيْسَتْ بِمَحْزُونَةٍ بِكَاءِ الْحُبِّ أَلَكْبِيبِ الْحَزِينِ
وَتَنطِقُ بِالصَّوْتِ لَا مِنْ قَمٍ وَتَذِرُفُ بِاللَّمْعِ لَا مِنْ جُفُونِ
كَأَنَّ لَهَا مَيْتًا فِي الثَّرَى فَأَدْمَعُهَا هَمَّعَ كُلَّ جَمِينِ
إِذَا زَمَرَتْ أَطْرَبَتْ نَفْسَهَا فَعَنَّتْ بِمَحْتَلِفَاتِ اللَّحُونِ

(١) ديوانه ص ١٥٠ .

غَنَاءٌ يُرْقَعُ كَثِيرَانِهِمَا
وَتَهَيَّرَ فُلُوحٌ وَ جَرَحُ
وَيُظْهِرُ فِيهِمْ وَثْبَ الْمُجُونِ
وَتَصْنَعُ مِنْهَا مَلَاءَ الْعَرِينِ
ويقول فيها مرة أخرى :

نَاعُورَةٌ أَتَتْ أَيْنِ الْهَوَى
أُنَيْتُهَا صِرَّةً تَدِيرُهَا
كَأَلَمَّا الْكِيْزَانَ فِي بَرِيحِهَا
تَقْدِفُ بِالْمَاءِ إِلَى رَوْضَةِ
كَأَلَمَّا السَّرُورَ بِهَا يَسُورُ
وَيُحَسِّبُ الْخَشْخَاشُ مِنْ حَوْلِهَا
وَانْفَتَحَ التَّرْجِسُ عَنْ أَعْيُنِ
وَأَقْحَوَانَ كُثُوفِ الْمَهَا
وَسُوسُنَ كَالْفَرَصِ لَمَّا بَلَّتْ
لَنَا شَكَّتْ حَرٌّ وَسَوَاسِيهَا
وَدَمَعُهَا مَاءٌ قَوَادِيْسِيهَا
هَامٌ مُلُوكٌ فِي نَوَاطِيْسِيهَا
كَأَلَمَّا يَنْشُ طَوَاطِيْسِيهَا
قَامَتْ إِلَى قَرْعِ نَوَاطِيْسِيهَا
أَيْدٍ أَشَارَتْ بِنَوَاطِيْسِيهَا
مُضْفَرَّةُ الْأَحْدَاقِ مِنْ بَوَاسِيهَا
مُفْتَرَّةٌ بَعْدَ تَقْيِيْسِيهَا
آثَارُهُ فِي لَيْسِنِ نَاطُوْسِيهَا

وفي الناعورة يقرأ الشاعر أشياء في صوتها ، ويسبح مع خيالاته مستلهما المعاني ونافعا من صلبه تخيالاته . والناعورة تسكن وجدان كل مصري فلاح أو من يمر بالحقول ويعيش في طبيعتها ومروجها الخضراء .

والشاعر كثير الخروج إلى المروج والبساتين فسكنت الناعورة وجدانه واستلهمها بعض المعاني ومزج في الناعورة صوت الطرب بالأنين ، أنين الشكوى من الزمن وأنين الشقاء في الهوى ، وتلمس في شعره عن الناعورة هذا الدفق الغريب لأحاسيسه المتعارضة كأنما عقله الباطن ينفذ من بين الكلمات ليعبر عن مواجهته ومواجهه وأفراحه وأتراحه فيمزج الأنين بالطرب ، وينثر ألفاظ الحزن والألم من بكاء وحزن وكتابة ودمع مع الزمر والطبل وألفاظ الغناء والموت . موت الملوك مع اصفرار الأحداق ورقص الكيزان وتفتح الترجس وتغور الأقحوان المتسم كل هذه الأحاسيس المتعارضة المتضاربة ينفثها في هذا الكلام ويتخذ من الناعورة مادة لنفثاته ، ومعرضاً لمشاعره ومجلى لتجربته النفسية ، وتراه يكرر هذا الشجى الممزوج بالشجن ، والألم الممزوج باللذة ، والحياة الممزوجة بالعدم في حديث عن الشمعة من نفثة شعرية يقول فيها^(١)

(١) ديوانه ص ٢٥١ .

وَفَاتِحَةٍ ظَلَمَةَ الْجَنْدَبِي
مَتَوَجِّةٍ فَوْقَ يَا فَوْجِهَا
إِذَا أَوَقَدْتَ نَارَ أَذْمَعًا
وَإِنْ نَامَ جُلَاسُهَا لَمْ تَنَمْ
إِذَا نَعَسَ النَّاسُ لَمْ تَنَعَسْ
بِتَاجٍ مِنَ اللَّهَبِ الْمَشْبِيِّ
عَلَيْهِ مِنَ الذَّهَبِ الْأَمْلِيِّ
وَإِنْ جَلَسَ الْعَبْدُ لَمْ تَجْلِسْ

ويقول فيها مرة أخرى :

وصفراءَ تُكْثِرُ إِيَّاسَهَا
تُعَازِلُهَا الرِّيحُ فِي مَرَّهَا
وَلَمْ أَرْ مَنْ قَتَلَتْ نَفْسَهَا
وَلَكِنْ تُقَطِّعُ أَنْفَاسَهَا
تَعِيشُ إِذَا قَطَعُوا رَأْسَهَا
سِوَاهَا لَتُسَبِّحَ جُلَاسَهَا

ولذة الصيد والطراد هي من ملاهي الملوك والسادة ، منذ الجاهلية الأولى جمعها امرؤ القيس إلى متع الخمر والنساء . كذلك فعل غيره من مرفهي الشعراء بعده على اختلاف العصور ، واتخذوا للطرد وزن الرجز ليتلاءم الإيقاع مع المضمون .
ونذكر بهذا طرديات أبي نواس وما جمعه كشاجم في المصايد والمطارد . يقول
تيم يصف فرسه في طرده للصيد :

مستكمل التحجيل مُستوفاه
أديمه ويطنه أشباه
بخالف أسفله أعلاه
بدُخْمَةٍ قد ملأت قِوَاهُ^(١)
وانصبغت منه أليَّاه
فهو دُجِّي يَحْمِلُهُ ضُحَاهُ
تَسْبِقُ أَقْصَى لَحْظِهِ حُطَاهُ
لا يَطَأُ التُّرْبَ وَلَا تَلْقَاهُ
رَجَلَاهُ فِي التَّلَوِّ وَلَا يَكْدَاهُ
كَأَنَّهُ يَطِيرُ فِي مَجْرَاهُ
إِذَا دَعَا لَيْتَ الْقَلَا لِيَّاهُ
أَسْرَعُ لِلشَّيْءِ إِذَا ابْتَدَاهُ

(١) قراء : ظهور .

من مبلِّغ السَّهْمِ لِمُنْتَهَاهُ
مُرْتَبِطُ الرَّجُلِ بِمَا يَرَاهُ
كَالْفَيْضِ مُلْتَقَا بِهِ مَعْنَاهُ
تَحْسُدُ مِنْهُ يَكْدُ رِجَالُهُ
يَسْبِقُ أَخْرَاهُ بِهِ أَوْلَاهُ

وهو وإن كان قد فصل معنى امرئ القيس في وصف فرسه حين قال :
يَكْرُرُ وَيَفْرُرُ مِقْبِلُ مَدْبِيٍّ مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخْرِ حَطَّةِ السَّيْلِ مِنْ عِلٍّ
ووصفه بأنه قيد الأوابد ، إلّا أنّ إيقاع الرجز وتفصيلات الحركة السريعة التي
تتبعها مع أعضاء جواده أرجله وبطنه ، اكتسبت أبيات تميم إيقاع الطرد وثبت فيها
حبويه الأقبال والادِّبار وسرعة العدو . ويتصل بهذا الموضوع الصيد حديثه عن
البازي من طيور القنص حيث يقول (١) :

وَأَشْهَبُ غَلْبُهُ شَبَاهُ
كُلِّ ذَوَاتِ الرِّيشِ مِنْ عِلَاهُ
بَلَتْ يَبْهِيْجُ جَوْعُهُ غِلَاهُ
كَأَنَّ فَصِيَّ ذَهَبٍ عَيْتَاهُ
يَكَادُ أَنْ يَحْرِقَهُ ذِكَاهُ
لَوْ طَلَبَ الْكَوْكَبَ لَاتَّقَاهُ
يِنَاهُ يَبْغِي جَالِعاً قَرَاهُ
إِذْ وَقَعَ الْحَبْرُجُ فِي رُؤَاهُ (٢)
وَحَلَّهُ الْقَابِضُ مِنْ يُسْرَاهُ
وَطَلَّرَ يَهْوِي نَحْوَهُ يَغْشَاهُ
حَتَّى إِذَا قَارَنَهُ غِلَاهُ
يَوْقَعُهُ هُدًى بِهَا قَوَاهُ
كَمَا وَهَى مِنْ شَطَنِ رَشَاهُ
ثُمَّ بَلَا وَهُوَ عَلَى أَقْفَاهُ

(١) ديوانه ص ٢١ .

(٢) الحبرج : من طيور الماء .

وهي من فوائده حشاه
مُخصِّباً من دَمِيهِ قَرَاهُ

وإذا كان الشاعر قد وصف البازي من طيور الصيد ، وتتبع هذا الطير
الجراح يفتال فرائسه من البغاث ، فقط تعاطف مع نوع آخر من الطير اتخذه
الشعراء أليفاً ونحيباً ، أعنى الحمام ذلك الوديع النائح ساكن الطلح ، أو القمري
الفرد في الروض ، ويعرض لهذا الطير في معرض الذكرى والنسيب والشوق إلى
الحبيب كغيره من الشعراء الحنين ، والذكرى تجمع العاشقين ، فالجمامة تبكي
الهدبيل التازيح .

والشاعر يقول :

وَعَرَّدَ فِي أَعْلَى الْأَرَاكِ حَمَلُ	أَنْ نَاحَ قَمْرِي بِمُصَنِّ بِشَامَةِ
لَهُ بَيْنَ أَحْقَاءِ الضُّلُوعِ ضِرَامُ	أَهَاجَ لَكَ التَّلَكَارُ شَوْقًا كَأَنَّمَا
وَهَلْ بَعْدَ تَوْدِيْعِ الْحَبِيبِ مَقَامُ	تَحْلِيلِ هَلْ بَعْدَ الْفِرَاقِ تَوَاصُلُ
عَلَى الْقَرَبِ مِثْنِي ، وَالذُّنُو حَرَامُ	ذَهَبْتَنِي الثَّوِي حَتَّى كَانَ أَحْيَتِي
وَأَوْفَى جَمَانِ الدَّمْعِ وَهُوَ سَبَابُ	وَمِمَّا اسْتَهَامَ الْقَلْبُ وَهُوَ مُصَدِّعُ
وَتَسَهَّرُ فِيهِ اللَّيْلُ وَهُوَ نَعَامُ	مُطَوَّقَةٌ رِقَاءُ تَنْدُبُ شَجْوَهَا
عَلَى بُوْجِهَا مَشْهُورَةٌ وَغَرَامُ	تُورُخُ بِلَا دَمْعٍ ، وَلِلْحَزَنِ آيَةٌ
كَأَنَّكَ مِمَّنْ أَسْكُرَتْهُ مُلَامُ	أَلَا يَا حَمَلَمَ الْأَهْلِ مَالِكُ وَالْهَأُ
وَكُلَّ مُجِبِّ الْفِرَاقِ يُضَلِّمُ	كَلَانَا مُجِبِّ صَدْعِ الْبَيْنِ شَمْلُهُ

ويغرم الشاعر بجمال الطبيعة ، رياضها ، وأزهارها ، وهو عاشق للزهر يتوسم
فيه جمال الخلفة ، ويدع الخالق ، يرى اللينوفر زهر الماء المشوب بزرقة ، والذي
يفتح للشمس بالضحي ، فيشارك الشاعر نشوة الصبوح يقول (١) :

يَقْضِي بِأَلَاكَ شَوَاهِدُ اللَّيْنُوفِ	فَضَّلَ الصَّبُوحَ عَلَى الْغُبُوقِ مُبِينُ
زُرْقِي وَحُمُرِي كَاخْتِلَافِ الْجَوْهَرِ	يَلُوحُ إِذَا انْبَسَطَ النَّهَارُ بَاعِينُ
بُورُوجِهِ خَوْفُ الرُّقْنِ الْمُبِيرِ	وَيُغْوِصُ تَحْتَ الْمَاءِ إِنْ هُمُ الدُّجَى

وإحساس تيم بالزمان ، وأنه ينقضي وينقضي معه الشباب ويجمع اللذات

(١) ديوانه ٣٩٧ .

(١) ديوانه ص ١٧١ .

إحساس عميق ، يقتحم عليه لذاته ، وينغص متعته بجمال الحياة لأن خيال الموت يراوده ، وهو بين الخوف منه والتعلق بأسباب الحياة في صراح محموم . يقول معللاً شدة إقباله على ملاهيهِ من فِنة الدنيا ومفاتها (١) :

يَا لَيْثِي فِي أَنْ خَلَعْتَ الْعِذَارَ	مَا تَرَكَّ الْحُبُّ لِقَلْبِي الْعِذَارَ
الصَّبْرَ أَوَّلَى غَيْرِ أَنْ الْهُوَى	أَحْلَاهُ مَا لَمْ يَكْ فِيهِ اصْطِبَارَ
كَمْ وَلَيْسَ فِيهِ وَكَمْ غَبْرَقَ	وَعَرَقَ مِنْ غَيْرِ نَارِ بَنَارَ
وَلَوْ تَأَمَّلْتَ وَجَدْتَ الصَّبَا	أُخْفَ مِنْ حُلْمِ ثَقِيلِ الرَّقَارَ
هَلْ بَعْدَ طَى الْعَمْرِ إِلَّا الْيَلَى	وَهَلْ وَرَاءَ الشَّيْبِ إِلَّا الْجَوَارَ
عَصْرَ شَبَابِ الْمَرْءِ ضَيْفَ لَهُ	يَمُضَى وَأَيَّامُ التَّصَايِ قِصَارَ
فَخُذْ مِنَ اللَّبَةِ بَيْنَ قَبْلِ أَنْ	يَبْأَى بِلَذَائِكَ بُعْدَ الْمَزَارَ

وبعد فقد عاش تميم حياته طويلاً وعرضاً ، وانهب اللذات انتهاباً ، وكأنه بهذا الصنيع يطرد هوما تطارده ، ويريد أن ينسى ثقل آثيته ، وقصر أيام العمر مهما طال ، ويحلثنا المقرئ عن حال الأمير الشاعر في موكب له ببركة الحبش أيام الأعياد فيقول (٢) : « إذا جاء الليل خرج الأمير تميم بن المعز في مائتي فارس بين عبيده بالعسس على المتنزهين بالبركة بالليل أيام الأعياد إلى أن يقضوا من اللهو والزهة أربعم وتصرفوا فيسكرون وينامون كما ينام الإنسان في بيته ، ولا يضع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة .

ويركب الأمير في عشاري ويتبعه أربعة زوايق مملوءة فاكهة وطعاما وشرابا ، فإن كانت الليالي مقمرة وإلا معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا ، فإذا مر على طائفة ، واستحسن من غنائهم صوتاً أمرهم بإعادته ، وسألهم عما عز عليهم فإمر لهم به ، ويأمر لمن يغنى لهم وينتقل منهم إلى غيرهم يمثل هذا الفعل عامة ليلة ، ثم ينصرف إلى قصوره وساتينه التي على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضي أيام الأعياد ويتفرق الناس » .

(١) ديوانه ص ٢١٧ .

(٢) خطط للمرقى ١٥٤/٢ .

تميم وهووم الحياة والنفس :

في شعر تميم نلتقى أحيانا بقصائد ذات نغم حزين ، ينفت فيها وهووم ، ولعل أحزان الشيعة التقليدية ، تختلط بأحزانه هو فخر خرج هذه الأبيات المليئة بالشجن ، ومنها هذا الرثاء لآل البيت :

وَأَلْهَوْ غَيْرِي مَأْلَفٌ وَمَعَادُ	أَعَادِلٌ لِي مِنْ فَسْحَةِ الصُّدْرِ مَذْهَبُ
هُمْ لِفُجُورِ الْمُسْلِمِينَ سِيَادُ	تَوَثُّ لِي أَسْلَافُ كِرَامٍ بِكَرْبَلَا
وَعَاجِلُهُمْ بِالْثَّائِبِينَ حَصَادُ	أَصَابَتْهُمْ مِنْ عَيْدِ شَمْسٍ غَدَاوَةٌ
وَجَارٌ عَلَى آلِ النَّبِيِّ زِيَادُ	فَكَيْفَ يَلِدُ الْعَيْشُ صَفْوَاً وَقَدْ سَطَا
وَكَاذُوبُهُمْ وَالْحَقُّ لَيْسَ يُكَادُ	بِثَارَاتٍ يُلْدِرُ طَالِبُوهُمْ وَمَكَّةُ
عَلَيْهِمْ رِيحُ الْتَفَاقٍ جَدَادُ	فَحَكَمْتُ الْأَمِيفَ فِيهِمْ وَسَلَّطْتُ
دَهَامُهُمْ بِهَا لِلْكَائِدِينَ كِيَادُ	فَكَمْ كَرِهَتْ فِي كَرْبَلَاءَ شَدِيدَةً
بِهَا جُثَّتِ الْأَرْبَابُ لَيْسَ تُعَادُ	وَكَمْ بَاغَالِي كَرْبَلَاءَ خَفَائِرُ
جَوَادُ إِذَا أَعْيَى الْأَتَمُ جَوَادُ	بِهَا مِنْ نَحْيِ الزُّهْرَاءِ كُلِّ سَمِيدَعٍ
وَجَوْهُ بِهَا كَانَ التَّجْلَحُ يُفَادُ	مَعْفَرَةٌ فِي ذَلِكَ التَّرْبِ مِنْهُمْ
وَحَزِي لِمَنْ عَادَاهُمَا وَبَعَادُ	فَأَنْهَيْتِي عَلَى قَتْلِ الْجَبِينِ وَمُسْلِمِ
فَتَقَطَّرَ حُزْنًا أَوْ يَلُوبُ فَوَادُ	أَلَا سَكَيْتِ تَفْنَى عَلَيْهِمْ صَبَابَةً
أَكَلْ قُلُوبَ الْعَالَمِينَ جَمَادُ؟!	أَلَا مُقَلَّةٌ تُهْجِي أَلَا أَذِنَ نَحْبِي

وفي هذا المجال من انحسرو على مقتل الطالبين من آباله يعرض لنم العباسيين فيقول موجها إليهم الإتهام بإغتصاب الخلافة :

قَمَتُمْ ، وَبِالزُّعْمِ يَحْطِلُكُمْ وَاللُّغَا	زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ لَنَا غَضَبًا
مِنَّا إِذَا كَلَبَتِ الْمَغَائِرُ وَادَّعَى	لَا نَدْعِي مَا لَيْسَ بِعَرَفِهِ الْوَرَى
لَمْ نَأْتِ أَفْعَالِ الْجَوِيلِ تَصْنَعًا	وَإِذَا تَصْنَعُ لِلْعَلَا مُتَصْنَعٌ
وَابْتَلَوْهَا ، حَتَّى رَسَا وَتَمَتَّا	شَرَفَ يَتُّهُ لَنَا الْبَتُولُ وَبَعْلَهَا
فَبَتُّوا عَلَيْهِ وَشَيَّلُوا الْمُسْتَوْدَعَا	وَاسْتَوْدَعُوهُ بَعْدَهُمْ أَبْنَاءَهُمْ
وَمِنَّا يَحْبِبُ اللَّهُ دَعْوَةَ مَنْ دَعَا	نَحْنُ الَّذِينَ بِنَا الْكِتَابُ مُنْزَلُ

ويقول معرضا بالأموية (١) :

(١) ديوانه ص ٤٥٩ .

إلى وآبائى وقو
ذاقوا الردى وتجرموا
بيد القوى ابن القوى
الناقضين الناكثين
البائعين صوابهم
بى والكرام الأحمدية
بيد الدعى ابن الدعية
ابن القوى ابن القوى
على الشريعة والبرية
فى كل أمر بالخطية

ولهمم الشاعر أسباب أخرى غير ما زرع فى وجدانه بإعتباره علوها فاطمعا من
أحزان مقاتل العلويين واغتصاب الأمويين والعباسيين لحقهم ، فراه بنم الزمان ،
بادئا الحديث بمناجاة الحمام ، فيقول :

أقول لسرب من حمام عرضنى
وسكننى فى حضراء ناعمة الربا
بورخ لا يحشون يئنا ولا نوى
فقلت هيبا للحمام أمائه
أمررت الحمام لرقيشن بعض ما
ولو قد علمتن الذى أنا عالم
ومن جربت الألم تجربنى لها
فحسبك ما أهجوك يازمىسى به
ذمتك يا صرّف الحوادث فانتصير

وشكو هذا الظما النفسى ، فيقول فى قصيدة ممدح أخاه العزيز تزارا :

خليلى فى ظمأ أراه
فلا تستشيم بروق السحاب
أعينا أنا لكما لم يئت
ولم ينشرح قلبه بن أسى
يسرّه هلال بين حيا
فأجدر بى شيم برق الظبا
على طول مسراه يشكو الوحى
ولم تغل أحشاؤه من جوى

كذلك وفائه وصافي الصديق فى علاقته ، يقول (١) :

لا شىء أحسن من خليلي غبطة
هذا ينجى ذا هوى وتحافظا
يتراضعان لبان كل وقاء
أهدأ ولم يستعيا بقاء

(١) ديوانه ص ٣١ .

ويقول في المعنى نفسه :

لا أَدْعِي الفضْلَ قَبْلَ يَشْهَدَ لِي بِهِ آدَانِي الدُّنَا وَأَقْصَاةَا
ولا أَرَى لِي عَلَى الصَّدِيقِ يَدَا تُفْسِدُ إِنْعَامَهَا بِتُعْمَاهَا
من اصْطَفَانِي يُوَدُّهُ فَلَهُ عِنْدِي يَدُ كَالْجِبَالِ صُغْرَاهَا

وشعره المتبادل مع صديقه أوى عبد الله حسين بن إبراهيم الشريف الرضى يكشف من صداقة وثيقة ، تبادل فيها الصديقان أجمل مشاعر المحبة والوفاء^(١) .

صنعتة الشعرية :

يبدو من شعره أنه شاعر موهوب ، أو هو شاعر بالفطرة ، يحس الجمال ويعيشه بجوارحه ، ويتعاطف مع مجاليه في كل مظهر ، في الإنسان والحيوان والطير والنبات والجماد ، ويقرأ قسماته في الشكل واللون والصوت والحركة . أحس الشاعر بموهبته ، فاقبل على الشعر ، ولم ييخل عليه الشعر بوارثاته ، وأفانينه بل أعطاه ، ما فرغ له .

لاحظ النقاد في صنعتة الشعرية أشياء تتصل باللفظ ، ولم يكن متكلفا لكلماته ، بل ساقها كيفما خطرت على باله ، لم يعن نفسه في البحث عن كلمة غريبة ، بل جاءت كلماته سهلة سلسلة ، قد نحس بأن الشاعر أحيانا لم يراجع نفسه فيها بل تركها تنفذ وتأخذ مكانها من نظمه ، فهو ليس من الشعراء الصناع المتكلفين ، ولا النظاميين المحترفين .

وقد اتهمه بعض حساده ، والحاقدين بأنه لا يصنع شعره بنفسه ، بل هناك من يرفده ، وهذه إفريفة يرمى بها كل موهوب ، وقد وهب الأمير حظين في الحياة حظ الأمانة وعيش الثراء والنعمة ، والتمتع بكل أسباب النعم ، وحظ الشعر فكان هدفا لحسد الحساد وحقد الحاقدين .

ونجد في شعره ردا على هؤلاء ، ونفيا لاتهمهم إياه بالاعتماد على غيره . يقول :

أَرَى أَنَا سَاءَ لِي ظَنُّهُمْ فِي كُلِّ مَا قَلَّتْ مِنَ الشُّعْرِ
فقد تَطَاطَا بِهِمْ عِلْمُهُمْ قَاسُوا بِأَقْدَارِهِمْ قَلْبِي

(١) راجع ذلك فيما لى من شعر الحسين الرضى .

قالوا : سباهُ صانعُ كلِّ ما
لو فهموا أو عقلاوا لاستَحُوا
قيسوا بشعري شعيرهم تعلموا
من بطل الحقِّ هجا نفسه
فناظروني فيه أو فاشرحوا
أولا فقولوا : حسدٌ قاتِلٌ

يأتى بى فى السرِّ والجَهْرِ
أن يجعلوا المريع كالْبُدْرِ
تضائقُ النهارِ عن البحرِ
بجهله من حيث لا يُدرى
شعري أن أنكرتموا أمرى
مستمكِّن فى القلبِ والصدرِ

ويقول أحد النقاد ممن درس شعره^(١) : « ولا حاجة إلى القول بأن اهتمام الشاعر تميم بن المازن بأن يشاركه في عمل شعره إنما هو اهتمام يحتاج إلى دليل وما هو ذا ديوان تميم بن المازن كله على ضخامته بين أيدينا نقرأه مرة ومرة ثم نبدى ونعيد النظر فيه ، ثم نتنقل من صفحة إلى صفحة ومن قطعة إلى قطعة ومن قصيدة معطولة إلى أخرى ، فتجد النفس فيها مستويا لا دخل لنفس آخر فيه » .

ولمحت العصبية السياسية والدينية دورا في التقليل من شأن الشاعر وشعره بل وفي إهماله ، وإهمال أخباره وأحواله ، مع إفاضتهم في أخبار غيره ممن يقولون عنه شائنا ومكانة اجتماعية وفنية ، فلم يره المؤرخون والمترجمون لحياة الأدباء من بعده الاهتمام الذى يستحقه لأنهم كانوا من أهل السنة ، فقد غلب هذا المذهب على مصر واضطهد علماء كل من انتمى إلى الدولة الفاطمية أو تشييع من الشعراء والأدباء والعلماء ، وكان الإنكار والتجاهل والتخامل يبدن علماء الدولة الأيوبية التى أعقبت الدولة الفاطمية على مصر ، وجعلت همها نحو كل أثر لتلك الدولة إلا من عصم ربه من هذا التعصب من بعض الأدباء كابن سعيد المخرمى الذى أشار إلى تميم في كتاب المغرب الجزء الخاص بمصر أكثر من مرة ، ونوه ببعض شعره في كتاب « عنوان المرقصات والمطربات » ، فاختار من شعره المرقصين قوله متفرلا :

أطلِّعُ الحُسْنَ من جبينك شمسا
فوقَ ورْدٍ من وجنتيك أَطَلاَ
فكان العذار خاف على الورد
جفقا فمد بالشعر ظلا

ذلك أورد له صاحب الأمية قوله :

(١) محمد عبد الفتى حسن في كتابه الأثر الشاعر تميم بن المازن من منشورات دار الرفاعي بالهاشم .

مِثَالُهُ بَاتَ فِيهَا الْبَدْرُ مُعْتَقِي وَأَمَسَتْ الشَّمْسُ لِمِنْ بَعْضِ جَلَامِي
وَبِتْ مُسْتَعْتَبِيًا بِالتَّغْيِيرِ عَنْ بَرِي وَبِالْخُلُودِ عَنْ التَّفَاحِ وَالْأَسِي
كَأُورِدَ بَعْضًا مِنْ أَيْتَانِ الثُّونِيَةِ الَّتِي حَاكَى فِيهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ الرِّقَايَاتِ
وَهُي :

أَسْرَبَ مَهْأً عَنْ أُمِّ مَرْيَمَ جَنَّةَ حَكِيَّتُهُنَّ وَلَسْتُ هُنَّ
أَنْتُنَّ أَنْجُمُ ذَا الْجَوْ أُمِّ بُرُوجِ النُّجُومِ جَلَالِيَهِنَّ
وَلَمْ أُرْغِدا سِوَاكُنْ مَسْنِ فَاشْهِنِ فِي لَيْهِنِ الْأَعْنَةِ

وَيُمْكِنُ مِنْ شِعْرِهِ أَنْ نَلْزِمَ حِفْظَهُ لَشِعْرِ كَثِيرٍ مِنَ الشُعْرَاءِ الْمَعْرُوفِينَ ، وَبِحَالِ
عَامِلٍ أَوْ غَيْرِ عَامِلٍ أَنْ يَسْتَعِينُ بِصِيَاجَتِهِمْ ، أَوْ قَدْ تَغَلَّتْ عَلَى لِسَانِهِ قَوَالِبُ تَعْبِيَةِ
لَهُمْ ، وَنَحْسُ أَحْيَانًا فِي بَعْضِ أَوْزَانِهِ أَنَّهُ وَضَعَ ثَمُودَ جَا لِقَصِيدَةِ شَاعِرٍ بِعَيْنِهِ أَمَامَهُ
فَاتَّقَدَى بِهِ أَوْ تَأَثَّرَ بِأَسْلُوبِهِ كَهَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي إِشْرَتْ إِلَيْهَا مَعْتَمِدًا قَصِيدَةَ لَابِنِ
قَيْسِ الرِّقَايَاتِ يَقُولُ فِيهَا :

بَكَرْتُ عَلَى عَوَائِلِ يَلْحَبِّي نَيْسَى وَالْوَهْمُ هُنَّ
وَإِنْ لَمْ يَمِثْلَهُ وَزَنَا هَلْ قَافِيَةٌ .

وَعَارِضُ دَاعِيِ الدَّعَاةِ تَمِيمًا عَلَى الْوِزْنِ نَفْسُهُ ، كَمَا رَكِبَهُ أَيْضًا أَبُو الْعَلَاءِ ، فِي
قَوْلِهِ مِنَ الزُّوْمِيَّاتِ :

لَأَمَوِ الشَّيْبَةَ كَيْفَ غَبَضْتَهُ وَرَوْضَاتِ الصَّبَا كَالْبَيْسِ إِضْنَةً
وَكَا أَتَقْدَى بِالْمَتْنِيِّ فِي مَدْحِهِ الْعَزِيزُ بِاللَّهِ تَزَارَ إِذْ قَالَ (١) :

مَا قَالَ آوِي لِقَلْبِهِ وَهَآ كَمُسْتَرْجِحِ الْقَوْلِ آوَاهَا
كَبُرُّ النَّفْسِ مِنْ بَلَابِلْهَا يُقْسِدُ إِقْرَارَهَا وَدَعْوَاهَا

وَهَا صِيَاجَةٌ مِمَّا تَلَّهُ لَصِبَاغَةِ الْمَتْنِيِّ فِي قَوْلِهِ : « أَوْهُ بِدِيلِ مِنْ قَوْلِي وَهَا » ، وَكَأَنَّ
جَاءَ فِي شِعْرِهِ بِمَدْحِ أَخَاهِ الْعَزِيزِ كَذَلِكَ :

أَرَى أَنَا سَأَ وَلَكِنْ جَلَّهْمُ نَعَمْ كَثُرَ قَلِيلٌ وَمَوْجُودُونَ قَدْ عُدُّوْا

(١) ديوانه ص ٣٤ .

من قول المتنبي ووزنه :

أرى أناساً ومحصُول على عَنَمٍ

ونستطيع القول بأنه حين نظم هذه القصيدة كان مستحضراً في ذهنه قصيدة المتنبي الميمية هذه .

وكما يستعين بالشعر القديم ، فهو متأثر كذلك بأسلوب القرآن لفظاً وصياغة كقوله في أرجوزه مفتخراً بنسبه للنبي ﷺ (١) :

أنا ابن من شَفَعَ يَوْمَ الْمُحْشَرِ
وابنُ الذي حُصِرَ بِنَهْرِ الْكَوْثَرِ
وابنُ المعالي والفَخْرِ الأشهر

ويقول مادحا العزيز (٢) :

يا حُجَّةَ اللَّهِ التي أَشْرَقَتْ فينا ويا صاحب كنزِ الجِنْدَارِ

يشير إلى قوله تعالى في سورة الكهف « وأما الجبلار فكان لغلामين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما » (٣) ، ويطلق الجدار في التأويل الإسماعيلي على الدعوة ، وكنز الجدار على الإمامة ومنه قوله مادحا :

يَكْفِي عِدوكَ أَنْ اللَّهُ يَلْعَنهُ	وَأَنَّهُ لَا يُرَى إِلَّا عَلَى حَنْزِرٍ
وَإِنْ كَلَّ قَوَائِدُ عَنْهُ مَنَقِبُضٌ	وَكُلَّ قَلْبٍ لَهُ أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ
جَهَنَّمَ الْخَالِفَةُ لِمَا أَنْ دَعَتْكَ كَمَا	وَافَى لِمِيقَاتِهِ مُوسَى عَلَى قَنْزِرٍ
كَالْأَرْضِ جَاذَعْتُهَا الْغَيْثُ مُنْهِيلاً	فَزَانِهَا بِضُرُوبِ الرُّوضِ وَالزُّهْرِ
مَا أَنْتَ دُونَ الْعَالَمِينَ مَبْرُورٍ	رُوحٌ مِنَ الْقُدْسِ فِي جِسْمٍ مِنَ الْبَشَرِ
نُورٌ لَطِيفٌ تَنَاهَى فِيكَ جَوْهَرُهُ	تَنَاهَيْاً حَازَ جَوْ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
مَعْنَى مِنَ الْعِلَّةِ الْأُولَى الَّتِي سَبَقَتْ	تَخْلُقُ الْهَيْلَى وَيَسْطُ الْأَرْضَ وَالْمَدِيرَ

قوله معنى من العلة الأولى يشير إلى مثل ويمثله العقل الكلي أو المبدع الأول الذي سماه هنا العلة الأولى ، وهذه كلها معاني من عقائد الإسماعيلية وبهنا هنا

(١) ديوانه ص ٢٤٠ .

(٢) ديوانه ص ٢١٩ .

(٣) سورة الكهف آية ٢٢ .

توظيفه لبعض عبارات القرآن الكريم في سياق معانيه التي مدح بها الخليفة
كقوله : « كما وافى بمقاتته موسى على قنر » وقوله روح من القدس وقد يستعمل
مصطلح العقائد والمثل كقوله : (١)

تَشِيخُ الحُسْنِ فِيهِ إِذََّ أَلَمَ بِهِ وَقَلْبُهُ نَاصِيحِي لَيْسَ يُقْتَرُ (٢)
ويستخدم في بعض الأحيان من قاموس الشعر العربي القديم ألفاظاً لأسماء
الأمكان والنبات والحيوان التي كثر دورانها فيه كقوله : (٣)

رَبَعَ لَأَسْمَاءَ يَرْتَجِ دَارِ بَيْنَ نَقَا الصَّمَانِ فَالضَّمَارِ (٤)
تَابَذْتُ إِلَّا مِنَ الْإِقْقَارِ وَمِنْ شَجِيجِ فِي الثَّرَى مُؤَرِّ (٥)
وَشَطَرِ نُؤْيِ دَارِيسِ الْأَثَارِ كَأَنَّهُ مَقْسَمُ السُّوَارِ
أَخْنَى عَلَيْهَا كُلَّ غَايِ سَارِ وَأَنَّى الرِّبَابِ شَاسِجِ الْأَفْطَارِ (٦)

فهذه الأبيات من أرجوزة بلوية الطابع ، جاهلية البناء واللفظ والأخيلة والصور
يقول فيها واصفا السحاب والمطر :

وَأَهِي الْكَلَى مُنْفَقِي الْأَزْوَارِ كَأَنَّ لَمَعَ يَرْقِي الثُّلَارِ
يَقْشُرُ مِثْلَ أَوَارِ الثُّلَارِ أَوْ مُتَضَي سَيْفًا مِنَ الثُّلَارِ
أَوْ لَاعِبِ فِي الْأَفْقِ بِالثُّلَارِ يَكَاذُ أَنْ يَنْحَبَّ بِالْأَهْمَلِ
حَتَّى إِذَا أَرْنَحَى عَلَى الْقِفَارِ هِيدُهُ لَيْلًا بَلَا لِقِفَارِ
وَكَمَحَلِ الْجَوِّ بِبَيْلِ الْقَارِ وَقَامَ فِيهِ الرُّعْدُ كَالْمِرْمَارِ
غَنَتْ لَهُ الرِّيحُ بَلَا أَوْتَارِ مَا ظَلَّ فِي رَفِيعِ وَفَى انْتِجَارِ

ويحلو له أحيانا في مثل هذا الرجز البدوي أن يمتن بعض الرجاز المعروفين من
أمثال رؤية والعجاج كقوله (٧) :

- (١) ديوانه ص ١٣٢ .
- (٢) والتابعة عند الشيعة هم أهل السنة لأنهم نصبا خليفة لهم من عند أنفسهم وتركوا صاحب الحق
أشرعى وهو عل بن أبي طالب في رأيهم .
- (٣) ديوانه ص ١٧٥ .
- (٤) اللسان والضمائر مواضع بالجنوة العربية .
- (٥) الشجيج الرود .
- (٦) الرِّبَابِ السحاب .
- (٧) ديوانه ص ١٨٠ .

« حوصامت أخو بعلته الفرقد » « مشتبه الأعلام جهنم » المشتهد
 مررت الزها على القراء فذقد يحار فيه كل هار مهتد
 صلب السلايت صليب الجلمد يُعرض فيه الريح بعد المقصيد
 والسلايت جمع سروت وهو الفقر لا نبات له .

ألا ترى كيف تُبدى تميم وخلع عن نفسه ثوب الحضارة .
 وأجيز تميم البدوية تنفرد وحدها عن قصائد ولها خصائصها الفنية المميزة .
 وأما معانيه فكثيرا ما تلبس ثياب القديم ، أو قل هي الصور التقليدية للمعالي
 وإن كان يدخل عليها بعض التجديد من قاموس المحدثين والنولدين .

فمن تشبيهه للبق بالسيف :
 يلوح ويخيو في السماء كأنه سيف بأرجاء السماء تقب
 وهذا يذكر بيت الشعر القديم :
 يبدو وتضمه التلاع كأنه سيف على شرف يسل ويغمد
 وكذلك معاني ذو الرمة في تعبيرة عن سلوكه الليل في الصحراء ومعه راحلته
 وسيفه يقول (١) :

وليلة أسريت فيها ولا	بلو ينو الأرض إلا سرار
كالقطة الدعجاء زنجية	كافرة لمع نجم المدار
وصاحي ذو رونق صارع	مدرج المتن ماضى الغرار
أنحف من ضعف نسيم الصبا	حدا ، وأمضى من ظبا الأحوار
حتى طرقت الحى من وائل	والجو مكحول التواحي بقار
والقم من سوره كأس الكرى	كأنما يملأ بصرف العقر

لكن الشاعر هنا يمزج ما أخذه من معنى ذى الرمة بأخيلة جديدة من عنده
 فهو يكسوه ثيابا جديدة فضلا عن تفصيله وتوليد .

ومن صوره التشبيهية التي احتذى فيها المحدثين قوله يصف الروض غب
 المطر (٢) :

(١) ديوانه ص ٢١٧ .

(٢) ديوانه ص ٣٠٤ .

أما ترى الرعد بكى واشتكى
فاشرب على غيم كصبغ الدجى
والبرق قد أومض فاستضحكا
أضحك وجه الأرض لما بكى

اعتمد فيه قول الشاعر العباسي :

كل يوم بأقحوان جديد
وعلى أن بعض معانيه الغزلية تجرى
تضحك الأرض من بكاء السماء
المعروفة من مثل قوله :

إن الطمائن يوم رحلة عاجل
أبرزن من خلل الستور محاجرا
ملكن كل حشى لكل غرام
مكحولة بملاحة وسقام
فبمشقه بإشارة الإيهم
وسفرن عن كالدر ألس أشنب
حتى يقول :

لو كنت أقضي بالتناسخ في الورى
ولانغماسه في لذة النساء والخمر تراه يشتق منها بعض تعبيراته ويشتق
لحسبت أنى عروة بن حزام
استعاراته ، من مثل قوله :

كأن برد نسيم الغيم حين بدا
ويغرب أحيانا في خيالاته وصوره فيصور خصلة الشعر مضربا وتفتح الخد
بردارتشاف حبيب زآلى السحر
كرة ، فيقول :

كأنما صولجان عارِضه
وتكثر صورته الجذبة في موضوعاته الحضرية ، في خمرياته ، وغزلياته ،
في الخد يهوى لضرب تقاحه
وروضياته .

يقول ذاكرة مجلس شراب وسط روضة غناء :

شربنا على نوح المطوقة الورق
معققة أفنى الزمان وجودها
وأردية الروض المفوقة البلق
فجاءت كفوت اللحظ أورقة العشق
لنا ، وكأن الراح فيها سنا البرق
كأن السحاب الغرأصبحن أكواما

فبتنا نحت الكأس حثا وإننا لنشربها بالحث صرفا، ونستقي
إلى أن رأيتُ النجم وهو مغرب وأقبلن رايات الصباح من الشرق

ويصف الصبح مرة أخرى وهو يذوب على الهواء ، فيقول :

والصبح قد ذاب على الهواء كالتلج أو كالفضة البيضاء

وفي مجالس الخمر والطعام صورٌ شعرية لتلك المجالس ، يفيض عليها من خياله
ضروباً من التعبيرات الاستعارية ، والتشبيهات الغريبة كأن يصف مجلساً له ويطلب
إلى الساق أو النديم أن يسقيه في وزن موافق وقافية بائية ساكنة ملائمة في إيقاعها
لصخب المجلس . يقول (١) :

فقم إلى الراح فشب	بالماء منها ما صلب
وسقنى بنت العنب	واقض من اللهو الأرب
أبما ترى العود اصطخب	وقد مشى الزمر خبيب
والطبل يعبر وشب	والراح ترمى بالحبيب
تدور في غير قطب	تقتل سكرًا من شرب
إن ترم ندمانا تصب	فمقلسه لها سكب
لكن يعود عن كب	فاشرب وثب من ذى النوب
ما لأن وأترك ما صعب	وعد عن ليت ورب
فالدهر قدما ذو شغب	فاقطع لياليه طرب
فكم نأى ما قد قرب	وارتد مرا ما علب
وتعاد بالأمن الرهب	والهم عجز وتسعب

فهذه الباء الساكنة مع المجزوء الدافق لهذا البحر الذى اختار لإيقاعه بمائل
صوت الطبل ، وتزدد ضرياته ، في صخبه وعريدته .

ويصف لنا مجلساً من مجالس العزيز بالله نزار غنى بأصناف الطعام والفاكهة
والزهر فيقول :

ومجلس قد حاز من حسنه	مثل الذى حاز من المجد
يضحك للتفاح نارجه	وهغمز الترجس للورد

(١) ديوانه ص ٧٣ .

والبس النارج ما بينها صفرة من عذب بالصيد
وانتصب الليمون من حوله مثل انتصاب التهد للتهد

وفي صورة للطبيعة من رياض وبساتين يصور الترجس صورة خيالية فيقول ومن حوله النسر والاس :

إذا رنا نرجسك المشتى بأعين فيهن إطراق
كأنما فاجأها كاشع بكل ما تكره سباق
فابيض منها لمناجاة محاجر واصفر أحداق
وابتسم النسر من حوله فهو صقيل الثغر براق
واستياأس الآسى من الملقى فهو من الرعدة تخفّاق

وفي صورة الخيالية للسحاب وقد انتشع فأطلت الشمس من وراءه لتلقى بأشعتها على الروض ثم تعود فتختفي^(١) :

أو ما ترى شمس النهار ودونها من مستهل الفجر ستر مسجف
بنجاب عنها تارة فيبينها وتغيب طورا في دجاء فتكسف
فكأنما ليست قباء أزرقا أو مد من مخز عليها مطرف
وبدا لتشر الروض من بعد الندى ريح كرخ المسك بل هي أشرف
ورد حكي جعل الخلدود ونرجس يحكي العين بأعين لا تطرف
فهيون ذاك بمسجد مكحولة وخلود ذا من عندهم تتخلف

فهو ينفق في صورة من ما عون بيته كما كان حال ابن المعتز ، فأدواته من الخنز والمسجد وما إليها .

ومن غرائب خيالاته في التشبيهات المفردة قوله يصف السماء ليلا والنجم تتخللها :

وكان الدجى غداثر شعر وكان النجم فيه ملارى
وهي صورة غريبة في تركيبها ، وإن كانت جزئياتها مطروقة ، فتشبه الليل بالشعر أو الشعر بالليل جار في كلام الشعراء ، لكن جعل النجم كالملارى تتخلل ظلام الليل أو سواد السماء ، فهذا هو الخيال الغريب .

(١) ديوانه ص ٢٢٢ .

كذلك تعبیه عن زوال الليل واشراق الصباح بنوره وهم في سكرة من كؤوس
الخمر :

لم نزل نلثم الكؤوس إلى أن دفن الليل في فؤاد النهار
مرأى خيال غريب في قوله : (دفن الليل في فؤاد النهار) !

وصوره كما قلنا مأخوذة من عالمه الذي يعيش فيه ، عالم القصور بما تحوى من
فاخر الثياب وأواني الذهب والفضة ، والحلى وثياب الخز والمطارف والطرز ومن
الجواري الحسان وصور العلمان والعبيد من الروم والسودان ، ومن البساتين
العامرة بالورن الزهور والثمار والمياه الجارية .

كما أخذها من مخزنه الثقافي ، من صور الشعر القديم ، ومن مخزنه التاريخي
والعقيدى من سمر الأسلاف ، وأحداث التاريخ ، وما اتصل منه بالأحداث التي
لحقت بأئمة الشيعة والعلويين ، ألا تراه يوظف مقتل أئمتهم في قوله متغزلاً (١) :

لا تمكن لحظ عينيك من قتلى فما اللحظ فيه بالمغفور
لا تكن للنبي فيه خصيماً عند رب النبي يوم النشور
فما أنه أحد أبناء الحسين حفيد النبي ﷺ ، فإن قتله يفضيه ، فيكون
خصيماً يوم الحشر فلا يشفع له حين يشفع لأئمة .

بناء القصيدة :

والقصيدة عند تميم عامة يتردد في بنائها بين القديم والمحدث ويأخذ نفسه
أحياناً بنهج شعراء العباسيين في القرن الثالث ، فبغلت من إسمار القديم حين يخلو
لأحاسيس الذاتية ، ويبادر لذاته من بحر وغزل غير رسمي في مقدمات قصائده .
وذكرنا أنه يبنى قصائده شعراً على أوزان الخليل المعروفة ، وإن كانت تروج عنده
بحور بعينها يكثر من استخدامها ، كما يكثر كالمحدثين من مجزوعات البحور .

وله بالرجز ولع خاص ، فهو غير قليل في ديوانه ، يمكن كما أشرنا أن يفرد ،
ويصنع به صنيع أتي نواس ، يستخدمه في طردياته ، وهو لائق بها إيقاعاً ويصف
رحلات الصيد ، والخليل والبازي من طيور القنص .

(١) ديوانه ص ٢٢٢ .

رحلات الصبـد ، والحـلـل والبازي من طيور القنص ، كما يركبه أحياناً في وصف
محاسن اللهو .

وتراكيبه الشعرية يعتريها الوهن أحياناً ، وتعرّضه القافية المتمكنة فيأتى بأخرى
قريبة تحس بقلقلها في مواضعها ، فهو على سبيل المثال يصف جواده بالسرعة
يقول :

وسابق الرق المثار بخطوه وزيد فيه على الصبا والشمال

فتمحس هنا بأن القافية غير موفقة في موضعها ، فالمعنى يقتضى قافية أخرى ،
فمريرد أن يصف سرعة الجواد بسرعة الريح ، وريح الصبا ليست ريحاً قوية ، بل
هي ريح رقيقة حبيبة لدى العشاق لأنها تحمل روائح الأحبة مع عطر رياض نجد ،
وتقرأها بالشمال غير موفى من الشاعر ، فالشمال ريح باردة ، تلقى ببردها
يردها ، وتقذف وجوه الغادين بحاصبها .

وبغـر في هذه القصيدة نفسها ببعض أبيات غنـلة التركيب كقوله :

فكأنما لبس الخلود ولاح في جلد برعان الضحى مشرل
يخفى وراء قذاله من طوله في السرج فأرسه عن المستقبل
فضلاً عما في البيتين من تنافت المعنى .

وترى أن القافية أقحمت على يته الذي يقول فيه :

وبدا لنشر الروض من بعد الندى ريح كريح المسك بل هو أشرف
فضلاً عما تمحسه من هلهلة في النسيج .

وقد يلجأ تميم في بناء أبياته إلى الضرورة ، من تغيير في بناء اللفظ أو تحريك
ساكن ، وتغيير لإعرابه ، أو لجوء إلى بنية شاذة ، ولفظ غريب وما إلى ذلك من
ضرورات التي يلجأ إليها الشعراء لمواءمة الوزن ، والشاعر الذي يكثر من الضرورة
غير متمكن من الصنعة ، ولا يملك زمام لفته .

ويستخدم الشاعر البديع من جناس وطباق ومزوجة في نسيج شعره بقدر ،
ولا يسرف فيه إسراف غيره من المحدثين العباسيين ، كما يستخدم في تخيلات
تشبيه والاستعارة ، ويستعين بالتلميح والإشارة ليطلق كامن ما يوحي به من

مختزن المعاني والصور ، وما تستدعيه من صور رملية ، وهو لا يفرق إغراق ابن المعتز ، وإنما يأتي بالتشبيه غالباً متسقاً مع موضوعه وخيالاته التي يطلقها .

وأما بناءه الموضوعي للقصيدة ، فهو لا يلتزم بنسق بعينه ، وبالضرورة فهو لا يلتزم النظام التقليدي من البدء بالنسب أو الغزل ثم الخروج منه إلى الرحلة والراحلة ثم يعدل إلى الموضوع .

وقد يلزم بجزئية من هذا النظام ، في بعض قصيده بدوى الطابع أو رجزه ، ولكنه كثيراً ما يعدد مسالكه ، وصور بنائه ، فيبدأ قصيدته مفتخراً أو شاكياً ، أو متغزلاً ، أو واصفاً مجلس سحر أو مجلس غناء أو منظر روض .

وقد بدأ قصيدة المدح بمحدث عن الغناء والموسيقى كأن يقول في مدح والده المغز :

شكا العود بالأتار شجوا فأطربا وترجم عن معنى الضمر فأطربا

وكل هذه السمات التي نلاحظها في بناء تميم لقصائد شعره ترجع إلى أنه شاعر مطبوع ، غير صاحب صنعة ، لا يقول الشعر تكسبا يراعى فيه مملوحاً ، ولا يلم بين قوله ، ومقامه ، لكنه يقول الشعر هواية يتغنى به ولا يعبأ كيف جاء ، ولا يعنى نفسه بتثقيفه أو إعادة النظر فيه . ومن هنا كانت هذه الطلقية التي تغرب به أحياناً ، والتي قد توقعه في أخطاء اللغة القياسية أو بعض تجاوزات إيقاع العروض الخليلي .

-٢- الرّسّيون

وهم جماعة من شعراء الأشراف الحسينيين ينسبون إلى الشريف الرّسى أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٣٥٢ هـ بمصر في عهد كافور الإخشيدي .

ويختلط اسمه أحيانا بالشاعر الناقد الأصفهاني محمد بن أحمد بن طباطبا المتوفى سنة ٣٧٢ هـ (١) صاحب كتاب عيار الشعر ، وكثيرا ما تناقل الكتاب أشعارهما ، ونسبة بعضها إلى غير صاحبها من الشعaren لا اشتراكهما في الكنية « ابن طباطبا » .

ووقع لي هذا الوهم ابن خلكان في ترجمته لأحمد بن محمد الرّسى ، حيث يقول (٢) : « ومن شعره المنسوب إليه في طول الليل ، وهو معنى غريب :

كَأَنَّ نَجِيمَ اللَّيْلِ سَارَتْ نَهَارَهَا فَوَافَتْ عِشَاءً، وَهِيَ أَلْفُضَاءُ أَسْفَارِ
وَقَدْ خَيَّمَتْ كَى بِسْتَرِيحِ رُكَايَهَا فَلَا فَلَكَ جَارٍ وَلَا كَوَكَبٌ سَارِ

ثم وجدت هذين البيتين في ديوان أبي الحسن بن طباطبا من جملة قصيدة طويلة . ثم يقول بعد ذلك : « ولا أدري من هنا أبو الحسن . ولا وجه النسبة بينه وبين أبي القاسم المذكور . والله أعلم » .

ويشارك أبو القاسم الرّسى هنا مع جدّهما الأعلى إبراهيم المنعوت بطباطبا . فشاعرنا أبو القاسم أحمد ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم طباطبا . وأما صاحب عيار الشعر الأصفهاني الاقامة فينتهي إلى محمد بن إبراهيم طباطبا . وكلاهما يكتنى بابن طباطبا . ومن هنا جاء الخلط .

ويبدو أن آل إسماعيل غادروا أصفهان إلى مصر واستقروا بها زمن الدولة الأخشيدية وبلغوا عند المصريين مرتبة رفيعة ، فتولى أبو القاسم أحمد نقابة الأشراف كما يقول ابن خلكان . يقول :

« الشريف الحسيني الرّسى المصرى . كان نقيب الطالبيين بمصر ، وكان من

(١) راجع مقدمة عيار الشعر ، بتحقيق المؤلف .
(٢) زينات الأعياد ١ / ١٣٠ . بتحقيق د. إحسان عباس ، طبع بيروت .

أكابر رؤسائها . ينسبته إلى الرس من بطون السادة العلوية على قول ابن خلكان (١) .

قال : « وله شعر بليغ في الزهد والغزل ، وغير ذلك . وينقل عن الثعالبي في التسمية بعض خبره وشعره » .

وكانت له علاقة بكاتب السر الحسن بن علي الأسدي . يذكر الثعالبي أنه بعث إليه يطلب كتابه المعروف « بالأنيس » ، فأجابه الأسدي شعراً بقوله :

قد بعثنا بمؤنس لك في الوحش . حق خل ، يدعي كتاب الأنيس
فيه ما يشتهي الأديب من العلم وفيه جلاء قسم النفوس
فيه ما شئت من بدور معاني ضاحكك إلى وجوه شمس
والنفس البهي مزال يهني كل حين إلى البهي النفس
فلما قرأ الرس رفته كتب على ظهرها ارتجالاً :

قد قرأت الكتاب ياخذل نفسي فهو لي مؤنس ، وأنت الأنيس
فهو تأليف ذي ذكاء وفهم وهو وقف على العلوم حبيب
وما ذكره الثعالبي من شعره ، قوله يتغزل في ساق :

يا بلر بلر يايز إلى بالكاس قرب خمر آتى على ياس
ولا تهمل يدي فإن فبي أولي بها من يدي ومن راسي
لا عاش في الناس من يلم على حي وعشقي لأحسن الناس
وقوله :

قل للذي حسنت منه خلقة باكر صبحك واسبق من تسابقه
أما ترى الغيم مجموعاً ومفتراً يسير ، هذا إلى هذا بمناقته
كعاشق زار معشوقاً يؤذعه قبل الفراق ، فإلى لا يفارقه
وقال في الحب والغزل :

قالت: أراك خضبت الشيب قلت لها : سترته غلطي يا سمعي بها بصري
فاستضحكت ثم قالت من تعجبها : تكاثر الفيش حتى صار في الشعر

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

وقال :

عُذِّبْتُ بِالنَّوْمِ جَوْرًا وَظَلَمًا
إِسْمِي حُجَّتِي ، وَإِنْ كُنْتُ أَدْرِي
لَمْ أَنْمَ لَلَّهَ ، وَلَا نَمْتُ إِلَّا
وقال مما يتغنى به :

قَالَتْ لَطِيفُ خِيَالٍ زَلَزَلِي وَمَضَى
قَالَ : أَبْصَرْتُهُ لَوْ تَمَتَّتْ مِنْ ظُلُمٍ
قَالَتْ : صَدَّقْتَ ، الْوَفَاءُ فِي الْحُبِّ عَادَتُهُ
وقال :

خَلِيلِي إِنْ لِلدُّنْيَا لِحَامِيْدٌ
أَبْقَى جَمِيعًا شَعْلَهَا وَهِيَ سَبْعَةٌ
كَذَلِكَ مِنْ لَمْ تُخَيِّرْتُهُ مَنِيَّةٌ
ويقول :

سَأَعْتِبُهَا حَقِّ مَا اسْتَعْتَبْتُ
وَسَوْفَ أَجْزِيهَا بِالصُّلُودِ
وينتقى ابن سعيد من مליح شعره قوله (١) :

أَأْتَرُكَ الشَّرْبَ وَالْأَلْوَاءَ دَائِمَةً
وَالْفَصْرُ يَتَزَكَّى كَالشَّوَابِ مِنْ طَرَبٍ
لَا وَالتِّي تَرَكْتَنِي يَوْمَ فَرَقْتِيهَا
والطَّلُّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَشُورٌ
وَالْوَرْدُ فِي الْعَوْدِ مَطْوِيٌّ وَمَنْشُورٌ
كَأَنَّمَا الرَّثَمَلُ فِي عَيْنِي مَشُورٌ

وهكذا نجد معظم ما قال من شعر في الخمر والغزل ووصف الطبيعة كما نقل
كل من الثعالبي وابن سعيد ، ولا نجد بين تلك المختارات ما يتصل بالزهد على ما
ذكر ابن خلكان ولم يورد مثلاً عليه .

(١) المؤلف من ٢٠٣ .

وذكر ابن سعيد أياتاً في موت الاخشيذ طمع بعض وراثته في الملك : يقول :

ماث إخشيدنا فما نحن في أمس سر مري ، وكل كَفْ تَمْد
كلكم طالب بجِد وجرص إنما الشأن أن يوافق جَد
يا ولاة الأمور إن لم تنبوا لانتظام فقد تناثر عقد

ونقل عن المسبحي المؤرخ المصري قوله : وكان أدبياً شاعراً مُتَصَرِّفاً في العلم .

ويضيف مختاراً من شعره في موضوعات الوصف والغزل والعتاب . يقول :

وكانَ الهلال لما نبذ شطر ضوق المرأة للتدبيب
أو كقوس قد انمخت أو كنز في كثر في مهر مكتوب
وكقوله : (معاتباً) :

أنكفُ ربا أوليت في كل مخلف بغيب ، وتلقاني كأنك شاكر
وتأني بذنب كلما جئت عاتبا فكم أنت ذو نجف وكم أنا صابر

وقال :

بتم وخلتم أننى متغير بالبين عند ترجل الأظمان
لا والى جعل الدموع بمقلتي أبدا تجود بعرضي جتان
ما اخترت تبديل المؤدة ساعة بعد الذى هجر الحمى وجفاني
أنا ذاك لا عهدى يغير بالتوى أبدا ، ولا وجهي يميل للثاني
وإذا وثقت بود من أحبيته فبعاده ودنوه سيان

قال القُرطبي : وكانت وفاته ببلده في مصر مدة كافور سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة وكانت سنة يوم توفى أربعاً وستين سنة .

وترك من أبنائه الشعراء اثنين هما أبو محمد القاسم ، وإبراهيم .

وإن كان أحمد لم تتصل أسبابه بالدولة الفاطمية لوفاته قبل وفود المعز وبناء القاهرة بسنوات قليلة إلا أن ولديه أبا محمد القاسم ، وأبا اسماعيل إبراهيم عاصرا

صدر الدولة الفاطمية كذلك فعل حفيده أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن أحمد (هكنيه ابن سعيد بأبي إبراهيم) (١).

وكان هؤلاء الثلاثة من الشعراء ، وشعرهم أشبه بشعر الأب والجد ، إلا أن ما اختاره الثعالبي للثلاثة لا يشفى غليلاً ، وكذلك ما فعله ابن سعيد لمحمد .

وربما كان حظ الحفيد الحسين بن إبراهيم أوفر من أبيه وعمه .

وهو في الثعالب في اليتيمة أن أبا الرقعمق أحمد بن محمد الانطاكي ، اتصل بإبراهيم بن أحمد ومدحه بقصيدة يقول فيها (٢) :

حَبْلًا الرَّمِي مَوْلَى	رَضِيَ الثَّامِسُ وَلَا
جَعَلَ اللَّهُ أَعَادِيهِ	هُ مِنْ السُّوءِ فَنَدَاهُ
فَلَقَدْ أَهْمَنَ بِالنُّورِ	مِنْ حَلِّ ذُرَّةِ
مَنْ رَفَى حَتَّى تَنَاهَى	فِي الْمَعَالَى مَرْتَنَهُ
فَاتَّ أَنْ يَتَلَعَّ فِي السُّ	حُودٍ وَالْمَجْدِ مَنَاهُ
مَيْلِكَ مَذْكَانَ السُّ	طُورِ مَمْنُوعِ جَمَاهُ
بَحْرٍ جَوْدٍ لَيْسَ يُلْزَمُ	أَيُّنَ مِنْهُ مُتَنَبِّهُهُ
لَمْ يَضُخْ مِنْ كَانَ إِذَا	هَمُّ فِي النَّاسِ رَجَاهُ
لَا وَلَا يَفْرُقُ مِنْ صَرَفِ	زَمَانٍ إِنْ عَرَاهُ
مَنْ بِهِ اسْتَكْفَى أَذَى الْأَيَّامِ	مِ وَالنَّهْرِ كَفَاهُ
كَيْفَ لَا أَمْدَحُ مَنْ لَمْ	يَخْلُ خَلْقٍ مِنْ كَلَاهُ

وكان الحسين الحفيد ، وهو أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن نبيه الأشراف الحسينيين في عهد العزيز نزار بن المعز لدين الله ، وكان أديباً شاعراً ، وله مكانة ووجاهة في الفسطاط عصر الفاطميين ، وكان على قدر من الفراء ، لأن الفاطميين كانوا يقدرون على الحسينيين والحسينيين من الأشراف لقرايتهم ، ويحبرون عليهم رواتب فكانت لهم الضياع والبساتين والقصور . وعاشوا عيشة راضية .

وجمعت الصداقة والأخاء بين الشاعر الحسين والأمير تميم بن المعز ، وكانت بينهما أشعار ومجاوبات ، يقول ابن خلكان : « كان شاعراً أديباً رقيقاً ، قاسم

(١) للمغرب ص ٢٤٩ .

(٢) حجة الدهر ١/٣٩٠ .

الأمير تميم بن المعز شرف النسب وعلو الجسب ، وترث الفضل والأدب . وكان بينهما مودة ومراسلات شعرية رائعة (١) .

وقال ابن سعيد (٢) : « وهذا الشريف الرسى هو الذى كان بينه وبين تميم بن المعز مجادلات بالنظم ، وكان يكثر التنزه معه فى بساطينه وفرجه » .
وذكر له التتعالى أياتاً هى قوله (٣) :

شُمُّ النسيمَ لذيلاً	من قبل أن لا تُشْمَ
واصرف عن القلب ما است	سطعت بالمسرة همة
وغالط الدهر إن كنت	ست نلت تملك حكمة
وقد نصحتك جهدي	فلا تصم وتكتمه

وقوله فى الغزل :

صفت عينا نوار	ولقد كانت تزور
ثم قالت كيف أودى	ذلك الغصن التظير
قلت : إن أنصفت هذا	لابن خمسين كثير

وقتل له ابن سعيد بيت يقول فيه :

لم تبت ، وهى لاقى الناس حسناً وحقيق مثلها أن يمتها

وكان أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم صديق الأمير تميم قد عاش فى كنف أبيه ثقيلاً للأشراف ثم تولى هو نقابتهم بعد وفاته ، وكان تميم على علاقة وطيدة بإبراهيم ، وكان إبراهيم هذا دائم الاتصال بالأمير يقدم له الهدايا فى المناسبات ، والأمير يبادلها .

ويبدو أن دارهما كانت متجاورتين على النيل ، كما كان للرسيين بساطين قرب بستان الأمير على بركة الحبش جنوبى الفسطاط وبالجيزة وغيرها .

(١) وفيات الأعيان ١ / ١٣١ .

(٢) المغرب ص ٢٤٩ / ٢٥٠ .

(٣) نبتة الدهر ١ / ٥٠١ .

وتوطدت العلاقة بين الأمير وأبي عبد الله ، فلم يصبر أحدهما على فراق الآخر . وشهد ديوان تميم بالمطارحات الشعرية والرسائل المتبادلة ، تحمل حرارة المودة ، ودفع الصداقة .

فمن هذه الرسائل الشعرية رد على أبي عبد الله الحسين وقد استهدى من الأمير غروباً من الزهر لبستانه فكتب إليه بعد وصولها .

وصلت هديتُكَ التي أرسلتها	يا سيّد الكبرياء والأمراء
فحكّت لنا طليباً خلائِكَ التي	أورثتها من رابع الخلفاء
فاسلم وعش فيما تحبُّ فإنّه	وقف عليك الذّهر درُ ثنائِي
هي جوهر في البيت إلّا أنّها	تفتى وتبقى جوهر الشعراء
فأجابه الأمير بقوله :	

أما الرّياضُ فإنّها مسروقة	للبيت من ألقائك الفراء
إني بعثتُ بها إليك وألّيتها	للنواثِ إطرقي وذات حياء
كالشيء يستبديه متى ربه	أنتَ الأحقُّ بها وبالهداء
منك استعاذ الحسن كلُّ مُحسنٍ	فلك انتسابُ محاسن الأشياء
وظرفت حتى فقت كل مطرّف	ولطفت حتى فقت لطف الماء
ديباح لفظك فوق كل منوّر	لكنّ خيراً منه حسن صفاء
لا شيء أحسن من خليلي غبطة	يتراضعاني لئلاّ كل وفاء
هذا يُناجي ذا هوِي وتحافظاً	أبدأ ، ولم يستمتعاً بلقاء

وكان الأمير تأخر عن تعزيتة في وفاة والده إبراهيم ، فكتب إليه الأمير معتزلاً ، فرد الحسين على الأمير قائلاً :

يا سيّدي . وأميري	ما إن له من نظير
إني فقتلْتُ بفقدي	أبي ، جميع السور
فقتلْتُ منه بلاذي	فقتلْتُ منه نصيري
فقتلْتُ منه مُبينِي	فقتلْتُ منه مُجيري
فصرْتُ فرداً وحيداً	والأبني ذو عشرين
لا أعرف السهل والوع	رَ إن قصلْتُ مني

قد كنت أحتسب عليه
كأنما اللدحس أودى
فمن عديري من دحس
هلا بكته دماء
فكل أمر كبير
من للضعيف إذا ما
فوضت أمري إلى من
وأجابه الأمر بقوله :

يا من صفنا ود صدي
ومن تكدر عنيدي
ما مات ركنك إلا بقل
لو كنت أملك عمري
أو كنت أملك دفعاً
دافعت عنه المنايا
ما كان إلا يميني
لئن تولي حميلاً
حبسه بك فينا

وتبدو من القصيدتين مدى العلاقة التي ربطت بين الأمير تميم وإبراهيم وابنه
الحسين على ما اشرنا إليه .
ويقول تميم ذاكراً مودته ، وحبه للحسين وسعادته بمشاركته ملاذته وأنسه
وباقتراب داره منه (١) :

زاد ربي دثو ربيك منه
ساعة من جنى حديثك ما يس
ومعاطئك الكؤوس على رو
هو عندي ألد من ملك كسري

ألساً في القلوب والأبصار
من مباح الفنا وشرب العقار
ضرب المعاني ورقة الأفكار
واقتراضي الكواعب والأبكار

(١) ديوان تميم ص ٢٠٠ .

يقول تميم في ذكر يته الذي بناه الحسين على النيل :

أبهج النيل ما بنيث عليه كاتهاج السماء بالأقمار
وكذلك البقاع تفخر بالأجر ساد فخرأ يحظر كل فخر

وشارك الحسين صديقه تميماً في معارضة أبيات لابن المعز يقول فيها :

شجيت بلية القبل ووعد الكتب والرسل
فعارضه تميم بأبيات أولها :

شجيت بخلسة المقل ومزج الكحل بالكحل
وما اغفلت به الألقا ظ في أجفائها الشجل

فقال الحسين بن ابراهيم الرسي :

وحق تورذ الحجيل	وطيب تقرب الأمل
وحق الحب إذ يأتي	بحسن تكسر المقيل
وما أبداه من أهوا	ه من صد ومن عليل
وحقك يا أميرى ظل	س في قصف وفي جدل
لشعرك مشبه الماء الـ	لذي يروي صدق الغلل
وثوب البرء يلبسه الـ	لذي أشفى على العليل
وحائكه إذا نشـ	رت ثغصن سائر الخلل
فقول كله صدق	وعبد الله يشهد لي

يريد أن يقول إن أبياته فاقت أبيات ابن المعتز ، مجاملة ، وكان كل منهما يتي على شعر الآخر ويقرظه مجاملة .

ابن وكيع التميمي

ولد ابن وكيع ونشأ في مدينة تنيس على بحيرة المنزلة ، وكانت تقع في شمالها الشرق قريبا من مدينة بورسعيد وشمالها الغربى مدينة دمياط .

يوصف أحد العلماء العرب ممن وفدوا إلى المدينة بحيرة المنزلة وتنيس فيقول^(١) :

وبحيرتها التي هي عليها مقدار إقلاع يوم في عرض نصف يوم ، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحا لدخول بحر الروم إليه عند هبوب الشمال . فإذا انصرف نيل مصر في دخول الشتاء وكثر هبوب الريح الغربية فإن أهل تنيس يمزنون الماء في جباب ويعدونه لستهم .

ويقول ياقوت : وهناك فوهة يدخل منها ماء البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس ، وإذا تكاملت زيادة النيل في الفيضان غلبت حلاوته على ماء البحر ، فصارت البحيرة حلوة ، وعندنا يمزنون أهل تنيس الماء على ما ذكر في صهاريجهم ومصانعهم لستهم^(٢) .

ويذكرها المسعودي فيقول : تنيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها أسواء وطيب تربة ، وكانت جنانا وغخلا ، وكروما وشجرا ومزارع ، وكانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض ، ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض ، ولا أحسن اتصالا من جنتها ، وكرومها ، ولم يكن بمصر كروم يقال أنها تشبهها إلا الفيوم^(٣) .

اشتهرت تنيس في تاريخها القديم بالزروع والخمر . وقال ابن وصيف شناه « وحولها الزروع والشجر والكريم، وقرى، ومعاصر الخمر وعمارة لم يكن أحسن منها . وكثر بها الطير والسماك » ، ويقول ياقوت : « ولتنيس موسم يكون فيه من أنواع الطير ما لا يكون في موضع آخر ، وهي مائة ونيف وثلاثون صنفا منها السلوى والقمرى ، والزرزور والفاخرة والنواج ، ويصل إلى ثمانين طير كثير لا

(١) ياقوت — معجم البلدان ١ / ٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٨٨٤ .

(٣) خطط القزوينى ١ / ١٧٧ حسن نصار في مقدمة ابن وكيع .

يعرف اسمه صغار وكبار ، ويعرف بها من السمك تسعة وسبعون صنفا منها
اليورى ، والبلمو ، والبرو ، واللبب^(١) .

وأما أهلها فكان بها عدد من النصارى يحترفون صناعة النسيج وقد كانت عامرة
بالسكان كثرة الكنائس ، ومع هذا الخير الوفير الذى بها إلا أن أهلها كان فيهم
فقر ، وكان النصارى منهم يشتكون من البؤس .

وقال أحد الرحالة العرب عندما ذهب إليها والتقى بهم : إني لم أر من البؤس
فى بلد أكثر من بؤس أهلها وقد سألتهم ، فأجابون أن مدينتنا محاطة بالماء فلا
نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية والماء الذى نشربه يجلب لنا من بعيد ، ونشتري الحبرة
منه بأربع دراهم . ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فساؤنا تغزله ونحن ننسجه
ونعطي على ذلك نصف درهم فى اليوم من تجار الأقمشة ، ومع أن أجرتنا لا
تكفى لأطعام كلابنا ، فإن كلا منا يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنابر — كل
علم — لأنهم أهل دمة .

ولاشك أن هذا كان حال جماعة من فقراء تنيس النصارى .
وقد وصف أهلها لكثرة الغرائب بينهم بأن اخلاقتهم سهلة مُقادة وطباعهم
مائلة إلى الرطوبة والأنوثة^(٢) .

وهم يحبون النظافة والدُمائة والغناء واللذة ، وأكثرهم يبيتون سكارى .
وقد نشأ ابن وكيع فى هذه البيئة البحرية المصرية ، وجاء شعره بكثير من
ملاحظاتها ، وتبلو منه فرحة الإقامة ، ومتعة الانتباه للبلد ، ونشوة السعادة بمَنَاقِبِها
أحيانا بين لذات الخمر والغناء فيقول :

يَصْفُرُ من خوف المزاج لونها	وأشرب عقاراً طالَ فينا كوثُها
ألباتنا فى حُسنه حيارى	من كل ظننى من بنى النصارى
قد سَلِمَا من وَحْشَةِ السَّافِرِ	لأسيما مع مُسمعِ وزايرِ
مشروحة فى أحسن الليالي	فُونك هلى صفة الزمانِ

(١) المدهى ٦ / ١٧٧ .

(٢) المدهى ١ / ١٧٧ .

وقد اشتهرت تيس بشبابها الفاخرة المنسوبة اليها : فقال المقرئ :

وأكثر أهلها حاككة ، وبها تحاك ثياب لا يصنع مثلها في الدنيا .

وقال آخر : وبها تعمل الثياب الملونة والفرش والأبقلمون وهي ثياب من الحرير متغير اللون قيل أنه يبلو في ألوان متغيرة في كل ساعات النهار^(١) .

وبها يصنع الدقيقى ، والمقصور الشفاف ، والأردية ، وأنواع المناديل الفاخرة والفرش المعلم ، والطرار .. وبها خمسة آلاف منسج لنسج الأقمشة وكثيرا . نسجت كسوة الكعبة بها .

ومع هذا الاهتمام بالنسيج ، وغلبته على صناعة أهلها إلا أنهم اهتموا بالعلم والعلماء ، بالأدب والشعر ، فقد نبغ فيها شاعرنا ابن وكيع .

ولم يكن ابن وكيع مصريا أباً وجداً ، بل هو مهاجر إلى مصر ، مستوطر جاءت أسرته من الأهواز شرق العراق . وكانت تنسب إلى بنى ضبة في أصوبة العراقية وبنو ضبة : قبيلة عربية مضرية . وربما كانت هجرة أسرة الشاعر من العراق إلى مصر بسبب ما انتاب العراق في أوائل القرن الرابع من اضطرابات وحروب شملت أرض الجزيرة وبغداد وجنوب العراق بالبصرة والكوفة ، وكان أعنفها ثورة الزنج ، وغارات القرامطة .

ولد ابن وكيع في تيس من أب عري ، ويذكر ابن خلكان أنه كانت في لسانه عجمة لعلها لحقته من لسان أهله الذين ربما تأثروا بإقامتهم في الأهواز فاختلط لسانهم باللسان الفارسي .

واسم ابن وكيع هو أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن خلف ، وصفه الثعالبي بأنه شاعر بلرع ، وعالم جامع ، برع في إثباته على أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد في أوانه ، وله كل يدعية تسخر الأوهام وتستعيد الأفهام .

وقال ابن خلكان : « وله ديوان شعر جيد ، وله كتاب بين فيه سرقات أبي الطيب المتنبي سماه المنصف » . وتوفي بمدينة تيس ودفن بها سنة ٣٩٣ هـ .

(١) يملأ على هذا النوع حاليا اللقطة . وله اسم غرى دغبل .

ويشعر بجمع بين الظرف وخفة الروح ، ويدور معظمه في وصف الخمر
مظاهر الطبيعة والزهر .

قال في خمرته ، ويصِف فيها الزهر والساق :

اثرب فقد طابت العقار
من قهوة ما اثرب لهم
ها جيوش من الملاهي
لأروها في اللجي ثهار
إذا استقرت في حشا لپ
حباؤها جسمه لجني
كأنها تحته كمنيت
لها لدى حزن شاربها
فالحزن عن أهلها مطار
فلا انتصار لنا عليها
يسمى بها جودر غرير
كان صدغاً له تراه
ميدان آس بدأ جنيها
ويث من الحسن لي إليه
نبارة البيت كل عام
قلت له إذ بدأ وقلبي
يا جامع الحسن كل حسن
ما فضل الغانيات عني
يقول من قصيدة أخرى :

أنظر إلى زهر الربيع وما جلت
أهدت لنا الأمطار فيه بداعاً
ما شئت للزهار في صحرائها
من أبيض يقي وأصفر فأقع
ناحت لنا الأطيار فيه فأرهمجت

فيه عليك طرائف الأنوار
شملت بحكمة منزل الأمطار
من درهم بويج ومن دينار
مثل الشموس قرن بالآقمار
عرس السرور وماتم الأغيار

لم يحفلوا بنعيم تلك الدار
ما زال يسكن حانة الخمار
يسكث ضويعه يد العطاري
ذوب تحلل من عقيق جاري
يسمى القبول بطرفه السحاري
عند التأمل وهو غرس الباري
حتى ظنناه بلا زئاري
بالحسن منه حجة الكفاري
وهي فساد صنيعه في الثاري
أن لا تنافر رقة الجزماري

دار لو اتصل البقاء لأهلها
فانبض بنا نحو السور فإنه
فاشرب معتقة كان نسيتهما
وكانها والكأس ساطعة بها
لاسيما من كف أعيد شادي
فضل الفصون لأنها من غرسنا
قد غيب الزئار دقة خصمه
متنصر قويث على إسلامنا
قالوا: أيصنع مثل هذا ربكم
مع مسجح حلت له أوتاره

وسؤال رسم الدار والأحجار
يبيح على الأطلال والآثار

ذا العيش لاعت المهاديه والفلأ
لا فرج الرحمن كربة جاهل
وقال في الربيع :

وبدت لنا خلل الربيع المزهر
في وصفها وتكون غير مقصر
يحظن بين تماثيل وتبحر
لو أنه يبقى بقاء الجوهر
فأذاع ، فأذاع أحسن منظر
طيب الجنان لكان أريح متجر
من فوق جدول مائه المتفجر
أمرأ ، فبين مقلص وشمر
خلق الجنار بحسنه لم تعذر
إقبال جد بعد أمر مديبر
وكان هذا جاء وجه ميسر
فتراجعت تحجلى بفرط تخمير
أكرخطن من العقيق الأحير

فرش الفضاء بأحمر وبأصفر
خال تعد إذا اجتهدت مقصرا
هذي الزاهض كأنهن عرائس
في جوهر فاق الجواهر قيمة
سر أسر به السحائب للقرى
زمن أغر فلو شربت بطيه
والسرو تنبه الرياح لواعيا
كالجندي حضر الملايس حاولوا
زمن منى أبصرته وكففت عن
وأي على أثر الشتاء كائه
فكان ذا إذا جاء وجه مهلج
ورد كوجبة كعب قد موزحت
فكأنما أثلج في أغصانيه

وَكَاَنَ زَهْرَ الْبَقْلَاءِ دِرَاهِمَ	قَدْ ضُمَّخَتْ أَوْسَاطُهَا بِالْعَثِيرِ
وَكَاَنَّهُ مِنْ فَوْقِ خُضْرِ غَصُونِهِ	يُرْتَوِ بِمَقْلَةٍ أَقْبَلِ أَوْ أَخْوَرِ
وَكَاَنَّمَا الْأَتْرَجُ أَكُوسَ عَسَجِدَ	وَلَهَا مَقَابِضُ مِنْ حَرِيرِ أَخْضَرِ
وَالْتَرَجَسُ الرِيَانُ بَيْنَ رِيَاذِيهِ	يُرْتَوِ بِهَيْئِ الْبَاهِيَةِ الْمُتَحِيرِ
وَالْجُلْنَائِرُ يُرِيكَ فِي أَنْوَابِهِ	نَوْعَيْنِ بَيْنَ مُزَعْفَرٍ وَمَعْصَرِ

وهكذا نلاحظ في شعر ابن وكيع اهتماما بالزهر والخمر والغناء ، وهو بهذا شبيه بالصنوبرى فى غرامه بأوصاف الروض . ولا يفوتنا ما يعمد إليه من ميل إلى التشبيه . سالكا بذلك نهج أصحاب التشبيه كابن المعتز ومن سار على منواله .

ويتبع نهج المحدثين عامة فى نهج البناء التقليدى للشعر ، فيدعو إلى ترك البدء بتحديث الديار والأطلال ، والعدول عن وصف الصحراء والفيافي والقفر .

وشعره عامة عليه طلاوة الحضارة ، وحلاوة الروح المصرية لفظا وبناءً ، ومعانى ، وصورا تخيلية .

الشريف العقيل ، أبو الحسن

هو عليُّ بنُ الحسين بن حيدرة بن عبد الله بن محمد انتهى نسبه إلى عقيل بن أبي طالب .

ولد ونشأ في مدينة الفسطاط ، وكان له بها منتزهات بجزيرة الفسطاط كما يقول صاحب المغرب^(١) لجثائها وقد تشوق إلى الفسطاط في شعره فقال :

أحنُّ إلى الفسطاط شوقاً وإننى لأدعو لها ألا يحلُ بها القطرُ
وهلُ في الحيا من حاجةٍ لجثائها وفي كُلِّ قطرٍ من جوائنها نَهْرُ
ثبُدتُ عروساً والمقطمُ تاجُها ومن يئيلها عقدٌ كما انتظمُ الدُرُ

وكانت حياة الشاعر في آخريات القرن الرابع ، وامتدت حتى حكم المستنصر في القرن الخامس ، وربما امتدَّ به العمر حتى منتصفه^(٢) ، وربما عمر حتى الشيخوخة إذا تجاوزنا في تفسير بعض نصوص مما جاء في شعره مثل قوله :

لله أيامٌ لذاتٍ قضيتُ بها حقَّ الشَّبَابِ وظلُّ العيشِ ممدودُ
مازلت ألبسها والدهرُ ينشرها فأسودَّ أبيضُها وأبيضُتُ السُّودُ

كان الشريف العقيل من الأشراف الطالبين الذين ظلت منهم فئة تعيش في مصر ، وأقاموا لهم نقيباً منهم ، وأشهرهم بنو طباطبا ، وقد كان منهم النقيب عند مجيء المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر .

ويعتبر الشاعر بنسبه إلى الأشراف في شعره كقوله :

أنا عبد لآلِ عبد مناف عترةُ التُّسَلِّ والتَّقَى والعَفَافِ
ليس من أجلِ أن ترائي شريفاً لا ترائي من شيعةِ الأشرافِ

وحاول الفاطميون عند استقرارهم بمصر أن يجتذبوا الأشراف إليها وأن يصطفوهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينجحوا في أن يجعلوهم ممن يدينون بأرائهم ويعتقدون عقيدتهم . وشعر الشريف يخلو من الآراء والعقائد الفاطمية التي

(١) المغرب ٥٢/٤ .

(٢) مخطط المرقى ٣٤٠/١٠ .

نراها مبثوقة في شعر غيره من أبناء الفاطميين، كما في شعر تميم الذي عرضنا له وعترتهم ، وفي شعر الدعاة من أمثال القاضي النعمان وداعي الدعاة أو شعر الذين اصطفاهم الفاطميون وصاروا لسان دعوتهم مثل ابن هانيء الأندلسي شاعر المعز .

ومع هذا فإن الشريف العقيلي اتصل ببعض رجالات الفاطميين وكانت له فيهم مدائح كالحسين بن جوهر الصقلي قائد القواد في عهد الحاكم بأمر الله في قوله :

ألا هاتبا راحًا لها ربيع عنبر	على جسّ طنبور وأيقاع مزهر
فللدولة الحسناء جيّد مُقلد	بجوهر تدبير الحسين بن جوهر
أخو هيم غرّ إذا هو حثّتها	إتلحق بالعلياء لم تتعثر
إذا قائد القواد أعمل رأيه	رأى نفسه ما بين مجيد ومغتر

وثقف الشاعر الثقافة العربية ، وتعلم الموسيقى والغناء ، فكان يضع الألحان ويغنى ببعض أشعاره .

وكانت حياة الشريف حياة مترفة ناعمة كحياة هذه الطبقة ، فكان له من شرف الحسب ، والغنى الذي ظهر فيما اقتنى من المال والضياع ما مده بأسباب تلك الحياة . ويشهد على نفسه بالغنى حين يقول :

لي فقرٌ إلى المُدام وإن لم أكُ ممن يُعدُّ في الفقراء

وذكره ابن سعيد بين من لهم الثراء والضياع قال^(١) : « كان له متزهات بجزيرة القساطر ، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا مدح أحد » فلم يتكسب إذا بالشعر اكتفاء بشرفه ، وبما عنده من المال .

ويلور معظم شعره حول حياته الخاصة ، وما يعتاده من مجالس الشراب والغناء والطرب واللهو ، وما يصفه من مباحج الطبيعة والحياة ، وما يعرض له أحياناً من أحداث وهموم الحياة ، وربما عرض بالمدح لبعض خاصته ومن اتصل بهم من عليّة القوم والقادة وعظماء الرجال .

(١) للغريب لابن سعيد بتحقيق د . زكي محمد حسن ود . شوق ضيف الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ص ٣٠٥ ، طبع مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ .

ونفطوف بديوانه فنستجلى مغاني الحياة من شراب ومتعة ، وغناء وسماج
موسيقى وطرب ، وطواف بالحدائق والبساتين والبرك ، ووصف للثمار
والزهور ، والماء والجوارى الحسان والعلمان إلى غير ذلك من الصور التي يعمر
بها شعره .

ولنبداً الطواف بما قاله في منازة مصر والقاهرة في عهده .

يقول في بركة حولها بستان وزروع :

وروضة كالحلّة الخضراء	عجدة ببركة حسناء
قد لبست عقد طيور الماء	لبس السماء ألجم الجوزاء

ويقول في بركة أخرى :

وبركة قد أفادنا عجباً	ماغاج من مائها وما انسكبنا
يدركها الورد كلما ارتعدت	منه يجمر يظل ملتقنا
من حول فوارية مركبة	قد انحنى ظهر مائها تعباً

وكان للشریف بساتين في جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط ، وقد وصف
بستاناً له فقال :

فقد دهم الفجر طرف الدجى	فصير أذهمه ألقا
وليلى لنا الزهر ياقوته	فمن مستجاد ومن منتقى
وزخرف جنة بستاننا	والسها منه استرقا
وفتحت القضب أطواقها	فزادت حدائقه رونقا
فما كان منها وقاحاً رنا	وما كان محتشماً أطرقا
ولاح الشقيق ولو لم يلح	لما نعيم الثرب بعد الشقا

وكان بأحد بساتينه بركة ماء ، يرعى فيها الطير ويسبح بطها ، فيتلاها
عقوداً من الدر كما شبهها في بعض شعره إذ يقول :

وعندنا طارمة رأسها	في كل يوم مثل ذا يتصّب
بين يديها بركة مأوها	جار مع الأيام لا يتصّب
ما حط منذ أنشأها سالفاً	قط على سالفها طحكب

يرقص في جافانها بطنها إذا غدا بليلها يلعب
وربما تطلع أمواجها كواكباً من وقتها ثرب

وهو مغرى بأصناف الزهور ، والرياحين ، يصفها وصف عب متأمل ،
يقول :

أصبح أكثر خلق الله كلهم عشنا لروض قد اهترت جوانبه
رباه نكهته والفطر مضحكته والورد وجنته والآس شاربته

ويقول في زهر الأقاح الأبيض :

فغد العيش إنما باغتيابي تلذ به وإما باضطراح
فاحسن ما تكون الأرض زياً إذا انتقبت يفضي الأقاح

ويقول في الياسين والأقاحي :

فأشرب على فضة ودر من ياسمين ومن أقاح
فالأرض قد أصبحت عروساً تجلي من الزهر في وشاح

ويقول في زهر البنفسج :

أشرب على زهر البنفسج قهوة تهدى السُرور إلى الحزين المكمد
فكانه قرص بخد مهفوف أو أعين رزق كجلن باليد

ويشتق من الزهر استعاراته وتشبيهاته في معان وموضوعات غير الزهر
كالغزل ووصف كاسات الخمر .

يقول متغزلاً :

يا من له خد غداً حائراً شقائق النعمان من ورده
أئن عينان الهجر عن عاشق قد طال ركض التمع في تحده

ويقول في وصف الخمر وكأسها :

جسم زجاج وروح راح كأنها الشمس في الصباح
إن ضحك الجلتار منها أراك تمرا من الأقاح

وأما الثار فيستعربه حب الشمس وقد تساقط من شجره على الأرض
فيقول :

على الرياض الرياح
لناظري أبحاح

مشمش نثرته
كأنه إذ تراءى
يقصد بالأبحاح صفار البيض .

ويقول في النارج وهو يترنح في أغصانه على الشجر :

ونارنجة بين الرياض نظرتها
على غصن رطب كفاية أغيد
إذا ميلتها الريح مالت كأكره
بدت ذهباً في صولجان زمرّد

وكثيراً ما يمزج في قصائده وصفه بين مشاهد المياه والرياض والزهور
والحسان من الجوارى الجميلات ، أو الغلمان الصباح وكؤوس الخمر تدار .
فيقول :

نحن في روض نصير
وشقيق من خلود
بين سحب من كؤوس
وندى من ماء ورد
نوهة من كان فيها
كان في ظل السرور

ويقول في مجلس شراب وهو :

الغيم ممدود السرايق
والقاش^(١) قد فُرشت لنا
أشجاره وثماره
وطن يموت مخافة
قد غنت الأطيار في
فاعتي فؤادك فيه من
فالأقحوان غصونه
ومراود الأمطار قد

ويجمع إلى الخمر أطايب الطعام :

فلا تله بالشغل عمن غدا
إلى الله من غيره أشوقاً

(١) والقاش روض أو سنان جهة القسطل كان يرثاه .

فقد قام طباخنا فائق
وعبأ البوارِد في جُرُوفِ
وواني يعقيان مستوسج
وأبدع في سلقِ هليونها
وعنبدى فديتك من بعدها
بليل أعد لنا الفتيقا
أجن من الحورف أن تُطبقا
فألينها منه دُستيقا
لأني أُرث بأن يُسلقا
عَصِير من الكَرَم قد عَصَا

ويقول في وصف مائدة دعا إليها أصدقاؤه :

وعندي طهاجية وجدى بارد
ونفاق ما مِنهُ واحدة بكدت
ومضرة كالفضة البيضاء
إلا كمثل البصرة الحمراء

ويذكر بكأى نواس حين يندو إلى حانوت خمار ليلاً يشرب عنده،
مُطَلَب إليه أن يجلو عليه من الحمر كؤساً فيقول :

وعُلمار دخلت عليه وهنا
على هوجاء تنثر في الفياض
إذا وخذت تحال الرياح تحتي
فقال: من الفتى؟ فأجبت ضيف
فقال : وما تريد فدلتك روجي
فغام إلى دنانٍ مُترعات
وفض ختام أقدمها فلاحث
وأبرز منه في الإبريق راحا
كان حباتها طلل تُندى
وحاء بأهيف عذب الثنايا
تراه يتيه من أدب وظرف
مقول إذا رآه كل لاح
هي الأيام تندرج انديراجا
فضيل قصفا بقصيف واغنياقا

ومع هذه الكثرة من الحديث عن الرياض والبرك والأنهار والأزهار ،
والخمر ، والكأس ، والطعام ، والساق ، مع هذا كله ، ومع عرضه لمعارض

الجمال فيها جميعاً ، نجده يخلطُ جمال الطبيعة بجمال الحياة مثلاً في الوجه
المحيط والقوام المعتدل والتكوين البديع ، ولهذا فهو يجمع بين جمال المرأة
وجمال الطبيعة ، فالحند مختلط بالورد ، والعين بالترجس والأسنان باليرد
والأفحوان .

ونتمتج بهذا كله لذات الحس من غل بالنظر ، وتمتع بالنوق باللسان
ونشوة اللذة بالبدن ، كما مزج الوجوه الصباح والطعام بطعم المذاق في رشفة
الحمر وقبلة الثغر ، ولقمة الطعام .

ولنتأمل هذه الأبيات التي تعمر بالخيال العجيب الذي يمزج فيه الشاعر بين
الكائنات ، بين المرأة والطبيعة والحمر والسحاب والمطر مزجاً عجباً لا تقع
عليه في شعرنا العربي . يقول :

السحب تُرضعُ من ثباب الأرض ما جعل الربيع لها الفصوص نهودا
والراح قد نظم المزاج لجيدها در الحباب قلائداً وعقودا
فاستحل منها ما إذا افترعت غدا منها السرور لبعليها مولودا
وأنعم بها في ظل صحتك التي أضحي عليك رواقها ممدودا

ويُنزل في المرأة ، لكنه غزل يعرض فيه محاسنها من حسن وجه ، وثغر
وعين وقوام مع ما يعد له من صور الزهور وبدر السماء :

مر بنا في مورد شرق كأنه البدر لاح في الغسق
منعم حليه اللحاظ إذا أقبل تجرى إليه في طلق
كأنما وجهه لكثرة ما فيه من الحسن موسم الحقد

وليت الأخير يمزج بين جمال الوجه وجمال الروض بما فيه من أفانين
الزهر ، والزهر عروس تحلى توجها الحب ، والجو كله عرس تهتف حمائم
وتغنى بلبله . وخیاله حافل حين يصف الروض والشراب يروى السعادة ممثلة
في جلوة العرس ، ومرأى العروس .

عرايس الروض تحلى على كراسي الروابي
وجلس الروض فيه فرش من العنابي
فانعم ولذ بيكر قد توجت بالحباب

ويقول :

فَدَنَ ضَحَكَتْ غِرَةَ الصَّبَاحِ	وَاتَدَفَعَ الذِّبْكَ فِي الصَّبَاحِ
وَطَافَ بِالرَّاحِ كُلِّ سَاقٍ	رَضَاهُ فَوْقَ كُلِّ رَاحٍ
فَأَشْرَبَ عَلَى فُضَّةٍ وَدَرٍ	مَنْ يَأْمِينُ وَمَنْ أَقَامَ
فَالْأَرْضُ قَدْ أَصْبَحَتْ عَرُوسًا	تَجَلَّى مِنَ الزَّهْرِ فِي وَشَاحٍ

والحب علاقة الحبيب بالحب ، وما يتقلب بها بين وصل وهجران ، وفرحة لقاء ، ودمعة وداع ، تلتقي به هنا وهناك في ديوان الشاعر كأن يقول :

أَنَا فِي التُّدُوِّ وَفِي الرُّوَّاحِ قَلَّقَ عَلَى قَلْبِي الْيُوشَاحِ

ويقول :

قَامَتْ قِيَامَةُ رُوحِهَا لِرَوَّاحِي	إِنَّ التَّوَى لِقِيَامَةِ الْأَرْوَاحِ
فَبَكَتْ فَصَارَ الدَّمْعُ فِي وَجْهَاتِهَا	مِثْلَ الْحُبَابِ عَلَى كُؤُوسِ الرَّاحِ

ويقول :

لَمَّا قَضَى الْقَرَبُ بَدَاءَ الْعَيْدِ	وَصَارَ مِنْ فِرَاقِنَا لِي كَعِيدٍ
لَطَمْتُ بِالدَّمْعِ عَلَيْهِ خَدَيَّ	لَأَتْنِي فِيهِ أَصِيحْتُ وَخَيْدِي

ويقول :

شَكَوْتُ إِلَيْهَا يَوْمَ وَدَعْتُهَا وَجَدِي	فَأَلْفَيْتُ مِنْ عِنْدِهَا فَوْقَ مَا عَجِدِي
وَمَا زِلْتُ الْأَجْفَانُ تَنْثُرُ دَمْعَهَا	عَلَى خَدَّهَا طَوْرًا وَطَوْرًا عَلَى تَحْدِي
فَلَوْلَا غَلِيلُ الشُّوقِ مَا كَانَ طَرَفُهَا	لِيَنْضَحَ مَاءَ الْوَرْدِ مِنْهُ عَلَى الْوَرْدِ

والشاعر يريد أن يعجب من متاع الدنيا ولذتها قبل أن يزول رونق الشباب ويأتى خريف العمر فتذبل وردة الصبا ، وتغيب شمس اللذات فيعود التذكر وتذهب النفس حشرات :

لَهُ أَيَّامٌ لَذَاتٍ قَضِيَتْ بِهَا	حَقُّ الشَّبَابِ وَظِلُّ الْعِشْرِ مَمْلُودٌ
مَا زِلْتُ الْبِسْهَ وَالذَّهْرُ يَنْشُرُهَا	فَأَسْوَدَ أَيْضُهَا وَأَيْضَتْ السَّوْدُ

وتلتقي في بعض أبياته الغزلية برقيق من القول مطرب مؤرخ كقوله :

غَزَالٌ تَلْهَمُهُ دَلْهَةٌ عَلَى قَلْبٍ مِنْهُ عَيْدٌ لَهُ

وَذَلِكَ أَنِّي مَلِكُهُ قِيَادِي وَمَلِكُنِي وَصَلَهُ
كَفَصْنَتِي فِي دُوحَةِ بَعْضِنَا يَمُدُّ عَلَيَّ بَعْضِنَا ظِلَّهُ
إِلَى أَنْ أَمُرُّهُ أَفْعَالَهُ وَوَعَرُ إِعْجَابِهِ سَهْلُهُ
فَخَلَصْتُ خَبْلِي مِنْ خَبْلِهِ وَمَنْ مَلَّ صَاحِبَهُ مَلُّهُ

وفي الحب والصدقة والصديق يرتبط القلب ، وكان الشريف العقيلي محباً
لأصدقائه يصلهم ويصلونه ، ويدعوهم إلى مشاركته لذات مجالسه وشرابه
وطعامه بين الرياض ومجالى الطبيعة .

أَلَا رُبَّ ضَيْفٍ تَقَنَّقَتْهُ وَجَيْدُ السَّمَاءِ كَثِيرُ اللَّائِي
فَحَضَرْتُ مَا كَانَ عَيْدِي لَهُ مِنْ الزَّادِ فَعَلَ كِرَامِ الرُّجَالِ
وَقُلْتُ رَاحًا سَبَّ عَقْلُهُ بِلَوْنِ الْخُلُقِ وَرَيْعِ الْغَوَالِي

ويقول :

وَصَدِيقِ سُرُورُهُ بِالْصَّدِيقِ كَسُرُورِ الْغَشِيقِ بِالْمَعْشُوقِ
كُلُّ يَوْمٍ أَرْوَحُ مِنْهُ وَأَغْلُو بَيْنَ لَفْظِ رَطْبٍ وَتُحْلِقِ رَفِيقِ
وَتَحْرِيفٍ مِنَ الْوَفَاءِ تَضُمُّ وَرَيْعٍ مِنَ الْجَفَائِظِ أُنِيقِ
فَقَضَى اللَّهُ حَقَّهُ مِنْ تَقْيِيسِ يَقْتَضِي نَفْسُهُ قَضَاءَ الْحُقُوقِ

خصائص شعره :

نما سبق من نماذج لشعر الشريف تلاحظ أنه إهتم إهتماماً واضحاً بموضوعين
خصصهما لمعظم شعره . وهما الروضيات والخمرة ومجالسها ، ويليها الغزل
ووصف المطاعم ولم يقل في موضوعات الشعر الأخرى كالمديح والفخر والهجاء
إلا مقطوعات أو قصائد قصيرة قليلة العدد .

ومديحه كما أشرنا لبعض أصدقائه ، وبعض كبار رجال الدولة كقائد القواد
الحسين بن جوهر الصقلی ، وهو يصفى عليهم صفات المدح المعروفة ، وكان
فخره بنفسه منشوراً بين أبيات قصائده ، ويعتد فيه بنسبه وشاعريته ، وأما
الهجاء فكان منصباً على جماعة ممن عاصروه من ولادة الأقاليم كوالى سخا ،
وعامل جمباط الذى يقول فيه :

عاملٌ دميّاطٌ فتى قلما
فعله تُسخطُّ بعد الرضا
وإن وفى عادَ إلى غدوه
لا تخير في المرء إذا لم يكن
يُحصل من وفده على شاكر
ويُفسد الأول بالآخر
لضعف رأي وعنى خاطره
باطنه خيرا من الظاهر

كذلك هجا بعض موظفى الدولتين كالكاظم النصارى عيسى بن مرقس
كاتب الدولة ، بتهمة بالبخل . فيقول :

جواب عيسى لسائليه
فأنتى لم أزل بخيلا
مذ كان لا تطعموا بخيرى
أمتع ذرى ودر غيرى

ويستخر من كاتب آخر اسمه خيرون فيقول فيه :

لا خير في خيرون من كاتب
إن ثلم الضيف رغيفا له
فلا تغالطه فإن الفتى
يغزغ أن يخرأ لئلا يجرع
يخرق البخل بظلم صريع
بكى عليه بأحرّ الدموع
يفزع أن يخرأ لئلا يجرع

ومن مهجويه شاعران استأثرا بكثير من لاذع أبياته ، لأنهما تعرضا له
ولشعره وانتقاده فحالهما بلسانه . يقول فى أولهما واسمه أبو اسحاق إبراهيم :

أبو إسحق فى تعب
وهل فى الناس من أحد
فلا يذهب به هوس
يحاول أن يشبه بى
يقيس الرأس بالذنب
فليس الصقر كالذهب

ويقول فيه :

أبو إسحاق إبراهيم ممن
أما يخشى زبانية القوافى
فدغ شيطان غيبته وشعرى
تخاله على شعرى قديم
إذا وقدت لأفكارى جحيم
فإن سمائه فيها الرجوم

والشاعر الآخر هو غياث بن جارود . يقول فيه :

يا صاح لا تصغ إلى لفظة
ذو خاطر رخص ضعيف القوى
ياأنيك منه بمكان إنك
يقنع عنها شفيع غياث

ويبدو أن غياثا هذا كان شيخا يتكلف الشعر فيأتى به سخيفا رديئا ولا

يكتفى الشاعر بهجاء لفظه ، ولكنه يتعداه إلى شكله وصورته ، ويبدو أنها كانت تنيره إلى الضحك . فيقول :

شَيْخٌ إِذَا اسْتَدْعَيْتَ الْفَاطِطَةَ جَاءَتْكَ بَيْنَ الزُّورِ وَالْإِفْكِ
مُسْتَطُولُ الرَّأْسِ عَرِيضُ الْقَفَا مُضْطَرَبُّ الْأَنْيَابِ وَالْفَلَكِ
لَوْ مَاتَ لِي إِلْفٌ وَأَبْصَرْتُه لَبِثْتُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الضَّحِكِ

ويمتاز شعر الشريف بالركة ورصانة السبك ، مع سهولة في اللفظ حتى إن بعض زملائه من الشعراء راجعه فيما يبدو بسبب تلك السهولة فقال : وما لي وصعبه — ويقول الدكتور زكي المحاسنى —^(١) : « أما اللون الذي غلب على شعر العقيلي فهو المرح والإشراق ، ولا نجد إلا القليل في آياته من الموعظة ، والمعانية والشكابة على عادة الشعراء . وما خلا من هجاء ولوم لحسود أو عنول أبو لمن تتبع الشاعر بالمشاكسة كمحسن بن الملح الذي تناوله الأبيات بالذم والسخرية » .

ويقول عن عشقه للطبيعة والحمر : « أما الشاعر العقيلي فكان تصويره مادياً ملموساً ممزوجاً بالفكاهة والملحة والدعابة ، وأنه ليعد من أبرز شعراء الطبيعة وهم قلة على اختلاف العصور ، وما أشبه العقيلي في حب الطبيعة وتعشق جمالها وفنونها باين خفاجة الأندلسي » .

وكان من أسباب فنون العقيلي ومن قبله كل من ابن وكيع وتميم بن المعز بما كان في مصر من مباحج ومنزه ، وبخاصة في الفسطاط والجيزة وما جاورهما وقد أشاد كثير من العلماء والرحالة بهذه المباحج والمنازة .

ويقول الدكتور المحاسنى : « وكان بمصر في عصر الفاطميين تنسيق فنى مرموق يحدثنا عنه بتطويل وتفصيل المقرئى في خططه فقد جعل كتابه مقصوراً في أغلب أبوابه على الكلام في جمال مصر واقطاعها وأحياء مدنها ، ومباحج نيلها وبساتينها الخضر المونقة »^(٢) .

ويقول : « هذا هو الشاعر الملهم الذى نظم الشعر على طبيعته فخالف سنة الشعراء الذين عاصروهم ، إذ كان أغلبهم خاضعاً للملق والتكسب ، فتجافى

(١ - ٢) مقدمة الديوان طبع الباقى المحلى بمصر .

عن أن ينزل إلى مطاعهم وهو الغنى بنفسه وأدبه وماله عن الحكام والخلفاء ،
ولئن لم يعكس شعره أطوار المجتمع بصورها المختلفة ، فحسبه أن يعكس صور
حياته الخاصة التي تجدد فيها منازع المفرد في عصره . فهو بحق شاعر مترف
غنى على قيثارة نفسه ليضطرب روحه ، ويؤنس عمره .

وكان الشاعر يستخدم عناصر التعبير الشعرى المختلفة ، منها ما يتصل
بمزخرف اللفظ ، من حيث إيقاعه وموسيقاه ، ومقابلاته ، وتجنيساته
وتورباته :

ومن أهم معالم صناعته الشعرية تلك الخيالات الجديدة الغريبة التي صاغها في
صور من التشبيه والاستعارة غير مألوقة عند غيره من الشعراء من مثل قوله :

ولما أقلتُ سَفْنُ المطايا يرمح الوجد في لُجج السراب
جرى نظري ورائعهم إلى أن تكسر بين أمواج الهضاب
ومنه قوله أيضاً :

لا تُصنِّفُني إلى العلولِ وسُتُنِي مشعولة في حُمر البثورج
أو تما تَرى زهر النجوم كجواهر نوره غانية على فُجُورج
والبدن في أفق السماء كوردة بيضاء تضحك في رياض بنفسج

ويتخذ من المرأة بمرآتها وجسدها وثيابها ملاح لبناء تشبيهاته واستعاراته
كقوله :

فأحسن ما تكون الأرض زياً إذا انتفتت يفتنى الأقاحي
وكقوله :

ظبي رقيق حواشي نعمة الجسد كأنما ففره عِقدان من برد
كأنما يدفه من عزو أسفى كأنما حصره من ذلة جلد
وكقوله :

فاعتق فؤادك فيه من رِق الهموم يفتي غايي
فالأقحوان غصونه يفض الثواصي والمفاريق
ومراود الأمطار قد كحلت بها حلق الخلداني

وننظر إلى رخات المطر وكيف تراءت في مخيلته مراد تكحل عيون الحداثق
وهي زهورها !!

ويولد الشاعر العقيلي من الكلمات معاني توليد ابن الرومي ، وبخاصة في
الهجاء ، ومن ذلك قوله في محسن بن الملح وإتخاذه من كلمة الملح معاني
للهجاء :

يا ابن الأجاج الملح لا . . . تستخصم العذب الفراتا
ويقول كذلك :

أيا مُحسِنٌ قُلْ لي بما تتيه وتفخر
هذا وجدك ملح فكيف لو كان سكر

وتلمح في قاموس لفظه وتعبيراته مزيجاً من اللفظ البدوي والحضري ،
والمولد والعرب والدخيل ، منه بعض ألفاظ الطعام والشراب الفارسية التي
دخلت قاموس العربية في لغة العباسيين وتداولها الشعراء فيما بينهم ، كاللوزينج
والسنبوسج ، وأسماء بعض الزهور كالجلنار ، والبهار ، واللازورد .

ويستخدم في تعبيراته بعض عناصر من تراث الشعر ومن الآيات والسور
القرآنية ، ومن الأخبار والتاريخ الإسلامي والعربي القديم ، وبه تضمينات
أحياناً من بعض طقوس الدين وعباداته ، كاستخدامه للكعبة والطواف في قوله
مدح :

يا من يطوف بكعبة إلا حسن منه المستنبح
إن ظل عازر قصتنا ميتاً فجدواهُ المسيح
أو طاف طوفان بنا من عسرة فنداه نوح

فيسخر هذه العبارات والإشارات الدينية في معاني المديح .

ويقول في موضع آخر مستغلاً أيضاً الكعبة والحج والطواف في الشراب :

قم فانحر الراح يوم النحر بلماء
أدرك حبيج الندامى قبل نفرهم
وغج على مكة الروحاء مبتكرا
ولا تُضح ضحى إلا بصهباء
إلى متى قصيفهم مع كل هيفاء
فطف بها حول ركن التود والتاء

شعراء مصريون آخرون من القرن الرابع

عرفت مصر من القرن الرابع وفي ظل الفاطميين جماعة من الشعراء قصدوا المعز لدين الله ، والعزیز عثمان والحاكم بأمر الله ووزرائهم كيخوف بن كلث ، والقائد مجهر الصقلي .

وتذكر منهم المصادر الحسین بن بشر^(١) وابن أبي الجويع عبد الله بن محمد^(٢) وكان الحسین بن بشر على قول الصفدى هجاء ، هجا ابن كلث وغيره من رجال الدولة ، وأمر العزیز عثمان بتعزيره ، ومات لقاء تهجمه^(٣) . قال عنه ياقوت في معجم الأدياء :

« شاعر مشهور مذكور ، جيد الشعر ، على الطبقة ، مشهود له بالفضيلة » وقال عنه عبد المحسن الصورى الشاعر : « ما رأيت فيمن شاهدته من الشعراء أعلى طبقة من ابن بشر ، ولا أحسن طريقة » .

قال الصفدى : « وشهادة عبد المحسن له بذلك ، مع تقدمه وفضله ، والإجماع على إحسانه فضيلة له لا تتحد ، ومزية لا تدفع . وشعره نحو خمسة آلاف بيت » .

ويذكر من شعره قوله عن نفسه :

حصلتُ من الدنيا على الشعر زينة قصارائى فيها أن يقالُ مُجودُ
فأكرمهم من برقى باستنائه وأجودهم من قال شعركُ جيّدُ

ويبدو أنه سافر من مصر إلى الشام والتقى بمدينة يافا بالشاعر عبد المحسن البورى ولازمه زمناً أو لعله لقيه بمصر .

ويبدو أنه لم يعتمد على الشعر في رزقه ، وإن كان بعض أولى الأمر يبخشونه

(١) ترجم له الصفدى بالوق ١٢ / ٣٤٣ .

(٢) ترجم له الصفدى بالوق ١٢ / ٥٢٧ .

(٣) الوال بالوفيات ٢ / ٣٤٥ .

فيجزلون له العطاء. وروى الصفدى أنه تولى الخراج في عهد العزيز بالله بإحدى النواحي فخرج إليها رجلاً وقال :

أَوَّلَى الخِرَاجِ وَكشَفَ الضَّيَاعِ وَذَا الرِّىِّ زَيْى وَزَى حَالِى
وَأُخْشَى إِذَا بَحْثُهُمْ رَاجِلاً يَفْطُونَنِى بَعْضُ رِجَالِى

وروى أنه كان خبيث اللسان كثير الهجاء ليعقوب بن كلس ، وكان يلغنه ذلك عنه فيحده عليه . وكان سبباً في حث العزيز على الغضب عليه وعقابه حتى مات .

-وأما ابن أبى الجُوع : عبيد الله بن محمد(١)

فهو نحوى أديب وراق ، من أهل مصر . كان مليح الخط ، جيد الضبط ، وكان له تحقق باللغة والنحو والبلاغة ، وقول الشعر . وصل إليه من العزيز وابنه الحاكم جملة كبيرة على الوِزَاقَةِ . قال الصفدى : وقد أدرك المتنبى وأهلام كافور ، ومات بمصر سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . قال الثعالبي : أحد رواة المتنبى الأدباء ، وأصحابه العلماء ، ومن تميَّز في لغات العرب ، وأجاد أنواع الأدب .

قال ابن أبى الجوع : كان لى على الوزير ابن حنظله وعد مطلقى به مطلقاً ضاق به صدرى فعملت فيه(٢) :

تاه جهلاً بالقرائ أحقَّ ذو زَرواث
قال لى أهيفُ عنه وهو من إحدى الثقاث
إنه يجمع بالميم ————— رَعوس الألفاث(٣)

قال : وكتبها في رقعة وكتب في أخرى إليه أتجزه الوعد ، واتفق لقاؤى له على عجلة فأردت أن أعرض عليه القصة ، فدفعته إليه الأبيات غلطاً ، فلما قرأها قال : لعنك الله قد غلطت ، وأعادها لى ، والتمس الأخرى فدفعها إليه وعندى من الحجل ما تقتضيه مثل تلك الحال ، فأخذها ووقع فيها بما أردت . فقلتُ : لك على مع ما تكرمت به من الحلم أن لا يسمعها أحد منى .

(١) الرواى ١٢ / ٢٧ - والنبية ١ / ٤٧٧ .

(٢) الرواى ٥٢٧ .

(٣) يلمح لى معنى قبح .

وكان يمدح الوزير ابن كلثوم كما قلنا ، وروى له المقرئ أبياتاً فيه أشدده
إياها بمناسبة ألم أحسن به الوزير في يده ، ويشير إلى الخليفة العزيز فيقول (١) :

رَأَيْتُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ذَلِكَ الْأَمَّا	يَدُ الْوَزِيرِ هِيَ الدُّنْيَا فَإِنْ أَلَمَتْ
مِنْ أَجَلِهِ ، وَاسْأَلِ الْقِرَطَاسَ وَالْقَلَمَا	تَأْمُلُ الْمَلِكَ ، وَانْظُرْ قِرَطَ عَلَيْهِ
عَنِ الْعَمَلِ ، وَكَثِيراً مَا رُويَ قَمَا	وَشَاهِدُ الْبَيْضِ فِي الْأَعْمَادِ نَائِمَةً
كَأَنَّمَا أَشْعَرْتُ مِنْ أَجَلِهِ سَقَمَا	وَأَنْفُسُ النَّاسِ بِالشُّكْوَى قَدْ اتَّصَلَتْ
سَاقٍ تُقَدِّمُ فِي إِنْهَاضِهِ قَدَمَا	هَلْ يَنْهَضُ الْجَمْدُ إِلَّا أَنْ يُؤَيِّدَهُ
تَحْفِيفُ خَطُوبٍ تَشْغِبُ الْأُمَمَا	لَوْ لَا الْعَزِيزُ وَآرَاءُ الْوَزِيرِ مَعَا
لَا أَوْهَنَ اللَّهُ رُكْنِيهِ وَلَا أَهْزَلَمَا	فَقُلْ لِهَذَا وَهَذَا أَنْتُمَا شَرَفٌ
مَبْسُوطَةٌ ، وَلَسَانًا نَاطِقًا وَقَمَا	كَلَّا كُفُّوا لَمْ يَزَلْ فِي الصَّالِحَاتِ يَدَا
وَلَا طَوَى لَكُمْ مَاعِشَتُمَا عَلَمَا	وَلَا أَصَابَكُمَا أَحَدُتُ دَهْرُكُمَا
فَقَدْ عَمِيتُ بِمَا أُولَيْتِي الْعَمَلَمَا	وَلَا انْصَحْتُ عَنْكَ يَا مَوْلَايَ عَافِيَةً

ويذكر النعماني جملة من شعره . كقوله :

تَوَقَّعْتُ لِي نَبْؤَةَ الْغَايِبِ	أُظُنُّكَ يَا سَيِّدِي إِذْ جَفَوْتُ
وَلَسْتُ بِسَالٍ وَلَا صَابِ	وَعِجْتُ بِأَنِّي مَلَأْتُ سَلَوْتُ
لَكَ أَشْفَقْتُ مَنَى عَلَى نَاطِرِي	وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ عَلِيَّ

وقال في مליح يمسك بشمعة :

بِالْحُسْنِ وَالْإِشْرَاقِ وَالرَّفْعِ	صَالِحٌ يَا مُثَبِّتَ بَدْرِ الدُّجَى
نُورًا ، فَمَا تُصَنِّعُ بِالشَّمْعَةِ	وَجُوهَكَ فِي اللَّيْلِ كَشَمْسِ الضُّحَى

وقال فيه :

وَأَطِيبِ النَّاسَ رَاحًا	يَا أَطِيبِ النَّاسِ رِيحًا
إِطْرَابَ وَالْأَفْرَاحِ	وَمَا بِهِ أَتَصَلَّى إِلَ
فِي لَا أَعْرِفُ الْأَقْدَاحِ	هَاتِ اسْقِنِي أَوْتَرَا
أَنْ لَا يَطِيرَ ارْتِيَاخِ	وَاحْفَظْ عَلَيَّ فَوَادِي

لو كُنتَ كاسمِكَ يا صا لُحِ اعتمدت الصَّلَاحَا
لكن أنى الله إلا أن تُفسِدَ الأرواحَا

وكتب إلى بعض أصحابه يستدعيه وقد أوشك شعبان على الإنقضاء
وأصبح رمضان على الأبواب :

شعبان قد صارَ نَضُوءَا ولم يُفِدْ فيه لَهْوََا
وليس ذلك مِسْئَلَا جهلاً ، ولا كان مَسْهُوَا
فبالمسودَّةِ إلا بكرت للقصيف عَنُوَا

أبو الفتح ابن البينى :

ومن شعراء المصريين فى القرن الرابع : أبو الفتح ابن البينى^(١) (ت سنة
٤١٥ هـ) واسمه منصور عاش فى مصر فى أنحرىات القرن الرابع ، ومدح
رجالها ، ومن بينهم القاضى محمد بن النعمان قال فيه مخاطباً حاجيه^(٢) :

فَقُلْ لأبْنِ عَبدِ الإلهِ بأبْنَى سَقِيمٌ إلى الآسَى شكاية دَاهِ
وليس التشكى شِيعَتى غَيْرَ أَنه يفيضُ إناءٌ زَيْدٌ فوقَ امتلائِهِ

ويَسْطُ آمالِ حَياءٍ بوجهِهِ وبعضُ حَياءِ المرءِ تَرِبُ سَخَايِهِ
وخلق كَأَيِّ المَزنِ فى ظِلِّ صَحْرةٍ تَرى فيه ما قَدَّامه من وِرائِهِ
تَرى كُلَّ عَيْنٍ فيه ما فى ضَمِيرِها كَذَلِكَ لَوْنُ المَاءِ لَوْنُ إِبائِهِ
أَلَسْتُ إِلَهَ حُبِّ كُلِّ ثَنُوفَةٍ يَضِلُّ بِها قَرْنَ الضُّحَى عَنَ ذِكائِهِ

ويذكر فى أثناء وجوده بمصر أَنه خرج إلى جهة المقدس على شط النيل ولقى
فتاة سمراء فنظم فيها أبياتاً ، قال المسيحي : قال : خرجت إلى المقدس متنزهاً ،
فلقيت جارية سوداء مليحة فتبعها فقلت :

وغزاله غازلتهَا فى المقدس من أولادِ حام

(١) ترجم له المسيحي انظر الجزء الذى قام بتحقيقه د . حسين نصار ، والمغرب قسم مصر بتحقيق .

زكى محمد حسن ود . شوق ضيف ص ٢٧٢ ، والبيمه للعالمى ١ / ٣٤٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠ المسيحي طبع للمعهد العلمى الفرنسى .

بضربت بعينى ضربة
 وتيسمت فكأنها
 نمت نمت مشى مشى المها
 حشى وصلنا بيتها
 وجعلت أفتح منها
 كانت — لعمرك — ساعة
 ونظرت من غنى فطامى^(١)
 برق تألقت فى غمام
 وتبعتهما رثك الثمام
 فحصلت فى البيت الحرام
 لما جثوت لها يلامى
 جمعت غرابا مع حمام

ونلاحظ هذه التورية فى غزله المكشوف أو فعله .

ومن حديث الشاعر وما ورد من أخباره القليلة ندرك أنه سافر إلى الشام ، وحل ببعض بلاده ومدح رجلا هناك وذكر المسيحي أنه كتب إلى من يسمى أبا الحسين على بن نحرار وهو يحلب يقول :

سرى فى سبيل القوم ظمى مرثب
 وإنى اهتدى ، والأرض بينى وبينه
 بذلك من ليل طوى النأى فالتقى
 ومازالت العنى تردد بيننا
 ودلى وعينى ثرىل الدمع خلفه
 سميت كأن علفت قلبى بنظرة
 لكل امرئ . عمر بما لا يناله
 وليلة ليلى والرقب كاله
 بحيث ترى الجرباء تغبر فى الدجى
 وقد مد كفيه إلى الشمس ما إلا
 سلام كابهم القطاة لبسته
 وما زلت أرمى بالشجب منهم
 وما زرتها إلا كخفقة طائر
 فى ذيله ذئب من الإنس أطلسى
 وفى منصل الثعلب اليماني بركة
 هزيعا ، وهل للظبي فى الليل مسرب
 ومن فوقها غيل الدجى المتأشب
 به مشرق حتى الصباح ومغرب
 إلى أميد ما خلفه متعتب
 وقد حاز جفتها خيال محبب
 تهادى بها فى طرة الغرب كوكب
 وعمر بما قد ناله كيف يسلب
 على أبقها عين الرقيب ترقب
 ونشر فى صدر النهار وتصلب
 كما مد كفيه إلى الله ملذب
 وكان كظل الرمح ما جث أطلب
 وربما غر الرقيب الشجب
 على عجل والليل بالصبح أثيب
 توجس لئب من الوحش أغلب
 إذا لعت كانت دما يتصبب

(١) الفطامى : المتمر .

فَقَضِيضًا عَلَيْهِ شَعْلَةً تَنْلَهُبُ
يَقْدُ ثَمَالًا أَوْضِيًا حِينَ أَضْرِبُ
إِذَا كَانَ حَقًّا مَا إِلَى الْغَوْلِ يُنْسَبُ
تَنَاهَتْ ، وَفِي شَرْخِ الشَّبِيهِ مَلْعَبُ
لِيَلْبِى ، وَمُحْضَرٌ لِيَنْمُو وَمُعْشَبُ
وَيَنْزِعُ عَنْهُ حُسْنُهُ حِينَ يَنْضَبُ
مِنَ الْآلِ بَحْرًا ، أَوْ مِنَ الْبَحْرِ سَبَبُ
صَدَعَتْ بِهِ عَنْ رُرْقَةِ الْمَاءِ طَحْلُبُ
تِلَالًا أَرَاهَا بِثَلْثَا حِينَ تَحْبُبُ
تَرَى خَافِيَاتِ الْغَيْبِ وَهُوَ مُغْبِبُ

إِذَا سُلَّ خَلَّتِ الْغِمْدُ أَسْلَمَ جَدُولًا
يَقْدُ الْمَقَاضِ السَّرْدَ رَهْوًا كَأَنَّهُ
فَمَا كَانَ إِلَّا ضَرِيَّةَ الْغَوْلِ يَتَنَا
أَطْلَعْتُ الصَّبَاحَ حَتَّى ارْعَوْتُ بِي خَلِيقَةً
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالْبَنَاتِ مُصَوِّحُ
يُسْرِبُهُ . مَاءُ الشَّبَابِ نَضَارَةٌ
دَعَانِي ابْنُ نَخْوَالٍ عَلَيَّ وَبَيْنَا
فَجَبْتُ عَنْ الْفَجْرِ الظَّلَامِ كَأَنَّمَا
بَعِيسُ أَرَى مِنْ تَحْلِفِهَا فَرْطَ خَلْقِهَا
إِلَى مَلِكٍ كَالْقَلْبِ خَلْفَ حِجَابِهِ

حتى يقول :

وَقَلْبُ أَثْوَابِ الدُّجَى حِينَ يَغْضَبُ
بِعَيْنِي تَحْلُو فِي فُرَادَى وَتَقْلُبُ

كَلَّا تُشْرِقُ الدُّنْيَا إِذَا كَانَ رَاضِيًا
كَرِيمٌ مَتَى أَصْغَمَ أَمِيرَةٌ وَجْهَهُ

ويجتم بقوله :

تَوَجَّهَ لِقَائِهِ صَدِيقٌ وَمَكْسَبُ
فِيَسْتَعِي إِلَى شَيْءٍ مِمَّا وَاهَا وَيَنْصَبُ
وَيَعْمُرُ مِنْ دُنْيَاهُ مَا يَتَخَرَّبُ
بَلِيغًا ، وَفِي صَرَفِ الزَّمَانِ مُؤَدَّبُ

إِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَقْلٌ فَحَيْثُمَا
يَنَالُ الْفَتَى بِالْخَفَضِ بُلْغَةً عَيْثِهِ
يُتَخَرَّبُ مِنْ أَعْرَافٍ مَا لَيْسَ هَانِيًا
عَلَى أَنَّ فِي الْأَيَّامِ لِلْمَرْءِ وَاعْظَا

ونلاحظ في هذه القصيدة التي رواها المسيحي ملاح من صنعة البيهقي الشعرية وأولها تأثيره ببعض مصطلح الشعر القديم وصياغته دليلاً على حفظه للكثير منه ومن ذلك قوله واصفاً قصر الظلام : « ظلام كإيهام القطاة » و « يظلم الرمح » و « الليل بالصيخ أشيب » .

وأنه حل أو فصل معنى لدى الرمة ، تناوله الشعراء كثيراً ، وهو يصف قطعه اليداء على راحلته ومعه سيفه .

ونلاحظ بناء القصيدة التي مدح بها هنا على النهج القديم بادئاً بالفعل ،

نكته صوره تمييزاً بدوياً ، يرحل فيه إلى محبوبته رحلة المخاطر ، وقد أعد لها من جرقة القلب والسلاح ما يتغلب به على صعاب الطريق .

ويختم القصيدة بأبيات من الحكمة .

ونلاحظ في صناعته الشعرية غرابة بعض التشبيهات والصور على غير المألوف ومنها تشبيه الحرباء وقد مدت كفيها بأنها كمن يمد كفيه بالدعاء ، مبدلاً صورة الشاعر القديم الذي شبه الحرباء في الضحى وكأنها كمن يمسك بالقوس والرمح مستعداً للرمي . وتشبيه الزيارة وقصرها بأنها كخفقة طائر . وتشبيه النرع بالثيال وهو الماء القليل في قوله :

يُقَدُّ المِغَاضُ السَرْدَ وَهَؤَا كَأَنَّهُ يَقْدُ ثُمَالًا ، أَوْضِيًّا حِينَ يَضْرِبُ

ويعتمد في تشبيه الناس بالزرع على القرآن الكريم في قوله :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَأَثَابِ مَصْرُوحٍ لِيَذِي وَخَضِرَ لِيَنُمُو وَمُعْشِبُ

ومن غريب تشبيهه كذلك قوله :

إِلَى مَلِكٍ كَالْقَلْبِ خَلْفَ حِجَابِهِ يَرَى خَافِيَاتِ الْغَيْبِ وَهُوَ غَيْبُ

ومثل هذه القصيدة في بنائها البدوي ، قصيدة أخرى أوردناها له المسبحي في مدح محمد بن جعفر بن فلاح أحد أمراء الفاطميين ، ممن تولوا دمشق وإمارة الشام في عصر المعز والعزير يقول في مطلعها^(١) :

صَدْتُ وَمَنْزَلُهَا مِنْ مَنْزِلِ صَدِّ(٢) وَأَخْلَفْتُكَ عَلَى الْعَلَاتِ مَا تُعَلِّدُ

ويغرب في صورها وتشبيهاتها كما فعل في القصيدة السابقة ، كقوله :

كَأَنَّ مُحَقِّقِي قَضِيْبٍ فِي صَبَوَرٍ تُجَادُ ، فَلَمَّا عَنْ أَوْرَاقِهَا بَدَدُ

ومن صوره التي تكررت قوله يشبه النجوم حول البدر أو النجرة البيضاء في السماء المسماة بدرج الثبانة بالطر تحوم على غدير الماء ، وهي صورة غريبة ، وإن كررها في قصيدتيه :

(١) تاريخ المسبحي ص ١٦ .

(٢) صدد الشيء قبالة وأمانه .

فقد ذكر في هذه القصيدة قوله (١) :

وَلَا حَ بَدْرُ الدُّجَى نَهْجًا وَأَنْجَمُهُ طَيْرًا تَرِفُ حَوَالِيهِ وَلَا تُرْدُ (٢)

ويذكر في القصيدة نهر حلب المسمى بِقُوقٍ ، مشبهًا البيض حَفَ الزرد بحافاته ، فصورة الماء في هذا النهر القليل الغور ، وهو ينساب حول الحصى والصخر في مجراه يشبه تلك الصورة التي رسمها من خياله وهي صورة غريبة في تركيبها ، وإن لم تكن غريبة في جزئياتها لأن تشبيه الماء المنساب في الجدول بالزرد أمر وارد متكرر في شعر القدماء .

وهو مغرم بالأمثال والحكم يسوقهما كل حين في أثناء قصيدته ، كأن يقول في القصيدة :

وَمَا دُنُوكَ مِنْ لَا حِفَاطَ لَهُمْ عَلَى الْمَوَدَةِ إِلَّا النَّأْيُ وَالْبَعْدُ وَكَقَوْلِهِ :

دَغَمَنْ فَلَكَ وَوَأَصِلْ مِنْ ظَفَرْتِ بِهِ مَا تَعْلَمُ الْيَوْمَ مَا يَقْضِي عَلَيْكَ غَدُ كُلِّ الْبَرِيَّةِ عِمَاقٌ يَفُوتُهُمْ وَيُفَسِّنُّ شَعْرَهُ أَمْثَالًا قَدِيمَةً كَقَوْلِهِ :

أَبْقَى الزَّمَانُ عَلَى لَبَاتِهِ عِدَّةً وَإِنَّمَا يُنْجِزُ الْأَحْرَارُ مَا وَعَدُوا مِنْ الْمَثَلِ السَّائِرِ : أَنْجَزَ حَرْمًا مَا وَعَدَ وَأَوْرَدَ لَهُ الْمَسْحَى أَرْجُوزَةً مَحْمُودَةً يَقُولُ فِيهَا :

نَهْنِي دِيكَ صَدْنَحْ	قَلْتُ قَوْمِي يَا مُلْنَحْ
وَالصَّبْحُ قَدْ بَانَ لَهُ	فِي كَفَلِ اللَّيْلِ وَصْنَحْ
وَالطَّلُّ فِي ذَلَّلِ الدُّجَى	إِنْ لَمْ يَسَلْ مِنْهُ رَشْنَحْ
فَأَقْبَلْتُ فِي حُلَلِ	كَالشَّمْسِ فِي قَوْسِ قَرْخْ
وَالْبَدْرُ أَبْدَى صَنْفَحَةً	مِنْ جِيدِهِ حِينَ سَبَحْ
تَحْمِلُ لِي رُجْجَاجَةً	مَلَأَى مُدَامًا ، وَقَدْخْ
وَأَتْلَفْتُ تَسْكُبَ لِي	مِنْهَا سُرُورًا وَفَرْخْ

(١) السبيعي ص ١٧ .

(٢) النسي النندز .

حتى يقول :

فلم نزل نشرها حمراء كاليسك نفخ

ويقول فيها :

جدد لي عهد الهوى من بعد ما عفى ونع
لست امرؤا إذا اغتدى يعرف في الطير الروح
إذا أصبت فرجة سالمة من الشرخ
فما أبا لي في عهد تحاب قد جى لم نجح

وقد ذكر له ابن رشيق بيتاً في الشمعة يقول :

قد شابهتني في لون وفي قصب وفي اختراق وفي ذنوع وفي سهر
وذكره العالي وعلق عليه بقوله : « هذا تشبيه خمسة بخمسة ، وقد أجاد
غاية الجودة » .

ومنهم :

أبو الحسين محمد بن عثمان الفصيح^(١) :

يذكر له المسبحي قصيدة رائعة طويلة جيدة ، مدح بها أبا محمد الحسن بن
عمار أمين الدولة وأحد وزراء الحاكم بأمر الله (قتله في شوال سنة
٣٩٠ هـ) . يقول في هذه القصيدة :

أنا صاحب رخلي أجد مسير
وقفنا وقدامنا هنا نشوة الكرى
وما زاد ظلم الشوق إلا ركية
مرثها شمال قرة ودبور
ألا فانظراني والتائف زور
والثوم في عين المهابة فتور

وتبدو سمات البدانة واضحة في اللفظ والأخيلة ، ويمضي ليصف النوق وقد
أجهدتها الرحلة إلى المملوح حتى بلغت :

فجاءتك أمثال القطا الجنوني صرصرث
بطان. تثرى المسكى والروض مؤنق
عليهن في الجوّ المنيع صفور
به ، ويردن الماء وهو نيمر

ويعرض على نسق صاحبه المنصور ابن البيه في صياغة معانيه على طريقة الأمثال والحكم يتابعها في أبيات متتالية في نسق فيقول :

فلا تنأقن اليوم يسلم نفسه ألا إن يوم الترهات غرور
فقد تفضح النار الدجي وهي جفرة ويقطع حد السيف وهو قصير
وريتما هيب الفتى وهو عاجز وعظم شأن الأمر وهو خبير

ويشير فيها إلى أنه من رجال الحاكم ومدير عسكره إذ يقول :

وإن السيوف الحاكمة قطع وعند رقاب الخالعين ثور
يشق العصا الصبد اللقيم وإله إلى مثلها في الثايات قفير

أتراه هنا يشير إلى عصيان أبي ركة وثورته على الحاكم أم يذكر أمرا آخر ؟
ومعروف أن محمد بن عمار هذا مغرب من كتامة . وهي القبيلة التي عاضدت
المغز وجاءوا معه إلى مصر ، واتخذ الخلفاء منهم رجالاً في مناصب الدولة
الكبرى وخلصوا عليهم ، وقربوهم . يقول :

وهل أنجم العلياء إلا كتامة فليست .. وإن غار الزمان .. تغور
وإن حارب الله لا حارب غيره هم وأمير المؤمنين أمير

ومنها : ابن رشد بن أبو علي صالح (١) :

ذكره الثعالبي في البيعة وقال إنه أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب
صحب المتنبى وروى شعره . وكان جيد المعاني . وعاش حتى لحق بالدولة
الفاطمية ومدح رجلاً مثل أبي الحسن علي بن جعفر بن فلاح الكتامي الذي
ولى دمشق والشام كما تولى في مصر بعض المناصب الكبرى حتى قتله الحاكم .

وكان يفتي مجلس حسين بن جوهر القائد . وعرف الشريف الرسي أبا عبد
الله محمد بن علي نقيب الطالبين بمصر ، والأمير أبا تميم سلمان بن فلاح وله في
كل هؤلاء أبيات ذكرها المسبحي ، وهي من الشعر الوسط سهل اللفظ الذي
عرف به الكتاب في القرن الرابع ، وترجم له الثعالبي في البيعة ، وجاء ببعض
أخباره متفرقة ، كما ترجم له ابن سعيد في المغرب (٢) .

★ ★ ★

(١) المسبحي ص ٤ .

(٢) فوات ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) المغرب ج ٣ ص ٢٥٢ .

الفصل الثالث

شعراء وفلذون فى القرن الرابع

- (١) أبو الرقعمق الأنطاكى (ت ٣٩٩ هـ)
- (٢) الرقيق القيروانى (ت حوالى سنة ٤٢٥ هـ)
- (٣) صريع الدلاء البغدادى (ت سنة ٤١٢ هـ)
- (٤) عبد المحسن الصورى (ت سنة ٤١٦ هـ)

أبو الرقعمق
أحمد بن محمد الإنطاكي — أبو حامد
(ت سنة ٣٩٩ هـ)

انطاكي النشأة كما تدل نسبته ، ولم تورد المصادر شيئاً عن ولادته ، قدم إلى مصر بعد أن ثبت قدمه في الشعر .

ذكره الثعالبي في اليتيمة^(١) وقال عنه : هو نادرة الزمان وجملة الإحسان . وهو أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين . هو بالشام كاهن الحجاج بالعراق .
قدم مصر ، وذكر أن ذلك كان في بداية الدولة الفاطمية زمن المعز لدين الله . وأقام بها طويلاً فعاصر من الخلفاء العزيز بالله ، والحاكم بأمر الله .

قال ابن خلكان^(٢) : إنه أقام بمصر طويلاً ، وإن معظم شعره قد نظم في مدح أمرائها ورؤسائها ، فمن مدح المعز والعزيز . والحاكم ، وجوهر الصقل والأمير تميم بن المعز ويعقوب بن كلث .

كما اتصل ببعض الأشراف الرّسّيين ، ومدحهم .

وذكر أنه لقب بالرقعمق لرقاعته في شعره ومجونه^(٣) . وذلك لقوله :

ولم أكسب الحق لكنتي	تخلّفت رقيماً كما قد ترى
لقد فقت فيه كما الفارس	سبي الرمي فاق جميع الوري

وقوله :

قد أجمع الناس أن حُمي	أحسن من عفتي وديني
قد عشيت دهرأ أعول عفتي	والناس إذ ذاك يعلوني
فمذ تحامقت قد كسائي	حُمي ، وقد عالني جُنوني

قال عنه صاحب اليتيمة إنه مع اشتهاره بالحقق والمجون إلا أن له الشعر الجاد

(١) ٢٣٩٨/ ١

(٢) ريفت ١/ ٤٨

(٣) يتيمة الدمع ١/ ٧٩٧

في المديح ، قال : « ومن تصرّف بالشعر الجزل في أنواع الجذّ والمزول واحرز نصب الفضل . وهو أحد المتأخّاجمّدين ، والفضلاء المحسنين » .

قال ابن خلكان : وأقام بمصر طويلاً وأظنه توفي بمصر سنة ٣٩٩ هـ .

شعره :

ونبدأ الحديث بشعره الجاد في المديح . واعتبر التعاليى وغيره قصيدته في العزيز بالله ويعقوب بن كلس الراقية من عيون شعره وغرره . قال التعاليى :

« فمن غرر محاسنه قوله بمدح من قصيدة أولها :

قد سمعنا مقالَه واعتذارَه	وأقلناه ذنبَه وعشارَه
والمعاني لمن غيبت ولكن	بك عرّضت فاسمعي بإجازَه
من مراده أنه أبد الدهر	سـ تراه عجللاً أزرارَه
عالم أنه عذاب من الله مباح	لأعين النظارَه
هتك الله سترَه فلکم هتك	لك من ذى تستر استارَه
سحرني أفاظه وكذا كل	مليح الحاظه سحرارَه
ما على مؤثر الثباغ والإعرا	ضـ لو آثر الرضا والزهارَه
وعلى أتقى وإن كان قد غد	بـ بالهجر مؤثر إشارَه
لم أزل لا يحبسه من حبيب	أشهى قرنه وأنى نفاَرَه

وتلك المقدمة الغزلية ، تبدو مغايرة في نهجها لما اعتدناه في الشعر العرفى التقليدى . يحيل فيها إلى الروح الشعبية في الحديث ، واللفظ ، ولا تخلو من روح تخامق أو عبث . ويقول في مديحها يعنى الوزير يعقوب بن كلس :

لم يَدع للعزيز في سائر الأَر	ض عُلُوْا إلّا وأحمد نازَه
فلها اجتهاد دون سواءه	واصفاه لنفسه واختارَه
لم تشد له الوزارة مجداً	لا ، ولا قيل رفعت مقداره
بل كساها وقد غرّمتها الدهر	رُ جلالاً وبهجة ونضارَه
كل يوم له على ثوب الدهر	سـ ، وكثر الخطوب بالبدل غارَه
قد يد شائها القرار من البدر	لـ ، وفي حرمة الوعى كزارَه
هى قد قللت عن العزيز عداه	بالمطايا وكثرت أنصارَه
مكنا كل فاضل يده ثمير	سى ونضجى نفاعَه ضرارَه

فاستجرة فليس يأمن إلا
فإذا ما رأيته مطرقاً يُعَمِّمُ
لم يَدَعْ بالكاءِ والدَّهْنَ شيئاً
لا ولا موضعاً من الأرض إلا كا
زاده الله بِسَطَّةً وكفاه
مَنْ تَفِيًا بِظِلِّهِ واستجاة
سَلْ فيما يُرِيدُهُ أَفْكَارُهُ
في ضمير الغيوب إلا أَنَارُهُ
نَ بِالرَّأْيِ مُذْرِكاً أخطارُهُ
خوفه من زمانه وحذارُهُ

مدح يخرج عن طرق التقليد فيه ، فلم يجر على ما اعتاده الشعراء من ذكر
الشجاعة والكرم واستخدام العناصر التعبيرية المعتادة من اللفظ والصور البيانية في
حديث الشجاعة بالأقدام وقهر الأعداء ، وحديث السيف والرمح ، ولا جاء في
الكرم بذكر الغيث والسحاب والمطر . بل عرض معاني السماح والكفاء والخنكة ،
وهي خصائص ميزت المملوح ، فلم يكسبه صفات ليست به ، ولا بالغ مبالغته
تخرج عن قبول الذوق لها ، وتصبح مجرد بطاقات يعلقها الشاعر على مملوحه
مستعارة في معظمها .

وفي حديث العباسي في معاهد النصيب خبر غريب يخالف فيه الثعالبي وابن
خلكان . إذ يشير إلى أنه لحق بعصر كافور الإخشيدي ، قبل وفود المعز إلى
القاهرة .

يروى العباسي على لسان أبي الرقعق قوله^(١) :

« كان لي إخوان (أربعة) ، وكنت أنادمهم أيام الأستاذ كافور الإخشيدي
فجاءني رسولهم في يوم بارد ، وليست لي كسوة تُحصِنني من البرد ، فقال
إخوانك يُقرعونك السلام ويقولون لك : قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاةً سمينة ،
فاشتبه علينا ما نطبخ لك منها . قال فكتب إليهم :

إخواننا قصلوا الصَّبُوحَ بسحرة
قلنا اقترح شيئاً نجد لك طيبة
فأتى رسولهم إلى خصوصاً
قلت اطبخوا لي جبةً وقبضاً

وتشير هذه البنية من حديث العباسي إلى وفود المعز قبل الفاطميين . ونعمود
إلى حديث المدح في شعره الجاد يمدح الوزير ابن كلثوم كذلك . بقية^(٢) :

(١) معاهد النصيب ٢/ ٢٥٢ .

(٢) مجلة الدر ١/ ١٨١ .

إِنَّ رِبْعاً عَرَفْتَهُ مَأْلُوفٌ
 غَثِرَتْ أَمَّهُ صُرُوفُ اللَّيَالِي
 مَا مَرَرْنَا عَلَيْهِ إِلَّا وَقَفْنَا
 أَلْفَا فِيهِ لِلْبُكَاءِ كَأَنِّي
 حَاسِدٌ لِلجَفُونَ لَمَّا أَرَأَيْتُ
 إِنَّ يَعْقُوبَ قَدْ أَفَادَ وَأَقْنَى
 سَلَّ سَيْفًا مِنَ الْبَصِيرَةِ وَالرَّأَى
 بِأَيْدٍ لِلْعَزِيزِ دُونَ حِمَاهُ
 لَمْ تَزَلْ دَوْلُهُ تَغْوِضُ الْمَنَابِي
 نَاصِحًا مَشْفِقًا مَحِبًّا وَوَدُودًا
 لَيْسَ تُخَشَى فُسَادُ أَمْرِ تَوَلَّى
 مَا رَأَيْنَاهُ قَطُّ إِلَّا رَأَيْنَا
 وَرَأَيْنَا قِرْمًا كَبِيرًا هُمَامًا
 لَكَدْ طَعِمَ الْعَطَاءَ فَهُوَ إِذَا جَا
 خَلَقَ مِنْهُ مَتَدٌ كَانَ كَرِيمٌ
 وَيَرِيشُ الْفَقِيرَ بِالْبَلْبَلِ وَالْجَوِ
 فَأَرَانَا الْأَلَهَ صَرَفَ اللَّيَالِي

كَانَ تَنْبِيضُهُ مُزِيدٌ وَمَنْصِينٌ
 وَغَدَا مِنْهُ حَسَنُهُ مَصْرُوفًا
 وَأَطْلَقْنَا شَوْقًا إِلَيْهِ الْوَقُوفَا
 لَمْ أَكُنْ فِيهِ لِلْعَوَانِي أَلُوفَا
 فِي مَغَانِيهِ دَمَعُهَا الْمَنْرُوفَا
 وَأَعَادَ التَّدْيَ وَأَغْنَى الضَّبِيفَا
 يَ، فَأَغْتَاهُ أَنْ يَسْلُ السُّيُوفَا
 مَهْجَةً حُرَّةً وَرَأْيَا حَصِيفَا
 وَتَرَدُّ الرَّدَى وَتَلَقَّى الصَّفُوفَا
 قَالِمًا فِي رَحْمَتِهِ، صَعْبًا عَسُوفَا
 هُ، وَأَضْحَى بِرَأْيِهِ مَكْنُوفَا
 لَحْلَقًا طَاهِرًا، وَفَعْلًا شَرِيفَا
 مُنْعِمًا، مُفَضِّلًا، رَحِيمًا، رَعِيفَا
 دَ وَأَعْطَى يَرَى الْكَثِيرَ طَفِيفَا
 يَسْتَلِدُّ التَّدْيَ وَيَقْرَى الضُّيُوفَا
 دَ، وَيَعْطَى وَيَسْعَفُ الْمَلُوفَا
 أَبَدًا عَنْ فَنَائِهِ مَصْرُوفَا

وهذا المدح السهل الجارى بلغة الحديث طابعه وميزته ، ومع كل من مدح لم
 يتخلل عن هذا الطبع . ويقول معرضاً بهذا المسلك في مدحه :

لَمَنْ أَمْدَحُ بِالشَّعْرِ ؟	لَمَنْ أَقْصِدُ ؟ لَا أَدْرِي
إِلَى مَنْ إِنْ دَجَا خُطْبٌ	وَنَابَتْ نَوْبُ الثَّعْرِ
فَقَدْ - وَالشَّفْعُ وَالْوَتِيرُ	وَمَنْ أَقْسَمُ بِالْفَجْرِ
تَحِيرْتُ فَمَا أَدْرِي الَّذِي	أَصْنَعُ فِي أَمْرِي
عَلَى أَمِّي بِالثَّعْرِ وَبِالْأَيِّ	أَفْزَحُ خُجْرِي
وَلَكِنِّي لِلْحَيْرَةِ -	كُرَانُ بَلَا سُكْرِ
كَأَنِّي لَسْتُ مَخْلُوقًا	لِغَيْرِ الْجَهْدِ وَالضَّرِّ
وَمَذْكَتُ قَمَدْفِرْعَ	إِلَى الْفَاقَةِ وَالْفَقْرِ

فما أصنع في مصر إذا لم أحظ في مصر
وفي الآفاق أقوام يميلون إلى شعري
وتبئت بأن القسوم لا يخلون من ذكرى
فقيم الترك للسير ؟ وهل في ذلك من علو
وقد قلت أنفصال وسرى غرة الشهر
فأما أكثر الحمق فقد سرت في البحر
وباقية معى يذهب في البر على ظهري
ولا أترك في مصر للذكرى الحق من أثر

وهذا الحديث عن حقه أو تحامقه في مطلع قصائده يشير إلى أنه بضلة التي يتفق بها شعره عند سامعيه بمصر ، ولهذا لا تعجب أن يبدأ بعض قصائد المديح بهذا اللون . وهذه الأبيات نفسها مقدمة لمديحة ينتقل عنها إلى موضوعه فيقول :

ألا يا منتهى الجود وبإذا المجيد والفخير
ويا ابن السادة العر وبإين الأنجم الزهير

ومن مداخله التي تبدأ بهذا التحامق قصيدة في الخليفة العزيز نزار . قوله :

تخذ في هذاتك مما قد عرفت به مما به أنت معروف ومشهور
واخلق العصفاف صبي صبي صبي إذا تجلوتني في الصبح العصفاف
لفيلك ما شئت من حمق ومن قوس قليله لكثير الحمق لكثير
كم رآه إدراكه قوم فأعجزهم وكيف يدرك ما فيه قناطير
لأنك كن حماقاتي لأن بها لبواء حمقى في الآفاق منشور
ولست أبغى بها خلا ولا بدلا هيات غيري بترك الحمق منشور
أستغفر الله عما قلته عبثا لغريتي ، وما في الصحف مسطور
أقول للنفس لما استشعرت جزعا وبات يردعها خوف وتحذير
إن الإمام نزاراً مدحه فيقى ذخرك لئلا يترك عند الله مذخور
هو الذي ليس بعد الله من أحد سواء في الناس محمود ومشكور
مُسمر في المعالي ذل مجتهد وما له في سوى العليلة تشير

فالتحامق إذا كان مدخلة إلى مدح من مدح من الخلفاء والملوك والأمراء ، ولعلمهم وجازا فيه مادة تسلية وترويح ، وتغفيرا عن جاري الشعر الذي ربما شعروا

بالملل من سماعه فأحبوا أن يسمعوا مثل قول أبي الرقعت فتأدى فيه وراج به عندهم .

ومن اتصل بهم في مصر الأمير تميم بن المعز ، وكان حبا للشعراء ممدحا منهم ، كثير الانفاق عليهم . ويقول فيه على طريقته :

وإحساني تميم	عُدْتُ من عظم مصابي
بالأمير السيد الما	جِدِّ والقَرَمِ اللَّبابِ
والهامم المنعم المفضال	والبحرِ القبابِ
والذي لا فرق ما بيـ	بَن جَدَّاه والسحابِ
لم أزره قط إلا	عُدْتُ محمودَ الإيابِ
ذكره أعذب في الأنفـ	س من ذكر الشبابِ
ولقد رقى عن الما	وعن طبع الشرابِ
أكثم في الرأي وفي الغضـ	بل وقس في الخطابِ

وما قاله في المديح في الشاعرين الشريف الحسيني الرسي وإبراهيم الرسي . يقول في إبراهيم :

حبذا الرسي مولى	رضي الناس ولأهـ
جعل الله أعاديـ	له من سوء فداهـ
فلقد أيقن بالثر	وق من حل ذراهـ
من رقى حتى تناهى	في المعالي مرقاهـ
لم يضع من كان إبرا	هم في الناس رجاهـ
لا ولا يفرق من صرف	زمان إن عراهـ

ويقول في الحسيني متحامقا (١) :

عجب ما مثله عجب	فعلوا لي غير ما يجب
فرقت بطني فواخرني	ذقن من بالسُّلح يختضب
هربا من شرها هربا	فَعَسَى أن يَنْفَعَ الهَرْبُ

(١) البيمة ١ / ٣٨٩ .

ولكم بتا على طرب
وكؤوس الصفع دائرة
وكان الصفع بينهم
ورعوس القوم تُستَلَب
ملؤها اللذات والطرب
شعل النيران تلتهب

ويخرج إلى المدح فيقول :

وعجيب والحسين له
أن يثيري عنه لَقْ
وهو القيث الميث إذا
فلى الرُسى ملجؤنا
راحة بالجوّد تُسكِب
ولديه مريعى جَذِب
أعوزتنا درها السُحْب
من صروف الدهر والهرب

ولأن الرقعة في الغزل ما رأيناها في بعض مدحه . وهو مطبوع كذلك بطابعه كما
أخنا . ومنه قوله :

أظن ودادها من غير نية
فتاة لا تمل عذاب قلبي
ولا ذنب له إلا التواقي
وهعجني التمتع والتشاجي
فوا أسفا على حر يعزى
وهل هي فيه إلا مدعة
ولا تحليه وقتاً من أذية
لمن في الحب ليست بالوفا
من الخود الممنعة الشجة
أخا رذء على عظيم الرذة

أعجب عبد الرحيم العباسي بشعر أبي الرقعة ، وذكر أنه سار على طريقة ابن
أخجاج البغدادي في التهامق ، وأورد له منظومة رائعة يقول فيها :

كتب الحبيب إلى السريد
فلأنتقم جماري
لا هم إلا أن تط
ولا تخبرك قصي
إن الذين تصافعوا
أنفقوا علي لأنهم
لو كنت ثم لقت هل
ولقد دخلت على الصديق
متشمرأ متبخرأ
فأذرت حين تبادروا
أن القصيل ابن البهر
ستين من أكل الشعر
سير من الهزال مع الطيور
فلقد سقطت على الحجر
بالقرع في زمن القشور
حضرأ ولم أك في الحضور
من أخذ بيد الضرب
البيت في يوم المطير
للصفيج بالثلج الكبير
دوى فكان على المدي

بالرجسَال تصافَّقُوا فالصَّنْعُ مفتاح السُّرُورِ
هو في المجالسِ كالبُخُورِ وكالقلْبِ في التُّحُورِ

وهذه القصيدة أو النظم المتحامي، على وزن قصيدة جاهلية مشهورة مطلعها :

ولقد دَخَلْتُ على الفتَا في الجَنَرِ في اليَوْمِ المطِيرِ

وهو ضربٌ من العبث النظمي الذي يخرج فيه الشاعر أو الناظم عن جدية الموضوع إلى ضرب من المجون عند ابن حجاج والعبث الالامعقول عند أبي الرقعمق وهو ضربٌ من النظم أرى أن مبدعه أبو الرقعمق، وسأر على دربه جماعة من المتحامين، وقد عرف هذا الضرب من بعده بمصر وغيرها في العصور التالية بشعر « الحُمَاق » ظهر بصورة واضحة عند ابن دانيال وغيره من شعراء المصريين في القرنين السابع والثامن .

وأورد له العباسي مثلاً آخر مطلعُه^(١) :

وَقُوقِ قِيَّ وَفُوقِ قِيَّ هَدِيَّةٌ في طَبَقِ
أَمَّا قُرُونٌ بَيْنَكُمْ تيساً طَوِيلُ العُنُقِ

ومن قوله في هذا اللون نفسه :

كَفَى مَلَامَكِ يَا ذَاتَ المَلَامَاتِ فما أُرِيدُ بديلاً بالرُّقَاعَاتِ
كَأَنَّنِي وَجُنُودَ الصَّقَعِ تَبْعُنِي وقد تَوَلَّتْ مزاميرُ الرُّطَانَاتِ
فَمِيسُ دِيرٍ ثَلَا يَزْمَارُهُ سَحْرًا على القُسُوسِ بترجيحِ وِرْدَاتِ
وقد مُجِثْتُ وَعَلِمْتُ المَجُونُ فما أَدْعَى بَنِي سَوَى رَبِّ المَجَانَاتِ
وَذَاكَ أَنَّى رَأَيْتُ العَقْلَ مُطَرَّحًا فَنَجَتْ أَهْلُ زَمَانِي بِالحِمَاقَاتِ
إِنِّي سَأُدْخِلُ عَمَالِي على عَذَلٍ في الحُبِّ إنْ عَلِلُونِي في الحِرَامَاتِ
أَفْدَى الَّذِينَ نَأَوْا والنَّارَ دَانِيَةً وَشَتُّوا بِالحِفَا شَمْلَ المُوَدَّاتِ
كَمْ قَدْ تَنَفَّتْ سِيَالِي في صُلُودِهِمْ والصِّدْأُ صَعُبٌ من تَنَفِّ السَّبَالَاتِ
سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَّامٍ لَنَا سَلَفَتْ بالقَفَصِ قَصْرَهَا طَيْبُ اللِّدَاذَاتِ

(١) معاهد التصميم ٢/ ٢٥٥ .

إِذَا تَرُوحَ وَلَا تَغْدُو إِلَى وَطَنِ
أَبَاهُمْ أَسْحَبَ أَذْيَالِ الْهَوَى مَرَحًا
عُوشْتُ مِنْهُمْ أَحْزَانًا تَوَرَّقِي
بَعْدَ السُّرُورِ وَفِرْحَانٍ بِتَرْحَلِي
إِلَّا إِلَى رَيْحِ خُمَارٍ وَحَانَتِي
مُضْرَعًا بَيْنَ سَكَرَاتٍ وَنَشْوَتِي

ويضئ أبو الرقعمق في مثل هذا الشعر الذي يبدو أنه راجع به عند معاصريه
فهر ملحمة وسط صرامة الجذد ، وتحور كما يقول من قيد العقل ، قد يحتاج إليه
الإنسان ، يحتاج إلى مثل هذا الجنون ، أو اللامعقول .

ونغم حديثنا عن هذا الشاعر العجيب بهذه الآيات التي نظمها في زيارة له إلى
مدينة تيس على بحيرة المنزلة ، وكانت مدينة عامرة ، مزدهرة بالبساتين والزهور ،
يؤمها أهل الخلاعة ، وطلاب المتعة ، للشرب ، فقد كانت مشهورة بعمورها
لكثرة ما يزرع أهلها من الكروم ، ومنها يعصرون ويعتقون الشراب . وكان
معظمهم من النصارى . ويذكر بعض منازة النيل والجزيرة ودير القصير . يقول :

تَفَنِّي الْيَالِي ، وَلَيْسَ بِالْفَاتِي
يَالِيلِ أَنْتَ وَطُولُ الدَّهْرِ مِيَانِ
مُخَيِّمٌ بَيْنَ أَشْجَانِي وَأَحْرَانِ
لَلنَّوْمِ إِذْ بَعُثُوا عَهْدَ بَأْجَانِي
إِلَّا تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِنِعْمَانِ
إِلَّا تَكْتَفِنِي شَوْقُ لَنْجَرَانِ
إِلَّا مَوَاطِنُ أَطْرَافِي وَأَشْجَانِي
وَرَقُّ الْحَمَامِ عَلَى دَوَاجٍ وَأَعْصَانِ
قَطَعْتُهُنَّ وَعَيْنُ الدَّهْرِ تَرَعَانِي
فِي ذُرَّةِ الْمَجْدِ مِنْ ذَهَبٍ بَيْنَ شِيَانِي
وَإِنْ أَرَدْتُ غَنَاءَ مِنْهُ تَعَانِي
وَجَادَ لِي طَرَفُهُ عَطْفًا وَنَثَانِي
وَاسْتَطِيرَ عَلَيَّ ثَنَاجُ كَيْفَانِ
حَتَّى تَوَسَّدَ بِسَرَاهُ وَخَلَّانِي
وَمَا عَلَيَّ جَنَاهُ طَرَفُهُ الْجَانِي
تَلْبِي بَتَيْسَ لَيْلُ الْخَائِفِ الْعَانِي
أَقُولُ إِذْ لَيْجٌ لَيْلِي فِي تَطْلُؤِهِ
لَمْ يَكُفْ آتِي فِي تَيْسٍ مُطْرَحٍ
حَتَّى يُلِيَتْ بِفَقْدَانِ الْمَنَامِ فَمَا
مَا صَاعَدَ الْبَقَى مِنْ تَلْقَاءِ أَرْضِهِمْ
وَلَا حَنَنْتُ إِلَى نَجْرَانٍ مِنْ طَرَبِ
لَا تَكْذِبْنِ ، فَمَا مَصْرَوْنِ بَعْدَتْ
لِيَالِي الْقَبِيلِ لَا أَنْسَاكِ مَا هَتَفَتْ
أَصْبُو إِلَى هَفَوَاتٍ فَيَلِي لِي سَلَفَتْ
مَعَ سَادَةِ نَجَبٍ ، غَرٍّ ، غَطَارِقَةٍ
وَذِي دَلَالٍ إِذَا مَا شِئْتُ أَنْشُدْنِي
سَقِيَّتِهِ وَسَقَائِي فَضْلَ يَفِيَّتِهِ
مَا زِلْتُ أَجْنَى بِلَحْظِي وَرَدَّوْجِيَّتِهِ
مَا زِلْتُ يَا أَخْذَهَا صَفَاءَ صَانِيَّةٍ
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي مِنْ صَبَاتِيَّتِهِ

كَمْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ يَوْمٍ نَعَمْتُ بِهِ
 سَقِيًّا لِلتَّائِبِينَ بِالْذَّرِيرِينَ رَبَّنَا
 وَالطَّلَّ مِنْحَلَّرٌ، وَالرُّوْضُ مَبْتَسِمٌ
 وَالنَّجَسُ الْفَضُّ مِنْهُلٌ مَدَامِجُهُ
 عَلَى تَصَاحُوبِ نَائِبَاتٍ وَعِيدَانِ
 بَاتَتْ تَجُودُ عَلَيْهَا سَحْبٌ نَيْسَانِ
 عَنْ أَصْفَرِ فَاقِعٍ، وَعَنْ قَانِي
 كَانَ أَجْفَانُهُ أَجْفَانُ وَسْنَانِ

° ° ° ° °

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ عَقْلٍ نَطَقْتُ بِهِ
 لَا وَالَّذِي دُونَ هَذَا الْخَلْقِ صَبْرُنِي
 مَا لِلشَّدَائِيِّ مِنْ مِثْلِ يِقَاسٍ بِهِ
 مَهْدَبُ الرَّأْيِ مُحَمَّدٌ خَلَاتِقُهُ
 مَالِي وَالْعَقْلُ، لَيْسَ الْعَقْلُ مِنْ شَائِنِي
 أَحْلُوَّةٌ، وَبِحَبِّ الْحُمَقِ أَغْرَانِي
 وَلَا لِي فِي اصْطِنَاعِ الْعَرَفِ مِنْ ثَائِنِي
 رَحْبُ الْمَكَارِمِ سَمِيعٌ غَيْرُ مَنَانِ

الرقيق القيرواني

إبراهيم بن القاسم أبو إسحاق (ت سنة ٤٢٥ هـ)

لقب بالرقيق (بما فيه من مشددة^(١)) ، نشأ بالقيروان ، في عصر
ثبوت الفاطمية بها وبلغ الشباب عند انتقال المعز من القيروان والمهدية إلى
القاهرة المعزية سنة ٣٦١ هـ .

وأخبار الرقيق شحيحة بالمصادر . وغاية ما حصلناه منها أنه تعلم بالقيروان
وينبغ في الأدب كتابة وشعراً ، وعمل كاتباً في ديوان الصنهاجين وعرف بأنه
كاتب الحضرة في الدولة الصنهاجية ، وظل بهذه الوظيفة ما يقرب من نصف
قرن ، خدم الأمير المنصور بن يوسف بن زيري ، وبأديس ابنه والمعز بن
بأديس .

وتوجه مرتين أو ثلاثة من القيروان إلى القاهرة مبعوثاً من أمراء صنهاجة
القيروان إلى خلفاء الفاطميين أيام أن كانت إمارة الصنهاجين تابعة للدولة
الفاطمية ، في حكم المعز والعزير والحاكم .

وأول مرة توجه فيها إلى القاهرة كانت سنة ٣٨٦ هـ مبعوثاً من الأمير
منصور لتهنئة الحاكم بأمر الله بالخلافة ، وقد حمل معه هدايا ثمينة مع سجل
التهنئة .

وأنشد الحاكم قصيدة التهنئة يقول في مطلعها :

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شيا به بدا آخر من جانب الأفق يطلُّ
إلى أن أقرت جيزة النيل أعيننا كما قر عينا طائر حين يرجع

قال عنه ابن رشيق : « الكاتب النديم ، شاعر سهل الكلام محكمه ، لطيف
الطبع قويه ، تلوح الكتابة على ألفاظه . قليل الشعر . غلب عليه رسم الكتابة
وعلم التاريخ ، وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحق الناس ، وهو كاتب

(١) راجع النموذج لابن رشيق القيرواني ، ص ٢٨ ، طبع زين العابدين السنوسي دار المغرب العربي بتونس
سنة ١٩٧١ م .

الحضرة منذ نيف وعشرين سنة إلى الآن » . لعل ذلك كان في حدود سنة ٤٢٠ هـ .

قال حسن حسنى عبد الوهاب^(١) : « المعروف بالرفيق وبالكاتب والنديم ، فإنه ترقى في حجر البلاط الصنهاجى ، وباشر الكتابة الخاصة ، وترأس ديوان الرسائل مدة ثلث قرن ، وتردد سفيراً إلى الدولة الفاطمية أكثر من مرة » وسما ذكره فى أفريقية (تونس) ومصر ، وشاعت تأليفه التاريخية والأدبية فى الآفاق .

وكانت له عناية بالفنون ، لا سيما بالأنغام والألحان . « وقد وضع كتاباً خاصاً عنه » الأغاني » .

ويقول ابن رشيق : « وكان قد وفد على مصر سنة ٣٨٨ هـ أو سنة ٣٨٦ هـ على حد قول المقرئى ثمانية وثمانين وثلاثمائة هدية من نصر الدولة باديس بن زيرى إلى الحاكم ، فقال قصيدة ذكر فيها المناهل ثم قال :

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شبابه بدا آخر فى جانب الأفق يطلُّع
إلى أن أقرت جيزة النيل أعيناً كما قر عيناً ظاعراً حين يرجع

يقول فيها بعد مدح كثر ووصف جميل :

هدية مأمون السرية ناجح أمين إذا خان الأمين المضيق
وما مثل باديس ظهر خلافة إذا اختير يوماً للظهرة موضع
نصير لها من دولة حاقمية إذا ناب خطب أو تفاقم مطمع
جسانم أمير المؤمنين وسهمه وسم دُعاف فى أعاديه منع

وانتهز الرفيق وفادته إلى القاهرة ليلتقى فيها بجماعة من الشعراء والأدباء ، ويجمع نفسه بمنزلة مصر والقاهرة ، ويرتاد الأماكن التى يعتادها هؤلاء ، ويعقدون بها مجالس الأنس والشراب ، وقد ترددت أسماءها كثيراً فى شعر العصر مثل بركة الحبش ، ودير القصير بالمقطم وشاطيء النيل بالجيزة والمقس ، والروضة .

(١) ورقلة ٢١٩/١ .

وكان الرقيق نزها ، رقيق الروح ، مرحاً ، محباً للهو والشراب يأنس له كل من جالسه ، فلا غرو أنلقى من المصريين محبة طيبة أحجم وأحيوه . وأوحشهم فراقه ، كما شعر هو بالشوق إليهم وإلى مغائى القاهرة ومصر عند عودته إلى تونس والقيروان .

ونظم يتذكر مشتاقاً لتلك الأوقات الطيبة الممتعة ، والصحبة السعيدة بقول^(١) :

تُوْدَى تحياني إلى ساكنى مصر
وحملتُها ماضقاً عن حملهِ صُنْرى
شَمْتُ نَسِيمَ الْيَسَلِ من ذلك النَشْرِ
فليس بخالٍ من ضَميرى ، ولا يُكْرِى
فطابَتْ لنا إذ وافقتْ غُرَّةَ الدَّهْرِ
فَلَسْتُ بِمُعْتَدٍ سِوَاهَا من العَمْرِ
فَبِقَدْ رُوحَ الوصلِ من راحة الهَجْرِ
من اللهو ما تنفكُ مِنِّى على ذِكْرِ
مَصَائِدِ غِزَالِ المطاردِ والفَقْرِ
جزيرتُها ذاتُ المَواخيرِ والجَمْرِ
أُنِيقَ إلى شاطئِ الخَلِيجِ إلى القَصْرِ
إلى دَيرِ مَرَحَتَا إلى ساحلِ البحرِ
إلى البركةِ الزَّهراءِ من زَهْرِ نَضْرِ
مِن السُّلَسِ الموشى تُشْثِرُ للتَجْرِ
نهارى بليلى ، لا أُنِيقُ من السُّكْرِ
إذا هتَفَ الثاقوسُ فى غُرَّةِ الفَجْرِ
تَشَكَّتْ أذى الزُّنَّارِ من دِقَةِ الحَصْرِ
لِمَا نِلْتُ من لَذَائِها لَيْلَةَ القَدْرِ
وإنْ غَنِيْتُ بالنيلِ عن مُقبِلِ القَطْرِ

هل الرِّيحُ إن سارَتْ مشرقةً تُسِرِّى
لِما خَطَرْتُ إلَّا بِكَيْثِ صَبَابَةٍ
تُرانى إذا هَبَّتْ قُبُولاً بنَشْرِهم
وما أُنْسَ من شَيْءٍ خلا العهدَ دُونَهُ
لِإِلٍ أُنْسَانَهَا على غُرَّةِ الصَّبَا
لعمري لئنْ كانتْ قِصاراً أَعْلَهَا
أُخَادِغُ دَهْرِي أن يعودَ بفرحةٍ
وترجعَ أَيَّامُ تَحَلَّتْ بِمَعَاهِدِ
فكم لى بالأفْرامِ أو دَيرِ نَهْمَةٍ
إلى جِيزَةِ الدُّنيا وما قد تَضَمَّنَتْ
وبالمُفسِ والبُستانِ اللعينِ مُنْظَرٍ
ولى سرقوسِ مسترأذٍ وملعبٍ
وكم بينَ بُستانِ الأميرِ وقصرِهِ
تراها كمرأَةٍ بَدَتْ فى رَفَافِ
وكم بَتْ فى دَيرِ القُصْبِ مُواصِلًا
ثابِرُنِجِي بِالزَّائِحِ بِكُرِّ غَرِيبَةٍ
مُسِيحِيَّةٍ خُوطِيَّةٍ كُلِّما انْتَشَتْ
وكم لَيْلَةٍ لى بالقَرافَةِ حِلَّتْهَا
سَقَى اللهُ صوبَ القَصْرِ تلكَ مَغَانِيَا

(١) راجع المخطوط للمرقزي ١ / ٣٧٠ .
ومسجم الأدباء لياقوت ١ / ٢٨٨ ، ومقدمة المختار من قطب السُرور ، ص ١١ وما بعدها .

والتزيين مقطعات ، وأجزاء من قصائد رواها ابن رشيقي في الأتمودج .
تكشف إلى حد ما عن صنعته الشعرية التي رصدها ابن رشيقي وهدانا إليها فيما
علق به على أبياته التي أوردتها في أغراض متعددة ، وإن كانت هذه الآيات لا
تشفي غليلنا في زيادة التعرف على الشاعر .

ومما أوردته ابن رشيقي أبيات في إخوانياته ، ورسائل شعرية تبادلها مع
أصدقائه . يقول ابن رشيقي^(١) : « ومن شعره جواباً على أبيات كتبها إليه
عمار بن جميل ، وقد انقطع عن مجالس الشراب :

قريضٌ كابتناس السرى	ضو جَمَته نسيماً صَبَا
كعقيدٍ من جُمانِ الطلّ	ل: منظوم وما نُقِبَا
ومشورٍ كثيرِ اللّد	رٌ من أسلاكِهِ السَّربَا
فأهدى نَشْرَ زُهرته	فَهِتَ المسلكُ مُتَهَبَا
إذا أثمارُهُ جُنَيْتْ	جَنَيْتَ العلمَ والأدبَا
يَهْزُوكَ حينَ تُشِيدُهُ	كَأَنَّكَ مُنْتَشِرٌ طَرَبَا
حَبَاكَ بهُ أُنْحَ يَرعى	لَكَ العهدُ الذّى وَجَبَا
صديقٌ مثلُ صَفْوِ الما	ءِ بالصُّهْبَاءِ قد قُطِبَا ^(٢)
كَتَبَتْ مَوَدَّةً مِنْهُ	بَحَثَ أَنْ أَكْزَرَ الذَّهَبَا
إذا عَدَّ امْرؤُ حَسْبَا	فَحَسْبِي ذِكْرُهُ حَسْبَا
أَلَدُ مِنْ الحَيَاةِ لَكَى	يَ ، لَكِنْ قَلْبُهُ قَلْبَا
فَهَانَ عَلَيْهِ مَا أَلْقَى	وظَنَّ تَجَلْدِي لَعِبَا

★ ★ ★

وجفوتُ الراحَ عن سَبَبٍ	وَكَانَ الجَفْوَتِي سَبَبَا
فصرتُ لوحقَ كَمَلًا	لَكَى الإِخْوَانُ مُجْتَبَا
وذاك لَوَبَةِ أَمَلٍ	أَنْ أَقْضَى بِهَا أَرْبَا
فَهَا أَنَا تَائِبٌ مِنْهَا	فَرَزْنِي تَبَصَّرَ العَجَبَا

(١) الأتمودج ص ٢٨ ، ومقدمة جزء من تلويح أنرفية للمنجي الكمي ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) قلب الشراب : مزج .

أَيَّاتُ إِخْوَانِيَّةٍ عَذْبَةُ الْعَتَابِ ، لَا تَخْلُو مِنْ مَدَاعِبَةِ الصَّدِيقِ ، وَالِدَلُّ عَلَيْهِ بِمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ مَوْتَةٍ .

ويتغزل الرقيق فيظرف ، ويرقق القول ، وإن لم يخرج في لفظه عن قاموس الغزل العربي السابق . يقول :

وَخَفَّ مِنْ فَوْقِهَا خَصِرٌ وَمُنْتَطَقٌ	إِذَا أَوْجَعْنَتْ بِمَا نَحْوِي مَآزِرُهَا
عَلَى كَثِيبٍ بِهِ مِنْ دِمَهِ ثَقُلُ (١)	ثَنَا الصَّبَا غُصْنًا قَدْ غَاظَتْهُ صَبَا
وَلِلْفَزَالِ أَحْوَارُ الْعَيْنِ وَالْعَقَقُ (٢)	لِلشَّمْسِ مَا بَقَرَتْ عَنَا مَعَاجِرُهَا
وَالْبَدْرُ يَكْسِفُ أَحْيَانًا وَيَتَمَجُّ	مَظْلُومَةٌ أَنْ يُقَالَ الْبَدْرُ يُشْبِهُهَا
تَجِيئُهَا تَحْتَ تَاجِي لَيْلِهَا فَلَقَى	يُجَلِّلُ الْمَتْنَ وَحَفَّ مِنْ ذَوَاتِهَا
بَنُورِهَا يَرْتَبِي فِي حُسْنِهَا الْحَدَقُ	كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ زَهْرَاءُ سَالِيَةٌ

ومن هذا اللون من الغزل ، مما اختاره ابن رشيقي قوله (٣) :

أَجَلُّهُ الْمَتَمَنَّى عَنْ أَمَانِيهِ	رَيْثُ إِذَا مَا مَعَارِيضُ الْمَنَى خَدَّارَتْ
أَمْ حَمْرُ دَارَيْنِ مَعَ مِسْكِ عَلَى فِيهِ	يَا إِخْوَتِي آفَاقِي فِي مُقَبِّلِهِ
أَمْ حَسَنُ ذَلِكَ التَّهَادِي فِي تَنَبُّيهِ	أَمْ حُسْنُ ذَلِكَ التَّرَاخِي فِي تَكَلُّمِهِ
أَمْ عَطْفُهُ ، أَمْ نَوَاهِ ، أَمْ تَدَانِيهِ	أَمْ سَخَطُهُ أَمْ رِضَاؤُهُ فِي تَجَنُّبِهِ
يَا قَاتِلِي كُلِّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ	نَفْسِي فِدَاؤُكَ ، مَالِي عَنْكَ مَصْطَبِرٌ

وتقف مع قوله في البيت الثاني « يا إخواني آفاقى في مقبله » فزرى كيف صاغ هذا القول السهل الجارى في عبارة شعرية أخاذة ، بها حلالة الصدق ، ورقة التعبير .

وبعد الرقيق إلى بدء قصائد المديح بالغزل ، وقد ينحو فيه نحو القدماء ويصطنع طرقهم ، إلا أنه يمزجها بروحه فيبدو غزلاً قديماً محدثاً كأن يقول :

يمدح محمد بن أبى العرب التميمي أحد رجالات الدولة الصنهاجية :

أَطْلَمَةُ الْعَيْنَيْنِ يَحْلُطُهَا السَّحَرُ	وَأَنْ ظَلَمَ الْحَدَّانَ وَاهْتَضَمَ الْخَصِرُ
أَعُوذُ بِرَيْدٍ مِنْ ثَنَائِكَ قَدْ ثَنَى	إِلَيْكَ قُلُوبًا بِإِلَاءِ أَحْشَانِهَا جَحْرُ

(١) ويروى صدر البيت : « بَقِيَ الْعَبِيرُ غُصْنًا غَاظَتْهُ صَبَا » وللقول البطل .

(٢) التَّقَى : طول العتق وجهاله .

(٣) الأَمْوُذُجُ ص ٣٣ .

لقد ضمنت في الحب أن ضماني
وما أم ساجي الطرف خفاقة الحشا
إذا ما رعاها نصت الجيد نحوه
بأصلح منها منظراً ومقلداً
يقول في مدحها :

نصباؤه أباكز الكلايسر بينها
يُخال بأن البرض غير موفر
منعمة هيفاء أو غادة بكر
عن الدّم إلا أن يدال له الوفر
ويقول فيها يصف مملوحه بالهمة وقيادة الجيش في النزال :

وملومة شهباء يسعي أمامها
يزجي بنات الأعوجية شرباً
أسود وغي تحت العجاجة غابها
صيححت بها دهماء قوم أرثهم
ويصف فيها بلاغته وكتابته فيقول :

يوشح ديباج البلاغة أحرفاً
ويفصح لفظاً حفظه من فصاحة
ويشرب غيون المشكلات بديهة
ويكاد يرى روضاً يوشحه الزهر
ويشرق من تحبير ألفاظها الحبر
وتبدى له أعقاب ما غيب الفكر

ويرى ابن رشيق جودة هذه القصيدة وأنها من أعجب ما سمع .

ومما جاء من وصفه قوله يصف واقعة حرية ، من قصيدة يمدح الأمير أبا
مناد باديس بن زيري سنة ٤٠٥ هـ :

لم أنس يوماً بشئ راع منظره
والحيل تعبر بالهاسات خافضة
والبيض في ظلمات النقع بارقة
وقد بدا معلماً باديس مستهراً
وأي راحته لو فاض نائلها
تجلو عمانته الحمراء غرته
لو صور الموت شخصاً ثم قيل له :

وقد تضائق فيه ملتقى الحدق
من سافح الدّم مجرى قلىء الفلق
مثل النجوم تهاوت في دجى العسي
كالشمس في الجوّ لا تخفى عن الحدق
وبأسها في الورى أشقى على الغرق
كأنه قمر في حمرة الشفق
أبو مناد تبدي مات من إقرب

ومن قوله في النشأ^(١) :

أهون ما ألقى وليس بهين	فإن المنايا بالتفوس رَوَّاصِدُ
رأيت وإن لم ألقك اليوم رَاحِا	لصريف رزاياها لقيتكَ في غِدِ
فلا يبعدنك الله ميتا بفقره	مُعْفِرُ بَخْدٍ في الثرى لم يُوسِدِ
تردئ نبيأ حين بُزَّتْ ثيابه	كان على أعطافه فضلُ مَجْسِدِ
مضأ سنانٍ في سنانٍ مُدْلِقِ	وفتكَ حسانٍ في حسانٍ مُهْتَدِ

★ ★ ★

(١) الأعمودج ، ص ٣٤ .

صريح الدلاء

أبو الحسن علي بن عبد الواحد البغدادي (ت سنة ٤١٢ هـ) (١)

لَقَّبَ بِقَتِيلِ الْغَوَاشِي أَي ذِي الرُّقَاعَتَيْنِ .
وصف بأنه الشاعر المشهور .

نقل ابن خلكان عن القاضي الرشيد ابن الزبير ، قوله : « كان يسلك في شعره مسلك أبي الرقعمق » . قال : وله قصيدة في الجحون ختمها بيت لو لم يكن له في الجلد سواه لبلغ به درجة الفضل ، وأحرز معه قصب السبق . وهو قوله :

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلبُ على حدِّ سوا
وقال الثعالبي (٢) أن اسمه على وقيل محمد . القصار . « وهو بصريُّ المولد والمنشأ ، إلا أنه استوطن بغداد ، ولما رأى سَخفَ الزمان وأهله وميلهم من الكلام إلى هزله أخذ في طريق السَّخْفِ ، ونزع ثياب الجدِّ وتلقب بصريح الدلاء ، وتشبهه بآمن الحجاج ، وهيات ! » .

ويذكره صاحب تاريخ ميفارقين على أنه علي بن عبد الواحد (٣) . وينعته بأنه الفقيه البغدادي الشاعر . وأنه كان شاعراً ماجناً . ويذكر أنه مدح صاحب ميفارقين أبا منصور نصر الله بن مروان .

وربما كان ذهابه إلى ميفارقين في رحلته مغادراً بغداد والعراق في حدود سنة ٤١٠ أو ٤١١ هـ .

ومر في هذه الرحلة بالشام ، وعرج على المعرة . والتقى بأبي العلاء المعري في عهده بيته ، وطلب من أبي العلاء نفعه ، فبعث إليه بقدر قليل واعتذر بأبيات يقول فيها :

تَفَهَّمْتُ يَا صَرِيحَ الْبَيْنِ بُشْرَى أَتَتْ مِنْ مُسْتَقِيلٍ مُسْتَقِيلٍ

(١) ترجمته - وفات الأعيان ٣ / ٣٨٤ . وصحبة اليتيمة ص ٢٢ .

(٢) أئمة اليتيمة ص ٢٢ .

(٣) تاريخ ميفارقين ١٤٣ .

يقول فيها :

دُعيت بِصَارِعِ خَدَارِكُنْهُ مَبَالِغَةً تَرُدُّ إِلَى فَعِيلٍ
وانتقل صريع الدلاء إلى القاهرة ، ويقول ابن خلكان إنه جاءها سنة
٤١٢ هـ في خلافة الظاهر بن الحاكم ، وفي خبر آخر أنه لحق الحاكم قبل اختفائه
ومدحه .

ولا نعر في المصادر الشحيحة بأخباره وشعره إلا بالآيات القليلة التي لا
تشفى غليلاً .

قال الثعالبي ولما أنشد فخر الملك علي بن خلف وزير عضد الدولة
البويهى — قصيدته التي منها :

يَا إِذَا الْبَجَلَاتِ وَيَاذَا النِّعَمِ الْمُسَيِّقَةِ
يَا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ مَنْ قَدْ خَلَقَهُ
لَوْ فَاحَرَ الدَّهْرَ الْوَرَى عُلُوتٍ مِنْهُ عُنُقُهُ
قَدْ وَالَّذِي يُنْفِقُ لِي مَا انْتَقَطَتْ فِي النِّفْقَةِ
وَبَعَثَ مِنْ دِفَازِي مَا كَانَ جَلْدِي رِقَّةً

وهي هزلية طويلة ، فأعطاه ما أغناه ، فَبَيَّتَ رِيحُهُ ، وَنَفَقَتْ سَوْقُهُ وَدُرَّتِ
الصَّلَاتُ بِهِ ، وَتَدَاوَلَ أَهْلُ بَغْدَادِ قَصِيدَتَهُ شَيْئًا عَارِضًا فِيهَا أَبَا الْعَنَسِ فِي تَأْخِيرِ
النِّفْقَةِ ، وَذَكَرَ التَّيْمِي أَنَّهُ قَالَهَا .

وأكثر شعره في داره ، وأنه كان يسميها باديته . وأول القصيدة :
قَلَقَلْتُ أَحْشَاءِي . تَبَارَيْحُ الْجَوَى وَبَانَ صَبْرِي حِينَ حَالَفْتُ الْأَسَى
يقول : ومنها — وهي مُطِمِّعة مؤيسة :

يَا سَادَةَ بَاثُوا وَقَلْبِي عِنْدَكُمْ
وَسَوْفَ أَسْلَى عَنْكُمْ صَبَابَتِي
فِي ظَرْفِ نَظْمَتِهَا مَقْصُورَةٌ
مَنْ صَنَعَ النَّاسَ وَلَمْ يُمَكِّنْهُمْ
مَنْ مَضَعَ الْأَحْجَارَ أَدْمَتَ فَكَّهُ
مَنْ نَامَ لَمْ يُعَيِّرْ بَعِيَّتِي رَأْسِهِ
مَذْغَبْتُ قَدْ غَابَ عَنِ عَيْنِي الْكُرَى
بِحَقِّقِهِ يَعْجَبُ مِنْهَا مَنْ دَغَى
إِذْ كُنْتُ قَصَارًا صَرِيحًا لِلدَّلَا
أَنْ يَصْفَعُوهُ بَدَلًا قَدْ اعْتَدَى
فَالضَّرْسُ لَمْ يُخْلَقْ لِتَلِينِ الْحَصَى
وَمَنْ تَطَاظَا رَاكِعًا قَدْ انْخَبَى

من رَامَحَ الحَيْلَ كَسَرَنَ سَاقَهُ ومن حَدَى في نَوْمِهِ قَدَّ هَذَى
من صَامَ أُسْبُوعاً تَمَاماً لِيَلَهُ مع التَّهَارِ لم يُوَاقِفُهُ الحَوَى
من قَطَعَ النَخْلَ وَظَلَّ رَاجِياً ثَمَارَهَا، فذاك مَقْطُوعُ الرَّجَا
وَمَنْ طَلَى بِالْحَبِيرِ صَحْنَهُ وَجْهَهُ حَكَى بِمَا سَوَّدَ لَيْلاً قَدْ دَحَا

قال الثعالبي وهى طويلة تُرَى على المائة . وقد أعجز الشعراء أن يزيدوا فيها بيتاً واحداً .

وأشار إليها ابن العماد بقوله : وهو صاحب المقصورة المشهورة . وقال ابن خلكان إنه ختمها بيت لو لم يكن له فى الجسد سواه لبلغ درجة الفضل وهو :

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلبُ على حدٍّ سوا
وذكر أنه لم يعيش طويلاً بعد حضوره إلى مصر . قال ابن خلكان « وكانت وفاته فى سابع رجب سنة ٤١٢ هـ فجأة من شرقة لحقته عند الشريف البطحاني » .

عبد المحسن الصوري

(ت سنة ٤١٩ هـ) (١)

هو أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري قال عنه ابن خلكان : « الشاعر المشهور ، أحد الفضلاء المجيدين الأدباء . شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام . من محاسن أهل الشام » .

وقال صاحب الشذرات : « الشاعر المشهور . أحد المتقنين الفضلاء المجيدين الأدباء . شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » .

وهو نص كلام ابن خلكان .

وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ، رواية عن الشاعر ابن حيوس قال : « سمعت جدي القاضي يحيى بن علي القرشي يذكر عن أبي الفتيان ابن حيوس أنه كان يقول : إني ليعرض لي الشيء من شعر أبي تمام والبحترى وغيرهما من المتقدمين ، فأعمل في معناه ، فأبلغ مرادى منه ، ولا أقدر من موازنة شعر عبد المحسن الصوري ما أريد لسهولة ألفاظه وعذوبة معانيه وقصر أبياته » .

ونشأ عبد المحسن بمدينة صور جنوبي لبنان الآن ، وعاش بها زمناً . وقال الشعر صبيّاً . ومن شعره في صباه قوله :

إنّ أحبّائنا الذين استقاموا في طريق الهوى مهترّ وناموا
فاحتجبت عنى فعمالي في عهدٍ ولا بهم والسلام

واتصل في صور بجماعة من أعيانها وأشرفها بمدحهم وتأخذ جوائزهم ، ومنهم أبو القاسم الحسين بن علي بن كردى العامل بصور . قال فيه (٢) :

(١) راجع ترجمته في بنية الدهر ٣١٢/١ ، ونسبه البيتة ص ٣٥ ، وفيات الأعيان ٣٢٢/٣ ، شذرات الذهب ٢١١/٣ ، والمعر ١٣١/٣ ، والتبجع الزاهرة ٢٦٩/٤ ، وراجع الأفضلية ص ١٣١ ،

ص ١٣٥ ، ص ١٥٦ .

(٢) ديوانه ٥/٢ .

إِذَا مَا عَقَدَ الْكَاتِمُ وَحَلَّى الْمَدْمَعِ السَّاجِمُ

وَفِي الْقَاضِي أَبُو إِسْحَاقَ بْنِ وَدِيعِ الْحَاكِمِ بِصُور^(١):

مَالِيسِ الْكِسَاسِي لَيْسَ يَرِيْمُ أَتْرَاهُ مُسْتَشْعَرًا مَا يُرِيْمُ ؟

كَمَا مَدَحَ بَعْضُ بَنِ حَيْدَرَةِ الْعُلُوَيْنِ بِصُورٍ وَطَرَابِلُسَ ، وَكَانُوا مِنْ رِجَالِ الْفَاطِمِيْنَ الْمَوَالِيْنَ .

وَمَدَحَ مِنْ إِمْرَاءِ الْجُنْدِ وَقَادَةِ الْفَاطِمِيْنَ الْأَمِيرَ بِكَجُورٍ قَائِدَ الْخَلِيفَةِ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ سَنَةَ ٣٧٤ هـ ، كَذَلِكَ مَدَحَ بِرَجْوَانَ رَجُلَ الْعَزِيزِ الْقَوِي ، وَوَزِيرَ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَقْتُلَهُ .

وَيَبْدُو أَنَّ الصُّورِيَّ تَنَقَّلَ فِي بِلَادِ الشَّامِ مِنْ صُورٍ إِلَى دِمَشْقَ إِلَى طَرَابِلُسَ ، إِلَى الرَّمْلَةِ إِلَى طَبِيبَةٍ ، وَلَقِيَ فِي كُلِّ بَلَدٍ حَلًّا بِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْقَضِيَّةِ ، وَالْوَلَاةِ ، وَالْمُسَوِّلِينَ عَنِ الْحُكْمِ مِنْ رِجَالِ الْفَاطِمِيْنَ .

وَلَهُ قَصِيدَةٌ فِي الْوَزِيرِ الْمَغْرِبِيِّ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ الْمَغْرِبِيِّ ، وَالِدِ الْوَزِيرِ وَالشَّاعِرِ الْمَشْهُورِ أَبِي الْقَاسِمِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ . وَهِيَ مِنْ مَشْهُورِ شِعْرِهِ مَطْلَعُهَا^(٢) :

أَتَرَى بِشَأْرٍ أُمَ بَدِيْنٍ عُلِقَتْ مَحَاسِنُهَا بِعَيْنِي

وَلَيْسَ لَدَيْنَا مَا نُوَكِّدُ بِهِ أَوْ نَنْفِيْ إِنْ كَانَ قَدْ أَنْشَدَهَا إِيَّاهُ بِمَصْرِ أَيَّامٍ وَزَارَتْهُ
لِلْحَاكِمِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْكِبَهُ سَنَةُ ٤٠٠ هـ أَوْ سَنَةُ ٣٩٩ هـ .

وَمَدَحَ الْأَمِيرَ بِنَجَاجِيْنَ أَمِيرَ دِمَشْقَ بِقَوْلِهِ^(٣) :

تَعَوَّدَ أَنْ يَحْوَلَ وَأَنْ يَحْثُوْنَا إِذَا أُعْطِيَ بِزُورَتِهِ يَمِينَا

وَمَدَحَ الْقَائِدَ أَبَا الْجَيْشِ حَامِدَ بْنِ مَلِمْ وَآلِي دِمَشْقَ سَنَةَ ٣٩٩ هـ بِقَوْلِهِ^(٤) :

أَبَا الْجَيْشِ حَسَبَ الشَّعْرِ مَا أَنْتَ صَانِعٌ	فَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ فَعْلِ ذَاكَ الْقَصَائِدُ
أَمَّا انْصَلَحَتْ لِلْمَالِ مِنْكَ طَوِيَّةٌ	فَتَصْنِئُهُ ، حَتَّى مَتَى أَنْتَ حَاقِدٌ
سَبَقَتْ بَنَى الدُّنْيَا فَمَا هَبَّ قَائِمٌ	سِوَاكَ إِلَى جُودٍ وَلَا قَامَ قَاعِدٌ

(١) ديوانه ص ٧ .

(٢) ديوانه ص ٤١ .

(٣) ديوانه ص ٥٤ .

(٤) بَيْتُهُ الدَّهْرُ ١ ٣١٧٠ .

ومدح أحد أبناء المفرج بن دغفل بن الجراح وهو عبد الله . ولعله أنشدنا إياه بالرملة (١) . يقول فيها :

أنا معجبٌ بالمعجبِ التياوِ متغلبٌ في حبه متما
وفي مدحته هذه لعبد الله بن المفرج تعرض بالشكوى ، وأن الزمن الليالي والأيام تعانده . فقيم كانت المعاندة هذه ؟ . على أية حال فهو يقول :

يا ابن المفرج ، والليالي أنعم
بما تبين طول الدهر أن يلقينني
إلا ذوات جهالة وسفاه
طول اليدنين يزيد عرض الجاه
فأمسك بهارم الضعيف الواهي
وأراك في طلب العلا ذا قوة

لقد كان آل المفرج الطائيين كما أشرنا في حديثنا عن التهامي رجال الدولة الأقباء في جنوب الشام ، يملكون اللد والرملة ، ويتحالفون مع غيرهم من أمراء العرب بالشام ، فيكونون تارة في طاعة الفاطميين إذا قويت شوكتهم ، ويخرجون عليهم حيناً إذا رأوا فيهم ضعفاً ، أو في بعض خلفائهم غفلة ، أو حدثهم النفس مع غيرهم من القبائل العربية القوية ، بانتهاز الفرصة لاقتطاع جزء من الملك لمحوزتهم .

ولعل عبد المحسن أنس في عبد الله هذا قوة ، وارتجى عنده مأرباً كثيراً من أشعراء . لقد رحل من بلده صور بالشام متوجّهاً إلى الرملة جنوباً ، في رحلة من رحلاته لطلب المال والقرى من ذوى السلطان ، وفي فلسطين أو جنوى الشام . ويذكر علي بن ظافر أن الصوري كان يتردد على دمشق ، وأنه كان ينزل بسوق القمح بمنزل هناك (٢) .

وبهنا وفوده إلى مصر ، وبشر شعره ، وثبى أخباره أنه قصد مصر ، ونزل بالقاهرة أو الفسطاط ، وأنشد الخليفة العزيز بالله ، كما مدح الحاكم بأمر الله ابنه .

(١) ديوانه ١٠١/٢ .

(٢) راجع نكاح البهائم ، وملحق الديوان ص ١٣٣ .

قيل إنه أنشده يوم عاشوراء ، وذكر وزره ، ورجله القوى برجوان وأشار إلى
هزيمة ملك الروم باسيل أو باسيليوس فقال :

إلى أن رَجَى سَهْمًا فَصَرْتُ آسَافَةً
بِجَفْنِيهِ ، أَمْ لَا يَعْبُدُ السَّقَمَ قَاسِمَةً
فَقَى الْعَيْنَ عَنَوَانَهُ وَتَرَا جَمَهُ
وَلَكِنْ لَأَنَّ اللَّوْمَ لَيْسَ يَلَائِمُهُ
فَمَا طَلَيْتُ حَتَّى تَجَلَّتْ غَمَائِمُهُ
بَيْنَ الشُّغْلِ عَنْهُ ، قُلْتُ مَا قَالَ نَائِمُهُ
فَوَالَاهُ يَوْمَ شَاخِبَ الْوَجْهَ سَاهِمُهُ
نَحَا نَوْرَهُ لَمَّا اسْتَجَلَّتْ عَارِمُهُ
إِلَى الشَّمْسِ مِنْ طَفَائِلِهَا مَتْرَاكِمُهُ
هَتَفْتُ بِمَا قَدْ كَسَتْ عَنْهَا أَكَاكِيمُهُ
فَلَا تُنْكِرُوا أَنَّ قَوْمَ الدَّهْرِ قَائِمُهُ
وَحُكْمُ فِي الدِّينِ الْحَنِيفِي حَاكِمُهُ
دَعُوا جِدَّهُ تَبْكِي عَلَيْهِ صَوَائِرِمُهُ
إِذَا هِيَ حَنْتَ مِنْ قَتِيلِ جَهَاكِمُهُ
فَلَا أَنْتَ مَبْقِيَةٌ وَلَا اللَّهُ رَاكِمُهُ
يَخَافُ عَلَى أَبْوَابِهَا مِنْ مَرَاكِمُهُ
إِذَا أَنْشَمُ أَرْكَانُهُ وَدَعَائِمُهُ
تَبَلَّتْ بِسَعِيدٍ ، خَاتَمَ الدَّهْرِ خَاتِمُهُ
فَمِنْ جَانِبِ أَرَاوُهُ وَعِزَائِمُهُ
عَلَى النَّاسِ ، إِمَّا بِأَسَهِ أَوْ مَكَاكِمُهُ
عَلَى غَيْرِهَا مَا شَاءَ ، فَالسَّيْفُ هَادِمُهُ
لَأَنَّ كَفَيْلَ الشَّيْءِ إِنْ ضَاعَ غَارِمُهُ
فَانْهَضَ مِنْ ثُلُقَى عَلَيْهِ عِزَائِمُهُ
أَحِينَ بَدَأَ مِنْ كُلِّ جَيْشٍ ضَرَائِمُهُ
بِرُوحٍ بِهَا أَعْلَاجُهُ وَغَنَائِمُهُ

خَلَا طَرَفَهُ بِالسَّقَمِ دُونِ يَلَائِمُهُ
فَأَصْبَحَ بِي مَا لَسْتُ أَذْرَى أَمْلُهُ
لَوْ كَانَ أَخْفَى الصَّدْرُ صِدًّا مِنَ الْجَوَى
وَلَمْ يُخْفِهِ أَنَّ الْهَوَى حَقِّي حَمْلُهُ
وَيَارُبُّ الْوَلَى قَصَرَ الذِّكْرَ طَوْلُهُ
وَمَا نَمْتُ فِيهِ غَيْرَ أَنْ لَوْ سَأَلْتَنِي
وَلَكِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الصَّبْحِ لَوْثُهُ
كَمَا جَاءَ يَوْمٌ فِي الْمَجْرَمِ وَاجِدُهُ
طَعَتْ عَبْدُ شَمْسٍ فَاسْتَقْبَلَ مَحَلْفًا
فَمَنْ مَبْلَغُ عَنِّي أُمِيَّةٌ أَنْتَنِي
مَضَتْ أَعْصَرُ مُعْجَزَةٍ بِاعْوَجَاجِكُمْ
وَجَاءَ عَهْدُ الْمُصْطَفَى بَعْضُ أَهْلِهِ
فِيهَا أَيُّهَا الْبَاكُونَ مَصْرَعُ جَلْدِهِ
أَلَا أَيُّهَا الْكُلَى الَّتِي مِنْ دُمُوعِهَا
لَقَدْ تَحْسِرُ الدَّلَائِنُ مِنْ صَدِّ وَجْهِهِ
حَرِيصًا عَلَى نَارِ الْجَحِيمِ كَأَنَّهُ
إِلَى مَنْ تَرَاهُ فَوْضَ الْأَمْرِ غَيْرِكُمْ
فِيَا لَكَ مِنْهَا دَوْلَةٌ عَلَوِيَّةٌ
إِذَا نَزَلَ الْأَسَازُ مِنْهَا بِجَانِبِ
وَمَهْمَا اقْتَضَى تَدْبِيرُهَا كَانَ مَاضِيًا
بَنَاهَا عَلَى مَا شَاءَ ، فَلَيْسَ غَيْرُهُ
وَكَلَّلَهَا رَأَى الرَّئِيسَ فَلَمْ تَضِغْ
إِذَا اجْتَمَعَتْ فِي الْمَلِكِ كُلِّ عَظِيمَةٍ
وَمَا بِأَلِّ بَاسِيلٍ تَوَلَّى مُشْمَرًا
فَالَا أَنَاهَا وَقْفَةٌ تَوْقِيسَةٌ

هذه الآيات واضحة الدلالة على غرض الشاعر ومناسبة القول ، وهي سند تاييخي لأحداث واقعة ، كما أنها شاهد على عصر صاحبها ، وعلاقاته بالفاطميين ورجالهم ، وما شغل الناس من فكر وجوه ، وإذاعوه ، ومن أحداث في الدولة وحاجتها ، كذلك تنبئ عن موقف الشاعر وغيره من الشعراء ، ممن جاوروا البيت الفاطمي في آرائه ومعتقداته ، أو اعتنقوا تلك الآراء والمعتقدات موقنين ، وهي آيات تتحدث عن الصراع بين الفاطميين ودولة الإسلام عامة ، وعدوهم التقليدي الروم البيزنطيين . وما لقيته بلاد الشام في عصر الفاطميين ومن قبلهم من جولات ، وكر وفر ، ومشاركة المصريين بجهدهم وسلطانهم وجندهم في معارك فرست عليهم ، ونخاضوها ذوداً عن بيضة الإسلام ، وحضارته .

وقد أحسن الشاعر بناء قصيدته ، فاختر هذا المدخل أو الاستهلال الذي شكا فيه هوى يكتمه ، ويظل ، يمضه طوال ليله ، ويقطعه بالذكر حتى تطل شمس النهار ، وقد خلع عليها أو خلع الشاعر على صبحه فتوراً مما أحسه طوال معاناته بالليل .. كلأها أحاسيس يجهد بها لهذا الانتقال إلى الحدث الحزين الموافق للموقف . يوم عاشوراء يوم الحزن والبكاء عند الشيعة الفاطميين ، ويفرخ عن كلمات يرضى بها غضبتهم ، ويطلب العزاء فيما سيلقى الجناة من عذاب أذخره الله لهم .

ومخرج في المناسبة على الحاكم وقائده ، ويذكر النصر الذي تحقق على يدى برحوان ورجال الحاكم على باسيلوس ملك الروم ، ويراه علامة تاييد من الله . ولعبد المحسن قصيدة نونية عنوانها بأننا في أهل البيت^(١) . ضمنها كثيراً من آراء الشيعة والفاطميين . يقول فيها :

عَيُونُ مَنْعَنِ الرِّقَازِ الْعُيُونَا	جَعَلَنَ لِكُلِّ قَوْلٍ قَوْلَا
مَكَنَّ الْمَنِي لَجْمِيعِ الْوَرَى	وَكَنَّ لِمَنْ رَأَاهُنَّ التُّونَا
وَقَلْبٌ ثَقُلَ بِهِ الْحَادِثَاتُ	عَلَى مَا تَشَاءُ شِمَالًا يَمِينَا
يَصُونُ هَوَاهُ عَنِ الْعَالَمِينَ	وَمَدْمَعُهُ يَسْتَنْزِلُ الْمَصُونَا
مَعَالَى وَكَيْفَانِ دَاءِ الْهَوَى	وَقَدْ كَانَ مَا خَفْتُهُ أَنْ يَكُونَا
وَكَانَ ابْتِدَاءُ الْهَوَى فِي مَجُونَا	فَلَمَّا تَمَكَّنَ أَمْسَى جُنُونَا

(١) ديوانه ٢ ص ٦٧ .

وَكُنْتُ أَظُنُّ الْهَوَى هَيْئًا
فَلَوْ كُنْتُ شَاهِدَ يَوْمِ الْوَدَاعِ
فَهَلْ تَرَكْتُ الْيَمِينَ مِنْ أَرْجَائِهِ
سِرِّي حُبِّ آلِ نَبِيِّ الْهَلَكَةِ
هُمْ عُلَّقَ لَوْفَاتِي، هُمْ
هُمْ مُورِدُ الْخَوْضِ لِلْمُؤَرِّدِينَ
هُمْ عَوْنٌ مِنْ طَلَبِ الصَّالِحَاتِ
هُمْ حِجَّةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ
هُمْ الْتَاطِقُونَ، هُمْ الصَّادِقُونَ

فَلَا قَيْتَ مِنْهُ عَذَابًا مُهِينًا
رَأَيْتُ جَفُونًا تُنَاجِي جَفُونًا
مَنْ الْأَوَّلِينَ أَوْ الْآخِرِينَ
فَحُبُّهُمْ أَمْسَلَ الْأَمَلِينَ
تُجَاجِي، هُمْ الْفُضُولُ لِلْفَاقِرِينَ
وَهُمْ عُرْوَةُ اللَّهِ لِلْوَائِقِينَ
فَكُنْ بِمَحَبَّتِهِمْ مُسْتَعِينًا
وَإِنْ جَحَدَ الْحُجَّةَ الْجَاحِلُونَ
وَأَنْتُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ كَاذِبُونَ

وَلِي شِعْرُهُ فِي أَحَدِ قَادَةِ الْعَزِيزِ نَزَارِ بْنِ الْمَعْزِ وَالِدِ الْمَنْصُورِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ نَجِدُ
الْغَنَمَةَ نَفْسَهَا، وَفِيهَا مَا يَثْبِتُ حُضُورَهُ إِلَى مِصْرَ وَلِقَاءِ الْعَزِيزِ، يَقُولُ (١):

طَالَ الزَّمَانُ فَلَا ثَنَاءَ وَلَا ثَنَى
هَلْ أَتَمَّرْتَنِي الْيَوْمَ تَعَانِي
كَلَّا وَفَضْلُ غِنَاكَمَا فِي عَذْلِهِ
يَا صَاحِبِي الْمُنْكَرَيْنِ مِنَ الْهَوَى
تَحْتَ السَّرَائِرِ فِي الضَّمَائِرِ لَوْعَةٌ
وَعَسَاكَمَا فِيمَا تَرِيدَانِ الْهَوَى
مَا لِلْسَقَامِ أَقَى يَمِّمْ جَوَارِحِي
مِنْ كُلِّ غُصْنٍ تَمْتَحِي ثَمَرَاتِهِ
أَنَا لِلْخَطُوبِ إِذَا دَعَتْ أَقْرَانَهَا
وَلَطَمًا صَرَحَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ فِي
حَتَّى اسْتَجَرْتُ مِنَ الزَّمَانِ بِرَاحَةٍ
بَسَطَ الْعَزِيزُ بَيْنَ الْمَعْزِ بِنَاءَهَا
مَوْلَى الْمَوَالِفِ وَالْمُخَالِفِ عَنَوَةٌ
وَعَجَّةُ اللَّهِ هَادِيَةٌ إِلَى
وَمَقِيمَهَا مِنْ بَعْدِ طَوْلِ قَعُودِهَا
يَيْبُضَاءُ يَجْلُوهَا الْوَزِيرُ يُحَلِّقُنِي

فَقَفَا عَلَى شَحْطِ الثَّوَى وَتَبَيَّنَا
وَتَفَارَقَا إِلَّا مَسِيمًا مُحَسَّنَا
مَا زِدْتُمَاهُ بَعْدْلِهِ إِلَّا عَنَّا
مَا لَا تُثَلُّ عَلَيْهِ أُنُوبُ الضَّنَا
لَمْ تُطْلِقِ الْعَشَّاقَ فِيهَا الْأَلْسُنَا
يَأْتِي بِهِ قَدَرٌ فَيَعْدِلُ بَيْنَنَا
جَمْعًا، وَلَيْسَتْ لِلظُّلَمَانِ أَعْيُنَا
ثَمَرُ الْقُلُوبِ، وَمَا أَرَاهَا تُجَسِّتِي
إِذَا لَا يَقُولُ لَهَا أَنَا إِلَّا أَنَا
فَأَجَبْتُ صَارِخَهَا ذَلِيلًا مُذْعِنَا
تَرَكْتَهُ مِنْهُ يَسْتَجِيرُ الْأَزْمِنَا
فِينَا، فَكَانَ اللَّهُ يَوْفَعُ مَا بَنَى
مِنْ تَحْتِ شَكِّكَ كَانَ أَوْ مَتِيقَنَا
سَبِيلَ الْهَدَى، وَضَحَّتْ بِنِعْمَتِهِ لَنَا
عُلُوبَةُ الْأَنْسَابِ عَالِيَةُ السَّنَا
سُغَرُ الْبَرَاعِ وَزُرْقُ أَطْرَافِ الْقَنَا

(١) ديوانه ٢ / ٨٧.

يُرْمَى جَوَانِهَا بِرَأْيِ مُهَلَّبٍ مُتَجَنِّبٍ فِيهِ الْحَيَاةَ وَالْخَنَا
حَتَّى أَتَقْنَا وَهِيَ ذَاتُ قَلَائِدٍ جَعَلَ الْإِمَامُ فَرِيدَهُنَّ فَرِيدَنَا

ويعرض في مدح هذا القائد حتى يقول :

حصلت بصر همتي واستوطنت وَأَفَادَ لِي عُدْمِي سِوَاهَا مَوْطِنَا
فغدوت للخطب الكبير مُصَغَّرَا فِيهَا وَلِلْأَمْرِ الشَّدِيدِ مَهْوِنَا
وقد اعتمدتُ عليك إفاجمع بيننا وَخَذَ الْحَوَادِثُ قَبْلَ فَتْكِنَا بِنَا
فلك الهناء بِلُونٍ مَا بُلُغْتُهُ وَبِلُونٍ مَا بُلُغْتُهُ وَجِبَ الْهِنَا

فيشير إلى مجيئه إلى مصر في هذا الوقت — خلافة العزيز — ولجونه من أحداثٍ لعلها التي أثارها أحد قادة الأتراك ، وكان قد استولى على بعض بلاد الشام حتى تمكن العزيز من هزيمته وأَسْرُو ، وأعان على ذلك آل المفرج بالرملة .

هُمُ الْوَارِثُونَ عُلُومَ الرُّسُولِ فَمَا بِالْكَفِّ لَهُمْ وَارِثُونَ
حَقَّقْتُمْ عَلَيْهِمْ حَقْقُوا مَضَتْ وَأَنْتُمْ بِأَسْبَابِهِمْ مُسَلِّمُونَ
جَعَدْتُمْ مَوَالَاةَ مَوْلَاكُمْ وَيَوْمَ الْغَدِيرِ بِهَا مَوْثُونَ
وَأَنْتُمْ بِمَا قَالَهُ الْمَصْطَفَى وَمَا نَصٌّ مِنْ فَضْلِهِ عَارِفُونَ
وَقَلْتُمْ رَضِينَا بِمَا قَلَّتُهُ وَقَالَتْ نَفُوسُكُمَا مَا رَضِينَا
فَأَيُّكُمْ كَانَ أَوْلَى بِهَا وَأَثَبْتَ أَمْرًا مِنَ الطَّيِّبِينَ
وَأَيُّكُمْ كَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ وَصِيًّا ، وَمَنْ كَانَ فِيكُمْ أَمِينًا
وَأَيُّكُمْ زَانٍ فِي فَرَشِيهِ وَأَنْتُمْ لِمَهْجَتِهِ ظَالِمُونَ
وَمَنْ شَارَكَ الظُّهَرَ فِي طَائِرٍ وَأَنْتُمْ بِذَلِكَ لَهُ شَاغِلُونَ
لَحَا اللَّهُ قَوْمًا رَأَوْا رُشْدَكُمْ مِينًا ، فَفَضَلُوا ضَلَالًا مُبِينًا

وما جاء بالقصيدة من الدفاع عن آل البيت ، والفاطميين وحَقِّهم في الخلافة واضح ، غنى عن الإشارة ، وهو يُردِّدُ أقوال شعراء الشيعة ، ودعائهم وسياسيم في أحقية الإمامة بالصاية يوم الغدير عليه السلام لعل بن أبي طالب ، فضلا عما كان لعلنى من مكانة السبق إلى الإسلام وفداء النبي بنفسه يوم الهجرة إذ نام مكانه ، وهو يعلم أن المحاصرين ممن يترصون بالنبي من قريش يؤمعون قتله بليل .

والخطاب في القصيدة موجه إلى العباسيين بالدرجة الأولى ، فهم المنافسون للفاطميين بالشام ، وكانت في عصر الشاعر في النصف الثاني من القرن الرابع مجالاً للصراع بين القوتين العباسية والفاطمية ، وكانت صور وطرابلس موطئ كثير من العلوية والأشراف الحسينيين والحسينيين . وكان الشاعر قريباً منهم يتحدث بما يحبون ، ويدفع دعاوى منافسيهم من العباسيين ، إلا أننا نلاحظ أنه لم يصرح بالهجوم على العباسيين ، بل غمى القول ، مُحَسِّباً ، وتقيّة ، فالقصيدة تعكس الجو العام بالشام ، والصراع المستتر والمعلن ، وهو صراع لم يحسم تماماً لأحد من الطرفين ، بل اعتورته موجات تحسم الأمر لهؤلاء أحياناً ، ثم تعود موجة أخرى لتغلب الفئة الأخرى . وهكذا .

لقد ظل عبد المحسن الصوري يقول الشعر ويتنقل به في ربوع الشام ومصر حتى أعتبه السبعون عن الحركة ، فأقام ببغداد حتى بلغ التسعين . يقول وقد بلغ السبعين :

جزاك الله عن ذا الفصح خيراً ولكن جاء في الزمن الأخير^(١)
وقد حدث لي السبعون حدثاً نهي عما أمرت من المسير
ومد صارت نفوس الناس حولي قصاراً عدت بالأميل القصير

استقر الصوري إذا في بلده ، وثقل جسمه عن أن يحمله إلى البلاد كما كان حاله في شبابه وكهولته ، والآن وقد أصبح شيخاً ضعيفاً ، أثر أن يقضى ما تبقى له من العمر بين أهله في وطنه .

وقد عمّر حتى تَبَف على الثمانين ، وتوفي سنة ٤١٩ هـ . وكان الحاكم قد اختفى من مسرح الأحداث ذلك الاختفاء الغامض ، وأعقبه ابنه الذي عرف بالظاهر .

وعاصر الصوري في آخر حياته بعض الأحداث العاصفة في دولة الفاطميين بالشام ، ومنها حركة التمرد التي قادها الوزير المغربي بالرملة بمشاركة حسن ابن المرقج ، وتنصيبهم خليفة جأؤوا به من الحجاز .

ويدل من حياة الرجل أنها لم تكن صاخبة كحياة الشاعر التهامي ، فلم تحدّه نفسه بعظام الأمور ، ولم يكشف شعره عن ثورة وطموح ، بل كان مواطناً يسير في ركاب الحكام كغيره من الشعراء .

كما كان عبد المحسن شاعراً حضرياً ، يغلب عليه طبع أهل الحضرة ، ليس فيه جفاء الأعراب ، ولا عنف مشاعرهم . كذلك كان شعره سهلاً ، ليناً ، قال عنه ابن خلكان : « شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظم » . ويقول : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان » .

وأعجب ابن خلكان ، كما أعجب من قبل الثعالبي بقصيدته التوفية في مدح أبي الحسين علي بن الحسين المغربي :

الزرى بأثر أم بدين	علقت محاسنه بعيني
في لحظها وقوامها	ما في المهيد والرديني
ويوجهها ماء الشبا	ب خليط ناري الوجتين
بكرت علي وقالت اخت	سر خصلة من خصلتين
لما الصلوة أو الفرا	قي ، فليس عندي غير ذين
فأجبتها ومدامجى	تنهل فوق الوجتين
لا تفعلين ، إن حان صدك	أو فراقك حان خي
فكأني قلت انهضين	فمضت مسارعة ليبي

ولا حاجة إلى التنبيه على ما في هذا الشعر من سهولة ، وليونة ، هما أقرب إلى المزاج الحضري المترف في لفظه وإيقاعه وقافيته اللينة ، وحديثه الأنيق الرقيق في حكاية قول المحبوبة ، وحوارها .

وقد عقب ابن خلكان على القصيدة بقوله : « وهي قصيدة طويلة جيدة » (١) .

ويبدو أن إعجاب معاصريه بمن سمع أبياته هذه شجعه على أن يعيد النظم في وزن مشابه ، وقافية مقاربة . حيث يقول في أبيات أخرى :

بعين الله هجرك ، لا بعيني	لعل الفرق بين النظرين
تردك أو ترد علي صبري	عليك فإني احدى اثنين

واعجب العلماء غزله لهذه الرقة التي اكتسبها من لفظه حتى إن ابن عساكر روى عن ابن حيوس أنه قال : « يُقال إن أغزل ما قيل قول جرير :

(١) طبعت طبع إحسان ، بيروت ٢٣٥/٣ .

إِنَّ الْعِمُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَ قَتْلَانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا خَرَاكَ بِهِ وَهُنَّ أضعفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانَا
وقول عبد المحسن أغزل منه :

بِالَّذِي آلَهَمَّ تَعْلِيْسِي تَنَابُلَكَ الْعِدَابَا
مَا الَّذِي قَالَتْهُ عَيْنَا لِي لِقَائِي فَأَجَابَا

وله في موضوعات أخرى غير المدح والغزل ، ومنها الهجاء ، وهجاؤه غالباً مقطعات بين بيتين وخمسة أبيات . وتعرض ببعض من كان ينال من شخصه أو شعره ، وقد يُقدِّعُ في هجائه ، وقد يكتبني بالتعريض دون التصريح بالعبارات والتقيظ من اللفظ .

وتأتى بعض الموضوعات الأخرى عرضاً في قصيدة المدح ، كالوصف وذكر الخمر والشراب ، أو الغناء والمغنين ، وله في المناسبات قصائد قصيرة ومقطوعات كالتهنئة بالصيام ، أو بميلود ، أو بشفاء من مرض أو التعزية وما إلى ذلك .

وكثير من شعره يدور في هذه الدائرة من المجاملات ، والإخوانيات .

ولا نعث في شعر الصوري على صور بارعة ، فشاعريته تركز على سهولة اللفظ ، ورقة التعبيرات ، وخفة التراكيب والأذواق ، وقليل ما تراه يستعين بحفوظ من الشعر القديم ، أو يعيد بعض معانيه وصوره ، كذلك قليلاً ما ترد في الفاظه ألفاظ قرآنية ، كما لا يستعين كثيراً بالقرآن وقصصه .

ومن حيث الصفة البديعية ، فهو غير مسرف فيها ، ولا متكلف لها إنما قد نجى في اثناء كلامه سهولة يسيرة . كأن يقول مجانساً :

وَعَلَّقَتْهُ شَدَانَا شَادِيَا عَلَيْهِ الشَّجِي وَعَلَى الشَّجْنِ
إِذَا مَا التَّقِينَا فَمِنْ جُدٍّ وَزِدٍّ وَصَبَلٍ وَتَعَطَّفٍ ، وَمَنْ لَا وَلَنْ
وَمِنْ مَهْجَةٍ مُذْنَاثٌ مَا ثَوَّتْ بَارِضٍ ، وَمَنْ سَكَنَ مَاسَكُنْ
قَفُّوا تَعْرِفُوا مَا أَسْرُ الْهَوَى فَأَعْلَنَ لَنَا أَسْرَ الْعَلَنِ

وعلى أَنَّ الصوري يملح أحياناً ، ويمتزج قوله بالفكاهة في تصوير نزوله على أحد أصدقائه البخلاء . إذ يقول :

وأُنْجِ مَسَّهُ نَزُولِي بَفَرِّجِ
قِيلَ لِي إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ
بَتْ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّهْرُ
قَالَ لِي إِذْ تَزَلَّتْ وَهُوَ مِنَ السَّكْرِ
لَمْ تَغْرُبَتْ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ :
سَافِرُوا تَغْنَمُوا . فَقَالَ : وَقَدْ قَالَ
مَثَلُ مَا مَسَّنِي مِنَ الْجُوعِ قَرَحُ
وَالْفَتَى يَغْتَرِبُهُ بِحُلٍّ وَشَحْ
رُ ، وَفِي حَكْمِهِ عَلَى الْحَرْبِ نَجْ
سَرَّةٌ وَالْهَمُّ طَامِعٌ لَيْسَ يَصْحُو
وَالْقَوْلُ مِنْهُ نُصْحٌ وَنَجْ
تَعْلَمُ الْحَدِيثَ : صُومُوا تَصِحُوا

وهكذا فإن عبد المحسن الصوري كما رأينا إنسان شاعر عادي لا تفوق في شعره ، عاش في ظل الفاطميين وفكرهم ، وصراعاتهم مع منافسيهم وكان وجوده بصور مما أتاح له المشاركة في تلك الأحداث والصراعات التي شهدها طوال حياته منذ منتصف القرن الرابع وحتى نهاية العقد الثاني من القرن الخامس .

ومع أنه كان إنساناً عادياً ، وشاعراً من بين شعراء عديدين عاشوا في العصر إلا أنه لم يعدم ميزة تفرده عن غيره ممن عاصروه ، أشرنا إليها ، وفي رأينا أن رأى ابن خلكان والثعالبي من قبله فيه وكذلك مواطنوه وتلاميذه من شعراء الشام في القرن الخامس كان مبالغاً فيه .

وذكره معاصره على بن منجب في كتاب الأفضليات ، ووقف عند أبيات من شعره ، قارن بينه فيها وبين أبيات لابن رشيق^(١) ويسكر له بيتين في الحمرة^(٢) ، ويذكر وصفه الحما^(٣) . يقول^(٤) :

وقال عبد المحسن في الحما :

ومنزل أقوام إذا نزلوا به تشابه فيه وغلته ورئيسه

وهذا مما يصلح أن يوصف به قبر . وتما^(٥) الأبيات من مستحسن ما وصف به الحما . وهو :

يُخَفِّفُ وَجَدِي أَنْ تَزِيدَ كَرْوِيهِ
وَيُؤَيِّنُ قَلْبِي أَنْ يَقْلَ أَيْسِيهِ
إِذَا مَا أَعْرَثَ الْجَوُّ طَرَفًا تَكَاثَرَتْ
عَلَيْتُ بِهِ أَقْمَارُهُ وَتَمَرَسَتْ

(١) راجع الأفضليات ص ١٣٠-١٣١ .

(٢) ارجع نفسه ص ١٣٥ .

(٣) ارجع نفسه ص ١٥٦ .

الفصل الرابع

شعراء مصريون من القرن الخامس

ظافر الحداد

ابن مكنسة

ظافر الحدّاد السكندري (ت سنة ٥٢٩ هـ)

هو أبو منصور ظافر بن عبد الله الجروى الجذامى ، ينتمى إلى قبيلة جذام اليمنية ، أسافر أهله بالإسكندرية ، واشتغل أبوه بحرفة الحدادة ، وورثها عنه ابنه ظافر ، ولكن نشأ الابن محبا للعلم والأدب ، فبدأ يرتاد مجالسهما بالإسكندرية وتعرف على كثير من أعلامهما .

كان مولد ظافر فى حوالى منتصف القرن الخامس ، ولحق أخريات خلافة المستنصر بالله الفاطمى أطول خلفاء الفاطميين حكما ، وآخر كبارهم حيث بلغت الدولة درجة من الأزدهار والقوة ، وإن انتابت حكمه بعض السنين العجاف ، فقد اشتدت بالناس المجاعة والشدة المستنصرية ، وكانت من أشد ما عانته مصر فى عصور ما بعد الفتح الإسلامى .

وعاصر الخليفة الأمر ، كما عاصر من الوزراء أمير الجيوش بدر الدين الجمالى وابنه الأفضل بن بدر الدين وهما من أشهر وزراء الفاطميين فى القرن الخامس ، كذلك عاصر الوزير المأمون البطالىحى .

وعاش ظافر مرحلة شبابه بالإسكندرية ، وكانت له بها ذكريات جميلة ، وقد تفتحت بها شاعريته ، وطاف بمغانيها ، وسجلها فى شعره معجبا ، ومنها خليج الإسكندرية الذى يمدّها بالماء العذب .

وكانت تزدهر حوله الحقول والبساتين الفناء التى أكثر من ذكرها كقوله يتذكر أيامه بالإسكندرية :

أَسْفَى عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ لَوْ أَنَّهُ	بِالصَّخْرِ قَتَّتْ مِنْهُ صُمٌّ صِلَابِهِ
يَا لَيْتَنِي أَحْظَى بِشَمِّ نَسِيمِهِ	وَبَدِيعِ مَنْظَرِهِ وَلَقِمَ ثُرَايِهِ
حَيْثُ النَّصُونُ رَوَاقِصٌ وَيَمَامُهَا	يَشْكُو لَطِيبُ الزَّمَرِ مِنْ تَوْلَايِهِ
تَعَرَّتْ نَوَاعِيرُ الْمِيَاهِ وَاتْرَعَتْ	تِلْكَ التَّرَاغُ الْوَقْصُ فَيَضُّ عُبَايِهِ

كما اعتاد الرمل ، وبساتين التين والكثبان ، وشاطئ البحر ونسيمه .

يَا هَلْ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ أَوْبَةٌ	فَيَسُرُّ قَبْلَ مَمَاتِهِ بِلَايِهِ
فَيَرَى مَكَانَ شَبَابِهِ وَنَصَابِهِ	وَحَيَاتِهِ وَصَحَابِهِ . لَعَابِهِ

حيثُ النسيمُ السَّاجِلُ يزُورُهُ

وندى رياضِ الرَّمْلِ عطرُ نياهِ

ويقول :

هل إلى الثَّغْرِ من عَوْدٍ ومُنْقَلَبٍ
تُرى أزورُ القُصورَ البيضاءَ ثانيةً
وفوقنا شَاهِقَاتُ الكَرَمِ أخِيَّةٌ
وللنسيم العليل الرُّطْبِ وسوسةٌ
فالعيشُ منذ رَجِئِ عَنْهُ لم يَطِبْ
بالرَّمْلِ بين عُصُوفِ الثَّيْنِ والعَيْبِ
من حَوْلهَا قُضِبَ الأَغْصَانُ كَالطَّنْبِ
فبينَ كَالسُّرِّ بينَ الرُّفْقِ والصَّحْبِ

وعن حديثه عن الإسكندرية ومعالمها وبيوتها ومساجدها ، يصورها مدينة زاهرة تتشح منازلها بالبياض وكذا مساجدها ومنارتها ، فقبلى من بعيد تلبس ثوب البياض وكأنها العروس على ما صورها في شعره .

يقول :

تضئُ بها المساجدُ فهي تزهو
تُجاوِزُها منارُها وفيها
فَسَاةٌ غَادَةٌ بِإِزَاءِ شَيْخٍ
سَقَى اللَّهُ السَّوَارِيَّ بالسَّوَارِي
فكم عِيدُهَا أَهْدَى وَأَذَى
وفي البابِ القديمِ قديمُ عَهْدٍ
وسيفٌ تَحْلِيجُهَا كَالسَّيْفِ حَدَا
وإيقاعُ الصَّفَاوِعِ فِيهِ عَالٍ
وترقصُ فِي جَوَانِبِهِ عُصُوفٌ
وتشدُّ بينَها الأَطْيَارُ شُدُّوا
وكم لى بالكَيْسَةِ من كِتَاسٍ
وكم لى بِالجَالِسِ من جُلُوسٍ
وبحَرِ المَلَحِّ مِثْلُ القُحْلِ يَزْغُو
وتحسبُ سُنْفَهُ صَفَةً وَلَوْنَا

وأثناء تردد ظافر في شبابه بالإسكندرية على مجالس العلم والأدب تعرف على الخافظ السلفي ، والتقى بصديقه الشاعر أمية بن أبي الصلت بها ثم عاد ليلتقى به مرة ثانية بالفسطاط .

وقيل أن ترك الإسكندرية وحياة ظافر بها ، نخب أن نجول معه جولة في ديوانه للتعرف على بعض ما كان يرتاده من معالمها ، وكيف صورها لنا شعراً ، وما تركت له من ذكريات قبل أن يتركها في حدود سنة ٥٠٠ هـ .

ونلاحظ كثرة تردد أسماء معينة لمعالم الإسكندرية ، لخليجها أو ترعة انخمودية الآن والبحر والمنارة والرمل ، وروبة ابن العاصي ، ولعلها كوم الدكة أو كوم الشقافة ، وقصر الدخان ، ويقع غرب الإسكندرية في الطريق إلى القس ، والقليدة .

وكان يحب خليج الإسكندرية العذب الذي يعمل إليها ماء النيل فيروى رياضها وبساتينها ، كان يحلو له أن يخرج إليه مع صحبة من رفاقه ليمتصوا بالطبيعة ، وربما التقى هناك أو صحب بعض حبيباته وأحبابه .

ولم يخل صحبته من بعض رجالات الأدب والقضاة أو العمال الذين عرفهم بشعره وأدبه ، ويروى أنه صحب مرة القاضي أبا المكارم أحمد بن عبيد الدولة في بعض العشيات على شاطئ خليج الإسكندرية ، والنسيم قد جشش وجه الماء ، ومبادئ الكلا قد برقعت بحيا الأرض ، وطوقت أجياد النخيل بقلاند الثار فأنشد :

وعشبة أهدت لمينك منظرًا	قَدِمَ السرورُ به لقلبك وإفلا
روضٌ كمخضر العذار وجدول	نُعْتَشْتُ عليه يدُ النسيم مياودًا
والنخل كالهيّيف الجسان تزينت	فليسن من أثمارهن قلالًا

ولعل تلك النزهة كانت في أخريات الصيف ، ومطلع الخريف ، وقد تلونت فيه ثمار النخيل .

وربما كان سكن ظافر بالإسكندرية القديمة بمكان كان يسمى بالظاهرة يقع غرب الحى الرومانى أو اليونانى أو جنوبه الغربى ، وقد جاء ذكر الحى الرومانى أو اليونانى ، وربما هو ما كان اسمه هرقله نسبة إلى قيصر هرقل . ربما كلا قريباً من محطة الرمل أو ما بينها وبين حى الشاطئ ، يقول عن هذا الحى :

وفى عذابات الرمل ثون هرقله	مستارح نسعى بينها ومزاتع
رياض إذا هبّ النسيم يخلأها	سعى وهو واهى الخطو فيمن ظالغ

ومن معالمها التي ذكرها الكنيسة ، ولعلها الكنيسة المرقسية قرب محطة
الرمل الآن ، يقول :

وشرق المحجة لى غزال	ثُجِّبِهِ الصَّوَارِمُ والجِرَابُ
وكم لى بالكنيسة من كياس	به رشا جلته لنا القباب
وكم لى بالمجالس من جلوس	تحف به الأحبة والصحاب
وأذكر قصر فارس والمعلی	ففيه لكل موعظة مناب

ولعله تعلق زمن تروده على الكنيسة بتلك الفتاة النصرانية التي ذكرها في
شعره .

ومعظم حديث ابن ظافر عن هواه كان في شبابه بالإسكندرية حيث تتوارد
عليه صور تلك الأوقات السعيدة فيقول :

ديارٍ ليستُ اللّهُو منها مع الصبا	فنعم الحلى فيها ونعم الملايسُ
ليالى أعطى الحبّ فضلةً مقودى	ذلولاً ، وعند العتبِ واللوم شامسُ

أصيّدُ المها فيهنّ ، ثم يصنّنى	فكلّ لقلبي بالشباب فرأيسُ
تساوت بنا حال الصباية والصبا	فكل لكل مُشبةً ومُجالسُ
فأرشفُ ثراً لم يثقبهُ ناظمٌ	ونورُ أقاح ، قد نمتهُ المغارسُ
واقطف ورد الحد والورد زاهر	وألزم غصن البان والغصن مائسُ
زمان كطيف زار وازور وشك ما	تصافح جفنا مغرم وهو ناعسُ

وكانت رياضته مع حبيبته أو أصحابه وقت الأصيل إذ كثيراً ما ينوه
بالأصال ، في نزته تلك سواء على الخليج أو بالرمل على شاطئ البحر ، كان
يقول :

هذا الخليج فمرحياً بزمانه	يا حبذا الأصال بين جنانه
فأمرح بطرفك كيف شئتُ ترى به	معنى يملك القلب من أحرانه

ويقول في سرحة له على شاطئ البحر أصيلاً :

وآصلنا في ساحل البحر نعتلى	به الرمل ما بين الكتيب إلى الوعيد
نغازل من غزلانه كل سابع	له مقلّة عادتها قصص الأسد

جَحَثَ لَنَا الْأُمُوجُ أَثْقَالُ يَذْفِيهِ فَأَوْنَةُ تُخْفِي وَأَوْنَةُ تُبْدِي
إِذَا قَابَلَ الْتِيَّارُ هَيْفَ قَلْبُودَهَا أَرْنَا فَعَالَ الرِّيحَ بِالْقَضْبِ الْمُدِي
لِيَالٍ وَأَيَّامٍ تَقْضَتْ كَأَنهَا جَوَاهِرُ نَظْمٍ خَالِهَا الْعَقْدُ مِنْ عَقْدِي

والتقى بالوزير الخطير شاهنشاه الأفضل بن بدر الجمالي بالفسطاط ،
نحطلي لديه ولزمه ونظم فيه القصائد الطوال حتى كانت مدائحهم فيه ديواناً
كاملاً .

وسجل في شعره بعض معالم الفسطاط ومصر والقاهرة وما حولها من
الخليج المصري أو الذي سمي بالخليج الناصري ، والذي كان يخرج من شمال
الفسطاط ، وتحوطه البساتين والمناظر والمتنزهات ، ومن أشهرها كما عرفنا عند
الحديث عن تميم بن المعز والشريف العقيلي القاش ، وبركة الحبش ، وكانت
بركة الحبش تقع جنوبي الفسطاط وكانت من منازل مصر المشهورة ، كذلك
ذكر المقطم ، وما كان قرب الفسطاط من الأديرة التي يؤمها بعض سُرّة
القوم ، للتنزهة كدير القصير .

ورغم أنه نال في الفسطاط ما تمنى ، لكنه لم يسلم عن الإسكندرية قال :
يَا سَاحِلَ الْفُجَرِ كَمْ أَنَاى وَأَغْتَرَبُ أَمَا إِلَيْكَ مَدَى الْأَيَّامِ مُنْقَلَبُ
وَيَا أَوَائِلَ أَيَّامِ الشَّبَابِ بِي هَلْ لِي إِلَيْكُنْ فِيهِ سَاعَةٌ سَبُّ
وَاللَّهِ مَا اخْتَرْتُ مَصْرًا عَنْكَ عَنْ مَقَّةٍ وَإِنْ غَدَا الْعَيْشُ لِي فِيهَا كَمَا يَجِبُ
وَلَوْ تَجَرَّى لِي نَبْلُهَا فِضَّةٌ وَغَدَا سَفْحُ الْمُقْطَمِ مِنْهَا وَهُوَ لِي ذَهَبُ

ومع ذلك فإن إقامته بالفسطاط ، وقربه من النيل ورؤيته له ربطته بها برباط
عاطفى ، فكان يشلو بهما ، ويحن إلى الفسطاط إذا غاب عنها : يقول :

أَحْنُ إِلَى الْفُسْطَاطِ مَا لَمْ أَكُنْ بِهِ حَتَّى طَلَحَ الرِّكْبَ بَعْدَ ذَهَابِهِ
وَأَسْتَقْبِلُ الرِّكْبَانَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ لَعَلَّ بِمَصْرِ ذَاكِرًا فِي خِطَابِهِ
وَأَهْجُرُ عَذْبَ الْمَاءِ مِنْ طُولِ غَلَّةٍ إِذَا لَمْ يُنَلِّهِ النَّيْلُ عَذْبَ رُضَابِهِ
وَتَسْوُدُ فِي عَيْنِي الْبِلَادُ تَذَكُّرًا لِحُضْرَةِ شَطْبِهِ وَيَضِي قِيَابِهِ
وَكَمْ لِي عَلَى سَفْحِ الْمُقْطَمِ وَقْفَةٌ لَهَا أَثَرٌ فِي وَهْدِهِ وَهَضَابِهِ
فَضَضْنَا بِهَا سَبْلَكَ الْحَدِيثِ فَخَلَّتْهُ يَمِيدُ بِنَا زَهْوًا لَطِيبَ عَنَابِهِ

ويقول في بركة الحبش :

وفي البركة الغناء للطريف مسرح
نهى ما انطوى من جفنه من مآبه
وهكذا عاش ظافر في شبابه بالإسكندرية مخلود الرزق ، وفي القاهرة على
شيء من اليسار ، ومع هذا فإنه لم يستطع أن ينسى بلذته ، وقضى حياته غريباً
في القاهرة يرضى عنها وعيه ويحرص عليها ، ويسخط عليها باطنه ويرفضها
فعاش معذباً يعاني التمزق النفسي والشعور الحاد بالغربة والحنين الجارف إلى
الإسكندرية التي مثلت له الجمال والشباب والحب فمنحنى أجمل ما صنع من
شعر بصور مشاعره تلك^(١) . وظل بالقسطاط زمناً يعيش بالمديح ، ويلتقي
بأدباء القسطاط والقاهرة ويعقد معهم المجالس ، حتى اشتهر وأصبح شاعراً
مرموقاً تردد ذكره في أوساط الأدب والعلم في مصر كلها ، واتصل بالوزير
الأفضل بن يلى .

ويبدو أنه نال حظاً من الثروة في جنابه .

وكتب علامة الإسكندرية ومحدثها الكبير الحافظ السلفي ، وبعث إليه
قصائد من شعره ، يقول الحافظ في معجم السفر^(٢) « كان من مقلقي شعراء
ديار مصر ، وقد كتب لي من شعره غير قصيدة بخطه ، وكتب أنا عنه أيضاً
بخطي بمصر وقبل ذلك بالإسكندرية ، مقطعات وقصائد ، وكاتبته وأجاب عنه
بشعر وهو عندي وتوفي سنة ٥٢٨ هـ في ذي الحجة على ما كتبه إلى ابن
موهوب من مصر ، وكان قد استوطنها ، وما عرفنا له قط حربة ، أى فساداً
في الدين — كمثل الشعراء » .

وذكره عماد الدين الأصبهاني في خريدة القصر قال : كنت سمعت به
قديماً ، وأنشدني له الشريف أحمد بن حيدرة الحسيني الزيدى سنة خمس
وخمسين .

قال : أنشدني ظافر الحنيد لنفسه ، وهو قريب العصر غريب النثر^(٣)

(١) الذكور حسين نصار في مقلة الديوان ص ٢ .

(٢) معجم السلفي نسخة مصورة بدار الكتب المصرية الورقة ٩٧ .

(٣) ذكر السلفي أن وفاته كانت في ذي الحجة سنة ٥٢٨ هـ كما ذكرنا وذكر بلقوت وابن خلكان أن
وفاته كانت سنة ٥٢٩ هـ ، وبينما ذكر ابن تقي بردي والسيوطي وابن العماد وفاته بعد ذلك سنة
٥٦٣ هـ وهو غير صحيح ، برجعة ما ذكره السلفي وابن العماد وهما أقرب إليه من هؤلاء .

وشعر ظافر كما قال ابن خلكان جيد ، وهو غريب النظم على ما ذكر العماد ، وجودة شعره وغرابته معاً تبيينان فيما وفره له من سهولة الأسلوب مع تمكن من العبارة ، وشاعرية واضحة ، ومقدرة فنية على صياغة معانيه في صور جديدة ، وإن استوحى التراث في بعضها .

وكثيراً ما يبدأ قصائده بالغزل ، ولكنه ليس غزلاً كغزل القدماء بل مزج فيه باقتدار بين معاني الغزل المتلاولة ، وجديد التناول والرؤية الخاصة للمستوحاة من العصر والبيئة .

ونقرأ قوله في مقدمة إحدى قصائده :

هل غير وقتك للثُموع أوانٌ	هذا الفراقُ وهذه الأطلعانُ
تدعوه من سنن الهوى بهتانُ	إن لم تُفصّنها كالعقيق فكلُّ ما
عدل، فماذا ينفَعُ اليكمانُ	هذا الغرامُ على ضميرك شاهدُ
فالآن قد وقعَ الفراقُ بهائياً	إن كُنتَ تدبّرُ الثُموعَ لينهم
سفرٌ، وبين جفونه طوفانٌ	عُذرُ المتهم أن يكون بقلبه

فتحس أن الشاعر استوحى بعض معاني شعراء الغزل ، ومن قالوا في هذا المعنى ومزج بينه وبين عناصر إسلامية استقرت في ضمير العالم من مصطلح العلم الإسلامي وبعض لفظ القرآن .

ويقول في أخرى :

فارتفع على حرصائهن وتادى	بمنازل الفسطاط حلّ قوادى
قمرٌ يربطُ إربةً لمعادى	بامصر هل عرّضت لفصن فوقه
بقوام تحوّل الباقية المياد	الزرق يُميله الصبا ميل الصبا
فعدّبت منه مياه ذلك الوادى	أترى أنال النيل بعض رضابه
يروى وذلك يزيد كرب الصّادى	فأفاد منه الطعم لكن شرب ذا
أوطان أحبّانى، وأهل وكادى	وأما على تلك الديار فإنها
وأودّها شغفاً ولسنّ بلادى	ولقد أحنّ لها ولسنّ منازلى
سوداء ترقّل في ثياب جناد	دمن لبست بها الشباب ولتمى
وأبيث من أهلى على ميعاد	والعيش أنحضر، والديار قريبة

والقلب حبُّ القلبِ رهنَ والظُّبا
حَدَّقَ الطُّبَّاءُ الغيدَ قيدَ القَادِي
شَتَّتْ شَمْلَ الدَّسَعِ لما شَتَّتُوا
شَمْلِي، وصَحَّحْتُ به بَدَادِ بَدَادِ

وهنا نجد الشاعر يمزج بين قديم المعنى وصنعة البديع ، والجناس منه خاصة ، مع استلهامه عناصر البيئة المحلية المصرية في التعبير ، كتشبيه رضاب الحبيبة في علوِّه بماء النيل .

واعتماد الشعراء قديماً ذكر صعوبات لقاء الحبيبة ، لما يحيطها به أهلها من حرس شديد ، ورماح ، لا يقوى على اقتحامها العاشق ، فيحتال لها أو يعد لنفسه من الشوكة ما يلقي به ظلي الحلى وأسنته .

وقد أبرز المتنبي هذا المعنى في صورة جميلة رائعة من قصيدته الالامية المشهورة :

ليالى بعد الظاعنين شكول
طوال وليل العاشقين طوليل
بين لى البدر الذى لا أريده
ويخفين بهرا ما إليه سبيل
وما شرقى بالماء إلا تذكرا
لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الأسنه حوله
فليس لمشتاق إليه وصول

ويتناول ظافر هذا المعنى تناولاً جديداً فيعرضه عرضاً خاصاً به ، مستخرجاً إياه في خيالات ورؤى معجبة ، تكشف عن مقدرة فنان وإحساس شاعر ماهر .

كَمْ مَهْمُ جُتْ مِنْ أَجْلِ الْهَوَى فِرْقَا
يَكْبُو لِحَيْفَتِهِ السَّاعِي مِنْ الرُّعْدِ
وَلَيْلٌ مِثْلَ عَيْنِ الطَّيْرِ أَقْاجِيَةٍ
عَسَفَتْهَا وَنَجُومُ الصَّبْحِ لَمْ تَقْدِ
كَأَنَّ أَتْنَجُهَا فِي اللَّيْلِ زَاهِرَةٌ
كَرَاهَتِمْ وَالْغَرَامُ كَفْ مُنْتَقِدِ
لَوْ هُمْ مُؤَقَّدُ نَارٍ أَنْ يَرَى يَدَهُ
فِيهَا وَلَوْ كَانَتْ الزُّرْقَاءُ لَمْ يَكْنِدِ
وَفِي بَيْتِي بَيْنَ اللَّوْبِ مَائِلَةٌ
فِي صُورَةِ السَّيْفِ لَمْ تَقْصُ وَلَمْ تَرِدِ
حَتَّى تَأْمَلْتُ حَيَا عَزَّ سَاكِنَهُ
تَحْفَهُ أَسَدٌ غَابٍ مِنْ بَنَى أَسَدِ
مِنْ كُلِّ أَرْوَغٍ لَا كَفْ لِمَعْصَمِهِ
تَحْفَهُ أَسَدٌ غَابٍ مِنْ بَنَى أَسَدِ
غَيْرَانِ يُكْثِرُ سَلَّ السَّيْفِ مَتْنِهَا
سَبَوَى الْحُسَامِ وَلَا جِلْدَ سَبَوَى الزَّرْدِ
فَجَعْتُ أَخْفَى خَطَا لَوْ وَطِئْتُ بِهَا
مِنْ ظَنِّهِ وَيَبْعُ الثَّوَمِ بِالسَّهْدِ
فِي جَانِبِ الْجِلْدِ مِمَّا خَفَ لَمْ يَجِدِ

حتي لمت فتاة الحى فانتبهت
فسلمت وهى ولهى من مكافئها
ففظلت أثنىها طورا وأشعرها
وقلت للقلب لما خاف بادرة
فودعتنى وقالت وهى باكية
وسرت والليل قد ولت عساكره
ترنو إلى بعينى جودى شرد
حيرانة، تمزج الترحيب بالحرود
فعل الهوى وقد ماث على عضدي
ذا مورد عز أن تعاضه فرد
إني أخاف عليك الموت أن تعد
والدهر يأكل كفيه من الحسد

وفى هذه المقطوعة النزلية التى جعلها مطلقاً لمديحه ضمنها بعض المعانى التقليدية الأخرى زيادة على ذلك المعنى الرئيسى الذى أشرنا إليه ، وهو منعة الحبيبة فى أهلها ، ولا شك أنه استوفى كذلك بعض معانى الشعراء القدامى فى الليل واعتساف الطريق كقول ذى الرمة مثلاً: (١) أحمر علا فى قطعته بأربعة وهو فى العين واحد .

واستوحى قصصاً شعرياً لأمرى القيس وعمر بن ربيعة بمثل زورات العاشق الليلية للمحبوبة رغم منعة أهلها فى حمى قومها ، وما قاله واقتنصه معها من اللذات ، وما قاله ، وخافته وخافت عليه .

وهو مع هذا الاستيحاء لا يقلد ، ولا تحس بأنه يحتذى أو يأخذ أخذاً مباشراً ، ولا يسخ المعنى ، ولا ينسخه ، لكنه يأتي به فى رشيح من اللفظ ، وحلو العبارة حتى يلفك إلى الإعجاب بصنعتة ، والتعجب من مقلدته وشاعريته .

وهو يرى الغزل فى مطلع قصيدة المديح ضرورة فنية يقتضيا القول الشعرى وليس مجرد تقليد للقدماء فيما أنشدوا (٢) :

الحب مذ كان معنى بصحب الأدها
وأحسن الشعر ما أضحي تغزله
والفهم كالنار والتشبيب إن نهدت
كم فكرة أنتجت معنى للتهب
وحكمة العرب الماضين كامة
فإن تغزلت فى مدح فلا عجا
إلى المدائح فى انشاده سببا
يشبها بلطفى فكرة وصبا
بالشوق لو رامه فى غيره عزيا
فى الشعر فليقف من يعنى به العربا

(١) ديوانه ذى الرمة .

(٢) ديوانه ص ٣٤ .

فهل تعاطاه فحل في فصاحته إلا بكى سكنا أو ناج أو ندبا
والشعر تلقين شيطان الغرام فلا على غرائبه إلا لمن نسبنا .

ومع ذلك فإن الشاعر يتغزل غزلا صرفا ، بعيدا عن قصائد المدح وتحس في
غزله صبوة حقيقية ، وهوى لا عجا ناش قلبه ولوحه ، وإلا لما قال مثلا (١) :

لو ذقت حين عتبت أيسر حبي لعلمت حلو غرامي من صباه
ومن البلية أن يلوم أننا الهوى من ليس يعلم سهله من صعبة
ما أنت منه إذا تطاول ليله فلقا وكجئت مقلتاه بشهبه
وثملت من كأس الهوى ، ويذ الهوى تسقى جوارحه بميسم كربه
أنا بعض من سبت اللحاظ فؤاده فسرى ولم يحفل بلامة حربيه

قال هذه القصيدة في هوى له بالفسطاط ، أو مصر فهل كان هواه الحقيقي
هناك ، أم أن حبه وهواه الأول كان بالإسكندرية ، ومن يتعقب أقواله وأشواقه
بالإسكندرية يحس بحقيقة هذا الهوى ، وأنه لم يفارقه أبدا حتى وإن كان قد
جند هوى بالفسطاط ، ألا أن هوى الإسكندرية تمثل له دائما ، وفي كل
طريق يسلكه سواء أسلك إلى مصر والفسطاط أم القاهرة وقد صرح بهذا
الهوى السكندري في قصيدة يتشوق بها إلى ملاعب ذاك الهوى فقال (٢) :

يا بلدي إن يغيب مغناك عن نظري فأنه في سواد القلب لم يغيب
وأما على ذلك العيش الذي ذهب أيامه فيه بين اللهو والطرب
وللشيبه شيطان يساعديني على الهوى ويؤاتيني على أرفي
فإن دعائي الهوى ليث دعوته وإن دعائي لسان العنب لم يجيب
أجر ذيل غرامي غير مكترث بالحادثات ولا بالك على التوب

لقد امتزج هذا الحب إذا بحب بلده الإسكندرية ، وتقلبت بهما الأيام فإذا
هما هوى واحد ، إذا تذكر الإسكندرية ذكر هواه ، وإذا ما ثار في قلبه لأعج
حبه تذكر ملاعبه بالإسكندرية بين قصور الرمل ، وعلى ضفاف خليجها
وسط الزروع والبساتين ، أو على شاطئ بحرها الهادر ، يبعث بأمواجه على
الشاطئ ، ويهب نسيمه فيطوف بوجهه ، ويحييه ، بل يصافحه ويقبله .

(١) ديوانه ص ٩ .

(٢) ديوانه ص ٢٠ .

وقد أحسن ظافر وصف مشاعر الحب ، والتعبير عن عواطفه كلما طرق هذا الموضوع حتى إذا اصطنع فيه القول ، أو قاله مبتدئاً في قصائد المدح .

مدائحه :

قال أشهر مدائحه في الأفضل بن بدر الجمالي ، ولعله نظمها في مرحلة حياته بالفسطاط ما بين عامي ٥٠٠ هـ إلى ٥١٥ هـ وقد تكون القصيدة التي مطلعها^(١) .

بدا شيبه قبل ابتداء شبابه ووكى الصبا عنه عقيب اغترابه
أول ما قال من مدح في الوزير ، أو من أوله لشواهد فيها تنبئ بذلك ، منها هذا المطلع الذي يشير إلى غربته عن بلده الإسكندرية الذي تعلق به وصعوبة تلك الغربة على نفسه ، وتكون الغربة شديدة على النفس في أولها وربما كان آنذاك غير مستقر بالفسطاط يتردد بينها وبين بلده ، يفهم ذلك من قوله :

ولما حباى الدهر منه بعودة وراجع حظي بعد طول اجتنايه
وهب لقرى سرتى بنعيمه جناية بعد ساقى ببقائه
فإن كسئت في مصر غريباً فجعل ما ينال الغريب العز عند اغترابه
ورثت بها بحر التوال مشرقاً وغرب غيري آملاً لسراه

وأظن هذه العودة حدثت بعد رحيل أمية بن أبي الصلت عن مصر والقاهرة ، وحدث ما حدث من سجن ، فقارق بلاط الأفضل وخلفاء الفاطميين مغاضباً إلى القيروان حيث الصنهاجيون أعداء الفاطميين أو من أصبحوا أعداءهم بعد حلف ومصاحبة ولعل التلميح إلى من يغرب من الشعراء إلى البيت الأخير يعنى أمية .

وتختلف مناسبات مدائحه للأفضل بين التهاى بالأعياد ، أو بمناسبة زواج ولده .

فمن تهايه بالعيد قوله :

نهاية ما سماً للعلاك أرض وأشرف ما زكاً لئذاك بعض

(١) ديوانه ص ٤٦ .

يقول فيها :

لِفَرَّةٍ وَجْهَكَ الْيَمُونِ نُورٌ لَعَيْنِ الشَّمْسِ تَحْتَ سَمَاءٍ وَمُضْ
كَأَنَّ مَلُوكَ أَهْلِ الْأَرْضِ نَفْلٌ إِذَا اعْتَمَدُوا الْفَخَّارَ وَأَنْتَ أَرْضُ

ويقول بعد عبارات من الثناء المبالغ فيه على عادة الشعراء في مدائح أولئك
القادة والوزراء :

بِقَاوِكَ زَهْرَةُ الدُّنْيَا فَهَمَّا بَقِيْتُ فَعَيْشُنَا يَحْصَبُ وَخَفَضُ

ويصفه في مدحيه بالعدل إلى صفات الشجاعة وإخافة الأعداء ، كما يشير إلى
رعايته للدين وقيامه على حمايته ، ويجدها فرصة سانحة للإشادة بعمل أبيه بدر
الجمالي في انقاذ ملك الفاطميين من أعدائهم ، يقول :

أَبْرَكَ مَغِيْثُ هَذَا الدِّينِ قَدْ مَأَى غَدَاةَ لَهُ مِنَ الطَّائِفِينَ دَخَضُ
تَدَارَكَ نَصْرُهُ بِبَرِّكَ ضَرْبُ ثَقُلَ بِهِ الْجَمَاجِمُ أَوْ تُرْضُ

حتى يصل بعد هذه المفاخر والمآثر إلى التهنئة بالعيد ليقول :

لَيْسَ الْعَيْدُ أَنْ وَافَاكَ فِيهِ وَمُلْكُكَ زَائِحُ الْأَكْنَافِ بَضُ

ومما قاله في مناسبة زواج ولده :

يَا بَاسِطَ الْغُلْدِ فِي بَدْرِ وَفِي حَضَرِ زَرَّافِعِ الْجَوْرِ عَنْ أَنْتَى وَعَنْ ذَكِرِ

يقول فيها :

يَا أَفْضَلَ النَّامِ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى لَقَبٍ وَلَا وَفَعْلَكَ أَوْفَى مِنْهُ فَافْتَحِرِ

ويقول في مناسبة مماثلة :

عَبَقْتُ بِطَبِيبِ ثَنَاتِكَ الْأَقْطَارُ وَتَحَمَّلْتُ بِمِدْيَجِكَ الْأَشْعَارُ
وَعَظَّمْتُ صُنْعًا فِي السَّمَاعِ فَمُذَبَذَا لِلْعَيْنِ تُخْبِرُكَ هَائِتِ الْأَنْجَارُ

ويمضي كعادته في المدح في إفاضة صفات المدح المبالغ فيها من مثل قوله :

وَالْأَرْضُ بِلَاكَ وَالزَّمَانُ كَأَهْلِهِ خَدَمَ وَبَعْضَ جَيوشِكَ الْأَقْدَارِ

وقوله :

جيد الكمال من الوجود فَمَذْ بَدَا لئاس فضلك أنكر الإنكار
إن كان هذا الخلق أصل وجوده طين فأصلك جوهر ونضار

وقوله :

كاذ المقطم أن يَمِيدَ مسرة لو لم يُصَيِّه من لذلك وقار

وهكذا تحوى مدائح في الأفضل من المبالغة التي تخرج عن جادة القول
ويبدو أن الأفضل وغيره من الملوك أنك كانوا يحبون أن يبالغ الشعراء في
صفاتهم حتى يبالغوا لهم في العطاء ، وعرف الشعراء ذلك فيهم فكألوا لهم ما
شاءوا مما يخرج عن كل حد معقول ، ويكاد يصبح من هذر الكلام .

ومدائحه في الأفضل لا تجرى كلها على سنن المديح التقليدية في بدله
بالسبب بل هو يبدأ أحياناً قوله مباشرة دون تمهيد ، وتقتصر قصيدة المديح
غالباً على صفات المديح وحده لا يشركه فيها شيء ، وعلل ذلك بقوله :

والشعر تلقين شيطان الغرام فلا يُمل غرائبه إلا لمن نسبنا
إلا مدائح شاهنشاه ما برحت تُشرف اللفظ والمعنى إذا اصطفا

وانقطع للأفضل فصار شاعره قال :

فأصبحت فيها خادماً الأفضل الذي زحمت ملوك الأرض تحت ركابه
جلوت عليه كل عذراء ما الرضت يبتل إلى أن هزلت بجنايه

ولأنه كان منقطعاً إلى الأفضل ويعد من شعراء بلاطه ، فقد كان يواسيه في
ما ينتاب أهل بيته من النوائب فيرتى من فقد له ، كما كان يبنى بالأعياد
والأفراح ، فيقول راثياً المظفر أخا الأفضل :

إذا كان عقيب ما يسوء التصبر فتعجيله عند الرزية أجفر
وغاية أحران النفوس سلوها فأولى بها تقديمه وهى تؤجر

وكما هو الحال في إغداق صفات المديح والمبالغة فيها بالنسبة إلى الأحياء
فكذلك كان حاله مع المتوفين ، كأن يقول في هذه القصيدة :

لقد زعزعت شم الجبال رزية ألت ولكن طود جملك أوفر
وفضلك مثل الشمس نوراً ورفعة وحاشاه بل أعلى وأسنى وأسير

فهكذا لا تقلت منه مناسبة الرثاء بل يقتصر الفرصة للمديح . فتراه يراوح بين رثاء الثوف ومديح الأفضل في القصيدة .

ومعاني مديحه وراثته وكل قصائده التي يقدمها ليكسب أو يحصل على المال من عطايا الملوك والرؤساء يغلب عليها المبالغة ، وتردد الصفات المعروفة في مدائح الشعراء ، ويبدو التكلف والصنعة على اللفظ والأسلوب .

وقصد بالمديح جماعة من أعيان العصر كالوزير البطائحي بعد قتل الأفضل ومن يسمى بالأمير فخر الدولة ، وبعض بني أسامة وهم من بيوتات العز في العصر الفاطمي في دولة المستنصر ومن بعده وكان أبوهم من رجال الأفضل ، يقول في أحدهم :

لعبت بالزمن الماضي فخلّفتني	من بعده في زمانٍ ظلّ يلعبُ بي
هذا بذلك ، فطبعُ اللّهر مختلف	لا بدّ من راحةٍ فيه ومن تعب
لكن تعرّضتُ بالشّيعِ الأجلّ أبي	محمدٍ خيرٍ أوطانٍ وخيرٍ أب
صرح منيف أسايى له ثمر	من جوده تحيته الكفّ من كتب
إن كان للفضل عين فهو ناظرها	أو نسبةً فإليه أقرب النسب
أعطى الجزيل بلا من ولا عدو	ولا سؤالي فأغنى الناس عن طلب

ومحمد بن أبي أسامة كما ذكر من رجال الأفضل ، وربما كان وسيلته إلى الوزير الخطير ، وربما كانت أيامه التي عانى فيها تلك التي سبقت معرفته بأبي أسامة ، ومن ثم قبل قبوله في بلاط الأفضل .

وكان شاعراً مهاجراً من وطنه ، مبعداً عن أهله ، تلقى من هذا الرجل اقبالاً عوضه وطنه وأهله .

ومدح بعد مقتل الأفضل الوزير البطائحي (تولى سنة ٥١٥ هـ) وللشاعر فيه أربع قصائد منها قوله :

كم قدر ما أخفى الهوى وأصون والدّمع يُعربُ والسقام يُبين
ونلاحظ عدولَهُ في البناء الذي اعتاده في مدائحه للأفضل ، فقد بدأ هنا بالغزل وحديث الحب الذي أعرض عنه أحياناً بمحض إرادته ؟! فقد استطرد في هذه القصيدة الطويلة نسبياً في موضوع النسيب وذكر الحبة ، واصطنع في

نحتاج المقدمة الغزلية حواراً مع حبيته أعاد فيها إلى الأذهان نهج القدماء ، وبخاصة ما استجد عند بعض العباسيين أمثال أبي نواس في مدحته للخصب أمير مصر ، وعند أبي تمام في بعض مقدماته . وكذا عند بعض القدماء كحاتم الطائي^(١) .

يقول ظافر^(٢) :

يأرب لائمة شجاها أنسى	سمع بمالي ، والزمان ضنين
قالت: أضعت المال وهل لك عنه ما	تعتاض؟ قلت: الحمد وهو نعمي
قالت غنيث، فقلت: حسيك فاعلمي	إن البخل بماله المغبون
قالت: فإن الفقر هون، قلت لم	يهن الكريم، بل اللئيم يهون
قالت: فإن المال نعم معونة ال	إنسان؛ قلت لها: الإله ممين
قالت: فإن الوفريين، قلت: كس	ب الحميد يرفع أهله ويرين
والمال يذهب والتناء مخلد	يخفى به الإنسان وهو قمين
يا هذيه ماذا أفاد بملكه	فرعون، أو براثه قارون
قالت: فهل لك ما يعوضك الغنى؟	قلت: الأجل السيد المأمون ^(٣)

ثم يمضي في مدح المعهود ، والذي تكررت معانيه في مدائحه ، وإن تغير بعضها بما يناسب مقام الممدوح . فهو هنا يشبه بالوزارة ، ويشير إلى كفايته ، وأنه قوة للخلافة :

أصبحت سيفاً للخلافة حالياً	حيث ازدهى بك عائق وجين
فافخر فأنت وزيرها، ومشيرها	وأمينها، وظهيرها الميمون

وفي قصيدة أخرى ربما كانت أول ما أنشده يستنجد به ويظهر كثرة عماله فيقول :

مولاي قد أوليت عبدك نعمة	فله عليك بها ثناء سمرمد ^(٤)
والآن قد أضجى حواشي حاله	هدبا، فلا ثري ولا هي تُعقد

(١) ديوانه ص ٣٧٠ .

(٢) نلاحظ في بعض حديثه مع صاحبه عن المال وإفلاقه صلة بما قال حاتم الطائي في قصيدته المشهورة :
أما ترى إن المال غدا ورابع .

(٣) ديوانه ص ١٠٣ .

(٤) يقصد المأمون البطحاقي الوزير .

فَكَأَنَّ بَعْضَ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي لَا تُغْتَذَى، وَكَأَنَّ بَيْنِي مَسْجُودٌ
وَتَكَاثَّرَ لِبَكَائِهِمْ فِي مَأْتَمٍ طَوَّلَ الزَّمَانَ وَمَا لَنَا مِنْ تُفْعُودٍ
وَتَقَسَّرَ الْجَارَى أَضْرَّ بِحَالِهِمْ وَأَضْرَبَنِي وَهُوَ الْقَلِيلُ الْأَنْكَدُ
وَمِنْ مَدَائِحِ لَائِمَةِ الْفَاطِمِينَ مَدْحَةٌ لِلْأَمْرِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ ، يَقُولُ (١) :

هَناكَ الْفَخْرُ يَا شَهْرَ الصَّيَّامِ بِقَرَبِ الْأَمْرِ الْمَلِكِ الْهُنَّامِ
فَحَسْبُكَ مِنْهُ مَنْزِلَةٌ وَمَجْدًا زِيَارَةُ مَرَّةٍ فِي كُلِّ عَامِ

وَبِكَيْلٍ لَهُ مَدِيحاً عَادِيّاً بِصِفَاتٍ يَكِيلُهَا لِغَيْرِهِ مِمَّنْ هُمْ أَدْنَى مِنْهُ مَنْزِلَةٌ ، وَإِنْ
كَانُوا مَتَمَلِّكِينَ لِمَصَائِرِ الْخُلَفَاءِ كَالْأَفْضَلِ ، إِلَّا أَنَّهُ يَأْتِي هُنَا بَعْضُ الْمَعَالَى اللَّائِقَةِ
بِمَقَامِ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ عَلَى مَا تَعَارَفَهُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فِي خُلَفَائِهِمْ مِنْ تَأْيِيدِ السَّمَاءِ
لَهُمْ . وَأَنْهُمْ أَوْصِيَاءُ وَائِمَةٌ بِتَوْقِيفِ مِنَ السَّمَاءِ . قَالَ :

لَهُ جَيْشٌ سَمَآوِيٌّ خَفِيَ كَظَاهِرُ جَيْشِهِ اللَّجْبِ الْهُنَّامِ
تُفْعِدُ صَوَارِمَ الْعُلُوِّ بَدَأَ إِذَا الْأَرْضُ هَمَّ بِضَرْبِ هَامِ

كَأَيُّهَا بَابَائِهِ مِنْ آلِ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَجَدَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَهْتَهُ بِنَصْرِ كَنْصَرِ
النَّبِيِّ يَوْمَ حُنَيْنٍ :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَناكَ نَصْرٌ قَرِيبٌ جَاءَ بِالشَّحْفِ الْجَسَامِ
كَنْصَرِ أَيْلِكَ فِي يَوْمِي حُنَيْنٍ وَبَدْرٍ عِنْدَ مُعْتَرِكِ الْجَحَامِ

وَيَحْتَمِ قَصِيدَةً أُخْرَى بِمَا اعْتَادُوهُ مِنْ إِعْتَابِهِمْ عَلَيَا وَصِيَّ الرَّسُولِ ، وَأَنْ
الْوَصَايَا انْتَقَلَتْ مِنْهُ إِلَى أَبْنَائِهِ مِنْ فَاطِمَةَ . يَقُولُ (٢) :

فِيَا ابْنَ الْبَتُولِ سَلِيلَ الرَّسُولِ أَبُوكَ الْوَصِيَّ ، وَأَنْتَ الْإِمَامُ
وَيُضْمَنُ بَعْضُ أَلْفَاظٍ وَمَعْنَى سُورَةِ النُّجُومِ وَمَا أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ
بِهِ وَالْمَعْرَاجِ وَتَقْرِيبِهِ إِلَى مَقَامٍ لَمْ يَنْلَهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ . يَقُولُ :

أَبُوكَ الَّذِي سَارَ فَوْقَ الثِّرَاقِ وَفِي يَدِ جَبْرِيلَ مِنْهُ زَمَانُ
فَلَمَّا انْتَهَى سُدْرَةُ الْمُتَهَيَّيْ مَقَاماً لَهُ جَلُّ ذَلِكَ الْمَقَامِ
دَنَا قَابَ قَوْسَيْنِ مِنْ رَبِّهِ عَلَى يَقْظَةٍ ، لَمْ يَشْبَهْهَا مَنَامُ

(١) ديوانه ص ٢٨٩ .

(٢) ديوانه ص ٢٩١ .

فما كَذَّبَ القَلْبُ مما رآه فهل حجةٌ في خلافِ نُقُاطِ
فضائلِ جاءَ بينَ الكتابِ وآيائهِ الحكماتِ العِظامِ
ويحتم القصيدة كما ختم الأخرى بالصلاة والسلام على الخليفة . ويقول :
وصلّى الإلهُ ، وأهلُ السَّماءِ عليك صلاةٌ يليها سلامُ
وله مِحنةٌ أخرى في الخليفة الإمام الحافظ ، لا يبدأ بالنسيب ولا الغزل ،
ولكن بالشكوى هذه المرة من ذهاب الشباب . يقول (١) :

لا غرؤ أن رحلَ الشَّبَابُ وبَاقًا ما كانَ أولُ من صحبَ فُحانًا
ويُتبعُ هذه الشكوى من الشيب وتولى الشباب حديثَ الذكريات عن الأيام
الحولَى أيام الصبا والصبوة يبدأ بقوله :

كم قد جريتُ مع الصَّبَا في حَلَبَةٍ ولزمتُ فيها ذلك المِبدَأَ
حتى سبقتُ السابقينَ لِشَأْوِها وهويتُ أوطاراً وحُزْنَ رَهائِها

لقد بلغ الشاعر في عهد الحافظ مرحلة الكهولة ، ضعف جسده ، وأبيض شعره وسكنت فيه سورة الحياة ، وبلغ شاطئ النهاية ، وفي هذه المرحلة يحلو للإنسان أن يتذكر ، وأن يعيد إلى مخيلته شريط الذكريات ليحييها من جديد ، مادام لا يستطيع رد ما مضى من الأيام ، ولا أن يعود به القهقري ، أفلا أقل من أن يعيش ماضيه في الخيال !

ويخلص من حديث الذكريات إلى ممدوحه الحافظ . ليقول :

يا من مضى فاعتضتُ عن أيامِهِ أوفى نظام المدح في مولاتِنا
الحافظ الدين ، الذي غمر الورى عدلاً وعمَّ جِهمهم إحسانًا
هو رحمة الله التي أحتى بها ال ثقَلينَ حتى الجودَ والإيمانًا

ويورد ما يردده أتباع الإمام من مثل قوله :

يا حُجَّةَ الله التي أبَدَتْ لنا بكَمالِها الآياتِ والبرهانِ
من كان يلمِسُ الدَّلِيلَ فقد بدَّتْ حُجَجٌ ملآنٌ مسامحةً وعيانًا

ويعيد مرة أخرى قصة الإسراء والمعراج التي شرف بها الله نبيه .

والشاعر في هذه القصائد مضطرب أن يسلك هذا الطريق في مدحِهِ ، وترى

أنه يقول بطرف اللسان ، ولم يصدر عن عقيدة صحيحة ، أو تصديق لما ينسب
إلى أولئك الأئمة والخلفاء ، لكنه مضطر إليه كما قلت والمضطر يركب
الصعب ، والصعب هو هذا الذى يقوله ولا يعتقه .

* * *

الوصف فى شعره :

يتنوع موضوع الوصف فى شعر ظافر ، وتنوع طرائقه ، فهو إما وصف
مباشر لمشهد رآه ، أو تسجيل لبعض ما يمر به ويعبر من الرؤى فى مناسبة ، أو
قد يبنى الوصف فى سياق حديث آخر كالغزل والمدح ، والقول فى الحمر
والشراب ، أو قد يكون استعادة لذكريات الأيام الخوالى ومشاهدته أو نزواته
فى الروضات وشاطئ البحر ، وأماكن التزهة واللهو كالأديرة وغيرها من
مظاهر الطبيعة المصرية كالنيل ، أو الآثار والأبنية كالمنار والأهرام .

وتجىء أوصافه للرياض ، وأماكن البحر والرمل والسباحين والساحبات فيه
بالإسكندرية ، على رأس أوصافه ، وفى مقدمتها ، بل وأجلها وأعذبها نفساً
وتلحق بهذه أوصاف جزئية للزهر ، والنواعير ، والطيور والكؤوس
والشراب ، والأطعمة ، والرسائل .

ولأن نجد لظافر اهتماماً بمجالس الغناء والموسيقى ، فلم ترد فى شعره أوصاف
لآلات الطرب ، ولا القينات كما فعل غيره من شعراء عصره أو من سبقوه ممن
عرضنا لهم ولا شك أنه شهد بمجالس الطرب والغناء فى قصور من يمشى دورهم
من الوزراء والأعيان أمثال الأفضل ، وغيره بالفسطاط ، وكانت آنذاك عامرة
بهذه الملاهى ، وإن لم يشهدا فى تلك المجالس الخاصة ، فلعله وقف عليها فى
الأعياد والمواسم التى كثرت واهتم بها الناس فى مصر الفاطمية ، وانغمسوا من
الغناء ومن الموسيقى ، والطرب عامة ، مظهرًا من مظاهر تمييزهم عن الفرحة
والسعادة بمناسبة تلك الأعياد .

ونبدأ حديث الأوصاف عنده بتلك الصور المشرقة التى رسمها لمنازه
الإسكندرية والقاهرة أو الفسطاط ، ومطارج اللهو بهما ، ونبدأ بالبحر
وشاطئه بحر الإسكندرية وشاطئ الرمل :

يصف البحر فيقول :

وبحر الملح مثل الفحل يرغو ويزيد حين يقلقه الهباب
ونحسب سفنه صفة ولونا فيولا حين يرفعها الهباب

ويقول في وصف البحر والسباحات الحسنات :

وآصالنا في ساحل البحر نعتل به الرمل ما بين الكتيب إلى الوهد
نُغازِلُ من غزلانِه كُلَّ سابع له مقلة عادتها تنصُ الأُميد
حكّت بيننا الأمواج أثقالَ رُدْفِه فأونة تخفى، وأونة تُبدي
هو الماءُ فَرَّقَ الماءُ: هذا نعاْفُه أجاجاً، وهذا فيه أحلَى من الشَّهيد
إذا قابل التَّيارَ هيفَ قُلُوبِها أرتنا فعَالُ الرِّيحِ بالقُضْبِ المَلِيدِ

وصور خليج الإسكندرية والرياض حوله ، والزهور والطيور .

ولطائف في هذا المجال إبداعات فنية ، وصور بهجة ، لهذه المنازة الجميلة
شاطيء خليج الإسكندرية في عصره ، تجعل القارئ لشعره يستعيد تلك
الصور ، ويحس بما أحس به الشاعر من سعادة وبهجة وسط تلك المجالي :

يا ليتى أحظى بشم نسيجي وبديع منظريه ولثم ثرايهِ
يُعَلِّني ذاك الخليجُ بشريّة سيما إذا انتسجتْ دُرُوعُ حَيايهِ
وصفاً وراق وعادَ مدُّ زلالِه كالسيفِ جُرْدٍ من خلالِ قَرايهِ
فكأَنَّه والرَّيحُ تنقُشُ منته حرَّزَ عليه يدقُ خطَّ كَيايهِ
كالمريرِ النفوسِ نقشاً خففتْ آثارَ موقعه يدا ضُرايهِ
كصُفيرةِ الخواصِ أمكنه لها سحفَ ضُيُونِ قَرَقِ ضُفُرِ لبايهِ
حيثُ الغصونُ رواقصُ وِهمائِها يشلو يطيب الرِّيمُ من قُولايهِ
تعرّتْ نواصيرُ المياهِ وأترَعَتْ تلكَ التَّراغُ وفضُّ فضِّ حُبايهِ
حتى يُجرِّدَ سيفُه أسياقِها بجلولٍ جُلُلنَ في أعشايهِ

نلاحظ بعض تشبيهاته التي عرض فيها ملاح من حقله الشعبي كالإيراد
وصانع الخوص رَفِي هذه المقطوعة التي رسم بها الشاعر صورة للخليج وقد
امتد ولمع ملاؤه الأبيض ، وتفرعت منه قنوات وترع تسقى الزرع ، وشبهها
بالسيوف المصلطة المسلولة ، وهى صور وقع فيها الشاعر في أسر القوالب

التقليدية لتشييه الجداول ، ولم يدع فيها ، بل لم يوفق في نقل الصور التقليدية غير الموافقة لمشهد المسرة في الخليج والروج من حوله .

ويكرر هذه الصورة أو هذا التشبيه للخليج أكثر من مرة فيقول :

وسيفٌ خليجها كالسيفِ حذاً وفي أرج الرياح له اضطرابٌ

ويرشح حديث السيف الجوشن والدرع والمبرد وكل هذه المصطلحات البيانية في وصف المياه التي تدرجها الرياح ولا تجد مبرراً واضحاً لهذا القالب التشبيهي عند شعراء العرب في جملتهم .

إلا أنه على الرغم من هذا المصطلح والقوالب التخيلية المتداولة لا نعدم تشكيلاً مبدعاً لعناصر الطبيعة في صور الشاعر للخليج الإسكندري ومروجه فهو يدخل أصوات الحمام ، والضفادع ، وزمر اللولاب ، ورقص الفصون لتعبر هذه العناصر عن أحاسيس الفرحه والسعادة إلى جانب مشاهد السيوف والمدى والجواشن وما إليها التي تثير خيال الحرب المنفزع الخفيف وسط هذا الجو المليء بالمتعة والتعيم ، ولعله تنبه إلى أن هذا الوصف الإصطلاحي يفعل ذلك دون إرادة منه ، إنما هو كما قلت قد وقع فيه أسر التراث التصويري في الشعر ، يقول :

وتكسوه الرياح دُرُوعَ حرب ولا طَفَنَ هُناكَ ولا ضِرَابُ

ولولا هذه العناصر المقحمة لم للصورة الشعرية تماسكها وتناسقها . يقول :-

وترقصُ في جَوَانِيهِ غُصُونٌ كرقصِ الغيدِ مَآذِيهَا الشَّرَابُ
وتشَلُو بينها الأَطْيَارُ شَلَواً رَضِيئاً للقلوبِ به انجِدَابُ

وفي صور الإسكندرية الرمل ، وقصور الرمل وكرومه وزهوره البرية كالشقائق الحمراء ، والأقحوان الأبيض ، يقول :

وكم يوم لنا بالرمل فيه حديثٌ مثل ما نثر السحاب
حديثٌ كاسمِهِ فينا حديثٌ كما يَسْقَى أنحاضاً ثُغَابُ^(١)
جلسنا والرَّمالُ لنا حشائبا وأوراقُ الكُرُومِ لنا حِجَابُ

(١) الثغاب ما بقي من الماء في بطن الوادي .

على الكيسان أكمة سيمان وفي الأغصان أغصان رطاب
به القصران كالرجلين لانا على بعد يملهما السراب
أقناباً صاحين مع الليالى ولم ينبع بينهما القراب
وبذكر قصرى فارس والمعلّى ، وكانا من القصور الأثرية الشاخصة في أيامه على ما يبدو :

وأذكر قصر فارس والمعلّى ففيه لكل موعظة مناب
وهى من بعد قوته فاضحة كما بركت على الغراء ناب
وأنت ملك ساكنه الليالى وكم فاضت بسكره الشعاب
فأصبح دمنة تغلو السواقي عليه وقصره قرر ياب
تتوح المائقات على ذراه وتغيب في أسافله الرحاب
ففى تلك الشقائق منه شاقّت شقائق شققّت منها اللياب
تراث من كمائم فكاثت كحمر اللاذ أيدئها العياب
تحرّكها الصبا فتخال فيها بحار دم يؤمّجها انصياب
كانّ الخمرة الحمراء راقث وأوراق الشقيق لها قناب
وتحسب فحمة في كلّ ساق أحاط سوى اليسر بها التهاب
كانّ الأقحوان به ثغور مفلجة مؤشّرة عذاب
وقد بهرت دنائير دعوها بهاراً كثرها ذاك العياب

فراها هنا يلجأ إلى تصوير الزهور التشبيهات المعتادة والصيغ المتواردة في الشعر العربى ، وبخاصة تشبيه المعتاد عند القدماء في بادية العرب من الزهور البرية كالشقائق والأقحوان غير أنه تلمّسنا في أول الأبيات صورة غريبة إذ يشبه القصر بهاقه عجوز باركة .

وإذا ما انتقلنا من مشاهد الطبيعة بالإسكندرية وموجها وبحرها ورملها وخليجها وبساتينها إلى القاهرة والفسطاط فأكثر ما حدثنا عنه النيل ، وقد جاء ذكره في مدائح الخلفاء والوزراء بمناسبة فيضه ومواسم الأعياد وما إلى ذلك .

إلا أنه يخص بركة الحبش التى كانت تستمد ماءها من النيل شرقى جزيرة الروضة قرب الفسطاط بوصفه فيقول :

تأملت بحر النيل طويلاً وخلفته من انيركة الغناء شكل مُدْبِرُ
فكان وقد لاحت بشطيه خضرة وكانت وفيها الماء باقي مُوقِرُ
عمامة شرب في حواشٍ بخضرة أضيف إليها طيلسان مُقَوَّرُ

صورة غريبة قصد فيها إلى التشبيه المستمد من يفة أصحاب العمام الحضر
والطيلسان من أعيان القاهرة . ويصف الأهرام على الشاطئ، الغرى للنيل أمام
الفسطاط وبالجيزة الفيحاء كما كان يسميها الشعراء . يقول :

تأمل حياة الهرمين وانظر وبينهما أبو الهول العجيب
كعمليتين على رحيل بمحبوس بينهما رقيب
وماء النيل تحتها دموع وصوت الريح عندهما نجيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب تخلف فهو محزون كيب

ويبدو أن سجن يوسف هذا — على عرف القدماء من العرب — هو معبد
الوادي بجوار أنى الهول والصورة هنا غريبة نبت من خيال بدوى ، وهى
صورة رسمتها ذاكرة الشاعر من حصيلة ما حفظ من الشعر لا ما عاين من
الواقع ، مع قدر غير قليل من المبالغة .

وله فى دير القصر ، ما يبارى فيه شعراء الحمريات الذين جعلوا هذا
الموضوع من عناصر قصائد الحمز ، وأكثر فيه وأبدع شاعر الحمز الأول فى
العصر العباسى أبو نواس وأبياته فى دير حنا وغيو من أدوية الحيرة متداولة
مشهورة .

كذلك لظافر ديرية فى دير القصر يحاكي فيها أبا نواس .

وله غير حديث الرصف للمنازة ، وأماكن اللهو والمرح ، ومسارح المتعة
حديث عن الربيع كقولہ (١) :

جاء الربيع أخو حياة الأنفس ومجمل الدنيا بأفخر ملبس
فاغنم بنا ملح الزمان مبادرا وتمل منها حظ من لم يتخس
واستقبل الأرج المعطر كلما مرت عليه الريح كالتنفس
فكاننا زهر الثبات قلاهد ثيرت على صفحات بسط السندس

(١) ديوانه ص ٣٣٩ .

(٢) ديوانه ١٦٥ .

والوردُ يَخْجَلُ حينَ قُبِلَ خَلُّهُ
فَكَأَنَّهُ غَيْرَانِ أَدْهَشَهُ الْمَوَى
وَكأَنَّمَا الْأَعْصَانُ تَطْرَبُ كُلَّمَا
وَكأَن هَتَفَ الْوَرْقُ فِي أَغْصَانِهَا
وَالْمَاءُ قَدْ عَيْثَ بِهِ أَيْدَى الصَّبَا
وَكأَنَّمَا حُبِكَ الرِّيحُ عَلَى الثَّقَا
وَالطَّيْرُ تَسْرَحُ فِي الرِّيَاضِ غَوَادِيَا
وَالْوَحْشُ بَيْنَ سَوَاحِجِ وَبَوَارِحِ
تَرُدُّ الْقَيْدِيرَ وَرُودَ مِنْ لَا يَشْتَقِي
وَالشَّمْسُ تَجَلِي فِي مَطَالِيعِ شَرْقِهَا

صور جديدة متتابعة من خيال يختلط فيه صور تراث العربية في بيئاتها ،
ومشاهد الحضارة بمصر والإسكندرية .

وليه يقول^(١) :

هذا الربيع أتى بأحسن منظر
فانهض إلى داعي السرور واخلني
واسرق بنا خلس الزمان مبادرا
والروض يقلقه الصبا فيثير من
وكان مُصَفِّرُ الْأَصِيلِ خِلَالَهُ
وَالشَّمْسُ قَدْ حَوَتْ الْمَغَارِبَ شَطْرَهَا
وَالْجَوُّ مِنْ شَفَقِ الْغُرُوبِ مُفْرَوِّزَ
وبدا الهلال لليلتين كأنه
وَالْمَاءُ يُدَى لِلنَّسِيمِ تَلْقَا
وَالطَّيْرُ يُطِيرُ شَجْوَهَا أَغْصَانِهَا
وَاللَّيْلُ يَخْتَلِسُ النَّهَارَ كَعَصِيَّةٍ

ونلاحظ بعض أوجه الشبه بين رؤى الشاعر في القصيدتين مع أن الأولى
يصف مشهداً في الصباح ، والثانية وقت الأصيل قرب الغروب ، وتشابهان

(١) ديوانه ١٣٦ .

كذلك في امتزاج صور الموروث الشعرى بالجديد من حقل تجاربه
ومشاهداته .

أوصاف أخرى

وهناك أوصافه لأشياء متنوعة كالحمائم والأطعمة ، وكقوله في فقاء (١) :

وَأَقَى بِفَقَاءٍ أَرَجَ	يُحْيِي بِنَكْهِيَةِ الْمَهْجِ
شَيْخٌ مَضَتْ مِنْ عَمْرِهِ	فِي ذَلِكَ الْمَتْنِ جَمِيعُ
مَزَجَتْ يَدَاهُ الطَّيْبَ فِيهِ	فَكَانَ أَظْرَفَ مِنْ مَرْجٍ
وَحَشَا قُلُوبَ سَدَائِهِ	مَنْهُ بِكُلِّ فَمٍ حَرْجٌ
فَكَأَنَّهُ يَحْشُو بِهِ	قِطْعَ الزَّمْرُدِ فِي السَّبْجِ

ومن السوق يصور ظافر أصحاب الصنائع في حلاق :

لَا أَسْعِدُ اللَّهَ مَسْعُوداً فَصَنَعْتُهُ	كَوَجْهِهِ كُلُّ مَتَجٍ مِنْهُ مُخْتَصِرٌ
لَا يَخْلُقُ الرَّأْسَ إِلَّا مَرَّةً وَبِهَا	تَغْنِيهِ عَنْ عَوْدَةٍ مَا مَثَّهُ الْعَبْرُ
لَأَنْ أَلْطَفَ لِمَسْرٍ مِنْ أَنْيَامِهِ	سَلَخٌ، وَهَلْ بَعْدَ سَلَخٍ يَنْبِتُ الشَّعْرُ
فَلَوْ لَوَّى خَلْقَ شَعْرٍ فِي ضَمَائِرِهِ	بِفُطْنَةٍ كَادَمَتِهِ الْمَخُّ يَنْتَشِرُ

وقال في صانع كثافة :

وَحَافِظٌ عَكِيمٌ كَتَلَفْتُهُ	لَا تَشْبَعُ الْعَيْنُ مِنْهُ بِالنَّظَرِ
كَأَنَّمَا يَسْطِيطُ الْعُجَيْنُ عَلَى	أَكْرَاهُ لَمَّا حَفَّتْ بِمُسْتَعْمِرٍ
يَنْسَجُ غَيْتاً مِنَ السَّحَابِ عَلَى	وَامْضُ بَرَقَ يَكُنُّ بِالْمَطَرِ
كَأَنَّهُ يَفْتَحُ الْقَوَاقِعَ ذَارِبٌ	عَلَى رَاكِبٍ مِنَ الْعُسْرِ

وقد ألم بتشبيه ابن الرومي في صانع رفاق .

وله في الشكوى ، وأحوال الحياة والناس قصائد يقف فيها متأملاً ناصحاً
وكانه في أخريات حياته يستعرض ما مر به من أحداث تتقلب به بين المرارة
والحلاوة وتخوض به أياها في سهل وصعب . يقول :

خَانَ الشَّبَابُ وَمَا وَفَى بَمَا وَعَدَا فلا تثق بحبيب بعده أهدأ

(١) الفقاء شراب يخذ من الشعر ، وصحى كذلك لما يعلوه من الزبد والفقاقيع وينبذ أنه قريب مما كان
يعرف في أوساطنا الشعبية بـ « شراب » السوياء .

(٢) ديوانه ص ٣٤ .

قد كُنتُ أعفدُ عزمي في أوامره
 حتى رأى من جنود الشَّيْبِ باجزة
 فكلمنا رُمْتُ نصرًا منه يُخَذِّلُنِي
 فظَلْتُ أعيبُ نفسي في محبته
 ويقول ناصحاً :

لا تفرحن برتبةٍ أعطَا كَسَها في الناسِ جَدَا
 وانظر مكانك في الفضَا
 أنت الفقيرُ مع الغني
 هُكْ اقتدرت على الظوا
 لا يضرُّك من هُها
 فمن اليأسِ أن تُزِدَ
 فإذا بُلِيتَ بفقيده
 وقال في شكوى الدنيا :

أف لها دُنْيا فلا تستقر
 جميلة المنظر لكنها
 قد دخل العالم في سجنها
 فقيرها يطلب نيل الغنى
 فذاك للإملاق في حسرة
 والزاهد القابض في كلفة
 وغرب ما يلقاه من ربِّه
 وهُمه في القوت من جلّه
 والفاسق المذنب في وصمة
 ليس بلامون ولا آمن
 وعيشها بالطعم مرٌّ كيزر
 أقيح شيء عند من يختير
 فكل جنس تحت بوس وضمر
 وذو الغنى يجمع كنى بلخير
 وذاك خوف الفقر عبد الحلو
 من شعب الصوم وطول السهر
 في آخر الأمر إذا ما حشِر
 صعب شديد مُستجِيل عسير
 مُسَقَّة الأوي قبيح الأكر
 مذمم في قومه مُحْتَقَر

وهكذا يمضي في القصيدة مُستعرضاً أحوال الدنيا وما فيها من العجائب
 والمتناقضات والمسرّات والمنغصات .

ولطاف في ديوانه رسائل شعرية إلى أصدقائه من الشعراء والأدباء وغيرهم ،
 منه رسالته إلى أمية بن أبى الصلت الشاعر القيرواني الوافد إلى مصر .

يقول فيها : (وكتب بها إليه بعد مغادرته مصر إلى القيروان) (١) :

ألا هل لدائي من فراقك إفراق
فيا شمسَ فضلٍ غربتَ وضوئها
سقى العهد عهداً منك عمرَ عهدِهِ
يُجددُهُ ذكرٌ يطيبُ كما شئتَ
لك الخلقُ الجزلُ الرُفيعُ طرازُهُ
لقد صالوتني يا أبا الصلتِ مُدَّتْ
إذا عزلى إطفأوها بمناجيمي
سحائبٍ يحلونها زفيرٌ يحجرُهُ
وقد كان لي كثرٌ من الصبرِ واقعٍ
وسيفٌ إذا جردتَ بعضَ غرارِهِ
إلى أن أبانَ البينُ أن غرارُهُ
أخى سيدى مولائى دعوةً من صفا
لئن مُدَّتْ ما بيننا شقةُ النوى
ويهدُّ إذا كُفِّتْها الصبرُ قصرتُ
فغندي لك الودُّ المَلَزَمُ مثلما
ألا هل لأيامي بك الغرُ عودةً
ليالى يُدنيننا جَوْلَ أعادنا
وما بيننا من حُسنٍ لفظك روضةً
حديثٌ حديثٌ كلما طال موجزُ
تُرجِيهِ بحرٌ من علومك زاخِرُ
معانٍ كأطوارِ الشواغحِ جَزَلُ
به حِكْمُ مستبطلاتِ غرائبِ
فلو عاشَ رَسْطاليسُ كان لهُ بها
فيا واحدَ الفضلِ الذى العلمُ قُوَّةُ
لئن قصرتُ كُتبي فلا غرورُ أَنَّهُ
كثيرٌ وأفانُ البحارِ تردُّها

(١) ديوانه ص ٢٦٦ .

بحارٍ بأحكام الرياح فإنها مفاتيح في أبوابهن وأغلق
ومن لي بأن أحظى إليك بنظرة فيسكن يَفْلَق ، ويرقاً مُهْرَق

وهي قصيدة تنبض بما كان بين الشعاعين من ود وميثاق .

ولظافر في ديوانه موشحات ، لعله عاجلها في محاولات أولى ليحرب هذا اللون الوافد من النظم وربما تعرف عليه من ابن أبي الصلت الوافد من بلاد الأندلس ، أو غيره ممن التقى بهم بالإسكندرية والفسطاط والقاهرة وكانوا كثرا لي أيامه ومن قبله .

فمن موشحة قوله (١) :

نفر لاح	يستأثر الأرواح	لما فاح	ما الحمر ؟ ما التفاح
	أجاني		ذا التاكه الجاني
	أنساني		نظرة إنساني
	أنساني		طير بأفاني
	أحياني		في بعض أحياني
لما صاح	ما خلته ياصاح	للأرواح	ذا نشوة من راح
	قلبي مال		فيه إلى الآمال
	مالي حال		يا قوم لما حال
	لولا الحال		ما كنت إلا حال
	لما غال		قلبي فصيرى غال
ذا المزاح	عابته مازاح	والإصلاح	أن أترك الإصلاح
	أعلى لي		موقى بأعلال
	أوصالي		نهران أوصالي
	بل بالي		أولسى يلبالي
	ياحالي		أنظر لي حال
قد ساح من مقلي ساح		ذو إقصاح	بالسر ، بالإفصاح
	بلر بان		في مثل خوط البان
	وجه زان		قد كعود زان
	فالإخوان		في اللوم لي خوان
	والعينان		لما جفا عيان

جسم راح يلميه لس الراح لما لاح مُ احتفل باللاح

يا فتاك يا فتاك بالقتل من أفتاك

ما أسراك ما أسراك ليلا إلى أسراك

ما أحلاك ما أحلاك سباحان من أحلاك

ما أسناك ما أسناك وجهها وما أسناك

كالصباح نورا، بل الإصباح كم ارتاح للقرب لوترتاح

ونلاحظ على هذا الموشح أنه مركب القفل ، ولم يلتزم الخرجة في آخره ونظامها على عادة أكثر الوشاحين الأندلسيين ومن سار على نهجهم ، وهو غير معرب في معظمه ، أو لا يلتزم الإعراب ، يعتمد فيه إلى صنة الجناس في القفل والغصن ، ويربط في الغصن بين جناس أول البيت وقافيته ... فهو يمزج فنى التوشيع والجناس وإن جعل صدر الغصن أقصر من عجزه .

وله موشحة أخرى تجارى فيها صنعته هنا .

وسار على المتوال يقول . فيها^(١) :

يلاح في صمر كالسمر مهلافان صبرى كالصبر

لم تغمض مذ جفانى أجنانى

وصار دمعى شانى فى شانى

والحب مذ بلانى أبلانى

فالقفل متعدد البناء ويجرى على نفس النهج في قفل الموشح الأول مع اختلاف القافية بالطبع لكن الأوزان والتفعيلات واحدة ، والتغير في الغصن إذ يبدأ على عكس الموشح السابق بالمقطع الأطول فيجعله صدر البيت ويجعل المقطع الصغير من كلمة واحدة مجانسة لآخر كلمة في المقطع الأول وهكذا في بقية الأغصان مع تغير القوافي ... ويزيد في هذا الموشح أنه يأتي بخرجة محكمة على تقليد الوشاحين في التمهيد للخرجة في آخر قفل .

يقول في الغصن الأخير بهذا الموشح :

أنظر لسوء حالى يا حالى

ملككتنى بخلالى يا خالى

ها فاسمع مقالى يا قالى

دق عليك كالشعر موشع يزهر كالزهر

فجاء بالخرجة القفل الأخير ، ومهد لها في البيت الأخير من الغصن بقوله
« ها فاسمع مقالى يا قائل » .

وبعد فإن نظم ظافر في القصيد هو عماد فنه الأول ، وإن حاول الموشح
وكان له من النثر في الرسائل والمقامة محولات كذلك على ما سنورده بعد
قليل .

وكما رأينا فإن شعره جيد بصورة عامة ، ترتفع شاعريته في الحنين والغربة
وتذكر وطنه الإسكندرية ووصف مجاليها ، وأيام صباه ، وصبوته ، وأماكن
طرحه وفضوه على الخليج وقرق رمال الشاطئ ، وقرب السورى ، والظاهرية
وما إلى ذلك مما كرر ذكره من معالم النهر .

وبناء القصيدة عنده متغير ، فهو يعتمد أحياناً في مديحة إلى البناء التقليدى
حيث يبدأ بالغزل ويتبعه الرحلة في أفراد من القصائد ، ثم يجيء بالمدح ، لكنه
أحياناً يبدأ مديحة للخلفاء والوزراء والأعيان من الأمراء والولاة والقادة بالموضوع
مباشرة عن طريق الاشادة بالمدح كأن يقول في الأمير القائد أبى عبد الله
محمد بن أبى شجاع فاتك :

رجاؤك في نيل السعادة باب وما دون من ينى نذاك حجاب

ولغته الشعرية ومصطلحة التعبير ، وقواله التركيبية كلها من تراث
الشعر القديم ، ونحس في شعره بمحفوظه الواسع من هذا الشعر . يستوحيه
معانيه في كل موضوع ، فتراه في المدح يرتاد أبا تمام والبحترى والمتنى ، وفي
الوصف أبا نواس ومسلم بن الوليد وابن الرومى ، ويعتمد كثيراً على أبى نواس
كلما طرق موضوع الخمر والشراب ، أو يتحدث عن الدبر ، وما يلقاه فيه ،
ومن يحل به من الرهبان والشماسيس . أنظر إلى قوله^(١) :

قم نصطليخ عند نقرات الثواقيس واشرب على حُسن ألحان الشماسيس
ويولع بالجناس أحياناً ، ويسوقه في تراكيب مُتقابلة ، أو مترادفة كصنعة
حبيب كقوله :

فدبرُ شهوان مشهور الجمال على ما فيه من عظيم تقيديس وتكيسيس

(١) ديوانه ص ٣٣٨ .

وكمثوله يقلد إسراف أُنّى تمام والمتنى أحيانا :
سقى العهد عهداً منك عمرَ عهدى ، عهد لا يضيع وميثاق
ويشبه ما جرى فيه المتنى حياء في هذا البناء المتجانس المعبى في قوله :
وقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيش كلهن قلاقل
ويُردّد في بعض ألفاظه من ألفاظ القرآن والحديث ، لكنه غير مكرر ، كما
يُردد بعض ألفاظ الحضارة ، وأسماء الفلاسفة كأرسطاليس .
وتراه يعمد إلى التشبيه ، فيحلّوله في الوصف استخدامه ، في صور متتابعة
كما يلجأ إلى الإستعارة والكنية ، كقوله :

آلهما بالفر هل لك عودة إلى حافظ للعهد لم يفتقر
وهل أتمل من نسيمك سحرة يصفح مظلول النبات المنور
وأرقل في ثوبى صبا وصباية وأسحب ذئلى مشية المتنجس
ودمع الندى في وجنة الورد حائر كجام عقيق تحت درّ منثر
ونور الأفاج العضر يحكي إذا بدا لبسم خلود عن شبيب مؤثر
كان يفاض الماء في كل جلول إذا لاح في غصن من السروض المحضر
غلالة شرب ضمها فوق لابس رشيق قباء أخضر لم تزرر

* * *

كان غصون المائسات رواقص تثنت على إيقاع دُف ويزهر
وخيالاته مستمدة من جوه العالم ، ومن يخته التى طوّف في جنباتها
بالإسكندرية والقاهرة ، وتراه يشبه كثيراً بأشياء من مكتسبات حضارة
عصره ، وآنية القصور وأدواتها . وللبحر في صوره وخيالاته نصيب ، كذلك
للليل ، والنار والفحم ، وكلها في الجديد من صوره فضلاً عما أعاد عرضه من
الصور التقليدية .

نثر ظافر الحداد

ولظافر نثر جميل اللفظ والعبارة ، حسن المعاني ، شبيه بشعره . كتب إلى صديق له يقول من رسالة^(١) .

« وصلت رقعته — أدام الله رفعتَه — مضمّنة من خطه ولفظه ما كان به قبل اليوم كمال الأنس ، وقوام النفس ، مذكرة ودادا قد درّس ، وحظاً فيه قد تمس لا لقلّة وفاء مني ، ولا لجفاء صرّ عني ، لكن أنخلقته أخلاقه القيحة ، وأهلمته عدم مودّته الصّحيحة . وفي ذلك أقول متشاكلاً :

لا تشككون إليّ وجئداً . بعثما هذا البذي جرّث عليك بهذا

وأظنه لما أنهج قشيبه ، وصوّح رطيبه ، أخذ يلاطفني بزخارف مكاتبه ، وأما حيل مدهنته لكي يعمد ما مضى ، أو يرجع ما قد انقضى ، وهيهات هيهات أن يعمد ما فات ، فيحقّ الإسلام تأمن ترك السلام . والسلام » .

وله مقامة يقول فيها^(٢) : « أصبحت ذات يوم في منزلي ، وقد كل بنائي وجنائي ، ولساني وإنساني من الدّاب في الطلب ، والإكباب على الكتاب ، ومتابعة المراجعة في النسخ والمطالعة ، بين معنى أحكمه أو لفظ أنظمه ، أو يحط أرقمه ، فتأثقت النفس إلى الإحماض بمفاكهة أدب والارتياض بمذاكرة لبيب .

وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يقرع ، فقلت له : ما الشأن ؟ فقال : جماعة من الإخوان ، منهم فلان وفلان . فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رقيق ، وشقيق شقيق ، وقد اختلفت بينهم المواردة ، واتّفت منهم المقاصد ، فكاثروا كسيهم الثّبع إذا سدها النزغ ، فوافّت البرجاس ، ولم تحط القرطاس . فقلت : ويحك ! عجل بفتح الباب ، وأذن للأخباب ، فهم كزحة النفس وثمرّة الأنس .

ثم استهنّضني السرور إلى تلقّيم البشر والجور ، وقلت لهم : ما نظم لي هذا العقد إلا الجبد ولا تتم لي هذه الإرادة إلا السعادة . ثم أنشدتهم من

ساعتي :

(١) ديوانه ٢٣٥ .

(٢) ديوانه ٢٤٩ .

خُلِقُوا وَخُلِقُوا وَشَرَفُوا	يا سادة قد كملوا
على الذى كان اقترف	أظن دهرى ناديا
عندى قتاب واعترف	رائى عظيم ذنبه
كفارة لما سلف	وقد حبلنى بكلم
أهديت من هذه الشحف	ولو ترى مقدار ما
ومات غيظا وأسف	لاستقصت قوئله

ثم رقمنا برود المحاضرة ، بالحكايات المختصرة ، ونظمتها عقود المذاكرة
بمعاني الآيات المبتكرة ، كما قيل :

حديث إذا تم استعيد كائه . لذادة عذب الماء في فم صابم

فما هو إلا أن استقت الآذان مُجاجات جرياله ، وترشفت الأذهان
مُجاجات سلساله إذا الغلام يُومى إلى بخفيف الغمز ، ويُنجى إلى بخفى
الرمز ، فخرجت من بينهم خُروج الحوت من البحر في الشبك ، والطبي من
الرياض في الشرك . فقلت له : ويا مالك ! مالك ؟ وما غير حالك ؟ دع ناظرى
يرتفع في هذى الرياض ، وخاطرى يكرع من هذى الجياض فاستدنانى إلى
الدليليز ، وأسر إلى بلفظ وجيز . وقال : يا مولائى ، ما عندنا اليوم للإنفاق
إلا الإملاق ، وما نُضيف به الناس إلا الإفلاس ، فدبر عما يقترض ، أو يُباع
من العرض ، إلا إن عوئتم على الصيام ، فلا كلام .

فبينما نحن نتجادب في الوسيلة ، ونتعامل في إعمال الجيلة ، وإذا بالباب قد
قُرع فقلت له : أجب ، لعله ضيف مُنتاب بعين الأصحاب على أكل ذلك .

الطعام البائر ، والمأكول الحاضر . فخرج وجلا ثم جاء باسمنا سجدا ،
وقال : يا ملاى ! رسول صاحبنا الشواء الذى خلصناه بالأس من تلك
الورطة ، واتقذناه من تلك الضفطة ، واستخرجناه من حبس الشرطة ، ومعه
سطل به جوداية^(١) يجذب الأنف أرجها ، ويعجب النفس نهجها ، عطرية
الأنفاس ، هشة بين الضراس ، تتبرج من حسنها ، وتترجرج في دهرها ،
تحفها علة من الرغفان ، زاهرات الألوان ، صافية تقور ، ببخار التنور ،
كانها أوجه الخرائد البيض ، إذا أحجلها التصيل والتعضيض .

(١) الجوداية طعام جدد من سكر وزر وحبه .

قلت : ويحك بالكع ! ما أقبح ما صنع ، وأفضح ما بكع ^(١) ، أف لهذا الخلق ! ، أنبيع جاهنا بيع الخلق ؟ اردد على هذا السفساف متاعه ، ونزهننا عن هذه الشناعة .

فقال : يا مولاي ! ، أما ما ذهبت إليه ، وعولت عليه فهو الذى تقتضيه المروعة ، وترفضيه الفتوة وتعقده الهمم الشريفة ، وتتقده الشيم الطريفة ، لكن إفلات ما تعصل ، وفوات ما توصل مع ما نحن فيه من حضور الضيفان ، وقصور الإمكان ، وفوات هذه الفرصة أعظم غصة . بل من الرأي الصواب ، أن نجعل للرجل الخطاب ، وتأخذ ما حضر ، وتقبل ما يسر . فإذا أيسرنا وفيينا فكافأناه ، فنكون قد بلغنا أغراضنا ، وطهرنا أغراضنا . ونبرأ من وصمة ما أبدى بأضعاف ما أهدي :

فقلت : يا فريد ، فى الأمثال السائرة عن أئى عبيد : نجوع الحره ولا تأكل بتديها . قال : يا مولاي ! الضرورة تحسن ما قبح من هذه الصورة .

فقلت : اللهم غفرا ، فقد أبلت علرا . يا غلام ! اصرف الرسول ، وتسلم المأكول . فلما حاز الجذابة ، وأغلق بابه قال : يا مولاي : إنك عودت زوارنا الضيفان ، وطراق المكان من سماحتك ، إذا نزلوا بساحتك الأكل ، فلا أقل من البقل والكحل .

قلت : دعنى من الهذر . شرط الكرم لضيافة ما حضر . وما التبيح إلا مذهب الشحيح . قلم الإخوان للإخوان ، وجمله بالزعران ، وأحضر السطل ، واحذر المطل .

فلما حضرت المائدة ، وظهرت التحفة الوافدة ، ظن القوم أنه اهتمام قد قصيد وإكرام قد تضيد ، وصنيع محمل ، ودست مكمل ، فجعل كل منهم يأكل ويقصر ، لكى يتظهر ، إلى ما يصحب الجذائب فى الترائب من جملان الشراء وجامات الخلواء ، فتم لى بذلك لسان القراسية وإدمان السياسة ، فتراوئت فى زاوية البيت ، واستخرجت جملا من زجاج — كان عندى — من

(١) بكع استقبل بما يكره .

غشائه وكتب في سوائه^(١) على الاستيعجال ، بقضية الحال ، وقلته نظماً ،
وأثبتته فهماً :

يا سادة حازوا المتاصيب	والمراتب والتساب
وربصنوا بالمكرمات	من المعايير والمثالب
فاقوا البرية مثلاً	فاقت على الترب الكواكب
لا تحسبوا أنني جهلت	الحكم في سنن الجدائب
فلها شروط كل متر	ط شائع في الناس دائب
طوراً تكون بسكر	في اللوز تحت الدهن راسب
زهراء قد متر الرجا	ج شعاعها من كل جانب
والطيب يفتى سريها	بين الأبايد والأقارب
والرنية الوسطى يقد	مها تباينة وحاجب
مثل الحروف وجماعة ال	حلواء تأتي في العواقب
وأقل ما تأتي إذا	حضرت بعصيان أطايب
إلا جلابتاً فقد	جاءت مخالفة للمناهب

* * *

لم نتخذ في وقتها
فكلوا فليس بخازم
فلنا حديث باطن
ثم غطيت الجام ، وقلت للغلام : ويحك ! أكمل هذه الدعاية ، واجعل
الجام موضع الجودابة .

فلما كشف ما حجب ، وقرئ ما كتب ، وفهم القوم القريض ، وما فيه
من التصريح والتعريض ، استفزهم الضحك والطرب ، واستهزهم العجب
والعجب ، واستعاثوا السطّل واستجاثوا الأكل باسترسال وبشر صراح ،
وبشاشة الإرتياح للأرواح .

فلما أخذوا من الطعام حدّ الكفاية ، وأمدّ الثهاية ، وامتلأ جناني بهم

(١) الثراب الصدر .

نفسه مرسرة ، وإنساني بهم قربة ، قالوا . هات الأَشْنانَ الذي انفردت به المَجْذَابَة
صاحبا ، وإن ما يكن لها مناسبا

فما هو : إلا أن غسلوا أيديهم من أثر الزَّهْم^(١) ، حتى بادروا إلى القِرطاس
والقلم واستدركوا ما فات ، من إثبات الآيات ، وكرروا لفظها ، حتى اتقنوا
حفظها .

ثم رجعنا إلى حديث أعذب من ضم الخُلس . وثم النفس . فلم نشعر إلا
وذكاء قد ودعت الأفق ، وتفتحت بوردى الشفق ، ونصرفت النهار ،
وانصرف الزَّوَار ،

★ ★ ★

(١) الزَّهْم : اللُّهُم .

ابن مكنسة (أبو طاهر إسماعيل بن محمد (ت ٥٠٠ هـ)

شاعر مصري سكندري عاش في النصف الثاني للقرن الخامس الهجري في ظل خلافة المستنصر ، وتبخل المصادر بأخباره ، فقد ظلم في حياته شاعراً ، فلم يبلغ ما يستحق لأن الأفضل الجمالي الوزير الخطير غضب عليه واقضاه عن جنبه وظلم ميتاً لأن بعض ترجمته ضاع . وذكر تنفاً من حياته وشعره بعض من اتصلوا به أو نقلوا عنه ترحم له . فمن اتصل به في حياته وجالسه وأنشده شعره ، فنقل عنه الكاتب الأديب الشاعر المصري علي بن منجب الصيرفي كاتب الأفضل الجمالي ، فقد ذكر بعضاً من أخباره . وأحياناً من شعره في الأفضليات^(١) .

وأمية ابن أبي الصلت في الرسالة المصرية^(٢) ، كما نقل عماد الدين الخريدة عن أمية ، وعن كتاب جنان الجنان المفقود لابن الزبير وكتاب الحديقة لابن أبي الصلت^(٣) ، ونقل عنهما ابن شاعر في فوات الوفيات^(٤) ، وما يمكن معرفته عن الشاعر لا يزيد على أنه ولد وعاش جانباً من حياته بالإسكندرية والتقى فيها بجماعة من العلماء والأدباء والشعراء ، ثم انتقل إلى الفسطاط ، فاتصل ببعض أعيان المصريين ومدح أحدهم من كبار النصارى ورثاه وهو الخطير جد ابن ممتا .

قال ابن أبي الصلت : ومن شعراء مصر المشهورين أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ، مقتن في وشي جد القريض وهزله ، وضارب بسهم في رقيقه ونزله .

قال : وكان في ريعان شبتيه وعنفوان حدائته يعشق غلاماً من أبناء عسكرية المصريين يدعى عز الدولة فائق ، وهو الآن في عصر المستعلي والآمر

(١) راجع الأفضليات بتحقيق وليد قصاب طبع دمشق صفحات ٢٤ / ٦٩ . ٧٠ . ١٨٠ . ٢٣٤ . ٣١٠ ، ٣٧٩ .

(٢) ص ٤٣ وما بعدها طبع ضمن مجموعة رسائل بتحقيق عبد السلام هارون .

(٣) الخريدة القسم للمصرى ٢ / ٢٠٣ بتحقيق د . أحمد أمين وشوقي ضيف .

(٤) فوات الوفيات ٢١٠١ بتحقيق د . إحسان عباس ونشر بيروت .

في النصف الثاني من القرن الخامس من رجال دولتها العلويين ، وأكابرها
المقدمين . قال أمية ولم يزل مقيماً على عشقه له ، وغرامه به إلى أن محاسنه
الشعر ، وغير معالمة الدهر . ولم يزل معز الدولة هذا متعهداً له محسناً إليه ،
مشتتلاً عليه إلى أن فرق الدهر بينهما .

قال : وكان في أيام أمير الجيوش بدر الجمالي منقطعاً إلى عامل من النصارى
يعرف بأبي مليح ، وأكثر أشعاره فيه ، فلما انتقل الأمر إلى الأفضل بتولية
الوزارة خلفاً لأبيه . تعرض لامتناعه ، فلم يقبله ، ولم يقبل عليه وكان سبب
حرمانه ما سبق من مدحه لأبي مليح ، ومراثيه له ميتاً ، ولا سيما قوله :

طُوِثَ سَمَاءُ الْمَكْرُمَاتِ ، وَكُوِّرَتْ شِمْسُ الْمَدِينِ
مَا كَانَ بِالْكَبِيرِ الدَّنَى ——— سَيِّئاً مِنَ الرِّجَالِ ، وَلَا الشَّحِيحِ
كَفَرَ النَّصَارَى بَعْدَمَا حَقَّقُوا بِهِ دِينَ الْمَسِيحِ

فلما إنصرف عنه الأفضل ، كفله عز الدولة فائق ، وقام بحاله إلى أن
مات . ويذكر العماد أن ابن مكنسة كتب إلى الأفضل يقول :

مِثْلِي بِمِصْرَ وَأَنْتَ مَلِكٌ يَقَالُ ذَا شَاعَرَ فَقِيرٌ
عَطَاؤُكَ الشَّمْسُ لَيْسَ يَخْفَى وَإِنَّمَا حِطِّي الضَّرِيرُ

وذكر العماد أنه نقل عن رجل التقى به في شيراز سنة خمس وخمسين
وخمسمائة من أشراف مصر يقال له فخر العرب أحمد بن حيدرة الحسني
الزبيدي المدني الأصل المصري المولد ، كان يرتاض الشعر وله شعر حسن كما
يقول ، فأخبره عن ابن مكنسة قائلاً أنه كان يلتقي به بالفسطاط بمصر قال :
وكنت جالساً معه على دكان أبي عبد الله الكتيبي بمصر ، فمر بنا غلام في ثوب
أزرق ، فقال ابن مكنسة فيه بديهاً :

مُرْ بِنَا فِي ثَوْبِهِ الْأَزْرَقِ كَبِيرٌ تَمَّ لَاحٌ فِي الْمَشْرِقِ
لَا بَارِكَ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ رَأَى حَسَنَ عِلَالِيهِ وَلَمْ يُعْشَقِ

ويبدو من حديث ابن أبي الصلت عنه واختياره كثيراً من شعره ، أن صلة
ما عقدت بينهما في أثناء وجود أمية بمصر أول مره ، وظلت هذه العلاقة قوية

حتى عاد أمية مرة ثانية إلى مصر فلتقاه ابن مكسة مهتاً بأبيات بعد عود الأول من المهديّة هي (١).

وما طائرُ قصُ الزمانُ جناحهُ وأعدَمَ وكرّاً ، وأقَدَه إلفا
تذكرُ فرحاً بين أفتانٍ بانيه خوافي الخوافي ما يطرنُ به ضعفا
إذا التحفُ الظلماءُ ناجي هُمومهُ بترجيع نوح كاد من دِقّة يحقّي
بأشفقٍ مِنّي مذ أطاحت بك الثوى هوائية مائية تسبق الطرُفا
تولّت وفيها منك ما لو أقيسهُ بما هي فيه كان في فضله أوفى

ومعاني الأبيات تشير إلى قُوّة وحرارة العلاقة بين الشاعرين .

وكان على صلة بعلامة الإسكندرية الإمام الحافظ السلفي ، ولعل ذلك كان في آخر القرن الخامس وأول السادس ، وهو ما يعني أن تلك الصلة لم تحدث في بواكير حياته بالإسكندرية ، فالحافظ لم يكن هناك آنذاك .

وصلة ابن مكسة بالحافظ ، تجمعهم بالشاعر السكندري الآخر في هذا العصر وهو ظافر الحداد ، وقد تعاصر الشاعران بالإسكندرية ومصر ، وربما التقيا بالفسطاط ، أو جمعتما معا مجالس الأدباء ، فقد تحدث على بن منجب الصبري عن كليهما في الأفضليات .

ويمجب ابن منجب بابن مكسة وينقل بعض شعره في كتابه المذكور .
ويبدو مما جاء في بعض شعره أنه سافر إلى الشام ، مصاحباً لصاحبه من قادة المعسكر وأنه أوفى على الحسين من العمر .

ومما وقع إلينا من شعره في الكتب التي أشرنا إليها قليل نستطيع أن نلقى عليه نظرة عامة ، ليست فاحصة ولا أخيرة ، وإنما هي مجرد ملامح تراءت لنا من خلال تلك المقطعات والأبيات المفرقة ، ولم نعثر فيها على قصيدة مكتملة .

ومعظم شعره الذي اختاره أمية ، ونقل عنه العماد يدور في الغزل بنوعيه ، وفي الخمر والشراب ، وبعضه في موضوعات تتصل بالمديح والإخوانيات ، والهجاء ، وروياً أبياتاً في الوصف ، وبعض شعونه الخاصة ، كأبياته التي قالها في منزله الذي ضاق به ، وبعض أبيات في التحامق والعبث .

(١) الخريدة ٢ / ٢١٥ .

وشعره الغزلى قريب المعانى معتادها ، تتردد فيه بعض المعانى التقليدية ،
فيحتذى شعر من سبقه ، ويشير العماد إلى مأخذهم .

قال العماد^(١) : وله من قصيدة :

وعسكرى أبناً جيشاً تلقاه يلقاك بكلّ السلاح
حاجبة قوسٍ وأجفائه نبّل، وعطفاه تثنى الرماح
راح وفعل الراح فيه كا يفعل بالعصن نسيب الرياح

أغار في هذا البيت على خالد الكاتب في قوله :

رأث منه عيني منظرين كما رأث من الشمس والبدريشير على الأرض
عشية حيائي بورٍد كأنه خلود أضيفت بعضهن إلى بعض
وناولني كاملاً كان يزاجها دموعي لئاصد عن ثقلني غمضي
وراح وفعل الراح في حركاته كيفعل نسيب الرياح في العصن الغض

وله من أبيات يمزج معانى الخمر والغزل^(٢) :

يا من صفا ماء النعيم بوجهه كم عشية كدرتها بصفايه
وزجاجة قابلتها فتيسمت عن ثغره ورضايه وسنايه
مزجت فلانت مثلما مزجت بها أخلاقه، فأطاع بعد إياه
مازلت أرشفتها ويغضب ريقه لما جعلت الخمر من نظرائه

ويقول في الطيف :

بنفسى خيال زلر وهو قريب أحقاً عليه في المتائم رقيب
سرى وغدير الليل طام جمائه وللشهب فيه طفوة ورُسوب
وقد أعجلته للصباح التفاتة فلم تلك إلا خفقة وهبوب
ولولاكم لم أرض أن تستقرى زخارف حلم صدقهن كدروب
وكم لامة أيقظتم نفسى بها لها بين أحناء الضلوع لدوب
تجاوز فيها بين هام وتراجع لعيني وقلبي جدول ولهب

ومنها :

(١) بحرية القصر ٢/ ٢٠٦ .

(٢) الحريدة ٢/ ٢٠٧ .

أَمْسَتْكُمْ رِيحُ الصَّبَا، إِنَّ نَشْرَهَا إِذَا هُبَّ مِنْ بَنَفَائِكُمْ لِيُطِيبُ
وَيُشْنِي غَلِيلَ أَنْ تَمُرَ مَرِيضَةٌ وَيُرِدَّ غَلِيلِي بِالْعَلِيلِ عَجِيبٌ
ومن غزله الرقيق لفظاً ومعنى ، وإن أُجْرِى فِيهِ مَعَانِي الْقَدَمَاءِ بِتَصْرِفٍ فِي
الصِّيَاغَةِ قَوْلُهُ : (١)

مَدَى صَبْرِي وَإِنْ وَصَلُوا قَصِيرٌ	وَأَنْجَمُ لَيْلٍ شَوْقٌ مَا تُعَوِّرُ
وَفِي أَسْرِ الْغَرَامِ إِذَا اسْتَقْلُوا	فَوَادٍ كَيْفَمَا سَارُوا يَسِرُ
غَزَالُ الرَّمْلِ سَالِفَةٌ وَعَيْنَا	وَلَكِنْ لِحَظَةِ أَسَدٍ هَاصُورُ
وَهَلْ سَوْدُ الْعَيُونِ سِوَى أَسْوَدٍ	تَأْمَلُ كَيْفَ يَفْتَرِسُ الْقُتُورُ
وَقَفْنَا وَالْمَوَادِجُ مَشْمَسَاتٌ	وَفِي الْأَحْشَاءِ بِالْهَجْرِ الْهَجِيرُ
كَأَنَّ لِكُلِّ كَوْرٍ فِي فَوَادِي	إِذَا أَذْكَى لَظَى الْأَشْوَاقِ كَبِيرُ

ففي هذه الأبيات تنجلي بعض نماذج صنعة الشعرية ، فهو كما أشرت بعيد
صييغة بعض المعاني السابقة ، والجارية في الغزل ، فيأخذ معنى قتل العيون
الذي صاغه جرير في بيته المعروف :

إِن الْعَيُونِ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا (٢)
فِيصَوِّغُهُ صِيَاغَةً أَقْلَ لَفْظاً فَيَقُولُ : (وَلَكِنْ لِحَظَةِ أَسَدٍ هَاصُورٌ) وَيُشَمِّهُ بِقَوْلِهِ :
وَهَلْ سَوْدُ الْعَيُونِ سِوَى أَسْوَدٍ تَأْمَلُ كَيْفَ يَفْتَرِسُ الْقُتُورُ

ويوظف المعنى للملازمة الصنعة اللفظية من الجناس والطباق في هذا البيت
السابق ، وفي قوله في البيتين اللذين يليانه ، وهو مغرَى بِصَنَعَةِ الْجَنَاسِ
وَالطَّبَاقِ ، لَكِنَّهُ يَأْتِي بِهِمَا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ يَثْقُلُ الْكَلَامُ .

وكثيره من شعراء العصر والمصر يستخدم قاموس الشعر من اللفظ القديم ،
كما جاء في قوله (٣) :

قُلْ لِأَيَّامِنَا الَّتِي قَدْ تَقَضَّتْ بِالْغَضَا هَلْ لَنَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ
أُكْرَى الْبَانُ فِي رِيَاظِكَ يَنَادُ إِذَا مَسَّهُ النَّسِيمُ الْعَلِيلُ
أَمْ تُرَى الشَّادِنُ الْغَرِيرُ لَهُ يَسِيرُ كَشَيْبِكَ مَسْرَحٌ وَمَقِيلُ

(١) الخريدة ٢ / ٢٠٧ .

(٢) خريدة ٢ / ٢٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢١١ .

مَنْ بَوَّعَائِهَا الْخَمَائِلَ تُجْلَى
إِنْ يَكُنْ عَنْكَ عَزٌّ صَبْرٌ فَصَبْرًا
وَإِذَا بَانَ عَنْكَ مِنْ كُنْتِ تَهْوَا
وَمَا قَالَ فِي جَوَابِ رِسَالَةٍ :

أَشْمَالَ تَمَسُّهَا أَمْ شَمُولُ
إِنْ عُمَرَ الْبُكَاءُ فَيْكَ طَوِيلُ
هُ، فَغَيْرُ الْجَمِيلِ. صَبْرٌ جَمِيلُ
فَنَاهِيكَ مِنْ جَوْهَرٍ مُلْتَقَطٍ
مِنْ الْخَطِّ مَطْلُولَةٍ بِالْفَقْطِ

نَشَرْتُ كِتَابَكَ عِنْدَ الْوُرُودِ
وَلَمْ أَرِ مِنْ قَبْلِهِ رَوْضَةٌ
وَقَالَ فِي الْمَعْنَى كَذَلِكَ :

أَهْلًا بِهَا جَنَّةٌ أَهْدَتْ غَارَ نُهَى
مَا دَارَ فِي تَخْلِيدِي لَوْلَا كِتَابُكُمْ
وَمِنْ شِعْرِهِ الْمُتَعَلِّقُ بِأَحْوَالِهِ وَحَيَاتِهِ مَا قَالَ حِينَ دُعِيَ لِلْسَفَرِ إِلَى الشَّامِ مَعَ
أَحَدِ الْقَوَادِمِ مِنْ أَمْرَاءِ الْعَسْكَرِ لِقِتَالِ الْغَزَا (الْأَكْرَادِ) . قَالَ (١) :

غَيْرُ عَاصِرٍ عَلَيْكَ تَقْوِيمُ عُودِي
قَلَّ لِمَوْلَايَ إِذْ دَعَايَ لِأَمْرِ
ضُمَّتْ جِيَّتِي ، وَقَلَّ غَنَائِي
أَنَا مَالِي وَلِلشَّامِ وَإِلَيَّ
بَلَدُ جَنَّتِهِ عَفَارِيَةُ الْعُزِّ
وَالْجَفَارُ الَّتِي تَقُولُ إِذَا مَا
وَكَانَ فِي عَلَى بَعِيرٍ تُرَانِي
أَسْوَدُ الْوَجْهِ نَاطِرًا فِي أُمُورِ
وَإِذَا قِيلَ فِي غَدٍ يَلْتَقِي الثَّانِي
حِينَ لَا نَظِيرِي تَرَاهُ حَدِيدًا
حِينَ لَا يَبْقَى لِسَانِي وَلَا يُثَرِّسُ
إِنْ رَأَيْتُ إِذَا تُسَدَّدُ نَحْوِي
وَإِذَا مَا قُتِلْتُ كُنْتُ خَلِيفًا
فَأَقْلَبْنِي عِثَارَهَا وَابِقٌ لِلْحَمْدِ

فَانْقَضَى مِنْ مَلَامَتِي أَوْ فَرِيدِي
قَمْتُ فِيهِ لَهُ مَقَامُ الْقَبِيدِ
وَدَثْتُ غَايَتِي ، وَرَثْتُ جَلِيدِي
الْأَرَى نَارَ حَرْبِهَا فِي وَقُودِ
وَأَرْضُ وَحُوشِهَا مِنْ أَسْوَدِ
يَقِيلُ هَلَا أَمْتَلَاتِ؟. هَلْ مِنْ مَزِيدِ
آخِرَ النَّاسِ فِي لَفِيفِ الْحَشُودِ
مُعْضَلَاتٍ، مِنْ الْحَوَادِثِ سُودِ
سُ، فَلَا تُشَسِّ، فَهَوِيْتُ الْقَصِيدِ
حِينَ يَلُوكُ لَهُ يَرِيقُ الْحَدِيدِ
سِي زِمَامَ الْبَعِيرِ عَنِّي تَشِيدِي
نَسَهُمُ رَامَ لَغِيرَ رَأْيِ سَبِيدِ
بَلْخَوْلِي جَهَنَّمَا فِي خُلُودِ
وَكَبَبِ الْعِدَاوَةِ غَيْظِ الْحَوْدِ

(١) الرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت ص ٥٠ - ٥١ .

ويبدو من آياته خلعه من الذهاب للحرب ، فهذه ليست حرفته ، إنما حرفته الكلمة والقلم ، ويخشى رهب السيف ، ورهج المعارك ، على أن كلامه في هذه الأبيات يكشف عن روح مرح وفكاهة ، ويبدو أن الشاعر كان على قدر من الدعاية ، يكشف عنها أحيانا في أبيات مفردة تفلت منه في بعض القصائد الجادة ، أو قد يخصها بأبيات وقصائد ذوات عدد . كقوله يصف قبح منزله وضيقة^(١) :

لَيْ يَيْتْ كَأَنَّهُ يَيْتْ شَيْغَرِ	لَا بِنِ حِجَّاجٍ مِنْ قَصِيدِ سَخِيفِ
ضَايِقْتَنِي بِنَاتٍ وَرَدَانٍ حَتَّى	أَنَا فِيهِ كَفَّارَةٌ فِي كَيْفِ
أَيْنَ لِلْعَنْكَبُوتِ يَيْتْ ضَعِيفِ	مِثْلُهُ ، وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِي الضَّعِيفِ
وَإِذَا هُبْ فِيهِ رِيحُ السَّرَاوِيلِ	فَسَلَّمَ عَلَى اللَّخَى وَالْأَنْوِفِ
بَقْعَةٌ صَدَّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا	فَأَنَا مُدَّ سَكْنَتُهَا فِي الْكُسُوفِ
وَهُوَ لَوْ كَانَ بَيْنَ حَجَّيْ وَنُسْكِي	صَدَّ فِي بُغْضِهِ عَنِ التَّطْوِيفِ
أَنْتَ وَسَعَتْ يَيْتَ مَالِي فَوْسَعٌ	مِثْرَى فَهُوَ مِثْرَى اللَّضِيفِ
وَأَجْرَتِي مِنَ الضَّنَى وَأَجْرَتِي مِنْ	سَكَتِكَ فِي حُسْنِ خُلُقِكَ الْمَأْلُوفِ

وحين نقرأ الأبيات نحسُّ بنفسِ ابن الرُّومى ، ومحاولة لتأثر ابن حجاج^(٢) ، وهو يأخذ بنهجه في بعض شعره الذى يتحامق فيه . كقوله :

أَنَا الَّذِي حَدَّثْتُكُمْ	عَنْهُ أَبُو الشَّمَقْمَقِ
وَقَالَ عَنِّي إِيَّايَ	كَتُّ نَدِيمِ الْمُتَقَيِّ
وَكُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ	مِنْ رُمَاةِ الْبُنْدُقِ
حَتَّى مَتَى أَبْقَى كَلَامَا	تَيْسًا طَوِيلَ الْعُنُقِ
بِلَحِيَةٍ مُبْلَاةٍ	وَشَارِبٍ مُحَلَّقِ
يَا لَيْتَهَا قَدْ خُلِقْتُ	مِنْ وَجْهِ شَيْخٍ خُلِقِ

وقال في أخرى على الطريقة نفسها^(٣) :

عَشْتُ خَمْسِينَ بَلْ تَزِيدُ رَقِيعًا كَمَا تَرَى

(١) الحريدة ٢ / ٢١١ ، وابن حجاج شاعر بغدادى من القرن الرابع كان يتحامق ومكر من السفخ في شعره .

(٢) ابن حجاج شاعر بغدادى من القرن الرابع كان يتحامق ومكر من السفخ في شعره .

(٣) الحريدة ٢ / ٢١٤ .

وَكَذَا الْمَلَحْ سَكْرًا	أَحْسَبُ الْمَقْلَ بِنُفْعًا
شَيْءٌ مَسْدُورًا	وَأُظَنُّ الطَّوِيلَ مِنْ كُلِّ
ت ، وَعَقْلِي إِلَى وَرَا	قَدْ كَبِرَ بِرٍ بِرٍ بِرٍ
أَرَاهُ تَغْيِيرًا	عَجَبًا كَيْفَ كُلِّ شَيْءٍ
كُلِّ إِلَّا مَقْشَرًا	لَا أَرَى الْبَيْضَ صَارِيًا
ر ، زَجَاجَ تَكْسَرًا	وَإِذَا دَقَّ بِالْحِجَا

وهذا نهج من الشعر درج عليه جماعة من الشعراء قديماً وفي عصر الشاعر ، أما قديماً ، فأبو الشمقمق وأبو دلالة ، وابن الرومي ، وابن سكرة وابن الحجاج ، وأما في عصر الشاعر أو قبله بقليل فالرعمق ، والواساني . وظل هذا النهج بعد ذلك ، فأخذ به بعض شعراء المصريين في القرون التالية ، مثل ابن دانيال والجزار ونقف مع الشاعر وقفةً في أبيات له يصف رمداً طال بعينه ، فقال :

وما لليلي ما شقهُ الفلقُ	ما لنهارى كآته القسُ
تفرق في ما فيها وتحترق	وما لعيني أرى بها عجباً
وتستغيث الجفون والخلقُ	ولي طبيب تشكو مروءته
مر بعيني وكحلُّه الأرقُ	شيفاهُ تطردُ الشفاءَ إذا
وقائدى البصبي والخلقُ	وإن تهادى على زرتكم
جفون عيني كأنها الشفقُ	لم يبق من صبيغة الرواء يوى
لا بهد منها وتركها تحرقُ	وفي من الداء ما حكايته
هذا ، وهناك ليس ينطقُ	طبعي ووجه البخيل في قرن
قد نفذ العينُ فيك والورقُ	يا عين حثام أني باكية

وللأدباء والنقاد المعاصرين واللاحقين آراء في شعر ابن مكنسة بين مقرر ومقرظ ومتقد أو مؤاخذ . ولولهم ممن أعجب بشعره صديقه الشاعر المغربي أمية ابن أبي الصلت ، وقد أورد مختارات كما قلنا من شعره ، واختاره ، ونوه به من بين شعراء عصره ممن يقيم بالفسطاط في آخريات القرن الخامس كذلك نقل ابن الصيرفي على بن منجب بعضاً من شعره في الأفضليات مختاراً ، أو معجباً

بعض معانيه ، أو سرعة بديته . فمما أعجب به قال^(١) : وعلى ذكر العين
والخذ فقد أبدع ابن مكنسة في قوله :

لم أرَ قبلَ شعره ووجهه ليلاً على صُبحِ نهارٍ عَسَمَا
والسكر في وجته وطرفه يفتحُ وردًا ويغضُّ نرجسًا

على أن من تشبيهاته التي ابتكرها قوله من أبيات في الخمر :
ما لآخ وجهك يُجتَلَى في مجلس إلاَّ وجلَّى عنه وجهها أربدا
يَكُرُّ إذا إفترعتْ أخذتْ شعاعها يَبْدَى، وقلتُ لأهلها هذا الردى
وقال في تجديده للمعاني^(٢) :

« على أن ابن مكنسة ذكر الحجر الأسود غير مرصوف ، فلم يشكل المراد
فيه ، وسبب ذلك ما قرنه به رحمه إليه ، فقال من قصيدة أولها :
لمثل ذا اليوم كان السعد ينتظر

منها :

كأنك البيْتُ قد طافَ الحجيجُ به وفي ركائبك حَلَّ الركنُ والحجرُ
وعن بديته قال ابن الصيرفي^(٣) « وحدثني ابن مكنسة قال : حضرت
جنازة أبي الطائي المقرئ فرأيت من إعظام الناس له — وهو محمولٌ على
نعشه — ما لم يكن له منهم في حياته فقلت بديها :

أَرَى ولد الطائي أصبح يومة يُعَظَّمُهُ الأَقوامُ أَكثَرَ من أَمْسِ
وقد أَكْرَموه في اللماة تَراهُم يَظُنُّونَ أَنَّ الجِسمَ أَزْكَى من النَّفسِ

ومما وصلنا من شعر ابن مكنسة يمكننا القول بأنه شعر متوسط الشاعرية ،
يمزج فيه بين طريقة القدماء وطريقة المحدثين ، وتبدو في ألفاظه ومعانيه سمات
مصرية ، كالإيل إلى النكتة ، وروح الفكاهة ، والثورية في القول ، ورقة اللفظ
وعذوبة البناء مع صياغات ومفردات عامية .

* * *

(١) الأفضلية ١٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٠ .

الفصل الخامس
شعراء وافدون من المشرق
(في القرن الخامس)

- ١- التمامي: أبو الحسن علي بن محمد بن فهد (ت ٤١٦ سنة هـ)
- ٢- أبو الفتيان ابن حيوس (ت ٤٧٣ هـ)
- ٣- داعي الدعاة (ت سنة ٥٤٧ هـ)

(التهامي) أبو الحسن علي بن محمد بن فهد

(ت ٤١٦ هـ)

يقول الصفدي^(١) : مولده ومنشؤه باليمن وهو منسوب إلى تهامة، وتهامة هي الجزء الساحلي الجنوبي المهادي لشاطئ البحر الأحمر من ناحية الحجاز وفصل بين مرتفعات الحجاز والبحر ، وهو سهل زراعي في الجنوب منه ، ويقع شمالي اليمن ، وتصب إليه وديان سلسلة جبال السراة المتجهة إلى البحر غرباً . ومعظم سكانه من أصل يمني ، واختلطت بهم أصول غير يمنية من غرب الشمال ، وأشهر قبائله في العصر الجاهلي وصدر الإسلام بطون من أزد شنوة .

وأهم مدن تهامة نجران وجيزان ، ولسنا على يقين من أصل التهامي ، فهو من إحدى القبائل اليمنية ، أم أنه ينتمي إلى قبيلة مضرية تسكن بعض أطراف تهامة .

مولده :

وقد نسب النبي ﷺ إلى تهامة أيضاً مع أنه من مكة . على أية حال ، فإن هذه الإشارة إلى مولده ونشأته باليمن لم ترد إلا عند الصفدي ، والمراجع الأخرى تنسبه إلى الحجاز أو تهامة .

وطبيعي أن ينتقل إلى الحجاز ، ويعيش بعض الوقت في مدينتيه الكبيرتين مكة والمدينة حيث الأشراف العلويون من الحسينيين والحسينيين ، وكانوا يولون أمر الحجاز في أيام الدولة الفاطمية وقبلها ، وكانوا على جانب من الثروة والجاه .

واتصل التهامي في شبابه ببعض ممن كانت لهم الصلابة ، وإمارة الحجاز أو إمارة إحدى المدينتين .

وحياته في تهامة والحجاز تركت آثارها في شعره ، فهو يحن أبداً إلى للحجاز وأهله ، ويتذكر حبيبته الحجازية التي يرتحل إليه طيفها أينما كان في غربته . ويذكر تهامة في مدحيه لأحد رجالات بني عامر في الجزيرة من أرض العراق أو الشام وهو أبو الفتح المظفر بن عبد الجبار فيقول :

(١) الرواق ج ٢٢ ص ١١٦ .

لا يُطْمَعُنْكَ نور كوكب عامر فوراؤه قرب سنائه بعد سنائه
حتى سيف رجاله وهى القضا أشوى جراحاً من عيون نسائه
لله عزم من وراء تهامة نادى فثرت مليا لندائه

ولعلنا نزع من أن الشاعر قال هذه القصيدة في بواكير رحلاته من تهامة والحجاز إلى الشام ليتصل برجالات العصر من شيوخ ورؤساء القبائل العربية المستقرة في بادية الشام وبلاد الجزيرة الفراتية ، في ديار بكر وديار ربيعة ، ونعلم من أحداث تاريخ العصر أن بعض بطون قبائل مضر وعامر على وجه الخصوص كانت تتنافس فيما بينها ، وتتنافس غيرها من قبائل نجد كأسد وطى على الزعامة والنفوذ ، والفوز بقبسط وافر من الأرض في خلافة العباسيين التى توزعتها الخلافات والنزعات منذ القرن الرابع ، والخلافات بين الدليم والأتراك خاصة من أجل السيطرة على مقدرات الدولة الإسلامية .

وقد أذكرى هذه الخلافات ذلك التنافس المهر بين الخلائتين العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة .

ومهما يكن من الأمر فإن الشاعر في هذه المدحة قد ذكر هذا المملوح العامرى وتقرب إليه بنجد ، لأنه موطن قبيلة المملوح ، ومنازلنا الأولى قبل النزوح إلى أرض العراق والشام :

أهدى لنا في النوم نجداً كله يسوره وغصونه وظباهه

ويجد الفرصة سانحة وهو يمنح عامراً أن يلمح إلى ما أشتهرت به من ملاحه مسلّهم وأن عيونهم تجرح قلوب العشاق أكثر من سيف رجالم .

حتى سيف رجاله وهى القضا أشوى جراحاً من عيون نسائه
وإن كان وقعها أشد وأنكى .

وربما كان الشاعر قد أقام بالبحرين ردهاً من الزمن قبل مجيئه إلى الشام واتصاله بآل المفرج بالرملة وبعض زعماء القبائل في البادية ، ونعلم العلاقة بين قرامطة البحرين وقبائل الشام ، وآل المفرج خاصة ، فقد تعاون الجميع على حرب المعز لدين الله الفاطمى بعد مجيئه إلى مصر ، وحاصروا القاهرة ، لولا أن المعز استطاع بمكره وذهبه أن يفرق الحلفاء ويوهن عزيمتهم فينتصر عليهم .

خرج التهامي من بلاده تامة إذا قاصدا الشام أو العراق ، ومنحدرا إلى شاطئ الخليج يتجول هناك بين بعض الزعماء .

ويبدو أن الشاعر طوّف بأرض الجزيرة من العراق زمناً ، ولم يظفر هناك بباطل فولى وجهه جهة المشرق لعله يلقى ما يرجى ، ويعلم آنذاك أن المشرق يحفل بمفاجآت ، بين الطامعين مختلفي الجنسيات من فرس وترك وعرب ، كل يحاول أن ينال من غنيمة الخلافة وأرضها بقدر ما يملك من قوة ومقدرة على التآمر والمناورة ، والتحالف مع القوى الغالبة .

ولعل الشاعر لم يظفر في هذه الرحلة المشرقية بما كان يرجوه ، فولى وجهه مرة أخرى شطر الشام يسعى في أرجائه ، ويتنقل بين ربوعه وأصقاعه .

وحياة الشاعر غامضة لا تكاد تظفر منها بقبس يضيء لنا الطريق للتعرف على وقائعها لولا ما يمكننا استشعاره والاهتداء إليه من ثنايا شعره .

وسنحاول عن طريق الديوان أن نترسم خطاه ، ونقف على بعض من لقيهم من الأمراء ، والملوك والرؤساء في الجزيرة بتامة والحجاز وبادية الشام والشام وأرض الجزيرة بالعراق بديار ريعة ، وديار بكر والموصل وميافارقين ونصيبين وأمد .

كما سنحاول تتبع خطاه بالشام وبلادها وثغورها في دمشق وبيروت وطرابلس وصيدا وصور والرملة ، حتى ينتهي به المطاف إلى مصر والقاهرة فالسجن بخرانة البندود وموته بها مسموماً كما يُقال سنة ٤١٦ .

قال صاحب اللُمية^(١) : وحدثني محمد التجاني ، قال : حدثني أبو كامل نعيم بن مفرج الطائي أن التهامي هذا كان في ابتداء أمره من السوق ثم انقطع إلى بني الجراح يمتدحهم ويستعين بهم .

ويشهد على أنه كان في أول أمره من السوق كما جاء في عبارة الباخريزي قوله يمدح من اسمه الحميدى^(٢) .

(١) دمية القصر ١ / ١١٠ .

(٢) ديوانه ص ٤٠٨ .

ما أنت فاعله الغداة بشاعر رث الثياب مشعث القدمين
 قذافي طلب الملا وادى القرى والأرض من عدن إلى السدنين
 وإلى عمان وفارس ثم انتحى بالرى نحو جزيرة البحرين
 وأقام في شيراز سبعة أشهر وأثاب من كل بحف حنين
 ولعل هذه الأبيات ترسم خط الرحلة منه في بادىء أمره قبل اتصاله بآل
 المفرج إذا ما أخذنا في الاعتبار ترتيب الأماكن التي زارها في الأبيات وفق تعاقبها
 الزمني .

ويبدو من هذه الأبيات أنه لم يذكر الشام ، ولعل ذلك يوحي بأن ممدوحه
 الذي لقيه بعد مجيئه من المشرق وإقامته في شيراز سبعة أشهر بلا جدوى ، كان
 بأرض الشام قبل لقائه بآل المفرج .

ودعنا نفترض أن هذا الممدوح وهو الحميدى بن عباس هو أول ممدوح لقيه
 بالشام ، وتسم قصيدته فيه بروح بلوية غالبية ، وبخاصة في هذه المقدمة الطللية
 التي يندوها بقوله :

حُبَيْبُنا من دَمْتَيْ طَلَلَيْن عَطَلَيْن مُوحِشْن مُقْفِرَيْن
 عَفَى عِراضَهُما على طولِ البِلَى نوَّ الرشا وهورح الفرعَيْن
 وَمَحَاهُمَا من آلِ مَحْوَةٍ وَالصَّبَا أَذْيَالُ غَاذِيَتَيْنِ وَالْحِجَتَيْنِ

وصل التهامي إذا إلى الشام ولا ندرى متى كان وصوله ولا مدى استقراره في
 بلاده وكل ما نعلمه محققاً أو قريباً من التحقق أنه كان بالرملة عند آل الجراح في
 سنوات فرار أبي القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي إليها في حدود سنة
 ٣٩٠ هـ وجاء في أخباره التي ذكرها الصفدي أنه تولى بها الخطابة وتزوج .

وينفرد الصفدي^(١) بقوله إن مولده كان باليمن ، ولعل ذلك يفسر لنا ذكر
 عدن في أبياته المقدمة ، قال الصفدي : مولده ومنشؤه باليمن ، ثم قال : وطراً
 على الشام وسافر منها إلى العراق والجليل ، ولقي الصاحب بن عباد وقرأ عليه ،
 وانتحل مذهب الاعتزال ، وأقام ببغداد وروى بها شعره ثم عاد إلى الشام وتنقل في
 بلادها وتقلد الخطابة بالرملة ، وتزوج بها .

(١) الواقي بالهيات جـ ٢٢ ص ١١٥ ترجمة رقم ٦٧ .

وفى خير الصفدى خلاف مع كلام التهامى فى آياته واتفاق ، فأما الخلاف فإنه ذكر أن أول خروجه من بلاده كان إلى الشام ثم اتجه مشرقاً حتى شيراز ولعله لقي بها الصاحب ، وأما الاتفاق فإنه ذكر شيراز وبعض بلاد العراق وإن لم يُحدد بغداد التى نص عليها الصفدى ، وقال إنه روى بها شعره .

وقد يفيدنا خير الصفدى عن وفود التهامى إلى شيراز ولقائه للصاحب وقراءته عليه وانتحال مذهب الاعتزال ، فربما تأثر به ، وإن لم يرد فى الديوان ما يشير إلى مدينه للصاحب ولا ذكره تصريحاً أو تلميحاً .

وإذا صح خير الصفدى عن لقاء الشاعر للصاحب فإنما يكون ذلك قبل سنة ٣٩٠ هـ ولنفترض : أنه كان بين سنتى ٣٨٠ ، ٣٨٥ هـ إذ توفى الصاحب سنة ٣٨٥ هـ ، ونفترض كذلك أن التهامى غادر شيراز بعد وفاة الصاحب ، فيكون قد تجول فى بلاد العراق والشام نحو من سنتين ، ربما قضاهما كلها قبل مجيئه إلى الرملة أو لعله قضى أربعاً منها متجولاً ، وقضى عاماً أو بعض العام أو ما يزيد على ذلك فى الرملة قبل مجيئه إلى القاسم إليها سنة ٤٠٠ هـ .

وفى سنة ٤٠٠ هـ تحدث الفتنة التى شارك فيها الوزير المفرى وربما تورط التهامى الشاعر بحكم علاقته بآل مفرج بن الجراح وتعرفه فى صُحْبَتِهِمْ إلى الوزير المفرى .

يقول النويرى^(١) فى أحداث سنة ٤٠٠ هـ : « وفيها سَخِطَ الحاكمُ على وزيره ابن المفرى ، وقتله وقتل أخاه وابنه — يقصد علياً بن الحسين — ومحمد بن الحسين ، وهرب ابنه الآخر — يعنى أباً القاسم الحسين بن علي — إلى الشام » .

وقال^(٢) : « ثم حَسَنَ ابن المفرى لبني الجراح أن يخرجوا عن طاعة الحاكم ، فوافقوه على ذلك ، وقتلوا بارتكبين أحد الأمراء الحاكمية المقيم بالرملة ، ثم حَسَنَ لهم أن يقيموا أباً الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى خليفة ، وهو أمير الحرمين يومئذ ، وأن يحضروه من مكة فأجابوه إلى ذلك » .

(١) نهاية الأرب ٢٨ / ١٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٦ .

وندع مرحلة إقامة التهامي بالرملة مع آل المفرج إلى حين لنصحبه في رحلته ببلاد الشام وقد تردّد على دمشق وطرابلس ، وأبى ما يلاحظه في تلك الرحلة ، تردده على جماعة من الأشراف العلويين سواء أكانوا حسنيين أو حسينيين .

وكان مملوحيه الشريف أبو عبد الله محمد بن الحسين العلوي قاضي دمشق وخطيبها ، وثقيب الأشراف بها في مقدمتهم

ونقف من بين هؤلاء جميعا وقفة مع أحد مملوحيه واسمه هبة الله الحسن بن علي بن حيدرة ، وكان من رجال الحاكم بالشام .

قال النويري^(١) : « فلما كان في شهر رجب سنة تسع وأربعمئة (٤٠٩ هـ) ظهر رجل يقال له الحسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم يرى حلول الإله في الحاكم ويدعو له إلى ذلك ، ويتكلم في إبطال النبوة ، ويتأول جميع ما وردت به الشريعة ، فاستدعاه الحاكم ، وقد كثر تبعه ، وخلع عليه خلعا سنّية ، وحمله على فرس بسرجه ولجامه ، وركبه في مركبه ، وذلك ثاني شهر رمضان منها ، فبينما هو يسير في بعض الأيام تقدم إليه رجل من الكرخ على جسر طريق المقيس فالتاه عن فرسه ، ووالى الضرب عليه حتى قتله » . ونقرأ قول التهامي في ذلك الرجل^(٢) :

أَذْهَبَتْ رَوْثُ مَاءِ الصُّبْحِ فِي الْعَذَلِ فَارْبَعٌ فَلَسْتُ بِمَعْصُومٍ مِنَ الزَّلِيلِ
لِكُلِّ سَهْمٍ يُعَدُّ النَّاسُ سَابِقَةً رَدُّهُ عَنْكَ إِلَّا أَسْهَمَ الْمُقِلِّ

حتى يقول :

قَدْ أَحْكَمَ الْحَاكِمُ الْمَعْصُومُ دَوْلَتَهُ بِآلِ خَيْدَرَةٍ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

وكان آل حيدرة من طرابلس الشام وله بمدح آخر منهم كان قاضي طرابلس أيضا ، وتولى قضاء صور زمنا . يقول التهامي فيه^(٣) :

أَعْدَى نَذَى كَفَيْهِ صُورٌ وَأَهْلُهَا وَالْبَذَرُ يَقْلِبُ طَبْعَ كُلِّ ظَلَامٍ
وَلَوْ أَنَّ صُورًا جَنَّةً مَا اسْتَكْثَرَتْ وَأَبْيَكُ مِنْ غِلْمَانِهِ بَغْلَامٍ

(١) نهاية الأرب ص ٢٨ / ١٩٧

(٢) ديوانه ص ٣١٦

(٣) ديوانه ص ٣٧٣

ويشير إلى أهل بلدهم طرابلس فيقول :

أَلْفَيْتُ مِنْهُمْ فِي طَرَابُلُسٍ نَدَى تَرَكْتُ الْكِبْرَامَ لَدَى غَيْرِ كِبْرَامٍ

وفي صور يمدح من يُدعى محمد بن سلامة الصوري ، والحسين بن عبد الواحد وفيه يقول ، ويذكر وقعة له مع بني كلاب بالشام^(١) :

وَتَرَكْتُ أَعْيُنَهُمْ بِصُورٍ فِي الْوُغَى صُورًا ، وَقَدْ جَاخَ الْوَرَى مَا جَاخَا

كما يذكر حلب في هذه المناسبة فيقول :

شَاءَ الْمُهَيْمُنُ أَنْ تُصَيِّرَ مَشْرِقًا حَلْبًا فَيَقْضِي مَا جَرَى وَأَتَاخَا

ويذكر الروم فيقول :

أَتَى تَرُومُ الرُّومُ قَرْنِكَ بَعْدَمَا صَلَّيْتُ بِحَرْبِكَ مُخْرِبًا مِلْحَاخَا
لَمْ يَرُبْ قَطُّ بِكَ الْإِمَامُ مُرَادًا إِلَّا جَلَّوْتُ عَلَى الْفَلَاجِ فَلَاخَا

والحسين بن عبد الواحد هذا لم يذكر صراحة في مصادر التاريخ ولعله كان من رجال الحاكم كذلك . وعلاقته به كعلاقته بآل حيدرة ، تكشف عن ولاء للحاكم ورجاله ، وقد ذكر الشاعر الحاكم ولقبه الإمام ، وهذا يثير تساؤلات عن مدى ولاء التهامي للفاطميين ورجالهم ، وهل تقلبت هذه العلاقة بين الولاء والعداوة ، ومتى كان الولاء ، ومتى انتهى وبدأت العداوة ؟ . أكان الولاء قبل لقائه بالوزير المغربي ومؤامرة الرملة ضد الحاكم سنة ٤٠٠ هـ ؟ أغلب الظن أنه كان كذلك ، ولم يكشف ديوانه عن هجوم مباشر أو هجاء للفاطميين أو أحد من رجالهم ، بل ربما كان عكس ذلك صحيحا فقد كان على ولاء وعلاقة صداقة وألفه مع أكثر رجالهم بالشام والجزيرة الفراتية . وتكرار الحديث عن هزيمة بني كلاب على أيدي بعض رجال الحاكم وابنه الظاهر دلالة على هذا الولاء حتى قبيل دخوله مصر متسللاً ، أو مظاهرا .

وسياق الحديث عن ذلك في حينه . هكلنا جاء التهامي آل المفرج وهو على ولاء للحاكم والفاطميين بمصر ولم يدر بخلفه أن يتآمر ضدهم ، وأقام بالرملة ما أقام ، وتزوج وتولى الخطابة ، ولا يكون ذلك إلا بموافقة الحاكم ثم آل المفرج لأنهم كانوا

(١) ديوانه ص ٧٨ .

يتولون الرملة بأمره قبل خروجهم عليه ، بتدبير من الوزير المغربي الحاقد الذى وجد في أطماع آل المفرج ، وطموح الشاعر مشجعا على الثورة والانتقام من الحاكم .
ونعرض الآن لبعض شعره في آل المفرج ، نستشف منه موقفه منهم وموقفهم منه ، وموقفهم جميعا من الفاطميين .

ونرجح ذهاب التهامي إلى الرملة في أخريات عهد العزيز عثمان ، لأنه يعرض لحادث مناصرة آل المفرج للفاطميين ضد أفتكين أحد قادة الأتراك أعداء الفاطميين ، يقول :

نصرت ابن النبي كما نصرته أباهُ لقد خلوت على مثالي

يقصد أن بني الجراح من طي وهم من عرب اليمن نصروا العزيز بالله الفاطمي كنصرة الأنصار من عرب اليمن كذلك للنبي في الهجرة ويوم بدر .

وجدير بالذكر أن هذه المأثرة ظلت متوارثة في عرب اليمن القحطانية عبر العصور واستغلها الشيعة والعلوية ، فانصروا بالقبائل اليمنية على بعض المضربة بمن ناصروا الأمريين والعباسيين .

ومدح ال مفرج كذلك بقوله في هذه المناسبة نفسها وهي قهر أفتكين ونصرة العزيز عثمان على عدوه التركي ، قائلا أنه بهذه النصرة علا نجم الدين ، يقول :

علا بك نجم الدين فاشتد ناصره ورَفَر بالتوفيق واليمن طائره
تسايرك العلّاء والمجد مثلما يصاحب شخصا ظلّه ويسايره

ولكن هنا التاريخ متقدم ، وهو يطرح تساؤلا هل كانت هذه القصيدة في مرحلة سابقة على سفره إلى المشرق ، أم أنها قيلت في هذه المرحلة نفسها أعني في حدود سنوات من ٣٩٨ إلى ٤٠١ هـ .

والقصيدة على أية حال لا تكشف عن إقتدار شعري ، وكونه قالها في المفرج بن دغفل رب هذه الأسى الطائفة تجعل احتمال قولها في مرحلة متقدمة من إقامته بالرملة أمرا واردا ، لأن أشهر أبناء المفرج وأكثرهم مشاركة في أحداث العصر الحاكمي وهو حسان كان قد غلب على والده وإخوته في اتخاذ القرار والمبادرة ، وكانت له اليد الطولى في أحداث المؤامرة المشهورة وانقلاب أبي الفتح أمير مكة ، ثم عودته مرة ثانية إلى طاعة الحاكم بأمر الله .

إلا أنه في قصيدة بائية في مدح المفرج بن دغفل يشير إلى طيء ومصر وإلى
نصرة الطائفتين للإمام وهو العزيز أو الحاكم ، ضد التغلبيين وهم آل حمدان ،
وكانت بين الخليفتين وبينهم وقائع بالشام للسيطرة على دمشق وحلب زنا .

يقول التهامي :

بِه طَالَتْ عَلَى مُضَرٍ وَلَنْ تَقُومَ لَهَا فِي الْحَرْبِ تَغْلِبُهَا الْغَلْبُ

حتى يقول مشيرا إلى إمام الدين خليفة مصر الفاطمي :

يَسْرِي بِهِمْ نِجْوُ السَّرَاةِ وَقَدْ طَفَعُوا وَسَادُوا، إِمَامُ الدِّينِ وَهُوَ لَهُمْ قَطْبُ
وَصَبَّخَهُمْ فِي دَارِهِمْ شَرٌّ صَبَّحَ عَلَيْهِمْ وَقَدْ وَالَاهُمْ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ
أَبَادَ حُمَاةَ الْقَوْمِ وَاجْتَاخَ أَرْضَهُمْ وَلَوْ لَاهُ لَمْ يَطْرُقَ لِمَقْلَعِهِمْ خَطْبُ
وَقَدْ غَلِمَ الْمَوْلَى الْإِمَامُ بِأَنَّهُ أَخُو عَزْمَةٍ تُحْدِثُهَا السَّبْعَةُ الشَّهْبُ

ولعله يشير بالسبعة الشهب هنا إلى أبناء النُواد السبعة الذين سادوا في حياته
ومدح بعضهم الشاعر .

ويشير في هذه القصيدة نفسها إلى أنه جاء آل المفرج فقيرا فأغتنوه ، الأمر
الذي يُرجَّح أنها من بَنَوِ كَيْمٍ قصائده بالشام .

ممدوحوه من رؤساء دمشق :

حيدرة بن مخلول :

وهو من رجال الفاطميين ، ويبدو أنه ممن شارك في التصدي للكلابيين من
بنى مرداس في عصر الحاكم ، وكانوا يثيرون القلاقل بنواحي الشام .

وفي مديحه لحيدرة هذا يقول مشيرا إلى الإمام — الخليفة الفاطمي :

أما الإمام فإنه لك شاكر والله أرضى منه عنك وأشكر

ويقول :

بالنصح قدمك الإمام على الورى ومن الفعال مقدم لا ينكر

أما توليه بدمشق فيشير إليه بقوله :

فدمشق قد ضاعت بحسن رياضها إذ كان فيها منك سعد نير

والشريف أبو الحسن عباس بن غياث .

وفي دمشق يتصل أيضا بأحد الأشراف من الرؤساء ، ويدعو أن له مكانة
كبيرة بين أهلها ، وكان له من نفوذه وعلمه وجاهه ما يدفع الشاعر إلى قصده .
وإلى أن يقول فيه :

إقدام حيدرة وبأس محمد	فيه أن يعدوها أبواه
نسبا ترى عنوانه في وجهه	فلو أن أميا يراه قراه
اشبهت في العلياء جلدك أحمدا	إن المكارم في العلا أشباه

ويغلب أنه شريف علوي للتنويه بذكر الإمام على هنا ، اللافت للنظر أن
معظم من قصدهم التهامي كان شريفا علويا من بنى الحسن أو الحسين ، أو من
يدينون بالولاء للعلويين والفاطميين ، وهذا يدفعنا إلى السؤال عن مدى موقفه من
الفاطميين خاصة ، وهل كان نصيرا لهم ؟

وإذا فلم اشترك في التآمر ضدهم ؟ وعلى أية حال فالرجل لم يصرح بدم أو
قدح ولم يلح بشيء يسمى إلى دولة الفاطميين في ديوانه .

وفي القصيدة ما يشير إلى جاهه ، فقد لقبه بلقب ملك ، ولا ينعت بهذا إلا
من ولي ولاية وأمارة ، يقول :

ملك يقر بفضلِهِ ويبدلِهِ	ويعدله أحبابُهُ وعساده
يُجِيلُ الأَنام على الخلافِ ولا أرى	رجلين يختلفان في علياه

ويشير إلى غربته عن وطنه تامة ، وهجوم الشتاء — الشامي — ولم يعتده في
بلده فيلوذ بالمنح ليقذه من بأسه ، كما اعتاد شعراء العرب اعتقاد الأجواد
وقت الشتاء خاصة ، يقول :

ولقد علمت بأن موتى عنده	عز يفوق العيش عند سواه
لكنما هجم الشتاء وعنده	ممن تكون تامة مشواه
يا أيها الملك الذي لم أغترب	عن أرض قومي خطوة لولاه
أيموز أن أشكوك ضيقة عيشة	والمال عندك راهن وإجلاه

تري هل كان هذا حكاية صادقة لحال الشاعر ، أم أنه مجرد خطاب شعري
لجسّ المملوح على المعطاء ؟

فإذا كان الأمر ما قاله حقيقة ، فإننا نظن بأن الرجل كان أول من قصد بالشام ، أو لعله كان من أولهم ، قبل التحاقه بآل المفرج ونزوله في كشفهم ، يؤيد هذا الظن شكواه من الفقر الذي فارقه بعد مكثه بالشام وتولييه خطابة الرملة . واستقراره وزواجه وحصوله على المال مما أعطاه آل المفرج وغيرهم .

مع بعض الأشراف والرؤساء في الشام ومصر :

ونجد بالديوان مداخل الجماعة من الأشراف والرؤساء بالشام ومصر لا نستطيع على وجه التحديد أن نُعيّن زمن لقائه لهم ، وربما بعث إليهم بمداخلة ولم يلقهم .

ومن لقيهم بالشام من الرؤساء وقدم مداخلة فيهم جعفر بن علي بن الحسين المغربي ، واسمه يتم عن صلته بآل المغربي ، وربما كان ابن عم الوزير أبي القاسم ، ولا ندرى هل لقيه قبل محنة آل المغربي ومقتلهم بمصر وهل قتل معهم أم أنه لم يرحل إلى مصر مع أبيه الذي قال المؤرخون إنه قتل بين من فتك بهم الحاكم ؟ ونجد ابنه أبا الفرج بين من تولى الوزارة بمصر أيام الظاهر .

كذلك من بين ممدوحيه الفضل بن أبي الفضل جعفر بن الفرات ، وهو كما يبدو من اسمه ابن الوزير الخطير إلى الفضل بن الفرات والمشهور بابن حترابة الذي تولى الوزارة للاخشيد ، وكان من رجال كافور ، وعاصر المتنبى عند وفوده إلى مصر ، وكان من أعدائه .

وقد تولى ابن الفرات الأب الوزارة للفاطمين بعد ابن العباس زمن العزيز عثمان سنة ٣٨٢ هـ ، كما تولى ابنه من بعده أيام الحاكم في اخريات عهده سنة ٤٠٥ هـ . وكان والده توفى قبل ذلك سنة ٣٩١ هـ .

ومما نلاحظه وكما يشير التهامي في قصيدته التي مدحه بها أنه التقى به في الرملة ، ولعل ذلك كان قبل اختفاء الحاكم وكان مبعوثاً له إلى آل المفرج للصلح والعودة إلى الولاء بعد فتنة أبي الفتح والوزير المغربي .

ونقف عند قوله في القصيدة^(١) :

(١) ديوانه ص ٣٨٨ .

لوزير ابن الفرات ولم تزل
 إن صدقني عنك الزمان فإنني
 إن يئس عنك فرب نأى حسنت
 أوعدت بالصبر الجميل فإنه
 فبأى وجه اشتكى الزمن الذي
 ووحق ودك وهو أبعد غاية
 ماحال قلبسى عن هواك ولا جرى
 إلى وإن عاد الزمان إلى الذي
 لا أشكر المعروف إلا منك أو
 أو حيث لا يجب الثناء بغيرها

تتوكل الآمال صوب غمامه
 حب أرى لقلبك في أحلامه
 عقباه للمشتاق قرب حمامه
 صد الجفون عن الكرى ولغامه
 أيام قريك كن من أيامه
 يجرى إليها البر في أقسامه
 حسن التصبر عنك في أوهامه
 أهواه بعد جماعه وعرامه
 ما قربت كفك بعد مرامه
 أول الوزير القرب من إنعامه

وفي الديوان قصيدة أخرى^(١) غير معنونة بمن مدح بها من الرجال ، إلا أن
 مضمونها يرجح أنها في الفضل بن الفرات بعد توليه الوزارة ، وربما صرح باسمه في
 أحد أبياتها إذ يقول :

فضل لو أن الدهر قدم عصرو
 لأبان نقص زهاده وهشامه
 والقصيدة على وزن وقافية القصيدة الأولى ، إلا أنا تقول أن هذه القصيدة التي
 مطلعها :

ذكر الحمى فبكى لسجع حمامه
 وغدا غريما للنوى بفرامه

يسابقة على الأخرى ، ويبدو أنه هنا بها الفضل بعد توليه الوزارة ، ثم اتبعها
 الثانية ، يعرض حاله ، ويمد يده إليه يرجوه أن يناله منه عون من مال أو جاه وهو
 في منأى بعيد لعله كان بالرملة أو خارجها متجولا بين بلاد جزيرة الفرات .

إلا أن فرجة التهامي بتولى صاحبه الفضل الوزارة لم تتم ، فسرعان ما خاب
 أمله ، فقد غضب الحاكم في ثورة من ثوراته على ابن الفرات وقتله سنة ٤٠٥ هـ .
 ومقتل ابن الفرات في هذه المرحلة من مراحل الخلاف المحتوم بين الحاكم واخته
 يشر الشك .

(١) ديوانه ص ٣٩١ .

ومن مملوحيه بالشام أو العراق الأمير أبو سنان غريب بن محمد بن تعن من أمراء العقيليين ولعله جد الأمير عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي العقيلي الأمير الشاعر الأديب أبو محمد وقد كان من أمراء الخفاجيين أصحاب الحديث ، وكان أمير خفاجة في زمنه سنة ٤١١ سلطان بن الحسين بن ثمال^(١) .

وقصيدته في غريب بن معن الخفاجي التي نرجح أن تكون سنة ٤١١ هـ وهي السنة التي قصد فيها قرواشا العقيلي مع الأمير نور الدولة ديبس بن مزيد الأسدي فقاتلوا قرواشا فانهزم ومن معه وأسر في المعركة ونهبت خزائنه وأثقاله .

وتكن قرواش من الخلاص من الأسر ، وعاد لمقاتلة غريب بن معن مستعينا هذه المرة بأحد أمراء خفاجة وهو سلطان بن الحسين بن ثمال ، وكانت وقعة غرى الفرات بين الفريقين انهزم فيها قرواش مرة ثانية ، وفي هذه المرة مد نواب السلطان البويهى أيديهم إلى أعمال قرواش في الموصل وما حولها ، فأرسل إلى بغداد يسأل الصفيح عنه وينذل الطاعة فرفع السلطان أيدي عماله عن قرواش وأعماله .

ويشير التهامي الذي زامن هذه الأحداث جميعا في مديحه لغريب بشجاعته وفروسيته فيقول^(٢) :

فَلَوْ قُ	سَلِمْتَ لِأَقْضَيْنِ لِبَاتِنِي	بِذَمِيلِ كُلِّ شَيْهِيَّةٍ مَذْعَانِ
أَرْمَى الْفَجَاجَ بِهَا لِأَلْقَى رَحْلَهَا	فِي حَيْثُ تَلَقَى أَرْحَلَ الْفَتِيانِ	
عِنْدَ الْأَمِيرِ غَرِيبِ بْنِ مُحَمَّدٍ		مَلِكِ الْمُلُوكِ وَفَارِسِ الْفَرَاسِ

ومضى في مديحه التقليدي حتى يقول :

لَهُ دَرُ يَدِ الْخَطُوبِ فَإِنِهَا	صَدَّ الْقَامِ وَصِيقِلَ الْفَتِيانِ
جَرَدَنَ مِثْلَ أَيْ سِنَانٍ صُلَامَا	فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ لَهُ حُدَانِ
كَالْثِيثِ إِلَّا أَنْ جَارَكَ آمَنَهُ	وَالْثِيثَ لَيْسَ بِأَمْنِ الْجِرَانِ

حتى يقول ، وربما أُلح بالأحداث التي أشرت إليها :

يَارِبُ جَيْشٍ قَدْ كَفَفَتْ بِمِثْلِهِ وَلِخَيْلٍ تَعَثَرُ فِي التَّجْعِيعِ لِلْمَقَاتِي

(١) راجع الكامل لابن الأثير ص ٨ ، ١٣٣ .
(٢) ديوانه ص ٤٠١ .

التهامى وقرواش

قصد الشاعر قرواش بالموصل ، ولعل ذلك كان بعد ذهابه إلى ميفارقين ،
وبقائه زمنا عند نصر بن أحمد ، وكانت العلاقة بين الأمير الكردي ، والأمير العربي
العقيلي العامري تجمع بين التنافس والتحالف ، وصارت بينهما مصاهرة .

ونعلم أن الوزير المغربي انتقل من ميفارقين إلى الموصل كذلك حيث وزر
لقرواش سنوات عاد بعدها إلى ميفارقين ليبقى بها حتى توفي سنة ٤١٨ هـ .

جاء التهامى إذا إلى الموصل مادحا ، ومتطلعا ، وليحصل على المال والتأييد
لبدفع ، فيما يبدو بطموحه الذى يحسه فى حناياه إلى أمل التحقق لكنه ، فيما
يبدو لم يجد من قرواش استجابة ، أو قبولاً ولعله لم يرتح له الشاعر ، أو أن الأمير
لم يرع للشاعر حقاً كان يرجوه .

فلم يلبث هناك طويلا ، ولا نجد فى ديوانه إلا قصيدة واحدة بمدحه ، عادية ،
باردة الاحساس فى المديح ، لا نجد فيها شيئا جديدا ، بل لعله تكلفه فبدت
الصفات مرصوفة رصاء ، كأن يقول :

له يد محسن وحياء جان	وجود مبذر وعلا جموح
ورأى مجرب وقتال غر	وذمة حافظ وندى مضيع
إذا ذكر النوال اهتز شوقا	إليه كهزة السيف الصنيع
يمن إلى العطاء جَنَيْنَ قيس	إلى ليلى لعرفان الربوع

أرأيت إلى هذا التكلف والبرود !

ومع هذا فالقلمة الغزلية ، قد اشفى فيها الشاعر شاعريته وهموم نفسه مع
خيال حبيته ، فبدأ بقوله :

ألم خيالها بعد المحجوع فعاتد إذ رأت سيفى ضجيعى

نعجب لهذا المطلع الغريب ، والمعنى الغريب كذلك ، الذى لا نلقاه فى
مطالعه الأخرى ، وهو يلقي الحبيبة فى المنام ، ترى أهنالك أمر ما غير من
أحاسيسه ، أو أن شيئا ما أصبح يساوره ويختزنه فى عقله الباطن نمت عليه هذه
الرقيا الغريبة !؟

ويعنى الشاعر لينث أحاسيسه في هذه الرثيا ليقول بعد الاستهلال :

وهاجت نى يزورّتها زفيرا يكاد يقيم معوج الضلوع
فبات بين أعناق المطايا تردد فى الجيء وفى الرجوع
فقت مناديا فإذا سهيل من الخفقان كالقلب المروع
كأن نجوم ليلى حتى ألقى مراسيه مسامير اللروع

وأقول هذه رؤية أو رثيا كشفت مخزنا فى مكون الضمير ولم تفصح عنه كل الأنصاح ، بل رمزت إليه ، وجدير بالقول أن شعر هذه المرحلة من حياة الشاعر كان حافلا بمثل هذا الرمز التى عدل إليه عن التصريح الذى صاحبه فى الرملة ومع آل الجراح .

كأن الشاعر كان يهوى نفسه لأمر ما ، ودور خطير يقوم به ويتم حبك خطوطه ، وكانت أيام الحاكّم فى مصر قد ولت ، وشمسه قد أفلت ، ولعل رغبة الانتقام قد عاودت الوزير المغربى بعد موت الحاكّم ، فأغرى صاحبه على أن يفعل شيئا ما ، أو لعل رغبة الشاعر فى أن يحصل على غنيمة كما يحصل غيوه بالمغامرة ، هى التى دفعته إلى أن يبحث عن تلك الغنيمة ويعد لها عدتها بالمال الذى صرح أكثر من مرة بأنه يجمعه لأمر قرره فى نفسه .

وهكذا اختفى الحاكّم بأمر الله من مسرح الحياة الصاخبة فى هذه المنطقة ، وتآهبت الأعداء للوثوب ، ليثروا ملكه ، وقد كان الأمراء يتخشونه ، بعد أن تمكن من القضاء على المؤامرات التى حيكت ضده منذ قيام أبى ركة بثورته العارمة فى يorque وصعيد مصر سنة ٣٩٧ هـ وانتهائها بالقضاء عليه قضاء وحشيا بعد تعذيبه وإذلاله ليكون عبرة لكل من تحلته نفسه بالخروج .

كذلك انتهت مؤامرة آل المفرج أبى الفتوح بالفشل ، وأمسك الحاكّم بزمام الأمر بعدها بإحكام وتخشيته البلاد الشامية ، وأذعن له الأمراء ورؤساء العشائر وخطبوا له حتى فى بعض الإمارات التى كانت تحت حكم العباسيين فى العراق كإمارة الموصل وميافارقين .

عاودت الآمال إذا الأعداء والطامعين بعد اختفاء الحاكّم وفى هذه المرة وعدت الشاعر نفسه بانتهاز الفرصة ، وهكذا عاد من ربوع العراق إلى الشام ليدير أمرا مع من يعد للانتفاض ليشارك فيفوز بتصيب .

حتى يقول :

فرب صب تمنى أنه حجر
إن الحجاز — سقاه الله غادية

في البيت حين أكتب تلثم الحجرا
أرضي مولدة في الأعين الحورا

وفي قصيدته الثانية الميمية يقول مفتتحا :

أخذت زمام الدمع خوف انسجامه فلما استقلوا حل عقد زمامه

وبلغت نظرنا في المقدمة الغزلية لهذه القصيدة أنه جعل محبوبته من هلال بنى عامر بن صعصعة النجديين ، ولما كنا نرجح أن الشاعر اعتاد على التغزل بمحبات من قبائل المدوحين في مهد العروبة بالجزيرة ، فإننا نظن بأن صاحب آمد هذا كان عامريا ، وكان لبنى عامر من الرجال جماعة في أرض الجزيرة ، وكان لبطلتها شأن في أحداثها ، ويكرر التهامي في هذه القصيدة حديث السعي للمجد بغيا القلم والشعر ، يقول :

ومن فاته نيل العلا بعلومه
صريع شبا الإقلام عند كلامها
ورأيت في الریح المقوم إنما
وجدنا جعلنا أملا أملا لها
يلوك بهيم الخيل فيها لجامة
ينرن حجام الماء من كل منهل

وأقلامه فليغتها بحسامه
فداء صليل السف عند كلامه
قوام العلا مستودع في قوامه
بيداء يوم المرء فيها كهامه
إلى أن تراه أرتأيا بلغامه
ليكر عن مشرب العلا في حجامه

وهذه الشنشنة عهدنا عند أوى الطيب وتذكرنا بشعره له كثير تتقلب فيه هذه المعاني نفسها بل والألفاظ والعبارات ، ومنها قوله :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لى
أكتب بنا أبدا بعد الكتاب به

المجد للسيف ليس المجد للقلم
فإنما نخنى للأسياف كالخند ؟

ويشير في هذه القصيدة إلى ما يحاك حوله من مؤامرات ومكائد ، يحوكم بعض أعدائه من منافسيه وأصحاب صهره الذى قتله واغتصب الامارة منه :

وكم غادر قد شب نار عداوة
فصفحا فما زال الزمان كما ترى

له قد حاه كيله في ضرامه
أكارمه جرمية بلغامه

وربما حدثته نفسه بأن يفعل كما فعل ابن دمنة وامثاله مما اغتصب الامارة تآمرا وغلبة في ذلك الزمان الذي تكررت فيه أحداث الغلبة والانقلاب والاستيلاء على الملك بالسيف، كمعادة العرب في بداوتهم، الغلبة للقوى، كأن الإسلام لم يهذب من هذه الطبيعة المتأصلة ، وهي خلق لازم للبدواة .

وما كانت نفس التهامي الشاعر البدوي لتحدثه بالملك كما حدثت نفس المتنبى صاحبها به لولا أن رأى ذلك شريعة عصره .

وكانت تجربته مع الوزير المغربي وآل المفرج والانقلاب الذي دبروه ضد الحاكم والذي كاد أن يكتب له النجاح ، كانت هذه التجربة حافزا له على أن يكرر المحاولة ، وقد اختمر هذا الحاطر في قلبه ، وظل يراوده طوال بقائه متنقلا بين مدن الجزيرة الفراتية بالشام قبل عودته إلى الرملة ليعد نفسه للقيام بدور له في مصر ، وينتظر الفرصة المواتية للوثوب .

التهامي والأمير نصر بن مروان صاحب ميافارقين :

اتجه التهامي شرقا إلى ميافارقين بأرض الاكراد شمالى شرق الجزيرة العراق وصاحبها آنذاك نصر بن مروان ، وكان كُرديا ، غلب على ميافارقين بعد فصل أميرها ، من صاحب أمد ، وكان رجلا عاقلا على علاقات طيبة بحجرانه من أمراء الجزيرة الموصل ، وبيولتي ، العباسيين والفاطميين وصاحب الموصل كذلك . يقول الفارقي^(١) : وقصده التهامي الشاعر وامتدحه ووزيره المغربي . وهذا الخبر يؤيد ما قلناه من أن رحلته هذه إلى البلاد الشرقية وجزيرة الفرات كانت مع الوزير المغربي أو في وقت ذهابه من الرحلة إلى تلك البلاد ، وكان الأمير ناصر الدولة نصر بن مروان هذا قد ولي الامارة سنة ٤٠١ هـ يقول في مستهل مدحه :

عيسن من شعر بالرأس مبتمس ما نفر البيض مثل البيض في اللمم

ولا يتهج في القصيدة تهج في غيرها من مدائحه لأمراء العرب ، من ذكر نجد والحجاز واعتساف الأرض في الرحلة والتغزل بالفتاة البدوية من الحجاز أو من بني عامر في نجد . ولا يذكر الشيخ والعرار والحزامي وما إلى ذلك مما يشтаقه عرب البادية وإنما يعرض للحديث عن موضوعات عامة في التسيب بلكر الطيف

(١) تاريخه ص ١٤٤ وراجع وثقت الأعيان ٧٨-٧٧/٢ والشذرات ٢٩٠/٣ .

ومحاسن المحبوبة انتى نزوره فى منام حتى يتخلفنى من نصيف إلى شكوى الدهر
قائلا :

وصل الخيصال ووصل الخوارج سمحت سيان ما أشبه الوجدان بالعدم
قل نصر دولة دين الله نى أمل قولا وقد نلت أقصى عاية التهم
لا تحمد الدهر فى بأساء يكشفها فلو أردت دولام البؤس لم يدم
ويخاطب نصر الدولة مؤملا عنده الفضل والسؤدد والمجد :

يا طالب المجد فى الأفاق مجتهدا والمجد أقرب من ساقى إلى قدم
قل نصر دولة دين الله نى أمل قولا وقد نلت أقصى غاية الهمم
ويشير إلى مناصره لقره اشر على بعض عشيرته من عقيل العامرين :

قد عظم الله أملاكا ملكت بها بنى عقيل وما يحوون من نعم
لو لم تجرّها أبأ نصر لما وجدت كفا يشاكل فى شكل ولا كرم
زادت إلى عزّها عزا به مضر وربما صيلات العلياء بالحرم

يذكر الفارق أن التهامى التقى بالوزير المغربى ، فى بلاط نصر الدولة هذا
ومدحه وفى الديوان قصيدتان فى مدح أبى القاسم إحداهما قالها وقد استبطأه
الوزير فى مديحه ، وربما كانت هذه بداية الثناء الشمل بعد فراق الرحلة ، وقد
أحسن الوزير بأن الشاعر أغفله ومدح الأمير ، وكان ما بينهما من قديم آصرة
يسمح له بهذا العتاب ، فما كان من الشاعر إلا أن نظم أبياتا قدمها معتذرا بين
ينى قصيدة مدح انشدها بعد ذلك ، يقول الشاعر معتذرا :

أتانى عن تاج الزمان تعتب يضيّق وسع الأرض فضلا عن الصدر
ولم أمتدحه أخرا لجهالة وهل للذى لا يعرف الشمس من عنبر
ولكننى لما رأيت صفاته تختمن العلاطرا ختمت به شهرى
وقد أحر الله النبى لفضله وقدمه فى رتبة الفضل والأجر

وفى ديوانه قصيدة حاثية فى مدح الوزير أبى القاسم ، لا نجد ما يؤكد أن ينقض
إنشاده إياه فى ميفارقين ، وإنا نحس حسدا ، ونظن — وقد لا يصدق الظن
أنه قالها آنذاك لبعض المعانى التى وردت فيها ، ربما كانت من وحى الظروف التى
مر بها الوزير فى محنته مع الحاكم ، وفراره وجوئه إلى آل المفرج بالرملة ثم ما حدث

هناك من فشل التآمر ضد الحاكم واضطرار الوزير إلى الخروج إلى الجزيرة واللجوء إلى ميفارقين والموصل وبعداد والتثقل بينهما :

يقول بعد المقدمة :

وللعالى رتب في العلا	الرأى ثم الكيد ثم الكفاح
وليس بعد الحرب من غاية	من حظوظ مثل ضرب القلاح
ولا يالئى عند فل العدى	أهيسة فلتهم أم جراح
حامى عن الملك فأضحى حمى	من بعد أن شارف أن يستباح
فصار عربنا لليث الثرى	وكان مرعى للسوام المراح

ونتوقف عند قوله : « حامى عن الملك ... إلخ »

حتى يقول :

تُؤفّرُ الأمرُ ألا إندما وأسابن في تاجٍ خلاف الصلّاخ

ونقول هل يقصد بذلك الإشارة إلى محاولة ابن المغربى أن يقيم خلافة أخرى في دولة الفاطميين بمبايعة أبى الفتوح شريف مكة إلى جانب الحاكم خليفة مصر يؤيد هذا الظن ما قاله فى البيت التالى :

ثم انتنى إذ كفروا سعيه لكل مطويع ذلول جهاج
ذو سحب تنبت أعداءه وحاسديه فى جميع التواح

المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر (٤١١-٤١٦) :

سمع الشاعر باختفاء الحاكم بأمر الله وتولى ابنه الصبى الظاهر على بوصاية عمته ست الملك الفاطمية ، فحدثت كل طامع نفسه بأن يرث من خلافة الفاطميين ما يستطيع قهراً أو تديراً وتأمراً ، ولم يكن بلاط الفاطميين ولا القصر خالصة في الولاء للظاهر على ، بل كان وراء رجال القصر موزعا شيعا ، بين ست الملك الحاكم الحقيقي للخلافة وبين الصبى ومن والاه من رجال القصر .

وكانت الدسائس بين الفريقين ، ما فتأ تثور ليتولى رجال ويسقط آخرون ، ويتعدد الوزراء والقادة والأمراء ، ويتدخل خدم القصر ونسأؤه فيمن يتولى ومن يعزل .

في هذا الجو المضطرب انتهر أمراء العشائر العربية بالشام الفرصة للانقضاض على الخلافة الفاطمية في القاهرة ووراثتها سلطانها ، وكان أقوى تلك الأحلاف الحلف اليمنى بين الطائنين بزعماء آل الجراح أصحاب الرمله ، يقدمهم هذه المرة حسان بن المفرج ، فقد توفى أبوه المفرج سنة ٤٠٤ هـ ، وبعضه بتوكلاب اليمنيين يزعمهم المرداسيون ويقدمهم صالح بن مرداس ، وكانوا يسيطرون على جزء كبير من شمالي الشام ، وكانت صراعاتهم مع الحمدانيين للسيطرة على الشام أيام سيف الدولة وخلفائه قائمة لا تهدأ .

في هذا الجو بدأ التهامي يتحفز للقيام بدور ، والفوز بمغنم واختار لنفسه مصر للقيام بدور فيها ، ويبدو أنه رجع إلى حسان بن المفرج وعاهده على أن يعمل صملا ما بمصر ، وكان أن اختار قبائل بنى قرة في الغرب والصعيد ، بإقليم البحيرة وبرقة والفيوم وكانت بينهم وبين الحاكم عن صراعات ، لا تزال جراحها دامية .

وكا اختار المنتهي من قبل الكلبيين ليثور بهم ضد الأخشيدي في مصر والعباسيين في بغداد في أوائل القرن الرابع ، كذلك فعل التهامي حين اختار بنى قرة ، ويعيد التاريخ نفسه في أوائل القرن الخامس ، يقول الباخريزي^(١) : « رحل إلى مصر بكتب من حسان بن المفرج الطائي إلى بنى قرة فاعتقل في مصر وحبس ثم قتل سرا في سجنه » .

(١) دمية القصر ١١٠/١ .

ويقول ابن خلكان^(١) : « وكان التهامي المذكور قد وصل إلى الديار المصرية متخفيا ومعه كتب كثيرة من حسان بن الفرج بن دغفل البدوي ، وهو متوجه إلى بنى قرة فظفروا به ، فقال : أنا من بنى تميم ، فلما انكشف حاله ، عرف أنه التهامي الشاعر ، فاعتقل في خزانة البنود وذلك لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٦ هـ ، ثم قتل سرا في سجنه في تاسع جمادى الأولى من السنة المذكورة » .

ويقول النويري^(٢) : « ووصل الخبر من جهة بنى قرة في البحيرة أنهم أقاموا عليهم إنسانا بريقة ولقبوه أمير المؤمنين » . هكذا جاء الخبر وكان ذلك عام ٤١٥ هـ ويتفق هذا مع ملايسات مجيء التهامي إلى مصر ، فهل ولد سنة ٤١٥ هـ قبل القبض عليه بعام أو جاء قبل ذلك وأعد العدة سرا للدعوة لنفسه ويكون بذلك قد اتخذ من حسان سلما لبلوغ غايته .

ويقول الصفدي : « وكانت نفسه تحذته بمعالى الأمور ، وكان يكتم نسبه ، فيقول تارة أنه من الطالبين ، وتارة من بنى أمية ، ولا يتظاهر بشيء من الأمرين ، وكان متورعا صلف النفس » ، ويقول : « وكان قد وصل إلى الديار المصرية مستخفيا ، ومعه كتب كثيرة من حسان بن مفرج بن دغفل البدوي ، وهو متوجه إلى بنى قرة فظفروا به ، فقال : أنا من تميم . ويزيد الصفدي في خبر التهامي معلومات ربما كشفت لنا عن بعض أمره ، وعن سر رحلته المثيرة إلى مصر متخفيا ، فأما المعلومة الأولى فهي قوله : أن نفسه كانت تحذته بمعالى الأمور ، وهذا ما كشفنا عنه في شعره ، وقت إقامته مع آل المرقج ، وفي أثناء تجواله بالجزيرة والموصل وديار بكر وديار ربيعة حتى عاد إلى آل المرقج في سنوات ما بعد اختفاء الحاكم سنة ٤١٤ أو سنة ٤١٥ هـ .

وأما المعلومة الثانية فهي أنه كان يتكتم نفسه ولا ندرى أتبع في ذلك قرينة المحتجب الذي أخفى نسبه كذلك ليوهم الناس بأنه علوي وربما الإمام المنتظر أو شيئا من هذا القبيل .

(١) ولغات الأحياء ٣/ ٣٨١ طبع دار الثقافة بيروت بتحقيق د. إحسان عباس .
(٢) نهاية الأرب ٢٨/ ٢٠٥ طبع الهيئة العامة للكتاب بمصر .

فتارة كما يسنّ الصفدى يدعى أنه من الطالبيين حتى يرى أن هذا النسب يشفع له ويقربه من الاشراف والعلويين ، خاصة وأنا عنمنا من مدائحهم أنه اتصل بكثير منهم ، ومنهم من غالى فى غلوته كآل حيدرة ، ومنهم من اعتدل .

وتارة يدعى أنه من بنى أمية ، ولعل هذا الادعاء الأخير كان فى مصر حين حل بينى قرة ، ونعلم أن بنى قرة كانوا أنصار أبى ركة الذى ادعى الأموية ، ودعا إلى خلافة سنية وحارب الخلافة الشيعية الفاطمية إلا أن امره انتهى إلى الفشل والهزيمة والقتل .

أترى ادعى بين بنى قرة ما ادعاه أبو ركة ليحظى بتأييدهم ؟ ثم ما علاقة هؤلاء بينى الجراح ، وهل كانت هؤلاء الطالبيين ميّوس أموية ؟! ثم نتساءل ، لم ادعى نسباً تيممياً عند القبض عليه ؟ أليبعد عن نفسه شبهة الدعوة للأموية ؟

وهل كان يدعو لنفسه بإمامة المؤمنين حقاً وهى دعوة سنية تقابلها دعوة الإمامة ، عند الشيعة ، أكان يريد لها خلافة سنية يكون هو أمير المؤمنين فيها ، وأن يعيد إلى الدولة العربية مجدها الأموى القديم بعد أن تهاوت الدولة العباسية ومزقتها الخلافات والصراعات وتغلبت الديلم والأتراك ، أترأه ندب نفسه ليعيد إلى الدولة العربية مجدها القديم ، ويعيد للعرب ، والعروبة هيبتها ؟ ربما طاف هذا كله فى مخيلته ، وتأتى الريح بما لا تشتفى السفن .

والآن دعنا نقرأ شعره فى هذه المرحلة لنستشف منه ما يمكن أن يجلى لنا حقيقة أمره .

يقول فى قصيدة له بعث بها من سجنه إلى صديق له (١) :

لنفسك لم لاعز قد نفذ العذر	يلنا حكم المقلور إذ قضى الأمر
لقد لفظتني كل أرض وبلدة	وما لفظتني عن موطنها مصر
لمرى لقد طوفت فى طلب العلا	وحالفنى بر وحالفنى بحر
فشرقت حتى لم أجد لى مشرقا	وغربت حتى قبل هذا هو الخضر
أرؤم جسيات الأمور وإنما	قصارى أن أبقي إذا بقى الدهر
ولو كنت أرضى بالكثير وجدته	ولكن فى نفسى أمورا لها أمر
ظللت بمصر فى السجون مخلدا	وللى لسيف جفته فوقه ستر

(١) نهاية الحرب ٢٨ / ٢٠٥ طبع الهيئة المصرية للكتاب بمصر ، وراجع ديوانه ص ٤٢٦ .

من تراه هذا الصديق ؟ أظنه ليس من الفاطميين ، بل لعله من أصحابه ، وقد يكون فيمن أيد دعوته .

ويقول في القصيدة نفسها شارحا بعض ما يظن أنه أدى به إلى السجن :

جنيت على نفسي بسعى إليهم وحظي من أرفى موائيقهم غدر

من هم هؤلاء الذين سعى إليهم وغدروا به ؟ أهم بنو قرة الذين أسلموه للفاطميين ولم يدفعوا عنه خشية أن يلقوا ما لقوا من فعل على يد الحاكم ، وخاصة أن الظاهر استعداد قبضته على الأمور ، وبدأ يعد العدة بالاستعانة ببعض كبار دولته وقادته المظفرين من الأتراك كالفقائد أمير الجيوش بوشتكين الذي أعده لاستعادة هبة الدولة .

ويعاود التهامي أن ينفي عن نفسه القيام بعمل ضد الدولة ، معتذرا بأن ما أخذ عليه لم يكن سوى القول وبما جاء على لسانه في الشعر وفرق بين القول والفعل كما قال المتنبي من قبل ، ويقول التهامي :

ومالي من ذنب سوى الشعر أنسى	لأعلم أن الذنب في نكبتى الشعر
لعل الليل منصفات أخا النوى	بأحشائه من فرط حسرتي جهر
أسير لدى قوم بغير جنابة	ألا في سبيل الله ما صنع الدهر

أتراه إذا صدقنا قوله هم ولم يفعل ؟ أم نصدق قول التاريخ بأنه هم وفعل لكنه لم يوفق ونحاب سعيه فكان ندمه وحرقتة ، لقد كان شعره دليل الاتهام ضده فهو ثابت عليه ، إذا لم يجد محاكموه دليلا على ادعائه الخروج والثورة .

ويقول من قصيدة أخرى في سجنه^(١) :

وضاعف وجدى لما سجنتم	مقالة من غاب من طرفه
يقول ، وبعض مقال السفه	يقتل إن هو لم يخفه
أهنا التهامي من مكة	برجيلة يسعى إلى حقه
ألم يكفه أن ثوب الحياة	ضاق عليه ، ألم يكفه
أراد يطير مطار الملوك	وظن الاسنة من زفه

(١) قصيدته ص ٤٣٠ من الديوان المطبوع .

وكان كذا: أئد جيش الضلال
أصيفر يرعف من نعره
وأحسب سيف ابن بنت النبي
أرى ملك الموت يدنو إليه
أها لشعر ويحك تبني الفلا
ولم تك أهلا لأن تستقر
أرقت دما بعدما صنته
وأشفيت منتظرا للبور
لعمرك إن ليب الرجال
إلى الله أشكو أمورا جرت
وكم قاتل سجنوه على
أطلب الملك من ليس منه
ومن كان ذا حنكة بالعلم
إذا نشف العود من أصله

عابن جبريل في صفه
إذا رعب المرء من أنفه
يخضب خديه من عرفه
وهو يعرض على كفه
ح وأنت تقصر عن وصفه
على خسة الشعر مع ضعفه
واشعلت جفرا ولم تُطفئ
وصدرك حران لم تشفه
من كف أو غرض من طرفه
على غير قصد واستغفه
تطلبه الملك من كهفه
ولا من بنيه ولا صفه
قارة البؤس من صرفه
فذلك أدعى إلى قصفه

هذه القصيدة كافية شافية في أمر التهامي واسباب سجنه ، فهو يعترف
اعترافا واضحا وصرحا ، لا مواربة فيه ، كاعتراف المحكوم عليه بالموت وهو يحس
بالسيف يقترب من عنقه ليقضي على حياة هذه النفس الأمانة التي زينت له طريق
الضلال على حد قوله ، ومنتته بآمال عراض ، وحدثته حديث الملك دون أن
يكون من جنسه ولا ابنائه ولا كان مؤهلا له ، وندم لأنه صدق أوهامه بأن الشعر
كفيل بأن يصنع منه إماما ، أو ملكا ، وما هو الا سراب زينه الوهم فظنه ماء ،
فإذا ما جاءه لم يجده شيئا ووجد الموت عنده .

ومن قصائده في السجن هذه القصيدة اللامية التي حاكى بها قصيدة مشابهة
للمتنبى يقول (١) :

هبوا أن سجنى مانع لوصاله فما الخطب أيضا في امتناع خياله

وقدم هذه القصيدة لمن يدعى أحمد بن سعد بن سبين ، فيذكره بقوله :

(١) ديوانه ٣١١ .

كذلك ابن سيرين بنفثة يوسف
وأنتم أناس فضلهم غامر الورى
أأبصرتونى شافعا بسواكم
وإذ صار سعد وابنه معقلا له
تكلم فى الرؤيا بمثل مقاله
فما بال مثلى دائرا فى انغماله
وانتم بعيد وهو فى ضيق جاله
فما العنر من إطلاق من عقاله

ولم تسعفه شفاعه ابن سيرين ، فلم يستطع أن يمد إليه يدا لإخراجه من
السجن فمضى حسيرا كسيفا يجتر آلامه ، ويعصره الندم ، حتى لقي ربه ألما
وكملا أو غيلة وغلدا .

شعر التهامى

يبدو على شعر التهامى بصفة عامة طابع التقليد وهو بدوى النهج والصياغة
وموضوعاته غالبا المديح ، وقليل منه فى الغزل ، والوصف ، والعتاب ، والرثاء ،
ومديحه يبدو فى معظم القصائد بالنسيب والغزل والرحلة ووصف بعض مشاهد
الطبيعة بالحجاز ونجد أو بالشام .

وقصائده فى المديح لا تطول كثيرا ، فهى متوسطة تتراوح بين ثمانية أبيات
 وخمسين بيتا .

وله مقطعات قليلة قالها فى مناسبات يتبادل فيها النظم مع بعض رفاقه أو
مدحويه ممن قصدهم من الأمراء والوزراء والرؤساء والقضاة .

وقد يبدأ قصيدة المديح مباشرة دون التمهيد بالنسيب والرحلة ، كذلك التى قالها
فى أبى العلاء المطهر بن عطاء كاتب ابن حميد . قال مباشرة^(١) :

لأبى العلاء فواضل مشهورة حلت محل الفرقدين علاء

ومعالي المديح عنده محدودة تكاد تكون محصورة فى صفات الكرم ، والجود
والشجاعة والإقدام والهمة ، وهذا طبيعى ، لأنه شاعر متكسب يسأل بشعره ،
أو هو شاعر محترف يستخدم الشعر كغنى من الشعراء المحترفين وسيلة لكسب
العيش . ومن هنا كانت مبالغته فى صفات كرم مدحوه ، وكان اسرافه فى أصفاء
الثناء حتى إنه ليخرج كثيرا عن حدود المقبول والمقبول إلى مستوى من الملق
والتزلف الممجج المسترذل .

(١) ديوانه المطبوع ص ٢٥ .

على أن الظواهر الواضحة في شعر التهامي مزج صفات البلاغة ، والخطابة
بالسياسة والشجاعة والكرم وبعد المهمة . وذلك لأن كثيرا من مملوحيه كانوا إما
من الوزراء الكتاب أصحاب القلم ، أو من القضاة والعلماء ، كما كان بعضهم
يجمع بين الرئاسة أو الإمارة والشعر كالأمير قرواش بن المقلد العقيلي صاحب
الموصل .

كأن يقول في أحدهم^(١) :

لولا لم يقضي في أعدائه قلم ومخلب الليث لولا الليث كالظفر
فيه المنى والمنايا كالشجاع به ال درياق ، والسهم جم النفع والضرب

وأما معاني المديح التقليدية وأولها الكرم فقد أدارها التهامي في شعره مكرره
أحيانا بلفظها ، وأحيانا بقوالها التعبيرية المعتادة عند غيره ، وقد يلجأ إلى التخييل
والإغراب في عرضه كأن يشبه الطعنات وأثرها في الأعداء بالأعكان المحيطة
بالسرر .

ما ضر إلا وضلت بيض أنفصله في الأم أو سمر الأرماع في الثغر
وغادرت في العدى طعنا يحف به ضرب ، كما حفت الأعكان بالسرر

وهو إغراب عجيب ، وتشبيه لا يتوقع في هذا المعنى ، وهو تشبيه جنسى في
موضع الحرب ولكن متعة الجنس تقترب أو تقترب في الوقع عند بعض البلو
والحارثيين بمتعة الجنس .

ويدل لعين الناقد أنه وضع اللفظ في غير موضعه كوضع السيف في غير
موضعه في (الندى) كقول الشاعر :

ووضع الندى في موضع السيف في الوغى مضرب كوضع السيف في موضع الندى

وأشار هو نفسه إلى هذا العمد إلى الأغراب حيث قال^(٢) :

يارب معنى بعيد الشأو أسلكه في سلك لفظ قريب الفهم مختصر
لفظا يكون لعقد القول واسطة ما بين منزلة الإسهاب والخصر

(١) ديوانه ص ١٨٧ .

(٢) ديوانه ص ١٨٧ .

وفي معانيه الجديدة قوله مادحاً ، وأكثر من ترديده :

وما تنجع الأقلام إلا بكفه ويغلب غير الليث في كفه ظفر
يعيده مرة أخرى فيقول :

لولا لم يقض في أعدائه قلم ويغلب الليث لولا الليث كالظفر
ومن تلك المعاني ما يدور حول السيادة ، والخطابة والإمامة وسداد الرأي وما
إلى ذلك ، كأن يقول :

يغضى طبيته الزمان إذا انتضى غضب المناير باثر الحدين
متقلد من رأيه وحسامه سيفين قد نبطا إلى كتفين
وفي الكبرياء — جر الرداء كقوله :

لا زلت في رتب المعالي ساحبا ذيل المكارم مسيل الكمين
ويذكر القتال من عمل الرماح معنى جدد في صورته ، فالقداشي قالوا إن
الممدوح يسلك في رجه الرؤوس وغير ذلك ولكنه يعدل فيه فيقول :

كأن سنان الرمح سلك لناظم غداة الرغى ، والدارعون جواهر
ترد أنابيب الرماح سواعد ومن زرد الماذى فيها أساور

ومن معانيه الجديدة في المديح التي ذكرها الصفدي قوله في مديح ابن المفرج :

تلبية من آل المفرج إن دعا أسود لها يبيض السيوف أظافر
تراه لقرع البيض في البيض مصفيا : كأن صليل الباترات مزاير
وحسفت به الآمال من كل جانب كما حف أرجاء العيون الحاجر

ويتعقب كثيرا من الشعراء السابقين ، وعلى رأسهم أبو الطيب المتنبي ، فقد
أكثر الاعتماد عليه ، وربما كان ذلك لتقارب طبع الشاعرين ، واتفاقهما في بعض
هموم الحياة .

يقول :

أكلف أقلامي تبلغني المتى وقد عجزت عنه الرديئة السمر
وإن لم تنل بالبيض تخضيبا الدما فأهون بأقلام يخضبها الحبر

وهو من قول المتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد نسييف ليس المجد للقلم
وإن كان أصله عند أي تمام في قوله :
السيف أصدق أنباء من الكتب
ويقول التهامي :

فلا يفر الأعداء منه ابتسامه
فإن قصب السيف عند ابتسامه
وهو من قول أبي الطيب :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظن أن الليث ميسم
وينظر إلى معاني أي تمام في مثل قوله :
قري العين جفنها على الخد فالتقى
بأدمعها والميسم الدر والدر
وفي قوله :

ذري أهب للمجد شرخ شيبتي
فإن لم أهادرها استبد بها العمر
فقد ألم يقول الطائي :

عَلَّتْ تستجير الدمع خوف نوى غد
وأجرى لها الإشفاق دمعا موردا
وعاد قتادا عندها كل مرقد
من الدم يجري فوق خد مورد
ويقول أبي نواس :

ذري أكر حاسديك برحلة
إلى بلد فيه الخصيب أمير
وفي غزله يشكر كذلك بعض المعاني ، يلتقى مع سابقه في كثير منها ، وتراه
يتبدى أحيانا ، فيقول (١) :

ريانة الخلخال ظامئة الحشا
هر كولة خرعوبة الساقين
ويسلك طريقة المحدثين وأهل الحضر فيقول :

(١) ديوانه ص ٤٠٦ .

قلت لخلي وزهور الربا ميتسمات ، وثغور الملاح
أيها أحلى ترى منظرا فقال : لا أعلم كل أقاح

ويعيد صياغة هذا المعنى في معرض آخر ليقول :

وضاحكن نور الأقحوان فقال ل خليلي أي الأقحوانين أعجب ؟
فقلت له لا فرق عني وإنا ثغور الغواني في المناقة أعذب

ويعيد معاني القدامى في لفظ جديد ، كأن يقول في المعنى القديم لعمل عيون
المرأة في العاشق :

قالوا: قتلت بصام من طرفه فيما زعمت ، وما نراه بقان
فأجبت: خير البيض ماسفك الدما فمضى ولم يتخضب الغربان
وغربا السيف جانباه .

ويتأثر بالمتنبى في هذه المعاني الغزلية كما تعقبه في معاني المدح فيقول في مدح
الفرار على خدى المرأة :

لم أنسها تشكو الفراق بأدمع ما اعتدت بالخذ الأسبيل مسبلا
وهو من قول المتنبى :

بكت غير أنسة باليكا ترى الدمع في مقلتها غريبا
ويقول^(١) :

كيف السبيل إلى لقاءك في الدجى والليل حيث حللت منه مقمر
من قول أبي الطيب :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء
ويكرر هذا المعنى التهامي في قوله بصياغة مغايرة وإن كانت تلم بمناصر من
صياغة المتنبى في قوله^(٢) :

الليل حيث حلل فيه نهار فلنا ليالى وصلهن قصار

(١) ديوانه ص ٢٢٨ .

(٢) ديوانه ص ٢٠٨ .

ويركز التهامي في غزله على الطيف ، ويأتى فيه بكثير من المعاني الجيدة ، وقد اختار الصفدى من معانيه في الطيف قوله :

خليلي هل من رقنة أستعيها لعل بأحلام الكرى أستزيها
ولو علمت بالطيف عاقته دوننا لقد أفرطت بخلا بما لا يضيرها^(١)
ومن شعره في الطيف قوله :

زارني في دمشق من أرض نجد لك طيف أسرى ففكك أسرى
فاجتني يدور نجد بأرض الشام بعد المكنو بدرا فبدرا
وأراد الخيال - لقيى فصيرت للقيى دون المرافف سترا
فاصرف الكأس من رضا بك عنى حاش لله أن أرشف محمرا
ولو أن الرضاب غير مدام لم تكوني في حالة الصحو سكرى
قد كفانا الخيال منك ولو زرت لأصبت مثل طيفك ذكرى

وفي غزله غزل رقيق ، وفيه شكوى انصراف الملاح عند طلوع الشيب من مثل قوله :

صددت إذ عادر روض الرأس دازهر الشيب عندك ذنب غير مغتفر
لا در در بياض الشيب إن له في أعين الغيد مثل الوقر بالإبر
سواد رأسك عند الهائمين به مُعَادِلٌ لسواد القلب والبصر
قد كان مغفر رأسي لا قهر له فصيرته قتيلا صبغة الكبر

وللتهامي في شكوى الزمان والكبر أبيات كثيرة جيدة ، وعلى أن وجهته التي خلدها شعره فقله لابنه ، وقد أعجب بها العلماء وردوها في كتبهم ، وذكرها الصفدى من بين ما ذكر من عيون شعره كاملة وهي رائيته التي يقول عنها : وله القصيدة الرائية المشهورة التي رثى بها ابنه ، وقد سارت مسير الشمس وهي من الكامل^(٢) :

حكم النية في البية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
بيننا يرى الانسان فيها مخيرا حتى يرى خيرا من الاختيار

(١) الوال بالريكات ٢٢ / ١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٢١ .

طبعت على كدر وأنت تريدها صَفَوْا من الأقداء والأندكار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جنوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما تبني الرجاء على شقيهم هَلْ
العيش نعيم ، والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سار
فاقصوا ما ربكم عجالا إنما أعماركم سفر من الأسفار

ويروى الصنفى كما روى غيره من قبل أنه رأى بعد موته في المنام ، قيل له :
ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي . قيل له بأى الأعمال ؟ ، قال : بقولى في مريئة
ولد لي صغير وهو :

جاورت أعدائى وجاور ربه شتان بين جواره وجوارى

ألفاظه وتعبيراته وصوره :

قلنا إن شعر التهامى يتردد بين روح البداوة والحضر وقد كانت البداوة غالبية
عليه أول الأمر ، حين وفد من البادية أو تهامة ، لكن هذه البداوة خفت حلتها ،
وقلت آثارها في شعره بعد إقامته في الشام وحواضر العراق زمنا ، وخالط من فيها
من الأدباء والشعراء فرقت ألفاظه ، وتشكلت تعبيراته وصوره بألوان حضريه ،
وإن عاودته من حين إلى آخر بلادته .

ومن الصور البدوية في لفظ بنوى قوله مرثجرا :

وَعِزَّةٌ زُهَّافَةٌ تَحْدَفُ الْحَصَى غُرْبِيَّةٌ يَغْتَالِمُ الْقَيْدَ وَاللَّصْبُ (١)
طَوَاهَا النَّوَى وَاجْتَا حَهَا الْأَزْمُ السَّرَى فلم يبق منها لا عنيق ولا جذب
قَطَعْتَ عَلَيْهَا بِالْدِيَا جَى وَالضُّحَى وفى حومة التهجير والآل منصب
إِلَى بِلَدٍ ذَلَّتْ لِعَزِّ مَلُوكِهِ ملوك البرايا والأعاجم والعرب

وكنا في قوله من غزل يذكر بنسب القدامى في الجاهلية :

سقى العهد من هند عهدا من الحيا ضحكك ثنايا البرق متعجب الرعد
يحل عقود القطر بين معاهد تحمل بها من قبل دية العقد
فتاة أرى الدنيا بما في نقابها وألقى بما في مرطها جنة الخلد
هي الشمس تحفى الشمس عنها إذا انتحت قضاضية الأحوال مَهْرِيَّةُ الْجِدِّ
(١) المروانة : الناقة الشطلة — وغريرة نسبة إلى غرير فعل من الإبل ، اللَّصْبُ : الجلد اللاصق باللحم من

الغزال .

وقراءه يستخدم في أساليه التصويرية عناصر من طبيعة الصحراء ، في وهادها
وحيطانها ونباتاتها كمعادة الشعراء القدامى من ساكنى البادية ومن شاكلهم أو سار
على طريقتهم . ومن صوره الملحوظة التى تتردد فى قصائده صورة السماء
بنجومها ، يقول من قصيدة :

فمرت أعرى فى ذيل الدجى ولها	والجو روض وزهر الليل كالزهر
وللمجرة فوق الأفق معترض	كأنها حبيب يطفو على نهر
وللغيا ركود فوق أرحلنا	كأنها قطعة من فروة النمر
وأدهم الليل نحو الغرب منهزم	وأشقر الفجر يتلوه على الأثر
كأن أنجمه والصبح يغمضها	قسراعيون غفت من شدة السهر
فروع السرب لما ابتل أكرعه	فى جدول من خليج الفجر منفجر

فهذه الخيالات البدوية القرية التى خيلت له من نظره للسماء سمة واضحة من
سمات شاعريته ، نقف أمام تشبيهه للثريا بفروة النمر ، وصور النجوم فى ضوء
الصباح المثل من المشرق آخر الليل بالسرب الذى ابتلت أكارعه — أرحله — فى
جدول الماء .

وإذا كان قاموسه اللغوى قد حوى كثيرا من لفظ القدامى ، فهو يستخدم
أحيانا بعض التعبيرات القرآنية والإسلامية مثل قوله :

إذا أنشدت فى ناد قوم أكارم
يخرون للأذقان إن ذكر الرب
قوله ويذكر الخضر العبد الصالح :

وشرقت حتى لم أجدلى مشرقا
وغربت حتى قيل هذا هو الخضر

يحلّو له أحيانا استخدام بعض صور البديع كالجناس على طريقة أى تمام من
مثل قوله :

وتركت أعينهم بصور فى الوغى
صورا، وقد جآح الزرى ماجاحا
وكقوله :

أتى تروم الروم حريك بعدما
لم يترّم قط بك الإمام مراده
صليت بحريك محرما ملحاحا
إلا جلوت عن الفلاح فلاحا

وكتوبله :

وإذا هزك الإمام لحرب أو لسلام ، فأنت نصر ونفيل

وقوله :

وهذا ابن يحيى إلى فضله تنض الركاب ، وتنضى المطى

المؤيد في الدين داعي الدعوة^(١) (ت سنة ٤٧٠ هـ)

هبة الله بن موسى بن عمران الشيرازي

نشأ في بلده ، من أسرة اعتنقت الإسماعيلية مذهباً ، ودانت للفاطميين ولاء وكانت شيراز موطن الأسرة ، وإليها نسب الداعية الشاعر ، وبها عرف . ونبغ وتفقه في الدعوة ، وكانت به موهبة الشعر والجلد ، عرف بقوة المعارضة والذكاء وحسن البيان .

ولما بلغ مبلغ الشباب طمحت نفسه إلى أن يجد له مكاناً بين الدعاة ، واتصل بأبي كاليجار السلجوقي وعائشه زمناً حتى طلب إليه مغادرة البلاد . وكانت سنة آنذاك تسعاً وعشرين عاماً . وكانت مهمته محاولة الدعوة للمستنصر الفاطمي . .

وجاء إلى مصر سنة ٤٣٨ هـ بعد أن تجول زمناً في العراق والشام .

قال الدكتور محمد كامل حسين : « سار المؤيد إلى مصر وهو بين عاملين ، كان عنده أمل فيما سيلقاه من نعيم وتقديم ، إذ كان وحيداً في علمه وحجته ، خدم الدعوة وأيدها بمنطقه وبيانه ، وكان بجانب أمله هذا يائساً أشد اليأس لأن إمامه غير متصرف في شئون بلاده ، وأن قوة أخرى كانت تدبر البلاد ، هي أم الخليفة المستنصر »^(٢) .

وعند وصوله إلى مصر كان متولى الوزارة الفلاحى فخر الملك صدقة بن يوسف (قتل سنة ٤٤٠ هـ) ، فأكرمه الوزير ، وأمر بأن تجهز له دار . قال عنها : « دويرة فرشت لى هى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال » .

(١) قام الدكتور محمد كامل حسين بدراسة جامعة والية له ولشعره في مقدمة ديوانه ونقش هنا من هذه الدراسة ما يترّف بهما .

راجع ديوان المؤيد بتحقيق وتقديم الدكتور محمد كامل حسين طبع دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٩ م .

(٢) مقدمة الديوان ص ٣٥ .

وكان يتولى الدعوة أو منصب داعي الدعاة أهر حفلة القاضي النعمان الداعية ، واسمه القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان . كان يتولى القضاء والدعوة معاً ، وخشى من منافسة هبة الله له ، فعمل على إبعاده من مصر . وكان قد عزم على الرحيل لِمَا أَحْسَ بَضِيقِ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ ، ومنعهم له من الاتصال بالخليفة المستنصر .

وتمكن من الوصول إلى الخليفة في شعبان سنة ٤٣٩ هـ ، وسجد عنه رؤيته تحية له ، وألجم عن الكلام وانعقد لسانه قال يحكى ذلك : « ولما رفعت رأسي من السجود ، وجمعت عليّ ثوبي للعود رأيت بنائاً يشير إليّ بالقيام لبعض الحاضرين في ذلك المقام ، فقطب أمير المؤمنين — يعنى المستنصر — خلد الله ملكه — وجهه عليه زجراً ... ومكنت بحضوره ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ، ولا يهتدى لقول . » .

وعين أستاذاً بدار الخلافة ، وقويت علاقته بأمر المستنصر ذات الثغور وعين في الوزارة الجرجاني فاليازوري . وكانت بينه وبينهما أحداث . وتولى دار الإنشاء . وكان يطمع في مرتبة داعي الدعاة ، ومازال يسعى لها حتى بلغها واشترك في مؤامرة البساسيري للدعوة للفاطمين بالعراق سنة ٤٤٦ هـ ، ولكن المؤامرة فشلت ، واستعاد طغرل بك السيطرة على بغداد وشمال العراق .

ولم يجد المؤيد بدءاً من الحرب فغادر العراق بعد مقتل البساسيري إلى حلب ثم عاد إلى مصر ، وعين داعياً للدعاة سنة ٤٥٠ هـ ، وظل كذلك حتى توفي سنة ٤٧٠ هـ وصلى عليه المستنصر ودفن بدار العلم بالقاهرة .

شعره

هذا عن حياة المؤيد ، واجتهاده في الدعوة للفاطمين ، وأما شعره فقد نبض بحماسة للإسماعيلية كمجالسه ، وكان خطاباً ينفث من خلاله تعاليمهم واعتقاداتهم . ولا نقف طويلاً عند هذه المعاني فقد وفاهما غيرنا^(١) والمجال لا يتسع للحديث فيها . وبهنا بالدرجة الأولى شعره الخالص الذي لا يستهدف الدعوة ، وليس بوقفاً خالصاً لها ، وإن لم يخل شعره له من ذلك .

(١) وفي ذلك الدكتور محمد كامل حسين في حواشي التي أضربنا إليها .

وكان لألمامه بالديانات والمذاهب أثره في شعره ، كما كان لسعة اطلاعه في العلوم العقلية والنقلية آثارها كذلك ، ويشبهه الدكتور محمد كامل حسين بأبي العلاء في ذلك . يقول : فأبو العلاء والمؤيد هما الشاعران اللذان استطاعا أن يصفيا في شعرهما اختلاف عقائد الناس في عصرهما ، وأن يتحدثا عن الفرق الدينية والآراء الفلسفية ، وغير الفلسفية ، وعن الحياة وعن الموت ، وعن دقائق الكائنات العلوية والسفلية .

ولم يكن هبة الله من البيان ، ولما وهب من شاعرية ، اكتسب قوله الشعرى جمالاً ، ورونقاً ، ولم تؤثر فيه القضايا العقلية والمذهبية ، بحيث تذهب برونقه جميعاً ، ويصبح مجرد صحائف دعوة وحجاج .

ونعثر بكثير من قصائده التي يخلو فيها إلى نفسه ويتحدث عن هموم ذاته وعواطفه ومواجهه ، آماله وآلامه ، وأحاسيسه بالحياة والناس من حوله . ومعظم شعره في هذا الجانب غير العقائدي يدور حول ذاته ، ولم يهتم بما حوله من صور الحياة والطبيعة ، فلم يتحدث عن النيل ومصر ومتنزهاتها وبساتينها وأديرتها كما فعل غيره من الشعراء من السابقين أمثال تميم والعقيل ، ومن عاصره كذلك قبل جماعة الأفضل .

وكان إحساسه بالذات متضخماً ، فانعكس على قوله بالمبالغة في الاعتداد وقد يتصاغر أمام الأحداث ، فتهزه بملأه ، وتذعره بقوله :

فالطير إن طار صرث مرتجفاً والطيء إن طاف أنزوي ألماً
على جرأته واقتداره في اقتحام الأخطار ومواجهة الأحداث في حياته .

وفي شعره رنة أسمى حزين ، وصوفية تتردد أصدائها هنا وهناك أحياناً ، فيخبر عن رغبته في الموت للخلاص من عناء الجسد وحياة المادة إلى دنيا الروح ، ويُتمثل الجسد سجناً كالصوفية :

ريحانتي الموت وباب أمني إذ كنت أرجو نخلصي من سجنى
ولا شك أن هبة الله قد حفظ كثيراً من الشعر العربي القديم وتأثر به ، فأثار ذلك بادية في مواضع كثيرة من قوله . وكان للمتيب نصيب وافر من شعره في

اللفظ والمعنى ، وقد أشرنا في مواضع من كتابنا هذا إلى ما كان للمتنبى من أثر على شعراء العصر . وقد يضمن من قوله كما قال :

ففلنوت باللائواء مفصوم الثرى من طول ما تعادلى اللائواء
مترنماً دهرى ببيت قاله من ليس ينكر فضله الشعراء
« وشكىنى فقد السقام لأنه قد كان لما كان لى أعضاء»

ويستعين بالقرآن الكريم ، فيضمن بآياته ، ويشير إلى قصصه وأخباره ويوظفها في معانيه . كقوله :

فلما طفى الماء أجزى به سفينته ربه فى العباب
مستعيناً بالآية : (إنا لما طفى الماء حملناكم فى الجارية) .

ونمثل ببعض شعره ليقفنا نصه على مضامينه وفنه . ونقتبس من أول شعره فى الديوان قوله فى وزن الرجز على شكل الشعر التعليمى . يقول :

حَمَلْنَا لِرَبِّ قَاهِرِ السُّلْطَانِ فِرْدَوْسَ مَلِكِ بَاهِرِ الرِّهَانِ
أَتَقِنَ كُلَّ صَنْعَةٍ وَأَحْكَمَا مِنْ ذَا يُرْدُّ مَا بِهِ قَدْ حَكَمَا
جِكْمَتُهُ خَافَقَةُ الْأَعْلَامِ تَرِيكَ وَجْهِ الْحَقِّ ذَا اهْتَسَمَ

ويقول فيها :

كَمْ نَظَرُ بِعَقْلِهِ لَا يُصِيرُ وَمُبْصِرُ بِالْقَلْبِ لَا يَسْتَبْصِرُ
وَنَظَرُ الْمَرْءِ لَهُ شَرَائِطُ تَارِكُهَا فِي الظُّلُمَاتِ تَخَابُطُ
كَذَلِكَ الْعَقْلُ لَدَى التَّبْصِيرِ بِذَاتِهِ فِي حَيَازِ التَّخْيِيرِ
إِلَّا بَنُورٍ عَاضِدٍ مِنْ خَارِجٍ فَعِنْدَهُ يَمْرُجُ فِي الْمَعَارِجِ
وَلِئِمَّا أَمْتَا تَفَرَّقُوا إِذْ بَيْنَ ذَا بَيْنَ ذَاكَ فَرَّقُوا
وَأَصْبَحَتْ عَقُولُهُمْ مَخْتَلَةٌ سَقِيمَةً ، نَفْسُهُمْ مُخْتَلَةٌ
فَسَلَبُوا سِدَادَ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وَخَرَّضُوا قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ
وَنَقَضُوا قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ كُلَّ لَهُ مَقَالَةٌ شَنِيعَةٌ

وهى أرجوزة طويلة تعليمية كما قلنا ضمنها أصول العقيدة ، وأراد بها الدعوة للمذهب .

ويقول في مدح الفاطميين والأمة الإسلامية :

فُديتْ خَيْرَ أُمَةٍ قَدْ أُخْرِجَتْ للناسِ تَنْفِي الرِّيبِ عَنَّا وَالْحُلُلِ
الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ فِي الدُّجَى وَالطَّيِّسُونَ الطَّاهِرُونَ وَالنَّبِيلِ
الْفَاطِمِيُّونَ الصَّنَادِيدُ الْأَوَّلَى هُم مَن جَبَالَ الْفَضْلَ وَالْفَخْرَ الْقُلُلِ

ويوجه حديثه إلى الخليفة الفاطمي :

بِكَ اعْتَلَى فِي الْأَفْقِ نَجْمٌ لِلْهُدَى وَمَنْكَ حَقًّا نَاجِمٌ الْكُفْرِ أَقْلُ
يَا قِبْلَةَ الْأَرْوَاحِ يَا مَنْ نَحْوَهُ تَوَجَّهْتُ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ الْبَقْلُ

ونلاحظ أنه كثيراً ما يعتمد في مدائحه للأئمة إلى البدء مباشرة في الموضوع ، وإلا فيبدأ بالشكوى ، فما بدأ به مباشرة قوله :

اللَّهُ يَنْشُرُ رَايَةَ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ ، مَوْلَانَا الْإِمَامَ الْأَطْهَرَ
وَيُثْمُ نَوْرَ أُنَى تَمِيمٍ حَالِيَا بَسَنَاءُ أَعْنَاقِ الظَّلَامِ الْأَكْبَرِ
وَيَدِيمُ دَوَكْتَهُ وَيَجْبُرُ كَسْرَنَا لِي «الظاهر» الْعُصْنُ الرَّطِيبُ الْأَخْضَرِ

وبما بدأ به بالشكوى قصيدة يستهلها بالحديث عن الغربة ، ولعله يقصد
الغريبتين الجسدية والنفسية حيث يقول : (ولعله قالها بمصر أيام أزمته مع داعي
الدعاة واليازوري) .

يَا لِلتَّغْرِبِ أَنْتِ بِهِيَ اللَّدَاءُ تَمَغْنَاكَ فَقْرٌ ، وَالْعَطَاءُ عَنَاءُ
وَالْعُرْ ذُلٌّ ، وَالسَّعَادَةُ شَقْوَةٌ وَالْيَسْرُ عُسْرٌ ، وَالْبَقَاءُ فَنَاءُ
وَالْعَرَفُ مِنْكَ التَّكْرُّ إِنْ يَوْمًا أَلَى أَلَى وَحَالُكَ كُلُّهَا نَكْرَاءُ
يَا غَرْبَةً أَغْرَبْتُ مِنْهَا فِي مَكِّي مِنْ دُونِهِ قَدْ أَغْرَبْتُ عَقْبَاءُ
وَمَسَافَةً أَعْرَضْتُ الْبَسِيطَةَ دُونَهَا قَطَعْتُهَا فَرَقْتُ لِي الْبِيدَاءُ
أَضْلَلْتُنِي فِي الْأَرْضِ بِلِ الْفَتْنَى فِي الْيَمِّ مَا لِي فِي التَّجَاةِ رَجَاءُ
وَمَسَحْتُ مَاءَ الْعَيْنِ إِذْ فَوَّغْنِي رَوْقُ الشَّبَابِ فَمَنْهُ غَيْضُ الْمَاءِ
مَزَقْتَنِي بِالذَّلِّ كُلِّ مَزَقٍ وَالذَّلُّ يَصِلُ نَارَهُ الْغَرْبَاءُ
قَدْ كَثَّ أَقْرَبُ الْأَسْوَدِ بِفَارِسٍ فَالآنَ تَهْضُ لَاقْرَاسِي الشَّاءُ

ويعنى في هذه الشكوى من الغربة. حتى يصل إلى مملوحه المستنصر
فيقول :

فَطَعِ الزَّيْمَانَ بِحَبِّ آلِ مُحَمَّدٍ
وَلِقَاءَ كُلِّ شَدِيدَةٍ مُسْتَهْلٍ
خَيْرِ الْأَنْامِ أَيْ تَمِيمٍ، مِنْ لَهُ
مُسْتَنْصَرٌ بِاللَّهِ أَيْدُ نَصْرُهُ

وَيَسْتَجِدُّهُ لِيَرْفَعَهُ عَنِ الضَّرِّ فَيَقُولُ :

إِلَى أَتَيْتُكَ يَا ابْنَ بَنَاتِ مُحَمَّدٍ
أَلَيْتُ فِي الْبَلَدِ الْأَمِينِ مُرَوَّعاً

وَلَهُ فِي الشُّوْقِ وَالْحَبِّ فِي مَطْلَعِ مَدِيحَةٍ أُخْرَى :

غَدَا الْبَيْنُ مِنْ حُبِّنا مُسْتَحِيلًا
فَلَهْفِي عَلَى مَهْجَةٍ بَيْنَهَا
فَدَيْتُ الَّذِي بِكَمَالِ الْجَمَالِ
فَلَمَّا رَأَيْتَنِي مُسْتَأْمِرًا

وَيَسْتَخْلِمُ بَعْضُ الْعِبَارَاتِ الْقِرَائِيَّةُ :

وَقَلْبِي عَلَى النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ
سَلَاةٌ لِمَاذَا اسْتَحَبَّ الْبِعَادُ
فَلَوْ حَمَلْتُ بَعْضَ مَا فِي الْجِبَالِ
وَيَذَكِّرُ بِثِقَةٍ وَجْهِلاً :

وَكَانَ وَكُنْتُ بِفِرَاطِ الْهَوَى
يُحَاكِي بَيْنَ، وَأُخْكِي جِيلًا
وَهُوَ فِي شَعْرِهِ لَا يَتَّعَمِدُ التَّصْنَعُ، وَأَسْلُوبُهُ جَارٌ، نَثَرَى التَّرْكِيبَ وَالْأَدَاءَ لَا
يَلْقَى بِالْأَلَى رِصَانَةَ الْبِنَاءِ، وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ (١) :

أَهْلًا بِأَهْلٍ وَدَادَنَا
أَهْلًا مِنْ قَلْبِي لَهُمْ
فَرَّقْتُ شَمْلِي يَا فِرَا
مَا كُنْتُ أَرْضَى عَيْشَةً

أَهْلًا بِذَكَرِهِمْ وَسَهْلًا
بَيْتٌ وَقَدْ سَكُنُوهُ أَهْلًا
قِي وَخَائِنِي جَلْدِي فَمَهْلًا
فِي فِرْقَةِ الْأَحْبَابِ كَلَّا

(١) ديوانه ص ٢٧٨ .

وعمل كثيراً إلى الصنعة البديعية ، وبخاصة الطبايق والمقابله والجناس ،
ويوظفها جميعاً لمعانيه ولا يتكلفها. كأن يقول (١) :

يا أنيسَ الفؤادِ بُعداً وقرباً لم يَلْزِ لي الفراقُ عقلاً وقلْباً
كأنَّ حُرَّ الأهوايِ عنديَّ يردُّ وشراباً ، عذابه لي عذبا

ويجانب في هذه القصيدة نفسها .

فيقول :

شُقْ مِنِّي الفؤادُ شقًّا واشقِّ بالضَّاء شقًّا إلى الوصل صَبًّا

وصنعه هنا شبيه بصنيع المتنبي في قوله :

وقلقلْتُ بالهمِّ الذي قلقل الحشا قلاقل عيش كلُّهُنَّ قلاتلُ

وهو قريب الخيال والصورة ، لا يغرب ، ويتناول الجارى القريب كقوله

في مدح الفاطمي :

قل لابن عباسٍ ليهنك إثني حيث اعتزرت به أدلُّ ذليل
ولطالما رهقتك مني ذلة من قبل تدنٍ للحمولِ حُمولي
ورما بنا قوسُ الثوى عن عهدكم كم لي هنا لك من أيح وعديل
أسرى ، وأسرى مركبي وندامتى زأى ، وخوف في الفلاة دليل
وشققت جيبَ الأرض شقًّا نحو من وقفت لديه ركائبُ التأمل
فرايتُ نبلاً فائضاً تمساحه مُشَمَّرٌ يحمى حرِّم النبيل

وقد وظف صورة البيعة المصرية في النبيل. وقاسميه .

ويستعير بعض خياله الديني من القرآن فيقول :

ونفسٌ خلّاهما نقشُ توحيد ربِّها فنعم الخلقُ التاجُ والقرطُ والشنفُ
نضىءُ كمصباحٍ بدا في زجاجةٍ خلافاً لأقوامٍ قلوبُهُم غُلْفُ
وآل النبي المصطفى كهفها الأول لها بالولا في طودٍ مجدهم كهفُ

وشعره عامة لا يرق إلى مرتبة المحترفين ، وربما غلب عليه ، وعلى قريحته

أفكاره الدينية ، وعمله كداعية ، ومرشد يعلم الناس أصول العقيدة ومن هنا

كانت بساطته وتسهيله في العبارة وقرب المورد وكثرة الاستعانة بالقرآن الكريم لفظاً

ومعنى ، وكثرة الاستعانة بمصطلح علوم الدين .

(١) ديوانه ص ٢٤٠ .

ابن حيّوس (محمد بن سلطان)

(ت ٤٧٣ هـ)^(١)

هو أبو الفتيان محمد بن حيّوس الشاعر الشامي الأمير الدمشقي الموطن والنسبة ، أحد الشعراء المعروفين في القرن الخامس ، بل لعله أشهر شعراء الشام في النصف الثاني من هذا القرن . له ديوان شعر كبير . وقد اهتم بجمع ديوانه جماعة من رواته وتلاميذه .

وأجوده ما جمعه ابن البين المعري نزهل مصر . فهو أكبرها وأجمعها . ولد ابن حيّوس سنة ٣٩٤ هـ بدمشق ، وتنقل في ربوع الشام بين دمشق وحلب وقصد القاهرة فمدح بعض خلفائها الفاطميين ، وكان ذلك في عصر المستنصر وابنه الأمر . وقصد الوزير الخطير الأفضل بن بدر الجمالي ، والتقى في قصره ببعض شعراء المصريين وغيرهم .

ومدح من قادة الفاطميين الأمير المطفر أنوشكين الذري البربري أمير الجيوش ومن كبار قادة المستنصر بالله .

وشارك بشعره في تسجيل أحداث العصر الفاطمي في هذه المرحلة الخطورة من مراحل الصراع بين الفاطمية والعباسية ، والفاطمية والأتراك السلاجقة وما خلّده ، وقعة الباساسيرى في سنجار وانتصاره على طغرل بك السلجوقي سنة ٤٥٠ هـ وإقامته الخطبة للخليفة الناصر بيغداد . يقول :

عجبت المُنْهَنِي الآفاق مُلكاً	وغايته بيغداد الرُّكُودُ .
وَمِنْ مستخْلِفٍ بالهُيُودِ يَرْضَى	يُنَادُ عَنِ الحِياضِ ولا يَنُودُ
وأعجبُ منهما سيفٌ بمصر	تُقامُ به بسنْجارِ الحُلُودُ

وكان ابن حيّوس منذ شبابه متعلقاً بالقائد الذري رجل الفاطميين القوي بدمشق وأميرهم بالشام ، والذي مكن للملكهم بقهر كثير من أعدائهم من أمراء العرب وقادة السلاجقة . وبخاصة هزيمته للمرداسيين الكلايين بحلب .

لقد عاش ابن حيّوس بدمشق إلى جوار أميره المفضل الذري ، بمدحه بالقصائد الطوال ، وينود عن الفاطميين بشعره ، ويهاجم أعداءهم من العباسيين

والمرداسيين والسلاجقة . وبعد وفاة النزيرى مدح خليفته ، وبعض أمراء دمشق من قبل الفاطميين ، واتجه بهمه إلى القاهرة قَصَبَهُ الملك ومركز الخلافة . وكان اتصاله بالوزير المثقف القوي اليازورى ، وبعض الوزراء من بعده .

وتعددت رحلات ابن حيّوس إلى القاهرة بمدح اليازورى وغيره من وزراء المصريين حتى تغيرت أحوال الدولة في حكم المستنصر وتآلب الأعداء على القصر من الداخل والخارج ، وعمت الفوضى الشام ومصر وتدخل بعض الثوار بالشام في شؤون الدولة ، وعصى بعضهم واستقل بأجزاء من الشام .

وعانت دمشق من الفوضى والإضطراب . وطردت أمورها الأرمنى بدر الجمالى ، وعاد هذا القائد إلى مصر فاستنصره المستنصر ، وتمكن من اخداد الفتنة ، واستعادة الأمن والانضباط .

وخلفه بعد وفاته ابنه الأفضل ، فسار على سياسة والده ، بقية خلافة المستنصر بالله .

ولم يجد ابن حيّوس بدأ من مغادرة دمشق بعد أن نهبت داره وأخذت أمواله . وعاد لا يملك ما يكفل له الحياة الكريمة التى كان يحياها من قبل في صحبة النزيرى .

فغادر دمشق كسيف البال ليَجول جولة في بلاد الشام وتغورها قاصداً بعض القضاة ذوى النفوذ في طرابلس وصور .

ولتلقى باين منقذ الشاعر أسامة ، فيصل بينه وأمر حلب من المرداسيين ويظل ابن حيّوس بحلب حتى وفاته .

وفي حلب ، وهو يخدم آل مرداس الكلايين العامين ، أعداء الفاطميين يضطر إلى أن يغير من أقواله ، وأن يعتذر أحياناً عما كان قاله من قبل في هجائهم وهو بدمشق أيام كانت علاقته بأنوشتكين النزيرى قوية ، وكان شعره عندئذ مليئاً بالحماس والتأييد له وللفاطميين . والهجوم على أعدائهم عباسيين وسلاجقة وغيرهم .

عاصر ابن حيّوس إذاً من خلفاء الفاطميين الظاهر ابن الحاكم والمستنصر وعرف من كبار وزراءهم أبا الفرج البائلى واليازورى الوزير الخطير ، وبدر الجمالى .

ودار معظم شعره في المدح ، واضطر إلى الدفاع عن عقائد الاسماعيلية
وسلطان الفاطميين على غير عقيدته السنية .

وهكذا كان ابن حيوس في حياته وشعره دائراً في فلك الدولة وامرائها منجذباً
إليهم ، تابعاً ، ليست له شخصية مستقلة واضحة المعالم ، يختلف في ذلك عن
الشاعر التهامي الذي عمل زمناً مع الفاطميين لكن كانت له طموحاته ،
وشخصيته المتميزة في شعره .

وشعر ابن حيوس يمثل هذه المرحلة بعينها ، وهو في أسلوبه وبناؤه يتطبع
بالتابع التقليدي ، يميل إلى طريقة أبي تمام ، لكنه بعيد عن ابداعه وصياغته
الفذة ، فهو يحوم حول حماه ، ويحكي لكن فاتة الشنب كما قال الشاعر المتأخر .

ومن الملاحظات التي أشار إليها محقق الديوان طول نفس الشاعر في قصائده .
يقول : « وهو من أطول الشعراء بنفساً ، تتراوح أبيات قصائده بين السبعين
والمائة ، وقد تزيد ، وليس له من المقطعات إلا مقدار يسير ، يشابه في طول نفسه
ابن الرومي ومهيار الديلمي ، ويقصر عن الأول في ابتكار المعاني وتعدد
المناحي » (١) .

وليس في شعره ألمعية تميزه ، وهو صائب للكلام ، غير مبدع للمعاني . له قاموس
لفظي يتردد في قصائده ، حصله من محفوظ كثير للشعر العربي وقراءات متعدد
لجوانب من التراث الديني واللغوي والتاريخي .

وكل شعره على تعدد مراحل حياته لا تتفاوت جودته بصورة مميزة وإن بدا في
آخريات حياته أجزل صياغة ، وأكثر اقتداراً على امتلاك وسائل التعبير .

ونسوق أمثلة من مراحل حياته المميزة في شبابه ، وكهولته وهرمه منها ما قاله في
دمشق في مملوحه الذي استغرق معظم شعره في مراحل الشباب وأعنى أنوشكتين
القائد التركي وإلى الشام .

يقول فيه : (سنة ٤٢٨ هـ) ، ويذكر هزيمته مع الروم :

عاذَ بالصَّنَجِ من أحبِّ البَقَاءِ	واحتمى جاعِلُ الخُضُوعِ وقَاءَ
فلتَمَّ أمةَ المسيح طويلاً	كفَّ من يَمْنَعِ العَيْدِ الإغْثَاءَ

(١) مقدمة الديوان ص ٣٢ .

مَلِكٌ يَطْلُبُ الملوكَ رضاهُ
قَسَمْتُ راحتهُ جوداً وفتكاً
ما بهرتُ العقولَ يا معجز الآيا
هَدَيْتُهُ بَقْتُ النفوسِ على الرُّو
وإن استعجمَ المقالُ فدَى الأفعالِ
حتى يقول :

لو تيمَّمتُ أرضُ خِفَافٍ يوماً
لأَحَلَّتْ الزئيرَ فيها عواءَ

أَيُّ حَيفٍ وللخِلافةِ سَيْفٍ
فلتفاخرِ بحمدهُ بعد عِلْمٍ
ما غَلَفَتْ عن صلاحِ هذا الدَّيْبِ
رُفَّتُهُمُ بالأبائِ والنَّصِيحِ ، فالآ
وَأَبَتْ الغنى لِمَنْ عن جميعِ الدِّ
ثَوَّقَتْ النَّارَ في الظُّلُمِ ولكنْ
ويقول :

لم تَزَلْ مُبْدِعاً ، فلم أَذِرْ إلهاً
أَمِ أَصَارَ السُّمُو قَسَمْتُكَ منْ

وقال يمدح الوزير اليازورى : (في حلود سنة ٤٤٢ هـ) : ويذكر مشاركته
وتدبيره مع البساسيري في الخروج على الخلافة ببغداد والدعوة للفاطمين :

لِيَهْدِيكَ . ما أَنَا تِلْكَ الجُلُودُ
مَرَمٌ شَطَطٌ مَرَمَى العَزِيمِ فِيهِ
وَأَمْرٌ قَمْتُ فِيهِ بلا ظَهْمٍ
ومثلِكَ لا يَضِلُّ الحَزِيمُ عنه
أَبَيْتُ فلم تَنْمِ نَوْمَ ابْنِ هِنْدٍ
وَأَنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ
فَدَيُونُ مِنداءُ يَبْدُ لا تُبِيدُ
وأهلُ الأرضِ من فَشَلِ قَمُودُ
فَهَلْ أَنِيكَ بالصُّنْدُرِ الوُرُودُ
على حَتَّى قُبْهَهُ وَلَيْدُ

(١) ابن ذكاة يقصد الصبح ، وذكاة الشمس .

وَأَعْيَتْ الْمَسَامِعَ مِنْ حَدِيثٍ يَعْنُ فَتَقَشِّرُ لَهُ الْجُلُودُ
نَبَأَ ضَاقَتْ بِنِسْوَانٍ خُلُودُ لَمْ وَبَسَتْ بِأَطْفَالٍ مُهْودُ
فَكَتَبَ ظَنٌّ مِنْ عَادَاكَ صِنَقُ تَسَاوَى فِيهِ وَعُذْكَ وَالْوَعِيدُ
وَعِيدٌ غَادَرَ الْمُرَاقَ صَرَعَى وَعِيدٌ مَا أَتَى مَأْثُهُ غَيْدُ
فَلَوْلَا كَوْنُهُ مَعَ يَوْمٍ بَثَرِ لَقَلْنَا إِنَّهُ الْيَوْمُ الْوَحِيدُ

ويشير في هذه القصيدة السياسية التاريخية كمعظم قصائده إلى التاريخ السياسي للمرحلة التي اشتد فيها الصراع بين الخلافة الفاطمية في القاهرة والخلافة العباسية في بغداد واستعانة العباسيين بالسلاجقة الأتراك لدعم ملكهم ، وتثبيت أركان خلافتهم التي اهتزت بضربات الفاطميين ورجلهم طوال قرن من الزمان منذ استقرار المعز لدين الله بمصر سنة ٣٦١ هـ . فيقول معرضاً يظفرليك السلجوقي :

لَقَدْ طَاحَ الرَّجَاءُ بِطَقْلِكَ وَكَمْ أَمِلَ إِلَى أَجَلٍ يَقُودُ
ويشير إلى الخليفة العباسي الذي لا حول له ولا قوة في هذا الصراع بين الأتراك :

عَجِبْتُ لِمُدْعَى الْآفَاقِ مُلْكاً وَغَايَةِ بِيغْدَادِ الرُّكُودُ
يَصُولُ عَلَى رَعَايَاهَا اعْتِنَاءُ وَمُحْجَمٌ كُلَّمَا صَلَّ الْحَدِيدُ
وَمِنْ مُسْتَخْلِفٍ بِالْهُودِ رَاضٍ يُنَادُ عَنْ الْحَيَاضِ وَلَا يَنُودُ
لَهُ حَرَمٌ هُنَالِكَ لَمْ يُحَرِّمْ بِهِ إِلَّا السَّلَامَةَ وَالْهَجُودُ
ثَلَاثُ خَوْفَةٍ بِأَشَدِّ مِنْهُ وَلَوْلَا الْجَلْبُ مَا أَكْبَلَ الْهَبِيدُ^(١)

وحتى يقول منوهاً بالمستنصر الفاطمي :

وَمَا الْبَطْشَ الشَّدِيدُ مَقِيدُ عَزٍّ إِذَا لَمْ يُمَضِّدِ الرَّأْيَ السَّيِّدُ
وَأَعْجَبُ مِنْهَا سَيْفٌ بِمِصْرٍ تَقَامُ بِهِ بِسَنَجَارِ الْحُلُودُ

ويلمح في هذه الآيات إلى ما كان يروجه الفاطميون عن انغماس الخلافة في بغداد في الملاحى وانتشغالها عن 'رعاية مصالح الرعية' ، وايكالها إلى هؤلاء القادة من الترك يعيشون بها كيف شاؤوا . يقول مخاطباً البازورى وزير المستنصر :

(١) المبيد المنطل وكأنه يضرب مثلاً بأن الضرورة تبيح المحظورات .

رَمَيْتَهُمْ بِكُلِّ سَلِيلٍ غَابَ يَعْيشُ بِفَرْسِهِ ضَيْعٌ وَذَيْبٌ
يُرِيقُ فَوَادَهُ نَائِي وَعُودٌ يُعِيدُ السَّيْرَ لَا نَائِي وَعُودٌ
وَيَعْجِبُهُ التَّهَوُّدُ إِلَى الْأَعَادَى مُشِيحًا لَا الْقُلُودُ وَلَا التَّهَوُّدُ
وَيَطْرِبُهُ صَلِيلُ الْبَيْضِ فَوْقَ الْقَلَا يَنْبِي لَا الْبَسِيطُ وَلَا النَّشِيدُ

ونلاحظ اعتماد الجناس والطباق ، كفعل أى تمام فى صنعة الشعرية وقدمنا اقتدائه به ، واهتداه بصباغته . وترددت شواهد فى شعره على هذا التأثير بصرح فيها أحيانا كقوله^(١) :

وشبه عن جهل حبيب ، ولورأى زَمَانُكَ لَمْ يَغْدِلْ بِهِ زَمَنُ الْوَرْدِ
يريد بحبيب أبا تمام ، ويشير إلى قوله فى موسى بن ابراهيم الراقى :
ومن زمن أليستيه كآله إِذَا ذَكَرْتُ أَيَّامَهُ زَمَنُ الْوَرْدِ
وقال فى الوزير الفاطمى أبى الفرج البابلي سنة ٤٥٢ هـ^(٢) :

أما الزَّمانُ فقد ألبسته الجَدَا والمكرماتُ فقد أنشأتها جُدَا

والمتابع لهذه القصائد التى صاغها فى مديح وزراء مصر فى المرحلة الوسطى من حياته يلاحظ فى شعره استواء ورسانة أكثر من تلك التى صاغها بالشام قبل ذلك فى شبابه ، ولاشك أن مرور ربع قرن من الزمان زادت الشاعر تجربة ، وعركته الأيام ، ووسعت معرفته برجال الدولة ، ومجالسته للعلماء والأدباء من معارفه ، فترى ثراء قصائده بالمعلومات وذكر الأحداث والأنساب ووقائع التاريخ التى يستغلها فى معانى مديحه .

ونأتى المرحلة الثالثة من حياته وشعره فى كتف المرداسيين بحلب فى الستينات من المائة الرابعة ، ومن ذلك قوله بمدح نصر بن محمود ويرثى والده سنة ٤٦٧ هـ وأنشدها إياه فى عيد الفطر^(٣) :

كفى الدِّينَ عَزَامًا قَضَاهُ لَكَ الدُّخْرُ فَمَنْ كَانَ ذَا نَذْرٍ فَقَدْ وَجَبَ النَّذْرُ
لقد ظللت هذى البلادَ سحابةً بوارقها بشرٌ وإماضُها يثرُ

(١) ديوانه ص ١/ ١٩٥ .

(٢) ديوانه ص ١/ ١٩٨ .

(٣) ديوانه ١/ ٢٤٢ .

إذا ما غمام خصر أرضاً بغيتة
ثمانية لم تفرق إذ جمعتهما
يقينك والتقوى، وجودك والغنى
بك انجابت اللآء، وامتدت المنسى

همى هابطاً في كل قطر لها قطر
فلا افرقت ماذب عن ناطس شفر
ولفظك والمعنى، وعزمك والتصر
وضوعفت الآلاء، وافخر العصر

ويشير إلى رحلة والده محمود إلى مصر وزواجه من إحدى عقيلاتا بقوله :
فيطيب ما حيث به مصر بابل
وكانت تلك العقيلة بنت الوزير الباطي ، ويشير إلى هذه الرحلة إلى مصر
وزواجه بها ومغادرة حلب بقوله :

ولم يترك تلك البلاد لأنها
ولكنه كالسيف فارق غمده

بكت بلا منه، ولا أن نبا دهر
ليشهد حده بما خير الأثر

وبعد فإن شعر ابن حيوس في معظمه مديح لرجال العصر وقادته ، ومنه
نستشف بعض الأحداث ، وهو في جملة موضوعي تسجيلي ، يهتم بالمناسبة التي
ينشد فيها ، والاشادة بالمآثر ، والأعمال التي يبلى فيها الممدوح أو أهلك ، فضلاً
عن التنويه به وقومه ، وبمواليه من الخلفاء إن كان أميراً أو وزيراً ، كما يرجع على
المعارضين والأعداء فيزري بهم ، ويقلل من شأنهم ، ويوظف الأحداث التاريخية
لأغراضه ومراميه الشعرية مديحاً أو هجاء .

ومن هنا كان الجانب الذاتي الابداعي في شعر ابن حيوس متواضعاً شديداً
التواضع والمباشرة والموضوعية غالبية ، والخطابية طابعه العام .

على أن بعض معاصريه أعجب بما جاء في شعره من الصنعة البديعية . ونذكر
منهم علي بن منجب الصيرفي . فقد أعجب بحسن التقسيم في قوله ؛ قال (١) :

ومن ملبح التقسيم قول ابن حيوس :

لممرى لقد آتت الملوك جميعهم
بأمن لن يمشى، وقهر لن طغى

بأربعة في غيره لن تألفا
وسبق لن جازي، وعفي لن هفا

وقوله أيضاً :

(١) الأنصليات ٤٦ .

قَصُرَ السَّابِقُونَ دُونَ مَذَاهِهَا وَتَلَكَّتْهَا بَسَتْ خِصَالُ
مَكْرَمَاتٍ مَعَ اعْتِدَارٍ وَعَقْفٍ بِاِقْتِدَارٍ ، وَعَقْفَةٍ فِي حِجَالِ

وقال (١) : « ومن البديع قول ابن حَيُّوس :

قَدَّتْ الْجَحَافِلُ لَمْ يَقْدُ مَعَاشِرُهَا كَسَرَى الْمُلُوكُ ، وَلَا رَأَى تَبَعُ
فَوَّعَ إِذَا رَأَوْا مِمَّا لَكَ غَيْرُهُمْ خَصَلُوا بِيَبَاضِ الْهِنْدِ مَا لَمْ يَزْرَعُوا

(١) المصدر نفسه ص ٦٥ .

الفصل السادس

شعراء معاصرون بالشام

- ١ - أبو العلاء المعري
- ٢ - ابن سنان الخفاجي
- ٣ - ابن الحياط

أبو العلاء المعري
حيرة العقل — ونغز اليان
(٣٦٣ — ٤٤٩ هـ)

أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي حكيم المعرة الشاعر الفيلسوف عُنِي هذا العصر ونجمه الطالع . الذي اختصم حوله الناس في شعره وكتابته وفي عقيدته وفكره ، وظل مع هذا الخلاف علماً بارزاً لا تأخذ منه الأقوليل ولا تحط من قدره الادعاءات والافتراءات .

ظل أبو العلاء المعري بهذا الشموخ دلالة على حرية الفكر العربي والإسلامي في القرنين الرابع والخامس ، وسعة عطائه ، وتنوعه ، كما ظل أبو العلاء علامة وسمة بارزة على العصر ، تجمع في إنتاجه الأدبي والشعري معارف العصر ، واتجاهاته السياسية والدينية والثقافية والأدبية والفكرية ، فكان دائرة معارف شاملة جامعة ، ومرة ، يرى فيها الباحثون ملامح عصره ، عصر الدولة الفاطمية ، ونافة يُطلُّ منها على آفاق الحياة العربية والإسلامية في تلك المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية .

وسبقت أشارتنا عابرة إلى بعض مواقفه في رسائله من مشكلات عصره وما دار بينه وبعض أعلام الزمن من جدل حول قضايا عقدية وأدبية ، ولغوية . والآن جاء النور للحديث عنه شاعراً فحلاً ، ومفكراً عملاقاً من خلال هذا الشعر ، لم يكتف بيت خاطراته حول قضايا عصره ، بل وقف موقف المصلح المجدد الحر الفكر دون خشية الجريء دون تطاول على أحد ، مع الاعتداد بالرأي ببقية إذا اقتنع به فيما بينه وبين نفسه ، غير عاىء بمن يعارض ، ولا مناقق لحاكم أو صاحب سلطان أو مال ، فقد زهد في قرى أصحاب السلطان وأصحاب المال جميعاً ، وارتضى لنفسه حياة سهلة هنية ، بسيطة ، توفر له حرية الفكر ، دون ضَغْط من ظروف الحياة ، وأطماعها .

لقد احتبس أبو العلاء نفسه في داره ، بعد أن قضى الله عليه ، وشاءت مشيئته أن يُحبسَ نظره عن رؤية الناس ، والدنيا بباصرته ، ولكن الباري

عوضه عن رؤية البصر ، رؤية السمع ، وجلوة الفكر والنفس ، فألقى إليه السمع بما يعوضه النظر ، وأتاحت له جلوة الفكر في ظلمة الجسد سباحات في آفاق العقل ، وتأملات حرة دون قيود متطلبات الجسد وهمومه اليومية .

لقد أتاحت محابس أبنى العلاء المعرى الثلاثة : فقدان البصر ، والحلوة ، وحبس النفس في هذا الجسد ، أو إلزام الجسد بقيد الرغبة . أتاحت له هذا التفرغ العظيم للدرس والاطلاع ، والتأمل ، والتأليف ، والنظم ، والتعليم .

عاش أبو العلاء في أسرة تجمعها المحبة ويظللها العلم ، وكان يكنى لوالديه عاطفة عميقة في قلبه ، وتعلق بأمه خاصة ، وكان لوفاتها أثرها البالغ في نفسه . خرج أبو العلاء إلى الحياة والقرن الرابع يؤذن بنهايته ، وكان أول ما رأى نور الدنيا ببلدة المعرة بالشام ، في هذا الوقت الذي تنازعتها الأحداث وتعاقب عليها الغزاة والمغربون بين شرق وغرب وجنوب . وكانت الحياة السياسية على ما عرضنا له في مقدمة حديثنا ، كما كانت الحياة الاجتماعية كذلك في المجتمع الإسلامي شرقاً وغرباً تضطرب بكثير من التيارات والتغيرات فلم يكن هذا المجتمع على ما عرفناه في أول عصر الدولة العربية الإسلامية ولا في عصر الأمويين وصدر عصر العباسيين من حفاظ على القيم الإسلامية وبعض القيم العربية المثلث التي حافظ العرب في أول عهدهم بالحياة خارج بلادهم بعد الفتح والهجرة من الجزيرة عليها ، ولم يفرطوا فيها . وظل مجتمع تلك العصور الأولى متماسك الأواصر ، تسوده فلسفة واحدة ، ويستظل بظل العقيدة الإسلامية بقيمها النقية حتى رانت على تلك الفلسفة الواحدة للحياة فلسفات ، اكتسبها المجتمع العربي الإسلامي من آثار الحضارات القديمة التي نزع إليها المسلمون والعرب ، فخالطت أفكارهم ، وتمشت في تراثهم العربي والإسلامي بصور متعددة ، كان نتاجها تلك الحركات الفكرية والثقافية والاجتماعية والمذهبية العريضة التي شملت العالم العربي والإسلامي من مشرقه إلى مغربه طوال القرنين الرابع والخامس .

وقد أدت تلك التيارات والحركات التي اضطربت بها الحياة العربية الإسلامية طوال هذين القرنين إلى تغيرات كثيرة ، بل وتحولات شاملة في العقيدة والنظرة إلى بعض أصولها ، فنجم ما نعرفه ويعرفه تاريخ الفكر

والحضارة الإسلامية من شطحات أو خروج عن الخط الواضح الذى توارثته الأجيال للحياة العربية والعقيدة الإسلامية ، وتطبيقاتها فى المجتمع ، على تلك الصورة التى احتازتها الشريعة ، وحدد معالمها الأئمة المجتهدون من زعماء المذاهب وكبار علمائها وفقهائها .

ولكن هذه التغيرات التى أدت إلى الخروج عن ذلك الخط كانت من القوة والتعدد والكثرة فى مشرق العالم العربى والإسلامى بحيث بدت فى هذا القرن الخامس وكأنها تغالب الخط المتوارث وتفتحهم عليه بحاله ، وتكاد تنجبه عن الظهور فى أوساط كثير من المثقفين ، وبخاصة من ألم منهم بعلوم الأوقل ، أو بعلم خارج عن نطاق العلم الشرعى من علوم الأمم الأخرى يونان وهنود وفرس وغيرهم ، وما يضم من عقائدهم وعاداتهم ، وفلسفاتهم ، ورؤيتهم للكون والإنسان ، فظهر فى أفق الفكر الإسلامى آراء ، واجتهادات اعتبرت عند المحافظين على الخط الموروث من الإلحاد ، والزندقة ، والخروج عن جادة العقيدة والدين الصحيح .

جاء أبو العلاء المعرى إذا إلى الحياة والمجتمع العربى الإسلامى يضطرب بهذا كله قال ابن الجوزى^(١) :

« ... ولد يوم الجمعة عند غروب الشمس لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة . وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وله أشعار كثيرة . وسمع اللغة ، وأملى فيها كتباً ، وله بها معرفة تامة ، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وأقام بها سنة وسبعة أشهر ثم عاد إلى وطنه ، فلزم منزله ، وسمى نفسه « رهين المحبين » لذلك ولذهاب بصره . وبقي محملاً وأربعين سنة لا يأكل اللحم ولا البيض ولا اللبن ، ويحرم إيلام الحيوان ، ويقتصر على ما تنبت الأرض ، ويلبس خشن الثياب ، ويظهر دوام الصوم . »

ولقيه رجل فقال : لم لا تأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان . قال : فما تقول فى السباع التى لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ . فإن كان الخالق الذى دبر ذلك فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطباع المحدثه لذلك ، فما أنت بأحقق منها ، ولا هى أنقص عملاً منك^(٢) .

(١) خلاصة كلام دعى الدعاة للتؤيد فمسر فى رسائله إليه كما سبق أن عرضاه فى الجزء الأول .

(٢) للتظلم قتله ص ١٩ من تعريف القلماء .

قال المصنف رحمه الله^(١) : وقد كان يمكنه ألا يذبح رحمة ، فأما ما قد ذبحه غيره ، فأى رحمة بقيت في ترك أكله ؟

وكانت أحواله تدل على إختلاف عقيدته .

وقد حكى لنا عن أبى زكريا أنه قال : قال لى المعرى : ما الذى تحقد ؟ — فقلتُ في نفسى اليوم أعرف اعتقاده — . فقلتُ : ما أنا إلا شاكٌّ ! فقال : هكذا شيخك .

وكان ظاهر أمره يدل على أنه يميل إلى مذهب البراهمة (الهنود) ، فإنهم لا يهرون ذبح الحيوان ، ويحجنون الرسل . قال ابن الجوزى :

وقد رماه جماعة من العلماء بالزندقة والإلحاد . وذلك أمره ظاهر في كلامه وأشعاره ، وأنه يرد على الرسل ، ويعيب الشرائع ويجمد البحث . .

قال ابن الجوزى^(٢) : « ونقلت من خط أبى الوفاء ابن عقيل قال : من المعجائب أن المعرى أظهر ما أظهر من الكفر البارد الذى لا يبلغ منه مبلغ شبهات الملعدين ، بل قصر فيه كل التقصير ، وسقط من عيون الكل ، ثم اعتذر بأن لقوله باطن ، وأنه مسلمٌ في الباطن ، فلا عقل له ولا دين ، لأنه تظاهر بالكفر وزعم أنه مسلم في الباطن . وهذا عكس قضاي المناققين والزنادقة ، حيث تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر . فهل كان في بلاد الكفار حتى يحتاج إلى أن يعطن الإسلام ؟! » .

قال المصنف (ابن الجوزى) رحمه الله : وقد رأيت للمعرى كتاباً سماه « الفصول والغايات » يعارض به السور والآيات . وهو كلام في غاية الركة . والبرودة . فسبحان من أعمى بصره وبصيرته . وقد ذكره على حروف المعجم في آخر كلماته . فمما هو على حرف الألف :

« طوى لركبان النعال ، المعتمدين على عصا الطلح ، يعارضون الركائب في المواجه والظلماء ، يستغفر لهم فحُت القمر وضياء الشمس . وهنيئاً لتاركي التوق في غيطان الفلا ، يحوم عليها ابن ذأية ، ويطيف بها السرحان . وشتان أوارك ثرة الأليان ، وأخرى لبها أفقد من لبن العطاء . » .

(١) ابن الجوزى .

(٢) عن المطبوع ، ص ١٩ — تعريف القدماء بأبى العلاء .

قال ابن الجوزي : وكله على هذا التمثيل البارد^(١) .

قال ابن الجوزي : وقد نظرت في كتابه المسمى لزوم ما لا يلزم وهو عشرة مجلدات وحدثني ابن ناصر عن أبي زكريا عنه بأشعار كثيرة . فمن أشعاره :
إذا كان لا يعطي برزقك عاقل^١ وترزق مجنونا وترزق عاقلا
فلا ذنب يارب السماء على امرئ^٢ رأى منك ما لا يشتهي فتندقا^٣

والبيتان المذكوران ليسا في ديوانيه سقط الزند واللزوميات ، وربما سقطا من نسجهما أو انتحلا عليه لتثيت اتهام الكفر والزندقة . وقد أورد ابن الجوزي آياتاً أخرى غير واردة في الديوان كقول ابن الجوزي : وله :

فلا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زور سطره
وكان الناس في عيش رغيد فجاءوا بالخال فكثروه
حقاً لقد جاء في اللزوميات بعض آيات يقترب معناها من هذا القول من مثل^(١) :

هفت الخيفة والتصاري ما احدثت ويهود حازت والمجوس مضللة
اثان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، ودين لا عقل له
ولكن شتان بين مضمون هذين البيتين والبيتين السابقين ، فالأخيران لا يفهم منهما هذا التصريح الذي يتضمنه البيتان السابقان . ويمكن تأويل البيتين الأخيرين بما لا يخرج الرجل من دينه أو يدينه بالإنكار .

ومعلوم أن الشيخ ابن الجوزي واعظ سني محدث ، وأن شيخه ابن ناصر السلامي محدث ، وأبو زكريا التبريزي كذلك ، وقد التقى بأبي العلاء ، ومعلوم كذلك عداوة المحدثين والفقهاء للفلاسفة ومناهجهم منذ ظهور حركة المعتزلة والمعرفة التي دامت بين الفريقين طوال القرنين الثالث والرابع .

وربما كان القفطي أكثر اعتدالاً في الحديث عن أبي العلاء ، وإن ساق ما رُمي به من زندقة وإلحاد ، ولم يسلبه قدره في الأدب والشعر فقال : « كان حسن الشعر جزل الكلام ، فصيح اللسان ، غزير الأدب ، عالماً باللغة حافظاً »

(١) التعريف ص ٢١ .

خا . ويذكر له من بديع شعره رثائه لأحد أقاربه من فقهاء الحنفية والتي
اشتهرت له :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح بك ولا ترثم شاد

وقال فيما نقل عنه في عبارات معتدلة : « وكان يتزهد ، ولا يأكل اللحم
ويلبس خشن الثياب . وصنف كتابا في اللغة ، وعارض سوراً من القرآن
وحكى عنه حكايات مختلفة في اعتقاده حتى رماه بعض الناس بالإلحاد . »

ومهما يكن موقف العلماء على اختلاف اتجاهاتهم من فكر أبي العلاء
وشعره وما يتضمنه ذلك الشعر أو أدبه بصفة عامة من آراء واتجاهات تدل على
سعة علم وتبحر فإن الرجل يظل عالماً من أعلام الأدب العربي عامة وفي هذا
القرن الخامس عصر الدولة الفاطمية خاصة .

وقد أهله دراسته للتزود بالعلوم ، فقد روى أنه « عندما بلغ سن الطلب أخذ
العربية عن قوم من بلده ، كبنى كثر أو من يجرى مجراهم من أصحاب ابن
خالويه وطبقته . وقيد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً ، وطمحت نفسه
إلى الاستكثار من ذلك فرحل إلى طرابلس الشام ، وكانت بها خزائن كتب قد
وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس وكان به
راهب يشكو شيئاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل
أقوال الفلاسفة ، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره
ما حصل به بعض الانحلال ، وضاق عطفه عن كتاب ما تحمله من ذلك حتى
فاه به في أول عمره ، وأودعه أشعاراً له ، ثم ارعوى ورجع ، واستغفر واعتذر
ووجه لأقواله وجوهاً احتملها التأويل . » (١) .

ذكر هذا القفطى ، وحكاية الراهب وأثره في فكر أبي العلاء حثّلها بعض
الدّارسين كثيراً ، وبلغوا فيما أخذه أبو العلاء عن الراهب النصراني باللاذقية ،
ولم يكن لقاء العلماء المسلمين ولا الأدباء غريباً في العالم الإسلامي الذي
انتشرت فيه الرهينة ، وتعددت الأديرة في بلاد المشرق ومصر على السواء ،
وليس خافياً ما كان يحتفظ أولئك الرهبان من كتب الأوائل من فلاسفة اليونان

(١) أنباه الرواه — عن الشريف بأبي العلاء . ص ٣٠ — ٣١ .

وعلمائهم . وقد أفادوا من تلك الكتب والفلسفات في علوم اللاهوت عندهم . وكانت هناك لقاءات ومحاورات في هذا العصر الفاطمي بين بعض رهبان النصارى وعلماء المسلمين على ما بينا من ذلك الحوار الذي حدث بين أبي القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي والمطران النصارى . وعلمنا ما كان في عصر الفاطميين وفي ظل دولتهم من حرية الأديان والسماح للنصارى واليهود بممارسة شعائهم والمشاركة في الحياة العامة على قدم المساواة مع المسلمين حتى إن كثيراً منهم قد ولى مناصب هامة في الدولة .

وفي ظل تلك الحرية الدينية لا نعجب من حدوث لقاءات فكرية ، وتأثير وتأثر من كلاجانين إيجاباً أو سلباً . ولا شك أن في أدب المعرى أثراً واضحة على معرفته بكثير من أقوال النصارى واعتقاداتهم إلى جانب إلمامه الواضح بعلوم الفلسفات المشرقية والغربية على سواء . وليس ذلك بمستغرب على أي العلاء ذي العقل المطلقة إلى العلم ، والذي لم يشغله عن المعرفة مشاغل السعي للحصول على العيش أو بلوغ منصب أو جاه ، بل تفرغ تماماً لتحصيل المعرفة من كل مورد ، ومنهل .

عرف أبو العلاء بقوة العارضة والمقدرة الفارقة على الحفظ ، مع الذكاء المفرط ، ودقة الملاحظة لما ينمى إلى سمعه من قول أو حركة . وقد ساعده هذا كله على استيعاب ما حوله والإحاطة بما يلور في الحياة والمجتمع في عصره .

ويحكى السمعاني عن قدرته على الاستيعاب لما يسمع رغم عدم معرفته بلغة المتكلم نادرة تقول إنه سمع اثنين يتكلمان بلغة أذربيجان ، منهما واحد من جلسائه ، فلما فرغاً من الحديث سأل المعرى صاحبه : أي لسان هذا ؟ قال : هذا لسان أهل أذربيجان . فقال : ما عرفت اللسان ، ولا فهمته غير أني حفظت ما قلتما . قال الرجل : ثم أعاد لفظنا بلفظ ما قلنا^(١) .

ويروى من قوة ذاكرته إلمامه بأسماء ما قرأ واطلع عليه من الكتب ووعيه بمحتوياتها . روى القفطلى أنه « حضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام البصرى ، وعرض عليه أسماءها فلم يستغرب فيها شيئاً لم يره بلور العلم بطرابلس سوى ديوان « تيم اللات »^(٢) .

(١) الأنساب للسمعاني — نقله التعريف ، ص ١٤ .

(٢) التعريف ص ٣٣ .

وروى كذلك أن رجلاً منهم وقع إليه كتاب في اللغة سقط أوله ، وأعجبه جمعه وترتيبه ، فكان يحمله معه ، ويتحجج ، فإذا اجتمع بمن فيه أدب أراه إياه ، وسأله عن اسمه واسم مصنفه ، فلا يجد أحداً يخبره بأمره . واتفق أن وجد من يعلم حال أبنى العلاء ، فذله عليه ، فخرج الرجل بالكتاب إلى الشام ، ووصل إلى المقرّة ، واجتمع بأبنى العلاء ، وعرفه ما حاله ، وأحضر الكتاب ، وهو مقطوع الأول ، فقال له أبو العلاء : اقرأ منه شيئاً ، فقرأه عليه . فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا ، فوضعه فلان . ثم قرأ عليه من أول الكتاب إلى أن وصل إلى ما هو عند الرجل . فنقل عنه النص ، وأكمل عليه تصحيح النسخة . وانفصل إلى اليمن فأخبر الأديباء بذلك . وقد قيل إن هذا الكتاب هو « ديوان الأدب » للفرابي اللغوي (١) .

واتصل أبو العلاء المعري ببعض علماء عصره ، وكبار أديبائه ، فذهب إلى بغداد عاصمة الفكر سنة ٣٩٨ هـ وهي مركز الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ولقى بها الربيعي اللغوي ، ولم يلق منه قبولاً ، فتركه ، واتصل بالشريف الرضي وجرى ذكر المتنبي في مجلس من مجالسه ، وكان الشريف لا يحب المتنبي على عكس أبنى العلاء الذي كان يقدمه ويحمله ، واختلفا حوله ، ولم تطل صحبة أبنى العلاء للرضي على ما كان يعرف عنه من حبه للعلم والعلماء ، والأدب والأديباء .

واستقر أبو العلاء في المقرّة منذ سنة ٤٠٠ هـ . قال (٢) : « كُرمْتُ مسكني منذ سنة أربع مائة ، واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، إلا أن أضطر إلى غير ذلك فأملت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن هاشم — أحسن الله معونته ، فألزمني بذلك حقوقاً جمّة ، وأبداً بيضاء ، لأنه أفتى فيّ زمنه ، ولم يأخذ عمّاً صتيثمته ، والله يحسن له الجزاء ، وبكفيه حوادث الزمن والأرزاء » .

وظل في مقرّة النعمان يملئ كتيبه ، ويدرس ، وينظم الشعر ، حتى علا صيته وسار في الآفاق ذكره ، وقصده الطلاب من المشرق والمغرب ، وكان من

(١) التعريف ص ٣٤ .

(٢) إرشاد الأديب — التعريف ص ١٠١ .

تلاميذه جماعة من مشهورى العلماء والأدباء من أمثال أبى زكريا التبريزى ،
وابن سنان الخفاجى الحلبى . وأجله أمراء المنطقة وحكامها ، وتقربوا إليه ،
وبعث إليه المستنصر الخليفة الفاطمى فى مصر ليقدم إليه المال ليعينه على الحياة ،
وعلى نفقاته .

روى ياقوت (١) : أن المستنصر صاحب مصر بذل لأبى العلاء ما يبيت المال
بالمعرة من الحلال فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

كأنما غائنة لى من غنى فعدّ عن معدن أسوان
سرت برضى عن زمان الصبا يُعجلني وقتى وأكوائى
صدّ أبى الطيب لثا غدا منصرفاً عن شعب بوان

وأشار إلى بلاد غانة فى أفريقيا لشهرتها بكثرة معدن الذهب بها فى زمنه
وكذلك أسوان بوجود معادن الزمرد والذهب ، وكان الفاطميون يستغلون
مناجمها فى الحصول على حاجتهم من هذين المعدنين الثمينين فيما شيدوا من
قصور ، وتزينوا به من حلى ، وما جمعوا من أموال وكنوز .

وعزف أبو العلاء عما قدّم إليه وعرضه المستنصر لزهده وإعراضه عن
مباحج الحياة ، فقد كان الزهد فى الدنيا فلسفة ارتضاها لنفسه حتى إنه حرّم
عليها ما أحل الله من متع وزينة ، ومطاعم .

مؤلفات المعرى :

أتاح تفرغ المعرى له الوقت للدرس والتأليف ، فأخرج عديداً من المؤلفات
تتنوع بين الرسائل ، والكتب الأدبية الجامعة ، وكتب النقد والتراجم
الشعرية ، والكتب اللغوية ، والشعر الوجدانى ، وشعر المناسبات ، والشعر
الفلسفى .

ويذكر ياقوت فهرست كتبه ، وأولها الفصول والغايات ، وهو من شعر (٢)
الزهد . قال : « فمن ذلك الكتاب المعروف بالفصول والغايات ، والمراد
بالغايات القوافى ، لأن القافية غاية البيت ، أى منتهاه . وهو كتاب موضوع

(١) المصدر نفسه ٩٩ .

(٢) الكتاب مجموعة من الخواطر والنظرات ، مسجوعة فيها الزمرد والآداب والمواظف والفلسفة
والدين .

على حروف المعجم ما حلا الألف . وفيه فتوح كثيرة من هذا النوع .
وقيل إنه بدأ بهذا الكتاب قبل رحته إلى بغداد . أنه بعد عودته إلى المعرة .
وكتاب « السادن »^(١) : وهو في ذكر غريب هذا الكتاب ، وما فيه من
اللغز .

وكتاب « إقليد الغايات » : لطيف مقصور على تفسير اللغز . مقداره عشر
كراريس .

والكتاب المعروف « بالأيك والفصون » . وهو كتاب الهمزة والردف ،
يبني على إحدى عشرة حالة الهمزة على حال أفرادها وإضافتها .
والكتاب المعروف بـ « تضمين الآي » .

وكتاب « سيف الخطبة » : جزآن يشتمل على خطب السنة ، فيه خطب
للجمع والعديد ، والحسوف والكسوف ، والاستسقاء ، وعقد النكاح .
وهي مؤلفة على حرف من حروف المعجم ، فمنها خطب عمادها الهمزة ،
وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ... وهكذا .

ومن مؤلفاته : « سجع الحمام » ، يتكلم فيه على لسان حمام أربع . وكان
بعض الرؤساء سألوه أن يصنف له تصنيفاً يذكره فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ،
وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد . قال غيره : هو
أربعة أجزاء ، مقداره ثلاثون كراسة^(٢) .

وديوان « لزوم ما لا يلزم » ، وهو في المنظوم . بني على حروف المعجم ،
يذكر كل حرف سوى الألف بوجوه الأربعة ، وهي الضمة والفتحة
والكسرة ، والوقف . ومعنى لزوم مالا يلزم أن القافية يُردد فيها حرف لو غير
لم يكن مخللاً بالنظم ، كما قال كثير :

خليلى هذا ربُّ عزة فاعقلا قلو صيكما ثم انزلا حيث حلَّ
فلزم اللام قبل التاء ، وذلك لا يلزمه .

(١) التعريف ص ١٠٧ .

(٢) ياقوت — نقله بالتعريف . ص ٤ .

ويحتوى على أحد عشر ألف بيت من الشعر^(١) .

وكتاب : « زجر النابح » يتعلق بلزوم مالا يلزم . وذلك « أن بعض الجهال يهكم على أبيات من « لزوم مالا يلزم » ، يريد بها التشهير والأذية ، فألزم أبا العلاء أصدقائه أن ينشئ هذا فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره .

وكتاب : « ملقى السبيل » صغير فيه نظم ونثر .

وديون « سقط الزند » قاله فى مطلع حياته ، وأبياته ثلاثة آلاف بيت وكتاب يعرف بـ « جامع الأوزان » فيه شعر منظوم على معنى اللغز يعم الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل بجميع ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضرب من ذلك^(٢) .

وكتاب يعرف بـ « السجع السلطاني » يشتمل على مخاطبات للجنود والوزراء وغيرهم من الولاة . وكان بعض من خدم السلطان وارتفعت طبقته ، ولا قدم له فى الكتابة سأل أن يُنشأ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، وهو لا يشعر بما يريد ، لقلة خبرته بالأدب ؛ فألف له هذا الكتاب . وهو أربعة أجزاء .

وكتاب يعرف « بذكرى حبيب » فى غريب شعر أى تمام ، سأل فيه صديق لأبى العلاء من الكتاب . وهو أربعة أجزاء .

وكتاب « عبث الوليد » فيما يتصل بشعر البحرى . وكان سبب إنشائه أن بعض الرؤساء أنفذ نسخة ليقابل له بها ، فأثبت ما جرى له من الغلط ، ليعرض ذلك عليه . وهو جزء واحد .

وكتاب يعرف بـ « الرياشى المصطنعى » فى شرح مواضع من الحماسة الرياشية عمل لرجل يلقب بمصطنع الدولة ، ويخاطب بالإمرة واسمه كليب بن على ، ويكنى أبا غالب . أنفذ نسخة من الحماسة الرياشية ، وسأله أن يخرج على حواشيا شيئاً لم يذكره أبو رياش مما يحتاج إلى تفسيره ، فحشى أن تضيق

(١) المصدر نفسه ص ١٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦ .

الحواشي عن ذلك ، فألف هذا الكتاب ، وجمع فيه ما سنع مما لم يفستره أبو رياش^(١) .

وكتاب « شرف السيف » عمل للقائد ألوشتكين اللزبري أمير الجيوش حاكم الشام في عصر الظاهر ابن الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤١٩ هـ والمتوفى بحلب سنة ٤٣٣ هـ . وكان السبب في عمله أنه كان يوجه إلى أبي العلاء بالسلام وينفي المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل^(٢) .

وله مجموعة من الكتب المتعلقة باللغة والنحو هي :

« تعليق الجليس » يتصل بكتاب الجمل للزجاجي ، وكتاب « اسعاف الصديق » متعلق به كذلك

وكتاب « قاضي الحق » على كتاب أبي جعفر النحاس المعروف بـ « الكافي » .

وكتاب « الخير النافع » مختصر في النحو . وكتاب آخر في النحو متعلق به يعرف بـ « الطلّ الطاهري » ألّفه لمن يعرف بأبي طاهر الحلبي . وكتاب في النحو يتصل بكتاب الظهير العضدى .

وكتاب في الرسائل الطوال فيها « رسالة الغفران » .

وكتاب « خطب الخيل » يتكلم فيها على ألسنتها ، ومقداره عشرة كراريس .

وديان رسائل . وهو ثلاثة أقسام : الأول رسائل طوال تجرى مجرى الكتب المصنفة مثل كتاب « رسالة الملائكة » ، و « كتاب الرسائل السندية » . وكتاب « رسالة الغفران » ، وكتاب « رسالة الغرض » ونحو ذلك .

والثاني رسائل دون هذه في الطول مثل كتاب « رسالة المنيح » وكتاب « رسالة الإغريض » والثالث كتاب « الرسائل القصار كنحو ما يجرى به العادة في المكاتبة قيل إنه أربعون جزءًا »^(٣) .

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٢) التعريف بأبي العلاء ص ١٠٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١١ .

وكتاب « خادوم الرسائل » في تفسير ما تضمنته هذه الرسائل مما يحتاج إليه المبتدئون في الأدب .

وكتاب « اللامع العزى » في تفسير شعر المتنبي عمل للأمر عزير الدولة وغرسها ابن تاج الأمراء أبى الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس . من أمراء بنى مرداس أصحاب حلب في القرن الخامس في عصره .

وهذا بعض ما اشتهر من كتبه ، وهو قليل من كثير^(١) .

وما يهمننا هنا هو أبو العلاء الشاعر ، وما قاله من الشعر . وشاعرية أبى العلاء لأمرء فيها ، فقد اعترف بها العلماء قديماً وحديثاً ، ووجدوا في شعره شيئاً جديداً لم يكن عند غيره من الشعراء من حيث البناء والصور والأخيلة والأساليب والموسيقى ، واستخدامات الألفاظ ، وفي للضامين ، وما احتواه من المعاني الجديدة الجريئة ، التي قد تبلغ حد الشطط والخروج عن المتعارف والمألوف .

ولم يذهب أبو العلاء بشعره مذاهب غيره من الشعراء ، فلم يجعله وسيلة للكسب ولا أداة للحصول على الماء من أصحاب السلطان والجاه ، فلم يقصد به واحداً من هؤلاء ولم يسترشد خليفة أو أميراً . قال النحوي^(٢) : « لو تكسب بالشعر والمدح نال دنيا ورئاسة » .

وقال ابن النديم : « ذكر أبو العلاء في مقدمة « سقط الزند » أنه لم يكن من طلاب الرشد والصلة ولم يمدح إلا اليسير من الناس في صلب عمره ، قبل انقطاعه عن الناس ، ولم يمدح لعتاء ولا نائل ولم يقبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع^(٣) » .

وذكر أبو العلاء صراحة في شعره أنه لم يدنس نفسه بالاستجداء^(٤) ، قال :

أصبحنا بين الفرات وجَلَقِي يَدُ اللَّهِ لَا خَيْرَ لَكُمْ بِمَحَالِ
أُنَبِّئُكُمْ أَنِّي عَلَى الْعَهْدِ سَالِمٌ وَوَجَّهِي لَمَّا يَمْتَدِّلُ بِسَوَالِ

(١) راجع مجمل فهرست كتبه في ترجمة ياقوت له بمجمع الأدباء .

(٢) سقط الزند ٢١/ ١ — وتاريخ ابن النديم ١٥٣/ ٤ .

(٣) راجع أبو العلاء ولزومياته للدكتور كمال اليازجي ص ٢٨ .

وبهذا فقد تخلص شعر أبي العلاء من آفة من آفات الشعر العربي ، وبخاصة في تلك العصور أعنى آفة التكسب بالشعر ، لأنها تُدخل على هذا الفن كثيراً من الزيف ، والتدني بالفكر والفن والروح الإنسانية الرفيعة التي كرمها الله لتبدع . ومن هنا خلا شعره من كثير من أصداف القول وبهرجه مما يتعلق بالملق ، وكيل الصفات لغير موصوف بها ، والتعريض بالطلب وبذل ماء الوجه ، والتدني ، وتخقير الذات بذكر الحاجة واستجداء المال لسد الرمي ، والتغلب على عناء الفقر . أو الرغبة والطمع ، والجري وراء زخرف الحياة ، وطلب الاستمتاع بملاذها في كنف من يملكون الدنيا ، غصباً ، أو سعيًا غير محرم من دنايا وإثام ، وسلوك دروب تأباها الشيم الكريمة وتعف عنها النفوس الأبية .

واستعاض أبو العلاء عن رقد المال برقد العلم ، فاستزاد منه ورحل في سبيل تحصيله ، وقصده بشعره ، وجعله موضوعه الذي يشغل ألبابه وقوافيه على اختلاف أنواعه ودرجاته .

وهكذا كانت رحلاته كما يقول في سبيل المعرفة لا لطلب المال قال : « وأحلف ما سافرتُ أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بقاء الرجال ، ولكن أثرت الإقامة بدار العلم » وذلك في تبرير رحلته إلى بغداد ، وجاء في رسالة بعث بها إلى أهل المعرة إثر عودته إلى بلده من بغداد (١) .

والتأمل في شعره عامة وفي « سقط الزند » و « اللزومات » خاصة يلاحظ غلبة الموضوعات التقليدية على ديوان « سقط الزند » الذي نظمته في مطلع حياته ، ففيه مديح بعض السادة ، وأعيان القوم وبعض الشيوخ من العلماء ، ومن عقدت يده وبينهم أواصر ما ، كما نلمح بعض صور حياته ووصف أحواله وتقلباته ، وثناء بعض أقربائه ومعارفه ، وهو في هذا الديوان يتناول معاني موضوعات الشعر تناولاً تقليدياً أحياناً ، يسترجع كثيراً من صياغات القدماء وتعبيراتهم ، فيوردها أحياناً سافرة ، وأحياناً يلفها بخمار من اللفظ الغريب ، أو يدخل عليها بعض حل البديع ومحسناته . وأما في اللزومات فقد اتخذ لنفسه نهجاً آخر حيث نظم قصائده في محبسه وقد اعتكف ، واعتزل

(١) رسائل أبي العلاء ص ٣٤ .

الناس ، وألزم نفسه في الشعر ما ألزم جسده في الحياة من نظام قاصر ، صارم . وقد غلب عليه المفكر المجرد في قضايا الحياة والموت ، والكرن والفساد ، والعقائد والديانات . كما ألزم نفسه اجتهادات في الصياغة والتعبير يصعب على القارئ العادي فهم معانيها .

ديوان سقط الزند :

ذكر الرواة والعلماء الذين أرخوا له أنه نظم الشعر حدثاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره^(١) . « ومهما يكن فقد نظم الشعر في سن الخلقة ، ولم ينقطع عن النظم أثناء رحلاته العلمية ولكنه نظم أكثر شعر شبابه في الفترة التي قضاها في المعرة بين رحلتيه الشامية والعراقية . وهو جل ما في (سقط الزند) »^(٢) .

وعده كثير من العلماء والنقاد بارعاً في الشعر . وتجلى براعته في هذا الديوان فيما تمثله من الشعر القديم ، والمعارف اللغوية ، والتاريخية والدينية ، وحفظه للقرآن الكريم ، وتوظيف هذا كله في فنه الشعري من حيث بناء القصيدة ، وصياغة المعاني ، وبناء عباراته ، وتشكيله للفظ في مقدرة قد تبدو للقارئ إغراباً وخروجاً على نهج الشعراء السابقين .

بناء القصيدة :

ويبنى أبو العلاء قصيدته الشعرية في « سقط الزند » البناء التقليدي في شكله العام أى يبدأ القصيدة بالغزل ، لكن هذا الغزل ليس كغزل الجاهليين ، ولا الإسلاميين ولا حتى المحدثين أصحاب البديع ، أو أصحاب طريقة العرب . بل يبلو في غزله صاحب اتجاه جديد في معانيه وأهنته ، وإن لم يخرج عن الإطار العام ، أو عمود المعاني في الغزل . ونضرب مثلاً بقصيدته الثانية في الديوان . يقول :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر
لعل بالجزع أعوانا على السهر
وإن بخلت عن الأحياء كلهم
فأسقِ المواطر حياً من بنى مطر

(١) راجع التعريف فيما جاء من ترجمته عن ياقوت ٣ / ١٠٤ ، والنهي ١٣٠ ، وابن خلكان ٤٧ / ١ .

(٢) راجع كتاب « أبو العلاء ولزمياته » للدكتور كمال اليازجي ، ص ٥٦ ، طبع دار الجيل بيروت .

حمل الحُلَى لمن أعبا عن النظر
سرى أُمَامِي وثَأْوِيَا على أثرِي
أَلْفَيْتُ ثُمَّ خَيْالاً مِنْكَ مُتَنَظِرِي
وزيدَ فيه سوادُ القلبِ والبَصْرِ
والعذبُ يُهَجِّرُ للإفراطِ في الحَصْرِ
حملاً وتُخَنُّ على عشرٍ من العُشْرِ
يستجديانك حُسنَ الدَّلِّ والجورِ
لكن سمحت بما ينكرون من ذُرِّ
من الظباءِ ولا عارٍ من البقرِ
وفزت بالشكرِ في الآرامِ والعُفْرِ
وكان يرفُلُ في ثوبٍ من الوَبْرِ
ومتزلاً بك معموراً من الحُفْرِ
بيتٍ من الشعرِ أو بيتٍ من الشَّعْرِ

ويا أسيرة حجلها أرى سَفَهَا
ما سرتُ إلا وطيف منك يصحني
لو حطَّ رحلِي فوق النجمِ رافعةً
يُودُّ أن ظلامَ الليلِ دام له
لو اختصرتم من الإحسانِ زركمُ
أبعدَ حولِ تناجي الشوقِ ناجيةً
كم باتَ حولك من ريمٍ وجازيةً
فما وهبت الذي يعرفُن من خلقي
وما تركت بذات الضَّالِّ عاطلةً
قلدتُ كلَّ مهاةٍ عَقَدَ غانيةً
وربَّ صاحبٍ وشيءٍ مِنْ جَارِزِهَا
حسنتُ نَظْمَ كلامِ توصفين به
فالحسنُ يظهرُ في شيعين رونقه

وهذا المطلع الغزلي كما نرى مصنوع صنعة عقلية ؛ استن . فيه أبو العلاء سنة
بعض من سبقوه من الشعراء ، واستخدم أساليبهم الفنية ، وأضاف إليها ميلاً
ذاتياً إلى قدر من رياضة العقل في التعبير عن المعنى بترويض اللغة أو محاولة
إخضاع اللغة لهذا اللون من اللغز التعبيري إذا صح التعبير .

ومراجعة معاني أبي العلاء في هذه الأبيات نجده لا يخرج تقريباً عن معاني
الغزل التقليدية ، أو المعروفة المتداولة بين الشعراء منذ القدم . فالحديث عن
سهر الليل ، والشوق والتفكير في المحبوبة ، والدعاء للأيام الجميلة الماضية التي
قضيناها في مكان المنزل ، الدعاء لها بالخير والسقيا ، والتذكر للحبيبة على
البعد ، ومصاحبة طيفها للمحب الشاعر- أينما ذهب ، وتمنيه أن يطول الليل
حتى تطول ملازمة الطيف ، ولا يفارقه بطلوع النهار ويقطته . وتذكر هذا
كله بعد مرور حول من الزمان .

ووصف المحبوبة بالريم ، والبقرة الوحشية في الدَّلِّ ، وجمال العيون .
ولكن هذه المعاني القديمة الجارية في الغزل ، ظهرت في صياغة أبي العلاء ،
وكأنها معاني جديدة لما أدخل عليها من ضروب اللغز في التعبير ، والتعقيد الذي

ينجرى فيه على طريقة أنى تملأ من الإيغال فى الاستعارة ، وتداخل التراكيب
بنيث تماثل المعانى . فأى معاطلة أكثر من قوله فى هذا المطلع :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعوانا على السهر
وإن بظلت عن الأحياء كلهم فاسق المواطر حياً من بنى مطر
فهو يريد أن يقرن بين السهر والدعاء بالسقى ، أى بين معاناة المحب
بالسهر من فرط التفكير والشوق ، والدعاء لأهل المحبوب وحيه بالخير . ساق
هذين المعنيين أو سلكتهما معاً مسلكتاً متراكباً ، أو متراكماً ، أو متولداً بعضه
من بعض .

واستخدم « الجزع » وهو اسم المكان يكثر فى شعر الجاهلين ومن تبعهم ،
وبنى مطر اسم حى ، وهو اسم رمزى ، وليس اسماً حقيقياً ، فاستخدم اسم
المكان ، واسم الحى رمزى على ما تعارف عليه الأقدمون ، أو هو استخدم
هذين اللفظين ليثير معنى ما أراده القدماء ، ولم يأت هو ببجد ، فهو يجتر
مختزناً من الشعر فى هذا التعبير ، ويخرجه فى صورة من هذه الصياغة أو
المعرض العلانى .

والأشد معاطلة هذا البيت الثالث الذى يريد ببساطة أن يعبر عن معنى
جمال حجلها فى ساقها فجاء بهذه الصياغة :

ويا أسيرة حجلها أرى سفها حمل الحلى لمن أعبا عن النظر

وقد اعتاد الشعراء وصف ساق المرأة بالامتلاء ، حتى يضيق عنها الحجل
فعبّر عن ذلك بأن ساق الحبيبة أسرّت حجلها ، ورمى من لا يقدر جمال الحجل
فى الساق بأنه عى النظر لا يقدر الجمال ، فيصبح من قبيل الشفه التحمل
بالحجل لمن لا يقدر قيمة جماله بالنظر .

أرأيت كيف شق أبو العلاء على نفسه ، وشق بالضرورة على الناس ؟ فى
تلوق شعره فضلاً عن فهمه .

ومن لوازمه فى هذا المطلع ما يغلب عليه من المبالغة ، والشطط فى الخيال فى
قوله :

لو حط رحلى فوق الثجم رافعه ألقىث ثم خيالاً منك منتظري

وهي مبالغة لا تجدى في إضافة شحة من الجمال ، بل قد تورى بالمعنى ولا تهمله .

وكذلك قوله :

يودُّ أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر
وأين هذا من قول بشار الذي أحسب أنه أراد الاستعانة به ، وتقليده ولكنه
جاء تقليداً نائياً ، وبجارية غير مقبولة ولا مستساغة ، فسواد القلب ، ليس مما
يزيد الليل طولاً ، وهو نقطة سوداء أو حبة سوداء فيما يعتقد القدماء ، ولا
وجود لها في حقيقة الأمر ، وسواد البصر إنسان العين . يقول بشار :

ورود الليل زيد إلى ليل ولم يُخلق له أبداً نهار
جفت عيني عن التغميض حتى كان جفونها عنها قصار
وأراد أبو العلاء أن يُقرب فوقع في المحال ، أو في اللغز المعنى . وأين من
هذا بيان بشار ، وجمال تعبيره ووضوحه .

وهكذا يمضي أبو العلاء في سائر القصيدة مُعَمِّياً في لفظه وصوره باعثاً قارئه
إلى الحيرة فيمن يتفزل بها ، يؤممه أول الأمر بأنه يتفزل في موجود شاخص ،
فإذا به يكتشف أن أبا العلاء غرر به ، يدنيه من هذا الوهم الذي لفه فيه . من
بداية القصيدة ، ويبعده عنه كلما مضى مسترسلاً في قراءة أبياتها .

فإذا هذه التي يتفزل بها قريحته ، أو موهيته الشعرية التي تجسد له الجمال في
بيت من الشعر ، يدنيه منك بيت من الشعر .

بعد هذه المقدمة التي وضعها على الطريقة التقليدية ، إلا أنه صاغها
بطريقته ، وسواء أكانت غزلاً أو نسيباً ، أو شيئاً آخر عماء عنا ، فإنه ينتقل
منه إلى المديح العادى في معانيه لكنه علائى الصياغة . حتى في هذه المرحلة
المتقدمة من شعره في سقط الزند .

فقصائد سقط الزند ، وإن كانت سابقة على قصائده اللزوميات إلا أنها
حوت كل خصائص شعر أبى العلاء ؛ صنعته الشعرية ، وأفكاره ، وعقائده
وسلوكياته ، ومواقفه من الناس والحياة والكون والخلق .

حتى يصل إلى من رأى فيقول :

قصَدَ الدُّهْرَ من أَى حَمَزَةٍ الْأَوَّلَا
بِ مَوْلَى حَجَى وَخَذَنَ اقْتِصَادِ
وَقَبِيهَا أَفْكَارُهُ شَبَذَنَ لِلتُّعْمَا
نَ مَا لَمْ يَشْبِدُهُ شِعْرُ زِيَادِ
فَالْعِرَاقِي بَعْدَهُ لِلْحِجَازِيِّ قَلِيلُ
لُ الْخِلَافِ سَهْلُ الْقِيَادِ
وَحَظِيْبًا لَوْ قَامَ لَيْنٌ وَحَوْشُ
عَلَّمَ الضَّارِبَاتِ بِرِ الثَّقَادِ^(١)
رَإْيَا لِلْحَدِيثِ لَمْ يَخُوجِ الْمَعْسُورُ
رُوفٍ مِنْ صَبْغِهِ إِلَى الْإِسْنَادِ

لقد جعل المعرى من مناسبة رثاء الفقيه الحنفى موقفاً يروح فيه بما يحمله في نفسه من أحاسيس تجاه العالم المحسوس والغيبى ، أو عالم الشهادة وعالم الغيب ، وأعمل فكره في الحياة والموت ، واتخذ من عناصر الوجود الحى رمز الحماة التى تيكى الهديل ، وهى تترئى للحياة ، فالحياة والموت يتعاقبان في المخلوقات ، يستقبل الخلق الجديد — الولادة — بالمسرة والفرحة ، ويودع الموت باللوعة والحسرة ، وساعة الفراق أشد وأكثر لذعاً فى النفس لأن الوليد مقبل جديد لم تمكن له العشرة والمعاشة والتآلف فى النفوس وموت العزيز من الأحياء بعد إلفٍ ومعاشة السنين تحقيق بأن تجزع النفس له وتحسُّ بالفقد .

لقد كرّس المعرى سقط الزند لموضوعاتٍ جارية فى الشعر العربى إلا أنه عاجلها من منظوره هو ، ورؤيته هو ، فبدت فيها ملامح العلائق واضحة فى اللفظ والتراكيب والصور ، قد يلجأ إلى المعانى التقليدية أو يستعيد معانى شعر القدماء ، ومحفوظة منه كثير وفير ولكنه يفتح إلى الشعراء أصحاب المعانى ، يستعيد معانيهم وصنعتهم ويضيف إليها من معرفته وثقافته وفكره .

ومن هنا قد تلتقى فى قراءتك لذمر سقط الزند بمعانٍ لأى تمام والمتنبى وهما الأقرين لديه ، لكن هذه المعانى تبدو أطباقاً ، بعد أن أعاد المعرى صياغته بطريقته .

واستمد المعرى الرمز والتشابه فى اللفظ فى إلغازه العقدي على ما سنبينه بعد .

(١) الثقاد ضمايف النعم .

حفل عصر أبنى العلاء بقدر من الصراع السيامى والعسكرى جنباً إلى جنب مع الصراع الفكرى والدينى بين العرب المسلمين ، وبين العرب والعرب ، وبين المسلمين العرب والمسلمين الترك والروم وبين الفاطميين والعباسيين ، وبين المسلمين والروم .

وكانت الشام مسرحاً لمعظم هذه الصراعات .

وأدى هذا الصراع المتلاحم بين الديانات الإسلام والمسيحية ، بين المسلمين والروم والذى استعرت حذته فى عصره أدى به التساؤل عما فى هذا الصراع من دوافع ، ولم يقتل الانسان أخاه لعقيدته ، والأديان إنما كانت لتأخى أبناء البشر والتراحم بينهم . فيقف هذا الموقف المتعادل بين الديانات الثلاث . هذا الموقف الذى بدا فى آراء مفكرى العصر واتجاهاتهم ، واتجاه بعضهم إلى التوحيد بينها كما رأينا عند رجال الصوفية ومفكرهم ، وإلى التسامح الفكرى والدينى عند الفاطميين وتعرف أن هذا التسامح بين الديانات الثلاث : الإسلام والمسيحية واليهودية كان إتجاهاً واضحاً فى سياسة الفاطميين . يقول أبو العلاء :

يا آل إسرائيل هل يُرجى مسيحكم هيهات قد مَيَز الأشياء من خُلْبَا
قلنا: أئانا، ولم يُصَلِّب. وقولكم ما جاء بعد . وقالت أمة صليبا

فيعرض لشخص المسيح بين الديانات الثلاث ، وينطرق إلى ما سواها من المقصائد وينظر فى أمر الخلاف بينهما نظر العقل ، فلا يفرق بينها ، ويراهما عقائد متوارثة وشرائع فرضت على الأجيال عن الآباء والأجداد . يقول :

العقل يعجبُ والشرائعُ كُلُّها خيرٌ يُقْلَدُ ، لم يقسَ قِياسُ
مُتَمَجِّسُونَ ومُسَلِّمُونَ ، ومُعَشَّرُ متصرون ، وهائلونَ رَسَائِسُ
ويوث نيران تَرَارُ تُعْبِدُ ومساجدُ معنورةٌ وكسائِسُ
والصَّابِثُونَ يعظمونَ كوكبا وطباغُ كُلِّ فى الشُّرورِ حبايسُ

ويقول مرة أخرى :

دينٌ . وكفَرٌ ، وأنباءٌ تُقصُّ وفُر قانَ يُنصُّ ، وغورةٌ ، وإنجيلُ
فى كلِّ جيلٍ أباطيلٌ يُدانُ بها فهل تفرَّدَ يوماً بالهَدَى جيلُ

ويرى بالتعطيل ، ويرى في الفروض الإسلامية مما ينفع الناس أولى بالاهتمام كالزكاة والعمل الصالح والسلوك الخير لا في العبادات كالصوم والصلاة :

ما الخَيْرُ صَوْمَ يَذُوبُ الصَّائِمُونَ بِهِ وَلَا صَلَاةَ، وَلَا صَوْفَ عَلَى الْجَسَدِ وَإِنَّمَا هُوَ تَرَكَ الشَّرَّ مَطْرَحاً وَنَفْسُكَ الصَّدْرَ مِنْ غُلٍّ وَمِنْ حَسْبِ

فالشَّرُّ هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَقْلُومَ ، ويقْلُومُ بالدعوة إلى تخليص النفوس من الحقد والحسد والدعوة إلى التآخي والمحبة .

ومن هنا ما لم تنه العبادات عن الشر ، ولم تدع إلى الخير فلا جدوى منها :
ويقف موقفاً معتدلاً من عقائد الفرق الإسلامية ، فلا يرى رأى غلاة الشيعة ويستنكر الخلاف بينهم وبين السنة المعتدلين ، ويأسف لانقسام العلويين وظهور الخوارج ، ويعمل على مذهبهم الذي يتخذ العنف طريقاً إلى تحقيق عقيدتهم ، ويعرض لسطحات الصوفية ، ويمارساتهم فيسخر من حلقات الذكر التي يعتقدونها منشدين راقصين . ولا يرى مبرراً للخلاف بين مذاهب السنة الأربعة التي بلغ العداء بين أتباعها مبلغاً يثير التساؤل والاستنكار . يقول :

أُجَارَ الشَّافِعِيُّ فَقَالَ شَيْئاً وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ لَا يَجُوزُ فَضْلُ الشَّيْبِ وَالشُّبَّانُ مِنَّا وَمَا اهْتَدَتْ الْفِتَاةُ وَلَا الْعَجُوزُ

وعنده أن رجال الدين هم أصل الخلاف وهم مُشعلوه ومُوججوه ، فيحمل عليهم متهماً بإيهاهم بالكذب والمرايعة ، وأنهم يصطنعون القراءة والوعظ احتيالاً على الرزق ، ومن هنا بدعو الناس إلى عدم الركون إليهم ولا الثقة بهم .

ويتناول بعض ما تحفل به عقول الناس من أساطير وخرافات أسسها أقوال أنصاف العلماء في كتبهم عن جهل أو غفلة . ويحذر من الإسراف في الغيبيات التي لا يملكون لها تحقيقاً . كأن يقول :

فَأَحْشَ الْمَلِيكَ، وَلَا تَوْجِدْ عَلَى رَهَبٍ إِنَّكَ بِالْجَنِّ فِي الظُّلُمَاءِ حُشِيَتَا فَإِنَّمَا تِلْكَ أَنْخِبَارٌ مُلْفَقَةٌ لِحَدِّعَةِ الْقَائِلِ الْحُشْوَى حُوشِيَتَا

في كل من الحروف بالحركات الثلاث والسكون ، ولزوم بعض الحركات
والحروف مع الروى .

ونظمه بعد عودته من بغداد أى بعد سنة ٤٠٠ هـ .

وأشار في المقدمة إلى الغايات التى استهدفها فى الديوان قائلاً :

« وبعضها تذكير للناسكين ، وتنبيه للغافلين ، وتحذير من الدنيا » .

ويلمح إلى هذه الغايات حيث يبرر عودته إلى النظم بعد إعراضه عنه
بقوله : « لكثرة ما شاع فى المجتمع من الكذب والسخف » .

وعليه فيكون قصده التحذير من شر الدنيا والحث على فعل الخير ، التماساً
لثواب الآخرة ^(١) .

هذا من حيث المضمون ، ومن حيث الشكل فقد نعى على شعراء العصر
مناهجهم وما أرتادوه من المعالى . قال فى المقدمة : « وقد جعلنا الشعراء
توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب ، وهو من القبايح ، وزينوا ما نظموا
بالغزل وصفة النساء ، ونعوت الخيل والإبل وأوصاف الخمرة ، ونسبوه إلى
الجزالة بذكر الحروب ، واحتلبوا أخلاف الفكر ، وهم أهل مقام وخفض فى
معنى ما ، يدعون أنهم يعانون من حث الركائب ، وقطع المفاز ، ومراسى
الشقاء » .

فهذه التقاليد الشعرية التى اعتنقها معاصروه صارت فى رأيه أموراً لا ينبغي
الأخذ بها ، والشعر أسمى من ذلك مكانة ، فقد اتخذ لنفسه نهجاً يخالف
مناهجهم وبخاصة فى هذه المرحلة المتأخرة من حياته بعد بلوغه سن الأربعين
وتجاوزها .

كان المعرى فى الشباب وحتى الكهولة قبل عودته من بغداد إلى بلده يجرى
على طريقة شعراء العصر بالقصد إلى المدح ، واتخاذ ما يتخلونهم ومائل لارضاء
الملودح واحتلاب أخلافه — كما يقول — ليجود بأكثر ما يستطيع بعد هذا
الإسباس من كسب وده ، والتقرب إليه بالغزل ، وكيل صفات المدح نفاقاً ،

(١) راجع أبو العلاء ولزومياته للدكتور كمال البازجى ، ص ٨٨ .

وذكر ما يلقاه في الوصول إليه من مشاق . وقد يعرض بالسؤال أحياناً يقول
كأل اليازجي^(١) :

« وقد جرى المعرى هذا المجرى في شعر شبابه إلا أنه تحول عنه في عهد
نضجه والذي حمله على أن يعود إلى النظم اعتقاده أنه يستطيع أن يحرر شعره
من التقليد المبذل ، وينزهه من الرذل الساقط ، ويظهره من الكذب
الممقوت ، ولذلك جعل منه هدفاً أسمى ، جعله عظة للسامع ، وتنبهاً للغافل ،
وتحذيراً من الدنيا كي يبتدى به الضالون ويستترشد به المترددون » .

فهل كان شعره في اللزوميات مجرد موعظة فيها تنبيه للغافل ، وتحذيراً من
الدنيا ... إلخ كما جاء في قول الدكتور اليازجي ؟

الحق أن خطاب المعرى الشعرى في اللزوميات لم يكن مجرد موعظة ، بل
كان إفضاءً بموقف اتخذته المعرى من الحياة والناس بعد عودته من بغداد مركز
الفكر والأدب والتوجه الحضارى والسياسى .

وعلى اختلاف الرأى في أسباب عودته من بغداد إلى المعرة بعد أن لقي فيها
ما لقي من مواجهة مع بعض رجالاتها وعلمائها ، وما شهدته فيها من أمور لم
تقع في نفسه موقعاً مرغماً . يقول في رسالته إلى أهل المعرة عن أسباب العودة :
« وهو أمر سرى عليه بليل ... ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر
والسنة ولكنه غضى الحقب المتقدمة ، وسليل الفكر الطويل » .

يقول في الرسالة المذكورة :

« ... أما الآن فهذه مُناجاة إياهم منصرفى عن العراق مجتمع أهل الجدل ،
وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فأنقضت ، وودعت الشبيبة
فمنضت ، وحلبت الدهر أشطره ، وجربت خيره وشره ، فوجدت أوفق ما
أصنعه في أيام الحياة عزلة تجعلنى من الناس كبارح الأروى من ساغخ النعام ،
وما ألوث نصيحة لنفسى ولا قصرت في اجتذاب المنفعة إلى حيزى ، فأجمعت
على ذلك ، واستخرت الله فيه بعد جلالة على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم
راه حزمًا . وعده إذا تم رشداً . وهو أمر سرى عليه بليل ... وأحلف ما

(١) أبو العلاء ولزومياته .

سافرت أستكثر من النسب ، ولا أتكثر بقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم ، فشاهدتُ أنفُسَ مكان لم يسعف الزمان بإقامتي فيه ، والجاهل مغالب القدر ، فلهيت عما استأثر به الزمان ... » حتى يقول : « ويحسنُ الله جزاءَ البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا على أموالهم عرضَ الجَدِّ ، فصارفوني غيرَ جَدِّ بالصفاءِ ولا هَشٍّ إلى معروفِ الأقوامِ ، ورحلتُ وهم لرحيلِ كارهون ... » .

وتعلق الدكتورَةُ بنت الشاطيء على الرسالة قائلة^(١) :

« والرسالةُ صريحةٌ في الكشف عن مطاردة من نفسه لا من فقهاء بغداد أو غيرهم — طال عناؤه بها ، وتفكيره فيها حتى انسحب والقوم لرحيله كارهون » .

هذه المهوم النفسية هي التي أشرنا إليها من ممارسته عن قرب لصور الحياة ، وأحوال الناس في عاصمة الدولة ، ومركز الخلافة ، ولا شك أنه رأى على مستوى القيادتين السياسية والدينية ما لا يرضى عنه ، كما رأى من أحوال الناس واختلاط المفاهيم بينهم ما رأى ، وتملك الجَهالة والشُّبُه لكثير من عقول العلماء مما لم يرض عنه ، كذلك رأى أحوال الناس وانصرافهم إلى متع الحياة والتمسك بالدنيا دون القيم الرفيعة التي أرساها الإسلام وجاءت بها رسالة محمد بن عبد الله . يقول مخاطباً أهل بغداد :

وكان اختياري أن أموت لديكم	حميداً ، فما ألفتُ ذلك في الوسع
فليت جِمامي حُمَّ لي في بلادكم	وجالت رِمامي في رياحكم المُسج
أفدُنْكم خفض الحياة فإننا	نصبنا المطايا بالقلاعة على القطع

ألا نجد في هذا القول ترديداً لقول المتنبي في رفض الحياة الحضرية التي رأى فيها المتنبي خروجاً على التقاليد والقيم العربية التي أرساها الإسلام وثبتها ، ودعوة إلى العودة للبدوة .

وهكذا ما أن استقر المعرَى في حلب حتى بدأ يسترجع ما لم يرض عنه مما

(١) أبو العلاء المعرَى من سلسلة الأعلام ، طبع الطبعة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٥ م ص ١٢٥ .

سمع زولامسن في تلك المرحلة البغدادية خاصة ، والتي أوقعت في يقينه أن عصره شر العصور . يقول :

هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطسّر فما بقوا لم يُبارخ وجهه دَنَسُ
والأرضُ ليسَ بمرجُو طهارتها إلا إذا زالَ عن أفاقها الأُنسُ
تَناسَلوا فَمَا سُرَّ بَنَسِلُهُمْ وَكَمْ فَجور إذا شَبَّاهُمْ عَنَسُوا

ومن هنا وقف أبو العلاء من الحياة والناس والدين والفكر موقف الشك والخيرة أهو شكٌ فلسفي ؟ ، أهو شك وجودي ؟ ، أهو شكٌ عَنَبِيٌّ ؟ ، أم هو مجرد احتجاج وغضبٌ لما رآه ولمسه من فسادٍ واختلاط ، أدى به إلى اليأس في الإصلاح والنظرة المتشائمة للحياة والناس .

ورأى الدكتور طه حسين لتعاطفه مع أي العلاء ولحاولته الدفاع عنه من وجهة نظره هو وقناعاته هو أن شكُّ أي العلاء كان شكًّا إيجابياً . يقول (١) :

« إن أبأ العلاء يصوّر في شعره شكًّا مَهْمًا يَعْنِفُ فهو لا ينتهي بصاحبه إلى هذا التمرد الوقح الذي نجده عند كثير من الذين أسرفوا في الثقة بعقولهم ، وإنما ينتهي به إلى الخوف والإشفاق ، والغلو في الحذر ، والاحتياط للنفس ، والاجتهاد في الخير » .

ولعل طه حسين كان يستحضر صور بعض المتمردين من الشعراء والعلماء ممن دعاهم بأصحاب التمرد الوقح ، وربما كان بين هؤلاء بشار بن برد وأبو نواس وابن الراوندي ونعرف موقفه من بشار ، وأنه كان موقف غير الراضى .

ونلتقي في ديوان اللزوميات بهذه الرؤية الشاملة التي آرتها أبو الطيب في عصره قبل عصر أي العلاء بقرن من الزمان إذ يقول :

أَتَى الزَمَانُ بنوه في شبيته فسرهم وأتيناؤه على الهرم
ويقول :

أنا في أمة تداركها الله كصالح في عمود

(١) مع أي العلاء ص ١٨١ .

شعر الزروميات :

وديوان الزروميات يلى ديوان سقط الزند ، وهو فى مرحلة اعتزاله ، ونضجه يث فيه فى هدوء فلسفته ويعرض موقفه من عصره ومجتمعه . لقد أقام فى محبه بالمعرة سنوات ، يعتزل الناس والناس لا يعتزلونه ، التقى به نفر من علماء القرن الخامس فى نصفه الأول ، وجمعت الصداقة بينه وبين جماعة من الأعلام فى السياسة والعلم والأدب ، أمثال الوزير المرفى أبى القاسم الحسين بن على ووالده ، وشمس الدين الشيرازى داعى الدعاة ، وابن سنان الخفاجى تلميذه والشاعر الشامى المشهور ، ولقى الشاعر المعروف بالدمشقى ابن حيوس وناظره فى محسن الصورى والمتنبى ، وكان ابن حيوس يعرف كلف المعرى بالمتنبى .

ومر به جماعة من العراق كالشاعر صريع الدلاء .

وراسل المصريين ، واتصل بجماعة من رجال الفاطميين ، فقد كان قريباً منهم ، ودعى إلى مصر ، ولم تمكنه الرغبة فى العزلة من الرحلة إلى مصر . ولا نستطيع أن ننفل علاقة المعرى بالفاطميين على الرغم من عدم لقاءهم ، ولكنه التقى برجالهم . وظهرت آثار الإسماعيلية واضحة فى كثير من شعره وكتابه . لربما لم يصرح تماماً بفكره الإسماعيلى ، لأنه لم يعتقد فكراً معيناً ، إلا أنه كان يميل إليه ويتعاطف معه وأعجب لعبارة الدكتور طه حسين التى تقول :

« ولم يكن أبو العلاء يحب الفاطميين ، ولا يرضى عنهم ، بل لم يكن أبو العلاء يحب الشيعة عامة ، ولا من يتصل بهم من قريب أو بعيد ، فهو يعرض بالفاطميين ويهاجم الإسماعيلية والإمامية » .

ولا يأتى لنا بنص صريح فى هذا التعريض أو الهجوم .

ولكننا ثبت لأبى العلاء قربه الفكرى من الفاطميين وفكرهم الإسماعيلى ، والفكر الشيعى عامة بما روى عن حديث عن لقاءه لأبى يوسف القزوينى .

فقد حكى أنه قال يوماً لأبى يوسف : ما رأيت شعراً من مراثية الحسين بن على يساوى أن يخط ، فقال القزوينى : على فقد قال بعض أهل سوادنا :

رَأْسُ ابْنِ بَنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيَّهِ
وَالْمُسْلِمُونَ يَنْظُرُونَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَسْمَعٍ
لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى قَنَاقَةٍ يُرْفَعُ
لَا جَارِعَ مِنْهُمْ وَلَا مُتَفَجِّعُ
إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ .

فَنَعِمْ يَكُونُ سَوْأُ الْمَعْرِىِّ وَاسْتِكْكَارُهُ ؟ لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ شِيعَةِ الْحُسَيْنِ ابْنِ
عَلِيٍّ ، أَوْ مِنْ يَحْبُوهُ وَيَجْلُوهُ وَيَرْفَعُوهُ إِلَى مَقَامِ رَفِيعٍ لَا يَرَى أَحَدًا مِنَ الشُّعْرَاءِ
اقْتَرَبَ مِنَ الْفَجِيعَةِ عَلَيْهِ بِمَا يَنْبَغِي مِنَ الْقَوْلِ .

وَلَقَدْ اهْتَدَى أَبُو الْعَلَاءِ بِالْعَقْلِ فِي نَظَرِهِ إِلَى الْحَيَاةِ وَالنَّاسِ ، وَإِلَى الْعُقَايِدِ
وَالْتَقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ ، وَبَدَتْ فِي أَشْعَارِهِ رُوحُ صُوفِيَّةٍ ، وَإِنْ لَمْ يَتَصَوَّفْ عَمَلًا
وَهُوَ يَعَارِضُ أَهْلَ الظَّاهِرِ ، وَمَنْ يَعْتَمِدُونَ النُّقْلَ ، وَيَقْدُمُونَهُ عَلَى الْعَقْلِ .
يَقُولُ :

لَقَدْ صَدَدْتُ أَفْهَامَ قَوْمٍ فَهَلْ لَهَا
وَكَمْ غَرَّتْ الدُّنْيَا نَبِيَّهَا وَسَاءَتْ
صَقَالٌ ، وَيَحْتَاجُ الْحِسَامُ إِلَى صَقَلٍ
مَنْ النَّاسِ خَيْفٌ فِي الْأَحَادِيثِ وَالنُّقُلِ
وَأَرْحَلُ عَنْهَا ، مَا إِمَابِي سِوَى الْعَقْلِ
سَأْتِي مَنْ يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ جَاهِدًا
وَلَقَدْ تَمَرَّدَ عَلَى عَقَائِدِ عَصَرِهِ ، وَقَالَ فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ تَمَرُّدِهِ مُخَاطِبًا إِنْسَانَ
عَصَرِهِ :

تَحَلَّقْتُ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالِدِينَ فَالْقَنَى
لِتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ
وَرَبَّمَا كَانَ مِنْ شُبِّهِ حَبِّهِ لِكُلِّ مَا هُوَ مُفَكِّرٌ عَلَوَى النَّهْجِ شِيعِيٍّ الْمَذْهَبِ مِيلَهُ
الشَّدِيدِ إِلَى تَقْدِيمِ كُلِّ مَنْ أَبَى تَمَامَ الْمُتَنَبَّى ، وَنَعْلَمُ مَا قِيلَ مِنْ ارْتِبَاطِهِمَا بِالشَّيْعَةِ
أَوْ الْقَرَامِطَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَنَبَّى ، بَلْ وَلَعَلَّهُ بِالْفِكْرِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ أَيْضًا عَلَى مَا يَرَى
بَعْضُ الْبَاحِثِينَ .

وَعَلَى أَيْةِ حَالٍ فَالْمَعْرِىُّ عَاشَ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ ، وَالفكر الشيعي عامة
وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ خَاصَّةً تَمُوجُ بِهِ آفَاقُ الْبِلَادِ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ شِيعِيًّا
بِالْإِتِّبَاعِ فَقَدْ تَكَلَّمَ بِكَلَامِ الشَّيْعَةِ وَالْفَاطِمِيَّةِ ، أَوْ انْتَحَلَ رَمُوزَهُمْ وَمَعَانِيَهُمْ بِجَارَةٍ
وَمُحَابَاةٍ .

وَيَقَعُ دِيْوَانُ الزُّرُومِيَّاتِ فِي نَحْوِ ثَمَانِ مِائَةِ صَفْحَةٍ ، وَسَمَاهُ لَزُومٌ مَا لَا يَلْزَمُ لِأَنَّهُ
الْتَزَمَ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ : بِنَاءُ الْقِصَائِدِ عَلَى جَمِيعِ حُرُوفِ الْمُصْجَمِ ، وَإِيرَادُ الرُّوْيِ

كما يقول عن الملائكة والشياطين :

قد عشتُ عمراً طويلاً ما عِلِمْتُ به جَساً بِحَسٍّ لَجْنِيٍّ وَلَا مَلَكٍ
ومنه ما زعموا من أساطير اعتقد فيها العرب ورويت عنهم وعن كهانهم
مثل شق وسطيح :

وجدتُ الغيبَ تجهله البرايا فما شقُّ هديت ولا سطيح
والوعاظ الذين يفرغون فأذان الناس فيضاً من هذه الأشياء مسرفون
مغررون بالناس. يقول مخاطباً المواطن المعاصر :

رُوَيْدَكَ قَدْ غُرِرْتُ ، وَأَنْتَ حُرٌّ
بِصَاحِبِ جَبَلَةٍ يَعْظُ النِّسَاءَ
يُحَرِّمُ فِيكُمْ الصُّهْبَاءَ صُبْحاً
وَيَشْرِبُهَا عَلَى عَمِدِ مَسَاءَ
يَقُولُ لَكُمْ غَدُوْتُ بِلَا كِبَاءٍ
وَفِي لُذَاتِهَا رَهْنُ الْكِسَاءِ
إِذَا فَعَلَ الْفَتَى مَا عَنْهُ يَنْتَهَى
فَمِنْ جِهَتَيْنِ لَا جِهَةَ أَسَاءَ

ونقف مع طه حسين وقفة نستطلع رأيه في هذا الموقف من أُنَى العلاء حيال
قضايا الدين ورجاله . يقول^(١) :

« ... ولكن أبا العلاء معلومٌ بعضُ العنصرِ فيما تورط فيه ، ودفع
إليه من ألوان الجدل في الدين والفلسفة ، فهو إذا مضطّر إلى أن يُثبت وينفى ،
وإلى أن يُعرّف وينكّر ، وإلى أن يَقْبَلَ ويرفض . وليس هو الذى ابتكر هذه
المشكلات التى عرضت له أو عرض لها ، وإنما أقبل إلى الحياة ، وبلغ الشباب
فوجد هذه المشكلات قد وضعت موضع البحث منذ أقدم العصور ، وكثر
فيها الاختلاف ، واشتد فيها الأحَدُ والرَدُّ ... ونشأ عن ذلك شرٌّ عظيم في حياة
الناس ، وفسادٌ منكّر في أمورهم ، فلم يكنْ له بدٌّ من أن يستعرض ما
استعرض الناس من قبله ، ويستقبل ما استقبلوا . ويقول فيه مثل ما قالوا ، أو
غير ما قالوا . وقد فعل ، وانتهى به هذا كله إلى هذه الحيرة المؤلمة المهلكة » .

ويعرض طه حسين لوجوه التشابه في أفكار أُنَى العلاء التى بثها في
اللزوميات وتلك التى ترددت في كتابه المتهم به في تقليد القرآن وهو
« الفصول والغايات »^(٢) .

(١) مع أُنَى العلاء ص ١٨٠ .

(٢) مع أُنَى العلاء ص ٢٠٧ ، و ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

ويقول عن إيمان أنى العلاء إنه كان يؤمن بالله في كليهما في الفصول
واللزوميات ويؤمن بحكمته ، وانقطاع الصلة بين الله والناس إلا عن طريق
العقل .

وإذا فهو غير مطمئن إلى النبوات ، وهو محتاط في إعلان شكه بالنبوات
وهو ينكر في اللزوميات من أمر الحج كما أنكره في الفصول والغايات ، ويثبت
وجوب الطاعة والتقوى وإقامة الصلاة والبر بالفقراء ، ورياضة النفس وأخذها
بما تكره من الشدائد .

ومن قضايا اللزوميات الفوضى السياسية وطفيان الحكام في العراق والشام :
يقول :

إِنَّ الْعِرَاقَ وَإِنَّ الشَّامَ مِنْ زَمَنِ
سَاسِ الْأَنَامِ شَيَاطِينَ مُسَلِّطَةً
مِنْ لَيْسَ يَخْفَلُ خَمَصَ النَّاسِ كُلِّهِمْ
وَفِي ظَلَمِ الْحُكَّامِ :

صِفْرَانِ مَا بِهِمَا لِلْمُلُكِ سُلْطَانُ
فِي كُلِّ مِصْرٍ مِنَ الرَّالَيْنِ شَيْطَانُ
إِنْ بَاتَ يَشْرَبُ خَمْرًا وَهُوَ مَبْطَانُ

مُلُ الْمَقَامِ ، فَكَمْ أَعَاشِيرُ أُمَّةٍ
ظَلَمُوا الرِّعْيَةَ ، وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا
وَفِي عِلْمِ حُكْمِ الرُّؤَسَاءِ بِالْعَقْلِ :

أَمَرْتُ بِغَيْرِ صِلَاحِهَا حُكَّامُهَا
فَعْدَلُوا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا

يُسَوِّسُونَ الْأُمُورَ بِغَيْرِ عَقْلِ
فَأُفٍّ مِنَ الزَّمَانِ ، وَأُفٍّ مِنِّي
فَيَنْقُذُ أَمْرَهُمْ وَيُقَالُ سَاسُهُ
وَمِنْ زَمَنِ رِثَاسَتِهِ خَسَاسُهُ

ويعرض لما كان يحدث في زمنه من غارات الجند بالجيش المسلمة والرومية
وغارات غيرهم من الناس ممن يملكون أسباب القوة والسطوة . يقول :

وَالشَّرُّ جَمٌّ وَمَنْ تَسَلَّمَ لَهُ إِبْلٌ
مِنْ غَارَةِ الْجَيْشِ يَتَرَكُهَا لِحُرَابِ
وَفِي جَشَعِ التَّجَارِ وَغَارَاتِ اللَّصُوصِ وَقَطَاعِ الطَّرِيقِ :

يَا تَجَرِ الْمِصْرَ مَا أَتَصَفَّتْ سَائِمَةٌ
إِنْ تَنَلَّكَ قَطْعٌ طَرِيقَ بِالْقَلَاةِ فَكَمْ
كَذَّبَتْهَا فِي حَدِيثِ مَنْكَ مَنَسُوقِ
قَطَعَتْ مِنْ قَبْلِ طَرَفِ النَّاسِ بِالسُّوقِ

ولأنّ العلاء وثبات شعرية ، ولحاث وامضة تنير إعجاب القارىء وتهديره لشاعريته . ومن هذه اللمحات قوله على لسان طفل مات صغيراً :

فَمَيِّتٌ وَلَمْ يُدَبِّثْ وَلَمْ سَقِيَتْ	تقول : حلت عاجلتى بكرهى
فَلَيْتَنِى فِى الْأَهْلَةِ مَا رَقِيَتْ	رقيت الحول شهراً بعد شهر
تَيَمَّنِى الْجِمَامُ فَمَا وَقِيَتْ	فلما صيخ بى ودنا فطابى
وَلَوْ طَالَ الْمَقَامُ بِهَا شَقِيَتْ	تركت الدار خاوية لغيرى
حَيَاةً بى كَيْسَتْ فَمَا تَقِيَتْ	تقيت فما دُئِسَتْ ولو تَمَادَتْ
فَعَادَنِى كَأَنِّى مَا رُقِيَتْ	رقتى الراقيات وحّم يومى
بِسُكْنَى الْفُوزِ فِى الْأُغْرِى انْتَقِيَتْ	وما يدرى بك باكيتى غسالى
تَعَجَّلْتُ الرَّحِيلَ فَمَا بَقِيَتْ	ومن صنع المليك إلى أنى

وهى وإن تضمنت فلسفة أبى العلاء التشاؤمية ، فإنها تنبئ عن رغبة فى رحمة الطفولة من صراغات الحياة ، والحشية على أن تلوث براءتها ، وما غرس الله فيها فطرة بشور الناس بعد أن يشبوا عن الطوق ، وتباین رغباتهم ، وتشابه أطماعهم .

ومن شعر اللزوميات ذى المذاق الخاص ، قوله من أبيات يخاطب فيها الديك^(١) :

بِهَا رَمْتِكَ الْعَاطِفَاتُ الرِّوَائِمُ	عليك ثياب خاطها الله قادراً
يَبْأَى بِهِ أَمْلَاكُهُ وَيَوَائِمُ	وتأجك معقود كأنك هُرْمَزُ
كَلِمَةٍ بَرَقَ مَا لَهَا النَّعْرُ شَائِمُ	وعينك سقط ما نجا عند قُرَّة
أَوْأَنْ تَرَقَّتْ فِى السَّمَاءِ النِّعَائِمُ	ورث هذى التذكار من قبل جُرْمِ
إِذَا قَلِقْتَ مِنْ حَابِلِهِ الدَّعَائِمُ	وما زلت للذين القويم دعامة
وَلَا زَاَمَ إِفْطَاراً بِأَكْلِكَ صَائِمُ	ولو كنت لى ما أُرْهِقَتْ لك مُدْمِيَةٌ
حَيْثُكَ بِأَسْنَاهَا الْعَصُورُ الْقَدَائِمُ	ولم يُهْلَ ماءً كى تُمَزَّقَ حُلَّةٌ
عَلَى الْخَلْقِ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْكَ الْجَرَائِمُ	فإن كتب الله الجرائم ساخطاً

(١) راجع الفصول والغايات ص ٨٨ .

قته الشعرى

يتمتع المعرى بمقدرة شعرية فذة ومميزة ، وتأتي هذه المقدرة بمحصول وافر من الثقافات المتعددة ، والتمكن من اللغة والتراث الشعرى والفكرى . والإحاطة بأقوال أصحاب المذاهب والفرق وأصحاب الديانات ، بل لم يدع جانباً من جوانب المعرفة إلا وأحاط به حتى الفنون من موسيقى وغناء كشف عن معرفته بهما في أحد فصوله بالفصول والغايات ، فقد عرض لأضرب الغناء وفصلها ، وفسرها تفسيراً يعكس إلماماً وفهماً لأسرارهما^(١) .

ونرى أنه أفاد من إلمامه بالموسيقى ، في توفير قدر من الإيقاع والموسيقى التى تنسرب من سياق عباراته ، وتتجاوب إلى حد كبير مع معانيه وإيحائاته . وقد أفاض في حديثه عن أعاريض الشعر وقوافيه .

ونذكر أن عنصر الموسيقى في الشعر عنصر مؤثر فيما يوحى به من تأثير غير مباشر في النفس بشارك في وقع المعنى الشعرى مع الخيال على وجدان المتلقى .

وما يذهب إليه من توفير أصوات متجانسة أو متألقة تنفق وتختلف في النوع والدرجة هذا الجنس الذى يعتمد إليه في أبياته ، والطباق أو المقابلة ، والتبادل الإيقاعى في التراكيب وصنعتة في القافية ، وبخاصة في اللزوميات ، تشير إلى هذا الميل إلى اكساب هذا الصوت المتردد في آخر أبياته أبعاداً صوتية أعمق وأكثر تركيباً . وقد تبعه في هذا اللزوم بعض شعراء الشام ممن جاعوا بعده ، فأستخدموا جناس القافية وأصبح لونا من ألوان البديع الشعرى المستحدث منذ القرن الخامس ، وصياغته الشعرية صياغة مركبة ، قد تبلو متكلفة تحس بمعاناة الشاعر فيها ، لأنه يريد أن يوفق بين المعنى العقلى البعيد والعبارة ، ولا يحب لهذا المعنى الذى ينشده أن يفرغ مدلوله في سهل من اللفظ ، بل يعتمد إلى تعقيده بتلك الصياغة الصعبة .

ويعلق طه حسين على عمل أئى العلاء هذا بقوله :

(١) راجع لفصول والغايات ص ٨٨ .

« وفي آثار أئى العلاء شدة على الناس ، شدة في ألفاظها ، وشدة في معانيها ، وشدة في أساليبها أيضاً ، ولكن في هذه الآثار شدة على أئى العلاء نفسه ، فقد لقي في إنشائها عناءً وجهداً »^(١) .

وهو يعتمد إلى الإغراب في اللغة ، ويساعده على ذلك معرفته الواسعة بها ، يقول طه حسين^(٢) : « فما أعرف أحداً وعى اللغة العربية كما وعها أبو العلاء ، وما أعرف أن أحداً صرّف هذه اللغة في أغراضه وحاجاته الفنية كما صرّفها أبو العلاء » .

ومن عناصر الغموض الذى يقرب إلى اللغز في شعره ميله إلى أن يعبر عن معناه بأكثر من صورة من صور التعبير كالمثالة والمغايرة ، والتفصيل ، والتلميح .

ومن ضروب المماثلة التشبيه ، والإستعارة ، ومراعاة النظر والتشيل والتوجيه .

وقد يعتمد إلى التعمية ، بأن يوهم من ظاهر الكلام بمعنى غير ما يخفى من حقيقته . وهو واع لهذا ويتممده . يقول في أحد أبياته :

لا تُفكِّدْ عنيّ لفظي فإني مثلُ غري ، تكلمي بالهجاز
ويخبرنا في غير موضع ، وفي أكثر من عمل من أعماله بأنه يؤثر الرمز ويصطنع الإلغاز ، ولا يكره التحرّز بالتقيّة .

وقد صرح بميله للغز في كتاب « زجر النابح »^(٣) .

وقال يوسف البديعى^(٤) : « وإن أبا العلاء ألف كتاباً في اللغز لشدة ولعه به سماه « كتاب الألفاز » . يقول البديعى : وكتاب الألفاز كبير الحجم ، رتبته على جميع حروف الهجاء ، مشتمل على كلِّ بحور الشعر ، وأعلريضه ، وضروبه » .

(١) مع أئى العلاء ص ٢٠٧ .

(٢) زجر النابح ، تحقيق الدكتور أحمد الطرابلسي ، ص ٤٥ .

(٣) نوح النحرى عن حنية المرى ، بتحقيق إبراهيم الكيلاني ، ص ١٠٤ .

كذلك أشار بعض شراحه إلى هذه الظاهرة في شعره عامة . فقال البطلوسي تعليقاً على قوله :

فهل حدثت بالحرباء يلقى برأس الغير موضحة الشجاج
« وأبو العلاء يُليِّغ كثيراً بالأسماء المشتركة ، فيوهم أنه يريد معنى ، وهو
يريد معنى آخر ، ويصف أحد الإسمين المشتركين بصفة الآخر » (١) .

وذكر صاحب جواهر الكنز جملة من أَلغازه ، منها قوله (٢) :
أحب عملاً وهوى فيه وما صلب قط على النبي
وأهرب ما استطعت من الدنيا فرار الشيخ من رهب الصبي
والنبي اسم موضع ، والصبي هو السيف .
وقال أيضاً :

إذا ما صادفت زيدا وعمروا أتاها بعدة أو من ونصر
بغير لا تزال ثرود فيه ويجمعها ويرب الوحش قصر
فزيد من الزيادة ، وعمرو من العمر ، وأو من أى عوض ، ونصر من نصر
الغيث إذا أتاه ، والقصر آخر النهار .
وقال :

رايت يهود وافقت النصارى على بغض المسيح فلم يلاموا
والمسيح : المرقى من اللحم .
وقال :

لقد عانيت مرغزاً بشعر ثمنى وثله أهل المروض
يعيش به الفقيه وكم فقيه أبى إلا المعيشة بالقريض
فقوله : مرغزاً يعنى السحاب الذى فيه رعد ، والشعر اسم جبل ، والفقيه
الفحل من الإبل ، والقريض الجزء .

(١) شروح سقط الزند ، ص ١٧٢٣ .

(٢) جواهر الكنز ، ص ١١٣ .

وقال :

تُؤَدُّونَ التَّوَافِلَ كُلَّ يَوْمٍ وَضَاعَتْ فِي دِيَارِكُمُ الْفَرُوضُ
الفروضى : جمع فرض ، وهو نوعٌ من الثمر .

وقال :

دَعَا قَاضِيَكُمْ يَوْمًا شُهُودًا فَمَالَ بِهِم عَنِ الدِّينِ الشُّهُودُ
فالشُّهُودُ جمع شَهِيد ، وهو العَسل .

وقال :

لَقَدْ سَرُّوا وَحَقُّ لَهِم سُرُورٌ إِذَا بَالَ الْهَزِيمُ عَلَى الصَّرِيرِ
وَكَمْ بَعَثُوا صَرِيرًا مِنْ غَوَالٍ وَأَيْدِيهِمْ مَعَاوِيَةُ الصَّرِيرِ
لَهُمْ فِي السَّبَبِ وَالتَّوْرَةِ حَظٌّ إِذَا عَزَمَ الْمُقِيمُ عَلَى الْمَسِيرِ
وَمَا عِيدَ الْفَطِيرِ لَهُمْ بَعِيدٌ وَهُمْ وَالْهَائِلُونَ مِنَ الْفَطِيرِ
جُنُوبُهُمْ عَلَى غَيْرِ الْمَوَاسِي وَأَيْتُهُمْ تَزُودٌ عَلَى السَّرِيرِ

الْهَزِيمُ : الأُمد ، وهو من الكواكب الذى تقول العرب مطرنا بنوع كذا معنى
بذلك الكوكب الْغَارِبُ وقت طلوع الفجر فى ذلك الوقت . والصَّرِيرُ جانب
الوَادِى ، والصَّرِيرُ المال المَصْرُور ، وضربٌ من الصَّبْرِ ، والتَّوْرَةُ مثل التَّوْرَةِ
وهى التَّغْطِيَةُ ، والفَطِيرُ مصدر الفَطْرَةِ وهى الْخَلْقَةُ ، والسَّرِيرُ أَكْرَمُ مَكَانٍ
بِالْوَادِى .

وقال :

رَأَيْتُ الْبَذَرَ أَذْرَكَه مَشِيْبٌ وَأَصْبَحَ طَالِبًا قُوْتَ الْعِيَالِ
وَكَمْ أُرَوِّى الْأَهْلَةَ مِنْ نَجِيحٍ وَزَادَ الْمَغْرِبِينَ مِنَ الْحَلَالِ

وتكفى هذه الأمثلة للدلالة على ما أشار إليه كل طه حسين والبطليوسى
من مقدرة على اللغة ، واللعب على التشابه اللفظى والاختلاف المعنوى والمعرفة
بأسرار اللغة ، والاشتقاقات والصياغات المجهولة والمهجورة ، أو ما يسمى
بحوشى اللغة وغريبها .

ومع اقتدار أبى العلاء على اللغة ، وغزارة محصولة فيها ، وقوة ذهنه وذكااته

بما مكّنه من هذا التشكيل المlfز نجده كذلك يملك قدرةً على تعريف التراث والتعامل معه بشتّى مجالاته من معارف ونصوص دينية قرآن أو حديث ، وسيرة وتاريخ ، وأنساب وقبائل وشعر ... إلخ .

وتراه يعمد إلى الأسلوب المlfز في توظيف بعض أسماء القبائل كأسد وهى قبيلة معروفة ، وأسم أحد شعراء هذيل الكبار وهو أبو ذؤيب فيقول :

ليالٍ ما تُفِيقُ من الرّزايَا فويحي من عجائبها ويُنبي
أعادت أسدّها أسداً أكيلاً وأودى ذئبها بأبى ذؤيب

والأسد الأولى الليالى ، وأسد الثانية القبيلة ، وذئب الليالى جانس بينه وبين اسم الشاعر أبى ذؤيب ، كما جانس بين أسد الليالى وأسد القبيلة . ملمحاً ومشيراً إلى قصة أبى ذؤيب وقد أودى الطّاعون بأولاده الأربعة ، فرتاهم بقصيدته المشهورة .

ويلعب بالجناس كما قلنا فى هوايته العقلية المlfز فى شعره بديوان اللزوميات .

ومن استعانت به بآيات القرآن قوله :

انفرد الله بسلطانِه فما له فى كلّ حالٍ كفاء
وضننُ ألفاظ الآيّة (ولم يكن له كفواً أحد) .

وفى قوله :

ألم ترَ للّٰدنيا سوءَ صتيبِها وليسَ سيّوى وَجْهِ المهيمنِ ثابت
من قوله تعالى (ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام) .

ويقول :

ويظنّها نارَ الحليلِ سلاماً ويكاد يأخذ من سناها القابس
يشير إلى قوله تعالى : (يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) .

ويقول :

ويَدأى فى دُنْيائِ وهى حَيّة كيدئى أبى هب غدا فى الآجل

يشير إلى قوله تعالى : (تبت هذا أرى فب وثب) مشيراً إلى أن ذلك سيكون مصيره في الآخرة .

ويقول :

وما لبس الإنسان أبهى من التقى وإن هو غالى في حسان الملايس
من قوله تعالى : (وليأس التقوى ذلك خير) .

وأمثلة استعائته بالشعر القديم كثيرة نذكر منها إشارته لأرجوزة رؤية
القافية :

وقاتم الأعماق خاوي المخترق
مُشتبه الأعلام لَمَاءُ الخفق

فيقول أبو العلاء :

مالى غدوث كفاف رُوبة قُيُدت في الدُهر لم يُقَدَّر لها إجراؤها
ومنه قوله :

أين امرؤ القيس والعذرى إن مأل من تحته الغبيط

مشيراً إلى قول امرئ القيس :

تقول وقد مأل الغبيط بنا معاً عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل
ويقول المعري :

وما جَبَلُ الرِّيانِ عندى بِطائِلٍ وما أنا عن حُودِ الحِسانِ بِرِيانٍ
يريد نقض معنى جرير في قوله :

يا حبذا جبل الرِّيان من جبل وحَبْذا ساكنُ الرِّيان من سَكانٍ
وتوظيف محفوظ المعرى للشعر القديم ، جاهلياً كان أو إسلامياً أو عباسياً
على مستويات متعددة ، كما نلاحظ في الأمثلة التي سقناها . واهتم الباحثون
بتتبع هذا الموضوع في شعره^(١) .

(١) راجع على سبيل المثال : أبو العلاء ولزومياته ، للدكتور كمال البازجي ، طبع ونشر دار الجيل
ببيروت سنة ١٩٨٨ م .

وكم ورد في شعره من توظيف لأحداث التاريخ ، وصراع الفرق والمذاهب من الجاهلية وطوال عصور الإسلام حتى عصره .

يتحدث عن الأنبياء ، فمن سليمان الحكيم وقصة استكثاره من النساء ونزاع قاييل وهابيل ، وحديث العرب البائدة عاد وثمود وجرم ، وهلاك عاد بريح صرصر .

وأيام العرب كيوم داحس والغبراء ، ويوم حليمة ، ويوم النصار ، ومقتل كليب .

ومن أحداث السيرة ذكر النبي ﷺ وما لقيه من أكلة خبير المسمومة ، ومواقع أحد وبدر ، ويوم غدير خُمْ وحديث « من كنت مولاه فعلى مولاه » . ويشير إلى اختلاف الأخذ بهذا الحديث بين الشيعة وأهل السنة : شيخ أجلت يوم خُمْ واثنت أخرى تعارضها يوم الغار وهو ينذ التعصب ولا يتعصب لواحد من الفريقين :

ضمنتُ فؤادي للمعاشير كُلِّهم وأمسكتُ لَمَّا عَظُمُوا الغَارُ أَوْخُمًا
ويجري حديثه عن أحداث المسلمين بعد وفاة النبي كحديث السقيفة والنزاع بين المهاجرين والأنصار ، وفتنة عبد الله بن الزبير ، واغتيال عبد الرحمن بن ملجم لعل بن أبي طالب ، وقتل الحسين ، وحروب الشام والعراق ، واختلاف طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ومقتل مروان بن محمد بمصر وانتهاء الدولة الأموية .

وثورة الزنج بالبصرة والقرامطة بالكوفة والأحساء .

كما يشير إلى بعض ما حدث للشعراء جاهليين ومحدثين ، فيعرض لامرئ القيس ويوم دارة جلجل ، وليلي والمجنون ، ولبنى وابن ذُرْيج ، وعن أبي العتاهية وحبه لعبية ، وتوبته ونسكه .

إلى غير ذلك مما حفل به ديوانه ووظيفه فيما إستهدفه من معانيه ومضامينه على صورة صريحة ، أو بطريق الإيحاء والإشارة .

ويبقى بعد هذا حديثنا عن خيالات المعرى ، فنرى أنه مغربٌ في خيالاته
وصوره إغرائه في ألفاظه وصياغاته .
وصوره البيانية غالباً ما تكون صوراً مجنحة ، فيها غموضٌ ، أو تجمعها
حجبٌ يريد لها أن تبقى مغلقةً بها ، وقد يرمى بهذه الصور غير واضحة المعالم
إلى الإيحاء بمعان لا يرغب في الكشف عن مستورها .

ابن سنان الخفاجي

عبد الله بن محمد بن سنان (ت سنة ٤٦٦ هـ)

ولد بحلب ونشأ وتعلم بها ، ورحل إلى المعرة فأخذ الأدب عن أبي العلاء المعري ، وتنقل بين بعض بلاد الشام ، ولقى جماعة من الفضلاء بها .

وكان يرى رأى الشيعة الإمامية .

وقصد بشعره بعض رؤساء الشام مادحاً ، ومنهم جد أسامة بن منقذ مخلص الدولة مقلد بن نصر بن منقذ الكنتاني^(١) ورثاه بعد وفاته وكان بينه وبين أبي نصر بن النحاس وزير محمود بن صالح المرداس مودة مؤكدة . وكان الخفاجي قد خرج من حلب ، وبينه وبين أميرها المرداسي أمور . وأراد الأمير أن يستدرجه للعودة إلى حلب ، فكتب إليه ابن النحاس رسالة يستدعيه بأمر محمود بن صالح ، وكان قد تم في كتابته عما يوحى بتأمر القوم عليه ليقتلوه . وفي أثناء طريقه إلى حلب عاود ابن سنان الفكر في رسالة صديقه ابن النحاس ، فرجع^(٢) .

ورد على أبي نصر ابن النحاس بخطاب ملفز كذلك يشير إلى أنه لن يدخل حلب ماداموا فيها يعنى أعداءه .

وكتب إليه صديقه يستصوب رأيه فكتب إليه الخفاجي :

خف من أمنت ولا تركزن إلى أحد فما نصحتك إلا بعد تحريب
إن كانت الترك فيهم غير وافية فما تزيد على غدر الأعراب
تمسكوا بوصايا اللؤم بينهم وكاذ أن يدرسوا في المحارب

ولا نعلم أسباب هذه العداوة بين الشاعر وأمير حلب المرداسي، وإن كان يلمح إلى غدر الأعراب ، وهم من أعداء الفاطميين ، وهم من السنة وسبق أن ذكرنا ما وقع بينهم وبين الفاطميين من وقائع ، وما كان من علاقة الشاعر ابن حيوس بهم في هذه المرحلة من ستينات القرن الخامس .

(١) ترجمته ل الوالي للصدى ووفيات الأعيان ، والأفضليات لابن منجب .

(٢) راجع وفيات الأعيان ٥ / ٢٧٠ ، حامد عباس .

(٣) راجع الوثائق ، وفوات الوفيات ٢ / ٢٢١ .

والغريب أن ابن النجاشي عاد فغدر بصديقه الخفاجي ، وكان رسول الموت إليه ، بعد أن هدده محمود بن نصر ، فأمره بأن يحمل إليه طعاماً مسموماً ، لأنه يأمنه .

وهكذا كانت منية ابن سنان على يد صديقه^(١) .

وهكذا مات ابن سنان مسموماً على يد هذا الصديق سنة ٤٦٦ هـ وحمل إلى حلب فدفن بها .

وللخفاجي ديوان شعر ، ومجموعة مصنفات في الأدب والبلاغة أشهرها « سر الفصاحة » .

وفي شعره بعض معاني الشيعة وأقوالهم . من ذلك قوله في علي بن أبي طالب :

وقالوا قد تغيرت الليالي	وضيعت المنازل والحقوق
فأنسم ما استجد الدهر لحلقاً	ولا عدوانه إلا عقوق
أليس يُردُّ عن فديك عليّ	ويملك أكثر الدنيا عتيق

يشير إلى عدم اشراك أبي بكر لعلي بن أبي طالب في غزوة فديك . ويعرض في الأبيات لما قد يكون وقع عليه من الظلم في حلب فاضطر إلى مغادرة دياره خشية اغتياله .

واختار صلاح الصفدي مجموعة من شعره اقتطعها من قصائده أو مقطعات مفردة . وما أختاره قوله :

سلاطينة الدعساء هل قد حدثت خشفاً	فإننا لمحتنا من مرابعها طرفاً
وقولا لحوط البان فليمسك الصبا	علينا ، فإننا قد عرفنا بها غرفاً
سرت من هضاب الشام وهي مريضة	فما ظهرت إلا وقد كاد أن تنفى
عليلة أنفاس تدأوى بها الجوى	وضغفى ولكن قد وجدنا بها ضغفى
وهاتف بالبان ثمل فراقها	وتتلو علينا من صبايتها صُحفاً
عجبت لها تشكو الفراق جهالة	وقد جابث من كل ناحية إلهاً

(١) راجع القصة كاملة في غوات الوفيات ٢/ ٢٢١

وما فهموا مما تَنَثَّرَ به حَرْفًا
لما لَبِسَتْ طَوْقًا ، وَلَا عَضَبَتْ كَفًا
وَأَضْرَمَتْ نَارًا لِلصَّبَابَةِ لِاسْطِفَا
مَوَاعِيدُ لَا يُنْكِرُنَ لَيْثًا وَلَا تُحْلِفَا
جَعَلُنَ لَهَا فِي كُلِّ قَافِيَةٍ وَصْفًا
مَنْ السُّودَ لَمْ يَطْوِ الصَّبَاحُ لَهَا سِجْفًا
بِعَكْمِ الثَّرِيَا قَدْ قَطَعْنَا لَهَا كَفًا
وَلَمْ يَبْقِ لِلْجُزْءِ عَقْدًا وَلَا شَيْفًا
مُدَبِّرُ حَرْبٍ قَدْ هَزَمْنَا لَهُ صَفًا
مُفْتَحَةُ الْأَنْوَارِ أَوْ ثَرَّةَ زُغْفَا
سَلْبَانُهُ جَانِمًا أَوْ قَصَمْنَا لَهُ وَقْفَا
مَنْ الدَّمْعُ يَبْدُو كُلَّمَا ذُرْفَتْ ذُرْفَا
فَقَرُّ وَلَمْ يَشْهَدْ طِرَادًا وَلَا رَحْفَا
تَخْطِفُهَا عَجَلَانُ يَقْذِفُهَا قَذْفَا
بِهِ سِنَّةٌ مَا هَبَّ مِنْهَا وَلَا أُغْفَى

وَيَشْجَى قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ حَنِينَهَا
وَلَوْ صَدَقْتَ فِيمَا تَقُولُ مِنَ الْأَمْسَى
أَجَارَتْنَا أَذْكَرَتْ مِنْ كَانَ نَاسِيَا
وَفِي جَانِبِ الْمَاءِ الَّذِي تَرْدِيهِ
وَمَهْزُوزَةِ اللَّبَانِ فِيهَا تَمَائِلُ
لَبَسْنَا عَلَيْهَا بِالثَّنِيَّةِ لَيْلَةً
لَعَمْرِي لَنْ طَالَتْ عَلَيْنَا فَإِنَّا
رَمِينَا بِهَا فِي الْغَرْبِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ
كَأَنَّ الدُّجَى لَمَّا تَوَلَّتْ نَجُومُهُ
كَأَنَّ عَلَيْهِ لِلْمَجْرَةِ رَوْضَةٌ
كَأَنَّهَا وَقَدْ أَلْقَى إِلَيْنَا هَلَاكُهُ
كَأَنَّ السُّهْلَا إِنْسَانَ عَيْنٍ غَرِيقَةٍ
كَأَنَّ سَهِيلًا فَارَسَ عَيْنِ الْوَعَى
كَأَنَّ سَنَا الْمَرْخِ شُعْلَةً قَابَسٍ
كَأَنَّ أَتَوَلَّ النَّسْرِ طَرْفٌ تَعَلَّقَتْ

وصفها الصفدى بأنها من الطنانات (١).

وهي قصيدة فريدة . فيها تأمل ، وخیال ، وسبح مع السماء ونجومها
وانطباعات ورؤى وصور مما يحيل له وجدانه ، وكثيرون وصفوا السماء
ونجومها ليلاً ، ولكن ابن خفاجة تفرد من بينهم بهذه التشبيهات التي أبدع في
أكثرها ، وشارك في جزئيات منها من سبقوه .

ونلاحظ تأثره الواضح بأستاذه أبي العلاء في وصف المطوقة . بقصيدته الرائية
في قوله : « عجبت لما تشكو الفراق » حتى قوله :

ولو صدقت فيما تقول من الأسى
لما لبست طَوْقًا ، وَلَا عَضَبَتْ كَفًا
ويقول أبو العلاء مخاطباً بنات الهديل الحمام ذوات الأطواق :

ما نسيئُ هالكا في الأوان الحَا لى أودى من قبل هلك لإباد
يبد أئى لا أَرْضِي مَا فَعَلْتُ ————— ن ، وَأَطَوَاكُنْ فِي الْأَجْيَادِ

(١) الوال ٥٠٧ .

وفيما لاحظناه من شعر الخفاجي أَسَى وشكوى من الزمان والناس بيديه
أحياناً ، ويستره أحياناً في أشواقه وحنيه ونسييه . ومنه قوله (١) :

بقيت وقد شطت بكم غربة الثوى وما كنتُ أحتسبُ أننى بعدكم أبقي
وعلمتموني كيف أصبر عنكم وأطلبُ من رِق الغرام بكم عفا
فما قلتُ يوماً للبكاء عليكم رويداً ، ولا للشوقِ بعدكم رفقا
وما الحبُّ إلا أنْ أعدَّ قِيحكم إلى جھيلًا ، والقيلى منكم عشقا
وقوله :

هل تسمعون شكاية من عاتب أو تقولون إنابة من تائب
أما الوشاة فقد أصابوا عندكم سوقاً ينفقُ كلُّ قولٍ كاذب
فملثثم من صابرٍ ورقدثم عن ساهرٍ ، وزهدثم في راغب
وأقل ما حكم الملأل عليكم سوء القلى ، وسماغ قول العائب
وقال :

ما على مُحسينكم لو أُحسبنا إنما نطلبُ شيئاً هيناً
قد شجانا اليأسُ من بعدكم فاذرُكونا بأحاديثِ المنى
وعملوا بالوصلِ من طيفكم مُقلّةً تُكبرُ فيكم وسنا
لا وسخرِ بين أجفانكم فتن الحبِّ به من فسا
وحديث من مواعيدكم تحسد العين عليه الأذنا
ما رحلت العيس عن أرضكم فرأت عيناى شيئاً حسناً
وقال في أبيات :

وعلى القضا إنْ نُكث من جيرانه نازٍ تقسم حرها العشاق
ومُحلّون عن المناهل بعدما شرقت بجمّة مايتها الطراقي
ومشيت العزمات ينفق عمره حيران لا ظفر ولا إخفاق
أمل يُلوح اليأسُ في أثنائه وغنى يشف وراعه الإملاق
ينرى غفافة ثروة لو أنّها نوّم لما شرث به الأخداق

(١) غوات الوفيات ٢ / ٢٢٢ .

وقال (١) :

عَطَّرَ النَّاءُ نَعَطَّرَتْ أَوْصَافُهُ
مَا كَانَ يَعْلَمُ قَبْلَ صَوْبِ ثَنَائِهِ
وَلَوْ أَنَّ لِلْأَثَامِ نَارَ ذَكَابِهِ

وقال :

مَلَأَتْ ضَيْقَتْ وَدَى بَعْدَمَا
أَمْ شَيْتَ تَعْلَمُ أَنَّ جَوْدَكَ لَمْ يَدْعُ

وقال :

إِذَا مَجَرَّتْكُمْ لَمْ أُنْخَشْ سَطَوْتُكُمْ
فَحِينَ لَمْ يَكْ لَا خَوْفَ وَلَا طَمَعٍ
وَإِنْ مَدَحْتُ فَمَا حَظِّي بِوَيْ التَّعَبِ
رَغَبْتُ فِي الصَّبْرِ إِشْفَاقًا عَلَى الْكَلْبِ

وفي هذه المختارات من شعر ابن سنان آثار واضحة لصنعة الشعرية فالرجل ، لا يهيم بالبديع ، ولا يتكلفه تكلف غيره من شعراء الشام المعاصرين ، وقد أشرنا من بينهم إلى ابن حيوس ، وأبى العلاء . وإن كان لكل منهم وجهته في استخدام البديع . كذلك نحس في شعر ابن سنان شاعرية صادقة وعاطفة غالبية على صنعة الكلام ، وتنميق القول وأحياناً تغلب على تأملاته روح صوفية علوية .

وقد أورد له ابن منجب مختارات من شعره ، وعلق عليها ، منها قوله (٢)

وقال عبد الله بن محمد بن سنان بن سبيد الخفاجي الحلبي :

لَا يَدْعَى الْقُصْبَاءُ فَيْكَ غَرِيْبَةً
إِنْ أَحْسَنُوا عَنْكَ النَّاءُ فَإِنَّهَا
عَجَبًا لَوَجْهَكَ كَيْفَ بَارِقَ بَشَرُهُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ يَيْضَ سَيُوفِهِ

فأما الأول فمن ملبح التورية . وقد أتى بها في قوله :

وَصَفُّوا يَيْضَ يَدِ الْكَلِيمِ بِمَجَازٍ
وَأَسْتَطَفُّوا أَحْيَاءَ جَيْشِي مَيْتًا

(١) الوافي للصلفي ج ١ ، ص ٥٠٧ .

(٢) الأفضلية ص ٤٠ - ٤١ .

وقال^(١) :

من القوم صال الدهر إلا عليهم وصالوا بيض الهند حتى على الدهر
أشد احتقاراً بالردى من حسابه وأدنى إلى مير الأعادى على الدهر
له مخلق في المحل غيث وفي الصبا نسيم، وفي جتح الدجى غرة البدر

وقد استعمل تركيب هذا البيت في موضع آخر فقال :

ما هزّه طرب الفقار وإنما أعطته نشوة كاسها الأخلاق
هي في الهوى وغد الوصال وفي الكرى طيف الخيال، وفي الوداع عناق
وهو من قول ابن نباته :

إلها في السحاب ونل، وفي الر يج نسيم، ونشوة في الشراب
وأما قوله :

أشد احتقاراً بالردى من حسابه

فهذا الصلر يصلح أن يُعجز بقول أبي الطيب :

وأقدم بين الجحفلين من الثل

على أن صلر بيت أبي الطيب مناسب للعجز المذكور ؛ لأنه قال :

أقل بلاء بالزايما من الفتا

ليصور هذا العجز مع صئرين .^(٢)

ويقارن بين أبيات لابن عمار الوزير الشاعر الأندلسي في مدح المعتمد بن
عباد ، وأبيات لابن سنان . يقول في ذكر بلدة افتتحها ابن عباد وأحرقها :
فأزمتها بالسيف ثم أعزتها من النار أثواب الحديد على القيد .
فها نحن ذاك السيف في راحة الهوى ويأثرد تلك النار في كيد المجيد

(١) في مدح محمود بن نصر صاحب حلب .

(٢) الأفضليّات ص ٤٢ - ٤٣ .

ابن الخياط الدمشقي

(أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي (ت سنة ٥١٧ هـ)

ولد بدمشق سنة ٤٥٠ هـ في عهد الخليفة المستنصر ، وكان أبوه خياطاً فاشتهر بالنسبة إليه . وكانت داره قريبة من دار الشاعر الدمشقي الكبير ابن حيوس والملقب بأبي الفتيان .

وربطت بين الشاعر الفتي محمد بن الخياط وجاره أبي الفتيان وشائج الشعر وحب ، وقد رأى تقلب أبي الفتيان في النعمة ، واهتمام الناس به وارتفاع منزلته عندهم بسبب الشعر ، فامتلاً قلبه طموحاً بالنبوغ فيه وبلوغ مرتبة تقرب من مرتبة الشاعر الكبير .

وحفظ ابن الخياط كثيراً من أشعار الأقدمين ليُدرب قريحته ، ويهذب طبعه ، ويثري مادته .

وكانت أحوال دمشق في صبي الشاعر غير مستقرة تحت حكم الفاطميين ، فثاروا سنة ٤٦٠ هـ بولي الشام أئذ بلر الجمالي ، وأحرقت بعض دور دمشق ، واصلطدم أهل دمشق بمحمد الفاطميين ودامت تلك الأحداث حتى سنة ٤٦١ هـ .

ثم كانت بعد ذلك مسرحاً للصراع بين جند الفاطميين والسلاجقة الأتراك الذين بلغوا الاغارة على أملاك الفاطميين بالشام ، فهاجمها أئمز السلجوقي من قبل ملكشاه حتى استولى عليها سنة ٤٦٨ هـ كما عرفنا بعد مقاومة عتيفة من أهلها أدت إلى انتقامه منهم باعتقال وجوههم وترحيلهم إلى طرابلس .

وظلت دمشق في شباب الشاعر تعاني من الجور والفاقة ، واضطراب الأحوال وكانت الأمور كذلك في مصر والقاهرة في الشدة العظمى ، فاضطر الشاعر إلى أن يغادر بلده في ظل تلك الظروف القاسية متوجهاً إلى بلد آخر بالشام حيث ألقى عصاه بمدينة حماه ، فأوى إلى أمير هناك ، سكن إليه بغضاً من الوقت ، وعمل بالكتابة له وخدمته ونظم الشعر في مدحهم ومنه قصيدته التي مطلعها :

سَقَوْهُ كَأْسَ فَرَقْتِهِمْ دِهَاقًا وَأَسْكُرُهُ الْوِدَاعُ فَمَا لِقَاقًا

وكان الشاعر ابن حيوس قد غادر دمشق كذلك قاصداً حلب حيث رحب به أمراؤها بنو مرداس الكلايون ، وأجزلوا له العطاء . وجمع ابن الخياط باستقرار ابن حيوس هناك وبمساحة آل مرداس ، فحدثته نفسه بزيارة جاره ، وأستأذه في الشعر .

وفي حلب التقى بأبي الفتيان ، فعرض عليه بعضاً من شعره فقال : قد نعانى هذا الشاب إلى نفسي . وكان ما أنشده قوله :

لم يبقَ عندي ما يباعُ بدرهم وكفالكِ مِنِّي منظرٌ عن مَخْبَرٍ
إلاَّ صابئةً ماءٍ وجهٍ صُتُّها عن أن تُبَاعَ وأينَ المَشْتَرَى

فقال له ابن حيوس : لو قلت « وأنت نعم المشتري » . لكان أحسن . لقد كَرُمْتُ عندي ونعيت إلى نفسي ، وكان الشاعر الكبير أبو الفتيان قد أسنَّ ، ونصحته بقصد بني عمار بطرابلس لأنهم يحبون الشعر ويذلُّ له الثياب والمال .

وتقلب بين أمراء الشام فمدح بعضهم كالأمير وثاب بن محمود بن نصر بحماه ، والأمير سديد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ صاحب قلعة شيزر سنة ٤٧٦ هـ وجلال الملك من بني عمار في طرابلس ، والأمير فخر الملك .

وكان أبو الفتيان قد توفى سنة ٤٧٤ هـ ، وصحت نبوءته في ابن الخياط ، فأصبح شاعر الشام من بعده .

استقر ابن الخياط إذاً في طرابلس ، وأحسن الصلة بأمرائها من بني عمار فأحسنوا صلته ، واکرموا وفادته ، ومدحهم بقصائد تعذ من أجود شعره ، منها قوله في فخر الملك :

أعطى الشهاب من الآزاب ما طَلَبَا ورأى يختال في ثوبى هوى وصَبَا

وكانت حياته بطرابلس حافلة ، التقى فيها بالعلماء ، وجالس الأدباء ، وخالط عليّة القوم ، ومدح بعضهم ، وتطارح الشعر مع آخرين .

وقضى ما قضى بطرابلس من الزمن ، فعادوه الحنين إلى بلده دمشق ، وكانت في أيدي السلاجقة ، يحكمها الأمير تاج الملك تتش بن ألب أرسلان ، ووزيره

هبة الله الأصفيهانى ، فلقى الشاعر عنده ما كفاه إذ وقع له بصلة جزلة ،
وصحبه زماناً ومدحه بقصائد ، وسافر معه إلى الرى ، وقال فيه :

وما كان لى لولاك بالرى منزل وإن شغفت غيرى وثيم حبها

وجال جولة فى بلاد العجم ، ولم تطل هناك رحلته ، فعاد إلى بلده دمشق .
فأتصل ببعض أمراء العرب من الكلبيين ، ومدحهم ، كما مدح غيرهم من
الأمراء ، والوجهاء ، واختص منهم بأحدهم واسمه غضب الدولة وصحبه فى
مجالسه ومسرته ، حتى توفى هذا الأمير . فرثاه .

واتصل من بعده بصاحب دمشق آتخذ من السلاجقة وهو تاج الملوك بورى بن
طغتكين : وحسنت أحواله بدمشق حتى توفى سنة ٥١٧ هـ .

وكان ابن الخياط شاعراً مطبوعاً يقول الشعر ، لا عن درس ، بل عن هواية
وطبع وقتلنا إنه حفظ كثيراً من الشعر القديم ، فنظم على سننه ، وراض قريحته
على منهجه فجاء شعره ، وقد حفل بملاخ شعر بعض من حفظ لهم ، تسميه
سمات التمبرات التقليدية ، والصور الجارية فى معظم الشعر القديم ، كذلك
صيغه وتراكيبه وإن كان يدخل عليه أحيانا بعض الصنعة مما ساد فى عصره ،
وعند من سبقه من أصحاب البديع من مثل قوله مجانسا :

يقينى يقينى حادثة النوائب وحزبى حزبى فى ظهور النجائب

وقوله :

لقد وجدت وجدى الذيل بأهلها ولو لم تجد وجدى لما سقت مقمى

وأغرم بغرب الاستعارة متأسياً أحيانا بأى تمام كقوله فى التهنتة بمولود :

أطلعت بلى فى سماء مملكتى سهر الجمال وتام فى تلويح

وفى قوله مادحاً :

هرت من ارتياحك حين أتحت علي حمدي بعضب ندى ثقل
ولما عذت بالعباء قالت لعلك صاحب الشكر القتل

فسهر الجمال ونومه وعضب الندى الثقيل ، والشكر القتل : كلها من
الاستعارات الغريبة التى كان أبو نغم مغرئ بها كمثل قوله « ماء الملام » وغيره .

كما أن نفس المتنبي بدا في أكثر من قصيدة ، وقد فرض هذا الشاعر الكبير أسلوبه على العصر كله طوال القرنين الخامس والسادس . ومنه قوله :

وهل من ضمّر الجرد المذاكي كمن جعل الطراد لها ضيمارا
وكقوله^(١) :

إذا ما النار كان لها اضطرام فما الداعي إلى قذح الزناد
رجوت فما تجاوزه رجائي وكان الماء غاية كل صادر
إذا ما روضت أرضي وساحت فما معنى انتجاعى وارتيادى

ولغة ابن الخياط تمتاز بالجزالة ، وإن خالف أحيانا بعض ما يجرى على ألسنة المتقنين من صحيح اللفظ ، وقويته ، وقد أخذ عليه ذلك ، وأرجع إلى قلة اتقائه لعلوم اللغة ، وإن حاول استدراك ذلك في أخريات حياته ، فاعتدلت لغته وصحت موازنه .

ولاحظ خليل مردم ترديده لبعض الألفاظ التي أغرم بها ، كاستخدامه للفظ أم في كل ما يريد تضخيمه ، وتضخيمه من مثل قوله :

لقد طرقت بك أم العلاء يوم له كل يوم حسود
وكقوله :

بصرت بألمات الحيا فظننتها أنامله . إن السحائب أشباه
وباعتباره شاعرا مسلما ، والقرآن من أخص ما يحفظه المسلم ويمثل به ، ويتأثر بلفظه ومعانيه ، فالشاعر ابن الخياط ، لا يفتأ يقبس من القرآن الكريم بعض لفظه كقوله^(١) :

إذا ما الكأس لم تك كأس بين فليست بالحميم ولا الفساقا
وقوله :

يطبق غيثه أرض الأمانى ويسمو سعده السميع الطباقا

(١) ديوانه ص ٧ من قصيدة مدح الأمير أبا القولوس محمد بن مالك بحمالة .

وبين قصائده في المديح أحيانا بناء الأقدمين إذ يبدأ بالغزل ، ويخلص منه إلى المديح ، وقد يذكر الرحلة ويتخلص إلى المملوح ومنه قوله :

هَبْطَاطِيكُمْ أَعْدَى عَلَى الثَّأْيِ مَسْرَاهُ فَمَنْ لِمَشْوَقٍ أَنْ يُهَوِّمَ جَفْنَاهُ
وَهَلْ يَتَنَدَّى طَيْفُ الْخَيَالِ لِنَاحِلٍ إِذَا السَّقَمُ عَنْ لِحْظِ الْعَوَائِدِ أَخْفَاهُ

أَحْنُ إِذَا هَبَّتْ صَبَا مُطْمَئِنَّةً حَتَّى مَطَايَا الرُّكْبِ أَوْشَكَ مَقْدَاهُ
خَوَامِسَ حَلَاهَا عَنِ الْوَرْدِ مَطْلَبَ بَعِيدَ عَلَى الْبَزْلِ الْمَصَائِبِ مَرَاهُ
هَوَى كَلِمَاعَاتٍ مِنَ الشَّرْقِ نَفْحَةً أَعَادَ لِي الشَّرْقِ الَّذِي كَانَ أَبْدَاهُ
وَمَا شَغَبِي بِالرَّيْحِ إِلَّا لِأَنَّهَا تَمُرُّ بِحَيِّ دُونَ رَامَةٍ مَنَوَاهُ
أَحَبُّ تَرَى الْوَادِيَّ الَّذِي بَانَ أَهْلُهُ وَأَصْبَحُوا إِلَى الرَّبْعِ الَّذِي مَعَ مَغْنَاهُ

أَلَا حَيْذَا عَهْدُ الْكَثِيبِ وَنَاعِمٍ مِنَ النَّعْشِ يَجْرُورُ الذَّنْبُولُ لِبَسْنَاهُ
لِيَالِيَّ عَاطَلْنَا الصَّبَابَةَ ذُرَاهَا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا مِنْهَلٌ مَا وَرْدُ نَاهُ

وَبِالْجَزْجِ حَتَّى كَلَّمَا عَنْ ذِكْرِهِمْ أَمَاتَ الْهَوَى مَتَى فَوَإِذَا وَأَحْيَاهُ
تَمَنِّيهِمْ بِالرَّقْمَتَيْنِ وَدَارُهُمْ بِوَادِي الْقَضَا يَا بَعْدَ مَا أَتَمَّاهُ
وهنا يتخلص من الغزل بقوله :

سَقَى الْوَابِلَ الرَّيْبِيَّ مَا جَلَّ رَيْعَكُمْ وَرَاوَحَهُ مَا شَاءَ رَوْحَ وَغَلَّادَهُ
وَجَرَّ عَلَيْهِ ذَيْلَهُ كُلَّ مَا طَرَّ إِذَا مَا مَشَى فِي عَاطِلِ الثَّرْبِ حَلَّادَهُ
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا أَنْ دَمَعِي مِنْ دِمٍ لِأَحْمَلَ مَتَارَ السَّحَابِ بِسَقِيَاهُ
عَلَى أَنْ فَعَّرَ الْمَلِكُ لِلْأَرْضِ كَافِلَ بَقِيضِ نَدَى لَا يَلْعُ الْفَقَطْرُ شَرَّادَهُ

ويعمى في معاني المديح المعروفة يسوقها في ما اعتاد الشعراء التعبير عنها من معارض لفظية متعددة .

ونلاحظ فيما قدمنا من غزله سيوه على غير ما اعتاد الشعراء من البدء بالوقوف أو مخاطبة الصاحب أو الصاحبين بالوقوف أو التعرّيج ، ثم الوقوف

والبكاء ، والذكرى وما إلى هذا . بل ساء متعزلاً في محبوب ، فذكر الطيف . وأنه يعود فيذكره به ، ويتذكر بالريح التي تنقل عبق هذا الحبيب ، ثم يختم بذكر الديار فيدعو لها بالسقيا .

وهو في كل هذه المعاني التي تتكرر عند الغزلين والبادئين بالنسيب من الشعراء بصطاد المعنى الذي يروقه وينسج على منوال بعض السابقين ، وإن اختلف نسيجه وتغيرت ألوانه . ونلاحظ أنه يكثر من استخدام الطيف ، والريح ، والنسيم كعادة الغزلين المحدثين .

وقد لا يبدأ القصيدة بهذه البداية التقليدية ، بل يدخل إلى موضوع المديح دون تمهيد .

وله في غير المديح في موضوعات شتى ، إلا أن المديح غالب ، لأنه كان شاعراً متكسباً على ما عرفنا من وقائع حياته يقصد الحكام والأمراء وعلية القوم ، وله مع هذا في تلك الموضوعات أبيات جيدة تناقلها الرواة ومؤرخو الأدب معجبين من مثل أبياته في الغزل التي يقول فيها^(١) .

خذنا من صبا نجد أماناً لقبية	فقد كاد رباها يطير بلبية
ولينا كما ذاك النسيم فائمه	إذا هب كان الوجذ أيسر خطية
خليلى لو أحببتا لعلمتا	حبل الهوى مر مغرم القلب صبية
تذكر والذكرى تشوق ذوى الهوى	يتوق ، ومن يعلق به الحب بخصية
غرام على يأس الهوى ورجائه	وشوق على بعيد المزار وقريبه
وفي الركب مطوى الضلوع على جوى	متى يدعه داغى الغرام يلبية
إذا خطرث من جانب الرمل نفحة	تضمن منها داءه دون صحبة
أغار إذا أنست في الحى أنة	حذاراً وخوفاً أن تكون ليجية

ويستخدم ابن الحياط في غزله أسماء بعض الأماكن التي اعتاد الشعراء ذكرها في نسيبهم وهذا الاستخدام يختلف فيه المذللون والايحاء ، فالقدماء الجاهليون يذكرون تلك الأماكن على أنها مواطن الأحباب والأهل وأوطان القبيلة ، ومراتب الصبا ، أما المحدثون فيذكرونها اعتماداً على إجماعاتها في الشعر القديم ، والعربى محب للشعر يحفظ كثيراً منه ، ولهذا الأسماء إجماعات محببة لديه مما أطلقه ، ورسمه

(١) ديوانه ص ١٧٠

الشعر القديم في وجدانه ، والشاعر هنا يستخدمها على هذا الاعتبار من مثل قوله في هذه القصيدة :

« خذا من صبا نجد » ، وقوله :

ألا ليت أتى لم تحل بين حاجري
ويبنى ذرا أعلام رضوى وقضيه
وقوله :

أهيم إلى ماء بيرة عاقل
وأستافح الرمل شوقاً إلى اللوى
وله في العتاب واسترضاء المدحوح ، والتنديد بالوشاة والكاشحين (١) :

منى ارتفعت مواهبها الكرام
أصبعد عائداً في السحب قطر
أرى العليا من تقصير أُمري
جمال الملوك غري منك يذهي
أعيذك من رضى يتلوه مسخط
أبرجع جفوة ذلك التصافى
أتهنى يد راشيت جناحي
وبغري بن الجمام أخو سماج
أعزى طرف عدلك تلقى عرضاً
وحققى بالتأمل كشف خالى
إذا ما افترق بك في سمانى
أعزى وليس الماء منى
وأخذ في جمالك بذهب غري
وأين خلايق ستحول عنها
فلا تلقى إلى الواشين سمعاً
وإن الرد عندهم نفاق

وهل يسترجع الغيث الغمام ؟
تنزل في الوهاد به الزمام ؟
بها خجل وبالجيد احتشام
وغيرك من تغيره اللام
ومن نعمي يكثرها انتقام
ويحفر ذمة ذلك الذمام
وتحسبني ندى هولى حسام
به عن مهجتي ذفع الحمام
تقياً لا يلم به الملام
فغري عاشق ولى السقام
تجلى الظلم عني والظلام
وتحرقني ومن غري العرام
فأين العدل عني والكرام
إذا حالت عن السكر المقام
فإن سلايم أكثرهم كلام
إذا طلوعتهم والحمد نام

(١) ديوانه في جمال الملك ص ١٧٨ .

وله في شكوى الزمان بمطلع قصيدة يمدح بها الأمير شديد الملك بن منقذ ، تذكر ببائية لابن الرومي ، وتُحس فيها بمصاحته له وهو ينظمها . يقول فيها (١) :

يقينى يقينى حادثات النوائب
سينجدنى جيش من العزم طالما
ومن كان حرب الدهر عود نفسه
على أنلى في مذهب الصبر مذهباً
وما وضعت منى الخطوب بقدر ما
أخذت ثراء غير باقى على التلى
فمالى ١٢، لا روض المساعى يُمسرع
كأن لم يكن وعدى لديها بمائن
وحاجة نفس تقتضيها مخالي
عددت لها برق الضلع هنيئة (٢)
وهل نافعى شيم من العزم صادق
ولمى لأغنى بالحديث عن القرى
قناعة عز، لا طماعة ذلة
إذا ما امتطى الأقوام مركب ثورة
ولو ركب الناس الغنى يبراعة
وقد أبلغ الغايات لست بسائر
وما كل داب من مراب بظافر

وحزمى حزمى في ظهور النجائب
غلبت به الخطب الذى هو غالى
قراع الليالى لا قراع الكتائب
يزيد اتساعاً عند ضيق المذايب
رفعن وقد هذبتى بالثجارب
وأعطين فضلاً فى التهى غير ذاهب
لدى، ولا ماء الأمانى بسايب
زماناً، ولا دنى عليها بواجب
وتسقى بهلى، عادلات، مناصبي
وأخرى، وما من قطرة فى المذاب (٣)
إذا كنت ذا برق من الحظ كاذب
وبالبرق عن صوب الغيوث السواكب
ترهقنى فى نيل الغنى كل راغب
خضوعاً، رأيت العلم خير مراكب
وفضل ميين كنت أول راكب
وأظفر بالحاجات لست بطالب
ولا كل ناء عن رجاء بخائب

ويلكر فى مديحه لأحد الأمراء حفته على جهاد الفرنجة من الصليبيين ، وقد جاشت جيوشهم فى بلاد الشام ، وهاجمت حملاتهم أصقاعة شمالاً وجنوباً حتى احتلوا القدس وبعض الثغور . يقول (٤) :

إلى كم وقد زخر المشركون
وقد جاشت من أرض إفرنجية
بسيل يُهال به السيل منّا
جيوش كمثل جبال تردى

• • • • •

(١) ديوانه ص ١٢ .

(٢) هنيئة اسم للمائة من الإبل وغيرها .

(٣) والمذاب جمع مذئب وهو الجدول يسيل فى الروضة بمائها إلى غيرها .

(٤) ديوانه ص ١٨٤ .

بنو الشرك لا ينكرون الفساد
ولا يردعون عن القتل نفساً
فكم من فتاة بهم أصبحت
وأُم عَزَّابَتِي ما إن عرفت
تكاذُ عليهن من خيفة
وفيها يَحْضُرُ على قتال الصليبيين مع بقية أمراء المسلمين مشيداً بجهاد السلاجقة ، ومنهم ألب أرسلان يقول :

فقد أينعت أُرُوسُ المش
فلا بُدَّ من حُدِّهم أن يُقَلَّ
فإن ألبَ رَسَلانَ في مثلها
فأصبح أبى من الفرقدين
سركين فلا تُغْلِبُها قطافاً وحشناً
ولا بُدَّ من رَكْبِهِم أن يُهْذَلْ
مضي وهو أمضى من السيف حلماً
ذكرأ وأسنى من الشمس مجلداً

وترك ابن الخياط ديوانه رواه تلميذه أبو عبد الله محمد بن نصر الفيسرائي (ت ٥٤٨ هـ) وقد أعجب العلماء بشعره فقرَّطوه وأشادوا به .

يقول خليل مردم^(١) : « أما منزلته بين الشعراء في عصره فقد اتفق على أنه كان من المحسنين ، بشهادة معاصريه من طبقة شيوخه ومن دونه ، فقد شهد له شيخه ابن حيوس بالإجادة وهو في رُفْق الشباب ، وجعله وليَّ عهده » .

وقال ابن عساكر : « ابن الخياط ختم به ديوان الشعر بدمشق ، وكان شاعراً مكثراً مجيداً محسناً » .

وقال السلفي : « كان ابن الخياط شاعر الشام . وقد اخترت من شعره مجلدة لطيفة ، وسمعتها منه » .

وقال أبو الفوارس نجا بن اسماعيل العمري : « ابن الخياط في عصره أشعر الشاميين بلا خلاف » .

وقال الذهبي : « ابن الخياط شاعر عصره ، من كبار الأدباء ، ونظمه في النروة » .

(١) مقدمة ديوانه ص ٣٠ .

وقال ابن خلكان : « .. كان من الشعراء المحيدين .. وأكثر قصائده غرر » .
والذى نراه أنه ومعاصره أبا أسحاق إبراهيم الغزى طبقة واحدة ، وكلاهما محسن
ولكن الغزى رحل عن الشام ودخل بلاد العجم ، وبقي هناك بقية حياته ،
فأصبح ابن الخياط وحده شاعر الشام » .

وقال ابن العماد الكاتب فى المقارنة بينه وبين شاعر الشام الكبير آنذاك أبى
الفتيان ابن حيوس : « ابن حيوس أصنع من ابن الخياط ، لكن لشعر ابن الخياط
طلاوة ليست له » (١) .

يقول خليل مردم (٢) : « والحسن من شعره أكثر من الوسط ، وقد يعلو
حتى يبلغ الأوج . وله قصيدة هى فى رأيها أحسن شعره ، ومن مختار الشعر فى
جميع عصوره ، سلمت جميع أبياتها ، عذبة الألفاظ ، خلاصة المعانى ، جعل
نسيبها وصفاً لأرباب الشباب ، ونزعات الصبا ، ونزوات الفتوة » . يقول :

وراحَ يَحْتَالُ فى ثوبى هَوَى وصَبَا
كَأَ يَغَادِرُ فَضْلَ الكَأْسِ مِنْ شَرِبَا
أَنَّ الزَّمَانَ سَيَمْحُو بِهِ مَا كَتَبَا
إِلَّا ارْتَدَى بِرَدَاءِ الشَّيْبِ وَانْتَقَبَا
فَبَادَرَ العَيْشَ بِاللَّذَاتِ وَانْتَهَبَا
فَلَيْسَ يَوْمَ بَمَرْدُودٍ إِذَا ذَهَبَا
لَمْ أَقْصُ مِنْ حُبِّهِ قَبْلَ التَّوْبَى أَرَبَا
وَجَادَتْهُ جِبَالُ الشُّوقِ فَانْجَذَبَا
حَتَّى إِذَا أَدْبَرْتَ حَافِلَتَهَا طَلَبَا
صَمَّ المَطَالِبَ لَا وَرْدًا وَلَا مَقْرَبَا
تَالِي المَهْلَ ، طَرِبْنَا غَنَةَ مُعْتَرَبَا
فَكَلَّمَا رُضْنَةً فى مَطْلَبِ صَعْبَا
فَكَلَّمَا قَلْقَلْنَاهُ نَبْضَةً رَسَبَا
هَوًى يُزْهِدُ فى الأَيَّامِ مَنْ رَغَبَا

أعطى الشباب من الآراب ما طلبا
لَمْ يُدْرِكِ الشَّيْبُ إِلَّا فَضْلَ صَبَوْتِهِ
رَأَى الشَّيْبَةَ خَطَأً مَوْفِقًا فَلَمَّ رَى
إِنَّ التَّلَاحِينَ لَمْ يُسْفِرْنَ عَنْ أَحَدٍ
وَالْمَرْءُ مِنْ شَيْءٍ فى الأَيَّامِ غَارَتْهُ
مَا شَاءَ فَلْيَتَّخِذْ أَيَّامَهُ قَرْصًا
هَلِ الصَّبَى غَيْرُ مَحْبُوبٍ ظَفَرْتُ بِهِ
إِلَى لأَحْسَدُ مِنْ طَاحِ القَرَامِ بِهِ
وَالْعَجْزُ أَنَّ أَتْرَكَ الأَوْطَارَ مَقْبَلَةً
مَالِي وَلِلْحِظِّ لَا يَنْفَكُ يَقْدِفُ فى
أَصْبَحْتَ فى قُبْضَةِ الأَيَّامِ مَرْتَهَنًا
أَلَحَّ ذَهْرُ الجَوْجِ فى مُعَالِدَتِي
كَخَائِضِ الرَّحْلِ إِذْ طَالَ النِّعَاءُ بِهِ
لَأَسْلُكَنَّ صُرُوفَ البَّهْرِ مَقْتَحَمًا

(١) مقدمة ديوانه ص ٢٧ .

(٢) مقدمة الديوان ص ٢٩ .

غَضَبَانِ لِلْمَجْدِ، طَلَاباً بِثَارٍ غَلَا
عِنْدِي عَزَائِمُ رَأَى لَوْ لَقِيَتْ، بِهَا
وَاللَّيْثُ أَقْتَلَكَ مَالِقٌ إِذَا غَضِبَا
صَرَفَ الزَّمَانَ لِيْلِي مَعْنَا هَرَبَا

وفي شعر ابن الحياط ذاتية واضحة ، ويختلف عن أستاذه ابن حيوس الذي تغلب عليه الموضوعية كما أشرنا . كذلك فإن صياغة ابن الحياط تختلف عن صياغة ابن حيوس لأنه يميل إلى رقة الكلام ، ولا يَجْنَحُ للجزالة والخطابية ، كما نرى الطبع والشاعرية يغلبان الصنعة والمباشرة . وهو في عمله الشعري يتبع طريقة البحرى ويتأثر به مخالفاً بذلك ابن حيوس الذى اعتمد طريقة أئى تمام .

ومعظم معانيه فى موضوعات المدح الغالبة على شعره مستمدة من التراث الشعري السابق ، وما تأثر فيه بمعاني البحرى وصياغته واخيلته قوله :

بِيضٌ تَوَقَّدَ فِي أَيْمَانِهِمْ شُعَلٌ
هِيَ الصَّوَابُ إِذْ تَسْتَوِطُنُ السَّحَابَا
وأحسن ما قال من الشعر كما ألقنا ليس فى المدح ، ولا شعر المناسبة والتكسب ، لكن ما قاله فى الشكوى كالقصيد التى يرقى بها الشباب ، أو هذه القصيدة التى يشكو فيها الزمن :

أَلَا تَنَى مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ يَحْمِيْنِي
مُهْضَى الْكَرَامِ وَقَدْ خُلِفْتُ بِعَدَمِهِمْ
أَكَمْ أَسْتَفِيدُ أَخَا بَرٍّ فِيمَعْزَلِي
أَرْجُو السَّمَاةَ مِنْ لَيْسَ يُسَعِّفَنِي
لَوْ كُنْتُ أَقْلَبُ ، وَالْأَقْدَارُ غَالِيَةٌ
لَوْ كَانَ فِي الْفَضْلِ مِنْ بَحْرِ لَصَاحِيَةٍ
يَا هَلِيلٍ قَدْ أَصَابَ الدَّهْرُ حَاجَتَهُ
إِنْ كَانَ يَجْهَدُ أَنْ أَصْلَحِي نَوَائِيَهُ
كَأَنَّهُ لَيْسَ يَفْعَلُو مَرْسِيلاً يَدُهُ
سَلَوْتُ لَا مَلِكَ عَمَّنْ كَلَفْتُ بِهِ
مَا كُنْتُ أَرْضَى الْهَوَى وَالْوَجْدُ يَنْجِلْنِي
مَنْ كَانَ ذَا أَسْوَى مَعْنٍ بِهِ حَزَنٌ

ألا كريم على الأيام يُعْدِينِي
أشكو الزمان إلى من ليس يُشْكِينِي
وابتنى ماجداً مَحْضاً فِيمَعْنِي
وابتنى الرِّقْدَ مِمَّنْ لَا يُوَاسِينِي
لَبِغْتُ فَضْلِي بِحُظِّي غَيْرَ مَعْبُورِي
لَكَانَ فَضْلِي عَنْ ذِي النِّقْصِ يُغْنِينِي
مِنِّي فَيَجْتَمِ لَا يَنْفَكُ تَرِيضِي
جَمْعاً ، فَوَاجِدَةٌ مَبْنُوءٌ تَكْفِينِي
بِكُلِّ مَا نَالَ مَتَى الدَّهْرُ يُسَلِّينِي
ومثل ما نال متى الدهر يُسَلِّينِي
حتى بليت فصلر الهم يُضْنِينِي
فاليوم لى يتأسى كلُّ مُحْزُونٍ

أبيات إنسانية صادقة العاطفة ، هى نفثات لمكروب تملأها ذاتية واضحة تكشف عن معاناة الشاعر ، ويجرى فيها نفس واحد من البداية حتى النهاية

تساق في كلمات لا تكلف فيها ، ولا صنعة خالصة على طبيعة الشكوى الصادقة .

وطبع ابن الخياط وتلقائته واضحان كلّ الوضوح ، وهو وإن تتلمذ على ابن حيّوس ، واعتبره هنا خليفته في الشعر على شعراء الشام إلا أن الشخصيتين اختلفتا، بل تعارضا، كما اختلف شعرهما، فابن حيّوس أمير مستغن بما كان لديه من المال عن الطلب في معظم حياته ، وهو قصير حسن المظهر على غير حال ابن الخياط وبنته ومظهره ، فقد كان فقيراً ، يعمل في حرفة الخياطة وتكسب بالشعر الذي قاله طبعاً لا تعليماً ، وكان قوي البنية تحسبه حملاً أو جملاً لبزته وشكله وعرضه. كما قال العماد الكاتب .

وطبيعي أن لا نجد في شعره آثار ثقافة متعددة المصادر ، منوعة الاتجاهات اللهم إلا ما اقتضته المعرفة ، ومن هنا كان استخدامه للغة في حدود محفوظة المألوف من الشعر ، وقراءته المألوفة كذلك .

ومن هنا لا نجد توظيفاً لمعلومات ، أو نصوص شعرية أو نثية أو معرفية عامة .

إبراهيم الغزى*

(ت سنة ٥٢٤ هـ)

أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى عثمان بن محمد الكلى .

ولد ونشأ بغزة ، ثم انتقل إلى دمشق لطلب العلم ، وأخذ بها على جماعة من مشاهير عصره ، وكان أول دخوله دمشق سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، ولعله كان حينذاك قد ودّع الشباب ودرج إلى الرجولة والكهولة . وسمع بدمشق من الفقيه نصر المقدسى

ولما بيع في العمة مرتبة ، وفي الشعر مكانةً رحل إلى بغداد ، والتحق بالمدرسة النظامية وأقام بها سنين كثيرة ، وامتدح بها جماعة من رؤسائها وانتشر شعره هناك .

وقد أشاد به الحافظ ابن عسساكر وكذلك البغدادي ومن بعدهما ابن خلكان وعماد الدين الأصبهاني وذكروا له مقطعات من شعره ز ولم يوردوا قصائد يتأملها .

قال ابن خلكان . وله ديوان شعر اختاره لنفسه ، وذكر في خطبته أنه ألف بيت .

وتم يستقر به الحال في بغداد ، بل ألققه حب الرحلة ، والتنقل في البلاد ، فتوجه ناحية المشرق وطرق خراسان وكرمان ، ولقى بها جماعة من الفضلاء فمدحهم ، ونال رضاهم وعطاءهم .

قال ابن العماد بعد أن أثنى عليه : وتغلغل في أقطار خراسان وكرمان ، ولقى الناس ، ومدح بصر الدين مكرم بن العلاء وزير كerman بقصيدته البائية التي يقول فيها ولقد أبدع :

راجع ترجمته في وفيات الأعيان ٥٧١/١ تحقيق الدكتور إحسان عباس وغريدة القصر — قسم شعره الأشهر ج ١ وتلويح بلاد . وتلويح دمشق لابن عسّاكر

حسنا من الأيام ملا تُظفيقه كما حمل العظم الكبير العصابة

ومنها في قصر الليل وهو معنى لطيف :

ونيل رجونا أن يدب عذاره فما اختط حتى صار بالفجر شائب

قال : وهي قصيدة طويلة .

وفيما روى مما بقى من شعره ما يوحي بأنه قاسى من العوز والحاجة ، ولم يلق من مدائقه لبعض وجوه عصره ما يرضيه ، فتناول بعضهم حاجيا ومعرضاً ييخلهم ومنه قوله في أحد الوزراء :

من آلة الدسب لم يُعط الوزير سيوى تحريك الحية في حال إيماء
إن الوزير ولا أزر يُشدُّ به مثل العروضي له بحر بلا ماء

وقال بدم الناس لقلة عطائهم :

وجف الناس حتى لو بكينا تعلم ما تبل به الجفون
فما بندى للملوح بنان ولا يندى لمهجو جبين

ويبدو أنه يش من المديح فهجى الشعر وسأله الناس عن ذلك فقال :

قالوا هجرت الشعر : قلت ضرورة باب اللواعي والبواعث مغلق
نخلت الديار فلا كريم يُرتقى منه النوال ، ولا مليح يُعشوق
ومن العجائب أنه لا يشتري ويخان فيه مع الكساد ويُسرق

فالشاعر لا يجد ما يهيبه على مدائحه ، وقد كسدت سوق الشعر ، فلم يجد ما يحفز على قوله ، وكأنه يسترجع ما قال به القدماء من أن الطمع كان في مقدمة الحوافر لصنعتة . وتأتى بعده العاطفة .

ولاحساس الشاعر بأنزته تلك جعلته يريق ماء الوجه في غير طائل ، وكأنه يتجرع المر ، ويحمل طعان الأسنة يقول شاكيا تلك الحال :

ونحز الأسينة والخضوع لناقص أمداً في ذوق النهى مران
والرأى أن يختار فيما فوئه الـ مران ونحز أمينة المران

وتتعدّد أغراض الشعر عنده ، وتتعدد معانيه ، وإن لم تحط بها علما مبنوى
شذرات هنا وهناك ، هي أبيات مشورة ، مفردة أو مقطوعات في بيتين أو
ثلاثة. يشي ولا تشفى غليلا . من ذلك قوله متغزلا :

إشارة منك تغنيني وأحسن ما ردّ السلام غداة الين بالنعيم
حتى إذا طاح منها المرط من دهرش والحل بالضم سلك العقيد في الظلم
تبسّمت فأضاء الليل فالتقطت حبات منشر في ضوء منتظم

وذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات مما تستملح الأدياء وتستظرفه ، وإن
نظر فيها إلى بعض السابقين من الشعراء .

فمن معانيه مما ارتاده من قديم الشعر كقوله :

وبورك في خيام فيل ليل وفي تلك المضارب والجبال
فما أوتأذهن سبوى المواضي ولا أطنأهن سوى العرائل

ومن معاني الغزل والفراق قوله^(١) :

بجمع جفنيك بين الثمر السقم لا تسفكي من جفوني بالفراق دمي
إشارة منك تغنيني وأفصح ما ردّ السلام غداة الين بالنعيم
تعلق قلبي بلبات القرط تعليقا بلا ألم فليشكر القرط تعليقا بلا ألم
تضمرت وجنة في ماء جنتها والجمر في الماء غاب غير مضطرم
ماء الأسيلين يكوى برّد ملمسه فهل سمعت بماء محرق شيم
وما نسيت ولا أنسى تحسّنها وملبس الجو غفل غير ذي علم
حتى إذا طاح عنها المرط من دهرش والنحل بالضم سلك العقيد في الظلم
تبسّمت فأضاء الليل فالتقطت حبات منشر في ضوء منتظم

وقال^(٢) :

ومشكورة التسوييف في قدرة انغني وخير نواي الحب ما لم يُعجل
أبى صدها أن تعدم العين قرّة والمبسر في إذباره جسّن مقبل

(١) تأمل الغريب ص ٢٩٨ .

(٢) نظم المتور ٧٩

وقال (١) :

أَمِطْ عَنِ الدَّرِّ وَالزَّهْرِ الْيَوَاقِيْنَا
فَتَغْرِكَ اللَّوْلُوُ الْمَبِيعُ لَا الْحَجَرُ الْـ
قَابِلُ بِالشَّيْبِ الْأَجْفَانِي مَبْتَسِمًا
وَكَانَ فُوكَ الْيَدِ الْبَيْضَاءُ جَاءَ بِهَا
جَمَعْتُ ضِلَعَيْنِ كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَا
جَسْمًا مِنَ الْمَاءِ مَشْرُوبًا بِأَعْيُنِنَا
مَسْكَا حَيْثُ قَوَّادِي كَانَ فِيكَ دَمًا
أَمْسَكَ مِنْ سُرُورِ الْغِيْلَانِ مَكْتَسِبٌ
وَنَشْرُ ذِكْرَكَ أَذْكِي الصَّيْبَ رَاحَةً

وقال (٢) :

إِذَا فَاحَ نَوَارُ الْعَقِيقِ وَرَنَدُهُ
وَكَيْفَ تَرِيحُ الرِّيحِ مِنْ كُرْبَةِ الْهَوَى
وَعِنْدَى عَهْدٍ مِنْ هَوَاكُمُ تَقَادَمْتُ
وَمُنْعَطِفِ الصَّدُغَيْنِ لَا عَطَفَ عِنْدَهُ
تَصَرَّفَ فِي مَعْنَى الْجَمَالِ وَلُطْفُهُ
جَفَوْنِي تَرَى هَارُونَ مَارُونَ يَبْنَا
وَتَغْرُ حَكِي الْكَافُورِ طِيبُ رُضَائِهِ

وقال (٣) :

لَيْسَتْ بِأَوْطَانِكَ اللَّائِي نَشَأْتُ بِهَا
خَيْرُ الْمَوَاطِنِ مَا لِلنَّفْسِ فِيهِ هَوَى
كُلُّ الدَّلِيلِ إِذَا فَكَّرْتَ وَاجِدَةٌ
أَفْبَى الَّذِينَ دَنَوْا وَالْمَجْرُ يُبْعِدُهُمْ
كُنَّا وَكَانُوا بِأَهْقَى الْعَيْشِ ثُمَّ نَاوَا

(١) تأمل الغريب ٣٩ .

(٢) تأمل الغريب ص ٩٢ .

(٣) الكشكول ١ / ٢٨٧ .

وَأَجْمَلُ خَجِّ تَلَاقِنَا مَوَاقِيْنَا
مُسَوِّدُ حَاشَاهُ مِنْ وَشْمٍ وَجُوشِيْنَا
فَلَاحَ مِنْ نَاطِرِكَ الشَّحْرُ مَنَكُونَا
مُوسَى ، وَعَيْنَاكَ هَارُونَا وَمَارُونَا
لِكُلِّ جَمْعٍ مِنَ الْأَلْبَابِ تَنَشِيْنَا
يَضُمُّ قَلْبَا مِنَ الْأَصْلَادِ مَنَحُونَا
فَلَا تَفَادِرُهُ مَسْحُوقًا وَمَفْتُونَا
وَاللَّهُ يَنْبُتُهُ فِيهِنَّ تَنْبِيْنَا
وَنُورُ وَجْهِكَ رَدُّ الْبَدْرِ مَبْهُونَا

سَأَلْتُ الصَّبَا عَنْ نَشْرِكُمْ أَيْنَ وَقَلُّهُ
وَعَلْتُهُ هَجْرُ الْحَبِيبِ وَصَلُّهُ
وَمَا الْحُبُّ إِلَّا مَا تَقَادَمَ عَهْدُهُ
لَهُ سِمَةٌ تُشَبِّهِ الْهَوَى وَتَهْلُهُ
فَفِي كَفِّهِ خَلُّ الْجَمَالِ وَغَفْلُهُ
يَلْدُ بِهَا الطَّرْفُ الَّذِي هُوَ خَلُّهُ
وَلَكِنَّهُ يَسْتَجْلِبُ الْحُرَّ بِرَدِّهِ

لَكِنْ دِيَارُ الَّذِي تَهْوَاهُ أَوْطَانُ
سَمُّ الْخِيَاطِ مَعَ الْأَحْبَابِ مِيدَانُ
مَعَ الْحَبِيبِ وَكُلُّ النَّاسِ إِخْوَانُ
وَالنَّازِحِينَ وَهُمْ فِي الْقَلْبِ سَكَانُ
كَأَنَّا قَطُّ مَا كُنَّا وَمَا كَانُوا

ويشكو الزمان :

لا تَبْتَئِ الزَّمانَ إِن ذَهَبَتْ نِيوبُ النَّيِّبِ العَرَبِينَ مِنْ نُوبِهِ
فَالْحَوْلُ لَوْلَا الْجُودُ مَا قَصُرَتْ أَيْدِي جَمَادَاهُ عَنْ عُلَا رَجَبِهِ
ويقول (١) :

لَا تُشْكُ فَالْأَيَّامُ حُبْلَى رُبَّمَا جَاءَتْكَ مِنْ أَعْجَوْنَةٍ بِجَنِينٍ
فَكَذَا تَصَارِيفُ الزَّمانِ مَشَقَّةٌ فِي رَاحَةٍ وَخَشَوْنَةٌ فِي لِينٍ
مَا ضَنَّاعٌ يُؤَسُّ بِالْعَرَاءِ بِجُرْدٍ فِي ظِلِّ نَابِتَةٍ مِنَ الْيَقْطِينِ
وتدور بعض آياته حول تجارب الحياة والأيام ، يصوغها في قوالب الحكم
والأمثال ، فيقول (٢) :

الْمَجْدُ سَهْلٌ وَالطَّرِيقُ إِلَيْهِ بِالْإِجْمَاعِ وَغَرُّ

ويقول (٣) :

لَا تُشْكُوكُنَّ مِنَ الْخَمُولِ فَرُبَّمَا كَانَ الْخَمُولُ إِلَى السَّلَامَةِ سُلْماً
لَوْلَا كَمُونُ الثَّرِّ فِي أَصْدَافِهِ وَمَشَقَّةُ اسْتِخْرَاجِهِ مَا فُحِّمْنَا
ويقول (٤) :

قَالُوا بَعْدَتْ وَلَمْ تُقَرَّبْ فَقُلْتُ لَهُمْ بُعِدِي عَنِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمانِ حَجِيٌّ
لَوْلَا التَّبَاعُدُ بَيْنَ الْحَاجِّينَ بِهِ بَانَ اقْتِرَاقُهُمَا لَمْ تُعْرِفِ الْبَلَدَا
ويقول (٥) :

صَلَّتْ الْعَلَا بِالْمَكْرَمَاتِ وَأَتَمَّا يَنْمُ بِأَسْرَارِ السَّيُوفِ الصَّيَاقِلُ

(١) النبت للصفدي ٢/ ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٤٧ .

(٣) شرح اللامية ٢/ ٢٩٥ .

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٢٩٥ .

(٥) نغم القون ٦٨ .

وقال (١):

خلقت لذنوب إبليس اعتذاراً فتاة ، وقال فَرْتُ وَخَقَّ جيدي
إذا كان ابن آدم مثل هذا فكيف ألاء في ترك السجود
ويعلل خروجه عن بغداد (الزوراء) فيقول :

مالي وللمكث في الزوراء يُجحفني من ألحِقَ العَجَزَ لَمْ يَفْرَحْ بِمَا تَتَجَا
قلبي أظن هو المعدي مساكنتها بنارٍ لوعبته لما ارتقى دَرَجَا
فالتور عتقات واهجر بها يُسَاعِدُ الهَجْرَ فيما يسلب المهجرا
ويقول (٢):

من ظن أن القوافي لا تُشور لها فليذكر القاسم العجلى والكرخا
ويقول :

لا تحقرن ضيف الرزق وأرض به ما القمّر مجتبع إلا من الوشيل
والزول إذا نه تجد للمرتقى سبباً فباسق العود ترجو نازل السبيل
ويقول :

لو تملك الدنيا يدي لأرحت من يُنسى ويصنع طالباً مَحْثَا
وقسمتها بيني وبين أصادق وعَلَى غير مُمَيِّزٍ أَثْلَا
ويقول :

لا يحطن رتبي سوء حالي آية الحسني في الجفون السقام
أنا كالأثر أظفا القطر منها ولها بعد أن تفتحت احتدام
ويقول (٣):

ليت الذي بالعشيق دونك خصني يا ظالمى . قَسَمَ الهبة بيننا
أنا في الهوى مكل الجلال مُثَقَف ولقد أضرت في مناسبة الفنا

(١) المصدر نفسه ١١٦ .

(٢) شرح الامية ص ١١٨ .

(٣) جوهر الكثر ٤٦٦ لابن الأثير . طبع منشأة المعارف .

وينت على الرحلة والإنتقال ، لأن الخمول من شأن من يستقر في مكان :

يَا بَحْلِيلِي حَلِيَا عَامِلٌ الْبَسْمَلُ بِوَجْهِ النَجِيَّةِ الشَّمَالِ
زُحَلٌ أَكْبَرُ الْكَوَاكِبِ لَا يَحْمِلُ إِلَّا مِنْ قَلَّةِ الْإِنْتِقَالِ
ويقول :

الحسنُ والفَيْحُ قد تَوَهَّيَما صِفَةً شَأْنُ الْبِيَاضِ ، وَذَاكَ الشَّيْبُ وَالشُّبْنَا
ظَنَّا الْخَطَائِفَ أَقْلَامٌ مَكْسُورَةٌ رَعُوسُهُنَّ ، وَأَقْلَامُ السَّعِيدِ ظَنَّا

يتحدث عن الآله يملكها صاحب الحظ التمس والسعيد ، فيشقى بها ذاك ،
ويسعد بها هذا ، ويخص صنعة الكتابة يشقى بها ناس ويسعد آخرون ،
فأصحاب الأقلام ليسوا سواء في السعادة .

ومما عرضنا من نماذج شعر الغزى تتين لنا ملاح ، لا نملك لها تفصيلاً ما لم
نعثر على ديوانه ، ونعرض لجملة شعره ، وأول ملمح نلمسه في مضامينه
ومعانيه ، ما يكشف عنه قوله من أزمة أحس بها الشاعر في حياته وتعامله مع
الناس ، عبر عنها في غزله وشكواه ، وما يثبُّ من نفثات ساقها على صورة
حكمم وتجارب خاضها كما خاضها غيره من قبل فعبّر عنها بتعبيرات متفاوتة
تعامل فيها مع المعاني التي تداولها الشعراء من قبل في مثل ما عاناه ، واستعان
أحياناً ببعض العبارات والألفاظ ، وأخرى بالصور والخيالات .

ولم تكن سلاسة اللفظ من خصائصه ، بل تغلب عليه الرصانة والجزالة
واللجوء أحياناً إلى اللفظ الغريب والحوثي . وقد لاحظته عليه الصقدي حين
قال : « ما أثقل قول الغزى في هذا المعنى ، وأوهى ، وأوهن ما شاده في هذا
البيت ، وهو :

ولا غرو أن كنتُ بعضُ الورى فَإِنَّ الْيَكْجُوجَ بعضُ الحَطَبِ

ومعانيه ، وأمثاله تنمُّ عن أزمته ، وقلقه ، وإحساسه بظلم الحياة والناس
ومعاندة الدهر والحظ كأن يقول في إحباط واضح :

ولن يتساوى سادةٌ وعبيدهم على أَنَّ أسماءَ الجميع موالى

وقوله :

مصاحبةً المتى خَصَرٌ وَجَهْلٌ وَكَمْ شَرِّكَ تَوْلَدَ مِنْ زُلَالٍ

وقوله :

كَمْ عَالَمٌ لَمْ يَلْجِ بِالْفَرْعِ بَابَ مَنْى وَجَاهِلٌ قَبْلَ قَرَعِ الْبَابِ قَدْ وَلَجَا
ويستعين ببعض المعارف التاريخية والعلمية والفلكية .

ويستعين ببعض مصطلح العلوم كمادة معاصريه ، كأن يستعين بمصطلح
النحو في مثل قوله :

قَالُوا نَزَلَتْ ، فَقُلْتُ الذُّهْرُ أَقْسَمَ بِي لَا وَجْهَ لِلرُّفْعِ فِي الْمَجْرُورِ بِالْقَسَمِ
وكرر هذا المعنى فقال :

غَيْرِي لَهُ الْمَجْدُ وَالْأَيَّامُ تَقْسِمُ بِي وَهِيَ الْجَدِيدَةُ بِالضُّيْزَى مِنَ الْقَسَمِ
أَظَنَّا أَقْسَمْتُ بِاسْمِي لِتَخْفِضَتِي وَلَمْ يَكُنْ غَيْرَ فَضْلِي أَخْرَفُ الْقَسَمِ
ويقع له المعنى الجيد كقوله :

كَالشَّمْعِ يَبْكِي وَلَا يُدْرَى أَعْبَرَتْهُ مِنْ صُحْبَةِ الثَّارِ أَمْ مِنْ فَرْقَةِ السَّيْلِ

وبعد فقد كان العزى من الشعراء المحرومين القلقين ، تقلبت به صروف
الدهر ، فهاجر مفادراً بلده يلتمس حظاً من الدنيا ، فلم تعطه ما يريد وشرق
طالباً مطلع الشمس عليه يلقي في مشرقها ما لم يلقه في مغاربها ، وعمر وطال
عمره ، وعجز بعد هرمه ، وأحس بالموت يدب في أوصاله ، ففارق الحياة بعد
مرض أقعده بيلاد خراسان فلما أشرف على فراق الدنيا قال : أرجو أن الله
يغفر لى لثلاثة أشياء : لكونى من بلاد الإمام الشافعى وكونى شيخاً كبيراً ،
وكونى غريباً^(١) .

(١) الفيت المسجوم — شرح لامية النجم للصنفى ١٦٦/١ .

الفصل السابع

شعراء وافدون من المغرب

- ١- الثَّجِيبِيُّ الأندلسي (ت بعد سنة ٤٣٠ هـ)
- ٢- ابن القطاع الصقلي (ت ٥١٥ هـ)
- ٣- أمية بن أبي الصلت (ت سنة ٥٢٩ هـ)
- ٤- ابن أبي البشائر
- ٥- ابن حَيْش الشيباني
- ٦- محمود بن عبد الجبار الطرسوسي
- ٧- الرشيد الصقلي
- ٨- القلمي الأصم (محمد بن عبد الله)
- ٩- مجر الصقلي (ت ٥٤٠ هـ)

التجيبى

أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبى
(ت بعد سنة ٤٣٨ هـ)

من أهل القيروان ، وسكن المهديّة ، ويعرف بالبيق ، أخذ عن أبى إسحاق
الحصرى تآليفه ، وعن جماعة من العلماء والأدباء فى القيروان والاسكندرية
والقاهرة .

وكان عالماً بالأدب متبحراً ، شاعراً ، مجوّداً . من أهل التأليف والتصنيف مع
جودة الضبط وبراعة الخط .

ويروى أنه توجه إلى مصر فى طريق رحلته للحج فى تلك السنة ، والتقى بجماعة
من العلماء والأدباء والشعراء أخذ عنهم وأخذوا عنه ، فمنهم أخذ عنه أبو مروان
الطنبسى ، لقيه بالإسكندرية .

ويروى أنه تردد على مصر ، وكان حجة فيما يروى عام ٤٣٨ هـ ، ورافقه فى
رحلته أبو بكر محمد بن على بن الحسن التميمى ثم الفوتى سنة ٤١٥ هـ وانشده
أبو الحسن البصرى الشريف العباسى بمصر سنة ٤١٥ هـ كذلك .

وفى إحدى رحلات العودة من مصر سافر إلى صقلية حيث التقى بأدبائها
ومن بينهم أبو الحسن على بن محمد الخياط الربعى شاعر صقلية آنخذ وجمعت
بينهما صداقة ، وتبادلا الأشعار فى الحنين والمودة .

قال ابن الأثير : « ومن جلة أصحابه المعاصرين أبو الحسن الربعى شاعر
صقلية ، وقد أكثر من إنشاد غرر شعره ومن الحنين إليه وإلى مجالس أنسه حنين
الواله إلى بكرها ، والطمح إلى وكراها ، ولا غرو فإنه كان شاعر صقلية إذ ذاك
حيث قضى التجيبى مدة غير يسيرة من كهولته بعد انفصاله عن مصر . وربما
بقى بها إلى ما بعد سنة ٤٣٠ هـ .

وفى رحلته إلى مصر صحب الشاعر أبى الحسن على بن جُنَيْش الشيبانى^(١)
وفى أبو الحسن وتختلف عن صاحبه بمصر بينما واصل التجيبى رحلته إلى تونس
(١) راجع المختار ص ١٢١ .

فصيلة — فيما يظن — ويذكر التجبى أن أبا الحسن بعث إليه برسالة بعد
افتراقهما ضمها نظماً ونثراً يصف فيها نزهة حضرها بعده بمصر سنة ٤١٤ هـ .
واستقر التجبى فيما يبدو كغيره من المغاربة بالاسكندرية بعض الوقت قبل أن
يذهب إلى القسطنطينية بالقاهرة .

وكغيره كذلك جاب في أنحاء مصر والجزيرة ، ومتع بصرو بمنازه النيل ومفاتيح
الطبيعة الجميلة المحيطة بالقاهرة والقسطنطينية . ومن بين نزحاته تلك ما رواه في
المختار . قال (١) : « مشيت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن يونس الأنصارى الإشبيلي
رحمه الله تعالى إلى ناحية أوسيم ، قرية تشرف على جزيرة مصر ، فرأينا هناك من
نور الأقحوان ما لم ير مثله قط في التضارة ، وإشراق أصفه وقفوعه في صفاء
أبيضه ونصوعه ، فعملنا عدة مقاطيع فيه ، فلم يتفق لنا من ذلك العمل ما نرضى
إثباته إلا بيتان قلتُهما أنا . وهما :

كَأَنَّ الْأَقْحَوَانَ وَقَدْ تَبَدُّثَ مَحَاسِنُهُ فَرَاقَتْ كُلَّ عَيْنٍ
عَمَّادُ زَرْجِدٍ وَقَبَابُ تَهْرِ تَحَفَّ بِهَا شُرَافَاتُ اللَّجَيْنِ

فرضيناه جميعاً وأعجب أبا الحسن (على بن حُبَيْش الشيباني) اعجاباً
مفرطاً فأورده بعد في بيته ، ولم يتمكن له ذكر الزرجد ، فذكر الخضر في البيت
الذي يليه فقال :

كَلِمَا هُبَّتِ الرِّيحُ تَمَازَيْدُ سَنَ عَلَى أَسْوَاقٍ مِنَ الرَّيِّ مُحْضَرِ

ومن التقى بهم في مصر وأنشدوه أبو الحسن البصرى الشريف العباسى
قال (١) : أنشدني أبو الحسن البصرى الشريف العباسى بمصر لنفسه سنة خمس
عشرة وأربعمائة :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْإِلْفَ يَعْزِمُ لِلثَّوَى عَزَمْتَ عَلَى جَفْنِي أَنْ يَتَرَقَّرَا
فَعَذَّ حُجَّتِي فِي تَرْكِ جَيْبِي سَالِمًا وَقَلْبِي فِي حَقْبِهِمَا أَنْ يُشَقَّقَا
يَدِي ضَعُفْتُ عَنْ أَنْ تُخَرَّقَ جَيْبُهَا وَلَمْ يَكْ قَلْبِي حَاضِرًا فِيمَزَّقَا

فاستغربت له هذا المعنى واستظرفته . فأنشدني بعده لنفسه من قصيدة له :

(١) المختار من شعر بشر ص ١٢٦

ولو ألى جُعِلَتْ أَمْرَ جيشي لما قَاتَلْتُ إِلَّا بالسُّؤَالِ
لَأَنَّ النَّاسَ يَنْهَزِمُونَ عَنْهُ وَقَدْ ثَبَتُوا لِأَطْرَافِ الْعَوَالِي
فَأُظْهِرْتُ اسْتِظْرَافًا لِهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا ٥ .

وللتجيبى شعر ساقه فى مختاره ، منه قوله زمن شبابه^(١) :

وغيداة كالبدنِ المتيرِ تُطَلَّعَتْ

(١) المختار ص ١٧٨ .

ابن القطّاع الصقلّي^(١)

(٤٣٣ — ٥١٥ هـ)

أبو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدى^(٢)

ولد بصقلية سنة ٤٣٣ هـ . ووفد إلى مصر . قال ابن خلكان : « الصقلّي المولد ، المصرى الدار والوفاة ، اللغوى » . وهكذا فقد نشأ وتعلم بصقلية ، وقال الشعر صبيّاً في الرابعة عشرة .

كان أحد أئمة الأدب واللغة ، وله تصانيف نافعة . منها كتاب « الأفعال » أحسن فيه كل الإحسان . قال ابن خلكان : « وهو أجود من « الأفعال لابن القوطية » . وإن كان ذلك قد سبقه إليه . وله كتاب « أبنية الأسماء » جمع فيه فأوعى ، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه . وله عروض حسن جيد ، وكتاب « الدرّة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة »^(٣) يعنى جزيرة صقلية من مواطنيه ، وكتاب « لمح الملح » جمع فيه خلقاً من شعراء الأندلس .

وكان من أستاذته في صقلية ابن البر اللغوى وأمثاله . وأجاد في النحو غاية الإجادة قال ابن خلكان : ورحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الأفرنج ، ووصل إلى مصر في حدود سنة خمس مائة (٥٠٠ هـ) ، وبالح أهل مصر في إكرامه . وكان أول ما نزل بالإسكندرية .

واتصل بالوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، ومدحه بمدائح ، وتردد على مجلسه وكان من شعرائه . وأقام بالفسطاط أو القاهرة حتى زمن وفاته سنة ٥١٥ هـ بعد مقتل الأفضل . ودفن بقرب ضريح الإمام الشافعى .

وعمر طويلاً فقد جاوز الثمانين . وعلم ، وتخرج على يديه جماعة من المصيرين ومما مدح به الأفضل قوله في مطلع قصيدة :

(١) راجع في ترجمته الخريدة ٥١/١ قسم شعراء المغرب بتحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم ، طبع دار نهضة مصر سنة ١٩٦٤ م . والخريدة طبع تونس ٥١/١ ، ووفيات الأعيان ٣٢٢/٢ إحسان عباس وأنباء الرواة ٢٣٦/٢ وبنية الوعاة ، ومعجم الأدباء .

(٢) ذكر اسمه في تحقيق الدسوقي وعبد العظيم على بن عبد الرحمن بن جعفر على خلاف الوفيات .

(٣) والكتاب مفقود . وله مختصر اسمه « الكتاب المتحلل من الدرّة الخطيرة في شعراء الجزيرة » للشيخ

أبى اسحاق بن أعطب — منه نسخة خطية بتميمية دار الكتب المصرية رقم ٢٢١٦ تاريخ وقلم بنشرها المستشرق الإيطالى أمبرتو زيزجيانو .

صَاحِبِي وَأَسْفَا
وَأَسْمَعَا أَبُوكُمَا

وقال من أخرى :

من ذا يُطِيق صفات قوم مجدهم
وَساؤُهُم من عَهْدِ سَامِ سامِ
وَحاهِم من عَهْدِ حَامِ لم يَزَلْ
يُحْيِيهِ مِنْهُ لَبِثَ غَابَ حَامِ

ويقول :

أَنْتَ كَالْمَوْتِ تَدْرِكُ الْخَلْقَ طَرًّا مِثْلَ مَا يَدْرِكُ الصَّبَاحُ الْمَسَاءَ
كَيْفَ يَرْجُو الَّذِي أَخَفَّتْ نَجَاءَ مِنْكَ إِ؟ هِيَائَ أَيْنَ مِنْكَ النِّجَاءُ

وهو محيط بقول النابغة :

« وإنك كالليل الذي هو مُذكرى » .

ومعظم ما اختاره العماد وابن خلكان من شعره في الشراب والغزل ،
والشكوى ووصف الشيب والزهد ربما في أغنيات أيامه .

يقول في الغزل :

إِذَا أَتَيْتُمْ يَوْمًا رَأَيْتُمْ بِغَرْهَا
وَأَنْ أَسْفَرْتُمْ عَائِنْتُ فَهَسْمَا مَنْرَةً
وَتَسْلُبُ عَيْنَاهَا الْعُقُولُ إِذَا رَنَتْ
سُوءًا مِنْ الْيَاقُوتِ قَدْرُ صَعْتِ ذُرَّا
تُرْدُّ عِيُونَ النَّظِيرِينَ لَهَا حَسْرَى
كَأَنَّ بَعِينَهَا إِذَا نَظَرْتَ سِحْرًا

ومنها :

أَلَا إِنَّمَا الْبَيْضُ الْحَسَانُ غَوَاجِرُ
وَمِنْ قَبِحَتْ أَفْعَالُهُ اسْتَحْسَنَ الْقُلُوبَا
يَمْلَأْنَ إِلَى سُودِ الْقُرُونِ وَمِثْلَهَا
إِلَى الْبَيْضِ مِنْهَا كَانَ لَوْ أَنْصَفَتْ أُخْرَى

ومن قوله في الشراب :

قهوة. إن تيسمت لمزاج
فاصلحها سلافة ترك الشـ
واعتيم غفلة الزمان فإن النـ
قطم العذر يا عدولي جلدو
يخلك ثغرا في كاسها لؤلؤيا
نـج إذا ما أصاب منها صبيا
سـرء رهن مادام يوجد حيا
كهلال أنار بدار سوا

وَقَوْلُهُ :

أَقْبَلَ الصَّبِيحُ وَصَاحَ الدِّيْكَةُ فَاسْقِنِيهَا قَهْوَةً مُنْفِكَةً

قهرة لو ذاقها ذو نسلك
فأهين ذليلك تعزك ، ولا
واغيتم عُمرك فيها طائراً
وقوله :

شربت يزيافة للـ
دبت بجسمى فأردت
قتلتها بمزاج
كانها طلبتني
مُهموم إذ لبستني
مُهمومة وشفتني
وبعد ذا قتلتني
بالنار إذ صرعتني

ومن أوصافه ولعله من أبيات يصف أحد أعياد المصريين بالنيل والشموع
تتبع على صفحته كما جاء في أقوال غيره ممن أشرنا إليهم . يقول :

أنظر إلى الماء حاملاً لهباً
واعجب لنار نضيب في ماء
ومن وصفه قوله في الرمان :

رُمانة مثلي هذا العائى الرِّيم
كانها حقة من عسجد مُلِيت
يُرهمى بلونٍ وشكلٍ غير مسوم
من اليواقيت نراً غير منظوم
ومن أقواله في الحكمة ، والشكوى ، وذكر الشيب والزهد :

فلا تُفكِدَنَّ العمرَ في طلبِ الصِّبَا
ولا تُتَذَبِّنْ أطلالَ مئةٍ باللَّوى
فإن قصارى المرء إدراك حاجة
ويقول :

فيا نفسِ عدى عن صباك فإنه
أفق إن في خمسين عاماً كُحجة
فبيع برأس بالمشيب مُعصم
على ذى الجحى إن لم يكن قلبه عيسى
ويقول :

تنبه أيها الرجل الثُوم
وقد أبدى ضياء الصبح عما
فلا تغررك يا مغرور دنيا
ولا تحبظ بمغوج غموض
فقد تجمت بعارضك الثُجوم
أجن ظلامه الليل الهميم
غرور لا يلوم لها نعيم
فقد وضع الطريق المستقيم

أمية بن أبي الصلت (ت ٥٢٩ هـ)^(١)

هو أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت :

قال عنه العماد في الحريرة^(٢) : « من أهل المغرب ، وسكن الإسكندرية » .

ويقول مؤرخوه إنه ولد ببلدانية سنة ٤٦٠ هـ — ١٠٦٨ م . وذكر ابن خلكان أن ذلك كان في فاتح المحرم أو في ذى الحجة من السنة السابقة .

وقد عاش يتيماً ، لأن والده توفى وهو صغير ، ويذكر المؤرخون أنه اصطحب أمه في رحلته الأولى إلى مصر ، ولم يذكر والده .

ولا تفصل الأنباء شيئاً عن مدة إقامته بالأندلس ، ولا عن بقاءه في بلده دانيه ، ويذكر المقرئ أنه عاش عشرين سنة في أشبيلية ، أى أنه لم يغادر الأندلس إلا بعد العشرين من عمره ، وربما كان ذلك في الخامسة والعشرين أو بعد ذلك .

وأثار أمية وعلمه يدلان على أنه حصل كثيراً من العلوم فضلاً على موهبته الأدبية التي مكنته من قول الشعر وإنشاء الرسائل ، وتأليف الكتب . ويذكر المؤرخون لحياته نبوغه في علوم الطب والفلسفة والتنجيم والتاريخ والموسيقى . قال عنه العماد : « كان أوحّد زمانه وأفضل أقرانه ، متبحراً في العلوم . وأفضل فضائله المنثور والمنظوم ، وكان قلوة في علم الأوائل ذا منطق في المنطق بلسان جليل » .

وكذلك قال عنه ياقوت : « كان أديباً فاضلاً ، حكيماً منجماً » .

وقال عنه ابن أبي أصيبعة : « قد بلغ في صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء ، وحمل من معرفة الأدب ما لم يكن يدركه كثير من سائر

(١) راجع ترجمته في معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٠ ، وفيات الأعيان . وحريرة القصر قسم شعراء الغرب ١ / ١٨٩ ، وعبود الأنبا لابن أبي أصيبعة ج ٣ ص ٨٦ ، ونفح الطيب للمقرئ ٢ / ٣٠٨ ، وحسن المحاضرة للسيوطي ١ / ٥٢٩ ، شذرات الذهب لابن العماد ٤ / ٨٢ .

الأدباء . وكان أَوحد في العلم الرياضى والإغنى ، كثير التصانيف ، بديع النظم * .

وقد استزاد من العلم الذى حصله في بلده بما حصله من العلم والأدب سنوات إقامته بمصر والقاهرة والإسكندرية . ويقول المقرئ أنه أفاد كثيراً من قراءة الكتب بالمكتبة التى سجن فيها بأمر الأفضل نحو ثلاث سنوات .

وَألم بعلم الموسيقى والتلحين والغناء ، وأجاد العزف على العود ، وكثيراً ما كتب أشعاراً ليحناها ويعتَبها . قال المقرئ : * وأمتنُ علومه الفلسفة والطب والتلحين ، وهو الذى لحن الأغالى الأفريقية . قال ابن سعيد : وإليه تنسب إلى الآن * (١) .

وجاء أُمية إلى مصر وقد بلغ من العمر نيفاً وعشرين عاماً ، وقضى بمصر عشرين سنة على حد قول ابن سعيد (٢) . وتضطرب أخباره في مصر وتختلط عند المؤرخين .

ولكننا نرجح أنه تردد بين مصر والمهدية ، وأنه في أول أمره جاء إلى مصر مباشرة من بلده كغيره من الأندلسيين والمغاربة ، وصحب معه في تلك المرة أمه ، وكان ذلك في حدود سنة ٤٨٥ هـ (٣) ، وأقام بالإسكندرية زمناً لا نعرفه ، وربما التقى هناك بصديقه الشاعر ظافر الحداد شاعر الإسكندرية في عصره . وربما انتقلا معاً إلى القسطنطينية حيث أقاما . فقد روى صاحب البدائنه أنه سكن في منزل بدار بالخطة المعروفة بدويرة خلف بمصر (القسطنطينية) وكان مكتوباً على جدرانها بعض الشعر مما تركه بها أُمية * (٤) .

ونفترض أن أُمية ظل بالإسكندرية ما تبقى من سنوات القرن الخامس وبيضع سنوات من أول القرن السادس ، وعاش أول وفوده ببيضع سنوات في خلافة المستعلى ، ثم بعد في خلافة الأمر إلى سنة ٥٠٦ هـ ، ثم غادر مصر إلى المهديّة في هذه السنة حيث حلّ بيلاط يحيى بن تميم بن المعز قبل وفاته سنة

(١) فتح الطيب ٢ / ٣٠٨ .

(٢) المغرب ٢ / ٢٥٦ ، تحقيق د . شوقي ضيف .

(٣) بدائع البداية ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

(٤) يحدد ابن خلكلا سنة ٤٨٩ هـ .

٥٠٩ هـ بثلاث سنين ، ونفترض أنه عاش بها حتى عاد مرة ثانية إلى مصر
يلقى الأفضل سنة ٥١٤ هـ ويمدحه .

وقد تكون رحلته الثانية إلى مصر بعد وفاة يحيى بن تميم سنة ٥١٠ هـ على
حد قول ابن أبي أصيبعة ووافقه قدرى حافظ طوقان .

ويقول المقرئ أنه جاء في المرة الثانية موفداً من صاحب المهديّة إلى خليفة
مصر ، ولعلّ صاحب المهديّة آنذاك كان على بن يحيى بن تميم ، وأراد بهذه
الوفادة أن يُصلح ما شاب العلاقة بين يحيى وخليفة مصر وحكامها من
شوائب .

ومعلوم أن أمية خرج في زيارته الأولى لمصر غاضباً ، غير راضٍ لما لقيه من
الأفضل الجمال من معاملة سيئة ، فقد أمر بسجنه في خزانة البند أو في خزانة
الكتب . وألف رسالته المصيرية . يعبر عن هذه الغضبة ، فلم المصريين ،
وقدمها ليحيى بن تميم صاحب المهديّة بتونس ولولا أنه آنس في نفسه ميلاً إلى
هذا الذمّ لما قدمها إليه على هذه الصورة .

على أية حال فإن المباءة عادت إلى مجاريها مرة أخرى بعد تغيّر أمير المهديّة ،
ولعله أراد أن يكسب ودّ الأمر ، ووزيره الخطير الأفضل . ويمكن أن يكون
مدح أمية للأفضل سنة ٥١٤ هـ بآيات يقول فيها :

نسخت غرائب مدحك التشييباً	وكفى به غزلاً لنا ونسيباً
لله شاهنشاه عزمتك التي	تركت لك الغرض البعيد قريبا
لا تستقرّ ظباك في أعمادها	حتى تروّحها دماً مصبوباً

وبقى في مصر هذه الزورة الثانية وكان قد فقد أمه ، واقتربت منه من
الخمسين وتجاوزتها ولا ندرى كم مكث بمصر والإسكندرية ، وإن كنا لا
نرجع سفره قبل عام ٤١٥ هـ الذي قتل فيه الأفضل وتولى البطاحي
الوزارة ، واضطربت الأمور ردحاً من الزمن بالقاهرة .

وهكذا غادر أمية مصر للمرة الثانية إلى القيروان فالمهديّة وظل هناك حتى
توفي سنة ٥٢٩ هـ بعد أن قضى أربع عشرة سنة أو أقل ملازماً للأمير على بن

يحيى ، وقد وقع منه موقعاً طيباً ، ولألقى منه معاملة حسنة ، وأعدق عليه
فرضى إلى جواره ومدحه بعدة قصائدبقى لنا منها بعضها فيمابقى من شعره .
وشعره لم يصلنا كله ، فديوانه لم يعثر عليه ، وكل ما بين أيدينا ما تفرق من
شعره في مصادر متعددة ، قام أحد الدارسين بجمعه^(١) .

ويهمنا بالدرجة الأولى وفوده إلى مصر ، وعلاقاته بها ، ومن اتصل بهم من
الرجال فقال فيهم شعراً ، ومن رافقهم من الشعراء والأدباء ، فكانت بينه
وبينهم مودة ، وتبادلوا وإياه الرسائل والأشعار .

ومن بين الرجال المشهورين الذين لقيهم ببلاط الأفضل تاج المعالي مختار ،
وهو من خواص الوزير المقرين ، كانت منزله عنده عالية ، ومكانته بالسعد
حالية على حد قول ياقوت في ترجمته . وكانت خدمة أمية له بصناعتي الطب
والنجوم . ويبدو أن هذه المهنة هي التي فتحت له أبواب قصر الأفضل أولاً ،
ثم تبعها المدح وربما كانت هذه المهنة أو المعرفة بالعلوم والكيمياء من أسباب
محنته كذلك كما كانت من أسباب سعده .

على أية حال فقد لقي قبولاً لدى تاج المعالي هذا فقدمه إلى الأفضل فكان
من جلسائه الأدباء وتعرف في مجلسه على جماعة من رجال مصر بمن فيهم الأمير
أبو الثريا .

وكان أبو الثريا هذا شاعراً ، وله مع أمية محاورات شعرية ، ومدحه .

ونتساءل عما إذا كانت معرفة أبي الصلت بأبي الثريا في آخر القرن الخامس
أم أوائل السادس عند عودته إلى مصر بعد غيبة ما يقرب من خمس سنوات ؟
لأن أبا الثريا يخاطب أبا الصلت بقوله :

أبا الصلت يا قطب المكارم والفضل	وأفضل من ينمى إلى كرم الأصل
ومن حاز أسباب الرئاسات والعلل	وبالجد وبالفعل الجميل والتبذل
وأصبح في كل العلوم مبرزاً	يسابق فيها كل مجر على رسل

(١) هو محمد المرزوق جمعه بعنوان « ديوان الحكيم أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني » نشر دار
الكتب الشرقية بباريس .

ولا يبلغ أمية هذا القدر من المعرفة والراثسة قبل الثلاثين . وقبل أن يبلغ الأربعين وتكتمل له أسباب الرئاسات والعلم بما حصل ، وما لقي من التكريم والتقدير .

والرجل الثالث من رجالات العصر الذين لقيهم بمصر هو الشاعر ابن مكنسة اسماعيل بن محمد المتوفى سنة ٥١٠ هـ ، ونرى أن علاقته به تمت في رحلته الأولى وقد ذكره في رسالته المصرية التي ألفها بعد وصوله إلى المهديّة بعد سنة ٥٠٥ هـ ، وأثنى عليه من بين من لقيهم بمصر حيثئذ .

وظلت علاقة الود قائمة بين الرجلين بعد الفراق ، وتبادلا رسائل الشعر وبعد عودة أمية إلى مصر لقيه صديقه اسماعيل بهذه الأبيات (١) :

وما طائر قصّ الزمان جناحه	وأعدمه وكرأ واقفده إلفا
تذكر فرحاً بين أفنان بانية	خوافي الخوافي ما يطون به ضغفا
إذا التحف الظلماء ناجي همومه	بترجيع نوح كاد من دقة يخفي
باشفق منى مُدْ أطاحت بك الثوى	هوائية مائية تسبق الطرفا
تولّت وفيها منك ما لو أقيسه	بما هي فيه كان في فضله أوفى

والصديق الآخر الإسكندري أيضاً والذي ربطت بينه وبين أمية روابط المحبة الشاعر ظافر الحدّاد . عقدت بينهما أواصر الصداقة منذ مجيء أمية إلى الإسكندرية وهو شاب لأول مرة مع أمه ، وظلت العلاقة بينهما وطيدة ، فانتقلا معاً إلى القسطنطينية ، وسكنا بها وجالسا الأفضل ومدحاه وتلازما في مجالسه حتى حدثت الجفوة بين الوزير وأمية فانفصل أمية إلى الإسكندرية ، ومنها غادر إلى القيروان فالمهديّة ، وبقي هناك ما بقي من السنين ، والملفت للنظر أن أمية على صداقته بظافر لم يذكره في الرسالة كما فعل مع صديقه الآخر ابن مكنسة .

وهذا الأمر يدعو إلى التساؤل ؟ . هل حدث شيء بين الصديقين قبل سفر أمية ، أو في أثناء أزمتته مع الوزير الأفضل وحبه ؟ . ربّما . لكن الشاعرين لم

(١) خريدة القصر ، القسم المرقى ٢ / ٢٠٢ .

يفصحا عن شيء ، بل إن ظافراً بعث بتصيدة إن صاحبه بالهدية يتشوق فيها إليه ، عدتها ثمان وعشرون بيتاً . يقول فيها :

ألا هل لدائ من فراقك إفرأق	هو السمُّ، لكن في لقاءك درباق
فيا شمس فضل غرّبت ولضوئها	على كل قطر بالشارق إشرأق
سقى العهد عهداً منك عمر عهده	بقلبي عهد لا يضيغ وميثاق
يمجده ذكر يطيب كما شدت	وريقاً كتبتها من الأيك أورااق
لك الحلق الجزل الرفيع طرازه	وأكثر أخلاق الخليفة أخلاق
لقد ضاء لتي يأبى الصلابة مذنانث	بهارك عن دارى هوم وأشواق
إذا عزى إطفائها بمدامعى	جريت ولها ما بين جسمي إحراق

يقول فيها :

أخى، سيدى، مولائ دعوة من صفأ	وليس له من رقى وتلك إعناق
لئن بعدت ما بيننا شقة الثوى	ومطر د طامى العوايب خفاق

وقد أشرنا فى حديثنا عن ظافر إلى هذه الصداقة وما تبادلها فيها من أشعار .

والأديب الشاعر الثالث الذى تعرف عليه ببلاط الفاضل هو الكاتب على بن منجب الصيرفى الذى كتب للأفضل ، وتولى ديوان الإنشاء فى عهد الأمر . وقد ربطت زمالة تحولت إلى صداقة بين أمية والصيرفى .

وقد كتب أمية للصيرفى من السجن قصائد يرجوه أن يشفع له عند الأفضل لإطلاقه فكان رد الصيرفى عليه :

لئن سترتك الجئتر عنا فرجما رأينا جلايب السحاب على الشمسى

ولم تكن حياة أمية فى مصر جادة كلها ، بل كان يستمتع بملاهى الحياة وملاذها ، تجول فى أنحاء مصر القريبة من الإسكندرية والقاهرة ، وزار كثيراً من المنازة المعروفة فى عصره وأشرنا إليها مراراً فى حديثنا السابق كبساتين بركة الحيش ، وساحل النيل والنيل ، والجزيرة والمقطم ، ومرصد المقطم ، ودير القصير ، ودير مارحنا ، ومتع نفسه بالشراب وسماع الغناء وغيرهما من متع الحس .

شعره

. ونبدأ حديثنا عن شعره الجاد ، وأوله المديح التقليدى .

قال مديح الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش الأفضل الجمال :

نسخت غرائب مدحك التشيبيا وكفى به غزلاً لنا ونسيا
وتحس وأنت تقرأ أبيات أمية في مديح الأفضل بآثار الصنعة والتكلف وأن
الرجل إنما ينطق من طرف اللسان . يقول :

لله شاهنشاه عزمتك التي تركت لك الغرض البعيد قرينا
لا تستقر ظباك في أعمادها حتي تُروّيها دماً مصبوتا
والحيل لا تنفك تُعتسف اللجى خبياً إلى الغارات أو تقرينا

ويُدع وصف صاحبه ومديحه ليصف الحيل في تسعة أو عشرة أبيات حتى
يقول :

تُردى بكل فتى إذا شهّد الوغى نثر الرّماح على الدروع كعوبا
وتأمل معى أى تكلف في نظم هذا البيت ؟.

ويمضى في هذا الكلام المصنوع يلفق فيه معانى السابقين ، ويُعيد صياغتها
بلفظ لا سلاسة فيه ولا موافقة لعصره ، ولا لمصره . وانظر معى إلى هذه
المعاني المستهجنة المستهلكة في لفظ مكرور غث الصياغة :

وبطئت في كلّ البلاد مهابة طفق الغزال بها يُؤاخي الدنيا
وهمت يدك بها سحاب رحمة يتهلّ كل بنايها شؤبونا
ونصرت دين الله حين رأيته مُتخضباً بيد الردى متكونا

وهكذا يمضى في نظمه هذا إلى آخر القصيدة فلا نعر بمعنى يسترعى الانتباه
أو يملك على القارئ وجدانه ، ويثير إعجابه . حتى يصل إلى ختمها ،
فيضمه استجداء صريحا إذ يقول :

وأنا الغريب مكائه وبيانه فاجعل صنيعك في الغريب غريبا

وتختلف النغمة في مديح الصنهاجين بالمهدية ، والتعريض بمن مدح المصريين
فيقول في مدح يحيى بن تميم الصنهاجى :

فلم أَسْتَسِجْ إِلَّا نَدَاهُ ، ولم يَكُنْ
فَمَا كُلُّ إِنْعَامٍ يَخْفُ احْتِمَالُهُ
وَلَكِنْ أَجَلَ الصَّنِيعِ مَا جَلَّ رُبُّهُ
وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَتْلُو عَوَازِلُ
وَأَعْلِمَ قَوْمًا خَالِفُونِي وَشَرُّوْا
لِيُعْدِلَ عِنْدِي ذَا الْجَنَابِ جَنَابُ
وَأِنْ هَطَلَتْ مِنْهُ عَلَيَّ سَحَابُ
وَلَمْ يَأْتِ بَابَ دُونِهِ وَحِجَابُ
عَلَى أَنْ رَأَيْتُ فِي هَذَاكَ صَوَابُ
وَعَزَبْتُ أَلَمِي قَدْ ظَفَرْتُ وَخَابُوا

ونقرأ هذه الأبيات من قصيدة يمدح بها علي بن يحيى الصنهاجي لنذكر فرق
ما بين صنعته في مدح الأفضل ، وصنعتة هنا . يقول :

تَأْتِي مِنْكَ لِلْخُرْصَانِ شَهْبُ
نَجْوَمٌ فِي الْعِجَاجِ لَهَا طُلُوعُ
وَقَدْ غَشَاكَ مِنْ سُودِ الْمَنَازِلِ
فَلَا بَرَقَ سِوَى بَيْضِ خِفَافِ
تَغَادِرُ كُلِّ سَابِقَةٍ دِلَاصِي
عَلَى لِمِ الدُّجَى مِنْهَا مَشِيْبُ
وَفِي ثَغْرِ الْكُمَاةِ لَهَا غُرُوبُ
سَحَابُ وَذَقْنُهُ لَهُ صَيْبُ
تُقَطُّ بِهَا الْجَمَاجِمُ وَالثَّرِيبُ
كَأَنَّ شَقَّتْ مِنَ الطَّرْبِ الْجَيُوبُ

صحيح أن هذا الشعر في مرحلة متأخرة عن شعره الذي قاله في الأفضل
وقد يكون لنضج الشاعرية أثر في الاتقان إلا أن الروح الشعرية ، وصدق
الاحساس واضحان هنا ، مفقودان هناك ، وذلك — كما قلنا — لأنه يتحدث هنا
من قلبه ، وحديثه هناك إنما كان من طرف اللسان .

ونسوق من مديحه هذه الأبيات في الحسن بن علي بن يحيى الصنهاجي :

لَمْ يَذْهَبْ الشَّوْقُ إِلَّا لِقَادِنِي طَرِبًا
وَذُو الْعِلَاقَةِ مِنْ لَيْعِ الْغَرَامِ يَهْ
كَانَتْ لِي لِيْلًا وَقَفَّةً بِالشَّعْبِ وَاحِدَةً
وَلَا لَمْ لِي لَمْ أَجْزُلُ مَلَائِكَةً
قَالَ : اسْأَلْ فَالْحُبُّ قَدْ عَنَّاكَ . قُلْتُ : أَجْزُلُ حَتَّى أُرَاجِعَ مَنْ لِي الَّذِي عَزَبَا
طَرَفِي الَّذِي جَلَبَ الْبَلَوَى إِلَى بَدَنِي
هُوَ الْهَوَى ، وَهَوَانِي فِيهِ مُحْتَمَلُ
أَمَّا تَرَى ابْنَ عَلِيٍّ حِينَ تَبَيَّنَ
أَغْرُ مَا بَرَحْتَ تَتَنَّى عِزَائِمُهُ
قَدْ أَصْبَحَ الْمَلِكُ مِنْهُ فِي يَدَيَّ مَلِكُ
وَلَمْ يَذْغْ لِي فِي غَيْرِ الْمَسَا أَرْبَا
وَكَلِمَا لَيْمٌ أَوْ سِيمِ التَّزْوِجِ أَلَمِي
عَنْهَا تَفَرَّغَ هَذَا الْحُبُّ وَانْشَعَبَا
وَلَا سَمِعْتَ لَهُ مِنِّْي بِمَا طَلَبَا
فَلَمَنُ دَوْنِي فِي الْخَطْبِ الَّذِي جَلَبَا
وَرُبُّ مَرَّ عَذَابِي فِي الْهَوَى عَذَبَا
حُبُّ الْعَلَا كَيْفَ لَا يَشْكُو لَهُ وَصَبَا
سَيْفُ الْهَدَى بِنَجِيعِ الشَّرْكَ مُحْتَضَبَا
مُرَّ الْحَقِيقَةِ يَرْضَى اللَّهُ أَنْ غَضَبَا

وهذا المديح متوسط الجودة ، بل عادي ، وقد يكون النسب فيه أكثر قبولاً
ورُبَّما أدخل على الأبيات طرافة ما عرض فيها من وصف قصر الملوح
وبساتينه حيث يقول :

إذا سقى الله أرضاً صوب غادية فليست قصرك صوب الراح ماشرباً
قصر تقاصرت الدنيا بأجمعها عنه ، وضاق من الأقطار ما رَحَباً
يقول فيها :

وحبذا قضب النارنج مثمرة بين الزبرجد من أوراقها ذهباً
وحبذا الورق فوق القضب ساجدة والماء في خلل الأشجار مُسَرَّباً
سَلَّتْ سواقيه منه صارماً عجباً لا يأتلي الجذب منه سمنا هرباً
حسام ماء إذا كُف الصبا انبعث ليصفقه تركت في مته شطباً
صفوا ورق فكاد الجو يشبهه لو أن جراً جرى في الأرض وانسكباً
عقار دن فهلى ترعى شرراً فوق البنان وهذا يرتقى حَباً
حتى لقد جهلت للبعد عاصرها والنسيث لتراخي عهداً العنا

ومزج وصف البستان مع وصف القصر ، وأدخل في آخر الأبيات وصف
الحجر . والمعاني دارجة ، ويُسَمَّج في التقليد إذ يصف جدول الماء بالسيف ،
وهو وصف مررنا به في كثير من الشعر القديم ، وتواردت عليه الشعراء ، وما
ندرى ما الملفت والمعجب بين بياض السيف وامتداده و جدول الماء ، ولا
علاقة بينهما إلا الشكل أما ما وراء الشكل من إيحاء فهما متناقضان ، فالسيف
يوحى بالموت والهِلاك والفرع والرهبة ، والجدول باعث الحياة ، والجمال
والحب ، والأنس .

لقد أحب أمية الطبيعة ، وأحب الحديث عنها في شعره ، كما عشق الخمر
وتغنى بالآلئها ، وفي أعماقه رغبة الحياة والجمال والموسيقى والنهوض
والاستمتاع ، وله أناشيد في الطبيعة المصرية كغيره ممن وفد من الأندلسيين
والغاربة .

وسبق أن ذكرنا أبياته في بركة الحبش (١) :

(١) ديوانه المجموع ص ٦١ .

وبأكر الرّاح بالطّامات والشّحب
فرشاً من التّور حاكته يد السّحب
قد أبرز القطر فيها كلّ محتجب
وأقحوان شبيه الظلم والشّيب
من نرجس ظل يحكي لخط مرثقب
والرّاح من ورق يطفو على ذنب^(١)
بجراح من حشا الإبريق ملتهب
موف على غصن يهتز في ككب
كصعدة الرّيح في مسودة العذب
على التّصايي دواعي اللّهي والطرب

عَلَّ قَوَائِدُ بِالذِّاتِ وَالطُّوبِ
أَمَّا تُرَى الرِّكَّةُ الْعَتَاءُ قَدْ لَبَسَتْ
وَأَصْبَحَتْ مَنْ جَدِيدِ النَّيِّبِ فِي حُلِّ
مَنْ مَوْسِمِ شَرْقٍ بِالطَّلِّ عَجْرُهُ
وَانْظُرْ إِلَى الْوَرْدِ يَحْكِي خَدَّ مُحْتَشِمِ
وَالنَّيْلُ مِنْ ذَهَبٍ يَطْفُو عَلَى وَرْقِ
وَرَبِّ يَوْمٍ نَقَعْنَا فِيهِ غَلَّتْنَا
شَمْسٌ مِنَ الرّاحِ حَيَانًا بِهَا قَمَرٌ
أُرْغَى ذَوَائِبُهُ وَاهْتَزَّ مَنْعُطَانَا
فَاظْرُبْ، وَكُونِهَا فَاشْرَبْ فَقَدْ نَفِثَ

وقال في الرصد (المرصد بالمقطع) الذى بظاهر القاهرة :

من كلّ شيء حلاّ في جانب الوايى
والضّب، والثون، والملاح والحادى

يا لزهة الرصد التى قد اشتملت
فذا غدير، وذا روض، وذا جبل

وقال في دير مَرْحَتًا بمصر :

لو شريت بالنفس لم يبخس
أَكَابَهُمْ عَنْ شَرَفِ الْأَنْفُسِ
بَكَاهُ الرَّاهِبُ فِي الرَّئِيسِ
ثُمَّ نَبِيَّ عَنْ الْمَصْبَاحِ فِي الْجَدِيسِ
أَذَكَى مِنَ الرِّيحَانِ فِي الْمَجْلِسِ

يا دَيْرَ مَرْحَتًا لَنَا لَيْلَةٌ
نَحْنًا بِهِ فِي لَيْلَةٍ أَعْرَبَتْ
وَاللَّيْلُ فِي شَمْلَةٍ ظِلْمَائِهِ
نَشْرِبُهَا صَهْبَاءَ مَشْمُوكَةٍ
وَهِيَ إِذَا نَفَسَ عَنْ أَذْنِهَا

ولأمية غير الوصف المعروف لمظاهر الطبيعة وصف للحيوان والطير فيصف
لنا كلب الصيد على طريقة حُرُودِيَّاتِ أُنَى نَواصٍ وغيره من أجاد فيه ، يقول^(١) :

على وزن الرجز :

خَيْرٌ مَعْدٌ مُتَّخِذٌ لِيَوْمٍ عَيْشٍ مُسْتَلَذٌ
مُنْفَرِدٌ بِالْحُسْنِ قَدْ سَوِّقَهُ بِالْجُرْدِ فَبَدٌ
سَبَقَ التَّصَوُّلِ لِلْقَلْبِ فَمَا انْتَرَى إِلَّا مُعَدٌ
وَلَا رَأَى حَتَّى اتَّخَذَ

(١) الورق : القصة .

وقال يصف الطاروس :

أهلاً به لئلا يدا في مَشِيهِ يَحْتَالُ في حُلُلٍ من الحِيلَاءِ
كالرُوضة الغنَاءِ أَشْرَفَ فَوْقَهُ ذَنْبٌ لَهُ كَالنُّوحَةِ الغَنَاءِ
نادِيَتْهُ لَوْ كَانَ يَفْهَمُ مَنَطِقِي أَوْ يَسْتَطِيعُ إِجَابَةً لِنَدَائِي
بِأَزْفَاعٍ قَوْسَ السَّمَاءِ وَلَا يَسَا لِلْحُسْنِ رَوْضُ الحَزْنِ غِبَّ سَمَاءِ
أَيَقْنُثُ أَنْكَ في الطَّيُورِ مُمْلِكٌ لَمَّا رَأَيْتُكَ مِنْهُ نَحْتٌ لَوَاءِ

ووصف كثيراً من مظاهر الحضارة الزاهرة في القاهرة والقيروان . فيقول
مُصَوِّراً مجلس يحيى بن تميم الصنهاجى صاحب القيروان والمهدية ، وما فيه
من فخامة وجمال :

لَهُ مَجْلِسُكَ المنيف قُبَاهِ بِمَوْطِدٍ فوق السَّمَاءِ مُؤَسَّسِ
مُوفٍ عَلَى حُبْلِكَ المَجْرَةِ ثَلَتَقِي فِيهِ الجَوَارِي بالجَوَارِي الحُسْنِ
تَتَقَابَلُ الأنوَارُ في جنبَاتِهِ فَاللَّيْلُ فِيهِ كَالنَّهَارِ المَشْمِسِ
عُطِفَتْ حَتَايَاهُ دُونَيْنِ سَمَائِهِ عَطَفَ الأَهْلَةُ والحَوَاجِبُ والقِسِي
وَاسْتَشْرَفَتْ عُمُدُ الرُّخَامِ وَظُهِرَتْ بِأَجَلٍ مِنْ زَهْرِ الرَّيِّعِ وَأَنْفَسِ
فَهَوَاهُ مِنْ كُلِّ قَدْ أَغْيَدَ وَقَرَارُهُ مِنْ كُلِّ خَدِّ أَمْلَسِ
فَلَكْ تَحْيِيرٌ فِيهِ كُلُّ مُنْتَجِمٍ وَأَقْرَ بالتَقْصِيرِ كُلُّ مُهَنْتِمِ
فَبَدَا لِلْحَيِظِ العَيْنِ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ وَغَدَا لَطِيبِ العَيْشِ بَحِيرَ مَعْرَسِ

وهكذا فإن شعره يعكس صورا من حضارة الإسلام الزاهرة في عصره ،
ويرسم صورا من صور الترف الذى عاشه الحكام وسراة القوم ، وتلاحظ
عامَّة أن الشعراء حين يصفون مظاهر النعيم والترف التى عاشها الأغنياء
والقادرون ، فإنما يستدعون صور الجنة فى أوصافهم لأن أولئك المملكون
حاولوا أن يحققوا فى حياتهم ، ما وفر فى خلدتهم من صور نعيم النعيم فى الآخرة
بما فيها من سُحُورٍ عَيْنٍ ، وبساتين ونخل وورمان ، وكؤوس شراب يطوف بها
وليدان ، وهم متكئون على فرش من حرير ، ويلبسون أساور الذهب والفضة .

وتمر فى شعره على كلام فيما لقيه فى حياته من سفر وركوب للبحر ، وما
عاشه من تجارب الحياة والناس بما فيها من فرح وتُرح ، وفؤاء وجحود .
ولفظه من ثروة معلوماته وعلمه ، وفيها من مصطلح علوم الطب والفلك
وغيرها من العلوم التى برع فيها .

ابن أبى البشائر

أبو الحسن على بن عبد الرحمن الكاتب الصقلي الشاعر :

عاصِرَ أُمِيَّةٍ بن أبى الصلت ، وأورد له شعراً بالرسالة المصرية^(١) ، واصفاً
إياه بالبلاغة . قال أُمِيَّة : وقد تعاوَرَ الشعراء وصف وقوع الشعاع على
صفحات الماء . ومن مליح ما قيل قول بعض أهل العصر وهو أبو الحسن على
بن أبى البشائر الكاتب :

شربنا مع غروبِ الشمسِ شمساً مشمِعةً إلى وقتِ الطلوعِ
وضوءُ الشمسِ فوقَ التَّيْلِ بَادٍ كأطرافِ الأُسنةِ في الدُّرُوعِ
وذكر العماد^(٢) أنه قرأ في مجموع شعره نظماً جيداً يفوق ياقوتاً ودُرّاً .
مشملاً على المغاني العُزَّ ، فمن ذلك قوله في راقصة :

هيفاءُ إن رقصتْ في مجلسِ رقصتْ قلوبُ من حوَّلها من جذِّقها طرباً
خفيفةُ الوطءِ لو جالَتْ بِحُطُوبِها في جفنِ ذى رمدٍ لم يشتكِ الوصبا
وشعره ك شعر الكتاب من حيث الخفة وسلاسة تدفق اللفظ ، ورقيق المعنى
ومما اختاره له مقطوعات وأبيات تدور في موضوع الغزل ، والوصف
وشكوى الشيب .

ولكن معظم ما جاء به في الغزل والشوق وذكر الفراق ، ورسائل المحبوب
من مثل قوله :

لنا في كلِّ مُقترحٍ وَصْوَپٍ مُفاجأةٌ بِأَسْرارِ القُلُوبِ
فنفَّهْمُ بالتشاكي ما نُلَاقِي بلا واشٍ تخافُ ولا رَقِيبِ
وقوله :

وساقِ كمثلِ الغزالِ الرِّيبِ بصيرِ اللَّحَاطِ بِصيرِ القلوبِ
جَسَرَتْ عليه فقبَّلَتْه مجاهرةً في جفونِ الرِّقِيبِ

(١) راجع الرسالة المصرية .

(٢) خزينة القصر .

فلما توسد كُف الكرى
تعتجك ذنباً بفتكى به

وفى شكوى البعاد :

أترانى أختى إلى أن يعودا
كيف أرجو الحياة بعد حبيب
كنت أشكو الصدوة فى القر
أشتهى أن أبوح بأسمك لكن

وقال :

إلى الله أشكو دخیل الكمذ
ومن كنت فى القرب اشتقه

وقال :

إليك أشكو عیوناً أنت قلت لها
وما تركت علواً لى علمت به
فإن رضيت بأن ألقى الحمام فیا

وأهناه لى سكره من قريب
ولكنه من ملیح الذنوب !؟

نازح لم يدغ لعینى هجودا
كان يومى به من الدهر عیدا
بوالآن قد استغرق البعاد الصلوكا
لقتنى الرشاة فىك الجمودا

فليس على البعد عندى جلد
فكيف أكون إذا ما بعد

فیضی فقد فضختى بن جلاسى
إلا وقد رقى لى من قلبك القاسى
أهلاً بلك على العینین والرأس
ونلاحظ هذا الكلام الذى یجرى على ألسنة الناس بلا تكلف ولا تقعر .

وقال :

تولوا وأسرأب الدموع تفيض
ولما استقلوا أسلم الوجذ مهجنى
توقد نيران الجوى بن أضلجی
ولم تبق لى إلا جفون قریحة
فجئ الحزون جفا التوم جفته

ويقول فى الطیف :

ألم یأن للطیف أن یعطفا
جفا بعد ما كان لى واصلاً
أما تعطفون على خاضع
إذا كتبته يده أحرفاً

وأن یطرق الهالم المذتما
وغلف عینى ما تخلفا
لذلك یناجیک مستعطفا
إليك محاً دمه أحرفاً

ولو كُنْتُ أملكُ غربَ الدَّموعِ
غراماً بإشعالِ نارِ الغرامِ

وقال :

قد أنصفَ السُّقْمُ من غَيْبِكَ وانتصفاً
ياساهِرَ الطرفِ قد أغريتَني كلفاً
أظنُّ خُذْلِكَ من جاري ذِمِّي احتضباً
وقال مُلغزاً في اسمِ حبيبهِ (١) :

إثمُ الذي صيرني مُذنباً
يلعبُ إن رُحِمَ معكوسُهُ
ألم تر كيف غدا ثلثه
قد غلبَ القلبُ على صبرِهِ
ويقول في رسائلِ الحب :

كيف لم يشتغلَ بنارِ اشتياقِ
كانَ حُلُوَ المذاقِ عيشي للقر
فوصيري لأخذنَ بشأري

نَنَعْتُ جُفُونِي أَنْ تَذُرَفا
وما عُلُرُ صَبٍّ بَكَى واشتفى

فها هما يحكيان العاشقَ الذنِفا
بِرُحًا، وصيرتني أمتحسناً الكلفاً
لقد تناهيتَ في قَتْلِي، وقد ظُرفاً

لما انتضى من جَفْنِهِ مَرْهَقاً
لأنه قد نَسَقَ الأخرُفاً
جلدراً لثليهِ إذا ألفاً
وهكنا يخرج إن صُحفاً

قَلَمَ لي أَلِهِي ما أَلَفِي
ب ، فأضحى للبعدِ مَرُّ المذاقِ
من ليالي الفراقِ يومَ التلاقي

ومن رسائله الشعرية ما ردَّ به على رسالة حيث يقول (٢) :

عندي وأحسنَ قادم ألقاهُ
شَنَلُ المعاني للذي أهداهُ
كتبتهُ أو صرَّت عليه يداهُ
جدلاًنَ مُتَهجاً بما أداهُ
أعلاه ، ما أحلاه ، ما أجلاه
عُدِمَتْ له الأشكالُ ، والأشباهُ
أزهارُهُ ، وتضوَّعت رِياهُ
فقابلتِ أولاهُ مع أخراهُ
منظومةً كُبراهُ مع صُغراهُ

وَصَلَّى الكتابُ وكانَ آنَسَ واصلُ
لأَنِّي أَنفَسُ منه مُهْدَى جامعاً
فَفَضَضْتُهُ وجعلتُ أَلْثَمَ كُلِّ ما
وفهِتُ مودَعَهُ ، فرحْتُ بِغَيْطَةٍ
وعَجِبْتُ من لَفْظٍ تَناسَقَ فيه ما
ولقد غُطِطَ عليه عِلْقُ مَضِيَّةٍ
كالرَّوضِ بِأكْرِهِ الحَيَا ، فَفَتَحَتْ
كالْبَيْدِ فَصْلَ لَوْلُؤٍ وزبرجدا
دُرٌّ تَرَفَّعَ قَدْرُهُ عن قِيَمَةٍ

(١) واسم الحبيب ذكر وهو ه علي ه .

(٢) الحريدة ١ / ١٥ قسم شعراء المغرب ، بتحقيق عمر البعوق وعلي عبد العظيم .

وفيما اختاره العماد شعرٌ يتلاعبُ فيه بأوزانه ، فيخرج عن تقليد الشعراء .
من ذلك ما يقرأ على خمسة أوزان . وهو قوله :

وَعَزَالِ مُشْتَبِفٌ قد رثا لي بعد بُعْدِي
لما رأى ما لقيتُ
مثل روضٍ مَفُوفٍ لا أبالي وهو عندي
في حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ
وَجْهَهُ الْبَدْرُ طَالِعاً تاهَ لَمَّا حَاوَى وَدَى
فإنني قد شقيتُ
في قضيبٍ مُهْفَفٍ لَدَّ فِيهِ طُولٌ وَجِدِي
جفا فكلتُ أُمُوثَ
مانعٍ غير مُعْسِفٍ ليس بأبَى نَقْضِ عَهْدِي
وليسَ إِلَّا السَّكُوثُ
جائِزٌ غير مُتَصِفٍ حَالٌ عَمَّا كَانَ يَدَى
إن الوصالَ بُخُوثُ

وفيه هنا التغير في الأوزان شبيه بنظم الموشح .

ويمكن قراءته على صورة أخرى ليصبح على وزن « بحر الحفيف » .

وَعَزَالِ مُشْتَبِفٌ قد رَثَى لِي بعد بُعْدِي لما رَأَى مَا لَقِيتُ
مِثْلَ رَوْضٍ مَفُوفٍ لَا أَبَالِي وَهُوَ عِنْدِي فِي حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ
وَجْهَهُ الْبَدْرُ طَالِعاً تَاهَ لَمَّا حَاوَى وَدَى ، فَإِنِّي قَدْ شَقِيتُ
.....: لُغ

ويمكن قراءته على وزن مجزوء الحفيف هكذا :

وَعَزَالِ مُشْتَبِفٌ مِثْلَ رَوْضٍ مَفُوفٍ
وَجْهَهُ الْبَدْرُ طَالِعاً فِي قَضِيبٍ مُهْفَفٍ
مَانِعٌ غَيْرُ مُسْعِفٍ جَائِزٌ غَيْرُ مُتَصِفٍ

وقراءته على بحر المجتث هكذا :

لَمَّا رَأَى مَا لَقِيتُ فِي حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ

فإنّني قد شقيتُ جفاً فكجذتُ أموتُ
وليس إلاّ السُكوتُ إنّ الوصالَ بخوتُ

والوزن الرابع مجزوء الرمل هكذا :

قد رثى لى بعد بُعدي لا أهالي وهو عِندي
تاه لَمّا حازَ ودَى لَدُ فيه طُولَ وَجْدي
ليس يأتى نقضَ عَهْدي مَالِ عَمّا كانَ يَبيدي

وأما الخامس فهو منهوك الرَّمْل — ولم يستعمله العرب . واستعمله
المحدثون . يقول :

قد رثى لى بعد بُعدي
لا أهالي وهو عِندي
تاه لَمّا حازَ ودَى
لَدُ فيه طُولَ وَجْدي
ليس يأتى نقضَ عَهْدي
مالِ عَمّا كانَ يَبيدي

وهكذا يمكن أن يكون رائداً لهذا اللون من النظم الذى عرف عند بعضهم
بالقصيدة ذات الأوزان . وكل هذه محاولات للخروج على الإيقاع التقليدى
إلى إيقاعات أخرى متنوعة تناسب تنوع الحياة الحضرية ، وما تسمعه الأذن من
تعدد الألحان .

وربما كان ذلك أثراً من آثار انتشار الموسيقى والغناء وتعدد مصادرهما من
المشرق والمغرب ، مما جعل الأذن العربية تتعاذ هذا التنوع ، وتملّ رتابة إيقاع
البحور المعروفة فى الشعر العربى .

ولم يكن الأندلسيون ولا المغاربة أول من حاول تلك المحاولات فى الشعر
العربى بل سبقهم شعراء عباسيون فى القرن الثالث ومحاولات أبى نواس وأبى
العتاهية واردة فى كثير من كتب الأدب ... كما أشار مؤرخو الأدب إلى
محاولات شعراء آخرين فى هذا السبيل .

ومن مجزوءاته المطربة المرقصة قوله :

يا ذا الذى كلَّ يوم زِيدْ عَقْلِي خَيْالاً
دَلَّهْتَنِي بِكَ حَتَّى رَأَيْتُ رَشْدِي ضَلَالاً
أَدْعُو عَلَيْكَ وَقَلْبِي يَقُولُ: يَا رَبِّ لَا، لَا

وهو فى شعره خفيف الظلُّ ، أما ترى كيف نعتَ مغنياً لم يُعجبه فقال :

ولنا مُغَنٍّ لَا يَزَا لَ يَنْيِظُنَا مَا يَفْعَلُ
صَلَفٌ وَتِيَّةٌ زَائِدٌ وَتَبْظَرُمُ وَتَمَحُلُ
عَنِّي ثَقِيلاً أَوْلاً وَهُوَ الثَّقِيلُ الْأَوَّلُ

وكنّا نأمل أن نخصى مع شاعرنا لو أسعفنا الحظ بديوانه أو عثرنا على قدر
أوفرٍ من شعره .

شعراء وافدون آخرون

لقد توافد على مصر من صقلية والمغرب والأندلس جماعة من الشعراء في هذه المرحلة من منتصف القرن الخامس وحتى منتصف القرن السادس بلغ عددهم كثرة ما يفوق الحصر ، فقد ذكر الحافظ السلفي جماعة منهم في معجمه ، كما ذكر العماد جماعة نقلًا عن ابن الزبير والقاضي الفاضل وأمية ابن أبي الصلت كما ذكر ابن سعيد المغربي جماعة في المغرب .

ولا يسعنا الحديث عن هؤلاء جميعاً ، فقد يتعذر ذلك لقلة حديث المؤرخين عن حياتهم ، وشجعهم كذلك فيما يذكرون من أشعارهم .

ومن ذكرهم العماد^(١) : محمود بن عبد الجبار الأندلسي الطرسوسي ، وأبا الحسن عبد الوود بن عبد القدوس القرطبي — قال : أورده ابن الزبير كتابه من الطائرين على مصر . قال ابن الزبير :

« كان انتجع مصر معتقداً أنه يُحمَدُ بها المرادُ ، ويُتأل المراد ، فاتفق لنكد الزمان ، وخطط الحرمان أن ورد بعض نفوس مصر ، وبها رجل يُعرف بإسماعيل بن حميد النبوذ بابن قلدوس ، وكان ممن بهم بالجمع والادخار ، ويدين بعبادة الترهيم والدبنار ، لا تندى حصائمه ، ولا يظفر بغير الحنية عُفائه ، ولا يرشحُ به كُفٌ ، ولا يُعرف له عرف ، إلا أن له رِواءً وجِدةً ، وبنين وحفدةً ، يُطعمُ الغُرَّ في نواله ، ومنأل النجم دون مناله ؛ فقصدته عبدُ الوود بدائع أرقِ منلكها ، وأجاد منلكها ، وتأنق في وشها وحبكها ، وظن أن سَهْمَه قد أصاب الغرض وقرطس ، وأنه يفوز بأكثر ما القس ، فكان بارقه نخلها لا يجود بقطرة ، وشرابه سراباً بفقرة . ولما تحقق إكداء كئده ، وصولد قذجه في مدحه . قال :

شقي رجالٌ ويشقى آخرون بهم	ويسعدُ الله أقواماً بأقوام
وليس رزقُ الفتى من حسنِ حيلته	لكن جُلودٌ بأرزاقٍ وأقسام
كالصبيدِ بجرمه الرايى المجيدُ وقد	يرمى فيرزقه من ليس بالرايى

(١) الخربة قسم شعراء المغرب ١/ ٣٣١ طبع الدار التونسية سنة ١٩٦٦ م .

وقال في هجو ابن قادوس :

نسلٌ فلديّام بشرٌ وتعييسُ
صديئتٌ على قربٍ وتخلقك عسجدٌ

ومنها :

ترحل إذا ما دنت العز ملبس
وما ضاقت الدنيا على ذى عزيمة
وكم من أخى عزم جفته سعوده
ثقل السيوف البيض وهى صوارم
ولولا أناس زلنا بسعادة
ولكن فى الأفلاك مير حكومة
أفاضت سعوداً بالحجارة كونها
وصار فلاناً كل من كان لم يكن
فحقق ولا يفرؤك قول مدلس
أفيقوا بنى الزيام من سينة الكرى
هى القسمة السيزى يحول جاهل
فإرضاء ذى جهل، واستخاط ذى جحى
تخذ البلم وتطاراً بفلس سعادة
ومد لقلب القرد القصير موقفا
وقالوا: سديد الدولة السيد الرضى
وأعجب من ذا أن يلقب قاضياً
وأكرم ما نص الحديث فكاذب
وأعرف منه بالفراضي راهب
وما الشين إلا أن تحكم نجة
ومالى فوق الأرض مفرز ليرة
مصائب من يسكت لها مات حسرة

وأيقن، فلا التعمى تلوم ولا اليوس
وملت إلى لغو ولغظك تقدس

وغيرك من يرضى به وهو ملبوس
ولا غرقت ظلك، ولا نفقت عيس
يموت احتراقاً وهو فى الماء مغموس
ويرجع صلت الرمح، والرمح دغيس^(١)
لما ضر ترييح، ولا مثر تسديس
تخمر بطليموس فيها وإفريس
يطاف سبوعاً حولها العلب والشوس
ودان له بالرق قوم متاجيس
فأكثر ما يدعو إليه نوايس
وسير وابسير الدهر، فالدهر معكوس
وذو العلم فى انشوطه الدهر محسوس
يعاج نياسير، وأسد مفايس
عسى العلم يقنى فيمتلئ الكيس
هذى الدهر واستولت عليه الوسوس
فأكثر حجاب، وشدد ناموس
وأكثر ما يجرى من الحكم ثليس
وأطهر ما صلى الصلاة فمنجوس
وأفقه منه فى الحكومة قيس
ومرغام أسد الغاب فى الليل مفروس
وتحمل دمياط إليه بوثيس
ومن ثقلها بئاً بمث وهو منحوس

(١) دغيس: طعان .

(٢) يقصد بذلك مهجوه ابن قادوس .

وفي جور هذا الدهر ما بأقله
ويتأغ مسكاً بالخرأ مدلس
وقالوا: ابن قاتوس قدس كاسمه
أيا من غدا ضدا لكل فضيلة
ومنهم :

وقد قلنا هجوا، وألفك راغم
أبا الفضل إن أصبحت قاضي أمة
فإن قريضي بين أذنيك ذرة
تجمع في الخير والشر جملة
قال العماد : أطاعه في هذه القصيدة الطبع الجاف ، وجاد بالكدر خايطه
الصابي . وأبان فيها عن رقة دينه وتهلهله ، وعدم عبوس يوميه بشر الفضل في
تهلهله .
ومنهم :

القاضي الرشيد أحمد بن قاسم الصقلي :

قال ابن اليماد^(١) : من الطارئين على مصر القاضي الرشيد ، وكان قاضي
قضايتها في أيام الأفضل ، فدخل يوماً إلى الأفضل وبين يديه دواة من عاج
محلقة بمرجان فقال :

أين للوؤد الحديد بقرية
ولأن لك المرجان وهو حجارة
وقد كان الأفضل قد أجرى الماء إلى قراقة مصر ، فكتب إليه يرجو إجراء الماء
إلى دار له بها :

أيا مؤكى الأنام بلا احتشام
لنبيدك بالقرافة دار نزل
لموجود يعيش بها لوقت
وفي أرجائها شجر ظمأ
وسيدهم على رغم الحسود
لموجود الحياة أو الفقيد
ومفقود يوازي في الصعيد
غلمن الحسن من ورق ونود

فَمَذْ غَدَتْ المَصَانِعُ مَمْتَعَاتِ
يَتَلَنُّ إِذَا سَمِعْنَ شَجَى السَّوَاتِقِ
أَرَى مَاءً وَى غَطْشٍ شَدِيدِ
وله في الغزل :

إِنْ لَمْ أَزُرْكِ وَلَمْ أَقْعُ بِرُؤْيَاكِ
يَا ظَلِيَّةَ ظِلَّتْ مِنْ أَثَرِهَا عِلْقًا
رَعِيَتْ قَلْبِي وَمَا رَاعَيْتِ حَرَمَتِ
أَتَحْرِقِينَ فَوَادًا قَدْ خَلَّتْ بِهِ
مَا نَفَحَهُ الرِّيحُ مِنْ أَرْضِهَا شَجْنِي
فَلْفُؤَادٍ طَوَافٌ حَوْلَ مَعْنَاكِ
يَوْمَ الْوَدَاعِ وَلَمْ تَعْلُقْ بِأَشْرَاكِ
يَا هَذِهِ كَيْفَ مَا رَاعَيْتِ مَرْعَاكِ
بِنَارِ حُبِّكِ عَمْدًا وَهُوَ مَاوَاكِ
هَلْ لِلْمَحَبِّ حَيَاةٌ غَيْرَ ذِكْرَاكِ

وواضح مُمَابَّتُهُ لِلرَّضَى فِي قَصِيدَتِهِ « يَا ظَلِيَّةَ الْبَانِ » .

وممنهم :

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَكَرِيَّا الْقَلَمِيُّ الْأَصَمُ (١) :

وهو ممن ذكرهم ابن الزبير فقال : كان جيد الشعر ، وأرى زناد الفكر
لكنه منحوس الجَد . ورد إلى الإسكندرية ومصر ، وأقام بها زماناً لا يحُدُّ من
يروى ظمأنه ، ولا يمسُدُّ حاجته ، وعاد إلى المغرب في غير أوان سفر المركب ،
فسار راجلاً نعله مطيته ، وزاده كذيتُهُ إلى أَنْ وَصَلَ إِلَى قَوْمٍ بِمَرْفُونِ بِنِي
الْأَشْقَرِ فِي طَرَابِلِسِ الْغَرْبِ ، فامتدحهم بالقصيدة الميمية التي أولها :

« تَرَى فَاضَ شَوْبُوبَ مِنَ الْغَيْمِ سَاجِمِ »

فأحسنوا صِلَاتَهُ ، وَعَظَّمُوا جَائِزَتَهُ . وَلَمْ أَدْرِ مَا فُعِلَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

فمن قصيدته الميمية تلك :

تَرَى فَاضَ شَوْبُوبَ مِنَ الْغَيْمِ سَاجِمِ
وَمَاذَا التَّنْدَى وَالْوَقْتُ بِالصَّيْفِ حَائِمِ
فَمَا هَذِهِ مُزْنٌ ، وَمَا ذِي بَوَارِقِ
بَنُو الْأَشْقَرِ اسْتَعْلَوْا بِحَقِّ عَلَى الْوَرَى

(١) الخريدة ١ / ٢٣٧ قسم شعراء المغرب .

وهكذا يبنى في مدحيه التقليدي^(١).

ويدور أنه قصد الأفضل بن بدر الجمال ، لكنه لم يحظ عنده بما أراد ،
فغادره وغادر البلاد ناعياً حظه ، وقلة سعه . ويورد له العماديين في الأفضل
يقول فيهما :

مَلِكٌ أَنْتَ أَمْ مَلِكٌ حَارَ صَرْفٌ تَأْمَلُكَ
أَنْتَ إِنْ أَسْعَدَ الزُّرَى فَلَكِ مَسْعَدٌ فَلَكِ

ومن غزله قوله :

لما استرقتك من عيونك بأبلى
بوجهك ماء الحسن في صفحاته
خلوني على التجريب عبداً فإن أكن
فما طويئت إلا عليكم جوانح
وله بشكو حاله وقلة ذات يده^(٢) :

مَضَى النَّاسُ يُسْتَفْتُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ
فَوَافَاهُمْ الْغَيْثُ الَّذِي سَمَّيْتُ بِهِ
وَفِي ظَنِّهِمْ أَنْ قَدْ أَجِيبَ دُعَاؤُهُمْ
إِلَى كُلِّ مَسْئُوعٍ الدُّعَاءِ مُجَابٍ
لَهُمْ بَعْدَ طَوْلِ الْمَنْعِ كُلِّ سَحَابٍ
وَمَا عَلِمُوا أَنِّي قَدْ غَسَلْتُ ثِيَابِي

على بن إسماعيل القلي :

• ومن مواطني أبي عبد الله المذكور على بن إسماعيل القلي أيضاً ويلقب
بالطُميش من الواردين على مصر كذلك في القرن السادس . وقد عاصر
أحداث مقتل أحمد بن الأفضل الجمالي أيام الحافظ .

قال ابن الزبير — فيما نقله عنه العماد^(٣) — : « من الواردين على مصر من
أهل العصر وله حين قتل ابن الأفضل أبو على بعد حبسه الحافظ ، وإلقائه في
نفوس شيعته بذور الحفاظ ... واستيلائه على المملكة سنة يدعو إلى القائم

(١) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٩ .

(٣) الحريدة ١/ ٣٤١ قسم شعراء الغرب .

المنتظر . ونقش اسمه على الذهب الأحمر ، ثم احتيل عليه فاغتيل وجان القتييل ، فكان القتييل ، وأعيد الحافظ بعد ضياعه ، وأذن ذلك بتأهيل رابعه ، وتحويل باعه فنظم (الطميش — لقب الشاعر) فيه قصيدة منها^(١) — قال :

ولا بد من عزم يُخَيَّلُ أننى	قد خُت على الظلماء من بئره فجرا
يجوب ظلاماً كالظلم إذا سرى	إذا جنَّ جَوْنُ كان يبيضته البدرا
وليل صحبت السيف يرعد حده	وقد شاب فيه مفرق الصعدة السمر
حملت به درعى وسيفى وإنما	حملت غدیر الماء والعصن والنهرا
وأشقرَّ ورد اللون لولا انتسابه	إلى البرق سیر أخلته المسك والمهجر
إلى أن بدا وجه الصباح كأنه	لحافظ دين الله آيته الكبرى ^(٢)

ومنها :

وقد كان دين الله بالأمر عابساً	لجراً حتى لاح في وجهه بشراً
وكان علياً حين كان الذى طغى	معاوية والخارثى له عمراً

يشير إلى مقتل على ابن أبى طالب ونجاة معاوية وعمرو بن العاص من القتل في الفتنة الكبرى بعد صيفين .

ومنهم الفقيه أبو محمد عبد الله بن سلامة .

أصله من بجاية ، وكان مقامه بالإسكندرية ، ثم مصر والصعيد والريف وهو القائل :

لِخُرْمَةِ الضَّيْفِ لَوْ كُنْتُمْ ذَوِي كَرَمٍ	وخرمة الجار لو كنتم ذوى حسب
لكنكم يابنى اللئناء ليس لكم	فضل ولا أنتم من طينة العرب
كم لا أزال على حال أساء بها	منكم واغضى على الفحشاء والعرب
لأتركن لكم أرضاً بكم عرفت	فأخبث الثوم يأوى أخبث العرب
وما مقامى بأرض تسكنون بها	مئى يطيب . ولكن حرفة الأدب

(١) ذكر العماد أن ابن الزبير قال هي منسوبة إليه مما أفعلا .

(٢) وعلق العماد على الآيات بقوله : استغفر الله من ذلك ، فإنه لم يكن حافظاً وإنما كان ضابطاً — ومعلوم أن العماد كان سنياً مخالفاً في ملهه للفاطمين .

ومنهم على بن يقطان السبتي^(١).

من مدينة سبته ، قال عنه العماد : شاعرٌ أديبٌ ، متطبيبٌ . ذكره بعض أهل الأدب بمصر ، وقال : ورد إلى البلاد المصرية سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ومضى منها إلى اليمن ، وسافر إلى المشرق في طلب الرزق ، وزار العراق ودار الآفاق .

ومن سبته وفد إلى مصر ابن شقراق السبتي.

ومن شعره وقد كتب به إلى صديق :

دُعَيْتُ أَطِيلُ تَأْمِنِي . وَتَفْجِئِي	قَلْبِي غَدَاةَ النَّيْنِ جِدُّ مُوَدِّعٍ
ذَهَبَتْ بَيْنَهُمُ الْقَطَارُ فَأَصْبَحْتُ	كَيْدِي وَقَلْبِي يَجْرِيانِ بِأُدْمِي
أَسْتَبِي عَلَى زَمَنِ الْوَصَالِ كَأَنِّي	لَمْ أَسْتَظِلْ بِظِلِّهِ فِي مَرْبَعٍ
فَلَأَمْنَعَنَّ الْجَفْنَ مِنْ طَعْمِ الْكَرْزِيِّ	أَسْفَا عَلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ الْمَرْعِ
وَلَأَحْفَظَنَّ الْعَهْدَ مِنْ بَحْلِ نَائِي	بَعْدَ التَّالِيفِ وَالْوَدَائِدِ الْمَتِيعِ

ومنها يصف السفينة :

فَارْكَبْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مَتْنِي رَكُوبِي	خَضِرَاءَ تَسْبَحُ فَوْقَ لُجِّ مُتْرَعٍ
تُخَذِّتُ جَنَاحاً مِثْلَ قَلْبِي خَافِقاً	وَحَوْثَ قَوَادِمِ كُلِّ طَيْرٍ مُسْرِعٍ
تُسْرِى وَتَرْجِئُ الرِّيحَ إِذَا سَرَتْ	وَتَمُرُّ مَرَّ الْعَارِضِ الْمُتَقَشِّعِ
تَسْتَمْدِبُ الْمَلَحَ الْأَجَاةَ لَدَى الظُّمَأِ	مَهْمَا الْعَطَاشُ وَرَدَّنَ عَذْبَ الْمَشْرِعِ
وَكَأَنَّمَا رُكْبَانُهَا أَبْنَاؤُهَا	تُحْنُو عَلَيْهِمْ رَأْفَةً بِالْأَضْلَعِ
وَكَأَنَّمَا الْمَلَأُحُ فِيهَا آمِسَرُ	يُغْنِي أَوَامِرَهُ لِأَوَّلِ مَوْقِعِ

(١) المخرقة ١/ ٣٤٤ .

مجير الصقلي (توفي قبل سنة ٥٤٠ هـ)

هو مجير بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن مجير الصقلي .
الصقلي المولود ومن الوافدين إلى مصر بعد الأحداث التي مرت بها صقلية
بين النورمان والعرب والعرب أنفسهم .

وفد إلى الإسكندرية كغيره من المغاربة والصقليين بمرأ ، والتقى بعض
علمائها ، وجلس إلى محدثها السلفي الحافظ ، وترجم له هذا في معجمه قال :
إنه من أهل الأدب البارع والشعر الرائع .

وكان انتقاله إلى مصر سنة ٤٨١ هـ في خلافة المستنصر ، وكانت سنة
السابعة عشرة . وذكر السلفي أنه كان يحضر عليه ويأخذ عنه . وينشده مجير
بعضاً من شعره ، فيقيده السلفي عنه .

وشهد السلفي له وهو شاب بأنه كان صائناً لنفسه غير متبدل ووصفه بأنه
من فحول الشعراء .

وذكر العماد أن القاضي الفاضل ذكره بين شعراء المغرب والأندلس
الوافدين إلى مصر ، وأنه « فُرْظُه بالفضائل » .

قال العماد^(١) : « وهو صِقلِيُّ النَّجَار ، مصريُّ الدار ، وهو قريب
العصر ، توفي قبل الأربعين والخمسمائة . قال : قال ابن الزبير : يُنْقَلُ إلى
المصريين بحكم أن نشوءه واشتغاره بمصر . غزير موارد الفكر ، وارى زناد
القريحة » .

ولا ندري كم مكث بالإسكندرية ، ولنفترض أنه أتم بها القرن الخامس
وانتقل إلى الفسطاط والقاهرة في أوائل القرن السادس ، وكان سلطان الأفضل
قد بلغ قمته ، فقد ولَّى المستمل ابن أخته الخلافة ، وحارب نزراً بن المستنصر
حتى اختفى من مسرح النزاع . وظل اتباعه النزارية يتعقبون الوزير الأفضل
حتى قُتِلَ بيد أحدهم .

(١) نخبة القصر ٢ / ٨٣ قسم شعره مصر .

وفي هذه الفترة من استبداد الأفضل بأمر السلطنة كان بلاطه مآلاً لكثير من الشعراء مصريين ووافدين ، وهكذا انضم مجير إلى ركبهم في رحاب الأفضل قال الصيرفي (١) : « أحد شعراء المجلس العالي المالكي ثبَّت الله سلطانه » يعني مجلس الأفضل .

وبعد مقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ اتصل بالوزير الذي جاء بعده وهو المأمون البطاحي ومدحه .

واتصل ببعض كتاب المصريين ومدحهم (٢) .

ومن مدائحه في الأفضل التي رواها الصيرفي (٣) :

شعر أرق من التيسيم حواشياً لم ترو حوشى الكلام رواث
نظمت لشاهنشاه منه قصائد قصيدت مدائحه بها وصفاته
فأتى بدعياً في بدع أطمعت ألفاظه ، وتمتعت طرائفه
كالروح يترك بالحقيقة فعله وتنب عن أهل البصائر ذاته

ويقول في وصف خيمة الفرج التي أقامها في منامية وفاء النيل وكسر الجسر :

وبعض خيام يهتدى الركب في الدجى بها حين تخفى النيرات وتحجب
تبوأ منها خيمة الفرج التي لراجيك قال في اسمها لا يكذب
فتاة على إيوان كميرى وتاجه رواق لها في ظل ملكك يضرب
علاً وعلت ، فاستوفت الجو خالة بها منك بدر بالبهاء متحجب
يكاد من الأحكام صافئ خيلها يجول وساجى وحشيتها يتوئب
ويوم كيوم الجسر هولا وشيلة يرى الطفل فيه خيفة وهو أشيب
سمرت به عن وجهه جلدان ضاحك وللشمس وجه بالعجاج منقب
وأستر عيال الأنايب قد سطا على الأسد منه في يمينك نعلب
أخوال الصل شيها ماله الدهر مدناى عن الترب إلا في الترائب مشرب

(١) الأفضليات ١٠٩ .

(٢) اللخيرة ٢ / ٨٣ .

(٣) الأفضليات ١٨٠ ، واللخيرة ٢ / ٨٦ .

ومنها قصيدة لم يذكر العماد — متعمداً غالباً — المملوح ، لكن القول
يرشح أنها في الأفضل ، وقد جاء ذكره تلميحاً في أثنائها . وبهذا يذكر
الشراب مقتنيا صنيع ألى نواس ، يعقبه بالغزل ثم المديح فيقول :

إملاً كؤوسك بالدم وهاتها
أصرف عن المشتاق صيرف مدامة
وأحل أشربتي وأحلاها التي
ومريضة الأجفان رامت في الهوى
مازلت أصفح في القلي عن جريمها
حتى تؤمئت الصلوة زيادة
إن الهوى للثفس من لذاتها
رشف الرضاب الذ من رشفاتها
أمت نغور البيض من كاساتها
قتلي ، فهان على في مريضاتها
وأغض في الإعراض عن هفواتها
في حسيها عندي ، وفي حسناتها
يقول فيها :

ما يحل أن الثفس ينكد عيشها
أستودع الله القباب وأوجها
والزود ينخد نرجساً وبفسجاً
تلك الرماض اللاء ما برحت يدي
ولرب قافية شرود شردت
حتى وردت من التأسف بقدها
مازلت أظلم طيب ذكرك عندي
حتى إذا نشر الصباح رذائه
وتمثلت عقداً تؤد كواكب الجو
أعددتها للقاء مجيدك سبحة
ومدائح الكرماء خير وسيلة
وأحقها بالثجح. مدحك إله
فاليرم أثنها جواهر حكمة
فأبس بها حلل التاء فأنها
وانسج لنا في لم بسطك إن ابث
قسماً بمن قسم الحظوظ فملت
وبنى العلاء رتباً فكنت بفضل
حتى يكون الموت من شهراتها
فبين كالأقمار في هالاتها
في شهل أعينها ولفس لثاتها
تجني ثمار الوصل من وجناتها
فومي فبث أجول في ألياتها
ناراً دموعي الحمر من جمراتها
أرجأ خلال الدر من كلماتها
عن مثل نفع المسك من نفحاتها
رأء عقدته على لباتها
أدعو بها لأنال من تركاتها
شفعت بها الآمال في حاجاتها
للثفس عند الله من قرباتها
عقمت عذاري الشعر عن أحواتها
حلل تروقي خللك في بدنها
يملكك إلا شغلها بيناتها
أولى من استولى على غاياتها

لَوْلَا رُجُودُكَ فِي الزَّمَانِ وَجُودُكَ الْحَيِّ الْمَكَارِمَ بَعْدَ بُعْدٍ وَقَاتِبَهَا
لَمْ يُعْرِفِ الْمَعْرُوفُ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ طَلَعْنَا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا
وَقَدْ شَكَى فِي هَذَا الْجُزْءِ أَوَّلُ الْأَمْرِ مِنْ ضَيْقِ الْعَيْشِ ، عَرْضاً ، وَجَاءَ بِهِ فِي
أَثْنَاءِ الْغَزْلِ وَالنَّسِيبِ ، وَغَزَلَهُ هُنَا غَزْلُ حَضْرِيٍّ ، وَإِنْ مَازَجْتَهُ بَعْضُ الْعِبَارَاتِ
وَالْأَلْفَافِ الْبَدَوِيَّةِ ، وَهَذَا طَبِيعِي فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، يَجْرِي عَلَى لِسَانِ الشَّاعِرِ مِنْ
مَحْفُوظِهِ .

وَحَدِيثُ التَّشْبِيهِ بِالْأَزْهَارِ فِي الْغَزْلِ حَدِيثُ حَضْرِيٍّ ، وَرِثَهُ عَنْ مَبْدَعِي
بَغْدَادٍ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ ، وَعَنْ شُعْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ أَغْرَمُوا بِالطَّبِيعَةِ وَوَرَدَتْهَا
وَنُورُهَا وَزَهْرُهَا . وَكَذَا مَا اعْتَادَهُ الْمَصْرِيُّونَ مِنَ الْإِكْتِثَارِ فِي شُعْرِهِمْ عَنِ الطَّبِيعَةِ
مِنْ ذِكْرِ الزَّهْرِ وَالثَّوْرِ .

وَأُظْهِرَ اسْتِحْضَارُ ابْنِ الرُّومِيِّ فِي بَعْضِ آيَاتِهِ الَّتِي مَزَجَ فِيهَا بَيْنَ الْمَرَاةِ
وَالرُّوْحِ .

وَيَهْمُ الشَّاعِرُ يَوْصِفُ قَصِيدَتَهُ بِأَنَّهَا عَذْبَاءُ ، وَأَنَّهَا شُرُودٌ ، غَرِيبَةٌ ، لَا يَمِثِّلُهَا
شِعْرٌ فِي غَرَائِبِهَا ، وَهِيَ عَقْدٌ يَنْتَظِمُ جَوْهَرُ الْمَعَانِي فِي مَدَنٍ الْمَمْلُوحِ ، وَتَوَدُّ
الْكُوَاكِبُ أَنْ تَكُونَ خِرَزَاتِ هَذَا الْعَقْدِ . وَكُلُّهَا مَعَانٍ تَدَاوَلَهَا الشُّعْرَاءُ وَخَاصَّةً
أَبُو تَمَّامٍ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ أَغْرَبَ هُنَا فِي وَصْفِ قَصِيدَتِهِ بِالسُّبْحَةِ بِدَعْوِهَا لِيَنَالَ
مِنْ بَرَكَاتِهَا . وَبَرَكَاتُهَا بِالطَّبِيعِ مَا يَجُودُ بِهِ الْمَمْلُوحُ مِنْ عَطَاءٍ .

وَيُرْوَى الْعَمَادُ مِنْ شِعْرِهِ هَذِهِ الْآيَاتُ اللَّامِيَّةُ عَنْ مَجْمُوعِ ابْنِ الزُّبَيْرِ (١) :

أَتَرَى يُضَيِّقُ مِنَ الصَّبَابَةِ عَاشِقٌ	قَلَنْتُ بِهِ الْأَهْوَاءَ فِي الْأَهْوَالِ
مُتَرَى بِحَبِّ الْغَنَائِيَّاتِ ، هَفَّتْ بِهِ	هَيْفُ الْخُصُوفِ ، وَرُجُجُ الْأَكْفَالِ
غِرْسُ الْقَضِيبِ عَلَى الْكُثِيبِ بِقَلْبِهَا	فَأَنْتَ بِمَيَّادٍ عَلَى مُتَهَالِ
تَسَرَّدُ الْأَبْصَارُ فِيهَا حِمْرَةَ	فِي الْحَسَنِ بَيْنَ الْخَالِ وَالْخُلُخَالِ
غُرَّتْهَا الشَّيْبَةُ فَانْكَسَتْ	تِيَّةُ الدَّلَالِ وَعِزَّةُ الْإِذْلَالِ
مَكْهُورَةٌ مَكْرَثٌ بَقْلَبِي وَالْهَوَى	يَسْتَضْعِفُ الْمُحْتَالَ لِلْمُحْتَالَ

(١) الرحلة ٢ / ٨٢ .

خَلْتُ مَوَاشِي الْوَفَاءِ وَحَلَلْتُ
قَالُوا تَسْلُ ، وَفَسَ مَا أَمَرُوا بِهِ
قَلْبِي مِنَ الْأَجْوَادِ إِلَّا أَنَّهُ
سَقِيتُ لِبَالِنَا بَرَامَةً ، وَالنَّهْرِي
وَلَجْدَةَ الْعِشْرِينَ عِنْدِي ثَرَّةٌ
يقول فيها ، من المديح :

غَيْثٌ مِنَ الْإِحْسَانِ مَا يَنْفُكُ مِنْ
وَسَحَابُ جُودٍ كُلَّمَا ضَنَّ الْحَيَا
نَادَى بِحَيٍّ عَلَى النَّدَى ، فَأَجَابَهُ
وَأَقْرَ مَعْتَرَفًا بِشَابِتٍ فَضِيلُهُ

وصناعة البديع في هذه الأبيات واضحة ، وغرامه بالتجنيس لا يحتاج إلى
تبيين وإشارة ، وقد لاحظ هذا الغرام ابن الصيرفي عندما عرض لقوله (٢) :
غَارُوا فَنَارَ لَحْنِي فِيهِمْ قَمَرٌ هَوِيَّتْهُ ، أَقْلًا أَبْكَى وَقَدْ أَقْلًا
قَالَ ابْنُ الصَّيْرَفِيِّ : وَالتَّمَقُّدُونَ يَسْمُونُ هَذَا تَجْنِيسَ الْمِثَالَةِ ، وَقَوْمٌ يَعْزُونَ
عنه بتجنيس اللفظ والخط .

ويبدو أن مجير قد حاذى أبا تمام في صناعة التجنيس ، وأراد تقليده ، وبخاصة
عندما لقي هذا اللون من الصنعة ترحيباً في عصره ، وآثره بعض شعراء المرحلة
وبخاصة شعراء الشام على ما أشرنا .

وجمع إلى التجنيس التورية ، وكان بعض شعراء المصريين قد أولع بها ونقل
هذا القاضى الفاضل ، وصارت التورية فناً بديعياً غلب على المصريين خاصة ،
كما غلب الجناس على الشولم خاصة .

ويشير ابن الصيرفي إلى التورية في قوله :

فَسَقَى مَحَلَّ الْجَزْعِ مِنْ مَحَلِّ بِهِ غَيْثٌ تَلَوَّرَ عَلَى الرُّبَا كَأَسَائِهِ
سَفَحَ سَفْحَتْ عَلَيْهِ دَمْعِي فِي ثَرَى كَالْمِسْكِ ضَاغَ مِنَ الْفَتَاةِ فَتَاةٌ

(١) هنيئة الأولى تصغير هند من أسماء النساء ، وهنيئة الثانية اسم يطلق على اللانة من الإبل .
(٢) الأفضليات ص ١١٠ .

قال ابن الصيرفي^(١) : فقد ورى بضاع من الضياع عن ضاع من التضرع .
 وإلى هذه التورية ، فاستخدامه الجنس واضح في محل ومحل ، وسفح
 وسفحت ، والفتاة والفتات .

ويروى له كذلك بيتاً من أبيات قالها بمناسبة زيارة ملك غانة لمصر في
 طريقه إلى الحج ، واستقبال الأفضل له واحتفائه به . قال :

كذا يجيبُ دُعاءَ الله من عَرَفَهُ من غانَةِ غايةِ الدُّنيا إلى عَرَفَهُ
 فانظر كيف جبالَيْن عَرَفَهُ الفعل وعرفه اسم الجبل ، وبين غانة وغاية .
 ومن مدحه في الأفضل :

بأى لسانٍ من معاليك أعربُ وفي كلِّ إحسانٍ في معانيك تُعربُ
 بقول فيها :

مصورٌ له السرُّدُ المضاعفُ يَدُهُ لدى الحربِ ، والعُضْبُ اليمانيُّ مِخْلَدُ
 وهو الذى وصف فيها خيمة الفرج كما أشرنا . وفيها تشبيهاتٌ مجددة لآلة
 الحرب .

ويعجب ابن العماد بقوله في أول قصيدة مشبها برق :

أترى السحابَ الجَوْنَ باتَ مِشوقاً يبكى الثوى ويمتابُ التفرقاً
 فالبرقُ يَلْمِمْ في حِشاهُ كَأَنَّهُ قلبُ المحبِّ كُلُّهُما وخُفوقاً
 وعلى ذكر البرق ، فإنه كرر ذكره في قصيدة أخرى ، وصوره صورة
 مخالفة بل صوراً متعددة متتابعة حيث يقول^(٢) :

أرأيت برقاً بالأبارق قد بدا كيف اكسَى ثوبَ السحابِ مُمسِكاً
 وكأنا في الجوِّ كأسٌ كلُّنا أو مرهفٌ كشفت مداسُ صَيْقِلِ
 كالحبِّ أو رِقِّ اللِّجَنِ يَسِيلُ مِنْ وكلُّهُمَّ لِلنَّيْثِ بِأَخْنِهِ الرِّئِ
 في أَقْبِهِ مَتَبَسِّماً مُتَوَقِّداً وأحالةً شَفَقَى الرِّداءِ مُورِّداً
 فأتى غير البرقِ صاحٍ وغربنا عن متبهِ صديداً لكى يروى الصدى
 أَقْبَى أَحَالَتهُ البوارقُ عَسْجَداً فيعيله . نبتاً يُخَالُ زَبَرَجَداً

(١) الأفضليات ص ١١٣ .

(٢) الخريدة ٢ / ٨٦ .

ويستحضر بهذه التشبيهات بعض التشبيهات المتوارثة في الشعر القديم تقول الشاعر يصف البرق :

يدو وتعجبه التلاع كأنه سيفٌ يُسلُّ على الظلام ويُعمدُ
وفي معاني الحب والشوق نجد له ما يعجب من التصرف المبدع كأن
يقول :

لَوْلَا الهوى ما عبرتُ غيرَه عَنْ وَجْدِهِ وتَصَاعَدَتْ زَفْرَاتُهُ
فَرَّقَ الفراقَ أَطَارَ حَبَّةَ قَلْبِهِ فَتَقَطَّعَتْ بِمُكْدَى التَّوَى عِزَّمَاتُهُ
مَنْ كَانَ وَخَى الحُبِّ بَيْنَ ضُلُوعِهِ نَزَلْتُ بِفَيْضِ دَمُوعِهِ آيَاتُهُ
لَا تَتَكْرَرُ حَمْرُ الدَّمُوعِ فَإِنَّهُ جَمْرُ الْأَسَى وتَنَفَّسِي نَفْحَاتُهُ

وله أبيات رقيقة في وزن وإيقاع خفيفين ، وقافية تثبي بياء مفتوحة وهاء ساكنة . يقول فيها^(١) :

طَرَقْتُكَ غَيْرَ مُخْتَفِيَةٍ	غَادَةً بِالْحُسْنِ مُرْتَدِيَةٍ
وَوَشَى طَيْبُ النِّسَمِ بِهَا	قَبْلَ أَنْ تَبْدُو فَقُلْتُ هَيَّةَ
ثُمَّ لَمَّا أَتَيْتُكَ طَلَعَتْ	يَمْلُ قَرْنَ الشَّمْسِ مُعْتَلِيَةٍ
يَا لِقَوِي مِنْ لَوَاحِظِهَا	إِنِّهَا يُرَى وَعَلَيَّيَةٍ
وَأَصَلْتُ لَيْلَى وَتَقَرَّرَهَا	أَنْ رَأَتْ صَبْحاً يُوَفِّرَتِيَةٍ
إِنْ صَبَحَ الشَّيْبُ أَبْقَظْنِي	مَنْ كَرَى عَيْنِي وَغَفَلَتِيَةٍ

وهكذا ، فإن ما وصلنا من شعر مُجَبِّر القليل ينسب عن شاعر مجيد ، نشأ على فن الشعر في الأندلس ، ومزج بينه وبين فنونه بالشرق ، وتعلمي بركة المصريين وإبداعهم .

ملاح شعر الوافدين المغاربة والأندلسيين :

لشعر الوافدين من المغرب ملاح عامة تكاد تتكرر في كل أشعارهم ، ومن أظهرها الإحساس بالقرية ، وألم الفقر والحاجة ، والشعور بالآلام الاضطراب للسؤال وطلب الجدوى .

ومنها وصف الرحلة ، والبحر ، والسفن وهول ركوب البحر ، وشكوى الزمان ، والشعور بعدم الاطمئنان إلى الحياة والناس ، وربما كان ذلك راجعاً إلى ما أصاب بلادهم من اضطراب ، واضطهاد وحروب وغارات للفرنجية والنصارى والتورمان في صقلية . وما أرتكب في المعارك من قتل وتعذيب وتشريد .

وقد استقبلت مصر منهم أعداداً كبيرة خلال القرون من الخامس إلى السابع . وجاءوا معهم بكثير من علوم الأندلس وآدابها ، كما جاءوا بفنونهم ، وبعض عقائدهم . وكان من بين ما جاءوا به إلى مصر التصوف المغربي .

كذلك وقد معهم الموشح ، وتأثر المصريون بموشح الأندلسيين فنظموا على شاكلته . وبدأ الموشح المصري يأخذ طريقه إلى النظم منذ أواخر القرن الخامس ، وطوال القرنين السادس والسابع . وقد وقفنا على صور للموشح عند ظافر الحناد ، وهو سكتلري ، اختلط بالأندلسيين والمغاربة الذين كثروا بالإسكندرية على عصره ، وربطت بينه وبينهم روابط أدب وعلم .

وكان من بين من تعرف عليهم وتأثر بهم أمية بن أبى الصلت ، وكان لأمية تلاميذ آخرون من الإسكندرية أدخلوا عنه .

ومن ملاح شعر الوافدين التجديد في الصياغة ، على نحو يبدو غريباً في بناء الصورة على غير المعهود في الشعر العربي المشرق ، والذي كانت تقاليده الفنية سائدة في الشعر المصري إلى القرن الرابع .

وكثرت في تعبيراتهم الألفاظ والتراكيب العامية أو غير الفصحى . ربما كان ذلك متأثراً بالموشح والزجل . كما حاول بعضهم إيقاعات جديدة تخرج عن نمط العروض العربي المعروف بأوزانه وضوابطه التي حافظ عليها المشاركة .

وكثر تشبيههم بمظاهر الطبيعة من شجر وماء وزهر ونجوم وسماء وإن كانوا يتصرفون في تشبيهات القدماء واستعاراتهم الجارية في الشعر حتى تلبس ثياباً جديدة من اللفظ تخرج بها عن معتاد الصياغة في شعر المشاركة .

وقد أثرى الوافدون المغاربة الشعر المصري في هذه المرحلة ، بما أشاعوه فيه من هذه العناصر التجديدية في اللفظ والمعاني ، والأخيلة والتراكيب .

وأضافوا إلى التجارب الفنية في شعر المشاركة والمصريين تجاربهم الخاصة التي عاشوها في بلادهم الغنية بالثقافات والتي تغاير إلى حد كبير ثقافات المشرق ، واستطاعوا أن يصوغوا هذه التجارب في القوالب التقليدية للشعر وإن حاولوا أن يخرجوا على الأطر الموروثة من حيث التمسك الصارم بشكل القصيدة ، وإيقاعاتها ، وقواعد الوزن والقافية .

كذلك حاولوا الإفلات من أسر التجارب المشرقية التي غلب عليها الشعر الجاهلي بصياغاته ، وصوره الصحراوية وأخيلته وتراكيبه .

وكان أثر هذا كله واضحاً على الشعر المصري في القرون السادس والسابع والثامن .

الفصل الثامن

شعراء مصريون من القرن السادس

- ١- حسن بن زيد الأنصارى
- ٢- ابن النضر
- ٣- داود بن مقدم الغلبى
- ٤- ابن الضيف
- ٥- ابن الكيزانى

بدأ القرن السادس باضطراب أحوال الخلافة الفاطمية ، والذي بدأت أسبابه تظهر في آخريات القرن الخامس . وكان من عوامله الدسائس المتبادلة بين أنصار العباسيين والفاطمين ، وضغط الروم ، والصليبيين على البولتين ، والخلل السياسي والإداري الذي أصاب الخلافة بالضعف ، وأطمع كثيرين من المتطلعين للسلطة . وكان لبدر الجمالي وابنه الأفضل — على قدر ما سيطرا — على مقاليد الحكم دور في هذا الاضطراب الذي أصيبت به الخلافة الفاطمية ، لما أبادها من المظالم والاستبداد ، والميل إلى الانفراد بالسلطة ، والتقليل من دور الخلفاء ، مما أطمع فيهم كل مغامر يقتنص الفرصة للظفر بالسلطة .

لقد قتل الأفضل بتدبير من الأمر كما يقال ، أو بتآمر النزارية انتقاماً . ومن بعده اضطراب الأمر وتعاقب الوزراء والقادة على السلطة ، وصار الخلفاء لعبة في أيديهم كما كان الحال في بغداد .

وكانت قوة السلاجقة وأتباعهم من آل زنكي قد بدأت تظهر بشكل واضح بالعراق والشام . حتى انتهى الأمر بمقتل زنكي وتولى السلطان عمود ، وفي عهده انتهت الخلافة الفاطمية بعد هزيمة أسد الدين شيركوه للصليبيين في مصر واستيلائه عليها تحت إمرة نور الدين محمود . ومن بعده خلصت لصالح الدين .

وقد شهد القرن الخامس كثيراً من الشعراء المقيمين بمصر والوافدين ، بعضهم شارك في الأحداث ، كابن منقذ وعمارة الجني ، وابن رزيك .

وقد سجل شعر هذا القرن بعض أحداثه في مصر وخارجها ، فضلاً عن الموضوعات التقليدية من مدح وهجاء ووصف وغزل .

وعرف في هذا القرن كالقرنين السابقين جماعة ممن نظموا الشعر من كتّاب الدولة، ولم يقتصر قول الشعر على المحترفين المجتدين . فقد كان من الشعراء فرسان كابن منقذ ووزراء كبار كابن رزيك .

واستمر الشعراء الوافدون من المشرق والمغرب في وفادتهم إلى مصر قاصدي الخج راغبين في نيل الجائزة ، وكان أصحاب السلطة والجاه في الدولة ، جنباً إلى جنب مع الخلفاء ينعمون على الشعراء ، ويميزون العطاء ،

لأن الشعر كما قلنا كان أداة إعلام واسعة الانتشار ، يحرص كل صاحب مصلحة أو نفوذ على أن يلهج الشعراء يذكره فيسير في الآفاق مشرقاً ومغرباً .

ولما كان القرن السادس قسمة بين الفاطميين والأيوبيين في مصر والشام ، فقد كان الشعر والشعراء كذلك قسمة بين الدولتين ، بعضهم خلص للفاطميين ، وبعضهم الآخر خلص للأيوبيين ، وبعض ثالث شارك في الدولتين ومدح الحكام والقادة فيهما ، واضطر بعضهم أو رغب تقريباً أن يغير اتجاهه ، ويعارض أقواله وينكب عن ولاء كان قد أبداه للفاطميين فعاد متقلباً عليهم ، موالياً للحكام الجدد من الأيوبيين ونذكر من هؤلاء القاضي الفاضل ، وابن عنين .

إلا أن بعض شعراء المرحلة ممن ذاق أنعام الفاطميين حفظ الجميل ، ولم يتخل عن ولائه لهم في محنتهم ، ولقى في سبيل هذا الحفاظ على الجميل والوفاء نهايته مصلوباً كالشاعر الفقيه عمارة الهمني .

وعلى هذا التغير الذي حدث في ولاء الشعراء وتغير خطاب المديح بأشخاصه وقيمه ومعانيه ، لم تتغير أشكال الشعر تغيراً واضحاً في أخريات القرن ، وظل التطور التدريجي يعمل بفضل اجتهاد الشعراء والتفاعل بين جماعات الوافدين من المشرق والمغرب والمصريين المقيمين .

حسن بن زيد الأنصاري^(١)

شاعر من بيت مصرى عريق ، جده لأمه المجيد ابن أبى الشجاء العسقلانى من مقدمى الكتاب فى عصر المستنصر بالله .

وقد عمل حسن بالكتابة كجده لأمه ، قال ابن العماد : كان من المقدمين فى ديوان الإنشاء بمصر . وصفه القاضى الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله .

كان من شعراء الأفضل بن بدر الجمالى .

قله حسن بن الحافظ الخليفة الفاطمى لدسيسة رتبها له ابن قادوس إذ نظم على لسانه أبياتاً هجا فيها الحسن . وشعره رصين الصياغة يذهب فيه مذهب مقدمى الشعراء العباسيين فى القرن الثالث . ومن ذلك قصيدته يمدح الأفضل ويصف خيمة الفرج التى سبق أن ذكرنا بعض من وصفها من شعراء . يقول :

وأبدت العجز منها هذه الهيم
ويقظة ما نراه منك أم حلم
تسمو علواً على أفق السها الحيم
فى مارن الدهر من تيه بها شم
أن احوتك وأنت الناس كلهم
حتى ليصير علماً أنها علم
أضحت تجاورها الآساد والأجم
لما تحققن منها أنها حرم
مصور ، وكلا الجيشين مزدحم
فمقلم بينهم فيها ومتهزم
فليس تترع عنها الحزم والدجم
فكلهم لغمار الحرب مفتحم
فقد تسالمت الأسياف واللمم

مجداً فقد قصرت فى شأوك الأمم
أخيمة ما نصبت الآن أم فلك
ما كان يحظر فى الأفكار قبلك أن
حتى أثبت بها شماء شافقة
إن الدليل على تكوينها فلكاً
يمد من فى بلاد الصين ناظره
ترى الكتاس وأرام الظباء بها
والطير قد لزم فيها مواضعها
لذلك جيش ، وجيش فى جوانبها
إذا الصبا حركها مانج موكبها
أخيلها خيلك اللاتى تغير بها
علمت أبطالها أن يقدموا أبداً
أنتهم أن يخافوا سطوة ردى

(١) ترجمته فى تحفة النضر قسم شعراء مصر .

كأنها جنة فالقاطنون بها
غلت فخلقا لها سيرا تُحَدُّهُ
إن أنبت أرضها زهرا فلا عجب
يا نعمة الفرج الميمون طائرُها
ومنها :

ما قال لأقط مَدَّ شَدَّتْ ثَمَائِمُهُ
لو كنت شاهد شعري حين أنظمتُهُ
أزرتك اليوم من فكرى محيرة
ترى النجوم للفظى فيك حاسدة
ومن قصيدة أخرى يمدحه :

أطاريق طيب ألم خيال مُرْجُمُ
سرى وكان الأفق صفحة نُجْجَة
وكم للكرى من بنة قبل هذه
وما شيم الأهم أن تمتح انتى
ولكن رأت نغمى شهنشة في الورى
ومنها :

إذا كُشِفَتْ هَمْسُ الثَّهَارِ فَإِنَّهَا
وما أطلع الأفق النجوم لريبة
وليس صليل البيض إلا لأنه
وما غرّة ابن الألي إلا بمدحه

لا يستطيع على أعمارهم هزم
للفرقدين، وفي سمعتهما صمم
وقد همت فوقها من كفك الدميم
أصبح فألا به تستبشر الأمم

وكم له نغم في طيها نغم
إذن رأيت المعالي فيك تخصيم
في ناظر الشمس من لألأها سقم
تود لو أنها في الملاح تنتظم

أراك به مرأى اليقين التوهم
كواكبها فيها سفائن عوم
أضاء بها وجه الدجى وهو أسحم
وينسم منها الكاليج المتجهم
فقد أصبحت من جوده تعلم

لحجلتها من ثوره يتلثم
ولكنه عجا بها يتبسّم
بصبرته يوم الوغى يترسم
لو أن غناء ابن الأراكبة ينفهم

ومداحه للأفضل فيها ترديد لبأسه وصولاته في الحرب ، وقد يكون هذا
منطقياً في هذا العصر الذى شغل فيه القادة بمصر بغارات الصليبيين بالشام ،
وتعدتها إلى الغارة على مصر سنة ٥١١ بقيادة بللوين صاحب بيت المقدس .

ومحاولات بعض فرسان الصليبيين الهجوم على الثغور الشامية وبها حاميات
مصرية . لقد استعرت حرب الحياة أو الموت بين المسلمين والصليبيين في
خلال هذا القرن السادس وأحس الناس في كل مكان وبخاصة في مصر بمخطورة

الهجمة الشرسة التي يشنها الصليبيون من أوروبا على سائر البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب .

ومن هنا لم يكن غريباً الإكثار من الحديث عن الجهاد والقتال ، وشحن الهمم لصد الأعداء وهم ذوو بأس شديد ويجوسون خلال الديار يهدّون مصائر الناس وحيواتهم .

ولم يعدم المسلمون في ذلك الوقت أبطالاً يخوضون المعارك ويصلّون المغيرين ، ويقاومون الغزاة بكل ما يحملون في صدورهم من حقد وطمع في حضارة المسلمين الزاهرة وأرضهم العامرة .

ولم تقتصر مدائح الأنصارى على الأفضل بل مدح من رجال مصر أبا محمد بن أوى أسامة أحد كبار القادة ، من رجال الأفضل . يقول فيه من أبيات :

لَمْلُ سَنَا الْبَارِقِ الْمُتَجِدِّ	يُخَيِّرُ عَنْ سَاكِبِي تَهْمِدِ
وَمَا حُبْلًا خَطَرَةً لِلتَّسِيمِ	تُجَدُّدُ مِنْ لَوْعَةِ الْمَكِيدِ
وَفِي ذَلِكَ الْحَيِّ تَحْمِصَانَةٌ	لَهَا عَنقُ الشَّادِنِ الْأَعِيدِ
ثَبِيئُهُ لُفْرَةٌ يَلْبِسُ الثَّمَامِ	وَسَالِفَةُ الرَّشَاءِ الْأَعِيدِ
وَتَلْحَفُ عِطْفُ قَضِيبِ الْأَرَاكِ	رِجَاءٍ مِنَ الْأَسْحَمِ الْأَجْعِدِ
أَعَاذَلُ أَلْحَيْتُ لَوْمًا عَلَى	يُرْوَحُ بِعَذْلِكَ أَوْ يَفْتِنِي
تَلُومَ زَمَانِي عَلَى صَمِيئِهِ	وَصَوْتِي مِنْ ضَرْبِهِ الْمُعْنِي
فَقَضَلِي يَبْكِي عَلَى نَفْسِهِ	بُكَاءَ لَبِيدٍ عَلَى أُرَيْدِ ^(١)
وَلَوْ كَانَ حَظِّي لَوْنِ الشَّبَابِ	لَمَا حَالَ عَنْ صِبْغِهِ الْأَسْوَدِ
قَلَا تَأْيِسَنَّ لِمَطْلُ الْزَمَانِ	فَأَتَى مِنْهُ عَلَى مَوِيدِ
وَلَا تُشْكُ ذَعْرُكَ إِلَّا إِلَيْكَ	فَمَا فِي الرِّبَةِ مِنْ مُسَيِّدِ
وَلَا تَفْتَرِزْ بِعَطَايَا التَّلَامِ	قَدْ يَنْضَحُ الْمَاءُ مِنْ جَلِيدِ

وعجيب أن يرد في شعر مديحه البيتان الأخيران ، لكن أحوال الزمان السيئة أجرت على لسانه هذا الكلام ، كما أجرى عليه كلاماً آخر في مناسبات وأشعار أخرى يشكو ويلوم الزمان ، وينظر إلى الناس والدهر نظرة سوداء تشائمة .

(١) أريد هو أنور لبيد الذي أكثر من رثائه .

وتلتقى في شعر الأنصارى الذى اختاره العماد بأيات يَتمَرِدُ فيها على الحياة
وأوضاعها ، ونحس وهو يذكر القتل والقتال أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش
في عصر اللام إلا إذا تسلَّح ، وقاتل ، واغتصب حقَّه بالسيف .

يقول على سبيل المثال :

منال الثريا دونَ ما أنا طالبٌ	فلا لومَ إن عاصتْ على المطالبِ
وإني وإن لم يَسْمَحْ الدهرُ بالمنى	فلى في كفالات الرماح مآربُ
تقربُ لى مستبعداتِ مطالبي	جيايدى، وعزى والقنا والقواضبُ
فما أنا ممن يقبض العجزُ خطوهُ	وتغنى عليه في البلادِ المذاهبُ
إذا ما كنتاك الدَّهرُ ثوباً من الغنى	فمَجْلُ بلاه، فالليالي سؤالبُ
ولا تغتريزُ بمن صفا لك وثه	فكم غصنُ بالماء المصفى شاربُ
نلومُ على الغلير الزمان ضلالةً	وقد سنَّه أحيانا الحبايبُ

ويقول :

أأطلب الرزق لا أنضى الركاب له	لا تفرسُ الأسد أو تنأى عن الأجم
وكيف أغضى على ضيم وما رويث	منى السيوف ولم تسق الصُّعَادُ قِمي
من لى يعود زمانٍ كنتُ أكرهه	وكيف للميت بالرجعى إلى الألم

ونحس أحياناً ونحن نقرأ بعض شعر الأنصارى روح المتنبي في تمرده وضيقة
بالبشر والعصر ، وبالحياة أحياناً . بل إنه قد يصطنع صياغته وخطابه
الشعرى .

والأنصارى مثال من الشعراء المتمردين على العصر وأهله وهو يمثل هذا
الإنسان الغاضب المتمثل لنفسه الطامح إلى أمل أبعد من قدرته ، في عصر يظنُّ
أن الغالب فيه بالغ ما يريد . ولم يزوده الله إلا بقدرته البيان ، والغلبة لصاحب
السيف والسلطان .

ابن النضر — الأديب^(١)

القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن النضر
من شعراء الصعيد في عصر المستعين والأمير — وقد اتصل بالأفضل
شاهنشاه بن بدر الجمالي .

تولى قضاء الصعيد زمناً بإخميم . ذكره أمية بن أبى الصلت في الرسالة
المصرية وأشاد به . وقال عنه العماد : من أهل صعيد مصر . من الأفاضل
المعلودين من حسنات الزمان . ذو الأدب الجم ، والعلم الواسع ، والفضل
الباهر ، والنثر الرائع والنظم البارع . وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى .
نشأ بالصعيد ، وتلقى به العلم ، وكان يحفظ كتاب سيويو ، وكان
متصرفاً في علوم كثيرة ، وله في الأدب مادة غزيرة .

قال صاحب الطالع السعيد : وأكثر شعره في تشكّي الزمان والإخوان .
وله مدائح في الأعيان ، وفي جماعة من بني الكثر أعيان أسوان .
وقال عنه ابن حجر : أحد قضاة الصعيد . كان نحوياً أديباً . روى عنه ابن
برى النحوى من رجال القرن السادس وغيره .

قال ابن أبى الصلت والعماد : وقد كان ورد القسطنطين يلتمس من وزيرها
الملقب بالأفضل نصرة أو خدمة ، فخاب فيه أمله ، وضاع رجاءه ، وأخفق
سمعه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ، ويشكو الحبيبة والحرمان :

بين التعزّر والتذلّل مَسَلَكٌ	بأدى المنار لعين كلّ مُوفّقٍ
فاسلكهُ في كلّ المواطنِ واجتنبْ	كِبَرِ الأبيّ وذِلّةِ المخلّقِ
ولقد جَنَيْتُ من البضائع خيرا	لأَجَلِ مُختارٍ وأكرم مُتَبَيِّ
ورجوتُ خَفَضَ العَيشِ تحتَ رواقِهِ	لأَبَدٍ إِنْ نَفَقْتُ وَإِنْ لَمْ تَنفَقِ
ظَنًّا شبيها باليقينِ ولم أَخلُ	أَنْ الزَّمانَ بما سَقَانِي مُشرِقِ

(١) راجع في ترجمته الرسالة المصرية في مجموعة نوادر المخطوطات بتحقيق عبد السلام هارون ص ٤٠ .
والخرينة ٢ / ٩٠ شعراء مصر والطالع السعيد وبغية الوعاة للسيوطي .

ولعائبي بالجرصي قولٌ بين
ما ارتدت إلا خير مرتادٍ ولم
وإذا أتى الرزق القضاء على امرئ
ولعمر عادية الخطوب وإن رمت
لأقارب عن الدهر دون مروعتي

لو كُتبت شئت سحانه لم يطرقي
أصيل الرجاء ببجل غير الأوثني
لم تُغن فيه حيلة المستزقي
شملني بسهم تشتت وتفرقي
وحُرمت عن النصير إن لم أصدق

قال : وله في سفرته هذه ، وقد قوى يأسه من بلوغ أميله ، ونيل بُغيته ،
وعزم على الصُّنْدُر عن الفسطاط إلى مُستقره ، يحضُّ على الزَّهَّادة ، ويحرضُ على
القناعة ، ويُدِّم الضَّرَاعَةَ ، ويتأسفُ على إذالة خَدِّه ، وإراقة ماء وجهه :

لهفي للملك قناعة لو أنني
ولكنني يأسٍ كُتبت قد أحرزته
أليث أجعل ماء وجهي بعده
وأخ من الصبر الجميل قطعته
يا قاتل الله الضرورة حالة
كم بات مشكواً إليه تحيقت
وقم على قدم رمت ونواظري
ومسرت بالصبر والتقوى دعت
ظلت تصرفه كصريف العصا
لا أنشأني الحادثات لخليها

مُتعت فيه بعزة التملك
لو لم تبعث فيه الخطوب وتفتك
كدم يهل به الحجيج بمنسبك
في طاعة الأمل الذي لم يترك
أي المسالك بالفتى لم تسلك
خلقائه قرعاً يراخه مُنسبك
كجَلَّتْ حاجرها موطى سنسبك
فأجابها في معرض التسلك
رأس البعير لمترك عن مترك
ورميت قبل وقوعها بالمهلك

وله مراثية في الشاعر القاضي الرشيد بن الزبير جدّ اثنين من شعراء مصر
ورجالها المشهورين ممن اتصلوا بالوزير طلائع بن رزيك . ويدل ذلك على أنه
كانت تربطه به صلة ما ، والشاعران من الصعيد . يقول :

يا مرنّ ذا جدت الرشيد فمَلَّ معي
وأمسح بأردان الصبا أركانه
فبود نفسي لو سقيت ثراه

نسفح بساحته مزاد الأدمع
كي لا يلُم به شحوب اللقاع
دم مُهجتي ، ووقته بالأضلع

ومنها يخاطب القير :

غَلَقْتُ عَلَيْكَ مَرَاحِمَ كَفَلْتُ لَكَ
وَتَنَفَّسْتُ فِيكَ الصَّبَاَ مَفْتُوقَةً
يقول فيها :

أَوْ مَا عَجَبْتُ لَطَوْدَ عَرْ بِأَذِخْ
وَلَحْدَ مِنْ وَطِيءِ الْكَوَكِبِ رَاقِيَا
ويقول :

وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رِبْعِكَ شَاكِيَا
فَحَمَدْتُ طَرَفِي كَيْفَ أُرْشِدُنِي بِهَا
وَذَكَرْتُ مُزْدَحِمَ الْوَفُودِ بِبَابِهَا

ومعظم ما اختاره العماد من شعر ابن النضر من هذا اللون من الشكوى
والحكمة والسخط على الحياة والناس . كأن يقول وقد أوهنه العُمر :

يَا غَيْشُ إِنْ لَمْ تَعْطُ فَلَا تُطَلِّ
كَمْ وَإِلَى كَمْ نَفْسِي مَقْسَمَةٌ
لَا حَالُ لِي تَحْمِلَ الْمَقَامَ وَلَا اسْتَطَاعَةٌ
بَصْرَتِي الْيَأْسُ ثُمَّ تُعْطِفُنِي
وَيَا حَيَاةَ اهْجَرِي وَلَا تُصَلِّي
بَيْنَ خُلُولٍ وَبَيْنَ مُخْتَمَلٍ
عَوَاطِفُ مِنْ كَوَاذِبِ الْأَمَلِ

وقال وقد شعر بالغربة عند فراقه وطنه بالصعيد في سفرته إلى القسطنطين :

يَا دَائِرَ مَا أَنْتَ لِي دَائِرًا وَلَا وَطَنًا
لَئِنْ تَنَكَّرْتَ لِي عَمَّا عَهَدْتُ لَقَدْ
أَتَشْكِكُنِ لَيْسَ خُصْمٌ عَنِ بَلَدٍ
نَفْسِي، تَرَى الدَّلَّ فِي أَنْ تَسْكُنَ الْبَدَنَا
وَلَا قَطِينُكَ لِي أَهْلًا وَلَا سَكَنًا
خَرَبْتُ فِيكَ الَّذِي عَمَرْتَهُ زَمَنًا

ومن هذا الإحساس بالغربة وفراق أهله وولده ينطلق قوله :

خَلَقْتُ خَلْفِي لِلْحَوَادِثِ صَيِّفَةً
يَتَلَقَّنُ مِنْهُ بِحَبْلِ رَحْمَةٍ رَاحِمٍ
وَلَقَدْ وَجَدْتُ لَهُنَّ إِذْ وَدَّعْتَنِي
بِمَحَلٍّ لَا عَمَّ لَهُنَّ وَلَا أُخٍ
أَوْ يَتَصَيَّمْنَ بِظِلِّ نَخْوَةٍ مُتَنَبِّخٍ
وَجَدْتُ الْقَطَاةَ بِدَامِيَاتِ الْأَفْرَخِ

(١) الريمع للجبلارة الرخوة .

ويبدو أن الرجل حين ضاق بالفسطاط والعاصمة حنَّ إلى بلده شأن كثير من أبناء الصعيد المختربين ، فعادَ إلى بلده ليستقر ، وليقنع نفسه أن الحياة كلها قبض ربح ، وخيال زائل ، فارتضى لنفسه بالزهد ، وكفَّ الهمة عن التطلع والطمع خاصة وأنه قد بلغ من العمر حدًّا لم يعد يسعفه فيه البدن على مجاهدة الحياة والسعى في أحراشها . وحياة عصره تحكمها المغالبة ، وتسودها قوانين الغاب ، والسيادة فيها لمن غلب قوة واقتداراً ، أو دسيسة وغدراً وخداعاً . فيعزى نفسه وأمثاله بأن يقول :

جهاذ النفس مفترضٌ فخذها	بآداب القناعة والزَّهَادَة
فإن جنحتَ لذلك واستجابت	وخالفَت الهوى . فهو الإرادة
وإن جمحت بها الشهوات فاكنّج	شكمتها بمقمة العبادَة
عساك تُحلها درج المعالي	وترفعها إلى رُتب السَّعَادَة

داود بن مقدم بن ظفر المحلى

ينسب إلى المحلة الكبرى .

من شعراء القرن السادس ، ذكره ابن الزبير في كتاب جنان الجنان ، ونقل عنه ابن العماد قال^(١) : هو من أبناء الجند بأسفل مصر إلا أن همة سميت به من الأدب إلى دوحه يقصر عنها أمثاله ، ولا يطمع فيها أضراؤه ، وأشكاله . وعضده على ذلك جودة الطبع ونفاذ القرينة ، حتى أدرك بعفو خاطره وسرعة بديته ما لم يبلغ إليه كثرة من أبناء عصره من الثأب على اقتناء الأدب . وذكر ما معناه أنه كسدت سوقه ، وجمحت حقوقه .

وهو منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت . وقال عنه القاضي الفاضل : شاعر ملء فكيه تولى في عصرنا هذا^(٢) .

قال ابن الزبير : وما أنشدني لنفسه قصيدة مضمنة شرح حاله . وهى :

وقد بكرت تلوم على تحملى	كان الرزق يجلبه احتيالى
تقلت أنى بالحرص أحوى الكـ	وذاكم عين الحال
تقول إذا رأيت إرشاد قول	هبطت ألا تهب إلى المعالى
(ومن لم يعشق الدنيا قدما	ولكن لا سبيل إلى الوصال)
فلو أدليت دلوك في دلاء	منحت به من الماء الزلال
وكم أدليت من دلو ولكن	بلا بلل يرثى على قتالي
وكم غلقت اطماعى رجاء	بخطب بارق ووميض آل
فلا أنا بالكفاف التزير راض	ولأنا عن طلاب الكثر سالى
ولكن ذاك من قبل اعتمادى	على عبد العزيز ألى المعالى

وهو يتخلص إلى ممدوحه لعل وعسى أن يجزل له فيرضيه ، وعبد العزيز الذى يمينه هو القاضي الجليس بن الحباب أحد كتاب الدولة المرموقين .

وينى على كتاب عصره ممن يقصلهم يطلب رفدهم ، فلا يجردون بشيء يرضيه فيقلب عليهم حاجياً ليقول :

(١) المحمدي ٢/ ٤٦ قسم شعراء مصر .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥ .

وكتاب لهم أبداً حمات
وكلهم يجر إليه نفاً
بأنيد تبتدرون إلى الرشاوى
ونسث أروهم إلا بشعر
فاغشى بالمحال الصرف منه
وكم قبلت من كف ولكن
وأحضر من ركاب في ركاب
وأثرت السنايك فوق رجل
وهذا يستطيل على زهوا
وقد علموا وإن لم يصرفوني
وحالي كل يوم في انتقاص
ويقول منها :

فيا غمر الخواج قم بأمرى
فها أنا قد رجعت إلى ذراكم
وعدت كما عهدت من اتصالي
فإن أبلغ بكم أملي فإني
وإن أحرمت فقد ابلغت عُلرى
فقد نهئت منك أجل كالي
فمنه نشأت وله مالى
بكم عود النصال إلى التبال
رجوت الرى من سحب ثقال
فإن الذنب للأيام لالى

وهذا النفس الشعرى صوت العامة من سواد الشعب ، لا صوت الخواص من طبقة العلماء واللائقين بأصحاب السلطة وذوى المجد ، فصاحبه من الاجتاد أى من سواد الجنود لا الفرسان ولا القادة ، وهو صوت شعبي يشكو بنقض عامة الناس ويث ما يحسون به من استئثار السادة من الحكام والقادة ، من أصحاب السيف والقلم بكل خيرات البلاد ، ويتفضلون على الأشقياء من عامة الناس بالكفاف وهم المناضلون الكادحون ، لكن عملهم وكدهم يذهب إلى غيرهم ينعمون به دونهم ، ويضطر هذا الجندي من عوام الناس أن يسأل بشعره . وترى في قوله نعمة الشعب ، ولفظه ودارج كلامه ، وهذا اللون من الخطاب تطور في الشعر المصري وظهر بوضوح بعد ذلك في العصر التالي عصر الأيوبيين والمماليك ، وتمثل في شعراء من أضراب الجزار ، والوراق ، والبوصيري ، وغيرهم .

ابن الصيف^(١)

حيدر بن عبد الظاهر بن الحسن بن علي الربي

قال عنه العماد : « كان من دعاة الأدعياء ، الغلاة لهم في الولاء . وكان في حدود خمسمائة في عهد أمرهم . وله فيه مدائح كثيرة . وقع إلى ديوانه بخطه وكنت عزمت لفرط غلوّه على خطّه ، لأنه أساء شعراً ، وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كُفراً ، فلم يستحقّ لإساءته كُفراً ، ولا غُفراً ، لكنني لم أر أن أتترك كتاباً منه صفراً ، لأن البحر الزانح يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر ، يعمل الغناء كما يعمل الدرّ ، والمركب فيه يجمع العبد والحرّ وقد أوردت من مستحسناته كلّ ما يُعفى على سيئاته ، ويُغضى به على هفواته . فما عُتيت بإثباته من قصائده ومقطوعاته قوله من قصيدة يعارض بها ابن هانيء المغربي :

طلعت صباحاً مُشرقاً يتهلّل	ووراءها بالوُحيف ليل أليل
وكنت لها شمس الظهيرة تجتلي	نوراً، وما للشمس طرفاً أكحل
وثقت قضيب الحيزانة ثمتة	حقف يكادُ تسرعاً يتهلّل
والخذ ضمخه حريق مُشعل	والشعر عطره رحيق سلسل

واختار له العماد أبياتاً في الغزل تملو فيها شاعريته ، ورقة أحاسيسه ، ويديع صورته .

قمر لآل عليه مُطرفاً	لازوردياً رقيق الحاشية
وعليه صبغة من حُسنه	فهى في كلّ فؤاد سارية
يضحك القلب إذا عاتتها	ولكم عين عليه بالكية
طرفه جنة عدن أزلقت	وبخذه جحيم صالية
نمن الصدغين فيها طرراً	كُبت من ذهب في غالية
شبهته العين لما أن بدا	روضة ذات قطوف دانية

أو يقول :

(١) ترجمته في المجلد ١/ ٣٨٥ ، المغرب لابن سعيد .

أَذِنَ قَلْبِي بِالْهَوَى شَادِنٌ أَبْقَطَهُ مِنْ طَرَفِهِ الثَّانِي
 أَلْبَسَهُ الْجُسْنَ رِدَاءً لَهُ نَفْسِي فِدَاءُ الْقَمَرِ اللَّائِي
 غَرَسْتُ فِي وَجَّتِيهِ وَرْدَةً مِنْ نَظَرَةِ الْمَسْتَرْقِ الْخَالِي
 فَخَافَ أَنْ أَقْطِفَهَا خُفْيَةً بِقَبْلَةٍ وَالْغَرَسُ لِلْعَارِي
 فَعَبَّرَ فِي مِيدَانِهِ مَسْرَعًا يَا لَيْتَنِي فَارِسٌ ذَا الْفَارِسِ (١)

وكم رق في تعبته عن حمرة الخجل في الحد ، وجاء بهذا البدع في التشكيل
 وحلاوة الصورة .

ومن إبداعه في الوصف قوله في عازف على العود :

وَمُسْمِعٌ مَبْدَعٌ بَصْنَعِيهِ بُرَيْكٌ مِنْ فَضْلِ حُسْنِهِ عَجَبًا
 حَرَكٌ عَوْدًا كَالْعِيدِ مَقْتَرِنًا بِالْبَرْقِ فِي كَفِّهِ إِذَا ضَرَبَا
 تَسْرَى قَوَاهُ فِي نَفْسٍ سَامِعِهِ فَيَكْتَسِي كُلُّ مِفْصَلٍ طَرَبًا

ونستشف من شعره أنه كان من شعراء الأفضل بن بدر الجمالي إذ يقول :

وتلاف الكريم في ذلة اللوحة عِزٌّ ، وراحة في كلال
 مثلما يتلف الأجل جلال المُلْدُ ————— لك أمواله يحفظ المعالي

من تخلص إلى المدح بعد مقدمة غزلية جميلة يقول فيها ، وقد جاء بالبدع
 من المعالي :

ذَاكَ مَعْنَى يَغْنِيكَ . تَرَأَى عَنِ السَّمْعِ بِتَجْدِيدِهِ الْهَوَى وَهُوَ بِالِي
 طَالَمَا أَمَكْتُ بِهِ فَرْصًا جَا ذَبْتُ فِيهَا مَغَازِلَاتِ الْقَزَالِ
 بَيْنَ وَرِدٍ كَوْرِدٍ خُدَيْهِ فِي الْحَسَنِ ————— ، وَرَوْضِ كَوْجِهِ فِي الْجَمَالِ
 وَنَدَى كَالْدَمَوْعِ فِي مُقَلِّ الثَّر جَسٍّ ، أَوْ فَيْضِ عِبْرَةٍ فِي دَلَالِ
 يَا لِقَوْمِي مِنْ مِيخَرٍ تَفْتِيرُ طَرْفِ وَقَعَةٍ فِي الْقُلُوبِ وَقَعَ التَّبَالِ

يَتَجَلَّى أَعْلَاهُ عَنْ بَدْرِ تَمِّ وَيَبَارَى رَدْفَاهُ دِعْصَ رِمَالِ
 وَعَلَيْهِ مَجَاسِدُ أَلَيْسَتْهُ الـ حَسَنٌ مِنْ فَرْقِهِ إِلَى الْخُلُخَالِ
 فَإِذَا لَاحَ فِي السَّوَادِ رَأَيْنَا شَمْسٌ دَجَنَ أَوْ هَالَةً فِي هِلَالِ

(١) وَرَى بَيْنَ فُلُوسٍ وَفُلُوسٍ فَفُلُوسٍ الثَّانِيَةِ مِنْ قُرْسٍ -

ويقول في وصف الشراب ومجلس طرب وأئس وهو :

قد أَيْسَتْ نوبَ الرَّحِيْقِ لِلذَّهْبِ	بَتْنَا بِهَا نَجْلَ عُرُوسَ زَجَاجَةٍ
عَامَتْ فَعَادَتْ كَالْخِرَيْنِ تُسْرِبًا ^(١)	تُيَسِّرَتْ عَلَيْهَا بِالْمَزَاجِ لَآلِءُ
وَيَزُوْدُهُ يَزْدَادُ مِنْهُ تَلْقِيَا	فَصَفَاؤُهُ يَنْتَرُّ عَنْهُ تَرْقُقَا
سُكْرٌ، وَسُكْرٌ إِنْ شَدَا وَقَطْرَا	وَمَنْزِلٌ لِي مِنْ فَتُورِ جَفَوْنِهِ
لَيْنًا، وَتَكْسُو وَجْتِيهِ غَضْبَا	نُبْهَتُهُ وَيَدُ النِّعَمِ تَوُوْدُهُ
وَأَزُورُ مَعْنِي بِالْمَغَانِي مُعْشِنَا	لَا رَوْضَ رَوْضًا بِالتَّدَانِي مِمْرَعَا
وَأَعْلُ خِمْرًا بِالتَّغْوِيرِ مُشْبِنَا	وَأَشْمُ رِيحَانِ الشُّعُورِ مُطَيَّبَا
وَأَعْضُ تَفَاحِ الْخُدُودِ مَكْتَبِنَا ^(٢)	وَأَمْضُ زَمَانَ الصُّدُورِ مُشْرَبَا

(١) البرين حلقات من معدن تضمها النساء في الأتف ترزفا .

(٢) المكب المثلث .

ابن الكيزاني
الشاعر الصوفي الواعظ صاحب الطريقة
(ت سنة ٥٦٠ هـ) .

عرف ابن الكيزاني في مصر في أخريات العصر الفاطمي شاعراً واعظاً صاحب طريقة . سكن القسطنطينية ، وتبعد في جبل المقطم ، وسلك في حياته مسلك الفقراء من أصحاب الطريق ، زهاداً ، وبعداً من صخب الحياة وترفعاً عن نهم المال ، ورغبة في اصطناع الأولياء ، واصطحاب الرفاق .

هو أبو عبد الله محمد بن ثابت إبراهيم الكيزاني^(١) ، جمع بين علوم الشرع وعلم العقل حتى أنه عد عند بعض المؤرخين ممن أخذ بأراء المعتزلة ، ويرى بعضهم أنه كان من المشبهة المجسمة والقاتلين بقدم أفعال العباد ، وهو ما يتناقض مع القول بأراء المعتزلة ، وإن اتفق رأى بعض الصوفية في مراحل من تاريخهم مع المبادئ العامة لأراء المعتزلة ، وبخاصة متصوفة الفكر لا متصوفة الطريقة .

وعلى أية حال فإن الشيخ ابن الكيزاني قد اتخذ لنفسه مذهباً في الزهد والتصوف وعرف به وتبعه فيه جماعة من المصريين عرفوا بالكيزانية وهو في مواعظه وشعره لا يخرج في صورته العامة عن أقوال الصوفية وبخاصة من أصحاب مذهب العشق الذي كان ابن الفارض في القرن السابع شاعرهم الأكبر ، إلا أن فرقاً كبيراً . يباعد بين كل من الرجلين في الشخصية والشعر ، ومضامين كل ومعانيه ، فشعر ابن الكيزاني ومواعظه من الضرب السهل القريب إلى أفهام العامة وتعبيراتهم ، وهو أقرب إلى المنظومات الشعبية التي تنشأ في الموالد والمواسم الدينية من فرق الصوفية ورجالها .

وكان ابن الكيزاني يعظ الناس بالقسطنطينية والقاهرة بعد صلاة الجمعة أيام الجمع وفي المناسبات الدينية المختلفة ، فيقف بين الجمع يعظهم في خطبة أو كلمات متنوعة مسجعة منمقة اللفظ ، مدعمة بآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة للتذكير والترهيب والترغيب ، أسلوبها مسجوع مقطع

(١) راجع في ترجمته في : عمدة القصر قسم شعره مصر ٢ / ١٧ والمغرب (قسم مصر) بتحقيق

د. زكي محمد حسن ، د. شوقي ضيف ، وقد قام بدراسة حياته وشعره الدكتور حل صالي حسين

وجع ديوانه — طبع دار المؤلف بمصر .

يحرص فيه على الإيقاعات المترددة والجمال القصيرة في معظمها مع دعمها بكثير من مقاطيف القصص الديني .

وتارة يدعم مواضعه بتلك المنظومات التي تعرض صوراً منها من مثل قوله :

قف على الباب طالباً	ودع الدمع ساكباً
وتوسل به إليه	من الذنب تائباً
تلق من حسن فضله	عند ذلك العجائباً
ثم خف منه أن يرا	ك على الذنب زاكباً
فهي تجزي على التير	ويعطى الرغائباً
زينة العبد بالتقى	فاجعل الصدق صاحباً

وشعره الصوفي الذي يلور في موضوع « الوجد » و « الحب » شعر بسيط كذلك في لفظه وتعبيره من مثل قوله :

إذا نفحت رياح الغدر يوماً	فإن اللمع يتجددني ويغيري
تذكرني الذي قد غاب عني	فيلقاني وألقاهُ بذكر
نأى عني وقلبي مثل برق	وأجفاني سحاب ذات قطر
وبألهفى عليه ثم لهفى	نأى بتواه يوم التين صبري
أبيت معللاً بروح النسيم	من أرضه أيان يسري
ولا والله ما ذاقْتُ جُفوني	مناماً ولا أُخلِيتُ ذكري
ووالسهي على أن دُبْتُ شوقاً	وأحسبه بذلك ليس يكرى

قال العلماء والأدباء أقوالاً مختلفة ومتعارضة في شعر الكيزاني وقيمه الفنية

قال ابن سعيد المغربي^(١) :

وقفت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ، قريب من أفهام العامة غير مُرض عند صدور الشعراء ، وأصحاب عويس الكلام وفرسان النظم ولم أكتب من ديوانه ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعه — شيئاً تهش النفس إليه ، وإنما أوردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيراً ما يباع في سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، وكان من لا عرف معاني الشعر المستحسنة وألفاظه -

(١) الثرب قسم مصر ص ٢٦١ ، بتحقيق د . زكي محمد حسن ود . شوقي صبت .

المستبدعة يحضنى على الوقوف عليه ، فلما وقعت عليه أنشدت متمثلاً : (أنا
 للعبدى فأسمعنى ولا ترقى) .

وأما العماد الأصهبانى فقد أطرى شعره ، فقال (١) :

« وله ديوان شعر يتهاقت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله لما أودع فيه
 من المغنى الدقيق واللفظ الرشيق ، والوزن الموفق ، والوعظ اللائق ، والتذكير
 الرائع ، والقافية آثار الحكم ، والكلمة الكاشفة أسرار الكرم » .

وكلام الأصهبانى إطرء مسجوع لا سبرلفور الشعر كما سبره ابن سعيد
 وليس ذوق العماد كنزوقه وهيات ، ومختارات كل منهما شاهدة على ذلك ، فلم
 يكن الأصهبانى نقادة للكلام ولا شاعراً كابن سعيد يهتر للجمال .

ونفتس بما أختاره العماد مقطوعات تصور اتجاهه وصنعتة ، فمن ذلك قوله
 متغزلاً — لعله غزل عادى أو غزل صوفى — قال :

اصرفوا عني حبيبي	ودعوني وحبيبي
عللوا قلبي بذكرا	هـ فقد زاد ليحيى
طاب فتكى لى قواه	بين واش ورقيب
لا أبالى بهوان النفس	ما قام نصيبى
ليس من لأم وإن أطن	فيه بمصيب
جسدى راضى يسقى	وحفوى بتحيى

ومن مواعظه قوله :

أسعد الناس من يكاتم سره	ويرى بذلك عليه معرفة
إنما يعرف اللبيب إذا ما	حفظ السر عن أخيه فسر
إن يجد مرة حلاوة شكوا	هـ سيلقى ندامة ألف مرة

ومن جيد غزله الذى تحس فيه بنفحة صوفية قوله :

أى طريق أسلك	وأى قلب أملىك
وأى صبر ابتغى	وهو بكم مستهلك
أأزنى حجبكم	كما يتر الفلك

(١) بحرلة القصر — قسم شعره مصر ١٧/٢ .

أَتَشَى وَكُلَّ غُضٍّ ————— وَبَيْنَكُمْ فِيهِ شَرَكٌ
 أَخْلَصْتُ فِيكُمْ بَاطِنًا فِيهِ هَوًى لَا يُذَرَكُ
 جَلَّ فَمَا فِي وَصْفِهِ شَوْبٌ وَلَا مُشْتَرَكُ
 وَلَاؤُكُمْ لِي مَذْهَبٌ وَذِكْرُكُمْ لِي نُسْكُ
 وَمُهْجَتِي مَشْلُوكَةٌ يَا حَبِيبَا لِلَّهِ
 وَإِنْ أَرَدْتُمْ فَأَخِيقْ ————— تُؤَاوِئَانِ أَرَدْتُمْ فَاسْتَفِيقُوا
 مَا أَنْتُمْ مَعْنَى يَحْ ————— لِي حَبُّهُ وَيَتَرَكُ

وما هو قريب من الالتفات قولُه :

يَا مُنْصِبًا فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ لَا تَخْرُجْ إِلَّا نَصَافًا عَنْ رَسْبِهِ
 هَبْ أُنْثَى أَبَدِيَّتٍ جُزْأً وَقَدْ يَحْتَنِرُ الْإِنْسَانُ عَنْ جُزْمِهِ
 قَدْ كَثُرَ الْقِيلُ وَحَاشَاكَ أَنْ تَسْمَعَ قَوْلَ الْخَصْمِ فِي خَصْمِهِ
 انْظُرْ إِلَى الْبَاطِنِ مِنْ أَمْرِنَا فَرَاخَةُ الْعَالَمِ فِي عِلْمِهِ
 فَإِنْ رَأَيْتَ الْحَقَّ حَقِّي فَلَا تَمَكِّنِ الظَّالِمَ مِنْ ظُلْمِهِ

وقيل إن صلاح الدين عندما جاء إلى مصر ومر بالفسطاط سمع بالكيخاني وأشعاره وتعلق الناس به فالتفتوا ديوانه، واختار منه العماد ما ضمنه خريدة القصر في مختاره من شعراء مصر .

يقول : واستعرت من الملك الناصر صلاح الدين — وقد لقبته قبل أن ملك مصر — قطعة بها من شعره في الغزليات وغيرها والزهديات ، وأثبت منها هذه المقطوعات (١) .

ويقول القفطي : رأيت في بعض المجاميع أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لقي ابن الكيخاني بمصر لما طلع في نصرتها ، وقبل أن يلى على مملكها ، واستكتبه جزءاً من شعره (٢) .

ومهما يكن من أمر ابن الكيخاني، فإنه شاعر له لونه الخاص الذي مزج فيه معاني التصوف بالزهد والحكمة والوعظ في لفظ سهل وتعبير شائع غير مستغني ، فراق لدى العامة وراج .

(١) خريدة القصر — شعراء — ١٨/٢ . * * *

(٢) المحمدون من الشعراء .

الفصل التاسع
شعراء نهاية العصر
ابن رزّيك وجماعته

طلائع بن رزّيك

الوزير القائد الشاعر (ت سنة ٥٥٦ هـ)

ولد طلائع سنة ٤٩٥ هـ بأحدى مدن أرمينيا ، وكانت خاضعة آنذاك لسلطين السلاجقة ، وتعلم ببلده وحفظ القرآن ، وأتقن علوم الدين واللغة والأدب على جماعة من شيوخ عصره ، كما اتصل ببعض رجال الشيعة ، فأخذ عنهم مذهبهم ، ووعاه وتمسك له ، وزار مع بعضهم النجف الأشرف ، وذكر ابن العماد الحنبلي تعصبه للمذهب بقوله « وكان في نصر التشيع كالسكة المحماة »^(١) .

وذكر المقرئى زيارته للنجف ومشهد على بن أبى طالب به فقال^(٢) : « زار مهد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه في جماعة من الفقهاء (لعلمه يقصد الصوفية) وإمام مشهد على رضى الله عنه يومئذ السيد ابن معصوم فزاره طلائع وأصحابه وباتوا هناك ، فرأى السيد في منامه الإمام صلوات الله عليه يقول له : قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزّيك من أكبر محبينا ، فقل له اذهب ، فإننا قد وليناك مصر . فلما أصبح أمر أن ينادى : من فيكم من اسمه طلائع بن رزّيك فليقم إلى السيد ابن معصوم ، فجاء طلائع إلى السيد ، وسلم عليه ، فقص عليه رؤياه فرحل إلى مصر » .

وكان صاحب هذه القصة أراد القول بأن ذهاب ابن رزّيك كان بناءً على توجيه غيبى من الإمام الوصى ، ليثبت لدى الرعية من الشيعة شرعية توليه الأمر في مصر دون خلفائها من الفاطميين .

وهكذا وصل طلائع إلى مصر على تلك الصورة ، واتصل في مرحلة الشباب . وربما كانت سنة آتخذ في حدود العشرين أو ثلثها ، ولعله عاصر خلافة الأمر في أخرياتها ، والتحق بديوان الكتابة لما عرف فيه من النباهة . واتصلت أسبابه بالقصر على نحو ما ، وظل كذلك في خلافة الحافظ عبد

(١) شذرات الذهب ٤ / ١٧٧ .

(٢) الخطط ٤ / ٧٣ - ٨١ .

المجيد . وربما كان تعيينه لتولى إحدى ولايات الصعيد في عهد الله الخليفة ووزيره الأرمني تاج الدين بهرام شاه . الذى ذكر صاحب المختصر أنه تحكّم واستعمل الأرمن على الناس . (من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣١ هـ) (١) .

ذهب طلائع إذا إلى الصعيد ، وبقي بها حتى بعد سنة ٥٣١ هـ ، وتقلب في مناصب ولايات الصعيد ، فولى قوص ، ثم أسوان ، وربما جمع بين ولاية قوص وأسوان ، وتولى الأشمونين ومنية بنى خصيب (المنيا الآن) حيث يذكر المؤرخون أنه انتقل بعدها إلى القاهرة لإنقاذ الخلافة من الفوضى التى عمت العاصمة بعد مقتل الخليفة الظافر بأيدى عباس وابنه نصر .

وعليه فيكون طلائع قد بقى بالصعيد ما يقرب من عشرين عاماً بين قوص ، وأسوان والأشمونين ، وقد مهدت له هذه الإقامة بالصعيد كى يصبح نافذ الكلمة ، ولا شك أنه خلال تلك السنين الطويلة قد مكن لنفسه بين أبناء الصعيد ، ولعله اجتذب إليه جماعة منهم ، وكان لسياسته وحسن أدائه ، ونجبه إلى رعيته أثر واضح فى ولائهم له . فتقوى بهم جنداً ، ومناصرين ، وعرف الخلفاء ، ومن التقى بهم من رجال القصر ونسائه ، وكبار رجال الدولة بالقاهرة بقوة طلائع وقدرته . وما يملكه من جند ومال فاتجهوا إليه حين حزبهم الأمر يستجدون به ضد طغيان عباس وابنه نصر بعد مذبة القصر التى دبرها نصر وقتل فيها الخليفة الظافر وجماعة من الأمراء .

قبل أن نساء القصر استجدوا بطلايع ، وكتب القاضى الجليس ابن الحباب يستدعيه ، ومع الكتاب خصلة من شعر بعض نساء القصر .

فهب ابن رزك للنجدة ، ووجدها فرصة لارضاء تطلعه والإيقاع بأعدائه من الغاربة المستوزرين من أمراء الصنهاجين الأعداء التقليديين للخلافة الفاطمية ، والذين انقلبوا عليهم فى عهد عم بن المعز بن باديس الذى يخرج على طاعة المستنصر ، وأعلن ولاءه للعباسيين ، وأعاد الخطبة لهم بالقىروان . كان

(١) راجع المختصر فى أحوال مصر و حوادث سنة ٥٣١ هـ حيث يقول : « فيها عزل الحافظ وزيره بهرام شاه الصرافى الأرمنى بسبب توليته الأرمن على المسلمين ، واهانتهم لهم . فأنف من ذلك شخص يدعى رضوان وجمع جمعاً قصد بهرام ، فهرب بهرام إلى الصعيد » .

عباس الصنهاجي إذا وابنه نصر قد ورثوا الحقد عن آبائهم على الرغم مما أبدوه من قرف منذ تولى يحيى بن تميم ، وعلى بن يحيى حكم القيروان .

لقد كان عباس سنياً ، ووز للفاطميين الشيعة الإسماعيلية قسراً بالغبلة لا بالرضا بعد قتل ابن السلار الذي كان عباس ربيبه .

وبينا كانت هذه الأحداث كلها تدور بالقاهرة ، كان طلائع يرقبها من مكانه المكين الآمن بالصعيد . وقد عمل كما قلنا على أن يدعم مكانته حتى يتهمز الفرصة للوثوب . ولم تلبث أن واتته هذه الفرصة سنة ٥٤٩ هـ وجرت الأحداث الدامية التي أدت إلى استيلاء طلائع على زمام الأمور هكذا .

كان الظافر الذي تولى الخلافة شاباً حدثاً ، اشتغل باللهو لحدائثه سنة ، وتعلّق بنصر ابن عباس الصنهاجي ، وقيل إن علاقة شاذة ربطت بينهما وكان نصر هذا شاباً مستتراً ، متهوراً ، طموحاً ، حدثه نفسه بقتل أبيه ليتولى الوزارة للظافر صديقه ، فلما علم أبوه عباس بما يفكر فيه من دسّ السم له للتخلص منه ، أغراه بقتل الخليفة ليطمعه في الملك . ويكون بذلك قد ضرب عصفوريين بمجر ، تخلص من الخليفة الفاطمي ، الذي كان يطمع لا شك في ملكه حتى يصبح صاحب مصر بعد أن ملك أخوه القيروان . من ناحية وليبعد ابنه عن التفكير في قتله .

وكان الظافر ينادم نصرأ ، ويعاشره ، ويثق فيه ، وينزل بالليل من قصر الخلافة إلى داره بالسيوفيين بالقاهرة . وذات ليلة نزل الظافر ومعه خادم له إلى منزل نصر ، فشربا ، ونام الظافر ، فقام نصر إليه فقتله ، وألقى بجثته في بحر .

وعرف القصر بما حدث ، فثار من فيه يريدون الانتقام من القاتل فما كان من عباس إلا أن جاء بثلاثة من أمراء القصر بأخوى الظافر وابن أخيه قتلهم صبراً بين يديه .

وأخفى مقتل الظافر ، وتظاهر أمام أعيان الدولة ببرأته وابنه من دم الخليفة . وادّعى أن الظافر ركب في مركب فانقلبت به وغرق .

ولكن هذه الحادثة لم تجز على من بالقصر ، فثار جنده وخلمه من السودان ومعهم أهل القاهرة على عباس وابنه لقمعته الشعاء . وطالبوا برأس عباس

وابنه . وتلبث عباس قليلاً وجمع من حوله بعض أعوانه ، وأراد مواجهة الثاقبين ، ولكن الأمور تفاقمت ، وضاعت الحلقةُ حوله بتحريك ابن رزيك من الأشمونين ومنية بنى خصيب في جند كثيف إلى القاهرة .

ولم يجد أسامة بن منقذ ، وكان مصاحباً آنذاك لعباس وابنه بداً من نصيح عباس بهالتوجه إلى الشام هارباً من مصر ، ليفلت برأسه .

وهكذا خرج الثلاثة متخفين مشرقيين إلى الشام ، وقرب مدينة غزة داهمهم جماعة من فرسان الصليبيين ، فقتلوا عباساً ، وأسروا ابنه وتمكن أسامة من الإفلات قاصداً بلدة شيزر قرب حلب .

واختلفت المصادر في أخبار هذه الأحداث الدامية منذ شهر المحرم من سنة ٥٤٨ هـ وحتى تولى الصالح طلائع مقاليد الوزارة . فابن الأثير يقول^(١) : في هذه السنة في المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله . قتله ربيبه عباس بن أبي الفتوح يحيى الصنهاجي . أشار عليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ ، ووافق عليه الخليفة الظافر بالله ، فأمر ولده نصراً ، فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله ، وولى عباس الوزارة بعده .

قال : وكان عباس جاء مع أمه بعد وفاة والده (يحيى) وحل بالإسكندرية وبها العادل بن السلار (ربما كان ذلك في حدود سنة ٥١٥ - سنة ٥١٦ هـ) فتزوج بأُم عباس حتى ولى الوزارة . وكانت الوزارة بمصر لمن غلب ، والخلفاء وراء حجاب . وقل أن ولياً أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك .

وقال ابن القلائس : « وكان الظافر قد ركن إلى أخويه وابن عمه ، وأنس بهم في وقت مسراته ، فاتفقوا عليه واغتالوه ، وذلك في يوم الخميس سلخ صفر وحضر العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة من الأمراء والمقدمين للسلام على الرسم ، قيل لهم إن أمير المؤمنين مُلِّتْناُ الجسم ، فطلبوا الدخول إليه ، فنعوا ، فالتجوا في الدخول بسبب العمادة ، فلم يمكنوا

(١) الكامل ٩ / ٣٨٩ .

فهمجوا ، ودخلوا القصر ، وانكشف أمره ، فقتلوا الثلاثة ، وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنين ، ولقبوه بالفاتح بنصر الله ، وبابيعوه وعباس الوزير إليه تدبير الأمور .

ويبدو أن ابن القلانسي أراد أن يريء عباس وابنه نصر من قتل الخليفة الظافر .

ونعرض شهادة أحد المشاركين في الأحداث وهو أسامة بن منقذ كما ذوّنها بنفسه في مذكراته « الاعتبار »^(١) . قال :

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار — رحمه الله — فإنه كان تجهّز عسكرياً إلى بلييس ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس بن ألى الفتوح (يحيى) بن تميم ابن باديس لحفظ البلاد من الإفرنج ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، فأقام مع أبيه في المعسكر أياماً ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور ، فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى المعسكر ، وهو يظن أنه دخل القاهرة للعب والفرجة ، وللضجر من المقام في المعسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورثب معه قوماً من غلمانه يهجم بهم على العادل في داره إذا أبرّد في دار الحرم ونام ، فيقتله . وقرر مع أستاذ من أستاذي دار العادل أن يعلمه إذا نام ، وصاحبة الدار امرأة العادل أم عباس وجدة نصر ، فهو يدخل إليها بغير إذن .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الأستاذ بنومه ، فهجم عليه في البيت الذي هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه فقتلوه ، رحمه الله . وقطع رأسه وحمله إلى الظافر وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . وفي دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو من ألف رجل . لكنهم في دار السلام . وهو قتل في دار الحرم ، فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رُفع رأس العادل على رمح ، فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين ، فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاقته ،

(١) ذيل تلويح دمشق ص

(٢) الاعتبار ص ٤١ وما بعدها — تحقيق الدكتور قاسم الساروق طبع مؤسسة دار الثقافة والنشر بالرياض سنة ١٩٨٧ م .

وفرقه زومت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر ابن عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته .

وأصبح والده عباس دخل القاهرة ، وجلس في دار الوزارة . وخلع عليه الظافر وفوض إليه الأمر ، وابنه نصر مخالطه ومعاشره ، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يقتلهم ويحوزوا كل ما لهم حتى يتفانوا ، فأحضراني ليلة وهما في خلوة يتعائبان ، وعباس يردد عليه الكلام وابنه مطرق كأنه نمر ، يردد عليه كلمة بعد كلمة يشغاط منها عباس ، ويزيد في لومه وتأنيبه . فقلت لعباس : يا مولاي الأفضل ، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟ . لجعل الملامة لي ، فأنا معه في كل ما يعمل ، وما أتبرأ من خطيئه ولا صوابه . أي شيء هو ذنبه ؟ . ما أساء إلى أحد من أصحابك ، ولا فرط في شيء من مالك ، ولا قدح في دولتك ، خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة . فأمسك عنه والده . ورعى لي ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ، ويصير إلى الوزارة مكانه . وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرته يوماً وقد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثم أغفله أياماً وحمل إليه من الكسوات من كل نوع ما لا رأيت مثله مجتمعاً قبله . وأغفله أياماً ، وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار ، وأغفله أياماً وبعث إليه ثلاثين بغلاً ، وأربعين جملًا ، بعددها وغرائرها وحبالها . وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مع ابن عباس لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً . أنام ورأسي على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلة ، وهو في دار الشايورة ، وقد جاء مرتفع بن فحل فتحدث معي إلى ثلث الليل وأنا معتزل عنهما ، ثم انصرف . فاستدعاني وقال : أين أنت ؟ قلت : عند الطاقة أقرأ القرآن ، فأني اليوم ما تفرغتُ أقرأ . فاجتأ بها تحني بشيء مما كان فيه ليصير ما عندي في ذلك ، ويريدني أقوى عزمه علي سوء ما قد حمله عليه الظافر ، فقلتُ : يا مولاي ، لا يستر لك الشيطان وتخدع لمن يفرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئاً تلعن عليه

إلى يوم القيامة فأطرق وقاطعني الحديث ، ونمنا ، فأطلع والده على الأمر ، فلاطفه واستأله وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان في الليل متكررين ، وهما أترب وسنهما واحد ، (يعنى الظافر ونصر) فدعاه أبى نصر إلى داره وكانت في سوق السيوفين ، ورتب من أصحابه نفرأ في جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه قتلوه . وذلك ليلة الخميس سلخ الحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ورماه في جب داره .

وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس فجلس في خزانة في مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال : وما لولانا ما جلس للسلام ؟. فتبدل الزمام في الجواب ، فصاح عليه وقال : مالك لا تجاوبني ؟.

قال : يا مولاي مولانا لا ندرى أين هو ؟. قال : مثل مولانا يضيع ؟. لرجع فأكشف الحال !. فمضى ورجع وقال : ما وجدنا مولانا ، فقال عباس : ما يبقى الناس بلا خليفة إذ دخل إلى الموالى إخوته يخرج منهم واحد نباهه ، فمضى وعاد وقال : الموالى يقولون لك نحن مالنا في الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله في الظافر . والأمر لولده بعده . قال : أخرجه حتى نباهه .

قال ابن منقذ : وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : إخوته قتلوه ! ويقتلهم به ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبي محمول على كتف أستاذ من أستاذي القصر ، فأخذه عباس فحملة . وبكى الناس . ثم دخل به وهو حامله إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحافظ ، الأمير يوسف والأمير جبريل ، وابن أخيه الأمير أبو البقاء .

ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين ، فما راعنا إلا فوج قد خرج من المجلس إلى القاعة وصوت السيوف على إنسان فقلت لغلام لي أرمني : أبصر من هذا المقتول ؟. فمضى ثم عاد وقال : ما هؤلاء مسلمون . هذا مولاي أبو الأمانة — يعنى الأمير جبريل قد قتلوه . وواحد قد شق بطنه يجلب مصاريه .

ثم خرج عباس وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ،
وقد ضربه بسيف والدّم يغور منه . وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عباس ،
فادخلهما في خزانة في القصر وقتلهما ، وفي القصر ألف سيف مجرد .
وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت لي لما جرى فيه من البغي القبيح
الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق » .

تلك شهادة ابن منقذ وكان مخالطاً لعباس وابنه وهو شاهد عيان لما حدث ،
وقد شهد بقسوة الرجلين ووحشيتهما . والحق إن هذا الحدث من الأحداث
الدامية السوداء التي يستحق عليها عباس وابنه كل ما لقيا من العقاب والنهاية
الدامية ، والله لا يدع الظالمين يرتعون كما يشاعون وراء أطماعهم الدمية .
لقد عبث الرجال بمصير الخلافة الفاطمية هذا العبث وكان لعباس بن يحيى
الصنهاجي البربري على قول ابن رزيك اليد الطولى فيما لقيه البيت الفاطمي من
التنكيل والوحشية التي لم يسمع بمثلها على هذه الصورة البشعة . ومهما تكن
الخلافات والأحقاد بين الناس ، ومهما تكن الأطماع في السلطة ، فإنها لا
تجرد الإنسان من آدميته على هذه الصورة لتحوّله إلى حيوان ووحش ضار بل
إن من الحيوان ما يعف عن مثل هذا .

لقد فعل إذا عباس وابنه نصر فعلتهما وقد تجرد كل منهما من آدميته حتي
تآمر الابن على أبيه والأب على ابنه . وكانا يأملان الفوز بنتيجة هذه اللذبة إلا
أن القدر لم يمهلهما . فثار بهم جند القصر وعبيده ، وبعثت نساء القصر
نستغيث بالأمير القوى بالصعيد طلائع لينقذ البيت الفاطمي والخلافة
الفاطمية .

وأحسّ الرجلان بالخطر فطفقا يجمعان الأموال وكل ما يستطيعان حمله
استعداداً للهروب من غضبة الناس بالقاهرة ، وزحف ابن رزيك ورجاله من
الصعيد .

قال ابن منقذ : « وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس وابنه على
جند مصر ، فإنه لما فعل بأولاد الحافظ رحمه الله ما فعل جفت عليه قلوب
الناس وأضتمروا فيها الغداوة والبغضاء . وكاتب من في القصر من بنات الحافظ

فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزّيك — رحمه الله — يستصرخون به .
وخشّد وخرج من ولايته يريد القاهرة . فأمر عباسُ فعمرت المراكب وحمل
فيها الزاد والسلاح والخزانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسير معه .
وذلك يوم الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين . وأمر ابنه ناصر الدين
بالبقاء في القاهرة . وقال لي (لابن منقذ) : تقيم معه .

فلما خرج من داره متوجهاً إلى لقاء ابن رزّيك خامر عليه الجند وغلّقوا
أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة خيالتهُم تقاتلنا في
الطريق ، ورجّلتهم يرموننا بالنشّاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء
والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات .

ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى النهار إلى العصر ، فاستظهر عليهم
عباس ، وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا ، ولحقهم عباسُ إلى أرض مصر فقتل
منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره ونهيه ، وأمر بإحراق البرقية (وهي محلة
شرق القاهرة نسبت إلى جماعة من جند بركة) لأنها تجمع دور الأجناد .
فلطفتُ الأمر معه ، وقلت : يا مولاي إذا وقعت النار أحرقت ما تريد ومالا
تريد ، وعجزت عن أن تطفئها ، ورددت رأيه عن ذلك . وأخذت الأمان
للأمير المؤمن بن أبي رمادة — من كبار رجال القصر — بعد أن أمر بإتلافه .
واعترضت عنه ففصح عن جرمه .

ثم سكنت تلك الفتنة وقد ارتاع منها عباس ، وتحقق عدواة الجند والأمراء
وأنه لا مقام له بينهم وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام إلى الملك
العادل نور الدين . رحمه الله . يستنجد به ، والرسل بين من في القصور وبين
ابن رزّيك مترددة .

وكان يبنى وبينه — رحمه الله — مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر
فأنفذ إليّ رسولاً يقول لي : عباس ما يقدر على المقام بمصر ، بل هو يخرج منها
إلى الشام ، وأنا أملك البلاد ، وأنت تعرف ما بيني وبينك ، فلا تخرج معه ،
فهو بحاجة إليك في الشام يُرْعِيكَ ويُخرجك معه ، فإلله الله لا تصحبه ، فأنت
شريكى في كل خير أنا له . فكأنّ الشياطين وسوست لعباس بذلك أو توهمه لما
يعلمه بيني وبين ابن رزّيك من المودة .

ومضى ابن منقذ في ذكر حاله مع عباس وابنه وأمر خروجهم من مصر قبل وصول ابن رزيك إلى القاهرة ، فيقول :

« فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الإفرنج ، فإنه لما توهّم من أمرى وأمر ابن رزيك ما توهّمه أو بلغه أحضرتني واستحلفني بالآيمان المغلفة التي لا يخرج منها أني أخرج معه وأصخبه ، ولم يقنعه ذلك حتى أتفد في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمة ، أخذ أهلي ووالدتي وأولادي إلى داره وقال لي : أنا أحمل كلقتهم عنك في الطريق ، وأحملهم مع والدتي ناصر الدين . واهتمّ بأمر مسفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجال كعادتهم بمصر . ومائتا بئر رحى ، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله .

قال ابن منقذ : وكان عباس كثير اللهب بالنجوم ، وهو معول على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول من السنة .» .

وواضح من مجربات الأمور أنه كانت بين عباس ونور الدين محمود صاحب دمشق والشام رسائل وتفاهم ، بل ربما كانت وقعة عباس وابنه بالخليفة الفاطمي وأمراته من وحى هذه الرسائل ، حتى يتقرب من نور الدين بالقضاء على أعدائه في المذهب والسياسة .

وواضح كذلك أنه أراد من ابن منقذ أن يلعب دوراً في التقريب بينهما وكذلك لأصراره على السفر معه إلى الشام على ما جاء من كلام ابن رزيك لابن منقذ في حثه على تركه والبقاء بمصر .

وهكذا غادر عباس وابنه نصر وابن منقذ مصر إلى الشام حيث قتل عباس وأسر ابنه كما ذكرنا وهرب ابن منقذ إلى بلده .

ولم يلبث ابن رزيك بعد توليه الأمر بالقاهرة أن اتفق مع الصليبيين على تسليمه نصر مقابل مبلغ كبير من المال فجاء نصر إلى القاهرة في قفص من الحديد ليبتقم منه أولياء دم من قتلهم ، وليصلب على باب زويلة جزاء فعلته الشنعاء .

جاء إذا ابن رزيك إلى القاهرة بعد أن كتب إليه ابن الحباب رسالة جلّها

بالسواد ومعها بعض خصلات من شعر أخوات الظافر ، وفي الرسالة قصيدة لابن الحباب يقول فيها :

دهتى عن نظم القريض عَوَّادِي	وشفَّ فَوَّادِي شَجْوُهُ التَّمَادِي
وَأَرْقُ عَيْنِي وَالْعَيُونُ هَوَاجِعُ	هَمُومٌ أَقْضَتْ مُضْجَنِي وَوَسَادِي
بِمَصْرَعِ أَبْنَاءِ الرَّصَى وَعَتْرَةِ النَّبِيِّ	وَالْذَارِبَاتِ وَصَادِي
فَأَيْنَ بَنُو رَزْزِيكَ عَنْهُمْ وَنَصْرَهُمُ	وَمَالَهُمْ مِنْ مَنَعَةٍ وَزِيَادِ
أَوْلَئِكَ أَنْصَارُ الْهَدَى وَبَنُو الرُّدَى	وَمُسُّ الْبَعْدَى مِنْ حَاضِرِينَ وَبَادِي
لَقَدْ هُدُّ رُكُنُ الدِّينِ لَيْلَةً قَتَلَهُ	بِخَيْرِ دَلِيلٍ لِلنَّجَاةِ وَهَادِي
تَدَارَكَ مِنَ الْإِيمَانِ قَبْلَ دُثُورِهِ	حَشَاشَةُ نَفْسٍ أَذْنَتْ بِتَقَادِي
وَقَدْ كَادَ أَنْ يُطْفِئَ تَالِي نُورِهِ	عَلَى الْحَقِّ عَادٍ مِنْ بَقِيَّةِ عَادِ
فَلَوْ عَايَنْتَ عَيْنَاكَ بِالْقَصْرِ يَوْمَهُمُ	وَمَصْرَعَهُمْ لَمْ تَكُنْ تَجِلُّ بِرُقَادِ

وهي من قصيدة طويلة ، كلها على هذا النمط من طلب النجدة والاستصراخ لانقاذ ما تبقى من البيت القاطمى .

وأعدَّ ابن رَزْزِيكَ عُدَّتَهُ ، وجمع جموعه ، ونَحَرَكَ إِلَى الْقَاهِرَةِ لِيُعِيدَ إِلَى الدَّوْلَةِ هَيْبَتَهَا بَعْدَ أَنْ حَطَمَتَهَا هَذِهِ الْأَحْدَاثُ الْمُتَتَابِعَةُ ، وَأَدَالَ مِنْ قُدْرَتِهَا عِبْتَ الْعَابِثِينَ ، وَمَغَامِرَاتِ الْمَغَامِرِينَ ، وَقَدْ آنَسُوا مِنْ ضَعْفِ الْخُلَفَاءِ ، وَصَغَرِ سَيْتِهِمْ ، وَسَيْطَرَةِ نِسَاءِ الْقَصْرِ ثَغْرَةً يَنْفِذُونَ مِنْهَا إِلَى مَرَادِهِمْ ، وَيَحْقُقُونَ بَغْيَهُمْ .

ولما وصل ابن رَزْزِيكَ استقبل استقبال المنقذ ، فتعلقوا بحباله ، وكانت للقصر ورجاله به معرفة سابقة ، لا شغفاله به زمناً عند وفوده ، كذلك كانت تربطه بكبار الكتَّاب والقادة صلات موقَّعة وزمالة . وكان من بين أهل مودته ابن الخلَّال ، صاحب ديوان الإنشاء ، والجلس بن الحباب القاضي وكبير الكتَّاب وصاحب النفوذ في القصر .

وصل إلى القاهرة ، وكفل الخليفة الصبى « الفائز » وساس الأمور فقضى على أصول الفساد ، وأعمل السيف في بقايا أنصار عباس وأعوانه وسار في الناس سيرة حسنة .

وصدر له السجل بتولية الوزارة وتلقيه بالملك الصالح ، وهو أول من لقب بلقب الملك من وزراء الفاطميين الكبار .

وهذه صورة السجل — المرسوم — بتعيينه ، كتبه أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلّال عن الفائز الخليفة في ربيع الثاني من عام تسع وأربعين وخمسمائة يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ فالحمد لله المنعم على المخلصين من أوليائه بسوابغ الآله ، والمتكفل لمن نصره بنصره ، وثبّيت قدمه وإعلاّته ، الممهد لمن قام بحقه أرفع مراتب الدنيا والآخرة ، والموضح لمن حامى عن الدولة الفاطمية آيات التأيد الباهرة ، والجامع القلوب على طاعة من أطاعه في الدفع عن أهل بيت نبّه . والمحسن لمن أحسن إلى مهجته ، غيرة لأئمة الهدى المصطفين من عبّرة وصيه ، والمذلّل الصعاب لمن رفع راية الإيمان ونشرها ، والميسر الطلاب لمن أحى كلمة التوحيد ونشرها ، ممن حادّ الله ورسوله ممن اصطفاه من أبرار عباده والمالحي إساءة من أعلن ببيان الحق ، وجهر بعبادته ، والمعرض من أسعده بالسبق إلى مرضاته لنيل غايات المسّ الجسيم ، والمرتّب من جاهد في ذاته في أرفع مراتب الإجلال والتفخيم ، والموجب لمن أخلص منهم وأحسن عملاً تعجّل مقام الفخر الكريم . وتأجل الخلود في النعيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذي أوضح أنوار الحقائق بأنبيائه الهداة ، وأبان برُسُلِهِ الأُمَناء لبيادِهِ مناهج النجاة ، وجعل العمل بمراسمهم ذريعة الموقنين إلى أعلى المنازل ، ورفع الدرجات وختمهم بأفضلهم نفساً ومحتداً . وأحقهم بأن يكون لِكُفَاتِهِمْ سيّداً . محمد حمّادى الأنام والداعى إلى الإسلام ، والمخصوص بانشقاق القمر وتظليل الغمام ، وأورث أخاه وابن عمه بامرّ شرفه ، وبارع علمه . وأفرده بإمامة البشر وخصّ ، وأقرّها فيه وفي عَقْبِهِ إلى يوم القيامة بجلى النّص . فأصبحت الإمامة للملّة الخنيفة قدماً ، ولأسباب الشريعة بأسرها نظاماً . ونقل الله نورها في أئمة الهدى من نسله ، فتناولها الآخر عن الأول . وتلقاها الأكمل عن الأكمل . فكلّما رام معانِد أن يحيف بنورها ، أو قصد منافق أخفاء ظهورها زاد أنوارها إشراقاً ، ووجد لبدورها كمالاً واتساقاً ، ومكّن

قواعد دولتها ، وإن زحزحها الغادرون ، وأحكم معاقدها ، وإن اجتهد في حلها الماكرون . (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَاللَّهُ مَتِّمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

والحمد لله الذي حفظ بأمر المؤمنين نظام الخلافة واتساقها ، وحمل بميامنه دوحه الأمانة ، وأبقى نضرتها وإبراقها ، وأورث خصائص الأئمة الراشدين من آباءه وأودعه سراير دينه المصونة في صلور أنبيائه ، وأيده بموارد الإرشاد والإلهام ، وجعل طاعته فرضاً مؤكداً على كافة الأنعام . وخصه بالتوفيق والعصمة وأفاض للأمة به سيجال الرحمة ، وأبرم بأمانته أمر الملّة ، وجعله من المهديّة . قال جل وعلا : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْتُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) .

يمجده أمير المؤمنين على ما نقله إليه من خصائص آباءه الأئمة الأطهار وأيده في أخصاري دعوته من العلو والاستظهار ، وانغفوه من جنود السماء والأرض وأظهر له من معجزاته وآياته ، وأظهر من مزيتة من مظاهر الظفر لألويته وروايته ، ونسأله أن يصلي على جده محمد النبي الأمين ، ورسوله المبعوث في الأميين ، الهادي إلى جنات النعيم ، والمحيطه متابعته بالفوز العظيم . الذي جلا الله ظلمات الجهالة ببعثه ، وشرف الأئمة من ذريته بمقامه ومورثه ، ورد النافر إلى الطاعة بالبر والإيناس ، وجعله خير رسول إلى خير أمة أخرجت للناس . وعلى أخيه وابن عمه أئمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قسيمه في المناسب والفضائل ، وثالثه في تشفيح الدرائع والوسائل ومفرج الكرب عنه بمؤازرته وصدق كفاحه ، وباب مدينة علمه الذي لا يوصل إليه إلا باستفتاحه . وعلى الأئمة من ذريتهما الذين بلغ الله بهم الأرب والسؤال ، وأغنى الأئمة بهداهم عن التفقيع بعلمه برسوله ، والعزّة المصطفين ، وأحد الثقلين ، وبحار العلم الناجرة والمرجوين لصالح الدنيا والآخرة . وسلم ومجد ، وآل ، ووّد .

وإن أمير المؤمنين لما مهله الله من الشرف الباذخ ، وحازّه لمنصبه من الفخر الأصيل ، واجد الشاخص ، وأفرد به خلافته على العالمين ، وحياه به من ضروب الوجافة والكرامة ، وأفاضه عليه من أنوار الإمامة ، وواصله إليه من العناية الشاملة والبر الحفي ، وجمعه له من الإحسان الجلي واللطف الحفي ، وأقره من

مواهب الفضل والإفضال لديه ، وجعل في كل حركة وسكون دليلاً واضحاً يُشير إليه ، يُقَلِّدُ نِعَمَ الله حق قدرها ، ويواصل العكوف على الاعتداد بها ونشرها . ويبلغ في شكرها قولاً وعملاً ونيةً ، ويجهد نفسه في حمدنا اجتداداً يرجو به تزك الأمتية ، ويتحقق أن أسماها محلاً وقدرًا ، وأولاهها على كافة البرية ثناءً وشكرًا ، وأعلاها قيمة ، وأعظمها نفعًا ، وأعذبها ديمًا ، وأجمعها لضروب الجدَل والاستبشار ، وأجدرها بأن تؤثر في الأمم أحسن الآثار . وأوسعها في مضمار الاعتداد بمجالاتها ، وأعظمها على الرئيس والمرعوس نفعًا ومجالاً . النعمة بك أيها السيد الأجل ، والثغوث والدعاء ، إذ كنت نجدة الله المذخورة . لأنماته على خلقه ، والقائم دون البرية بما افترضه عليهم من مظاهرة أمير المؤمنين ، والأخذ له بحقه . والطف الذي كان من الإمامة ومن أغلامها حاجزا . والنصر الذي أصبح أمير المؤمنين بهون الله به فائزًا وحزب الله القاهر الغالب ، وشهاب أمير المؤمنين الصائب الثاقب ، بغية ظلّه الذي على العام والخاص ، ومنهل فضله الذي يصفو ويعذب للنبي الولاء والإخلاص . وسيفه الذي يستأصل شائقة ذوى الشقاق والتفاق ، ويده التي ينبعث منها ينابيع العطاء وسحاب الأرزاق . والولي الذي ارتضاه أمير المؤمنين للمصالح كفيلا ، والصفى الذي لا تبغى دولته عن مؤازرته تبديلا . فعلو قدرك عند أمير المؤمنين لا يتنى إلى أمد محدود ، وقيامك بالأخذ بحقه يتجاوز كل سعي مبرور ومقام محمود . ودعائه بنصرك الله في طاعته يصغر عنده كل عظيم في مجافاتك . وشفاؤك صدر أمير المؤمنين من أعدائه أعجز القدرة عما يشفى غليله في إحسان مجازاتك .

ولقد حُزنت من المآثر ما فقت به أهل عصرك تقلماً وسبقاً ، وسموت بمجلائك إلى ذرى مجد لا تجد لهمم العالية إلى تنميتها ترقى ، ومازلت في كل أزمته سلطاناً مهيباً ، وفرداً في المجالس لا تُدرِك له الأفكار ضربياً .. ومقولاً تُبارى ببيانه الأندية والمخاض ، وهماماً باسمه الشهاب تُذعن المخاض ، وسيداً تلقى إليه مقاليد التقدمة والسيادة ، ومُعظماً ليس على ما خصه الله به من التعظيم موضع لزيادة . كشف الله أمرك في آلاء فدعائك لائمت به طهيرا ، وزاد في إنعامه على الأمة فارتضاك لهداية أهل بيته مُعيناً ونصيراً ، ووفر نصيبك من الفضائل وال مناقب فوهبك منها ما أفاضه عليك شرفاً ، وأحظى الملوك بتمسكك

وكونك لهم فخرًا وشفقًا ، فلا رتبة علا إلا فرعتها مُنزلًا ، ولا منزلة سناً إلا وقد سُموت إليها منتقلًا . ولا مزية إلا احتويت عليها وحُرُنْها ولا منزلة فخرٍ إلا طَلَّتْها بفضلُك وجرحها ، ولا مآثرة إلا وكنت فاتح بابها ، ولا منزلة خطيرة إلا وأنت مُستوحِجها وأوّلُ بها ، ولا جماع مجد إلا وخصائلك طالعة في آفاقها أقمارًا ، ولا موقف فضيل إلا ولك فيه تقدم لا تُنازَع فيه ولا ثماري ، فما يُوجد مقدّم إلا وقد فضّلته بأثارك وتقدمته ، ولا يُميز إلا أسَمته في جناب فضلك ورسمته .

تقلدت جلالَ الأمور فلبستُها نباهةً وتقويماً ، وباشرئها فاحررْتُ مناقبك جلالةً ووجاهةً ، وتفخيمًا ، تُجرِجُ بك الرُتب أفيالَ الفخر والإجلال وتزدهي بأفعالك التي يُعَتُّ عليها ما أوتيته من شرف الخلال . ولم يزل تدبير أولياء الدولة ورجالها بفضلائل سياستك . فتُبَّتْ لهم الأقدام ، وتكسيهم عزة النفوس . فليستينوا في حق الانتصار بك ملاقاتة الجِمام .

ورمى الله بك طُغاة الكُفَّار لتأييد الإسلام ، واختارك للمجاهدة عن الإملة فأصْبَحْتَ بك مرفوعة الأعلام ...

.... فما يُلُغُ التعدادُ ما جمعته من المناقب والفضائل ، ولا يستولِ الإحصاءُ علي مالك من المفاخر التي لا يحيط بها أحدٌ من الملوك الأوائل . فتجمع زُهد الأبدال إلى همم الأكاسرة ، وتوفق في أعمالك بين ما يقتضيه صلاح الدنيا وحسن نواب الآخرة . فأنت البر الثقي ، الثقي الحسيب ، الطاهر ، المبرأ من كل دنسٍ وحب .

.... وحوثت من الأخلاق الملوكية ما قصرَ بعظماء الملوك عن مجاراتك . واقتنيت من الحكَم والمعارف ما جعلَ كافة العلماء مُعترفين بعظيم فضيلة ذاتك ...

.... ولقد كان وقع التحامل على الحضرة يبعدك عن فنائها ... على أنك لم تُخل من نُصرتها على بُعد الدار ، بل نصرت الحق حيث كان ، ودرت معه حيث دار .

وقد كان أمير المؤمنين حيث اشتدت الأمور ، وحرجت الصدور ، وحازت الألباب واستشرف للارتياح يرجو من الله أن يفجأه منك بالفرج القريب ، ويصمى أعداءه من عزيمك بالسهم المصيب . واستجاب الله دُعاه . فيك بما ماثل دعاء جده رسول الله ﷺ — وضاهاه . وحصل في ذلك على معنى قوله تعالى : (قد تَرَى ثَقْلَب وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتَبِئْكَ ثِقْلَةُ ثَرَضَاهَا) . ولما أذهب الله بك أيها السيد الأجل الملك الصالح عن دولة أمير المؤمنين غايات الغي ، وأدرك بها تار أولياء الله من ذوي المباينة واليمنى . وأحسن الله الصنيع بمؤازرتك ، ... فقلبك من وزارته ، وفوض إليك تدبير مملكته وكفالاته . وجعل لك إمارة جيوشه الميامين ، وكفالة قضية المسلمين ، وهداية دعاه المؤمنين ، وتدير ما هو مردود إليهم من الصلاة والخطابة وإرشاد الأولياء المستجيبين ، والنظر في كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين . وجنوده وعساكره المؤيدين ، وكافة رعاياه بالحضر ، وجميع أعمال المملكة ذاتها وقاصبا ، وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها ، وكل ما تنفذ فيه أوامره ، ويتوج بشعاره منامره . ورد إليك تدبير ما وراء سرير خلافته ، وسياسة ما تحتوى عليه أقطار مملكته ، وألقى إليك مقاليد البسط والقبض ، والرفع والخفض ، والابرار والنقض ، والقطع والوصل ، والولاية والعزل ، والتصرف والصرف ، والإمضاء والوقف ، والغض والتنبية ، والإخمال والتنويه ، وجميع ما يقتضيه صواب التدبير من الإنعام والإرغام وما توصيه أحكام السياسة من الإبداء والإتمام تيمناً بما يُحقق مبالغتك في متابعتك ، واجتهادك في إعلاء منار دعوته . وعلمنا بأن التوفيق لا يعدو ورائك والسعود لا يفارق أمحائك .

وفصل بعد ذلك الأمور التي قوضها إليه وأوجزها من شئون الدولة الداخلية والخارجية وشئون الحرب والجيش ، والشئون المالية والاقتصادية والإدارية ، والأمور الدينية فيما يتصل بالقضاة ورجال الدين من الأئمة وخطباء المساجد ... إلخ .

وهذا تفويض كامل بالحكم وشئون سلطانه ، بحيث لا يبقى شيء بعده للخليفة ليقول كلمته فيه ، فيصبح بهذا كما قيل صورة في القصر لا تقض يده ولا إمرام .

وهذا السجل بهذا التفويض الجامع الشامل لم يحفظ به أحد من وزراء الدولة الكبار من قبل ، ولا الوزير الأفضل بن بدر الجمالي على ما كان له من السلطة والاستبداد بالأمر .

وأصبح الملك الصالح طلائع بن رزيك بهذا السجل الحاكم الفعلي للبلاد . وربما استحق ذلك لأنه المنقذ للخلافة من الانهيار والضياع . وكان لإيمان طلائع بمذهب الشيعة وتحمسه له ما طمأن قصر الخلافة ورجلها ، فأودعوه ثقتهم لأن السابقين عليه ممن حاولوا التقلب على الأمر بالتطلع إلى الوزارة لم يخلصوا للمذهب بل كان منهم من كان من أعداء من يدين بالمذهب السني المعارض كالولكشبي وعباس ، بل وبعض أمراء البيت الفاطمي نفسه كالحسن بن الحافظ الذي قيل إنه عارض أباه ودان بالمذهب السني وأراد أن يسلب منه الخلافة .

لقد جاء طلائع إذا وصار متعصباً لإرساء قواعد المذهب مدافعاً عنه بالسيف والقلم ، وإن لم يعلن العداء للسنة لعلمه بأنهم يملكون من القوة في الشام وبعض أنحاء مصر ما يمكنهم من حصاره ومضايقته . فآثر أن يساورهم ، ويسعى إلى التحالف معهم ، وبخاصة ملوك الشام من آل زنكي ، وأقوام نور الدين محمود .

وهذا السجل الفريد في تعيين الوزراء ، قريب من قصيدة المديح لما يحويه من ألفاظ الإطراء على الرجل وحمته وأخلاقه . ولا شك أن كاتبه الخلل كان يستوحى خاطره وأحاسيسه الخاصة نحو الرجل إلى جانب استشعاره الحاجة إلى هذه الشخصية القوية التي تحفظ على البلد كيانه ، وتحوطه برعايته وتكبت أعداءه وكل من يترهبه به من الخارج أو الداخل .

وقد أضاف الفائز الخليفة نفسه على هامش السجل ما يفيد هذا التقدير في عبارات من التبريز والتبجيل لشخص طلائع .

ولقد قام طلائع بالدور المنوط به وأمسك بجميع الخيوط بين يديه وأعاد للحكم هيبته ، وأعاد عهد الوزراء العظام ، وأجرى الدماء في عروق الدولة التي بدت قبل امساكه بالزمام وكأنها تلفظ أنفاسها ، وتمرّ بأخر أيامها .

ويبدو أن شخصية طلائع كانت شخصية عجيبة خلطت له لما كان يجمع بين جوانحه من خصائل عدة ، فهو يتمتع بلباقة النطق والذكاء ، والأدب والشعر والحزم وحسن المعاشرة والكرم ، والمقدرة على اكتساب الأعراف والأولياء .

وقد دعت هذه الشخصية من سمع عنها ولم يخالطها إلى الإعجاب بها ، فهذا عماد الدين الأصبهاني معاصره ، وإن لم يره ولم يختلط به ، بل سمع عنه وعن سجاياه ، وأدبه وشعره فكتب عنه مقررًا في أول حديثه عنه شاعرًا مصريًا في خبريته ما لم يكتب عن أحد غيره ممن كتب عنهم من شعراء المصريين باستثناء القاضي الفاضل صاحبه ، علماً بأن طلائع كان مخالفاً للمذهب العماد ووزيراً لخلفاء الفاطميين ، جاء العماد كاتباً في دولة أخرى تعقبته ، وحاولت بحو آثارهم وقرط ابن رزيك بكلام مطنب ، في الوقت الذي سخر فيه وقلل من شأن غيره من شعراء الفاطميين .

فما قاله العماد (١) :

« سلطان مصر في زمان الفائز ، وأول زمان العاضد . ملك مصر واستولى على صاحب القصر ، ووفق في زمانه النظم والنثر ، واسترق بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاضي بالعطاء .

وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته ، وإحكام مبادئ حكمته ، وأقسام معالي بلاغته .

.... وقُتِلَ به في دهليز القصر في سنة ست وخمسين وخمسمائة بالقاهرة وانكسفت شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعرُ الشعر ، وانخفض علمُ العلم ، وضائق فضاء الفضل ، واتسع جاءُ الجهل ، وانحلَّ نظام أهل النظم

(١) الخريدة ١ / ١٧٣ قسم شعره مصر .

وانتثر عقد ذوى النثر . واستشعر الفاقة الشعراء ، وعدم البلغة البالغاء . وعُدَّ الفضل فضولاً ، والعقل عقولاً ... وعمُّ الرزء ... فلم تزل مصر بعده منحوسة الخط ، منسوخة الجذ ، منكوسة الراية ، معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسف الثالث .

وقد أعاد دولة الشعر والأدب إلى زاهر عصرها أيام الأفضل ، وصار بفضل تشجيعه لهم واجتماعه بهم مناراً في هذه السنوات التى قضاهما فى السلطة ، وكان يجمع الفقهاء وينظرهم على الإمامة وعلى القدس .

ويدور أنه كان يرى رأى المعتزلة قال ابن العماد : « صنف فى ذلك كتاباً سماً » الاجتهاد فى الرد على أهل العناد . فُرر فيه قواعد التشيع ^(١) .

بنى جامع الصالح خارج باب زويلة .

كان طلائع يعقد مجلساً فى منزله لىالى الجمع ^(٢) ، يجتمع فيه مع جلسائه من العلماء والأدباء والشعراء ، والصفوة من رجال الدولة والمجتمع وأمرائه ، لسماع قراءة مسلم والبخارى وأمثالهما من كتب الحديث . وكان من جلسائه المهذب بن الزبير ، والقاضى الجليس بن الحباب وعمارة اليمنى .

قال عنه عمارة ^(٣) : كان مرتاضاً قد شَمَّ أطراف المعارف ، وتميَّز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة . وكان شاعراً محباً للأدب وأهله ، ويكرم جلسيه ويسطُّ أنيسه . وكان كرمه أقرب إلى الجزيل من الجزيل .

وقال ^(٤) : ولم تكن مجالسُ أنيسه تقطَعُ إلا بالذاكرة فى أنواع العلوم الشرعية والأدبية ، وفى مذاكرة مواقع الحروب مع أمراء دولته . وكانت أحواله طوراً له وتارة عليه .

فما هو عليه فرط العصبية فى المذهب ، ولو شرحت هذه الواحدة لكثرت

(١) شذرات الذهب ٤ / ١٧٧ .

(٢) راجع بدائع البهائم لعل بن ظافر ١٨٥ .

(٣) النكت المصرية ص ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤٧ .

وطالت واتسعت وعالت . ومنها جمع المال واحتجازه . وهذه هي غرامه وأشجانه . ومنها الميل على جانب الجند وإضعافهم والقصّ من أطرافهم .

وكان يعرض شعره على من حضره من الشعراء ، من ذلك ما رواه عمارة قال^(١) : ودخلت عليه ليلة السادس عشر من رمضان سنة ست وخمسين قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السباط ، ولم أكن رأيت من أول الشهر بليل ، فأمر لي بذهب وقال : لا تبرخ ، ودخل ثم خرج إليّ وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة وهما :

نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَنَوْمٍ وَلِلْمَرْءِ عَيْنٌ يَقْظَانَةُ لَا تَنَامُ
قَدْ رَحَلْنَا إِلَى الْحِمَامِ سَيْنَا لَيْتَ شِعْرِي مَتَى يَكُونُ الْحِمَامُ

ثم قال لي : تأملتهما وأصلحهما إن كان فيهما شيء . قلت : هما صالحان . وكانت دار الصالح بالفسطاط ، حيث كانت دار الوزارة ، وبها كان يجتمع بأصحابه .

وانضمّ عمارة إلى جلسائه سنة ٥٥٠ هـ بعد وفوده رسولاً من وإلى الحرمين الشريفين . وذكر من جلسائه من أصحاب القلم الشيخ المجلسي ابن الحباب ، وابن الخلال ، والشاعر محمود بن قادوس ، والمهذب بن الزبير .

ومن أصحاب السيف ابنه رزّيك ، وصهره سيف الدين حسين ، وأخوه فارس المسلم بن بدر الدين بن رزّيك ، وقريبه حسام . وهؤلاء من أهله ، وأما غيرهم من الأمراء فمنهم ضرغام الذي نال الوزارة من بعده ، وعلى بن الرّيد ، ويحيى بن الخياط ومحمد بن شمس الخلافة .

واتهم طلائع في شاعريته ، كما اتهم من قبله الأمير تميم بن المعز ، فقيل إن المهذب بن الزبير وابن الحباب كانا يصنعان له شعره . ودافع عنه العماد الأصمباني فنفى هذه الفرية وكذلك ابن خلكان قبله . وقال ابن خلكان إنه رأى ديوان شعره في مجلدين . وذكر العيني في عقد الجمان أن أكثر أشعاره في مدح أهل البيت .

(١) المصدر نفسه ص ٤٩ .

وكان ابن رزّيك يتمسب إلى غسان القبيلة العربية التي كان منها أمراء الشام قبل الإسلام . وكان الشعراء يمدحونه بذلك .

واهتم ابن رزّيك بحرب الصليبيين بالشام ، وأكثر من الغارة عليهم ولم يهدأ له عين في جهادهم ، ولقب بأبي الغارات لذلك .

ولم تدم أيام طلائع كثيراً فقد اغتيل في رمضان سنة ٥٥٦ هـ . في أيام العاضد وقيل في مقتله إنه كان بتدبير من بعض الخوارج أى من رجال القصر وعلية القوم من الأعيان لأنه ضيق عليهم في المال . وقيل إنه كان بتدبير من عمه العاضد وكان طلائع قد زوجه ابنته . وكانت هذه السيدة الشريفة تسمى ست القصور وهى أخت الخافض . وكانت لها كلمة مسموعة في قصر الخلافة منذ عهد أخيها ، وكانت تجيز الشعراء وتبعث إليهم جوائزهم ، ووصلت الشاعر عمارة أكثر من مرة .

وروى المؤرخون حادثة قتله قالوا :

« وكان سبب قتله أنه تحكّم في الدولة التحكم العظيم ، واستبدّ بالأمر والنهي وجباية الأموال إليه لصغر العاضد ، ولأنه هو الذى ولّاه ، ووتر الناس ، فأله أخرج كثيراً من أعيانهم ، وفرقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ، ثم إنه زوّج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرّم في القصر ، فأرسكت عمّة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين . ودعيتهم إلى قتله . وكان أشدهم في ذلك عليه إنسان يقال له ابن اللّاعى ، فوقفوا له في دهليز القصر ، فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش فجرّحوه جراحات مهلكة ، إلا أنه حُبل إلى داره وفيه حياة ، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله ، فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به . فقال : إن كنت بريئاً فسلم عمتك إليّ حتى أنتقم منها ، فأمر بأخذها ، فأرسل إليها فأخذها قهراً ، وأحضرت عنده فقتلها ، ووصى بالوزارة لابنه رزّيك ولقب العادل » (١) .

(١) الكامل لابن الأثير ٩ / ٤٨٩ في حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

شعره موضوعاته وصنعتة

وديان شعره مفقود ، ما بقي منه مفرق في مصادر متعددة ، ومعظمه كما ذكر يدور حول آل البيت وعلى والحسين ذكرًا لمنقب أو رثاء وبكاء يليه أبيات في الحكمة والزهد والنصح ، وقد استغرقت الرسائل بينه والشاعر الفارس أسامة بن منقذ حيزًا من شعره ، تحدث فيها عن بلاله الصليبي ، وربما شاركه أسامة في غارة كتابه على بعض مواقع الفرخبة بالشام .

وفي الديوان مطارحات شعرية بينه وبعض من كان يجالسهم من الشعراء أمثال الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير .

ونبدأ الحديث عن شعره الذي بث فيه عقيدته الشيعية وولائه لآل البيت . من ذلك قصيدة همزية في مدحهم ، يقول فيها^(١) :

من الأحباب قرّني ولائي	ومن أعدائي برّائي برائي
ألا إني تجرّْتُ فكان يبعي	لغير أئمتي . ولهم شرّائي
جرّْتُ إليهم طلقاً عنائي	ونخلتُ السوابق من ورائي
ولما صَحُّ لي بهم اعتقادي	بنور هداهمُ استوقفت رائي

يقول :

فبائن قد تقدّم لي بنصيح	تأخّر ، ما بجهلك من تخفاء
أأسي في مسائل مُبهمات	وأرجع إليك عن ستن السماء
ولو أني رأيت كما تراهُ	وقد لمح السرابُ هرقُ مائي
وكيف سباحتي في بحر بحر	بعيد الشاطئين من الرّواء
ولو أصغيتُ نحوك في سبيل الـ	تُجملُ كأن يمتنعني وقائي
هديث لي الرّشاد وأنت كايي	زناد الطرف ممتنع الحياء

حتى يقول :

ألا إني لأهل البيت عبّد	مطيع ليس ينجح للإبائ
بهم تلك السعادة يا شقيّا	ولم بين السعادة والشقا

(١) ديوان طلائع جمع وترويب وتقديم محمد هادي الأميني طبع النجف سنة ١٩٦٤ م .

ففى آل النبىِّ نظمتُ مدجى وشئتُ المسامحَ من ثنائى
واضح من نظم الآيات فقرأها الفتى ، ونثرتها ، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنها
من أوائل ما صنع من الشعر ، وليست فى مرحلة نضجه . ربما كانت فى أول
حضوره إلى مصر وتوليه العمل بديوان الكتاب .

وتجىء هذه القطعة البائية الروى أجود صياغة ، وقد قالها فى مدح الإمام على
بن أبى طالب :

لنأذة سمعى فى قراع الكتائب ألد وأشهى من عناق الحبايب
وأحسن فى عيني من البرق فى الدجى وميض المواضى فى غلالمواكب

وفىها ما يدل على أنه قالها فى توليه منصب الوزارة ، وانشغاله بمحاربة الأعداء
التربصين بالدين والدولة . وفىها ردٌّ على أتهامه بالتهم فى جمع المال إذ يقول :

وما شغفى بالمال أبغى بقائه ولكن أرى حنقه بالمواهب
ورأى لائقى الخيل عنى ليعضه إلى كما أنفى إمام التوحيب

وهو فى قوله الأول متعللاً فى جمعه المال برغبته فى انفاقه قريب من قول
الظفرانى :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قبل
ولا ينسى فى عجز البيت الثانى غمز الخليفة العباسى ، فهو إمام التلمبه عند
الشيعة :

ومضى فى الحديث عن ولائه لآل على فيقول :

ألا إننى أمسكت أغصان ذوذة أتت بأفانين الثمار الأطايب
لقد لاح لى برق اليقين ولم يكن ليخدعنى برق الأمانى الكواذب
وماتساوى الأرض فى المجد والسما وكل علا تربيته فى المراتب
بال رسول الله ناجيت خالقي بصديق فأنجو من نيوب الخوايب
فصلبت بهم بين المسالك مظلتنا فما جئت ، لكنى بلغت مطالبى
بهم تبلغ الأمال من كل أمل بهم تقبل التوبات من كل نائب
أئمة حق لو يسرون فى الدجى بلا قمر لاستصحبوا بالناهب

بَأْتِي بِهِمْ أَتَحَالَ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ
إِلَى غَيْرِهِمْ فَلْيَعْلَمُوا غَيْرُ رَاغِبٍ
أَبَانَ غَمُوضُ الْمَشْكِلَاتِ الْغَرَائِبِ
يَرَاهُ ذَوُو الْأَحْسَابِ ضَرْبَةً لِأَرْبِ
وَلَمْ تَرَهُ بَعْدَ النَّبِيِّ لِصَاحِبِ
وَقَدْ رَدَّ عَنْهَا رَاغِمًا كُلَّ خَاطِبِ
هُوَ الْبَدْرُ تِمَا فِي سَمَاءِ الْمُتَاقِبِ
قَلِيلَ احْتِقَاءٍ بِالْقَنَا وَالْقَوَاضِبِ

يُخَيَّلُ لِي لَمَّا امْتَدَحْتَهُمْ غَلَا
رَغَبْتُ إِلَى آلِ الرُّسُولِ وَإِنِّي
فَمِنْهُمْ إِمَامُ الْخَلْقِ حَيْدَرُهُ الَّذِي
عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَاؤُهُ
عَلَيْهِ، تَرَى الْإِجْمَاعَ لِأَشْكَائِكَ وَقَعَا
وَرُؤُوحُهُ الرَّحْمَنُ بِالطَّهَرِ فَاطِلَمَا
عَلَيْهِ هُوَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فِي الضُّحَى
عَلَى الَّذِي قَدْ كَانَ إِنْ حَضَرَ الرُّغْسَى

حتى يقول بأحقية على وأبنائه في الخلافة ، وأنها صُرفت عنهم :

وَصِيرْتُمُوهَا بَعْدَهُ فِي الْأَجَانِبِ
لَوْ اخْتَرْتُمُ الْإِنْصَافَ مِنْ آلِ طَالِبِ

أَخَذْتُمْ عَلَى الْقَرَبِيِّ خِلَافَةَ أَحْمَدِ
وَأَيْنَ عَلَى الْإِنْصَافِ تَيْمٌ مِنْ مُرَّةِ

ويعمد في هذا اللون من الشعر الشيعة إلى معارضة بعض شعراء الشيعة السابقين من مثل السيد الحميري والكميت ودعل بن علي الخزاعي . فهو على سبيل المثال يعارض قصيدة دعل البائية المشهورة :

وَمَنْزِلٌ وَحْيٍ مَقْفَرُ الْقَرَصَاتِ

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةِ

فيقول طلائع^(١) :

فَمَا فَاتَ يَمْحُوهُ الَّذِي هُوَ آتٍ
ذَهَابًا إِذَا أَتَيْتَهَا حَسَنَاتِي
وَجَانِبَتْ غُرُقُ أَبْحَرِ الشُّبُهَاتِ
بِهِمْ يَصْفَحُ الرَّحْمَنُ عَنْ هَفَاتِي
هَذَا قِيَامِي، وَهَمِّي الْحَشْرِ سَقْنُ نَجَاتِي
مَوَاصِلُ ذِكْرِ اللَّهِ فِي صَلَوَاتِي

أَلَا يَمُ، دَعِ لَوَيْبِي عَلَى صَبَوَاتِي
وَمَا جَزَعِي مِنْ سَيِّئَاتٍ تَقَلَّمَتْ
أَلَا إِنِّي أَقْلَعْتُ عَنْ كُلِّ شَيْهَاتِي
شَجَلْتُ عَنْ الدُّنْيَا بِحَيِّ لَمْعَتِي
إِلَيْكَ، فَلَا أَعْشَى الضَّلَالِ لِكُونِهِمْ
أُتَمَّةٌ حَقٌّ لَا أَزَالُ بِذِكْرِهِمْ

ويشير إلى من اغتصب حق العلويين وأنه سيلقى النبي ﷺ يوم القيامة خجلاً حين يسأله : لم ضيعتم حق عترتي :

إِذَا قَالَ : لَمْ ضَيَعْتُمَا حَقَّ عِتْرَتِي وَكَيْفَ اتَّهَكْتُمْ جُرَاةَ حُرْمَاتِي ۱۲

(١) ديوانه ص ٦٦ .

أَسَأْتُمْ صَنِيعاً بَعْدَ مَوْتِي فَغَاصِبْتُ لَتُرَيْتَنِي حَقّاً ، وَآخِرَ عَاقِبَاتِ
وَمَنْ خَصَّمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْمَدُ لَقَدْ حَلَّ فِي وَادٍ مِنْ التَّقَابِ
فَوَاحِزْنِي لَوْ أَنَّنِي فِي زَمَانِهِمْ وَوَاحِزٌ أَحْشَانِي ، وَوَاحِسَرَاتِي
لَأَطْلَعَنَّ فِيهِمْ بِالْأَسِنَّةِ كُلَّمَا مَضَتْ حَمْلَةٌ جَاءَتْ بِمُؤْتَفَاتِ
أَقْضَى زَمَانِي زَفْرَةً بَعْدَ زَفْرَةٍ فَقَلْبِي لَا يَخْلُو مِنَ الزَّفَرَاتِ
وَصَنُرِي فِيهِ حَرَقَةٌ بَعْدَ حَرَقَةٍ فَلَيْسَ يَمْتَلِكُ عَنِ الْحَرَقَاتِ

وهكذا يمضي مستشعراً الندم كغيره من الشيعة الذين يقيمون موسم عاشوراء لأظهار هذا الندم على عدم نصرة الحسين ، ويترحمون لذلك ، فيعاقبون أنفسهم ويذرفون الدمع ، ويلبسون السواد ، ويقولون المراثي الموحجة تحفل بالندب والبكاء . وبشارك طلّاع بشيعيته الملتبّة في مراثي آل البيت ، فيقول في رثاء الحسين من أبيات وكأنها ولولة نادب :

متضاعف الحسرات مـ	لوّ الجوارح بالجراح
تُغَسِّمُ الْجَبَّارِينَ أَصْلًا	وَأَخِيرُهُمْ حَدَّ السِّلَاحِ
حَمَلُوا رِعْوسَهُمُ الْكَرِيمَةَ	فَوْقَ أَطْرَافِ الرُّمَاحِ
.....
يَا أُمَّ غَدَرْتَ وَتُو	رُ الْحَقِّ أَهْلُجْ ذُو التِّمَاحِ
وَتَعَقَّبْتَ سُنَنَ النَّبِيِّ	الطُّهَرِ بِالْبِدْعِ الْقِيَاحِ
وَتَأَوَّلْتَ فِي مُحْكَمِ الْقُرْ	آنَ بِالْكَذِبِ الصَّرَاحِ
وَعَدْتِ عَلَى ظُلْمِ الْوُ	صِيِّ وَأَلَهَ ذَاتَ اصْطِلَاحِ
لَا تَقْرَبُوا مِنَّا فَجَرٌ	بُ الْإِبْلِ حَتْفٌ لِلصَّحَاحِ

ويرد في شعره ما يتردد في أشعار الشيعة من رموز ، وإشارات كالحديث عن غدِير خُم ، والوصية يوم هذا الغدير ، فيقول :

وَيَوْمَ خُحْمٍ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ لَهُ بَيْنَ الْحُضُورِ ، وَشَلَّتْ عَضُدُهُ يَدُهُ
مَنْ كُنْتُ مَوْلَى لَهُ هَذَا يَكُونُ لَهُ مَوْلَى أَتَانِي بِهِ أَمْرٌ يُؤَكِّدُهُ
مَنْ كَانَ يَحْذِلُهُ فَاللَّهُ يَحْذِلُهُ أَوْ كَانَ يَعْضُدُهُ فَاللَّهُ يَعْضُدُهُ
قَالُوا سَمِعْنَا وَفِي أَكْبَادِهِمْ حُرْقٍ وَكُلٌّ مُسْتَمِيعٌ لِلْقَوْلِ يَجْحَدُهُ

كما تردّد في أشعاره ما اعتاد الشيعة نسبته إلى علي كرم الله وجهه من مآثر

كرمه .

ومن معجزات حصه الله - فيما يروون - ففترت في خوارقها من معجزات
الأنبياء ومنها باب حصن في خير ندى قيل إن عبداً اقتنعه

وقلقل الحصن فارتاع اليهود له
نادى بأعلى العلأ جميل ممدحاً
وفي الغراب حديث إذ ضغى فأتى
قالوا : أجزنا فقام المرتضى فرحاً
وقال للماء : غرطوعاً، فبان لهم
وكان أكثرهم عمداً يفتده
هذا الوصي وهذا الطهر أحمد
كل إليه لخوف الهلك يقصده
بالفضل والله بالإفضال مفردة
حصباه حين وأفى يهدده

وبعد نفسه سيف دين آل احمد .

أنا سيف دينكم ابن ربك الذي يرضيكم في كل وقت يتنسى

ولم يورث أحد ممن ترجم لطلاع شيئاً من هذا الشعر ، لأنه يخالف عقيدة
معظمهم فقد ضربوا عنه صفحاً ، فيما علما من تشيع منهم . فلم يحتر صاحب
معجم الأدباء ، ولا ابن خلكان ، والعماد ، وابن سعيد ، والصفدى سوى
الأشعار التي تخلو من الإشارات الشيعية ، مع أنهم اعترفوا بأنه شيعي متحمس .
واكتفوا بما جاء في شعره من غزل أو وصف للمعارك ، أو مطارحات بينه وبعض
شعراء عصره وبخاصة الشعر المتبادل مع الشاعر الفارس أسامة بن منقذ .

ومثل هذا التجنب لجانب كبير من شعر الشاعر ضرب من الرقابة يفرضه
العلماء على الشعراء . وحجب الجانب من المعرفة عن القراء ، وهو تقصير
لأشك ، بل لعل أقول إنه مجانية للأمانة العلمية ، وتعمية ، وإخفاء للحقائق ، مما
يخفى معها ملاح الصورة ، بل ويضل الباحث لأنه لا يملك ما يستطيع به قوله
الحق .

وهذا جانب من جوانب التراث ينبغي على كل باحث فيه أن يراعيه ، ويتنبه
لزالقه .

وبعد أن عرضنا لهذا الجانب المهم من شعر ابن ربك والذي يمثل غالبية ، لا
نفوتنا أن نكمل الحديث بالموضوعات الأخرى . ومنها ما يأتي بعد موضوعات
الحديث عن آل البيت من مدح ورثاء ، وإثبات حق ، ودفاع عن المذهب ، وأغنى
موضوعات الزهد والحكمة ، والنصح ، وقد شغلت جانباً لا يستهان به من

شعره ، من ذلك قوله في دار الوزارة بالفسطاط يذكر من تولى عليها من الوزراء وما انتهوا إليه ، وكان بالقرب منها القرافة مدينة الأموات ، فترى الشاعر يربط ربطاً غريباً بين هذه الدار ، وهي مطمح الأحياء ، والقرافة دار الموتى وقد استحلوا إلى عظام نخرة وتراب . يقول (١) :

يا قلب كم ذا الغرور	أخدع متى كذب وزور
أو ما ترى الآمال يقص	ح طولها العمر القصير
ومثل ما صرنا إليه إلا	ن يعتير البصير
لو دام ملك لم يكن	بعد الملوك لنا نصير
أنظر لذي الدار كم	قد حل ساحتها ونهر
ولكم تبخر آمنا	بين الصفوف بها أمير
ذهبوا فلا والله ما	بقى الصغير ولا الكبير
حتى ولا أضحت ترى	بين القبور لهم قبور
ما استيقظوا من غفلة	إلا وأروسهم تطير
ولحومهم مضغوغة	ومن الوري أيضاً نسر
فاصبر فلا حزن على الد	نيا يدوم ولا سرور

وقد ينظم في معاني بعض السور القرآنية ، فيأتي بمطلع السورة أو آية من آياتها ويتم القصيدة أبيات في معناها . أو مؤلفة منها ، كأن يقول : ويورد أبيات من سورة هل أتى على الإنسان حين من الدهر الآيات ٨ وما بعدها :

أن الأبرار يشربون بكأس	كان حقاً . أمرأجها كافورا
ولهم أنشأ المهيم عيتنا	فجروها عباده تصجير
وهذاهم وقال : يوفون بالنذ	ر فمن مثلهم يوفى الثلورا
ويخافون بعد ذلك يوماً	هاللاً كان شؤ مستطرا
يطعمون الطعام ذا النيم	والمسكين في حب رهم والأسير :
إنما نطعم الطعام لوجه الله	و ، لا نبتغي لديمك شكورا
غير إنا نخاف من ربنا يوماً	عيوساً عصبصاً قمطريرا
فوقاهم إلههم ذلك اليوم	م يلقون نضرة وسرورا
وحزاهم بأنهم صبروا في الله	سراً والجهر جنة وخيرا

(١) ديوانه ص ٧٦ .

في أنكالهم لا يرون لدى الجفء سعة شمساً، كلاً، ولا زمهرياً
وعليهم ظلالها دانيات ذللت في قطوفها تيسراً
وهكذا يمضي في معظم آيات هذه السورة . وله تجارب أخرى من هذا القبيل .
ومن نصائحه :

يا مريض القلب بالذنب ب ، متى بالعفو ثبرا
كلما جدد يوم توبة، ضيقت أخرى
تشتي الأجر ولا تفعل ما يكسب أجراً
أترى بعد ذهاب العم تر تستأنف عمراً

ويقول من آيات أخرى في الموضوع :

يا راكباً ظهر المعاصي أو ما تخاف من النقصان
أو ما ترى أسباب عمرك في انتقاض وانتقاض ؟
وقال ينصح من يتصالي بعد المشيب :

مشيبك قد نضاً صبيغ الشباب وحل الباز في وكر القراب
تنام ومقلة الحدثان يقضي وما ناب النوائب عنك ناي
وكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد انفتحت منه بلا حساب

ومن الأغراض التي أكثر فيها القول حديث القتال والغارة على الأفرنج في تغور الشام . وكان الأسطول المصري في عهده قد أغار على بعض الثغور بالشام ، ودمر ممتلكات وتحصينات للعدو الصليبي ، ووافق ذلك زلزلة عظيمة وقعت هناك فهدمت بعض قلاعهم ، ومات منهم عدد . وكذلك في أوائل ربيع الأول من سنة ٥٥٣ هـ خرج فريق وافر من عسكر مصر إلى غزة وعسقلان ، وأغاروا على أعمالهما . قال ابن القلانسي (١) : « وخرج إليها من كان بها من الفرنج الملاعين فأظهر الله المسلمين عليهم قتلاً وأسرأ بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير وغنموا وظفروا ، وعادوا سالمين . وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب . وهي مشحونة بالأفرنج ، فقتل وأسر منهم العدد الكثير والجمل الغفير . وحاز من أموالهم وعُددهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى وعاد ظافراً غانماً » (١) .

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٥٣٧ .

وفي رمضان من نفس السنة كانت بين المصريين والفرنج وقعة قرب العرش انتصر فيها العسكر المصري ، وظفر بجملة وافرة من الأفرنج بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلب (١) .

وضع ابن رُبَيْك في هذه الغارات المنصورة آياتا يفخر فيها بصنيعه وشجاعته جنده . يقول :

<p>بشائر من شرق البلاد ومن غرب وتحدث للباغين رُعباً على رُعب وفي كيد أحل من البارد العذب عليها عتاق الخيل كالنفتق السُهب (٢) سهولاً ثوطاً للفوارس والركب حيّاً عليها وإيلاً من دم سكب نجيعاً فأغتها القساة عن السُحب ولكن بحار ليس تصلح للشرب حيها، وكم خضب أضر من الجذب مراراً، وكانت قبل أمنة السرب فعلقت نواقيس الفرنج عن الضرب بلاد الأعدى بالمسوية القب وأغناهم كتب الشاء عن الكسب يحل لدينا بالكرامة والخضب كما نحن بالأعداء نفيتك في الحرب</p>	<p>توالت علينا في الكتاب والكتب بشائر تُهدى للموالي مسرة ففي كيد من حرّها الثار تلتظي جعلنا جبال القدس فيها وقد حرث فقد أصبحت أوعارها وحزونها ولما غدت لا ماء في جنباتها وجادت بها سحب الدروع من العدا وأجرت بحاراً منه فوق جبالها فقد عمتها خصبها من زروعهم وقد رومتها خيلنا قبل هلب وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها وأبطال حرب من كرامة دؤخوا وعادوا إلينا بالريوس على القفا ولما بنى ربك مازال جارنا ونفتك بالأموال في السلم دائماً</p>
---	---

وفي الرسائل الشعرية المتبادلة مع أسامة بن منقذ تسود هذه النغمة الحربية ، إلى جانب تبادل الودّ وعبارات المحبة والشوق بين الشاعرين الفارسين . كتب أسامة إلى ابن رُبَيْك :

وما سكنت نفسي إلى الصبر عنكم ولا رَضِيتُ بعد الديار من القرب

(١) المصدر نفسه ص ٥٤٠ .

(٢) النفق : القفرة : والسُهب المستوية .

فأجابه طلائع بقوله (١) :

من اليوم لا أعتزُّ بَعْدَكَ بِالْحُبِّ
ولا أَرْضَى بِالْبَعْدِ عَنْ ذِي مَوْدَةٍ
ولا سيما إن قال لي يتصنعاً :
علي أنني قد قلت حين أجيتُه
أخلاقاً لو دُمْتُمْ دُنُوّاً لما أبى
ولكنكم بعتم وفاءً بغيره
عليكم سلام الله إن بَعادكم
يقول فيها :

ولا أطلبُ التَّبَيُّ من العِلِّ بِالْعَنَبِ
وأقنعُ منه بالرسائلِ والكُتُبِ
ففارَقكم جِسْمِي وَجَاوَرَكُم قَلْبِي
بلا حِشْمَةٍ : ما أشبه العُنْبُ بِالذَّبِّ
سَرَى الْعَيْسِ ، بل ركضَ المَطْهَمَةُ الْقَبِّ
غِلْدَةً أَشْتَرَيْتُمْ وَحِشَّةَ الْبَعْدِ بِالْقَرِيبِ
لأَعْظَمُ ما قد كان من ذلك الخَطْبِ

وما روضة غناء هب نسيها
سقاها الحيا من آخر الليل مَزَّة
ومن الرسائل بينهما الطائفة التي أعجبت العماد (٢) . قال أسامة :

أجوة قلبي تدانوا وإن شَطُوا
هي البئر لكن الثريا لها قَرَطُ
نُشْتُ وعليها للغمام غَلَايِلُ
توم صريعاً في الرجال كأنه
فما اخضر تراب الأرض إلا لأنها
ولا طاب نشر الرُوض إلا لأنه
حتى يقول في تخلصه :

ولما نأت عنا على كل حالة
لأذكرنا ذلك البعاد مَعاشراً
تساوى الرضا والسخط والقرب والشحط
فكانا ما لقيتاهم قطاً

أحياتنا بالشام عفتهم جواريتنا
وقد عشتهم فيها زماناً ، فما اعتري
وكنتم لنا دون الأقارب أسرة
ونحن لكم من دون رهطكم رَفِطاً

(١) ديوان ابن زوك ص ٥٩ .

(٢) المجلد ١ ، ١٧٥/١ - ١٧٦ . قسم شعراء مصر .

ويخلص مرة أخرى إلى الفخر فيقول :

وإنا أناس، ليس يروح جأرنا
 ويمتاحتنا زوارسنا، فكأنما
 ويصيح بسط المال بالكف عندنا
 وتغرق شرق الأرض والغرب خيلنا
 وظلماء للذهب الدراري إذا سررت
 كما أول الفجرين سقط يسل من
 سلقنا بها البيض السيوف فلاح في
 سيوفها في كل درع وجنة
 ذخونا سطاها للفرج، لأكلها
 لهم قسطهم في الحرب فيها، ومالها

.....
 وحربها الأرواح زاهقة لما
 إذا أرسلت فرعاً من النقع فأجماً
 كأن القتا فيها أنامل حاسب
 ردذنا بها ابن «الفتش» عنا وإنما

وفي هذه القصيدة الجديدة ، يشير إلى حقيقة موقف نور الدين من حرب
 الصليبيين بالشام، فقد رأى ابن رزيك أن يتعاونوا معاً على صد غارات الصليبيين،
 بأن يؤازر جند الشام جند مصر في هذه الحرب المقدسة ، وكرر ابن رزيك ذلك
 مراراً وألح على نور الدين بواسطة صديقه أسامة إلا أن نور الدين لم يستجب
 لإلحاح ابن رزيك لأسباب بعضها ظاهر ، وبعضها الآخر باطن يُتَّصَلُ بِأهداف
 نور الدين والزنكيين وأتباعهم عامة .

فأما الظاهر منها فهو ما انتاب نور الدين من متاعب صحية ، وأسرية فقد
 هاجمه المرض مرتين في سنوات ٥٥٢ هـ وستة ٥٥٣ هـ ، وأوشك على الموت .
 وكان بينه وبين إخوته متاعب شغلته عن حشد طاقته العسكرية لمواجهة
 الصليبيين . كما أنه كان يترقب ولم يكن من طبعه المغامرة غير المحسوبة ولذلك كان

(١) أحد فرسان الصليبيين الذين كانوا يغيرون على الحدود المصرية .

يعقد الصلح مهيئاً بعد حين مع فرسان الصليبيين وقادتهم ريثما يعدُّ عُدَّتَهُ ، ويمكن لنفسه . وكان في طبع نور الدين ميل إلى الزهادة ، والعزوف عن الدنيا ، ولم يكن به تعطش للدماء . وكان رجلاً عابداً مجاهداً بالنفس والسيف .

والهدف البعيد الذي كان يعمل له ، ونكص به عن مؤازرة ابن رزَّك خشيته من الانتصار ، وبعده أن تقوى شوكة ابن رزَّك ، وهو الذي يملك إمكانات منصر كلها بكل ما تدخره من شئ وقوة ، فيعطى الفرصة للقوة الإسلامية الفاطمية المعارضة أن تمسك بالزمام ، وأن تستعيد سيطرتها على المنطقة بعد أن أذنت شمسها بمغيب ، وتأمل القوى الإسلامية الأخرى وهي قوة الزنكيين واتباعهم من الأكراد والسلاجقة والشوام ممن يخالفونهم في المذهب تأمل هذه القوى في التحكين لنفسها ، ولا تظهر الجفوة للفاطميين مرحلياً ، حتى تأتى الفرصة ليثبوا وثبتهم . وقد كان .

ولاشك أن نور الدين تخوف من قدرة ابن رزَّك ، وحماسه لحرب الصليبيين وربما أشار عليه ناصحوه وأعدائه بالترث وعدم الاستجابة لمطالبه في العون على حرب الصليبيين إلا بقدر محدود .

وهكذا يشهد التاريخ الإسلامي مرة أخرى تشردم العصبية الإسلامية وتفرقها أمام القوى المعادية لمطامع خاصة تضعف في تيارها وتفرق الأهداف العامة ومصالح المسلمين والإسلام .

يقول ابن رزَّك :

فقلوا لنور الدين: ليس لحائف الجرا	حاجب إلا الكي في الطب والبط
وحسب أصولي الداء أولى لعاقيل	لييب إذا استولى على المديف الخلط
فدغ عثك ميلاً للفرنج وهذنة	بها بدا يخطي سواهم ولم يخطوا
تأمل فكم شرط شرطت عليهم	قدماً، وكم غدر به نقض الشرط
وشمر فائنا قد أعنا بكل ما	سألت وجهزنا الجيوش ولن يخطو

لقد اختار العماد أبيتا من هذه القصيدة ، لكنه تحاشى ما فيه ذكر نور الدين وأعجب بصنعة ابن رزَّك لا بضمون كلامه ، ودعوته إلى وحدة جند المسلمين ، وتعجب لهذا التعصب الطائفي المذهبي الذي يغلب على الناس ، فيتناسوا أنهم شيعة وسنة مسلمون في النهاية ، وأنهم ، ولخطر الذي يترصدهم لا يفرق بين

المذهبيين ، وإنما يدهمهم جميعاً ، لكنها مأساة المسلمين في التاريخ جعلتهم يفضلون العصبية المذهبية ، ويقدمونها على مصلحة الإسلام عامة ، والأوطان خاصة .

والرسائل الشعرية بين الشاعرين الكبيين ترتفع في شعرها إلى مستوى فنّي لا يلحق به شعرهم الآخر ، وخاصة شعر ابن رزيك ، ويكشف ذلك عن مدى الصدق في العلاقة التي ربطت بين الرجلين .

ونمثل بهاتين القصيدتين المتبادلتين على ذلك . يقول أسامة^(١) :

أَذْكُرُهُمُ الْوَدَّ، إِنْ صَلُّوا، وَإِنْ صَدَّقُوا
وَلَا تُرِيدُ شافعاً إِلَّا هَؤُكَ لَهُمْ
بِهِ ذَنْبُوتٌ، وَإِخْلَاصُ الْهَوَى نَسَبٌ
رَأَى الْحَسُودَ تَدْنَانِي وَدَنَا قَسَمِي
وَمَا الْبَعِيدُ الَّذِي تَنَاقَى الدَّيَارُ بِهِ
أَجِيرَةُ الْقَلْبِ، وَالْفَسْطَاطُ دَارُهُمْ
أَدْنَى التُّدَانِي الْهَوَى، وَالْدَّارُ نَارِيخَةٌ
فَارَقْتَكُمْ مَكْرَهًا، وَالْقَلْبُ يَخِيرُنِي
وَلَوْ تَبَوَّضْتُ بِاللُّدْنِيَا بَغْنِيخٌ، وَهَلْ
وَلَسْتُ أَنْكِرُ مَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِهِ
كَمْ فَاجَأَتْنِي اللَّيَالِي بِالْحُطُوبِ، فَمَا
وَاسْتَرْجَعْتُ مَا أَعَارَتْ مِنْ مَوَاهِبِهَا
وَلَا أَسِيفْتُ لِأَمْرِ فَاتٍ مَطْلَبُهُ
مَنْ كَانَ لِي مِنْ حِمَاةٍ خَيْسَ ذِي لَيْدٍ
مَنْ لَمْ يَنْزِلْ لِي مِنْ جَلُودِي يَدِيهِ غِنًى
الْمَلِكُ الضَّالِّحُ الْهَادِي الَّذِي شَهِدْتُ
مَنْلِكَ أَقْلٍ عَطَايَاهُ الْغِنَى، فَإِذَا
أَغْرُ، أَرُوغُ، فِي كَفِّهِ سَحْبٌ تَدْنِي

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا اسْتَعْفَلَتْهُمْ عَقَفُوا
يَكْفِيكَ مَا اخْتَبَرُوا مِنْهُ، وَمَا كَشَفُوا
كَأَنَّ نَائِتٌ، وَإِفْرَاطُ الْهَوَى تَلَفٌ
حَتَّى غَلَبْتُ بَيْنَ دَانِيَا نَوَى قَدَفٌ
هَلْ مِنْ تَدْنَانِي، وَعَنْهُ الْقَلْبُ مُنْصَرِفٌ
لَمْ تُصِيبْ الدَّارَ، لَكِنْ أَصِيبَ الْكَلِيفُ^(٢)
وَأَبْعَدُ الْبُعْدُ بَيْنَ الْجَمْعَةِ الشَّنْفِ^(٣)
أَنْ لَيْسَ لِي عَوْضٌ مِنْكُمْ، وَلَا تَحْلَفُ
يُعَوِّضُنِي مِنْ تَقْيِيسِ الْجَوْهَرِ الصَّدْفِ ١٩
كَلَّ الْوَرَى لِرِزَايَا دَهْرِهِمْ هَدَفٌ
رَأَتْ فَوَادِي مِنْ رُوعَاتِهَا يَجَفُ
فَمَا قَفَا لِي عَلَى آثَارِهِ اللَّهْفُ
لَكِنْ لِفَرْقَةٍ مِنْ فَارَقْتَهُ الْأَسْفُ
ضَارٍ، وَلِي مِنْ نَدَاهُ رَوْضَةُ أَنْفُ
وَلِي ذِرَاهُ مِنَ الْأَيَّامِ لِي كَنْفُ
بِفَضْلِ أَيَّامِهِ الْأَكْبَاءُ وَالصُّحُفُ
أَدْنَاكَ مِنْهُ، فَأَدْنَى حَفْطِكَ الشَّرْفُ
تَمْتَارُ سَحْتُ الْحَا مِنْهَا وَتَعْتَرِفُ

(١) ديوان أسامة ص ٨٥ ، وديوان طلائع ص ٩٨ .

(٢) أصابت الدار : ذكث . والكلف شدة الحب .

(٣) الشنف : البغض والكراهة .

ويعضى في مدحه حتى يقول :

سَعَتْ لى زُهْدِى الدنْيا برَغْبِها
ولم تُزَفْ لى كُفِّ سِوَاهُ ، وما
صَبِرْ ، إِذا اللَّيْلُ أَوَاهُ بِجَنْدِسيه
وَمِخْرَبْ ، ما ألقى انْخِرَابَ مُتَبَلِّلا
مُسْنَهْدٌ وَعَيُونُ الخَلْقِ هاجِعةٌ

ويجتم الأبيات بطلب العون لقلة ما بين يديه من المال ، فيقول :

إليك ياغادِلاً فى حُكْمِى وعلى
أشكو زماناً قضى بالجودِ قى ولم
لَحَتْ نواييه عُودى ، وأنفدِمو
وقد دعوتك مظلوماً ومُرْجِياً
فاجمع بجودك شعلاً كان مجتمعاً
وانشرْ بمعروفك الحروف مُتَبَهِّجاً
فهو القريبُ موالاةً ومعقداً
وعشْ على رَغْمٍ من يشنالك مقتلراً
فأجاب الصالح بقوله :

آدابك الغرُّ بحرٌ مائلاً طَرْفَ
نقولٍ لَمَّا أَتانا ما بعثت به
خبطاً تَزُوقُ الأنظارُ حينَ بدا
إن نظمُ طرُقِ الأسماغِ كان لها
رَقَتْ حواشى كلامِ أنت ناظمُ
وَرَدَتْ بحرَ القوافى فاغترفت كما

.....
إذا تطالع فوق الأرضِ ذو أدبٍ

حتى يقول :

إذا ذَكَرْتَكَ بِمَجْدِ الدينِ ، علودنا

(١) الشُّلْفُ : جمع نطفة الماء الصافي قل أو كثر .

طوعاً ، وفيها على حُطابِها صَلَفٌ
زالتْ لى مجده تُصْبِرْ ، وتُشْتَرَفْ
بحرٍ من العلمِ طالعٍ ، ليسَ يُتَرَفْ
إلا وأدمعه من خَشْيَةِ تَكِيفْ
على التَّهَجُّدِ بالقرآنِ مُعْتَكِفْ

أمواله من قَضَايا جُودِى الجنَفِ
يَزَلْ يجودُ على مثلى ويعتسِفِ
جُودى ، وشئت شملِى وهو مُؤَلِّفِ
وفى يَدُكَ الغنى ، والعدل والشرفِ
فَعادَ بعد أَتلافٍ ، وهو مُخْتَلِفِ
وشكَّرَ من هو بالإحسانِ ومُعْتَرِفِ
وإن أَنتَ دونه الغراءُ وَالْطُفْ (١)
فى دولةً ، مألها حدٌ ولا طرفِ

فى كلِّ سَمْعٍ لَهْدا من حُسْنِ طَرْفِ
هذا كُتَابِ أُنَى ، أم روضة أُنْفِ
كأنه الدرُّ ، عنه فَتَحَ الصَّدْفِ
وإن حوثَ عطلاً من حِلْيَةِ شَتَفِ
فيه ، فجاءَ كزهرِ الرُّوضِ يَتَطَلَفِ
قد حلَّ يوماً بمَدِّ النيلِ مُعْتَرِفِ

.....
فأنتَ منه على العميقِ تَشْتَرِفِ

شوقٌ تَجَلَّدَ منه الوجدُ والأسَفُ

وبدون ما وجدناه لفرقتكم
 ولو غرقت الذي في القلب منك لما
 ولا عجب إذا حاف الزمان على
 فلا نكنّ جازعاً ، إن التجاوز عن
 فإن حصلت على الصبر احتوت على الأجـ
 يا من جفانا ، ولو قد شاء كان إلى
 وحق من أمه وقد التحجيج ، ومن
 إنا لثوى على حال البعاد ، كما
 ونفطر الذنب إن رآه المسي بنا
 وإن جنى من رآى أنا نعايقه
 نعم ونحفظ عند الغيب صاحبنا
 فما لإبعادنا يوم الوعى ميل
 فعندنا جنة تدنو القمار بها
 هذى مصاحبنا ضوء النهار ، وكم
 ليل إلينا بأمال محققة
 كفى اغتراباً ، فعجل بالإياب لنا
 وقد أجبنا إلى ما ألت طائبه
 فرأينا فيك قد أضحى علانية
 وقدمت لك تمهيداً ، وبها
 كأننا حين تجرى ذكوة لكم
 فإن يبالغ أناس في الثناء على

يحيط بالقلب من أرجائه التلّف
 أن حلت عنا على الأحوال تحلف
 حر ، وكل قصايه بها جحف
 إنفاقك الصبر في شرع الهوى سرف
 الجزيل ، وفي إحراره شرف
 جنابنا دون أهل الأرض يتعطف
 ظلت إلى بيته الركب تحلف
 نوى لمن ضمه في قربنا كف
 عفواً ، ونسره في حين ينكشف
 يردنا الصمغ ، أو يعتاقنا الألف
 وليس يتركنا كثير ولا صلف
 ولا لموعدا يوم الندى تحلف
 إذا ذكاً مجتن منها ، ومقتطف
 قد ضل من في ظلام الليل يعتسف
 وكف غرب دموع لم تزل تكف
 فينك لا عوض ، يلقى ولا تحلف
 فالآن كيف ترى فيه أو يقف ؟
 والجند قد عرفوا منه الذي عرفوا
 وحش القلاع إذا ما روعت ألف
 على اضطرام لهيب النار تعتكف
 أوصافكم قصروا في كل ما وصفا

وهذه الآيات والآيات الأخرى التي ردّها بها الصالح ، أو بدأ بها صديقه
 أسامه إنما سجل واضح لصداقة ومحبة بين قائدين من قادة هذه المرحلة
 وفرسانها تكشف عن علاقة إنسانية حميمة فضلاً عما يربطهما من عمل على
 مصلحة عامة في ردّ عادية المعتدين من الصليبيين ، تلمح فيها الاخلاص من
 الجانبين وصدق الحديث . اعتذر من أسامة عما حدث من ملاصقات في
 أحداث القصر التي أدت إلى مقتل الخليفة الظاهر وثلاثة من أعوانه ، لم يكن له
 يد فيها ، وإنما وضعته الظروف رغماً منه في أتون الأحداث للعلاقة التي ربطت

بينه وبين القاتلين عباس وابنه . مما جرَّ عليه غضب القصر رجاله ونسائه وغضب جند الخلافة وقد شاهدوه وعباساً ونصراً في شوارع القاهرة يحاربونهم . فالآتهام قائم ، وإن كانت يده لم تلوث بدم ، وإنما وقع عليه الظلم كما وقع عليه في ظروف عديدة في حياته ، ويعرف طلائع مدى ما عاناه أسامة من جنيف الحياة ، وحيف الأقارب والأصدقاء والأعوان . ويعرف ما في نفس صديقه من عزة ومن عفة ، ويعرف براءته مما ينسب إليه ، ويدرك كذلك موقف التردد الذي يقفه من دعوته وقبوله العودة إلى مصر ، فإن في نفس أسامة تحوقاً ، وشكاً ، لا من ناحية صديقه طلائع ، ولكن من ناحية القصر والجند ، فهم مهمما طمأنه ، واعتذر عنه ، وأوضح موقفه ، فإنه لا يأمل الغيلة .

وهذه الرسائل الشعرية المتبادلة فريدة في تاريخ الشعر العربي ، لأنها حوارٌ يحمل في طياته كثيراً من المشاعر والأحاسيس الإنسانية والمودة بين صديقين كما تحمل سجلاً لكثير من أحداث العصر وأسراره ، لا تكشف عنها مصادر التاريخ المعتادة والتقليدية . فضلاً عما تحمل من شاعرية متدفقة لشاعرين من رواد الشعر في عصرهما ، وفارسين من فرسان الجهاد .

ولطائع في هذه الحوارات الشعرية قصائد تسجل المعارك وتكشف عما قام به جند مصر من أدوار في تلك المرحلة ، ربما أغفلها التاريخ ، أو لم يركز عليها تركيزه على المرحلة التالية في عصر الأيوبيين والمماليك . فهذه القصائد تكشف عما أمله التاريخ من مواقف مُضيئة لأبطالٍ خاضوا من أجل العقيدة والوطن معارك مهدت بعد ذلك للنصر :

فمن هذه القصائد ميميةٌ حماسيةٌ التبره يقول فيها طلائع (١) :

ألا هكذا في الله تمضي العزائمُ وتمضي لدى الحرب السيوف الصَّوَّارِمُ
وَتُسْتَبْرَلُ الأعداءُ من طَوْدٍ عِزَّهُمْ وليسَ مَبْوًى سمر الزَّماجِ سَلَالِمُ
وَتُعْتَرَى جيوش الكُفْرِ في عُقْرِ دارِها وَيُوطَأُ جَمَاهَا، والأَنْفُفُ رَوَاغِمُ
ويوفى الكرامُ التَّادِرُونَ بِنَدْرِهَمْ وإنْ بَدَلَتْ فِيهِ النُّفُوسُ الْكَرَامُ
لَنُزِّنَا مَسِيرَ الجيشِ في صَفَرٍ، فما مَضَى نَصْفُهُ، حَتَّى اتَّكَيْ وَهُوَ غَائِمُ

(١) ديوان أسامة ص ٢٢٠ ، وديوان طلائع ص ١٣٥ .

يَعْتَنَاهُ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ ، قَاطِعًا
وَتَاهِيكَ مِنْ أَرْضِ الْجِفَارِ إِذَا التَّظَلَّى
وَصَارَتْ عَيُونُ الْمَاءِ كَالْعَيْنِ عِزَّةً
فَمَا هَالَهُ بَعْدَ الدِّيَارِ وَلَا نَتَى
يُهَجِّرُ وَالْعَصْفُورُ فِي قَعْرِ وَكَرِهِ
إِذَا مَا طَوَى الرِّيَاضَ وَقْتَ مَسِيرِهِ
ثُبَارِي مَحْيُولًا مَا تَرَالُ كَأَنَّهَا
فَإِنْ طَلَبْتُ قَصْدًا تَسْلُوَيْنَ سُرْعَةً
هِيَ اللَّهُمَّ أَلَوَانًا وَصَيِّغَ عِجَاجَةٍ
تَصَاجِبُهَا عِلْمًا بَأَن سَوْفَ تَغْتَدِي
كَمَا أَنَّ وَحْشَ الْفَقْرِ مَازَالَ مِنْهُمْ
خَبِيرٌ إِذَا مَا فَارَقْتَ بِمِصْرَ تَبْتَقِي
يَسِيرُ بِهَا ضِرْعَامَ فِي كَيْلٍ مَازَقِي
وَرَفَعْتَهُ عَيْنَ الزَّمَانِ وَحَايَتِمْ
مَضَى طَاهِرُ الْأَثْوَابِ مِنْ كُلِّ رِيَّةٍ
هَدِيًّا لَهُ يُسْقَى الرَّحِيقَ إِذَا غَدَتْ
وَلَوْ أَنَّنَا نَبْكِي عَلَى فَقْدِ هَالِكٍ
وَلَكُنَّا بَعْنَا الْإِلَهَ نَفُوسَنَا
تَهُونَ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ نَفُوسُنَا
وَيَذَكَرُ حَشُودَ فِرْقِ الْجَيْشِ بِأَسْمَائِهَا وَقَادَتِهَا ، وَمَنْ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ مِنْ جُنْدِ
الْقَبَائِلِ الْمُؤَيَّدَةِ الْمَجَاهِدَةِ مِثْلَ سَيْبِيسَ ، وَتَلْعَبَةَ ، وَجُدَامَ بِالْجُوفِ الشَّرْقِيِّ مِنْ مِصْرَ
وَأَرْضَ سَيْتَاءَ . حَتَّى يَقُولَ :

جُيُوشُ أَفْدَنَاهَا اعْتِرَاضًا وَنَجْدَةً
إِذَا مَا أَتَارُوا التَّمَعَ ، فَالْتَمَّ عَابِسٌ
وَلَمَّا وَطُوا أَرْضَ الشَّامِ تَحَالَفَتْ
وَوَاجِدُهُمْ جَمْعُ الْفَرَنْجِ بِحِمْلَةٍ
فَلَفَّوهُمْ زَرْقُ الْأَسْنَةِ ، وَاطَّطَوْا
وَمَا زَالَتْ الْحَرْبُ الْعَوَانُ أَشَدَّهَا

يُسَبِّحُهُمْ مِنْ لَحَ جَمْعُهُمْ لَهُ
وَحَسْبُكَ أَنْ لَمْ يَتَّقِ فِي الْقَوْمِ فَارِسٌ
وَعَادُوا إِلَى سَلِّ السَّيْفِ فَقَطَعَتْ
فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ مَخْبِرٌ
كَذَلِكَ مَا يَنْفُكُ تُهْنِي إِلَى الْيَمْدَى
وَتَسْرَى لَهُمْ أَرَاؤُنَا وَجِيوشُنَا
نُقَلِّبُهُمْ بِالرَّأْيِ طَوْرًا ، وَتَلَاةً

بِلَجَّةٍ بِحَرٍّ مَوْجُهَا مُتَلَابِطٌ
مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا وَهُوَ لِلرُّمَحِ خَاطِمٌ
رُعُوسٌ ، وَحَزَنٌ لِلْفَرَسِ غَلَاظِمٌ (١)
وَلَا قِيلَ : هَذَا وَحْدَهُ الْيَوْمَ وَمَتَالِمٌ
وَلِلْوَحْشِ أَعْرَاسٌ بِهِمْ مَا يَمُومُ
بِنَاهِيَةٍ تَبَيَّنُ مِنْهَا الْمَقَادِمُ
تَلُوسُهُمْ مِنَّا الْمَلَأْنِي الصَّلَاحُ

ويشير إلى مهادنة نور الدين للصليبيين ، مع احتلالهم لأرض شيزر وحسن حارم وغيرها من النفور والحصون الإسلامية بالشام ، ويستحثه على النهوض لمناجزتهم متضافراً مع جيش مصر وأسطولها . ويقول إنه وجيشه لا يبدؤون في قتال الأعداء .

فَحَنُّ عَلَى مَا قَدْ عَهَدْتَ نَرُوغَهُمْ
وَعَارِثُنَا لَيْسَتْ تُقَرَّرُ عَنْهُمْ
وَأَسْطُولُنَا أَضْعَافٌ مَا كَانَ سَائِرًا
وَنَرَجُو أَنْ نَخْتِاجَ بِأَيْدِيهِمْ بِهِ
عَلَى أَنَا نَلْنَا مِنَ الْجِدِّ مَا بِهِ
وَلَكُنَّا نَبْغِي الْمَثُوبَةَ جُهِدُنَا
وَنَغْنَمَ بِالْحَسَنِ الْحَيَاةَ ، وَإِنَّمَا

وَنُخْلِيفُ جِهْدًا أَكُنَّا لَا نَسَالِمُ
وَلَيْسَ يُنْجِي الْقَوْمَ مِنْهَا الْهَزَائِمُ
إِلَهُمَّ فَلَا حَصَنَ لَهُمْ مِنْهُ عَاصِمٌ
وَنُحَوِّى الْأَسَارَى مِنْهُمْ وَالْعَنَائِمُ
نَفَائِزُ أَمْلَاكَ الْوَرَى وَنَقَاوِمُ
وَطَاقَتْنَا ، وَاللَّهُ مَعِي ، وَحَارِمُ
تُزَيْنُ أَهْمَالُ الرِّجَالِ الْخَوَاتِمُ

لقد خلد المتبنى معارك سيف الدولة ضد الروم ، مع أنها كانت غارات ، تبادل فيها الفريقان الكرّ والفرّ ، حتى كانت الغلبة في النهاية للروم فاصابت إمارة سيف الدولة بحلب في مقتل وزعزت أركانها حتى جاء الفاطميون فأعادوا حلب إلى حوزة المسلمين .

وها هو طالع بعيد وصف المعارك مع الصليبيين وإن اختلفت الدوافع والظروف ، يظلمح هنا بحس بالخطر الملقى بالآمة الإسلامية ، ويعلن دعوة الجهاد التي ينبغي أن يتضافر تحت لوائها المسلمون يدًا واحدة ، وقوة متماسكة ليصلوا إلى غايتهم .

(١) للغلام : اللحم بين الرأس والرقبة ، أو رأس الخلق .

ولكن يبدو أن دعوة طلائع ، كانت صحيحة في خلاء .. أو لم تلق الاستجابة على ما سبقت إشارتنا ، وبقي لنا بعد ذلك هذا الشعر ، الذى يكشف عن صفحة مجهولة ، ويرى جهداً كاد أن يضيع في طيأت الأيام . كانت مصر قيادة وجنوداً وإمكانات تعمل على بقاء الصرح . حتى أتت لها بعد أن ترى رايات الانتصار ترتفع على بيت المقدس من جديد بقيادة صلاح الدين ، وبقوة مصر وجندها إلى جانب قوى الشام والمسلمين التى حشدتها القائد المظفر .

وقد استغرقت الموضوعات التى ذكرنا معظم ديوان ابن رزيك وما دونها قليل من الغزل ، والوصف ، وأبيات في مقطعات يصنعها بين يدي موقف ، أو جلسة من جلسات سمره مع الأدياء والعلماء . قال :

وَمُهَفَّهٍ لِيْلِ الْقَوَامِ سَرَتْ إِلَى	أَعْطَاهُ الثَّشَوْتُ مِنْ عَيْنِهِ
مَاضِيِ الْحَاظِ كَأَلْمَا سَلَتْ يَدِي	سَيِّئاً غِلَاةَ الرُّوْعِ مِنْ جَفْنِيهِ
النَّاسِ طَوْعٌ وَأَمْرِي قَائِدٌ	فِيهِمْ ، وَقَلْبِي الْآنَ طَوْعٌ يَدِي
فَاعْجَبْ لِسُلْطَانٍ يَغْمُ بِعَذْلِهِ	وَيَجُورُ سُلْطَانُ الْغُرَامِ عَلَيْهِ
قَدْ قُلْتُ إِذْ كَتَبْتُ الْعِذَارُ بِحُلُو	فِي وَرْدِهِ أَلْفِيهِ لَا لَأَمْنِي
مَا الشَّعْرُ لَاحٍ بِعَارِضِهِ وَإِنَّمَا	أَصْدَاغُهُ تَقْضَتْ عَلَى حُلْدِيهِ

وقال :

عَازِلُ غَذْلِكَ سَهْمٌ فِي الْحَشَا	كَيْفَ كَيْتَانِي وَسِرِّي قَدْ فَشَا
صَارَ مَا لِي مِنْ غُرَامٍ كَامِنٍ	ظَاهِراً يَنْقُلُهُ وَاشِرٍ وَشَى
مِنْ رَأَى قَبْلِي بِأَلَيْسَ الْفَلَا	أَسَلْنَا يَقْنَصُهُ لَحْظَ رَشَا

ومنا

وَجْهُكَ الرُّوْضَةُ آتَتْ نَرْجِساً	وَجَبَّيَ السَّوْدُ فِيهَا قُرْشَا
خَفْتُ أَنْ يُجَنِّي فَوَكَّلْتُ بِهَا	عَقْرَباً طَوِراً وَطَوِراً حَشَا

وشعره في الغزل وسواه من الموضوعات لا يرقى إلى مستوى فخره ووصف المعارك والغارات ، وإخوانياته .

وصيغته بصفة عامة تقليدية ، ولا يميل إلى الإكثار من البديع، وصوره مشتقة أحيانا من حياته العسكرية ، ومحيطه العام . ويقرب أحيانا في بعض خيالاته .

وظل المتنبي يُطيف بعباراته أحيانا ومعانيه، فيحسن قارئ شعره بنفس المتنبي يسائر الكلمات . وقد بنا هنا بوضوح في بعض قصائده في الفخر ووصف المعارك .

ويرى الصغدّي أنه أخذ بعض معانيه من ابن هانيء الأندلسي ومنه قوله :
ماضيّ اللحاظ كأنما يدي سيفي غداة الرّوع من جفنيهِ
أخذه — كما قال الصغدّي — من قول ابن هانيء^(١) :

ما كان أفتكبي لو اخترطت يدي من ناظريلك على عَنبُولِي مُرَهَفًا

(١) الواقي بالرفيات ، ترجمته ١٢ / ٥٠٣ .

أسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤ هـ)

ولد في أسرة عريقة وليت إمارة شيزر بالشام شمال غرب حماة في النصف الثاني من القرن الخامس وحتى منتصف القرن السابع إذ دهمها الزلزال المدمر الذي ضرب كثيراً من مدن الشام في عامي ٥٥٢ ، ٥٥٣ هـ .

وعرفت شيزر بقلعتها الشهيرة ، وتقع على هضبة مرتفعة يحيط بها نهر العاصي ، فيجعل منها حصناً منيعاً ، حاول الصليبيون والروم الاستيلاء عليه مرات .

وكان والد أسامة رجلاً صالحاً يقضي وقته في الصلاة وتلاوة القرآن ونسخه ، ويخرج أحياناً للصيد في رضى شيزر ، وكان به فيما يروى على عهد أسود^(١) .

وترى أسامة منذ صغره على التمسك بالدين وإداء العبادات وحفظ القرآن ، كما نشأ جريئاً ، شجاعاً ، لا يبالي بالأخطار ، وقد تدرب على الصيد ، ومارس صيد الأسود مع والده . وقد أعد للقتال فتدرب على أصوله ، وتعلم الفروسية ، واستخدم أدوات الحزب من سيوف ورماح ونبال .

وتدل ثقافته من شعره ، وكتابه على سعة اطلاعه ، ومعرفته بعلوم الدين من حديث وفقه ، واتفقته لعلوم اللغة والآداب والنحو وقراءته وحفظه لكثير من الشعر القديم ، ومأنور كلام العرب في أمثالهم وخطبهم وحكمهم ، ولم بالتاريخ العربي والإسلامي ووعى وقائمه وأحداثه .

وكان عم أسامة أبو العساكر سلطاناً حاكماً أو أميراً على شيزر ، ولم يكن له ولد فأحب أسامة وتبناه وقربه ، وظل كذلك زمناً ، حتى أنجب ، فتغيرت عواطفه نحو ابن أخيه أسامة . وأحس أسامة بهذا التغير ، فأثر الابتعاد عن عمه وولده .

(١) وقد ورد حديث صيد الأسود ببعض أرض الشام في الأخبار ، ولعل بما يسجل ذلك غير ما جاء في ترجمة ابن منقذ مدح المتني ليدر بن عمر ووصف صيده للأسود في قصيدة مشهورة .

وحدثته نفسه بالخروج عن شيزر كلها إلى بلد آخر ، لما وجد من جفاء
عمّه فقصد الموصل ، والتحق بعماد الدين زنكى وصار رجلاً من رجاله وفارساً
من فرسانه وحارب الصليبيين تحت قيادته في أكثر من معركة . وظلّ يمارس
صناعة الحرب في « الرها » وبعض بلاد شمالى الشام حتى هاجم الفرنج والروم
بلده شيزر عام ٥٣٣ هـ ، فأسرع للمشاركة في صد الروم عنها ، وأبلى في
الدفاع بلاءً حسناً .

ولمّا عاد أسامة في هذه المرة ، كان قد بلغ من الفروسية والشهرة مبلغاً في
القتال ، فتعلقت به نفوس أهل شيزر ، وخشى عمّه على نفسه وإمارته أن
يأخذها منه أسامة ، أو يرثها دون ولده ، فأمره وأسرته بمغادرة بلده ، وكان
والد أسامة قد توفى قبل ذلك ، فخرج أسامة وأخوته وبقية أسرته من بلدهم ،
وتشتتوا في البلاد ، رضوخاً لأوامر عمه .

ولم يمهل القدر عمه طويلاً ، فقد انتابت الشام هزات وزلازل كان أشدها
عام ٥٥٢ هـ الذى دمر شيزر ، وذهب فيها عمه وأسرته فدفنوا تحت
الأنقاض .

وكان أسامة قد قصد دمشق في خروجه الثانى من بلده حيث التقى
بصاحبها معين الدين أنز أحد المجاهدين في حرب الصليبيين ، وعاونه أسامة في
شئون السياسة والحرب ، ونجح في كل ما وكل إليه من أمورهما حتى علت
منزلته عند معين الدين . إلا أن الأمور لم تجر كما يهوى ، ولعله لاحظ بعض
التغير من صاحبه الأمر ، فآثر كعادته الابتعاد ، والحفاظ على النفس
والكرامة . وتنطق أبياته التى بعث بها إلى أنز بما حدث من تضييع لحقه إذ
يقول :

بَلِّغْ أَمِيرِى مَعِينِ الدِّينِ مَالِكَةَ مِنْ نَازِحِ الدَّارِ ، لَكِنْ وَدَّهْ أُمِّمُ

.....

تَضِييعُ وَاجِبِ حَقِّى ، بَعْدَ مَا شَهِدْتُ بِهِ النَّصِيحَةَ ، وَالْإِخْلَاصُ وَالْجِدْمُ
وَمَا ظَنَنْتُكَ تَنْسَى حَقَّ مَعْرِفَتِى إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النَّهْيِ ذُمُّ

ويلم في هذه الآيات بقصيدة المتننى في وداعه لسيف الدولة :

وَاحِرٌ قَلْبَاهُ مِنْ قَلْبِهِ شَيْمُ وَمِنْ بَجْسِى وَرَوْحِى عِنْدَهُ سَقَمُ

وربما كانت الظروف التي حكمت على الشاعرين بالفراق واحدة ، وهي تغير الأمير بمشورة أهل السوء ، والحسد في البلاط . ولأن الظروف واحدة ، فقد استعان أسامة بأبيات للمتنبي ضمنها قصيدته . كقوله :

ولأُعتقدُ الذي بيني وبينك من رَدٍّ ، وإن أُجلبَ الأعداءُ يَنْصَرِمُ
لكن يُفائِكَ ما زالُوا بِغُشِّهِمْ «حتى استوت عندك الأنوار والظلم»
والله ما نصحوا لِمَا استشرئبُهُمْ وكلَّهُم ذو هوى في الرأْيِ مُتَّهِمُ
كم حُرِّفوا من مقالٍ في سِفَارَتِهِمْ وكم سَعَوْا بِفسادٍ . ضَلَّ سَعْيُهُمْ

وكانت هجرته هذه المرة إلى القاهرة بعد مغادرته لدمشق . يم نحو الجنوب كما فعل أبو الطيب من قبل . فوصل إلى عاصمة مصر في جمادى الثانية عام ٥٣٩ هـ .

وصل أسامة إذا إلى القاهرة ، والتحق ببلاط الخليفة الحافظ ، جندياً فارساً وينبئ من حديث أسامة وترحيب الحافظ به أنه كان من المقرين يقول^(١) :

« .. فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ فقرئني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع عليّ بين يديه ودفع لي تحت ثياب ومائة دينار » .

ولعله التقى بطلائع في القصر الفاطمي ، إذ كان قد سبقه هنا إلى مصر وعمل بالقصر زمناً قبل توليه إمارة قوص وأسوان بالصعيد ، وربطت صداقة ومودة بين الرجلين . وغادر طلائع صاحبه بالقاهرة إلى قوص وأسوان ، وبقي أسامة ليشهد الصراع بين القادة ورجال الحكم لتولى الوزارة بعد وفاة الحافظ ، وتولى ابنه الصبي الظافر .

فقد استوزر الحافظ في آخر أيامه نجم الدين بن مصال . وكان شيخاً كبيراً فطمع في منصب الأمير سيف الدين أبو الحسن عليّ بن السلار وإلى الاسكندرية فحشد أعوانه وتوجه إلى القاهرة يريد الوزارة . فجمع الظافر الأمراء في مجلس الوزارة وكان بينهم أسامة قال : « ونفذ إلينا زمام القصور — أي متولى شؤون القصر ، أو رئيس الديوان الخلفي — يقول : يا أمراء هذا نجم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمثل لأمره » .

(١) الأعيان ص ٢٩ ، طبع دار الثقافة والنشر والإعلام .

قال أسامة عن سكنه بالقسطنطين .

« وأنزلني — الحافظ — في دار من دور الأفضل ابن أمير الجيوش في غاية الحسن ، وفيها بُسْطُها وفرشُها ، وآلتها من النحاس ، وأُقيمت بها مدة إقامتي في إكرام واحترام وإنعام متواصل وإقطاع » .

ويبدو أن الأمور لم تستقر بعد اجتماع الأمراء على إقرار ابن مصال مع رغبة الحافظ في وزارته ، وخرج بعض الأمراء على رأي الحافظ ، وأبْطَأ ابن السلال مما اضطر الحافظ إلى نصيحة ابن مصال بالخروج ومعه بعض جند مصر .

واصطدم انصار ابن مصال بمُياس ابن زوجة ابن السلال وانهمزوا وكان أسامة آنذاك قد لقي ابن السلال بعد استدعائه من منزله . قال : « يبلغ الخبر إلى ابن السلال فاستدعاني في الليل ، وأنا معه في الدار . وقال : هؤلاء الكلاب يعني الجند قد هاجوا عباساً ، ودخلوا القاهرة ، فقال أسامة : يامولاي نركب إليهم في سحر ، وما يضحى النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى (١) .

وهذا الاعتراف من أسامة يؤكد أنه اتصل بابن السلال الذي خرج على طاعة الحافظ ، وانضم إلى معسكره في مواجهة الخليفة ووزير ابن مصال . ويؤكد تورطه في الانحياز لأعداء القصر .

وانتهت المواجهة بين ابن مصال وابن السلال وعباس في دِلاص حيث قتل ابن مصال الوزير وتمكن ابن السلال من الوزارة يعضده عباس الصنهاجي ابن امرأته وابنه نصر .

وبعد هذا « لم يبق لسيف الدين بن السلال من يعانده ولا يشاققه » على حد قول أسامة . فولى الوزارة قسراً .

وكان طلّاح في هذا الوقت على ولايته بأسوان يرقب الأحداث من بعد ، وأدرك تورط أسامة صديقه مع ابن السلال وعباس في مواجهة الظافر . ولكن مرت الأحداث سراعاً ، ورضى الظافر والقصر بالأمر الواقع ، وخلع الظافر على ابن السلال خلع الوزارة ولقبه الملك العادل . وتولى الأمور (٢) .

(١) الاعتبار ص ٣٠ .

(٢) الاعتبار ص ٣١ .

قال أسامة : « كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كاره له ، مضمّر له الشر ، فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخاص (حرس الخليفة) وغيرهم من استأثمهم ، واتفق فيهم أن يهجموا داره ، وأن يقتلوه . وكان شهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل ، وافتراق أصحاب العادل ، وأتا تلك الليلة عنده » .

قال أسامة ثم إن العادل أحس بمؤامرتهم وظفر بهم ، وهرب بعض هؤلاء إلى دار أسامة ، فقام بتهريبهم . وقد قتل في هذه الواقعة جماعة من المصريين والسودان ويبدو أن جند السلار كان معظمهم من المغاربة والأتراك . وكان معظم جند الخلفاء وحرس القصر من المصريين والسودان .

وفي وزارة ابن السلار قام أسامة ببعض المهام العسكرية ، منها تكليفه بقيادة كتيبة للذهاب إلى الشام ومناصرة نور الدين في حصار طبرية ومناوشة الصليبيين في بيت المقدس لينهض ابن السلار للهجوم على غزة وكانت بأيدي الصليبيين حتى لا يضايقوا عسقلان .

وفصل أسامة أخبار حملته تلك^(١) في طريقة من مصر إلى نور الدين ، ولقى نور الدين وأسد الدين شيركوه . ولم يخرننا ماذا تم .

ولكن يبدو أن نور الدين لم يوافق على خطة ابن السلار في حصار طبرية ، فأزمع أسامة على تنفيذ البديل الذي أوصاه به وهو مناوشة الصليبيين على عسقلان وبها حامية مصرية . قال أسامة : « ولقينا الأفرنج فرددناهم ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قرية من عسقلان »^(٢) .

وقام هو وأخوه ، وكان فارساً من عسقلان يريدان الغارة على بيت جبريل وقتالها . قال : « فوصلناها وقتلناها » .. وفي أثناء العودة — علموا بمحاصرة الأفرنج لعسقلان ، فتقدم أسامة ومن معه وعلم الأفرنج به فلما هموه ، وقتلوا من فرقته من قتلوا ، ودافع أسامة وأخوه دفاعاً باسلاً حتى تمكنوا من النجاة . وظل بعسقلان لمحاربة الأفرنج أربعة أشهر يعد الغارات على بلاد الصليبيين المجاورة حتى استدعاه ابن السلار إلى مصر . فعاد وبقي أخوه بعسقلان ،

(١) الأخبار ص ٣٤-٣٦ .

(٢) الأخبار ص ٣٩ .

واستشهد في معركة بعد رحيله . قال عنه : « وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعُبادهم » .

وجاء أسامة إلى مصر ليجد نفسه مرة أخرى متورطاً في فتنة قتل ابن السلار مع عباس الصناجعي وابنه نصر . قال أسامة إن نصر أرتب أمر مقتل ابن السلار مع الظافر وابيه عباس ، ودخل على العادل في بيته فقتله وقطع رأسه وحمله إلى الظافر . وذلك يوم الخميس السادس من المحرم سنة ٥٤٨ هـ .

يُؤْتَى عباس الوزارة . قال أسامة : وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ليصير في الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة .

وحدث ما ذكرناه من قبل في كلامنا عن المؤامرة ، وموقف طلائع وخروج ابن منقل وعباس ونصر من القاهرة .

وهكذا خرج أسامة من القاهرة مرة أخرى هارباً هذه المرة ، وخائفاً لتورطه مع قتلة الخليفة والأمراء الفاطميين الثلاثة . ونهب الفرنج أمواله ، ولجأ إلى دمشق حيث ملكها نور الدين ، عارياً من ثروته ، وأهله . وكاتب طلائع ليعث إليه بما بقي له في مصر من ثروة مع أهله وولده . ووفى طلائع ، فبعث إلى صاحبه أمواله وأهله في مركب ، إلا أنها عند عبورها أمام ساحل غزة شعر بها الصليبيون فاستولوا عليها ونهبوها .

وكان أسامة في مصر قد امتلك ثروة طائلة ، وخيلاً ، وعبيداً .

ويذكر جاثبا من ثروته التي نهبت في الفتنة فيقول :

« فلما خرجنا من باب النصر وصلوا — أي جند الخلافة — إلى الأبواب فأغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، فأخذوا من قاعة دارى أربعين غرارة جمالية مُحَاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير ، وأخذوا من اصطبل ستة وثلاثين حصاناً ، وبغلة سرّوجية ، نسبة إلى سروج بديار مُضَر — بسروجها وعدتها كاملة ، وخمسة وعشرين جملًا . وأخذوا من إقطاعي كرم أشفين^(١) مائتي رأس بقرة ، ومائتين ألف شاة ، وأهراء غلة » .

(١) بلدة بالقليوبية .

وكان طلائع كما أشرنا يرغب في عودة ابن منقذ إلى مصر ، فكتب إليه وهو بدمشق يؤمنه ويعدّه بالدفاع عنه أمام القصر وأهله . قال ابن منقذ^(١) :

« وكتب إلى يقول : ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر ، فتصل إلى مكة ، وأنفذ لك كتباً بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تنقوي به على محاربة الحبشة ، فأسوان نغر من ثغور المسلمين ، وأسير إليك أهلك ولولادك » .

ولكن العادل نور الدين منعه عن تلبية طلب الصالح في العودة إلى مصر قال : « ففاوضتُ الملك العادل ، واستطلعتُ أمره ، فقال : يا فلان ما هددت متى تخلّص من مصر وفتها ، تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك . أنا أتخذ أخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج ، وأسير من يحضرهم » .

ثم حدث ما حدث من تسيير الصالح له أهله في مركب ، نهبه الصليبيون ، وأخذوا كل ثروته وحلّ نسلته ، ووصل إليه أهله . وحزن وأسف ولكن نور الدين هون عليه الأمر بسلامة أولاده وأولاد أخيه .

وحز في نفسه ذهاب المال ، وأشدّ منه ذهاب الكتب فإنها بلغت كما قال أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة^(٢) . قال : فإن لذهابها حزا في قلبي ما عشت .

وهكذا مكث بدمشق وطلائع يوالى رسائله إليه ، ولا ندرى هل استجاب لدعواته فقد ذكر على بن ظافر في البدايه^(٣) أنه ذهب إلى مصر سنة ٥٥٢ هـ أي بعد مغادرته بثلاث سنوات أو أقل . والتقى في دار طلائع ذو الوزارة بالقاهرة بالشاعر المهذب بن الزبير . وليس في بقية المراجع ما يشير إلى هذه العودة .

وعلى أية حال فإن أسامة بعد أن قضى بدمشق عشر سنين بصحبة نور الدين شعر بوطأة السنين ، وثقل الحياة لبلوغه سنّاً متقدمة ، فقد قارب الثمانين فأثر الاعتكاف . وترك القتل والقتال ، ورحل عن دمشق إلى حصن كيفا وهناك خلا للقراءة والتأليف ، مستعيناً بما بالبلد من مكتبات عامرة بالكتب

(١) الأختار ص ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨ .

(٣) بنائيه ص

القيمة ، وظلّ كذلك في عزله حتى عودة صلاح الدين إلى دمشق بعد استيلائه على السلطنة بمصر .

واستقبله صلاح الدين وأنس به ، وبشعره . وأعطاه داراً واقطاعاً وكان يستشيرُه مفيداً من خبرته ومعرفته بالصليبيين ، وصحبه بعض الوقت في حله وترحاله . وعاش أسامة بقية حياته بدمشق حتى توفي في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥٨٤ هـ . وقد أُرِي على التسعين .

شعره

موضوعاته :

يغلب على شعر ابن منقذ أحداث حياته وعلاقاته بمن التقى بهم من الخلفاء والأمراء ، والقادة والوزراء ، وبذكر أحداث غربته ورحلاته بالشام ومصر ، وذكره الشكوى من الأيام وما فعلت به ، وثناء أهله والتشوق إلى أصحابه وأحبابه . والوصف والغزل . ويخلو من الهجاء وذكر الشراب والغزل بالمدح . ولعل ما وصلنا من الديوان هو ما تبقى من شعره ، لا كل شعره فقد اختار من شعره في آخر عمره ما يرى أنه مناسب مستبعداً منه كل ما كان من إسراف الشباب وطيش الصبي ، واندفاعاته وثوراته .

وربما كان من شيم أسامة ، وترفعه عن بعض الموضوعات التي تُنال من مروءة الإنسان ، وبخاصة مروءة فارس ملتزم ، ربما كان من هذه الشيم ما زجره عن الخوض في مثل تلك الموضوعات التي أكثر منها غيره من الشعراء اُخترفين .

غزله :

وتبدأ حديثنا عن غزله . وهو غزل غير تقليدي في جملة ولا شبه بينه وبين السيب القديم ، فهو أقرب إلى غزل المحدثين في نظرفه ، وإن كنا نحس في بعض أشواقه ، وعباراته الغزلية آثار حبّ قديم ، ولوعة صباية ربما عاناها ربحاً في شبابه أو في مرحلة من مراحل حياته .

وهو في هذا الغزل كثيراً ما يذكر الهجر ، وطيف الخيال ، وملال الحبيب كما نجد فيه رقة الخطاب والحوار ، وجمال أوصافه للحبيب والتدله في حبه

وقاموسه اللغوى فى موضوع الغزل ليس هو نفسه قاموس الغزل التقليدى بل كثيرا ما يدخل عليه عناصر تعبيرية جديدة أو مستجدة ، وإن اعتمدت على أسس تقليدية متداولة بين الشعراء .

ولم يلجأ إلى القوالب المعروفة ، ولا إلى الأشكال المصنوعة المتكلفة بل نراه يعبر عن صدق إحساس ، وعن شخصية ، شخصية الفارس التى ظهرت فى كثير من شعر الحب عند شعراء الفرسان أمثال عنترة والحمدانى أبى فراس . قوة فى الحرب وضعفاً أمام جمال المرأة وأنوثتها إلا أنه ضعف لإرادى ، ولا يكون ضعف حيلة وعيب ، ولا تطلباً لرغبة ومتعة بضرب من التذلل والأذعان . لكنه ضعف إنسانى من فارس مقاتل جرىء فى الحرب ضعيف فى الحب .

وفى غزله أحياناً نلتقى بتحسره على ذهاب العمر ، وذهاب متع الحب بذهاب الشباب . ويغلب هذا على غزله فى مراحل الهرم .

ومن شعره الجهد فى الغزل قوله^(١) :

أما فى الهوى حاكمٌ يَعدَلُ	ولا من يكفّ ولا يَعدَلُ
ولا من يَقلُّ أسارى الغرامِ ،	والوجد من ثقل ما حُمِلُوا
ولا منصفٌ عالمٌ أنه	إذا قال بالظنّ يستجهل
إذا هو لم يَدرِ ما يلتقى	أخو الوجد من دائه يسأل
ليعلم أن سَهَامَ القَرامِ	قبل إصابتها تَقْتُلُ

مساكينُ أقلّ الهوى ما لَهُم	مُجِيرٌ ، ولا لَهُم مَوْتَلُ
فتيلُهُم ما له وإيرُ	ومظلومُهُم أبداً يُحْدَلُ
وإعلانُهُم للهوى فاضِحُ	قَولُ ، وكتائبهم أَهْلُ
وإن جَعلُوا الحبَّ خوفَ الوشَا	إِ أَقرُّ به أدمعُ تَهْجَلُ

إلى أن يقول :

بنفسى مُستَهترٌ بالصُدُو

د ، حازَ الجمالَ ، ولا يَجْمَلُ

(١) ديوانه ص ٣٤ .

جنوبى به أمد رائد
نجيل على مفتى بالرقا
وماضى غرامى مستقبل
د، ونست عليه بها أبخل

ويقول مظهراً آثار العمر في علاقة الحب وكان بلغ السبعين (١) :

سبحان باري سهام من الواظهِ
إذا رُميَ فما دون القلوب وإن
كانت وليل الصبي تُخفي دهاجره
أعصى النصيحة فيها غير مُعتلٍ
وأحمل الضغن في وجدي بها وأرى
حتى إذا نادت السبعون حسب من
من الملاحه، لا من أسهم العرب
حرمن من جتن تحصى ولا حجب
عني سبيل النهى، والرشد من أربي
وأركب الغي عمداً، غير مُتشب
حمل الهوى من وقار الجلم أجدر بي
تعلي قلبك بالآمال والكذب

لقد شعر الرجل بأن الحب وأحلامه وآلامه، وتعذيه، ولذته وآثامه كل
أولئك قد انصرف عنه وهو يخطو في السبعين، فعاد يسترجع ذكرياته، ويعود
بحياله بعد أن عصته قدراته إلى مجالي الصبا ونشاطه .

وهو الفارس المحارب، المصارع للأسود، لا يخشى بأسها، ويهاب
الحبيب :

وكذا الصبُ مَحْسُنُ الجور في الحـ
لا يهابُ الأسود في حومة الحـ
ويجازي عن النفار من الأحبا
يا مليح القوام عطفاً فقد يعطـ
لك قلب أفسى علينا من الصبحـ
وبحكم العلو تحكم الحما
ب لديه، ويعذب التعذيب
رب، ويقتاده الغزال الزبيب
ب بالقرب إن ذا العجيب
ف من لينة القضيبة الرطيب
سر، وما هكذا تكون القلوب
ظك في قلبنا، وأنت الحبيب !!

ومع ميله إلى التجديد في حديث الغزل إلا أنه لا يفلت كما أشرنا من الصيغ
المتداولة في خطاب الغزلين من سبق من الشعراء، والألفاظ والتشبيهات هي
هي أحياناً . يقول :

غصن ودعص، فالقُصن من
شمس وليل، فاعجب لشمس ضحي
هيف يميس لينا، والدعص مرتج
تُشرف، والليل راكِد يذجو

رحيق رقيق عذب، ففى كبرى منه صغير، وفى فبى تلج
فى وجهها كعبة الجمال للـ حين إلى حين وجهها حج

فالفردات هنا معروفة ، متكررة ، ولكن فى الصياغة والتركيب ، يبدو
خارجاً على المؤلف فى قوالب التشبيه ، وفى تشبيهه فى البيت الرابع عوداً إلى
تشبيهات فى المعنى مررنا بها عند بعض شعراء مصر فى القرن الماضى . وما
يتصرف فيه تصرفاً حسناً من قوالب التعبير التقليدية قوله :

نفسى فلت بئر تمام، إذا عاتبنى بالجد أو بالمزاح
سدت بالقتيل فاه على يسلك ودر ، وعقيق وراخ

كذلك قوله :

مُهَفِّفٌ صَحَّتْ عَلَى سُقْمِهَا جَفَوْنُهُ فِيهِ مَرَضٌ صِيحَاخٌ
لَطْفُهُ فَتَكَةُ يَبِضِ الظُّبَا وَقَدَّوْهُ هِرَّةٌ سُمِرَ الرِّمَاحُ
شَمْسٌ نَهَارٌ تُرْتَبِدَى بِاللَّجَى غَصَنٌ مِرَاحٌ، فَوْقَ رِدْفٍ رِدَاخٌ
طَافَ عَلَيْنَا وَاللَّجَى رَاكِدٌ يُظْلِنَا مِنْ جُنْحِهِ بِالْجَنَاحِ

ويقول ويذكرنا بأبيات سبقت هم من المعز (١) :

عَقَائِلُ الْحَيِّ أَمْ سَرِبَ الْمَهَا سَتَحَا أَفْسَدُنْ مَا كَانَ بِالسَّلْوَانِ قَدْ صَلَحَا
هَرَزَنَ كَالْبَانِ فِي الْكُتُبَانِ حَامِلَةً نَهْمَسَا أَضَاعَتْ، وَلَيْلًا رَاكِلًا جَنَحَا
فَاقْتَلُنْ بِالْحَبِّ مَنْ أَعْطَى مَقَادَهُ طَوَّعًا، وَرَضُنْ بِحَسَنِ اللَّئْلِ مَنْ جَمَحَا
مَنْ كُلِّ غِيْلَاءٍ يَكْسَلُ إِذَا اتَّهَتْ تَنَفَّسَتْ عَنْ نَسِيمِ الرُّوْضِ إِذْ نَفَحَا
كَانَتْ مَنِ النَّفْسِ لَوْلَا وَأَعْظَمَ لِسَنٌ لِلشَّيْبِ أَسْمَعْنِي، نَاهِيهِ إِذْ نَصَحَا

فقاموس الغزل المعروف من أسماء وأفعال تتردد ها هنا بصورة أو بأخرى ،
ويصوغها كما أشرنا صياغة يتنوع ويتفوق فيها ، كفعل المحدثين الحضرين .

ولكن آثار الصنعة، والتقليد فى غزل أسامة لا يقللان من صدق أحاسيسه
وبخاصة عندما يتطرق للفرقة والمهجرات ، والرحيل ، كأن يقول :

• (١) يقول هم : « سَرِبَ مَهَا عَنْ أَمْ سَرِبَ جَه » .

وَأَرْوَمُ قَرَبَ الدَّارِ مِنْ مَتَاعِيدِ
وَأَفْرُ بِالْعَتَبِ لِحَابِ جَانِدِ
سَاهُ ، وَأَسْهَرُ مُقْلَتِي لِرَأْقِيدِ
فَأَنْتَ مَوْدَّةُ جِلَابِ التَّائِيدِ
يَغْرِى بِنَا ، وَحِذَارُ وَاشِ حَاسِيدِ
فَلَنَا قَطِيعَةُ قَطِيعَةِ عَامِدِ
مَنْ يُمَهِّجُهَا اخْتِبَارُ التَّائِيدِ
مِنْهَا ، وَأُدْفَعُ غِيْبَهَا بِالشَّاهِدِ
وَابْتَرُ ثَوْبَ تَمَاسِكِي وَنَهَائِدِي
عَفِيتَ بِالْهَجْرَانِ سَبِيلَ مَقَاصِدِي
يَلْقَى جَوَى قَلْبِي بِقَلْبٍ بَارِدِ

حَتَّى تَمْ أَرْغُبْ فِي مَوْدَةٍ زَاهِدِ
وَالْأَمِّ التَّحْزِمِ الْوَفَاءِ لِفَافِدِ
وَعَلَامَ أَعْمَلُ فِكْرَكَ فِي سَائِدِ
وَأَرَوْضُ نَفْسِي فِي رِضَا مُتَجَرِّمِ
وَأَقُولُ هَجْرَتَهُ مَخَافَةَ كَاشِحِ
وَأُظَنُّ يَدِي الصُّلُودَ ضَرُورَةَ
مَنْ لِي بِنَيْلِ مَوْدَةٍ مَمْنُونَةِ
أَرْضَى بِبَاطِلِهَا ، وَأَقْنَعُ بِالْمُنَى
بِأَظْلَمَ أَفْعَى اصْطِبَارِي هَجْرَةَ
كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى وَصَالِكَ بَعْدَمَا
وَيَعْلَمُنِي فِي حِمْلِ ظَلَمِكَ جَاهِلِ

هذا الخطاب الحوارى ، يحاور فيه نفسه ، ومحبوبه فى الهوى وما يلقاه ،
والحبيب وما يعامله به من جفاء ، وهجران ، فيه رقة ، وعلوبة ، وخروج
على الخط السردى فى الصياغة ، وفيه من المعانى والتجديد ما فيه ، كما لا يجرمه
من ملححة البديع ، وحليته ، فىأتى شية حسنة تزين الحديث ، فيكسب التقابل
والطباق معانيه حلالة ، كما يكسبها الجناس جرساً ، والأبنية المتقابلة ايقاعاً
محبياً

ولأسامة فى شعره الغزل تفتن فى الجرس والإيقاع يكسبه مذاقاً خاصاً وتراه
يتبع غيره من شعراء العصر فى هذا الوزن والجرس الذى يسود فيه صوت الثون
برئاته وألغاته ، وكأنه وترٌ يجرُّك ، أو رَقٌّ يُنَقِّى . يقول (١) :

مُحِبًّا مَا أَرَى أَمْ يَنْزُرُ دَجَنِ
وَتَغْتَرُّ أَمْ سَنَانِ رَكْبُوهُ
وَأَتْنِ مِنَ الظُّبَا الْخَاطِطِ ظَنِي
وَبَارِقُ مَنِيْمِ أَمْ يَزِقُ مُزْنِ
بِأَسْتَرٍ مِنْ بَنَاتِ الْحَطَا لَذْنِ
تَنَابَى عَنْ سُلُوىِ الْبَشْنَى

فَمَا مَنَ مِنْهُ قَلْبِي فِي سَحْرِ
حَبَاكَ هَذَا بِنَى مَحْضِ وَدِ
وَعَيْنِي مِنْهُ فِي جَنَابِ عَذْنِ
تَزْرَعُ عَنْ مُدَاجِإِ وَضِغْنِ

(١) ديوانه ص ٤٦ .

ومن مفردات معانيه في الغزل التي أكثر منها حديث الطيف ، وخيال المحبوبة فهو يشارك سابقيه البحترى والتهامى في هذا الحدث . يقول (١) :

يلوحه من جوى يغلو عليه ومن جوى يروح ، إذا ليل المجوم دجا
أفلى خيلاً سرى ليلاً فاشرفت الدنيا بأنواره ، والصبح ما أنبلجا
عجب منه تخطى الهول معترضاً أرض العدى ووشاة الحى ، كيف نجا؟
وقوله (٢) :

لا غرو أن هجر الخيال الزائر ما يستزير الطيف طرف سائر
دون الكرى خطرات هم دذله عن ناظرى فهو الثوار الناظر
لا سورة الصباء تصرفه ولا يلهى قولوى حين يطرق سائر
ومن مفرداته قبلة الوداع ، وهى من معانى الغزل عند تميم . يقول أسامة :

نفسى النداء لمن قبلته عجلأ والين يعجب من وجدى ومن عجلي
فمال عنى بفيه ثم عرض لى تحدا جرى فيه ماء الحسنى والحجل
فأذا إشراق ذاك الورد بالقل فزاد إشراق ذاك الورد بالقل
فارتاع من حر أنفاسى وحرقة أحشائى ، ونهى فاه العذب بالقبل
ورابه ما رأى من روعتى ، فىكى وقال : لا كان ذا توديع مرنجل

وتحدث الشعراء من قبل عن دمة الفراق التي تسقط على الخد ، وافتوا فيها ونذكر أقوالاً فى ذلك لأبى تمام والمتنبى خاصة ، إلا أن صياغة هذين الشاعرين بما فيها من رصانة وجزالة بناء ، قللت من رقة الحديث ، وإن اكسبت الكلام روعة كأن يقول المتنبى :

فى الخد أن عزم الخليط رجلاً مطر تزيد به الخلود محولا
أو قوله :

وقد صارت الأجفان قرحى من البكا وصار يهلوا فى الخلود الشقائق
ويقول أبو تمام :

(١) ديوانه ص ٥٨ .

(٢) الصدوق ص ٦٨ .

وأجرى لها الاشفاق دمعاً مورداً من الدَّم يَجْرِي فوق خدِّ مورِد

وقوله المشهور :

أظن دموعها ستَنُ الفريد وَهِيَ تَيْلَكَاهُ من نحرٍ وجيد
لها / من لوعةِ الين التدام يُعِيدُ بنفسجاً ورْدَ الخُدودِ

ومعانيه وصوره في رحلة الحبيب تقليدية في إطارها العام ، وإن غيّر لي
التعبير وتركيب اللفظ . كأن يقول :

سَآرُوا بَقَلِّبْ أَسِيرَهُمْ بَعْدَهُمْ مُتَلَدِّدٍ، فهو المقيمُ السَّيْرِ
غَاضَتْ دُمُوعِي فِي الْمَنَازِلِ وَارْعَوَى صَبْرِي، وراجعني الرَّقَادُ النَّافِرُ

ومنها خطاب المطي^(١) :

يا نَاقَ شَطَّتْ دَارُهُمْ فَجَنِّي مَا أَرَزَمَتْ وَهَذَا لِفَقْدِ إلفها
أَعْلَى رَمَتْ جَوَارِحِي بَوَهْنِ لَا عَجَّ شَوْقِي وَذَكَرْتُ يَحْلِنِي
فَقَدْ شَجَانِي حَزْنُهَا وَحَزْنِي حَسْبُكَ قَدْ طَالَ الْأَيْنُ وَالْأَسَى
وَمَا أَرَى طَوْلَ الْحَيْنِ يُلْفِي فِي مَهْمَةٍ سَهْلٍ وَوَعْدٍ حَزْنٍ
سَقَى الْحَمَى وَالْبَانُ صَوْبُ الْمَرْنَى حَتَّى تَنَاجِي تَحْتَ بَانَاتِ الْجَمَى

ومن معانيه التقليدية الوقوف بالديار :

فاضت دُمُوعِي فِي الْمَنَازِلِ وَارْعَوَى صَبْرِي، وراجعني الرَّقَادُ النَّافِرُ
إِنْ لَمْ أَسْعَ بِهَا سَحَابٌ أَدْمَعُ يَنْجَابُ نَحْشِيهَا الْغَمَامُ الْبَاخِرُ
أَحْمَلُ الْإِطْلَالَ بَنَةً عَارِضِي وَسَحَابٌ دَمْعِي مُسْتَهْلٌ مَا طَرُ
إِنِّي إِذَا بِشَوْقِي دَبِعِي بِأَجَلٍ وَبَعْدَ مِنْ سَكَنِ الْمَنَازِلِ غَادِرُ

فالمتضمنون تقليدي لكن التشكيل يتصرف من الشاعر ، وقد أدخل هذا
التشكيل اللفظي على المعنى عناصر مستحدثة ، وإن ظل المعنى الأساسي
قائماً .

(١) ديوانه ص ١٠١ .

ويصور رحلة الطعمين عن البيوت فيحور في المعاني التقليدية والصياغات التي توارد عليها الشعراء فيقول^(١) :

أظمان من هوى، وتلك دياره	هذا وقوفك للوداع وهذه
بعد الفراق، وإن طما تياره	فاستبي دمعك فهو أول خاذل
إن لم يكن من لجة تثاره	مدد الدموع يقل من أمد التوى
سفكته يتقل غيرها أوزاره	ليت المطايا ما تخلفن فكم دم
وجذابه إلا لذيها ثاره	ما مات صب إثر إلف نازح
حتى يعاف دما عين غراره	فلو استطعت أبحت سيقي سوقها
ما ساعى أنى الغداة قداره ^(٢)	لو أن كل العيس ناقة صاخ
لهي الحمام أتيح أو إنذاره	ما حتف أنفسنا سواها إنها

ونرى كيف دار مع المعنى العمودي أو الأساس دورة ، نأى بها عن صورته الأولى التي ترددت في أشعار السابقين ، والتي تقصد إلى المباشرة في السرد . أو هو حاول التجديد في العرض مع الحفاظ على نواة المعنى .

وهكذا كان كثير من المحدثين في القرنين السابقين الرابع والخامس ممن لم يتخلصوا تماماً من أسر المعاني الشعرية التقليدية .

وندع هذا الحديث عن المنازل والرحيل أو الأظمان ، والبكاء على البيوت ، أو البكاء للفراق من الشاعر أو صاحبه ، ندع هذا إلى ما وظفه الشاعر من عناصر الأحياء والجماد كالطير لمعانيه الغزلية ، أو معاني النسيب ونعرف أن بس أثر الطير الحمام ، نجاه الشعراء وحاوروه بأسمائه ، من مطوقة وهديل .. وهنا صاحبنا يذكر بكاء الحمام لبكائه :

تبكى لأنيك الحمام، وطالما
هَاجَ الجوى لأخى الهوى تُثريه
ويقول^(٣) :

غصني فأغرى بالآسى من قدنا	بالوعسا لطائر ناح على
فلزقت، أو كما وجلت وجنا	أظنهُ فارق الآفا، كما

(١) ديوانه ص ٧٠ .

(٢) قلل هو اسم الرجل من ثود الذي عقر الناقة .

(٣) ديوانه ص ٦٧ .

أدعى جراحاتٍ بقلبي للثوى
لكن يبيح للحزين بثه
وما علمت نوح حُزناً أم شناً
إذا رأى على الحنين مُسبغاً
ويقول (١) :

وهاج لي الشوق القديم حمامة
دعت شجوها مخزنة لم يُفِض لها
على غصنٍ في غيبةٍ يترنم
دُموعٌ ففاضت أدعى مَزْجها دُم
فقلت لها إن كنت خنساء لوعة
ووجدت قاني في البكاء مُتَمِّم (٢)
ويقول وقد دعاها ورقاة :

ويهبجني بعد النيمال صباي
عجماء تنطق بالحنين ولم يهبج
ورثاء ما ذ بها قضيب مورق
شوق القلوب كأعجمي ينطق
في ما بها لكن كمت، وأعلنت
ودموعها حبيست ودعى مُطلق
ومن عناصره التعبيرية من الطبيعة « البرق » . في نار الجوى ، والمطر
للدمع :

وإذا السحاب سرى فنارُ بروقهِ
من زَفَرَتِي ومياهه من أدعى
شعر المارك والجهاد :

وقد استغرق كثيرا من قوله ، وغلب على ديوانه ، ويدخل فيه مدح قادة
عصره وفرسانه ممن أبلوا بلاء حسنا في جهاد الصليبيين من أمثال العادل بن
رزيك ، ونور الدين محمود ، ومعين الدين أنر .

وفي مدحه هؤلاء القادة يشيد بمحاربتهم للفرنج ، ومواجهة قادة الصليبيين
وفرسانهم من استتارية ودلاوية ، ونتائج المارك من أسر لبعضهم أو قتلهم
البعض الآخر واستشهاد جند المسلمين وبعض قادتهم في سبيل الله ، وما
سيُجزون عليه من جنة النعيم في الآخرة .

من ذلك هذه القصيدة الميمية التي تجمع بين مدحه للصالح وفخره بنفسه
وأفعاله وجهاده . يقول فيها (٣) :

(١) بعض الشعراء المتساهل يكت أفعلا صغرا . وتمم بن نورة الذي اشتهر بكاء أخيه مالك .
(٢) ديوانه ص ١٩٥ .

للصالح الملك الميمون طائفة

يقول فيه :

مغامرٌ ترهبُ الأجل سَطَوته
يستقبلُ الحربَ بساماً، وقد كثرَتْ
تلقى الألف، ويحبوها، ففى يده
ما غركم بصلوق الظنَّ يخبره الر
يرى الضعائين فى قلب الحسود له
فإن سطا عن يقين، أو عفا كرمأ
أدناكم فاعتليكم عن ذوى رجم
وعتكم سب جود منه به ذا الحمول
كم غم كسفت عنكم صوارمه
لولا ما زال عنكم طلة أبدا
بالمالك مالكا رقى بأنجييه
ما الشكر كفى لما أوليت من نعم
وإن أكن كرمير فى الشاء، فقد
وإن تكن مدحى وقفا عليك فلا
ففى يمينك منى صارم تحلم
فى حله حتف من ناداك وهو لمن
فمر بما ثبت منى، تلقى مبتلا
مجرأ طاعتى المجرب مختير
فبلل نفسى عندى فى رضاك فلا
صرفت صرف الليالى دون غشيم
وأوصتكم بصلاب من لكلك للى

بجديه طوق من غير متقصي

وتفرق الأسد منه فى حمى الأجم
بها المنية عن أنيابها الأرم (١)
من القطا والسطا بحرا ندى وذم
أى الصحيح بما فى الصبد من سقم
تدب مثل ديب النار فى الفحم
فإنه خير ذى عفو ومستم
وحاطكم فاعتديكم منه فى حرم
منكم، وأغنى كل ذى عدم
ولم يزل كاشف اللأواء، والغم (٢)
علمتم كيف تأتى فجأة التهم
وملك مثل لا يتأخ بالقيم
وإن تسهل لى مستوعر الكلم
علوت مجدا، وجودا عن مدى حرم
تظن أن ثلثى متبى همتى
يقرى إذا كل الصارم الخليم
والاك منبجس بالبارى الشيم
بهم ما اعتورتها فترة الهيم
إن التجارب تجلو شبهة التهم
حرمته، بعض ما أنوي من يديسى
أو كفى بأسك عنهم كف منضم
أرضي الشام، لقد أغربت فى الكرم

وفى هذه الأبيات يعتد أسامة ما اسدى إليه صديقه ابن رزيك من الأيادى
وكان أتمها عنده وأستأها حفاظه على أسرته بعد فراه، وحمايتها وأمواله من

(١) الأرم : العاتكة للمهلكة .

(٢) الأرواء : الشقة .

أن يبطش بها أعداؤه من اتباع قصر خلافة الذين تمهوه بالاشترار مع عباس وابنه ، ولإرساله أهله وولده مع ما له إليه في مركب إلى الشام .

ويعصف رسائله الشعرية والنثرية التي بعث بها إليه فيقول :

لله جر طروس ضمنت ذرراً
أضحت على مفارق تاجاً وفي عني
لفظ أرق من الشكوى والطف من
جرث لطائفه في قلب سامعه
فصاحة تسعت من كان ذا صمم
ووشى غط حكي زهر الربيع وشث
أكرم بمشتر منها ومُتطي
تجمة من عوايد الخطب والمدم
عني، وأشهى من الإبلال في الأثم
مُجرى الهوى من فؤاد الغارم السليم^(١)
وحسن معنى أفاد الفهم ذا اللثم
أكامه عن بديع اللفظ والحكم

وما كتبه مجاوباً للصالح في قصيدته الطويلة :

أى الله إلا أن يدين لنا الدهر
ويعمدنا في ملكنا العز والنضر
وذكر فيها وقائع وسراياه إلى الأفرنج وتسييره الجيوش ، فاطلع عليها العادل
نور الدين محمود ، وطلب إليه — إلى أسامة أن يجاوبه مبيناً ما شارك به في
حرب الصليبيين فكتب يقول :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه
وتخضع أعناق الملوك ليرؤنا
بحيث حللنا الأمن من كل خادب
بطاعتنا لله أصبح طوعنا الآ
فأبائنا في السلم سحب مواهب
قضت في بنى الدنيا قضاء زمانها
وما في ملوك المسلمين مجاهد
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا
دماء العدا أشهى من الزاح عندنا
لتحيا بنا الدنيا، ويفتخر العصر
ويتقاد طوعاً في أزمتنا الدهر
ومرهبها منا على بعدنا الذكر
وفي سائر الآفاق من بأسنا دعر
نالم، فما يغص لنا فيهم أمر
وفي الحرب سحب وبلهن دم هم
فسير بها شطر، وسيء بها شطر
سيوانا، فما يشيه خر ولا قر^(٢)
ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر
ووقع المواضع فيهم الناي والوتر

(١) السليم : المهموم .

(٢) ينقل هذا على لسان نور الدين محمود .

تواصلهم وصل الحبيب وهم غدا
 وفي سجنائنا الفنش خير ملوكهم
 أسرناه من جصن الثرمية راغما
 وسئل عنهم الرايدى بإقليس إنه
 هم انتشروا فيه لرد رعيننا
 ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن
 وكان يظن الغر أننا نبيعه
 فلما استبحنا ملكه وبلاذه
 كحنائه نبى الأجر فى فعلنا به
 ونحن كسرنا البقودين^(١) وما لمن
 فسئله اللعين الحافين الذى
 وقد ضاقت الدنيا عليه برحيتها
 أفى غدره بالخيل بعدا يمينه
 دعتة إلى نكت اليمين وغديره
 وقد كان لون الخيل شتى فأصبحت
 ثوبهم عجزا حلما وأياتنا
 فلما تمادى غيه وضلالة
 وسرنا إليه حين هاب لقاءنا
 وفير حشايانا السروج وقمصنا
 ترى الأرض مثل الأفق وهى نجومه
 وهم الملوك البيض والسمر كاللبنى
 صوارمنا حمر المضارب من دم
 نسير إلى الأعداء والطور فوقنا
 فبأس يذوب الصخر من حر ناره
 وجيش إذا لا قوا العدو ظنتهم
 ترى كل شهق فى الوعى مثل سهبه
 هم الأسد من بيض الصوارم والتقا

(١) هو بلدين أحد ملوك بيت المقدس الصليبي .

(٢) يقصد بالأدم والعفر الظباء وهى من صيد الأسود .

زملتهم ينحط عنا بها الوزر
 وإن لم يكن خير للهم ولا ير
 وقد قتل فرسانه فهم جزر
 إلى اليوم فيه من دمائهم غلر
 فمن ثربه يوم المعاد لهم نشر
 ليخشى من الأيام ناقة تعرفو
 بمال، وكم ظن به يهلك الغر
 ولم يبق مال يحتاج ولا فقر
 وفى مثل ما قد ناله بحر الأجر
 كسرناه إبلال يرعى ولا جبر
 له الغر دين: ما به صنع الغر،
 فلم يتجه بر، ولم يحبه بحر
 بإنجيله بين الأنام له غلر
 بذمته النفس الخنيسة والمكر
 تعاد إلينا وهى من ذبهم حمر
 وما العجز إلا ما أفى الجاهل الغر
 ولم يشه عن جهله النهى والزجر
 وبأن له من بأسنا البوس والشر
 الدروع، ومنصوب الخيام لنا قصر
 وإن حسنتها عزها الأنجم الزهر
 وهمتنا البيض الصوارم والسمر
 قوائمها من جودنا نضرة تحضر
 لها القوت من أعدائنا، ولنا النصر
 ولطف له بالماء ينبجس الصخر
 أسود الشرى عنت لها الأدم والعفر^(٢)
 نفوذ، فما يشبه خوف ولا كثر
 لهم فى الوعى الساب الحديد والظفر

يرون لهم في القتل مُخلداً فكيف باللقب
إذا نُسبوا كانوا جميعاً بنى أب
يظنون أن الكفر عصيان أمرنا
لنا منهم إقدائهم وولاؤهم
بنا أيّد الإسلام، وازداد عِزة
قتلنا البرنس حين سار بجِله
ولم يبقَ إلا من أسرنا وكيف بالبق
فولي يبارى عاترات سيهاينا
وشغلى لنا فرسانه وخمائه
وما تنتشى عنه أسنة خيلنا
إلى أن يزور الجوسلين مساهماً
وترجع القدس المطهر منهم
إذا استغلفت شُم الحصون فعندنا
وإن بلد عز الملوك مرأته
وأضحى عليه للسهم وللظبا
بنا استرجع الله البلاد وأمن العباد،
فتحنا الرهاحين استباح عدائنا
جعلنا طلاء الفرسان أغياد ييضنا
ونحن اقتحنا قل بائير بعدها
أنى ساكنوها بالمفاتيح طاعة
وما بكل ملك قادر ذو مهابة
وقل عزائى صبحته جيوشنا
وملنا إلى برج الرصاص (١) وإنه
وأضحت لانطاكية حارم شجى
وحصن كفرلاتا، وهاب، تلدانيا
وفي حصن باسوطا، وقورص ذلت الصمصص
وقامية والبرة استغفلتها

(١) مكان بالشام.

(٢) لأنوق : العقاب طير جارح .

(٣) يقصد بالقرع الدلو ، والنقر منزل من منزل القمر هو والدلو .

ساء لقوم قتلهم عندهم حمم
فقطعنهم شزر وضربهم هب
فما عندهم يوماً لإيماننا كفر
ومنا لهم إكرامهم والذى القمر
ودل لنا من بعد عزته الكفر
تحف به الفرسان والعسكر المخمر
ساء لمن أختت عليه الظبا البتر
وفي سماعه من وقع أسافنا وفر
فشطر له قتل، وشطر له أسر
ولو طار في أفق السماء به الشر
له في دياج، ما للآلها فجر
فلم يبق منها في ممالكهم شبر
مفاتيحها يعض مضاربها خمر
ورمناه، ذل الصعب واستسهل الوعر
ووقع الملائكى الرعد والبرق والقطر
فلا خوف عليهم ولا قهر
جماها، وسى ملكها لهم الخمر
وملكننا أبكارها . النفكة البكر
وقد عجزت عنه الأكاسرة الغر
إليها، ومسرهم إلى بابنا شهر
ولا كل ساج يستتب له الأمر
فلم تحمه عنه الرجال ولا الجنر
لكا لست، لكن الرصاص له قطر
وفيها لها والساكين بها حصر
لنا، وذراها لأنوق به وشكر (٢)
لنا همة من دونها الفرع والغفر (٣)

ومضى في ذكر المواقع التي نازل فيها زنكى وأبناءؤه والعدل نور الدين
خاصة الفرنج وأجلاهم عن أرض الشام التي ملكوها عتوة . حتى يقول :

رددنا على أهل الشام رباعهم وأملاكهم ، فارتاح عنها بها الفقر
وجاءتهم من بعد بأس وفاقه وقدمتهم من فقدها البؤس والضّر
ومر عليها الدهر والكفر حاكم عليها ، وعمر من بعده عمر
فناهم من عودها الخير والفيء كما نالنا من ردها الأجر والشكر

فهذه ملحمة من ملاحم الإسلام الكبرى صاغها الشاعر الفارس مشيداً
بأعمال نور الدين زنكى على لسان ابنه المجاهد نور الدين ليرد على طلائع اتهامه
بأنه يهادن الصليبيين وهم لا يؤمنون على ذمة ولا هدنة .

والقصيدة طويلة تظهر تمكن أسامة وشاعريته ، وقد اختار لها إيقاعاً متدفقاً
حماسياً ، جعل رؤية الرأى المضمومة وسنّادها السكون ، فتجاوبت القافية
صوتاً مع إيقاع الأبيات الحماسي .

وهذه الملحمة تسجيل شعري لكثير من معارك الشام المشهورة التي خاضها
عماد الدين زنكى وأبناءؤه لتحرير الشام من مستعمرات الصليبيين ، وقلاعهم
وحصونهم المنيع ، التي استقروا بها وضائقوا المسلمين ردحاً من الزمان .
وكان أول ما حرّر على ما نعرف الرها وتلتها أماكن كثيرة .

هذه أمثلة من شعره في الفخر ووصف المعارك تتكرر في ديوانه وتستغرق
جانباً من شعره الذي اختاره لنا . ويمثل هذا الشعر مع رصيفه من شعر طلائع
جانباً مشرقاً من شعر الجهاد الإسلامي في القرن السادس .

شعره في الغربة والاغتراب :

ومن جيد شعره ما قاله في الغربة والاغتراب ، وقد عرفنا أنه تنقل من بلد
وجاب بلاد الجزيرة والشام ومصر . ويقول من قصيدة له في التشوق إلى مصر
بعد غربته عنها وقد قضى فيها ما يقرب من عشر سنين^(١) :

ما هاج هذا الشوق غير الذكر وزورة الطيف سرى من مصر
من بعد طول جفوة وهجر كم خاض بحراً وفلاً كبهر

(١) ديوانه ص ١٧ .

يَجُوبُ اللَّيْلَ خَلِيفَ الدَّعْرِ
 قَدْ انطَوَيْنَ مِنْ سُرَى وَضَعِي
 يَعْمَلْنَ كُلَّ مَا جِدَّ كَالصَّغِيرِ
 بَعْدَ مَهْوَى فَمَةٍ وَذَكَرِ
 وَإِهَاءَ لَهُ مِنْ زَمَنِ وَعُمَرِ
 إِذِ الصَّبَا عِنْدَ التَّصَالَى عُنْزِي
 غُرَاءَ أَبِي مِنْ لِيَالِي الْبُحْرِ
 أَحْسَنَ مِنْ شَمْسٍ بِغَبِّ قَطْرِ
 تَبَسُّمٍ عَنْ مِثْلِ نَظِيمِ الدَّرِ
 إِذَا انْتَبَهَتْ قَبْلَ نَهْوضِ الْفَجْرِ

ويقول في نشوقه إلى طلّاحه واصدقائه بمصر (١) :

أَيَا سَاكِنِي مِصْرَ رِضَانَا لِبَعْدِكُمْ
 إِذَا عَنْ ذِكْرَاكُمْ ظَلَلَتْ كَأَنَّنِي
 وَالزُّيْمُ كَفَنِي صَدْعَ قَلْبٍ أَطَارَهُ
 فَهَلْ لِي إِلَيْكُمْ أَوْ لَكُمْ بَعْدَ بُعْدِكُمْ
 أَرَأَيْكُمْ عَلَى بَعْدِ الدِّيَارِ بِنَاطِرِ
 يَقُولُ لِلصَّاحِ (٢) :

رَأَى الْحَسُودَ تَدْنَى وَدَنَا فَسَقَى
 وَمَا الْبَعِيدُ الَّذِي تَتَأَى التَّيَّارُ بِهِ
 أَجْوَدُ الْقَلْبِ، وَالْفَسْطَاطُ قَارُهُمْ
 أَوْفَى التَّدْنَى الْهَوَى، وَالدُّارُ نَارُحُهُ
 فَارْتَقِكُمْ مَكْرَهًا، وَالْقَلْبُ يَحْزَنِي
 وَلَوْ تَعَوَّضَنِي الدُّنْيَا غَيْثًا وَهَلْ
 وَلَسْتُ أَنْكَرُ مَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِهِ
 كَمْ فَاجَأَتْنِي اللَّيَالِي بِالْخَطُوبِ فَمَا

(١) ديوانه ص ٨٠ .

(٢) ديوانه ص ٨٥ .

واسترجعت ما أغارت من مواهبها فَمَا هَمَّا بِي عَلَى اثَارَةِ اللَّهْفِ
وَمَا أَيْفُتْ لِأَمْرِ قَاتٍ مَطْلَبُهُ لَكِنْ لَفَرْقَةٍ مِنْ فَارَقَتِهِ الْأَسْفُ
ويشتاق لأصدقائه بالقاهرة والقسطاط غير طلائع ، مثل القاضي الرشيد بن
الزبير وأخيه المهذب .

وعند ذهابه لمصر يتشوق إلى صديقه وجاره بالموصل نقيب الطالبيين
فيقول (١) :

ضياءَ الدِّينِ، ما شوقٍ دَعَانِي فَأَسْمَعْنِي بِمَصْرَ مِنَ الْعِرَاقِ
بِمَحْدُودٍ فَأُشْرِحَهُ وَلَا لِي قُوَى الْأَقْلَامِ تَسْطِيرَ اشْتِيَاقِي
ولَكِنِّي سَأَرْجُوهُ وَأَرْجُو مَشَافَهَتِي بِهِ، عِنْدَ التَّلَاقِ
إِذَا مَا كُنْتَ جَارَكَ ذَا اشْتِيَاقِي إِلَيْكَ فَكَيْفَ لِي بَعْدَ الْفِرَاقِ

وكان القاضي الرشيد كتب إليه من مصر مشتاقاً أياتاً يقول في أولها :

أَحِبَّائِنَا مَا مِصْرَ بَعْدَكُمْ مِصْرُ وَلَكِنَّهَا قَفْرٌ، إِلَيْكُمْ بِهَا قَفْرُ
وإنْ تَحُلْ يَوْمًا بِقَعَةٍ مِنْ شَخْوَصِكُمْ فَلَمْ يَحُلْ يَوْمًا مِنْ مَوَدَّتِكُمْ صُنْ

فكتب إليه ابن منقذ (٢) :

تُذَكِّرُهُ أَحِبَّائِهِ الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ فَيُلَوِّحُهُ مَاذَا بِهِ صَنَعَ الذِّكْرُ
هُمْ مِثْلُهَا: بَعْدًا، وَنُورًا، وَرَفْعَةً وَلَكِنْ لَهَا، إِذْ شَبَّهَتْ بِهِمُ الْفَجْرُ
وَقَدْ كُنْتُ أَشْكُو هَجْرَهُمْ فِي دُئُونِهِمْ فَمَنْ لِي لَوْ دَامَ الثَّنَائِي لَا الْهَجْرُ
سَقَى مِصْرَ جُودَ الصَّالِحِ الْمَلِكِ إِنَّهُ هُوَ الْوَائِلُ الْمُحْيِي الرِّبَّةَ لَا الْقَطْرُ
فَقَبْهَا كَرَامٌ أَسْعُرُوا بِجَوَانِحِي يُبْعِدُهُمْ جَرًّا، بِهِ يُحْرِقُ الْجَمْرُ
وَمِنْ عَادِقِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَلَيْسَ لِي عَلَى بَعْدهمْ لَا دُرُّ دُرِّ الثَّوِي صَبْرُ
إِذَا مَا أَمِينُ الدِّينِ عَنْ أَذْكَارِهِ ذَهَلْتُ كَأَنِّي خَامَرْتُ لَيْلَى الْخَمْرِ
يَذْكُرُنِي الْفَاضِلُونَ، وَإِنْ غَلَبُوا جَلْدُولُ إِنْ قِيسُوا بِهِ، وَهُوَ الْبَحْرُ
إِذَا خَضِرَ الثَّادِي قَرَضُوِي رِجَاحَةً وَإِنْ قَالُ فَالْثُّرُ الْمُنْظَمُ وَالسَّخَرُ
وَيُحْمِيْنِي مِنْهُ تَدْفِقُ عَلَيْهِ وَأَعْجَبُ مِنْهُ كَيْفَ نَجْمُهُ صُنْ

(١) ديوانه ص ١٣٥ .

(٢) ديوانه ص ١٢١ .

تَنَامَتْ بِنَا النَّدَارِينَ وَالْوَدَّ مَصْفُتٌ
كَأَنَّ اللَّيَالِي إِذَا قَضَتْ بِمِرْقَانَا
أَحُلُّ بِهَا إِنْ غَابَتْ عَنْهَا وَإِنْ أَغْبَى
فَلَيْتَ تَلَاقِنَا وَلَوْ بَعْضُ سَاعَةٍ
لَأَحْظَى بِرُؤْيَا، وَأَشْكُرُ مَتَّه .
فَلْيَقْرَبْ شَطْرَهُ . وَالْبَعَادُ لَهُ شَطْرُ
فَضَى جَوْرَهَا أَنْ لَيْسَ تَجْمَعُنَا مَصْرُ
يَحُلُّ بِهَا، فَاعْجَبْ لِمَا صَنَعَ الدَّهْرُ
يَتِمُّ وَشَيْكَا قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ الْعَمْرُ
وَإِنْ لَمْ يَقَمْ عَنِّي بِوَجْهِ الشُّكْرِ

ترى متى كان هذا الحلول بمصر ولم ير فيه القاضي الرشيد ؟ . أظنه كان في عودته التي أشار إليها علي بن ظافر سنة ٥٥٢ هـ ، ولعلها كانت زيارة عاجلة لم يبق فيها ابن منقذ طويلاً ، ولا نتصور أن يكون حديثه عن مدة إقامته بمصر التي زادت على عشر سنين ، فإنه لاشك تعرف في اثنائها بالرشيد ، ودامت بينهما صداقة ، وقد يكون تعرفهما بأسوان أيام كان بها طلائع أو بالقاهرة أو القسطنطينية قبل تولي طلائع الوزارة .

وله من أمثال هذا الشعر الذي يشتاق فيه الأصدقاء مقطعات ، وقصائد بالديوان ومنها اشتياقه لابنه مرهف^(١) . وأبيه^(٢) وفد حديثه إليه إشارة إلى ضيقه بالمقام في شيزر ، وأنه هاجر منها لأنه لم يطق المقام لما لقي من عمه وبعض أهله المقربين . يقول :

لَا تَلْزِمْنِي بِالْهَوَانِ وَحَلِي
ذَغْنَى وَقَطَعَ الْأَرْضَ ذَوْنَ مَعَاشِرِ
تُعْلَى عَلَى صُلُورِهِمْ مِنْ غِيظِهِمْ
تَعْنَى إِذَا نَظَرُوا إِلَيَّ عُبُورُهُمْ
قَدْ أَفْسَدُوا عَيْشِي عَلَى وَعَيْشُهُمْ
فَامْضِ بِعَيْدِي عَنْهُمْ بِرِضَاكَ لِي
فَلَعَلَّ بَعْضَ الْعَمْرِ ، وَهُوَ أَقَلُّهُ
فَضَّلَ الْأَقْرَابَ وَدَهَمَ وَحَنُومَ

وكتب إليه مشوقاً وعاتباً ومعتزلاً لسماع أبيه أقوال أقربائه فيه يقول :

أَمَا كَفَاهُمْ نَوَى دَارِي وَبَعْدَكَ عَنْ
عَيْنِي ، وَفِرْقَةَ إِخْوَانِ الصَّبَا الصُّدُوقِ

(١) ديوانه ص ١٢٤ .

(٢) ديوانه ص ١٢٦ .

وموضعي منك لا تسمو الوشاة له
 وإنما قالته جاءت، فضايق لها
 كذبتها، ثم ناجتني الظنون، بأن
 وقصائده إلى والده من غربته عديدة ضمنتها تلك المعاني التي أوردنا أمثلة
 منها فيما عرضنا من قوله .

وكذا الحال فيما كتب إلى أشقائه .

وكتب إلى الأمير معين الدين أثر يعتذر عن فراقه له ومغادرته دمشق وهي
 القصيدة التي حاذى فيها المتنبي، وضمن بعض شعره من مثل قوله :
 وأنت أغليل من يشكى إليه ، ولي شكية ، أنت فيها الخصم والحكم
 وقوله منها :

وما ظننتك تنسى حق معرفتي إن المعارف في أهل التهي ذمم
 وقوله :

لكن ثقلت مازالوا بغشهم حتى استوت عندك الأنوار والظلم
 لقد أشرنا من قبل أن ظل المتنبي ألقى بجرانه على شعراء مصر والشام من
 بعده وطول القرون التالية .

ولم يكن تأثير ابن منقذ بالمتنبي وحده ، ولكنه تأثر بجماعة غيره من الشعراء
 العباسيين والأمويين ، ويحظى ابن الرومي بجانب من بين هؤلاء حظوة المتنبي ،
 ربما لاتفاق الحال بين الشاعرين ، والإحساس بالظلم ، ومطاردة الدنيا له ،
 وضيق العيش ، ومن يقرأ قصيدته في طلائع التي يقول فيها (١) :

غرّني لأميع السراب وهذا البحر دوني عذب المياه شروب
 سرّني استقرئ المحول ، وفي أر ضي مرعى عين زواد قشيب
 وبسحاب منه تعلقت السحب ، وإن لم تشبهه كيف تصوب

يلترك مدى تأثيره بابن الرومي بيائية مشهورة طويلة (٢) كتأثره بالمتنبي في

(١) ديوانه ص ١٦٢ .

(٢) راجع ديوان ابن الرومي .

ميميته السابقة . وهو ينمى في القصيدة سوءَ حظه بضياغ ثروته في البحر في طريقها من مصر بعد أن نهبا الصليبيون :

أذهبت تالدى ، وطارقي الطار ىءَ فضاغَ الموروث والمكسوب
فهو شطران بين مصر وبحري ذا غريقى ىءَ ، وذا منهوب

وابن منقذ كما قلنا واسع الاطلاع على الشعر العربى قديمه وحديثه واسع الاطلاع على فنون الأدب واللغة ، وعلى التاريخ وعلوم الدين . تشهد له كتبه التى غرقت بالبحر ، ويشهد له عكوفه على الاطلاع والتحصيل وقد هربت منه لكنه لم يكف عن القراءة والتأليف فى حصن كيفا قبل عودته إلى دمشق للقاء صلاح الدين فى أخريات عمره .

ويوظف معارفه وثقافته فى شعره ، فترى استعانه بالقرآن والحديث والسيرة والتاريخ . وترى استعانه بمباني وألفاظ كثير من الشعراء ممن حفظ لهم أو وقف على دواوينهم فعلقت ذاكرته ببعض منها .

وابن منقذ بعد هذا شاعر متدقق الشاعرية ، لا يميل إلى التكلف فى الصنعة ، وقد ترد فى انشاء أبياته أصباغٌ بديعية من جناس ومقابلة وكناية وتشبيه واستعارة ومقابلة ، ولكنه لا يتكلفها ، بل تراها ترد طواعية تؤدى دورها فى سياق الكلام .

وفى شعره تدفق عاطفى إذا ما اتصل أو تأثر بموقف تراه يهدر كالسيل فتطول قصائده ، وتجرى الألفاظ منطلقة كيفما اتفق لتعبر عن المعنى بأقصى السبل دون تعقيد أو تعمد تحسين أو انتخاب . ونحن هذا ما نجد فى بعض لفظه من الغريب أحيانا ، وعدم الاختيار أو الانتقاء أحيانا ، والخروج عن أصول البناء والتركيب أحيانا أخرى .

وبعد فهو شاعر ثرى الشعر ، ثرى العاطفة ، ثرى فى حياته وأحداثها ترى فى مؤلفاته ، ولا تقى بالإحاطة بكل جوانبه هذه الصفحات ، ويكفيها هذه المحاولة للتعريف به ويقته .

القاضي الرشيد بن الزبير^(١)

(ت ٥٦٩ هـ)

من العصابة الصالحية ، شاعرٌ مصريٌّ صميمٌ من الصعيد ، أسوانى المولد والنشأة . من أسرة عريقة تنتمى إلى غسان اليمنية التى حكم بعض ملوكها الشام قبل الإسلام من قبل روم بيزنطة . وإن كان الأدفوى أرجعها إلى قريش .

وقد استقرت أسيرة الزبير فى أسوان منذ زمن ، وسواء أكان أصلها فرشيا أو غسانياً ، فإنها كانت ذات مكانة ، وظهر فيها جماعة من الأفاضل كان من أشهرهم آل الزبير أجداد الرشيد والمهذب أخوه وأباؤهما .

وكانت أسوان قصبة الجنوب ، تزدهر بمكانها بوابة مصر الجنوبية ، وموطناً لبعض عائلاتها العريقة كالكنوز ، والزبيريين هؤلاء ، كما نشأ بها جماعة من العلماء ، ووفد إليها آخرون .

وتولى أحد أجداد الرشيد حكم قوص ، واسمه القاضي إبراهيم بن محمد بن الحسين . تولى سنة ٤٧٢ هـ ، ورثاه الشعراء .

وكان والد الرشيد والمهذب علماً فاضلاً هو على بن إبراهيم ، تزوج أخت ابن الخلال فانجبت الشاعرين . ترجم له الأدفوى فى الطالع ، ونسب إليه شعراً ، وقال إنه كان شاعراً فاضلاً رئيساً . وهكذا نشأ والده أحمد ، الملقب بالرشيد ، وأخوه المهذب شاعرين .

وتنقل القاضي الرشيد فى مناصب الدولة ، وذهب إلى القاهرة ، فالتحق بقصر الخلافة وعمل فيه كأحد موظفيه 'وُلِّقَ سديد الدولة' فضلاً عن القاضي ، ولم يكن الرشيد ذا سمعة معجب ، ولا مظهر حسن ، فقد كان أسمر الوجه قصواً دميماً . لا يهتم بلباسه .

(١) راجع فى ترجمته الخريطة للصادق ٢٠٠/١ ، شعراء مصر ، معجم الأدباء لياقوت ٥١/٤ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٥/١ ، طبع إحسان عباس ، والطالع السعيد للأدفوى ، وشذرات اللعب ١٩٧/٤ .

روى أنه دخل مصر بعد مقتل الظافر وتولى الفائز ، وعليه أطمأزنة
وطيلسان صرف ، فحضر مأتم المقتول ، وأنشد شعراً في رثائه يقول في أوله :

ما للرياض تميل سكرًا هل سقيت بالمزن حمراً^(١)
حتى بلغ قوله :

أفكسر بلاءً بالعرا ق ، وكربلاءً بمصر أنخرى
ففرقت العيون ، وضج القوم بالبكاء ، وأنهالت عليه الهبات من رجال
القصر ونسائه . ويبدو أنه نال حظوة في القصر ، ودار الوزارة التي تولاها بعد
طلائع ، وكان هو وأخوه من نجوم مجلسه .

ولفقه القصر والخلافة به عين في وظيفة هامة ، ثم ثدب لسفارة باليمن .
وبقى هناك زمناً ، وحدثت بينه وأحد دعاة الإسماعيلية جفوة ، ويبدو أن
القصر الفاطمي بعث بالقاضي الرشيد للدعوة أو الهداية ، وقال شاعر يمني
فيه :

بعثت لنا علم المهتدين ولكنه علم أسود
وفيه تعريض بالرشيد لسواد وجهه .

وقيل إنه سجن باليمن بسبب هذا الخلاف المذكور ، فبعث إليه أخوه
المهذب من مصر أبيتاً يبيكه « سميت النواحة » ، وفيها يطلب من داعي الدعوة
هناك أن يعفو عنه ويطلق سراحه . يقول المهذب في هذه الأبيتات :

ياربع أين ترى الأحبة يَمُوموا هل أنجلوا من بعدها أم أتهموا

.....
ما كان بعد أخى الذى فارقت
هو ذاك لم يَمِلْكَ غِلَاةٌ مَالِكٌ
أقوت مغالته ، وغطيل ربه
ورمت به الأهوال همه ماجد
يا راحلاً بالجد عنا والغلا
يَقْدِيكَ قوم كنت واسط عقدهم
ليوح إلا بالشكاية لى فم
كلا ، ولا وحدى عليه متيم
ولربما هجر العرين الضييم
كالسيف يمضى عزمه ويصم
أترى يكون لكم إلينا مقدم
ما إن لهم مذ غبت شمل ينظم

(١) قال العماد إنها في مدح طلائع .

ورد عليه الرشيد بقوله :

رَحَلُوا فَلَا خَلْتَ النَّازِلَ مِنْهُمْ وَنَاوَأْ ، فَلَا سَلَتْ الْجَوَانِحَ عَنْهُمْ

يقول معرضاً بالشكوى وبما يقاسيه من مرارة :

ونزلت مقهورَ الفؤادِ بيلدة
في مَعَشَرَ خُلِقُوا شَخُوصَ بهائم
إن كورموا لم يكرموا، أو عُلِمُوا
لا تنفَى الآداب عندهم ولا الـ
صَمَّ عن المعروف حتى يسمعا
فَاللَّهِ يُعْنِي عَنْهُمْ، ويزيد في
قَلَّ الصديق بها وقَلَّ البرهم
يَصْنَعُ بها فِكْرَ اللَّيْبِ وَيَهْمُ
لم يَعْلَمُوا، أو خُوِطِبُوا لم يفهموا
إِحْسَانٌ يُعْرِفُ في كثير مِنْهُمْ
هُجَرَ الكلام فَيَقْدُمُوا وَيَقْدُمُوا
زُهْدِي بِهِمْ، وَيَفُكُّ أَسْرَى مِنْهُمْ

ويذكر ياقوت أنه بلغ باليمن درجة قاضي القضاة ، وأنه طمع إلى رتبة الإمامة وربما كان هذا ما أحسَّ به أهل اليمن وأعيانهم وفي مقدمتهم داعي الدعاة هناك فدرس له عند الخليفة الناطمي بعد أن حبسه . وذلك بأن بعث إليه بأبيات من الشعر رغم أنها للرشيد ينوه بالقحطانيين ، ويعرض للمصريين .
تقول :

لئن أجديت أرض الصعيد وأقحطوا
ومد كفتل لي مَارِبَ بِمَارِي
وإن جهلت حَقِّي زَعَائِفَ خَنْدِفٍ
وأرض قحطان هي أرض اليمن وهمدان قبيلة يمنية ، وأما خندف فهي مُضَرٌ
والها تنسب قريش والفاطميون .

ولم يطل سجنه باليمن ، فقد سعى طلائع بن رزيك إلى فكِّ أسره ، وعاد إلى مصر بعد عامين والتحق بالوزير ومجلسه ، ولزمه هو وأخوه المهلب ، وشاركا جماعة من أعيان المصريين والوافدين من الشام وغيرها . شاركا القاضي الجليس بن الحباب ، والشاعر ابن قادوس ، والشاعر عمارة اليمنى ، والشاعر أسامة بن منقذ .

وتبادل الرسائل مع أسامة بعد سفره إلى الشام يتشوق أحدهما إلى الآخر . وظلَّ يرأسه زمنا . ومن رسائله الشعرية إليه قوله :

آتجانبنا ما مصر بعدكم مصر
رحلتم فعاد الدهر ليلاً بأسره
ثرى فاض ما ألقى من الهم والأسى
وكيف ألوم الليل إن طال بعدكم
ولكنها قفر ، إليكم بها ففر
وليس له إلا بأوتكم فجر
لبعدكم ، فاسود من صبيغ الدهر
وقد غاب عني منكم الشمس والبر

ونظن أن علاقة الرشيد وأسامة بدأت قبل لقائهما في مجلس طلائع ،
ولعلمهما لم يلتقيا في المجلس إلا بعد أن توثقت صلتها ، ونعلم أن الرشيد عمل
بالقصر زمنا وكذلك كان ابن منقذ مقرباً من الحافظ قبل تولي الفائز ومقتله
على يد عباس وابنه .

ومن رد ابن منقذ على الرشيد نعلم أنه يشكره على ما أسدى إليه من يد
وهو في دمشق بعيداً عن مصر حيث يقول أسامة :

وكيف أشكر من أسدى إليّ يداً سرت سرى الطيف من مصر إلى الشام
رأى مكاني على بعدى وقد عشيث عني عيون أخلاقي وأيامي
محافظاً لعهودي حين أفردني ظلي ، وأعرض عني طيف أخلاقي
ولعل لهذه اليد صلة بما خلفه أسامة بمصر من مال وولد . فربما ساعد
الرشيد في انقازها والحفاظ عليها من المتربصين به بعد مغادرته مصر هارباً .
وربما سعى مع الوزير الصالح طلائع في إنقاذ المال والأهل على المركب إلى
الشام .

وأشار عمارة اليمنى في النكت^(١) إلى من لقبه في مجلس طلائع من كبار
القوم ، والشعراء ومن بينهم الرشيد وأخوه المهذب .

وبعد مقتل طلائع ، وتولى ابنه من بعده لفترة قصيرة اغتصب بعدها
الوزارة شاور ، ثم ناوله ضرغام ، وحدث ما حدث من أحداث وتدخل نور
الدين محمود والصليبيين ، ووفودهما إلى مصر أكثر من مرة لم يستقر الأمر
للرشيد .

ويبدو أن الرشيد ذهب إلى الاسكندرية متولياً إحدى الوظائف هناك ،
وظل بها ، واتصل بالحافظ السلفي عالم الاسكندرية وأخذ عنه .. وساعد

(١) النكت المصرية ص

صلاح الدين عند حلوله بالاسكندرية وحصار شاور والفرنج له حتى صمد
للحصار مما احفظ شاور ، وكان ذلك داعياً للانتقام منه . وهكذا انتهت حياة
الرشيد بمقتله سنة ٥٦٢ هـ أو سنة ٥٦٣ هـ . ويقال إنه تشيع ، ويؤكد ذلك
سفرته إلى اليمن ، ودعوته ، فلعله كان داعية إسماعيليا .

وقد أشار مؤرخوه بفضله وعلمه . قال العماد : « كان ذا علم غزير ،
وفضل كثير » . وله رسالة « منية الأمل » ، وبلغه المدعى ، وهي مطبوعة
وتدل على معرفته بالفقه والنحو واللغة والانساب ، والمنطق والهيئة والموسيقى
والطب^(١) .

قال العماد عن هذه الرسالة : « وله الرسالة التي أودعها من كُتب علم
مشكله ومن كل فنٍّ أفضله » .

وما بقى من شعره نزر يسير ، بعضه مما قاله في مجلس طائع ، والآخر في
الفخر والشكوى ، والمدح ، والهجاء .

فمما قاله في مدح الاغتراب^(٢) :

فإنَّ الثَّدائِي رُبُّمَا أُحْدِثَ الْقَلَى
فإِنِّي رَأَيْتُ السَّهْمَ مَا زَادَ بَعْلُهُ
وَلَنْ يَسْتَفِيدَ الْبَرْ أَكْمَلَ نُورِهِ
مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا وَهُوَ فِي غَايَةِ الْيَعْدِ

وقال في الشكوى^(٣) ، والفخر :

جَلَّتْ لَدَى الرِّزَايَا، بَلْ جَلَّتْ، هَمْسِي
عَبْرَى يَغِيرُهُ عَنْ حُسْنِ شِمِيمَتِهِ
لَوْ كَانَتْ التَّائُرُ لِلْيَاقُوتِ مُحْرِقَةً
لَا تُغَرِّزُنَّ بِأَطْمَارِي وَقِيمَتِهَا
وَلَا تَطْلُنَّ خَفَاءَ النِّجْمِ مِنْ صُغْرِ
وَهَلْ يَضُرُّ جَلَاءُ الصَّالِمِ الذَّكْرِ
صَرَفَ الزَّمَانِ، وَمَا يَأْتِي مِنَ الْغَيْرِ
لَكَانَ : يَنْتَشِبُهُ الْيَاقُوتُ بِالْحَجَرِ
فَأِنَّمَا هِيَ أَصْدَافٌ عَلَى كُرْرِ
فَالْيَدِيبُ فِي ذَاكَ عَمَلٌ عَلَى الْبَقْرِ

(١) الخريدة ١/ ٢٠٠ .

(٢) الطالع السعيد ، ص ١٠١ .

(٣) وفيات الأعيان ١/ ١٦٢ .

ويقول في الغربة :

ولما تَنَافَتْ أَرْضُنَا وَدِيَارُنَا وَجَانَ زَمَانٌ نَاقِضُ الْعَهْدِ غَدَارُ
كَفَانَا مَعَالَى كُلِّ أَمْرٍ أَهْمُنَا وَحَكَمْنَا قِيَمًا نَحْبُ وَنُحْتَارُ
وَأَنْزَلْنَا مِنْ رُبْعِهِ الرُّحْبَ حُسْنَهُ يَفِضُّ بِهَا مِنْ رَحْبِ كَفَيْهِ الْهَارُ
لَنَعْمَ الدَّرَى يَلْقَى بِهِ الْجَارُ رَحْبَهُ إِذَا مَا تَبَثَّ بِالْجَارِ عَنْ أَهْلِهِ الدَّارُ
فَكُنَّا كَأَنَّا نَزَلُونَ بِأَهْلِنَا وَلَمْ تَثَّ أَوْطَانٌ عَلَيْنَا وَأَوْطَارُ

وعما قاله في التشوق إلى صاحب نأى ، وهو ابن قلاقمس^(١) ، ويرد فيها على قصيدة بَهِت بها إليه :

يَا مَفْرَمًا بِنَفِيسِ الدَّرِّ يَجْمَعُهُ وَمَوْلَعًا بِجَمِيلِ الرِّ يَصْنَعُهُ
أَصْحَى يَنَافِسُنِي فِي قَرْبِهِ زَمْنِي فَمَا يَجُودُ بِهِ إِلَّا وَجْنَعُهُ
وَلَا أَقُولُ دَنْتُ مِنْ مَنَازِلُهُ إِلَّا غِلَا وَكَبِيدِ النُّجْمِ مَوْضَعُهُ
كَذَلِكَ الدَّرُّ فِي الْأَصْدَافِ مَحْتَجِبٌ جَيْنًا ، وَحَيْنًا عَلَى تَابِجِ رِصْعُهُ
إِنْ غَابَ بِدَرْ سَمَاءٍ الْمَجْدُ عَنْ نَظَرِي فَفِي قَوَادِي أَفَقٍ مِنْهُ مَطْلَعُهُ
يَنْوُبُ قَلْبِي مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ أَسَفٍ شَوْقًا إِلَيْهِ ، وَقَدْ حَازَتْهُ أَضْلَعُهُ

ومن قصيدته التي أجاب بها أخاه وهو محبوس باليمن ، يشكو فيها ما يعانیه هناك — وقد أوردنا منها أبياتا . قال :

رَحَلُوا فَلَا تَحَلَّتِ الْمَنَازِلُ مِنْهُمْ وَنَاوَا فَلَا سَلَّتِ الْجَوَانِعُ عَنْهُمْ
وَسَرَّوْا ، وَقَدْ كَسَمُوا الْعِلْدَةَ مَسَرَّهُمْ وَضِيَاءُ نَوْرِ الشَّمْسِ مَالَا يُكْتَمُ
وَقَبِلُوا أَرْضَ الْعَقِيقِ عَنِ الْحَمَى رَدَّتْ جَفَوْنِي أَيْ أَرْضِي بَمَمُوا
نَزَلُوا الْعَدِيبَ ، وَإِنَّمَا فِي مَهْجَتِي نَزَلُوا ، وَفِي قَلْبِ الْمُتَيْمِّ خِيَمُوا

وما وصل إلينا من شعر يسير للرشد لا يمكننا من التعرف على صنعته .
ونكتفي بحكم السابقين عليه والذين وصفوه بأنه أقل شاعرية من أخيه
المهذب^(٢) . قال العماد عن المهذب : « وهو أشعر من أخيه ، وأعرف
بصناعته وإحكام معانيه » .

(١) شعر الرشيد : المهذب ، ص ١١١ .

(٢) راجع الخريدة ١٠٤/١ .

ويبدو أن اشتغال الرشيد بالعلم وتأليف الكتب كان على حساب شاعريته .
وقد انجب ابناً شاعراً هو علي بن أحمد بن الزبير ، مدح السلطان صلاح
الدین^(١) .

(١) المصدر نفسه ١/ ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

المهذب بن الزبير^(١)

(ت سنة ٥٦١ هـ)

وهو أبو محمد الحسن بن علي ، شقيق الرشيد ، قال العماد : « هو أخو الرشيد . محكم الشعر كالبناء المشيد . وهو أشعر من أخيه ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه » . « ولم يكن في زمانه أشعر منه أحد . وله شعر كثير ، ومحل في الفضل أثر » . وهو وإن كان أشعر من أخيه إلا أن الرشيد كان أعلم منه في رأى المؤرخين .

ولم يذكر هؤلاء أى الأخوين كان أكبر ، وإن ظننا أن الرشيد هو الأكبر . أو لعلهما كانا توأمين ، لارتباطهما معاً في العاطفة ، وتشابههما في بناء الجسد والصورة فقد كان المهذب كذلك ضعيل الجسم أسمر اللون ، بوجهه دمامة . ولد المهذب بأسوان كأخيه ، وكانت له علاقة بأسرة الكثر المشهورة بها ، وربما كانت هذه العلاقة امتدادا لعلاقة أسرته .

وكان الكنوز من أمراء ربيعة ، أهل فتوة ومكارم ممدحين يقصدهم الشعراء من بلاد بعيدة على حد قول الأدقوى .

وكان المهذب ممن مدحهم بالشعر الكثير ، احتفظت لنا المصادر ببعضه في مدح كثر الدولة بن بتوج يقول فيها :

بأى بلاد غير أرضى أخيم	وأى أناس غير أهلي أيمم
ورائى أرض ما بها متأخر	أمامى أرض ما بها متقدم
فها أنا اختار الثواء على الثوى	وبكره الرأى الذى هو أحزم

وقد تلقى علمه ، ونضج شعره ببلده ، ثم طمح إلى عاصمة البلاد ، ورمى ببصره وحمته إلى القاهرة والفسطاط عله يجد هناك ما يأمله من مكانة لدى الوزراء وقصر الخليفة ، وأعيان الناس .

(١) راجع ترجمته في وفيت الأعيان ١/ ٧٥ ، ومعجم الأدباء لباتوت ٩/ ٤٧ ، والطلع السيد .

(٢) الخريدة ١/ ٢٠٤ .

وأراد أن يقصد بشعره هؤلاء ، وأول من قصده من الوزراء على ما وصلنا من خبره رضوان بن الولحشى (تولى الوزارة من سنة ٥٣٦ إلى سنة ٥٣٣ هـ) . يقول فيه :

إذا قابلته ملوك الهلا دِ خَرْتُ على الأرض تيجانها
ولله في أرضه جنة بمصر ، ورضوان رِضوانها

واستغل اسم المملوح ، ووظفه في معنى مدحه .

ولما قُتل ابن الولحشى بأمر الحافظ ، رثاه المهذب بقوله :

بنفسى من أبكى السماوات مَوته بغيب ظننائه نوال يمينه
فما استعبرت إلا أسى وتأسفاً وإلا فماذا القطر في غمر حنينه
وكانت السماء قد أمطرت ساعة مقتله على غمر موعد ، فاستغل الشاعر ذلك لتوظيفه في رثاء مملوحه .

والى القاهرة يفد الشاعر أسامة بن منقذ ، فيتلقي المهذب هذا الخبر بسرور فيصحبه زمناً ، ويبعث إلى أسامة أبياتاً في ذكر الديار ، ولعله بعث بها بعد النكبة التى أصابت أهله في شيزر عقب الزلزال ، فيكون ذلك بعد رحيل أسامة إلى الشام ، ووقوع الزلزال هناك سنة ٥٥٢ أو سنة ٥٥٣ هـ . حيث يقول :

أحبابنا مالى إذا ما ذكرتكم وما أناناس - غال صبري غول

يقول :

لئن أقفرت منا الديار ومنكم وأمست بقاينهن وهى طول
فإن لنا فى آل منقذ أسوة بهون لديها الخطب وهو جليل
تبت بهم أوطانهم فترحلوا وللمجيد فى ذاك الرحيل رحيل

ولغة التعزية واضحة فى الآيات .

وللمهذب أبيات كثيرة ، بعث بها إلى ابن منقذ بعد رحيله إلى الشام تدل على ما كان بينهما من مودة وعلاقة وثيقة ، ونحس هذا كذلك فى أبيات أسامة التى جالوه بها .

وقد تكون هذه العلاقة توثقت بعد وصول أسامة للقاهرة، وكان الأخوان الرشيد والمهذب قد استقرا بالقاهرة، وعمل الرشيد زمناً بقصر الخلافة على ما عرفنا . وفي هذا الوقت نفسه تعرفا على الوزير ابن السلار ، وطلائع بن رزيك وعباس الصنهاجي .

وهنا مديحه لابن السلار ولقبه سيف الدولة بمناسبة نصرته على ابن مصال بمشاركة عباس وطلائع في موقعة دلاص . يقول :

أى الله إلا أن تعان وتنصرا وتظفر حتى لقبوك المظفرا
وتصبح سيفاً مثل نعتك قاطعاً محلى بأصناف الفخار مجوهرًا
يرك حديد الهند أشرف قيمة وأعظم آثاراً، وأكرم عنصراً

ودارت الأيام ، وتولى ابن رزيك الوزارة بعد الأحداث التي ذكرنا ، فأصبح المهذب من أقرب جلسائه إلى نفسه ، وقد ذكرنا أن تعارفاً ربما تم بالقاهرة ، ثم توثقت الصلة عند تولي ابن رزيك أسوان وقوص . وأصبح هو وأخوه الرشيد صاحبين ملازمين في دار الوزارة بالقاهرة والفسطاط .

تولى المهذب بعض الوظائف في الدولة ، ولقب بألقاب أصحاب تلك الوظائف على عادة ذلك العصر مثل القاضي ، وصفى الدين ، وعميد الدولة .

وأهله ثقافته ومكانته ، ومكانة أسرته لتولى هذه المناصب ، وبلوغ مكانة خاصة في دولة الفاطمية . وقد ساعد على ذلك شيعيته ، واعتناقه مذهب الإسماعيلية ، مذهب الخلفاء ، أو التشيع عامة دون التزام بالإسماعيلية . وقد وردت في شعره أقوال ترجح هذا الاعتقاد . منها ما ذكره العماد وعلق عليه مستذكراً من مثل قوله في مديح ابن رزيك (١) :

فلو يكون لهم أمثاله عضداً فيما مضى ما غدت مغسوبة قلدك

قال العماد : « لقد أبطل في هذا القول الموثق ، ونحفل عن سير الشريعة في قلدك وفضلي مملوحة على السلف في الشرف ، وأدت به المبالغة في الضلال إلى السرف » . وابن العماد السني ساءه أن يذكر المهذب هذا الحدث معرضاً بأبي بكر وعمر . فإنه يشير إلى ما كان من رأى أبي بكر وعمر في أن فاطمة الزهراء لا ترث فلك التي تركها الرسول ﷺ — لقوله : نحن معشر الأنبياء (١) الخليفة — قسم شعراء مصر (ترجمه) .

لا تُورث ، ما تركناه صدقة . والشيعة يرون أن أبا بكر وعمر أخطأ ، وأنه كان ينبغي أن يتركها لفاطمة .

وتتردد اعتقادات الشيعة وأقوالهم كثيراً في شعره . كما قال في مدح الخليفة العاضد :

وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَذَكَرَهُ قَرَيْنَايَ لِلْأَيِّ الْمُنَزَّلِ فِي الذِّكْرِ
لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ : تَلْقَوْنَ عِتْرَتِي مَعاً ، وَكِتَابُ اللَّهِ فِي مَوْرِدِ : الْحَشْرِ
إِذَا مَا إِمَامَ الْحَشْرِ لَاحَ لَنَاظِرِي فَوَا الْعَصْرَ إِنَّ الْجَاهِدِينَ لَفِي حُسْرِ

وهي تحكي ما يعتقد الشيعة من قول النبي ﷺ : « إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً : الثقلين ، وأحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله ، تحبب الله المملود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، إلا أنهما لن يفترقا حتى يردا الحوض » .

ومن ذلك قوله في الإمام علي رضي الله عنه :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَخَيْرَ مَلْجَأٍ يُسْأَلُ إِلَى حِمَاةٍ ، وَخَيْرُ حَامٍ
كَأَنِّي إِذَا جَعَلْتُ إِلَيْكَ قَصْدِي قَصَدْتُ الرُّكْنَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ
وَتَحْيَلٌ لِي بِأَنِّي فِي مَقَابِي لَدَيْهِ بَيْنَ زَمَرَةٍ وَالْمَقَامِ

وقد يكون هنا التحمس للفكر الشيعي مما قربه من طلائع بن رزيك الذي عرف بتحمسه للمذهب على ما ذكرنا . وسنرى أنه كان يدعو الشاعر عمارة اليمني إلى مذهبه وعمارة بتمسك بيسنته شافعيًا ، ولا يرى ذلك مقللاً من حبه لابن رزيك وتقديره لماثر الفاطيين . وكان لسجاياه الحميدة ما ساعده على حب الناس وتقديرهم له .

نحج إذا المهذب في بلوغ ما يريد ، وأصبح نجماً في سماء الدولة ، وظل كذلك حتى قتل صديقه ، الوزير ورجل الدولة القوي طلائع . بعدها تفرقت به السبل ، فلم يعد للمهذب بعد سنة ٥٥٩ هـ شأن ، وبخاصة بعد العادل ابن رزيك ، فلم يلبث شاور أن أودى به إلى الموت سنة ٥٦١ هـ .

شعره وشاعريته :

ذكر ابن خلكان أن شاعريته تفتحت أكامها وهو في السادسة والعشرين وخمسمائة وربما كانت سنه آنذاك لم تتجاوز العشرين .
 وقرظ شعره العماد ، وأشاد به قائلاً : لم يكن في زمانه أشعر منه أحد .
 وكان معجباً بشعره ، يسأل عنه من يحفظه ، ويعلق عليه بما يكشف عن وقوعه من نفسه موقعاً طيباً .

فمما علق به على لاميته التي اختار معظمها وهي قوله :

أقصر فديتك عن لومي وعن غذلي أولا فخذ لي أماناً من طلب المقل

« للشعراء المهذبين ، المذهبين المذهب على هذا الوزن المعجز المعجب قصائد فرائد ، فلا تكد ، وهذا مهذب مهذبهم ، إذ هو وحيد العصر مجيد النظم والنثر » (١) . وكان لاجتهابه به أثره في الإكثار من إختيارات شعره .

والحق أن المهذب بن الزبير هو أمير شعراء مصر في عصره ، لما أبدى من المقدرة الشعرية التي تجلت في أكثر من جانب من جوانب قوله الشعرى .
 وشعره فيما يبدو كثير ، إلا أن ديوانه ضاع فيما ضاع من آثار الفاطميين ، ذلك إذا كان له ديوان مجموع .

وما وصلنا من شعره يدور معظمه في موضوعات المدح والثناء والوصف والشكوى والتشوق والغزل . ولم يقل في الهجاء ترفعاً ، وصيانة للسانه من أن يخوض في الأعراض . اعترف بذلك في أبيات له وجهها إلى طلائع ، وقد أغرى بعض شعراء مجلسه به . يقول :

يا أيها الملك الذي أوصافه	غرر تجلّت في الزمان الأسفح
لا تطيع الشعراء في فائتي	لو شئت لم أجبن ولم أتخشع
فليسبكوا عني ، فلولاً أنبي	أبقى على عرضي إذا لم أجزع

ولو أنه ناجى ضميري في الكرى	طيف الخيال برية لم أهتج
وإذا بدا لي الهجر لم تر شخصه	وإذا يقال لي : لحننا لم أسمع

(١) الخريطة ١ / ٢٠٨ .

وَالثَّامُ قَدْ عَلِمُوا بِأَنِّي لَيْسَ لِي مَذَكَّتٌ فِي أَعْرَاضِهِمْ مِنْ مَطْمَعٍ

وظهرت خصائصه النفسية ، وملاخ همته في شعره ، فقد واجه في حياته ظروفًا متنوعة ، حيث قست عليه الحياة أحياناً ، ثم عادت فسلته ، وأرخت له الزمام ، وأغدقت . لكنها لم تلبث أن أعاندته في آخريات حياته ، لهذا تجد في شعره الفرحه والفرحة ، الرضا والسعادة أحياناً ، والغضب والضيق والشكوى من الزمان وأهله أحياناً أخرى .

كان المهذب ذا نفس مرهفة ، وشاعرية صادقة ، فانعكس على شعره إحساسه بأحداث قومه وعصره ، وما رآه ، وما ابتلاه ، وعبر عنه بصورة تكشف عن تلك الرهافة النفسية والصدق الفني .

وكانت لثقافته وعفوفه الكثير والمتنوع آثارها في صياغته ، وألفاظه وصوره ومعانيه على ما سنفصله بعد .

ونمثل على قدر ما يسمح المقام بما جند من معاني الشعر ، وما قلده فيها على اختلاف موضوعاته .

ففي المديح يطرق المعاني الموهودة من صفات المملوح بالكرم والشجاعة ويضيف بعض المعاني المتعلقة بمنصبه أو عمله ، وقد يعرض لنسبه كما فعل في مديحه لطلائع ، فقد أشاد بنسبه في غسان . ونذكر في هذا المقام انتساب آل الزبير إلى الغساسنة كذلك . يقول في نونيته :

أَعْلَمْتُ حِينَ تَجْلُو الْحَيَّانِ أَنَّ الْقُلُوبَ مَوَاقِدُ النَّارِ
مَادِحًا طَلَامَ وَمَشِيدًا بَوَاقِعَهُ فِي الصَّلَيبِ بِالشَّامِ :

يا كاسِرَ الْأَصْنَامِ قَمِّ فَانْهَضْ بِنَا	حتى تَصِيرَ مُكْسَرُ الصُّلْبَانِ
الشَّامَ مُلْكَكَ قَدْ وَرَثْتَ ثَرَانَهُ	عن قومك المَاضِينَ مِنْ غَسَّانِ
فَإِذَا شَكَّكَتَ بِأَنَّا أَوْطَانَهُم	قَدَمًا ، فَسَلِّ عَنْ حَارِثِ الْجَوْلَانِ
أَوْرُمْتَ أَنْ تَتَلَوَّحَ حَسَنُ ذِكْرِهِمْ	فَاسْتَدِ رَوَاتِبَهَا إِلَى حَسَنِ

ويحسن في مديحه توظيف أسماء المملوحين وألقابهم في سياق معانيه الشعرية كما أشرنا في مديحه لرضوان الوخشى ، وسيف الدين ابن السَّلاَر وسيف الإسلام ابن رزيك ، ومنه قوله في مدحه :

كَانَ فِي سَيْفِ سَيْفِ الدِّينِ مِنْ خَجَلِهِ مِنْ عَزَمِهِ مَا بِهِ مِنْ حُمْرَةِ الْخَجَلِ
هو الحسام الذي يسمو بحمايله زهواً فيفتك بالأسياف والدول
إذا بدا عارياً من غمدِهِ تَخَلَّتْ غِمْدُ الدَّمَاءِ عَلَيْهِ هَامَةُ الْبَطْلِ
إذا- تَقَلَّدَ بِحِمْراً مِنْ أَنَامِلِهِ رَأَيْتُ كَيْفَ اقْتَرَانُ الرُّزْقِ بِالْأَجَلِ
من (السيف) التي لاحت بوارقها فِي أَثْمَلِ هِيَ سَجَبُ الْعَارِضِ الْهَاطِلِ
وهو في توظيف اسم الممدوح يجارى المتنبي أحياناً في توظيفه لاسم ممدوحه
سيف الدولة ابن حمدان .

ونلاحظ هنا إلمامه بمعنى من معاني البحرى في المديح بوصفه كفه في البطش
والعطاء بالبارق والسحاب .

كذلك توظيفه لبعض الأحداث كالزلازل الذي أصاب الشام وقت غزوات
ابن رزيك هناك . يقول :

مَا زُلْزَلَتْ أَرْضُ الْعِذَاءِ بِذَلِكَ مَا بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنَ الْخَفَقَانِ
وَأَقُولُ إِنْ حُصِّنَتْهُمْ سَجَدْتُ لَهَا أَوْتَيْتُ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ سُلْطَانِ
وَالنَّاسُ أَوَّلَى بِالسُّجُودِ إِذَا غَدَا لِعَلَاكَ يَسْجُدُ شَايِخُ الْبِنْيَانِ
ويسمى علماء البديع هذا اللون من التعمير « حسن التعليل » . وهو أن
يفغل الشاعر العلة الأساسية للحدث ، ويأتى بعلته من عنده توافق سياق
معانيه ، وتلحم موضوع أبياته .

ويلجأ إلى الاشتقاق والتوليد على طريقة أبى تمام أحياناً ، وابن الزومى
أحياناً ، فيقول :

وَتَلَلْتُ فِي يَوْمِ الْعَرِيشِ غُرُوشَهُمْ بِشَبَا ضُرَابِ صَادِقٍ وَطَعَانِ
أَلْجَأْتُهُمَ لِلْبَحْرِ لَمَّا أَنْ جَرَى مِنْهُ وَمِنْ دَمِهِمْ مَعاً بَحْرَانِ

ويلجأ إلى التضمين من شعر القدماء أو السابقين من محدثى الدولة العباسية
ومن بعدهم كأن يقول مضمناً شعر لأمريء القيس والمتنبي . يقول :

مِنْ كُلِّ طَرَفٍ مَرِيضُ الطَّرْفِ تَشِيئُنَا الْحَاطَةُ « رَبِّ رَامٍ مِنْ بَنَى ثَمَلِ »
إِنْ كَانَ فِيهِ لَنَا ، وَهُوَ السَّقِيمُ شِفَا « فَرُبَّمَا صَحَّتْ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَالِ »
وَكُلَّ يَبِضَاءٍ لَوْ مَسَّتْ أَنَامِلُهَا قَمِيصَ يَوْمَ قَدْ مِنْ قَبْلِ

وأيود قصيدته اللامية التي أعجبت العماد مثلاً لدبحه ، وفيه وصف
لعارك طلائع مع الصليبين بالشام . يقول :

أقصر بـ قديتُك — عن لومي وعن عدل
من كل طرف مريض الجفن تشدنا
إن كان فيه لنا ، وهو السقيم شفاً
إن الذي في جُفون البيض إذ نظرتُ
كذلك لم يشتبه في القول لفظهما
وقد وقفتُ على الأطلال أحسبها
أبكي على الرسم في رسم الديار فهل
وكل بيضاء لو مسّت أناملها
يُغنى عن الدرّ والياقوت مبسبها
بالخُدّ متى نثار الدموع كما
كان في سيف سيف الدين من حجل
هو الحُسام الذي يسمو بحمله
إذا بدا عالياً من غمده خلعت
وإن تقلد بحراً من أثابله
من السيوف التي لاحت بوارقها
فجاءنا لبني رزيك معجزها
تبدو شمساً همو أقمارها وترى
قد تجارث فيهم السمر الرقاق رفاق
إن عانقوا هذو في يوم معركة
وقد لقوا كل من غاروا بمشبهه
وضارب الروم روم من سيوفهم
وهوهم لصهيل الخيل تحت صهيل
فالدّم حيمر ، وأصوات الجياد لهم
والخيل قد أطربت ما طربوا

(١) يقصد بالبيض السيوف ، والجبال أجفانها .

(٢) الحطل : المضطرب .

من كل أجرد غنالي بفارسيه
وكل سلهبة للريج يستيها
أفانوس المسلمين أسمع، فلا سمعت
مقال ناي غريب الدار قد علم ال
يشكو مصائب أيام قد أئسعت
يرجوك في دفعها بعد الإله، وقد
وكيف ألقى على الأيام مرزقة
لولا هم كنت أفرى الحادثات إذا
وكيف أخلع قوب اللذ حيث كجيل
فما تخاف الردى نفسي وكم رضى
إني امرؤ قد خلت الدهر معرفة
إن يرو ماء الصبا عودى فقد عجمت
تجاوزت في مدى الأشياخ فخرتى
وأول العمر بجير من أواخره
ذوى الذى ظن أنى ذوته فله
واليدى تعظم فى الأبصار صورته
ما أضمر شغرى أنى ما سبقت إلى
فإن مدحى لسيف الدين تاه به
واضح من البيتين الآخرين فى القصيدة أن المهذب استدعى فى ذاكرته
قصيدة أبى الطيب التى ذكر مطلعها (١) :

أجاب دمعى وما الداعى موى طللنى دعا فليأه قبل الركب والإبل
وكانت القصيدة فى ذهنه وهو ينظم قصيدته ، كذلك ربما استدعى مع أبى
الطيب لامية الطغرائى على الوزن والروى ، ومطلعها :
أصالة الرأى صائتى من الخطل وزينة الحلم زائتى لدى العطل

(١) ديوان أبى الطيب ، شرح البرقوق ٣ / ١٩٨ .

فأما قصيدة المتنبي فهي في مدح سيف الدولة، بعد أن نهض إليه، وخلع عليه، ويذكر فيها غاراته على الروم. وأما لامية الطغرائي فكانت بعد أزمته وخروجه من الوزارة وعطله.

والمهذب يلم في قصيدته بمضمون قصيدتي الشاعرين الكبيرين السابقين، وقد ربط بينه وبينهما تشابه المواقف، والأحاسيس، وجارى الوزن والقافية.

وقصيدة المهذب لا تقل عن لاميتي الشاعرين صياغة ورسالة، وإبداع معاني، وصدق أحاسيس. وقد أجرى المهذب في قصيدته بعض ألفاظ القصيدتين، ومعانيهما. ولعله من أجل هذا ألمح العماد في تعليقه على القصيدة الذي سبق ذكره.

ومن فرائد المهذب في المدح ووصف المعارك، عن ذكر الأسطول المصري ووقائعهم في غزور الصليبيين بالشام قوله:

أَعْلَيْتُ حِينَ تَجَاوَرِ الْحَيَّانِ	أَنَّ الْقُلُوبَ مَوَاقِدُ النَّيْرَانِ
وَعَرَفْتُ أَنَّ صُلُورَنَا قَدْ أَصْبَحَتْ	فِي الْقَوْمِ وَهْمِي مَرَايِضُ الْغَزْلَانِ
وَعَيُونُنَا عَوْضُ الْعَيُونِ أَمْدُهَا	مَا غَاذَرُوا فِيهَا مِنَ الْغُلَّانِ
مَا الْوَحْدُ هُرَّ قِبَابَهُمْ بَلْ هُرَّهَا	قَلْبِي عَشِيَّةَ سَارَ فِي الْأَغْطَانِ
وَبِمَهْجَتِي قَمَرٌ إِذَا مَا لَاحَ لِلْسُّورِ	أَرَى تَضَاعَلَ دُونَهُ الْقَمَرَانِ
قَدْ بَانَ لِلْعُشَّاقِ أَنَّ قِيَامَهُ	سَرَقَتْ شِمَائِلُهُ غُصُونُ الْبَانِ
وَأَرَاكَ غُصْنًا فِي التَّعَمُّ يَمِيلُ إِذْ	غُصْنُ الْأَرَاكِ يَمِيدُ فِي نَعْمَانِ
لِلرَّمِجِ نَصْلٌ وَاجِدٌ وَلَقْلُقُو	مَنْ نَاطِرِيهِ إِذَا رَكَ نَصْلَانِ
وَالسِّيفُ لَيْسَ لَهُ سِوَى جَفْنٍ وَقَدْ	أَضْحَى لَصَارِمٍ طَرْفُهُ جَفْنَانِ
وَالسَّهْمُ تَكْفِي الْقَوْسِ فِيهِ وَقَدْ غَدَا	مَنْ حَاجِبِيهِ لِلْحِظَةِ قَوْسَانِ
وَلُزِبَ لَيْلٍ خِلْتُ خَاطِفَ بَرْقِهِ	نَارًا تَلْقَحُ فِي الدَّجَى بِلُحَّانِ
كَالْمَائِلِ الْوَسْطَانِ مِنْ طَوْلِ السَّرِي	جَوْازِهِ، وَالرَّاقِصِ السَّكْرَانِ
مَا بَانَ فِيهِ مِنْ ثَرِيَّةٍ سِوَى	إِعْجَابِهَا وَالْكَأَلِ فِي الدُّرَّانِ (١)
وَتَرَى الْمَجْرَةَ فِي النُّجُومِ كَأَنَّهَا	تَسْقِي الرِّيَاضَ بِمَجْدُولِ مَلَّانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ نَهْرًا لَمَا عَامَتْ بِهِ	أُبْدًا نَجُومُ الْحَوِثِ وَالسُّرَّطَانِ

(١) الديوان منزل من منازل القمر.

نَاذَمْتُ . فِيهِ الْفَرَقْدَيْنِ كَأَنِّي
وَتَرَقَمْتُ هِمِّي فَمَا أَرْضَى مَيَّوِي
وَأَنْفَتُ حِينَ فَجَعْتُ بِالْأَحْيَابِ أَنَّ
وَاعْتَضْتُ عَنْ جُودِ الْوَزِيرِ مَوَاهِبَا
يَقُولُ فِيهَا :

سَدُونِ الْوَرَى - وَجَذِمَةُ أَحْوَانِ (١)
شَهَبُ الدَّجَى عَوْضًا عَنِ الْخِلَاطِ
أَلْهُو عَنِ الْإِخْوَانِ بِالْخَوَانِ
أُسَلْتُ عَنِ الْأَوْطَارِ وَالْأَوْطَانِ

بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنْ الْخَفَقَانِ
أَوْتَيْتُ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ سُلْطَانِ
بِأَعْلَاكَ يَسْجُدُ سَامِعُ الْبَيْتَانِ
كَالْأَسَدِ حِينَ تَصُولُ فِي يَخْفَانِ (٢)
أَنَّ الْبَحَارَ تَحْمِلُ فِي غَدْرَانِ
جُرْدَاءَ خَالِيَةٍ مِنَ السَّكَّانِ
يَسْرُونَ تَحْتَ كَوَاكِبِ الْخَرْصَانِ (٣)
هَرَّ فِي الْعَدِيدِ وَرَمَلَهُ نَيْبَانِ
يَسْطَاكَ بَعْدَ الْعَزِّ دَارَ هَوَانِ
وَهُمْ لَكَ الضَّيْفَانِ بِالذَّيْفَانِ (٤)
بِصَوَارِعِ سَلْتُ مِنَ الْأَخْفَانِ
بَشَبَا ضَرَابٍ صَادِقٍ وَطَعَانِ
مَنْ وَمَنْ ذَمُّهُمْ مَعًا بِمَحْرَانِ
فِي يَوْمِ خَرَبَهُمْ مِنَ الْأَقْرَانِ
بِمَنْ تَحَارَبَ بِالتَّجِيعِ الْقَانِي
كَشَفَاتِي بُشِيرْتُ عَلَى الرَّيْحَانِ

مَا زَلَزَلْتُ أَرْضَ الْقِيَا بِلِ ذَاكَ مَا
وَأَقُولُ إِنَّ حَصُونَهُمْ سَجَدَتْ لِمَا
وَالنَّاسُ أَجْنُرُ السُّجُودِ إِذَا عَدَا
وَلَقَدْ بَعَثْتُ إِلَى الْفَرْنَجِ كِتَابِيَا
لِبَسُوا الثَّرَوَةَ وَلَمْ تُخَلِّ مِنْ قِبَلِهِمْ
وَيَتَمُّوا أَرْضَ الْعَنُو بِقِفْرَةٍ
عَشْرِينَ يَوْمًا فِي الْمَغَارِ وَلَيْلَةٍ
حَتَّى إِذَا قَطَعُوا الْجَفَارَ (٥) بِمُخْفَلِ
أَغْرَقْتُهُمْ بِجَمِي الْعَمَّا فَجَعَلْتُهُ
عَجَلْتُ فِي تَلِ الْعُجُولِ قِرَاهُمُ
لَمَّا أَبَوَا مَا فِي الْجَفَانِ قَرَبَتْهُمْ
وَتَلَّتْ فِي يَوْمِ الْعَرِيشِ عُروَشَهُمْ
أَلْجَأَتْهُمْ لِلْبَحْرِ لَمَّا لَنْ جَرَى
مُدَّحِ الْوَرَى بِالْبَاسِ إِذْ خَضِبُوا الظُّلُمَا
وَلَأَنْتِ تَخْضِبُ كُلَّ بَحْرِ زَاخِرِ
حَتَّى تَرَى ذَمُّهُمْ وَخَضِرَةُ مَايِهِ
وَقَالَ يَصِفُ الْأَسْطُولَ :

-
- (١) جَذِمَةُ الْأَرْضِ مَلِكُ الْحَوَّةِ ، كَانَ لَشِكْرِهِ عَنِ النَّاسِ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الْفَرَقْدَيْنِ كَمَا جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ .
(٢) خَطَانُ : مَأْسِدَةٌ قَرِبَ الْكُوفَةِ .
(٣) الْخَرْصَانُ : الرَّمَاةُ .
(٤) الْحِجَارُ كَانَتْ تَطْلُقُ عَلَى الصَّحْرَاءِ بَيْنَ الْعَرِيشِ وَمَعْرُ .
(٥) الذَّيْفَانُ : السَّمُ .

وكانَ بحر الروم مُخلَقَ وجهه وطفئت عليه منابثُ المرجاني
ولقد أتى الأسطولُ جينَ غزا بما لم يأت في جين من الأحيان
أحب إلى بها شواني أصبحت من فتكها ولها العدة شواني^(١)
شهن بالزبان في ألوانها وفعلن فعلن كواسير العقبان
أوقرتها عُدَّ القتال فقد غلث فيها القنا عوضاً عن الأبطال
فأتك موقرة يسبي يئس أسراهم مغولة الأذقان
حرب عوان حكمتك من العنا في كل بكر عندهم وعوان
وأعلنت رسل ابن القسيم^(٢) إليه في شعبان، كي يتلأتم الشعبان
والقال ينهد باسمه أن سوف يفت — لئو الشأم وهو عليهما قسمان

ويصف مقتل البرنس — أحد قادة الصليبيين — ويصف رأسه على الرمح
بمعنى بديع — كقول العماد :

قتل البرنس ومن عساه أعانه لما عتا في البقي والثنوان
وأرى البرية حين عاذ برأسه مر الجنى يئو على المرائي^(٣)
وتعجبوا من زرقه في طرفه وكان فوق الرمح نصلاً ثاني
فليبه أن فاز منك بسيد أوفى برتبته على كيوان^(٤)
قد ضاع من أرماجه لمسامع الأمت — لايك أقاطاً من الخرصان
والخيل تعلم في الكربة أنه قد خط هيكلها على الفرسان
عجباً لجود يديه إذ ينشئ الملا والسيل ييلم ثابت الأركان

وغزل المهلب في معظمه نسيب بلوى الطابع والروح يعمد فيه إلى العود
لنموذج الجاهل فيقول من رائية رقيقة — على بداوتها :

هم نصب عيني، أنهلوا أو غاروا ومنى فؤادي، أنصفوا أو جاروا
وهم مكان السر في قلبي وإن بعثت نوى بهم وشط مزار
فارتهم، وكأنهم في ناظري مما تثقلهم لي الأفكار

(١) الشوان الأول نوع من السن الحربية في زمانهم ، والثانية من شأ أي حلقون .

(٢) يعني بابن القسيم نور الدين محمود صاحب دمشق يومئذ .

(٣) المرائن الرماح .

(٤) كيوان هو نجم زحل عند العرب ويحظون به في البعد .

إلا القلوب منازل وديار
منهم ديار الأنس وهي قفار
فلهم بأجواز الفلا أمصار
جاران : فيض الدمع والتذكر
هجرتهم الأوطان والأوطار
تبئو ، ولكن فوقها أقمار
ألا يقر لهم عليه قرار
عنى ، وهل بعد النهار نهار ؟

تركوا المنازل والديار فما لهم
واستوطنوا اليد القفار فأصبحت
فلين غدت مصر قلاة بعدهم
لوي جاوروا نجدا فل من بعدهم
ألقوا مواصلة الفلا واليد مذ
بقلائص مثل الأهلة عندما
وكانما الأفاق طرا أقسمت
واللهر ليل مذ تنانت دأرهم
ويقول فيها :

فلنا اعتبار فيك واستغبار
أوقاته فجميعه أسحار
طالت في الأيام وهي قصار
إلى على غير الهوى صبار

أمنازل الأحباب غيرك البلى
سقى لدم كان منك تشابهت
قصرت لي الأعوام فيه فمدنا
يا دهر لا يتركك ضعف تجلدى

وله في الوصف شعر جيد ، وما صور فيه بعض ملاهى عصره من
راقصات ، ومغنيات ومجالس خمر وشراب . فيقول : وقد أبدع وصف
الشموع :

ثرانا نمسح أركانها
وطورا أنادم غزلانها
فضضنا عن الشمس أدنانها
قرأت بأنفك عنوانها
جعلنا من الروح فرسانها
تفتتح خداه ألوانها
أحال لى التبر مرجانها
در يفصل عقيانها
عروض ثقيد أوزانها
وجرت دياجيه أرذانها
صنعنا من النار تيجانها

حججنا بها كعبة للسرور
فطورا أعانق أغصانها
على عاتق إن حيث شمسنا
ولند ظهرت لك محجوبة
كميت من الراج لكثما
يطوف بها بابل الجفون
بكأس إذا ما علاها المزاج
بكان الحباب وقد قلده
وراقصة رقصها للحنون
ولما طوى الليل ثوب النهار
جلوتا عرائس مثل اللجين

وصاغت مدامها حلية
رماحاً من الشمع تجلو الدجى
بها ما بأفدة العاشقين
وقد أشبهت رقباء الحبيب
وفيا دليل بأن الثغر
ومن قوله في الشمعة كذلك :

ومصفرة لا عن هوى غير أنها
شجوناً وسقماً، واصطباراً وأدمعاً
إذا جهشتها الريح كانت كمعصم
وذكر العماد أن من أوصافه في الخمر ما سار واشتهر وهو قوله :

نبئت منها أرى النار التي سجدت
راجح إذا سفك الثدمان من دميها
لقل لمن لام فيها إننى كلف
مغرى بها فعل ما أغريت العذل

وهو في الوصف ذو خيال محلق يجلب الصور الغريبة غير المألوفة فيما
جرت عليه المعاني كذلك الصور والأخيلة الكثيرة التي مرت بنا في ندائحه ،
وغزله ، ووصفه مجالس اللهو والشراب ومن غرائبها صورة الشموع والخمر !
فهى على غير مثال سابق . وتحسب من إبداعاته .

وشاعرية المذهب كما شاهدنا دافقة ، فطول النفس ، وانسياب القول في
سلامة دون تعقيد ولا تكلف . ولا يعد من أصحاب الصنعة ، وإن اتفق في
شعره ألوان من صيغ البديع ، فهو قد يستخدم الجناس حلية ، واقتاناً في
عرض المعنى ، وقريب منه التوشيح ، وهو البدء بلفظ وختم البيت باللفظ
نفسه أو مشتقه وجنسه . وهو ضرب من الرباط اللفظي ، يورق النسق
الصوتي ، والأحكام المعنوي . ومن هنا سمى توشيحاً لأنه يضم بالصوت
أفراد المعنى ، كما يضم الوشاح أعضاء الجسم .

ومن أمثلة جناسه في آخر البيت :

قصرْتُ على شكرها منطقاً
رطيبَ اللسان ندىً لثدي

ولعله اقتضى آثار أنى تمام فى صنعة الجناس هذه كما قلنا .

ومن صوره البديعية ومعانيه الطريقة قوله :

وليلة كاستغاض الطرف قصّرها	وصل الحبيب، ولم يُقصِرْ من الأمل
بتنا يُجاذِبُ أهْدَابُ الظّلامِ بها	كفّ الملام وذكر الصّدّ والمَلَل
وكَلَمًا زام نُطْلَقًا فى مُعَاتَبَتِي	سَدَدْتُ فَأُهُ بطيب اللّهم والقَبَل
وبات بدرُ تمام الحسن معتقبي	والشمسُ فى فللك الكاسات لم تَقَل

ويجمع قاموس شعره بين ألفاظ الشعر القديم ، ومحدث اللفظ ، ويجرى فيه بعض اسماء النجوم ، والأحجار الكريمة ، ومصطلح العلوم كالكيمياء وغيرها .

وتتنوع أوزان الشعر فى ديوانه ، فهو لم يؤثرأ وزناً على آخر ، وينظم فى مجزوءات البحور كغيره أحياناً فى مقطعاته أو بعض موضوعات الغزل واللهو والخمر .

وقوافيه محكمة غالباً ، وقد بُنِيتُ منه أحياناً إذا طالت القصيدة بعض القوافي ، فتأتى قلقلة فى موضعها ، أو غير مناسبة . ويعمد أحياناً إلى الضرورة فيتحول اللفظ ، أو يأتى به على غير اشتقاقه المعتاد . كما قد يغرب أحياناً فى اختيار اللفظ إذا اضطره الوزن .

ويوفر غالباً لتنظيمه سيطرة الإيقاع ، بمراعاة النسق بين أصوات الحروف ومخارجها ، وهو يجمع بين جزالة الصوت ، ورصانة البناء ، والرقّة كل فى ما يناسبه من المعالى .

عمارة الجني^(١)

(ت ٥١٥ هـ — ٥٦٩ هـ)

وهو عمارة بن علي بن زيدان الفقيه .

أصله من زيد أو مرطان باليمن ، ولد بها سنة ٥١٥ هـ ، وبه تفقه ، ودرس ، وكان شافعي المذهب ، خرج من بلده اليمن سنة ٥٤٩ هـ قاصداً الحج ، ومكث في مكة زمناً اتصل فيها بأمرها قاسم بن هاشم ، وبعثه هذا رسولاً إلى الخليفة الفاطمي القائم بالقاهرة .

ونشأ نشأة دينية في مكانٍ من أماكن اليمن الممرعة يدعى وادي وساع . قال في النكت : « بها المولد والمروء ، وأهلها بقية العرب في تهامة لأنهم لا يسكنهم حضريٌّ ، ولا ينامكونه ، ولا يُجيزون شهادته .. ولذلك سلمت لغتهم من الفساد » .

وكانت أسرة عمارة أسرة سيادة بين قومه ، فقد كان والده سيدهم بعد وفاة عمه وخاله ، وكانوا كذلك من السادة .

قال : « وتماسكت أحوال الناس بوالدي إلى سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٥٢٩ هـ) وفيها أدركت الحلم . قال وخرجت عنها — أي عن بلده — سنة ٥٣٠ هـ ونحن أحسن الناس حالاً وفيها بعض التماسك بسبب مالي كُنت والدني ورثته عن أبيها »^(١) .

ويقول : « وفي سنة إحدى وثلاثين دفعت لي والدتي مصوغاتها بألف دينار ، ودفع لي أبي أربعمائة دينار وسبعين ، وذهبت بالمال إلى زيد » .

ونصحه والده بأن يتصل في زيد بالوزير ، ويُنفق المال على نفسه لاصلاح حاله وقال له : لا ترجع حتى تغلج ، فقد احتسبك عند الله وصيرنا عنك .

قال : « فأتزلي الوزير مسلّم في داره مع أولاده » .

(١) راجع ترجمته في الحريدة شعراء اسم ١٠١/٣ ، وفيات الأعيان ٤٣١/٣ ، فوات الوفيات مرآة الزمان ٣٠٢/٨ ، وحسن المحاضرة ٤٠٥/١ ، النكت المصرية .

(٢) النكت المصرية ص ٢١ .

ولازم في زبيد الطلب ، وظل أربع سنين لا يخرج من المدرسة إلا للصلاة
يوم الجمعة وفي السنة الخامسة زار والديه ، ورد المصوغ إلى والدته ، فلم يحتج
إليه .

وفي زبيد تلقى أصول الفقه الشافعي ، والفرائض والمواريث .

قال : « ولى في الفرائض مُصَنَّفٌ يُقْرَأُ فِي الْيَمَنِ » .

وفي سنة ٥٣٩ هـ زاره والده وخمسة من أخوته بزبيد ، فانشده شيئاً من
شعره . فاستحسنه ، وكانت سنة أربعاً وعشرين سنة . وقال له أبوه بعد سماع
شعره : تعلم والله أن الأدب نعمة من نعم الله عليك ، فلا تكفرها بدم الناس .
قال : واستحلفني ألا أهجو مسلماً قط بيت شعر ، فحلفت على ذلك ،
ولطف الله بي فلم أهج أحداً والله المحمود ، ماعداً إنسان هجاني بحضرة الملك
الصالح (طلائع) بيتي شعر ، فأقسم الصالح علي أن أجيبه ففعلت (١) .

وعرفنا أن الصالح بن رزيك كان يقرأ الشعراء بعضهم ببعض في مجلسه .

وخرج عمارة من زبيد إلى مكة كما قلنا حيث أرسله أمرها في سفارة إلى
مصر يقول : « فقدمتنا — إلى الدولة المصرية — في شهر ربيع الأول سنة
خمسين وخمسمائة والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظاهر ، والوزير له الملك الصالح
طلائع بن رزيك » .

قال : ولما أحضرث للسلام عليهما في قاعة الذهب في قصر الخليفة أنشدتهما
قصيدة أولها (٢) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ بِعَدِّ الْعَزَمِ وَالْهَمَمِ	حَمْدًا يَقُومُ بِمَا أَوَّلْتُ مِنَ النِّعَمِ
لَا أَجْحَدُ الْحَقَّ عِنْدِي لِلرَّكَابِ يَدٌ	تَمَثَّلُ اللَّجْمُ فِيهَا رُبَّةُ السَّحَابِ
فَرَّيْتُ بَعْدَ مَزَارِ الْعَرْزِ مِنْ نَظَرِي	حَتَّى رَأَيْتُ إِمَامَ الْعَصْرِ مِنْ أَمَمِ
وَرِحْتُ مِنْ كِمَاةِ الْبَطْحَاءِ وَالْحَزَمِ	وَفَنَّا إِلَى كِمَاةِ الْمَعْرُوفِ وَالْكَرَمِ
فَهَلْ دَرَى الْيَشْتِ أَتَى بَعْدَ قَرْنِيهِ	مَا مَبْرُثٌ مِنْ حَرْبٍ إِلَّا إِلَى حَرْبِ

(١) النكت ص ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢-٣٣ .

وذكر أن الصالح أعجب بالقصيدة ، واستعاد انشادها منه مراراً ،
والأستاذون ، والكبراء في المجلس يذهبون في الاستحسان كل مذهب . ودفع
الصالح له خمسمائة دينار . قال : « وإذا بعض الأستاذين قد أخرج لي من عند
السيدة الشريفة — عمة الفائز — وبنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار أخرى .

قال : وحملت المآل معي إلى منزلي ، وأطلقت لي من دار الضيافة رسوم لم
تُطلق لأحد من قبلي . وتهادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم . قال :
واستحضرتني الصالح للمجالسة ونظمتني في سلك أهل المؤانسة ، واثالثت على
صلاته ، وغمرني بربه ، ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليل
أبا المعالي ابن الجباب ، والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا الفتح
محمود بن قادوس ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير . وما من هذه الحلبة
أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية ، والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب .

وبعد أن مكث في صحبة ابن رزيك بقية عام ٥٥٠ هـ غادر مصر إلى مكة
في آخريات السنة إلى مكة ، فعُدن باليمن ، ثم عاد من اليمن إلى مكة مرة أخرى .
وعبر إلى مصر ، فتوقف بقوص ، ويبدو أن عبوره كان عن طريق جلة عيذاب
عبر البحر الأحمر .

ومكث بقوص زمناً ، وكانت آنذاك عامرة بالعلم والعلماء . ورحل من
قوص إلى القسطنطينية وأذن له الملك الصالح بالثول مرة أخرى بحضرته .

وكان ابن رزيك فيما يرويه عمارة قد غضب عليه لتأخره عنه ، وبرر ذلك
عمارة بأن الحجاج المصريين نهوا ذلك العلم بالحجاز بواسطة أمير مكة ، فظن
الصالح أن عمارة كان يعلم بذلك إلا أنه اعتذر بأن لا علم له ولا دخل فيما
حدث . وأنشد ابن رزيك قصيدة يبرأ فيها مما ظن به .

وكان مما أغضب الصالح منه ما نقل عن عمارة أنه طعن في مذهب
الإمامية .

وما استعطفه به قبل أن يصفح عنه قوله في بيتين بعث بهما من قوص :
ولي تحت داري الملك يومان لم تلح
لعني علامات الكرامة والبشر
وقد أخلت أيام قوص نصيبها
فهل نُقلت تلك السجائب إلى مصر

قال عمارة : فخرج أمره بانزالي وإكرامي . وإبصالي إليه . فأنشدته عند السلام عليه قصيدة أصف فيها وقعة العرش مع الإفرخ ، وأشرت فيها بـ البراءة مما نسب إلي من القول في مذهبه منها :

فَاعْلَمْ وَأَنْتَ بِمَا أُرِيدُ مَقَالَهُ	مَتَى وَمِنْ كُلِّ الْبَرِيَّةِ أَعْلَمُ
أَكْبَى حُبَيْلْتُ عَلَى مَقَالَتِكَ الَّتِي	مِنْ أَجْلِهَا فِي كُلِّ أَرْضٍ أَكْرَمُ
وَبَدَوِي مَا أَسْدَيْتَهُ مِنْ نَعْمَةٍ	سَنَدَى الرِّجَالِ الْحَامِسُونَ وَالْحُمَا
إِنْ كَانَ مَا قَالُوا ، وَلَيْسَ بِكَائِنْ	فَأَنَا أَمْرٌ مَعْنَى سَعَى فِي الْأُمِّ
غَلَرٌ كَمَا اخْتَارَ الْحُسُودُ وَمَوْقِفٌ	أَلَزَمْتُ نَفْسِي فِيهِ مَا لَا يَلْزُمُ
كَذِبٌ وَحَقٌّ ، لَوْ حَلَمْتُ بِذِكْرِهِ	أَقْسَمْتُ أَنِّي بَعْدَهُ لَا أُحِلُّمُ
رَاجِعٌ جَمِيلُ الرَّأْيِ فِي بِنَظَرَةٍ	تُضْجِي عَوَاطِفَهَا تَسِيحٌ وَتُسْجِمُ
فَاللَّيْلِ إِنْ أَقْبَلَتْ صَبِيحٌ مُسِيرٌ	وَالصُّبْحُ إِنْ أَعْرَضَتْ لَيْلٌ مُظْلِمٌ
بَدَأَتْ صَنَائِعُكَ الْجَمِيلُ وَمِثْلَهَا	بِأَجَلٍ مِنْ تِلْكَ الْبَدَايَةِ تَخْتُمُ

قال : فزال ما كان عنده ، وعاد إلى أفضل عوائده (١) .

وعاد إلى المجلس ، قال وأمرني الصالح بملازمة الخدمة في المجالسة ، والمواكبة والمدح له . وتأكدت الحرمة ، وتضاعفت المزية والاختصاص . وكانت تجري بحضرته مسائل ومذكرات يأمرني بالخوض مع الجماعة فيها ، وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل (فلا تقعد معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) . ونهضت فخرجت ، فأدركني الغلمان ، فقلت : حصاة يتأذني وجعها فتركوني ، وانقطعت في منزلي أياماً ثلاثة ، ورسوله كل يوم والطيب معه . ثم ركبته بالنهار فوجدته في البستان المعروف بالختن في خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبتني ، وقال : خيراً . فقلت : إني لم يكن لي وجع ، وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لي في الأرض سعة ، وفي الملوك كثرة . فعجب من هذا وقال : سألتك بالله ما الذي تعتقد في أبي بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولا هما لم يبق الإسلام علينا ولا

عليكم . وإنه ما من مسلم إلا ومحبتها واجبة عليه ، ثم قرأت قوله تعالى :
(ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفة نفسه) فضحك . وكان مرتاضاً
حصبياً ، قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم .

وطابت الحياة لعمارة في رحاب الصالح ، واتصل بكثير من أعيان مصر
وأمرائها وكبار رجالها في حياة طلائع وبعد مقتله .

ومن مدحه من رجال الدولة الموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء .
قال فيه (١) :

إلا تَأَلَّقَ بَارِقُ بِالْأَسْرِقِ	ما هاج مزنة دمه المترق
يَسْرَى الْهَوَى فِي ضَوْئِهَا الْمَتَالِقِ	برق يذكرني وميض مياسم
عَابَ طَرِيقَ رُضَابِهِ لَمْ يُطْرِقْ	من كل نغر منك نغر غفافة
هَمُّ الْخِيَانَةِ عِنْدَهُ لَا يَرْتَقِي	نَسَجَ الْغَفَافَ عَلَيْهِ ثَوْبَ صِيَانَةِ
رَوْضِ الْحَيَاةِ وَزَهْرَهَا الْمُسْتَشْنِقِ	سَقَا لِأَيَّامِ الشَّبَابِ فَإِنَّمَا
فِي ظِلِّ أَعْصَابِ الشَّبَابِ الثَّوْرِقِ	أَيَّامَ يَصْطَلِحُ الْغَوَايَ وَالْيَنَى

وله مدائح كثيرة في رجال العصر غيره ، ولما استولى صلاح الدين على
الحكم ، مدحه بقصيدة طويلة يقول فيها :

لِنَفْثَةِ مَصْلُوبٍ وَأَنِّي مُوجِعٌ	أَيَا أَذْنَ الْأَيَّامِ إِنْ قَلْتُ فَاسْتَمِعِي
فَلَا خَيْرَ فِي أَذُنٍ تُتَادَى فَلَا بُدَّ	وَعَيَّ كُلِّ صَوْتٍ تَسْمَعِينَ نِدَاءَهُ
فَقَصَّرَ مِنْ ذُرْعِي ، وَقَصَّرَ أَذْرُعِي	تَقَاصَّرَ فِي خُطُو الزَّمَانِ وَبَاعَهُ
وَأَنزَلَنِي بِالْجُورِ فِي غَيْرِ مَوْجِعِي	وَأَخْرَجَنِي مِنْ مَوْجِعِ كَثِّ أَهْلِهِ
أَقْصَى مِنَ الْأَوْطَانِ جَنِي وَمَضْجِي	بَسِيفِ ابْنِ مَهْدِي ، وَأَبْنَاءِ فَاتِكِ
فَنَلْتَهُمَا فِي ظِلِّ عَيْشٍ مُنْتَعٍ	تَيْمَمْتُ مِصْرًا أَطْلُبُ الْجَاةَ وَالْفَتَى
فَأَحَدَ مُرْتَادِي ، وَأَخْصَبَ تَرْبِي	وَزُرْتُ مَلُوكَ النِّيلِ أَرْتَادُ نَيْلَهُمْ
مَوَاهِبُهُ لِلصَّنْجِ لَا لِلصَّنْعِ	وَفَزْتُ بِأَلْفٍ مِنْ عَطِيَّةٍ فَاتِرٍ
سَرْتُ بَيْنَ يَقْطِيٍّ مِنْ غُيُوبٍ وَهَجِجٍ	وَكَمْ طَرَقْتَنِي مِنْ يَدِ عَاضِدِيَّةٍ
بِمَا زَادَ عَنْ عَزِيمِي رَجَائِي وَمَطْمَعِي	وَجَاءَ ابْنُ رَزِيكٍ مِنَ الْجَاوِ وَالْيَنَى
فَخَبَّرْتُهُ مِنِّي بِأَكْرَمِ مُوَدِّعٍ	وَأَوْحَى إِلَيَّ سَمْعِي وَفَاتِحِ شَيْئِهِ

(١) الرال للصلبي ٢٢ / ٣٨٨ .

وكان كما قلنا قد تعرف على جماعة من الأعيان ، مدحهم بشعره ، وذكر في النكت بعضاً ممن مدحهم من هؤلاء ، ومدائحهم فيهم ، وما أعطوه من الجوائز . ومن بين هؤلاء الملك العادل رزيك ابن الصالح . وأخوه ، وصهره ، وضرغام وأهله ، وولده ، وشاور وابنه طى . وكانت له مع كل هؤلاء علاقات ، وصدقات ، وقد أولوه رعايتهم ، وأغرقوه بانعامهم من المال ، والجواري والمتاع والخيل ، والنور .

وكان من بين ما أهدى إليه دار لأحدهم على الخليج انتقل إليها بعد سكنه أول الأمر بالفسطاط ثم بدار بالقاهرة انتقل إليها بعد مقتل الصالح ، وقد اجترقت داره التي على الخليج ، واحترق فيها كثير من متاعه وشعره .

وكان عمارة يخدم بشعره ، وكان له راتب معلوم على هذه الخدمة ، فطلب من شاور بعد توليه الوزارة أن يعفيه من الخدمة بالشعر . قال في النكت :

« رأيت يوماً وقد انشرح صدره ، فقلت له إن لي مدة تنازعني النفس في الحديث معك في حاجة ، وقد عزمتم أن أقولها لك ، فإن قفيتها ، وإلا كنت أبلغت عند نفسي عنراً . قال : وما هي ؟ . قلت : تُعفيني من عمل الشعر ، وتنقل الجارى على الخدمة راتباً على حكم الضيافة ، فإني أرى أن التكبُّب بالشعر والتظاهر به نقيصة في حقى . قال : فما منعك أن تستعفى في أيام الصالح وابنه ؟ . قلت : كانت لي أسوة وسلوة بالشيخ المجلس ابن الحياض ، وبابى الزبير ، الرشيد والمهذب . وقد انقرض الجيل والنظراء .

قال : تُعفى . ثم أمر بإنشاء سجل بإعفائى ، وأخذ عليه خط الخليفة وخطه بذلك ، فقلت أشكره من قصيدة :

تغفو مهابتُه حجاً بآءِ دونه ونداءُ عنا ليسَ بالمحجوب
سكنت محبته وهيبه بأسيه منّا سوادى ناظرٍ وقلوب .

وكانت خدمته هو وشعراء عصره للخلافة ، والوزراء والكبراء شبه إجبارية لأنهم يتقاضون عليها راتباً . فكان لابد لهم من نظم الشعر في كل مناسبة ، وكان هؤلاء الرسميون في الدولة يطعمون منهم في ذلك ، بل وينتظرونه ، ويميزون عليه فوق الراتب عطاءً . فالشعراء حينئذ أشبه بالجرائد والصحف اليومية تنشر أنباء الأحداث وأخبار الناس .

ومعظم هذا الشعر الرسمي نظم متكلف متكرر المعاني يخرج بتكلفه عن معنى الشعر والشاعرية . ولا نتوقف منه إلا عند بعض الأجزاء التي انطلقت فيها شاعريته عن إحساس صادق تلقائي ، كالشعر الذي قاله يعمر عن علاقات مودة ، أو امتنان أو وصف لما أعجبه ، وأسعده ، أو ذكر لأشجانه وآلامه وشكواه وحسرتة ويقع في هذه الدائرة مرثيه ، وبخاصة لطلائع بن رزيك وابنه . وقد كان يكنُّ لهما محبة ، ويدين لهما بالكثير مما وصل إليه من مكانة وغنى . ومنه قوله عقب مقتل الصالح :

أفَى أَهْلُ ذَا الثَّادِي عَلِيمٌ أَسْأَلُهُ	فَأَنَّى لِمَا بَى ذَاهِبَ اللَّبِّ ذَاهِلُهُ
سَمِعْتُ حَدِيثًا أَحْسَدُ الصَّمَّ عَنْهُ	وَيَذْهَلُ رَاعِيهِ ، وَيَحْرُسُ فَأَيْلُهُ
فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ شَاهِدِ الْحَالِ أَنَّنِي	أَرَى الدَّسْتُ مَنْصُوبًا وَمَا فِيهِ كَافِلُهُ
وَأَنِّي أَرَى فَوْقَ الْوُجُوهِ كَأَبَّةَ	تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرُّجُوعَ ثَوَائِلُهُ
دَعَوْنِي فَمَا هَذَا بِوَقْتِ بَكَائِهِ	سَيِّئَاتِكُمْ طَلَّ الْبُكَاءُ وَوَأَيْلُهُ
وَلَمْ لَا بُكْيَهُ وَنَنْدَبَ فَقْدَهُ	وَأَوْلَادُنَا أَبْتَأَسَهُ وَأَرَابِلُنُهُ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ حُسْنِ فَعَالِهِ	وَقَدْ غَابَ عَنَّا مَا بِهِ الدَّهْرُ فَاعِيلُهُ

ويقول :

تَنَكَّدَ بَعْدَ الصَّالِحِ الدَّهْرُ فَاغْتَدَّتْ	مَجَالِسُ أَيَّامِي وَهْنٌ غَيُوبُ
أَيَّجَذِبُ خَذَى مِنْ رِيحِ مَدَامِي	وَرَبْعِي مِنْ نَعْمَى يَدِيوَ خَصِيبُ
وَهَلْ عِنْدَهُ أَنَّ الدَّخِيلَ مِنَ الْجُؤَى	مَقِيمٌ بِقَلْبِي مَا أَقْلَمُ عَسِيبُ
وَإِنْ بَرَقَتْ مِئْنَى لَذِكْرِ حِكَايَةِ	فَإِنْ قَوَّادِي مَا حَيْثُ كَتِيبُ

وظل كثيراً بعده ، وإن ضحككت سنه مع من لازم من الوزراء الذين تقلبوا على الوزارة في هذه المرحلة المضطربة من تاريخ الفاطميين . فقد كثر فيها الطامعون واقتتل الأعوان واغتال الخدم والأصحاب بعضهم بعضاً . لقد شارك ضمرغام في قتل ابن الصالح ، وكان من أقرب أعوان أبيه طمعاً في الوزارة ، وقتل ضرغام ، وتولى شاور ، وقتل ابن شاور ثم قتل شاور بعد تغلب النعمان رجال نور الدين وصلاح الدين .

واضطّر عمارة أن يجارى الأحداث ، وأن يدهان أحياناً ، لكنه ظلّ على ولائه للفاطمين ولطلّاع وابنه وعشيرته حتى مقتله بأمر صلاح الدين ، وكان وفاؤه سبباً في نهايته المؤلمة .

لقد مدح صلاح الدين ، ومدح أباه نجم الدين ، وأخاه وعشيرته ، ومدح نور الدين محمود ، لكنّ هذا المديح لم يحمل حرارة الصدق ، وإن شارك هؤلاء في المذهب ، فقد كانوا شافعية سنيّة ، وكان هو شافعيّاً سنيّاً ، وكان ابن رزيك إمامياً متعصباً . ومع ذلك فقد كان شعره فيه وفي التحسر على الدولة بعد سقوطها وعزل الخليفة العاضد شعراً صادقاً ، لا صنعة فيه ولا تكلف . وقد ذكر له المؤرخون ذلك وأشادوا به .

قال ابن واصل^(١) : « وكان عمارة شديد التعصب لهم — أى الفاطميين ، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه ، وتولّوه ، فرعى ذلك ووفى لهم ، والإنسان كما قيل صنّعة الإحسان . ولم يكن على مذهبه ، وإنما كان شافعيّاً سنياً ، فلمّا زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر ، وذبّ عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد . ثم لمّا تحرك جماعة في عوّذ الأمر إليهم كان من جملة المساعدين على ذلك شكرا لهم على إحسانهم إليه ، فأدّى به ذلك إلى أن شُبِّقَ .. فمن جملة قوله فهم يرثيهم قصيدة ذكرتها بجملتها لفرط حسنها . وهي^(٢) :

رَمَيْتْ بِأَدَمٍ كَفَ الْخَيْدِ بِالشَّلَلِ
سَمَيْتْ فِي مَنْهَجِ الرَّأْيِ الْكُتُورِ فَإِنْ
جَدَعْتَ مَارِثَكَ الْأَقْبَى ، فَانْفَلِكْ لَا
هَدَمْتَ قَاعِدَةَ الْمَعْرُوفِ عَنْ عَجَلٍ
لَهْفِي وَلَهْفُ بَنِي الْأَمَالِ قَاطِبَةٍ
قَلْبْتُ مِصْرَ فُلُولَانِي خِلَافَهَا
قَوْمٌ عَرَفَتْ بِهِمْ كِسْبُ الْأَكُوفِ وَمَسْنُ
وَكَسْتُ مِنْ وَزَرَاءِ الدُّسْتِ حِينَ سَمَا
وَنَلْتُ مِنْ عِظَمَاءِ الْجَيْشِ تَكْرِمَةً

(١) مفرج الكرب ١/ ٢١٢ .

(٢) مفرج الكرب ١/ ٢١٢ .

يَا عَازِلِي فِي هَوَىٰ أَبْنَاءِ فَاطِمَةَ
 بِاللَّهِ زُرْ سَاحَةَ الْقَصْرِينِ وَابْكِ مَعِي
 وَقُلْ لِأَهْلِيهَا : وَاللَّهِ مَا التَّحَمُّتُ
 مَاذَا تُرَى كَانَتْ الْإِفْرَنْجُ فَاعِلَةٌ
 هَلْ كَانَ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ غَيْرَ قَسْمِيَّةٍ مَا
 وَقَدْ حَصَلْتُمْ عَلَيْهَا وَاسْمُ جَدِّكُمْ
 مَرَّرْتُ بِالْقَصْرِ ، وَالْأَرْكَانُ خَالِيَةٌ
 فَمَلْتُ عَنْهَا بِوَجْهِ ، خَوْفٌ مِنْتَجِدُ
 أَسْبَلْتُ مِنْ أَسْفِدٍ دَمِجِي غِلَاةَ خَلَّتْ
 أَبْكَى عَلَى مَآثِرَاتٍ مِنْ مَكَارِمِكُمْ
 دَارُ الضَّيَافَةِ كَانَتْ أَلْسَافُ وَإِدْنَكُمْ
 وَفَطْرَةُ الصُّومِ إِنْ أَصْنَعْتُ مَكَارِمَكُمْ
 وَكَسَوَةُ الثَّاسِي فِي الْفَصْلَيْنِ قَدْ تَرَسَّتْ
 وَمَوْسَمٌ كَانَ فِي يَوْمِ الْخَلِيجِ لَكُمْ
 وَأَوَّلُ الْعَامِ وَالْعِيدَيْنِ كَمْ لَكُمْ
 وَالْأَرْضُ تَهْتَرُ فِي يَوْمِ الْقَدِيرِ كَمَا
 وَالْخَيْلُ تُعْرَضُ فِي وَشَى وَفِي شَيْءٍ
 وَمَا حَمَلْتُمْ قَرَى الْأَضْيَافِ مِنْ سَعَةٍ
 وَمَا تَحَصَّصْتُمْ بَيْرُ أَهْلِ بَلَدِكُمْ
 كَانَتْ رَوَاتِبِكُمْ لِلْوَفْدَيْنِ وَاللَّضِيَّةِ
 ثُمَّ الْعَرَاؤُ بَنِيَّسَ الَّذِي عَظُمَتْ
 وَلِلْجَوَانِحِ مِنْ أَحْبَابِكُمْ يَمَمٌ
 وَرَبَّمَا تَعَادَتْ الدُّنْيَا فَمَعْقِلُهَا
 وَاللَّهُ لَا فَازَ يَوْمَ الْحَشْرِ مِبْغِضِكُمْ
 وَلَا سَعَى الْمَاءِ مِنْ حَرٍّ وَمِنْ ظَمَلٍ
 وَلَا رَأَى جَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي تَحُلِقَتْ
 أَلَمَتِي وَهَتَاتِي ، وَالذَّخِيرَةَ لِي
 تَاللَّهِ لَمْ تُؤْفِقْهُمْ فِي الْمَدْجِ حَقَّهِمْ
 وَلَوْ تَضَاعَفَتْ الْأَقْوَالُ وَاسْتَبَقَتْ

لَكَ الْمَلَامَةُ إِنْ قَصَّرْتَ فِي غَلِيٍّ
 عَلَيْهِمَا ، لَا عَلَى صَفِيٍّ وَالْجَمَلِ
 فَيَكُنْ جُرُوحِي ، وَلَا تَقْرَحِي بِمَنْدِيلٍ
 فِي نَسْلِ آلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ ؟
 مَلِكُكُمْ بَيْنَ حُكْمِ السَّيِّ وَالْقَتْلِ
 مُحَمَّدٌ ، وَأَبُوكُمْ خَيْرٌ مُتَعَمِّلٍ
 مِنَ الْوَفْدِ ، وَكَانَتْ قَبْلَةَ الْقَبْلِ
 مِنَ الْأَعْدَى ، وَوَجْهُ الرُّدِّ لَمْ يَجِلْ
 رَحَابِكُمْ ، وَغَدَتْ مَهْجُورَةُ السَّبْلِ
 جَالُ الزَّمَانِ عَلَيْهَا وَهِيَ لَمْ تَحُلْ
 وَالْيَوْمَ أَوْحَشَ مِنْ رَسْمٍ وَمِنْ طَلْلِ
 تَشْكُو مِنَ الدَّهْرِ ضَيْفًا غَيْرَ عَمَلٍ
 وَرَثَ مِنْهَا جَدِيدٌ بَعْدَهُمْ وَبَنِي
 يَأْتِي تَجَمُّلُكُمْ فِيهِ عَلَى الْجَمَلِ
 فَمِنْ مَنْ وَبَلَ جَوْدٍ لَيْسَ بِالْوَشْلِ
 يَهْتَرُ مَا بَيْنَ قَصَصِكُمْ مِنَ الْأَسْلِ
 مِثْلَ الْعَرَائِسِ فِي حَلَى وَفِي حُلِيِّ
 الْأَطْبَاقِ إِلَّا عَلَى الْأَكْتِافِ وَالْعَجَلِ
 حَتَّى عَمِمْتُمْ بِهِ الْأَقْصَى مِنَ الْجَلْلِ
 فِي الْمَقِيمِ ، وَلِلطَّارِي مِنَ السَّرْسِلِ
 مِنْهُ الصَّلَاتُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَالنُّوْلِ
 لِمَنْ تَصَلَّى فِي عِلْمٍ وَفِي عَمَلٍ
 مِنْكُمْ ، وَأَضْحَتْ بِكُمْ مَحَلَّةُ الْعُقُلِ
 وَلَا نَجَا مِنْ غِلَابِ الثَّارِ غَيْرُ وَلِيٍّ
 مِنْ كَفِّ خَيْرِ الْإِرَايَا خَاتَمِ الرُّسُلِ
 مِنْ خَلَاءِ عَهْدِ الْإِمَامِ الْعَاضِدِ بْنِ عَلِيٍّ
 إِنْ أَرْتَهَنْتُ بِمَا قَدَّمْتُ تَمَنِّ عَمَلٍ
 لِأَنَّ فَضْلَهُمْ كَالْوَابِلِ الْهَاطِلِ
 مَا كُنْتُ فِيهِمْ بِحَمْدِ اللَّهِ بِالْحَيْجِلِ

بابُ النجاة، فهم، دنيا وآخرة وحُبُّهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى ونصايح الدُّجى وعجـ
أئمة خلقوا نوراً، فنورهم من نور خالص نور الله لم يُفَل
والله لازلت عن جِئى لهم أبداً ما أُنحِر الله لى فى مُلْك الأجل

قالها عمارة وهو فى دولة معادية قامت بعزل آخر خلفاء الفاطميين ، ويعلم
أنه سيقتل جزءا قولة الوفاء . وقد ألمح إلى ظلم صلاح الدين للعاضد وابناه
وعشيرته ، وما نهب من أموالهم ومتاعهم وفرَّق على أخوة صلاح الدين
وأهله ، وبعت بعضه إلى نور الدين .

وهذه القصيدة والقصيدة الأخرى التى مدح بها صلاح الدين أو تظاهر
بمدحه والتي ذكرنا منها أبياتاً لم يخلها من غمز ولز وسماها « شكايه المتظلم » ،
ونكايه المتألم » . يقول فيها ذاكراً فضل الفاطميين ورجالهم ، وداعياً صلاح
الدين أن يرفق بهم وبمن لاذ بهم فيقول :

ملوك رَعَوْا إلى حرمة صار نبيها
وردت بهم شمسُ العظام لوغدهم
مناهبهم فى الجود مذهب سيرة
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه
سكت فقلت ناطقت ضرورى
فاذلكت إدلال الحب وقلت ما
هشيماً رعته النابت وما رعى
كما قال قوم فى على ويوشع (١)
ولن خالفوني فى اعتقاد التشيع
من الحاكم المصطفى إلى فادعى ؟
إذا خلقت الباب غلق فافزع
أتانى بعفو الطبع لا بالتطبيع

وبقوله مخاطباً صلاح الدين :

فيا راعى الإسلام كيف تركتنا
دعوناك من قرب وبعد فهد لنا
ويقول :

ألم ترعى للشافعى فإنه
ونصرى له فى حيث لا أنت ناصرى

(١) ويوشع بنى اسرائيل الذى دعا ربه أن يؤخر غروب الشمس

لِأَيِّ لَا وَفَتْ الْعِرَاقَ بِسَجَسَجٍ بِمَصْرٍ ، وَلَا رِبْحَ الشَّامِ بِزَعَزَعٍ
كَأَنَّهَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ مُؤْمِنٌ أَصَارَعَ عَنْ دِينِي وَإِنْ أَخَانُ بِمَصْرِي
حتى ينتهي إلى هذا الرجاء الذي يطلب إليه فيه أن يحفظ عليه نفسه ، وأن
يعامله معاملة كريمة تليق بمكانته ، وألا تناله نعمته على الفاطميين .

فِيأَزَارِعُ الْإِحْسَانِ فِي كُلِّ تَرِيَةٍ ظَفَرَتْ بِأَرْضِ ثُبْتُ الشُّكْرِ فَازْرِعْ
وَقَدْ صَوَّرَتْ فِي طَرَفِ ذَا النُّظْمِ رَقْعَةً غَدَا طَمَعِي فِيهَا إِلَى غَيْرِ مَطْمَعٍ
أُرِيدُ بِهَا إِطْلَاقَ دِينِي وَرَاتِي فَاطْلُقْهُمَا وَالْأَمْرُ مِنْكَ فَوْقَ
وَيُحْتَمَى بِقَوْلِهِ :

إِلَى هَذَا هُنَا أَنَسَى خَدِشِي وَانْتَهَى وَمَا شِئْتُ فِي حَقِّي مِنَ الْخَيْرِ فَاصْنَعِي
وكان تعليق الصفدي على هذه القصيدة التي تبلو في ظاهرها مدحاً إلا أنه
مدح مطوًى على النعم ، ورجاء مغلف بالضيق والمهجة . قال الصفدي (١) :
« الذي أظنه وتقضى به ألمعي أن هذه القصيدة كانت أحد أسباب شقوه ،
والله أعلم ، لأن الملوك لا يخاطبون بمثل هذا الخطاب ، ولا يواجهون بهذه
الألفاظ ، وهذا الإذلال الذي يؤدي إلى الإذلال . وأظن أن هذه القصيدة ما
أجئت شيئاً .

قال الصفدي : فمال عمارة حيثئذ وانحرف ، وقصد تغيير الدولة — والله
أعلم ، وكان من أمره ما كان . وعلى الجملة فقتل مثل هذا الفاضل قبيح من
الفاضل إن كان ذلك عن رأيه » .

والصفدي ينتقد صلاح الدين والقاضي الفاضل الذي أشار بقتله ولم يشفع
له وقد عرف فضله أكثر من غيره لمعرفة به في دولة الفاطميين حين كان
الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء مع ابن الخلال .

وهكذا قضى الفقيه الشاعر نخبه مقتولاً مصلوباً جزاء وقائه ، وصراحته .

وشعر عمارة : بعد هذا لا يحتاج إلى إيضاح أو تعليق ، فهو صورة
لحياته ونفسيته ، وسجل لأحداث عصره ، يصوغه متدققاً ، لا يصنعه ، فأثار
الصنعة قليلة به .

(١) الوافي ٢٢ / ٣٩٣

ويجربى فيه على انحناء الخزل ، لا يلين في لفظه ، ويدع أحياناً في معانيه وإن لم يخرج به عن المعاني التقليدية . وجمال شعر عمارة في صدقه وانطلاقه وبهم عن مقدرة وثقافته ، وسعة اطلاعه .

ومن بديع معانيه التي جلد فيها معاني سابقيه قوله :

ما هاج مزنة دمه المتفرق	إلا تالتق باري بالأبرق
يرق يذكركى وميض مباسم	يسرى الهوى في ضوئها المتألق
في كل نغم منك ثغر مخافة	عاف ، طرقت رضاءه لم يطرق
نسج العفاف عليه ثوب صيانة	هم الخيانة عنده لا يرتقى

وقوله وقد أحوال المعنى في الأطلال بصنعتة إلى جديد طريف :

بانت يرعى السهى بطرب مؤرق	وفؤاد من الغرام محرق
ليت أيامه السوالف ترجف	من ويجمعن طيب عيش مفرق
بدمن أنبت الجمال ثراها	ورعى الشوق غصنها حين أورق
فتح الظل زهرها وتولى	نشرة راحة النسيم الذى رقى

والمتبع لشعره في أوله أيام كان في بلده اليمن أو في أوليات حياته بمصر ، ثم شعره بعد أن أقام بين المصريين وطالت إقامته ، وعاش الحياة في القاهرة والفسطاط والاسكندرية وشرب من النيل ، وتنقل في ربوع مصر وخالف أهلها مجد فرقا بين أوله وآخره ، فقد اكتسب كما قال بعضهم فيمن جاء إلى مصر حلوة النيل ، ولطفا ورقة من شمائل المصريين .

ابن قادوس^(١)

محمود بن إسماعيل (ت ٥٥١ هـ)

أبو الفتح من شعراء الصحبة الصالحة ، جلساء ابن رزيك ، عمل بديوان الإنشاء وكان من كتابه المرموقين ، وقيل إن القاضي الفاضل أخذ عنه .
وأصله من دمياط ، وكان أبوه يعمل بها .

وكان القاضي الفاضل يعظمه ويسميه (ذو البلاغتين) يعنى فى الشعر والنثر قال ابن شاعر : « وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلا فى ركوبه من القصر إلى منزله ، ومن منزله إلى القصر ، فيسائره ويجاريه فى فنون الإنشاء والأدب » .

وفى شعر ابن قادوس الذى اختاره العماد وابن شاعر يغلب طابع شعر الكتاب ومعظمه مقطعات ، ويدور فى موضوعات الغزل ، والهجاء ، والمدح والوصف من مثل قوله فى الغزل^(٢) :

دياج خلّيه بسندس عارضيه مَفْرُورٌ
ويخلّو خالّ لدا ليرة الملاحية مركز
وكفوله :

مَنْ عاذرى من عاذِلْ يُلوم فى حبّ رَشا
إذا حجت حُبّه قال كفى بالدمع شا

يعنى كفى بالدمع شاهداً ، وهذا ضرب من البديع ابتدعه بعض الشعراء المتأخرين ويقول فى رسالة حبيب :

مِنْلَوْة فى الطرس لما بَدَا قِيلَةُ الصَّبِّ ومن يَزْهَدُ
كأنما قد حلّ فيه اللَّمَى أو ذاب فيه الحجر الأسود

ويقول^(٣) :

(١) ترجم له العماد بالخرينة قسم شعره مصر ١/ ١٢٧ .

وابن شاعر فى فوات الوفيات ٤/ ١٠٠ .

(٢) فوات الوفيات ٤/ ١٠١ .

(٣) الخريدة ١/ ١٢٨ .

وليلة كاعتماضي الطرف قصرها
وتنا يجاذب أطراف الظلام بها
وكلمنا زام نطقاً في معانتي
وبات بلر تمام الحسني معتقي

وصل أخيب، وم تقصّر عن الأمل
كف اللام وذكر الصد والملل
سددت فاه بطيب اللثم والقيل
والشمس في فلك الكاسات لم تقبل^(١)

وله قصيدة اختارها العماد في المديح لعلها في الأفضل أو طلائع بن رزيك ،
بدأها متغزلاً غزلاً حضرياً ، لم يذكر فيه الديار ولا الأطلال ، ولا الظعن ، ولم
يورد ألفاظاً بدوية مما اعتاده بعض الشعراء ممن ذكرنا من معاصريه ، ينتهي منه
إلى المديح ليقول :

يا من تساوت في العلا أقسامه
أرض سعت قدماك فيها لم تزل
ونداك كل مؤمل ما أملأ
ملك يلافي الطيف وهو منزعج

وسما بهمته فكان الأفضل
لنوى المالك قبلة ومقبلا
إلا تجهم للعفاة وأملا
حزماً ، ويقتض الفوارس أغزلاً

ومن مديحه قوله :

ملكك إذل الحادثات لعزه
وكم كربة يوم التزالي تكشفت
تشيد بناء الحميد والمجد بيضه
رفاق الظبا تجري بأجال ذي الوري

بُعِدَ وَيَتَدَى وَالْيَالِي زَوَائِمُ
بِحِمْلِهِ وَهِيَ الْغَوَائِي الْغَوَائِمُ
وَهُنَّ لَأَسَاسُ الْهَوَايِ هَوَايِمُ
وَأَرْزَاقُهُمْ ، فَهِيَ الْقَوَاسِي الْقَوَاسِمُ

وبما هجا به الرشيد بن الزبير في مجلس طلائع قوله :

إن قلت من نار خلقت ، وفقت كل الناس فهنا
قلنا صدقت فما ألبى أطفالك حتى صرت نجبا

وقد يقحش في هجائه فيقول في أحدهم واسمه ابن العلامي المعري وكان
شاعراً :

هذا ابن حلاً نيككم شجرة
إن لم يكن مثل امرئ القيس في

ينوب في الصيف عن الخيش
أشعاره فهو امرؤ القيس

ويستخلم التجنيس في هذه النكتة القبيحة .

(١) سبقت سبة الأبيات للمهذب ، وربما اختلطت أشعارهما عند الرواة ، وهي بطريقة المهذب أشبه

وقال في هجاء شاعر :

لو كان يُتَصَفَّ حين يُتَشَبَّهُ ——— شِعْرُهُ وسط التَّلا
صَفْعُوهُ عِدَّةَ كُلِّ حَرْفٍ فِيهِ لَكِنْ جُمْلًا
أَيُّ مَا يَسَاوِيهِ كُلُّ حَرْفٍ مِنْ حِسَابِ الْجُمْلِ .

ومن تطرقه على هذا النحو :

ابن فلان رجلٌ صالحٌ فامتنحوهُ واقبلوا رَأْيِي
لأرموه في البحر لكي تنظروا فأله يمشي على الماءِ

وله في هجاء رجلٍ كبير الأنف منظرًا :

عليك لا لك أنفٌ ظلَّ مشرفًا حتَّى غدا بنجوم الأفق مُلتصِفًا
فلا تُقَلِّ خَلْقَةَ اللَّهِ. اُرْفُزَيْتْ بِهَا فقد يُعَاذُ بِهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَا

فتعجبُ كيف وَطَفَ الآيةُ القرآنيةُ في السخرية من أنف الرجلِ .

وكان يقصد زميله وجليسه الكاتب القاضي الجليسي ابن الحباب ، فقد كان
معروفًا بكبر أنفه مما أغرى بعض الشعراء بالسخرية منه .

القاضي الجليس ابن الجباب (ت سنة ٥٦١ هـ)

أبو نعيان عبد العزيز بن محسن بن جباب الأغلب السعدي التميمي من سنن الأغلبية أمراء أفريقية تولى ديوان الإنشاء للخليفة الفائز مع ابن الخلال . وكان من جلساء طلائع بن رزيك . وكان مشهوراً بكبر أنفه مما جعله مادة لتندر الشعراء . وكثيراً ما كان طلائع يُقرّبهم به كعاداته في إغراء الشعراء بعضهم ببعض . ولقب بالجليس لمجالسته الخلفاء . والجباب لأنه كان يجلس في سوقهم (يعني سوق الجباب) .

قال عنه العماد^(١) : « جليس صاحب مصر فضله مشهور ، وشعره مشهور وقد كان أوحده عصره نظماً ونثراً ، وترسلأً وشعراً » .

وذكر عمارة أنه ذهب إلى اليمن في سفارة

قال الصفدي : وسمي الجليس لأنه كان يعلم الظافر وأخويه أولاد الخافظ القرآن الكريم والأدب ، وكان عادتهم يسْمُون مؤدبهم الجليس .

وشعره كشعر ابن قادوس ، وابن الخلال ، غالبه مقطعات كشعر الكتاب ويقلب عليه الصنعة ورقة اللفظ . ومن صنعته في المدح قوله :

ومن عجب أن السيوف لديهم تحيض دماء . والسيوف ذكور
رأعجب من ذا أنها في أكفهم تأجج ناراً ، والأكف بخور

ومن شعره المصنوع قوله متمكاً بطيب :

وأصل بلتي من قد غزائي	من السقم الملاح بعسكرين
طبيب طيه كغراب بين	يفرق بين عاطفتي وبينتي
أق الحصى وقد شاخت وباعث	فرد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف	حكاؤه عن ستين أو ثنتين
وكانت نوبة في كل يوم	فصيرها بحلق نوبتين

(١) رجته في الخريدة ١٨٩١ شعراء مصر والتك المصرية جديدة . والواق حـ ١٨ ٤٧٣

فوات الويفت لابن شاعر ٢٧٨ . النجوم الزاهرة ٥ ٢٩٢
الخريدة ١٨٩١

ومن صنعته في الغزل قوله :

رَبِّ يَضْرِبُ سَلْتَنَ بِاللَّحْظِ يَضْأُ
وَحُدُودَ لِلدَّمْعِ فِيهَا خُلُودَ
مُرْهَنَاتٍ جَفَوْنَهُنَّ جُفُونُ
وَعْيُونَ قَدْ فَاضَ مِنْهَا عْيُونَ
وقوله :

حَيْثَا مِيعَةُ الشَّبَابِ الَّتِي يُغْدِ
إِذْ بَذَلَتْ الْخِمَارَ أَمْتِغَ لَيْلِي
وَالْغَوَائِي لَا عَرْنَ وَصَالِي غَوَانِ
وَالْجَوَارِي إِلَى جَوَارِي جَوَارِي

قال العماد : وقال وقد جمع ثمانى تشبيهاً في بيت واحد :

بدا وأرانا منظرًا جامعاً لما
أَقَاخَا ، وَرَاخًا تَحْتَ وَرْدٍ وَنَرَجِسَ
تَفَرَّقَ مِنْ حَسَنِ عَلَى الْخَلْقِ مُوْنَقَا
وَلَيْلًا وَصَبْحًا فَوْقَ غَصَنِ عَلَى نَقَا
لعله أراد ثمانى استعارات ، فالشبه هنا مطوًى غير مذكور .

وربطت بينه وبعض الشعراء من أصحاب طلائع مودة . ومنهم المهذب
ونقل له العماد أبياتاً كتبها إليه مع طيب أهله :

بَعَثْتُ عِشَاءً إِلَى سَيِّدِي
هَدِيَّةَ كُلِّ صَاحِبِ الْإِخَاءِ
بِمَا هُوَ مِنْ خَلْقِهِ مَقْتَبَسٌ
جَرَى مِنْهُ وَتَكَ جَرَى النَّفْسِ
فَجَلَدًا بِالْقَبُولِ وَأَيُّقُنْ بَأَنِّ
لَفَرَطِ الْحَيَاءِ أَتَتْ فِي الْقَلَسِ

كما حدثت بينه وبين بعضهم نفرة ، فقد هجا عمارة بيتين يقول فها :
وَكَمْ فِي زَيْدٍ مِنْ فَقِيهِ مُصَلِّرٍ
عَلَقَتْ عَلَى أَشْعَارِكُمْ أَتَبَرُّدُ
وقى صدره بحر من الجهل مُزِيدُ
يَلِمُ شِعْرَ عِمَارَةَ ، وَيَصِفُهَا بِالرُّودِ .

وهجاه بعض الشعراء ومن بينهم من يُسَمِّي ابن الصياد ، فقد أغرى بأفقه
الكبير وأكثر من السخرية منه . ودافع عنه صاحبه ابن قادوس فقال :

يَا مَنْ يَعِيبُ أَتَوْفَنَا أَلْ
الْأَنْفَ خَلَقَهُ رَبَّنَا
نَشْمُ الَّتِي - لَيْسَتْ تُعَابُ
وَقَرُونُكَ الشَّمَّ اكْتِسَابُ

ونقل العماد شعراً له في طلائع بمناسبة وقعة عباس وابنه نصر في مقتل
الخليفة الظاهر وبعض أخوته وعمه يستتفرو . يقول :

فأين بنو رزّيك عتّا ونصرهم وما هم من منعة وزيد
فلو عاينك عينك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكنجل برقاد
تدرك من الإيمان قبل دثوره حشاشة نفس أذنت بنقاد
فمَرّق جموع المارقين فإنها بقايا زروع أذنت بحصاد

وبعث بشعر له مع خصلات شعر بعض نساء القصر .

ويشير إلى نهوض ابن رزّيك من الصعيد إلى القاهرة للاقاة عباس وابنه
وفرار هذا لعدم قدرته على المواجهة إلى الشام . قال الجليس :

ولمّا ترامى البربرى بجهله إلى فتكة ما رامها قط رائم
ركب إليه متن عزمتك التي بأمثالها تلقى الخطوب العظام
وقلت له المجرّد الجياد كالأما قوائمها عند الطراد قوادم
وتصل منها والعجاج يخضابها هواد لأركان البلاد هوادم
تجالت عن الماء القراح فريها دماء الحدى فهى الصوادى الصوادم
وقمت بحق الطالبين طالباً وغيرك يفضى ثوره ويسالم
أعدت إليهم ملكهم بعدما لوى به غاصب حق الأمانة ظالم
فما غالب إلا ونصرك غالب وما هاشم إلا وسيفك هاشم
فأدرك بتار الدين منه ولم تول عن الحق بالبيض الرقاق ثكاصم

وقال بمدحه :

سبوك لا يقل لها غيرا فنوم المارقين بها غرار
تجردها إذا أخرجت سخط على قوم ويغدها اغتار
طريك لا يفوتك منه قار وخصمك لا يقال له عكار

فمر يا صالح الأملاك فينا بما تختاره ، فلك الحيار
قد شفعت إلى ما تبغيه لك الأقدر والقلك الشدار
ولو نوث النجوم له خلافا هوث في الجو بذروها انتشار
وله غزل حضري مثل قوله :

زار وجنح الليل محلولك
 مُلتبما يديه للأوه
 داح فجلاؤه مُحياه
 والبدر لا يُكتم مسراه
 نَم عليه طيب أنفاسيه
 كما وشى بالمسك رياه
 وقوله :

قد طرزت وجنائه بهذاره
 وتألقت أضدائه فالما في
 وحكيته فمدامعي تهيجي على
 وإذا هذا فالقلب مشغول به
 فمتى أعاد على هواه بنصرة
 ويحيد في الوصف بين وصف المعارك ووصف الرياض والزهور . يقول في
 معركة :

تكاد من التمتع المثار كُماها
 عجاج يظل الملتقى منه في دُجى
 وخيل يلف الثشر بالثرِب علوها
 ويصف الترجس فيقول :

وفد الربيع على العيون بترجس
 غلفت على استحسانه أنصارنا
 يلهى ويؤنس من جفاه خلية
 فارضى الرياض بزورة تلهو بها
 يحكي العيون فقد حباها نفسها
 شغفا إذ الأشياء تعشق جنسها
 كم مئة في أنسه من أنسها
 واحتث على حلق الحدائق كأنسها

ولا نستطيع مما انتقاه ابن العماد أن نلم بكل ما قال الشاعر ولا بأحسن ما
 قال فنحن نعرض لما اختار من خلال ذوق غير ذوقنا وموقف غير موقفنا ،
 فللعماد موقف معروف يتكرر من شعراء الفاطميين ، فهو لا يختار من اقوالهم
 إلا ما يتفق مع عقيدته ولا يتعارض مع أهواء سادته من الأيوبيين أعداء
 الفاطميين التقليديين . ذلك إلى ميل العماد في حكمه على الشعر إلى الشعر
 الذي به صنعة البديع . ونلاحظ على كثير من اختياراته اهتمامه بهذا اللون .

وشعر الكتاب عامة في هذا العصر لا يخلو من البديع ، وهو من جنس
إنشائهم فيه الصنعة ظاهرة . وقد تعلم القاضى انفاضل في ديوان الإنشاء ،
وتأثر بهم ، وحفلت كتاباته بضروب من صنعة البديع ، افتن فيها حتى
أعجبت معاصريه ومن بعدهم وكذلك كان شعره من اللون نفسه ، وهو ابن
هذه المدرسة نفسها من شعراء كتاب الفاطميين .

مصادر ومراجع

آدم متر :

١ — الحضارة العربية في القرن الرابع — ترجمة أبو ريدة ، طبع مصر .

إحسان عباس :

٢ — الوزير المغربي — طبع دار الشروق بعمان ، الأردن سنة ١٩٨٨ م .

أحمد أحمد بدوي

٣ — الحياة العقلية في عصر الحروب بمصر والشام — طبع نهضة مصر .

الأدفي :

٣ — الطالع السعيد الجامع لأبناء أبناء الصعيد — تحقيق سعد محمد حسن ،
ومراجعة الدكتور طه الحاجري ، طبع دار الكتب بمصر سنة
١٩٦٦ م .

أبو الفداء :

٤ — المختصر في أخبار البشر — طبع القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

أحمد أمين :

٥ — ظهر الإسلام — طبع لجنة التأليف .

إدريس عماد الدين :

٦ — عيون الأخبار في أخبار الفاطميين — تحقيق دكتور مصطفى غالب ،
طبع دار الأندلس ببيروت سنة ١٩٨٥ م .

ابن الأثير — نجم الدين أحمد بن اسماعيل :

٧ — جوهر الكنز — تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ، طبع منشأة
المعارف بالإسكندرية .

ابن الأثير : عز الدين علي

٨ — الكامل في التاريخ .

ابن أبى أصيبعة :

٨ — عيون الأنب، فى طبقات الأصباء

أسامة بن منقذ :

٩ — ديوانه — تحقيق د . حامد عبد المجيد .

١٠ — الاعتبار .

١١ — المنازل والديار — طبع القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

أمية بن أبى الصلت :

١٢ — الرسالة المصرية — تحقيق محمد عبد السلام هارون — مجموعة نوادر المخطوطات .

طبع لجنة التأليف سنة ١٩٥١ م :

١٣ — شعره — جمع محمد المرزوق — طبع دار الكتب الشرقية بتونس .

الأمين العامل : السيد محسن

١٤ — أعيان الشيعة — طبع دمشق سنة ١٩٤٦ م .

الباخرزى :

١٥ — دمية القصر وعصرة أهل العصر — طبع مصر .

ابن بسلام :

١٦ — الذخيرة فى عاسن أهل الجزيرة — تحقيق إحسان عباس ، طبع بيروت .

التجيبى :

١٧ — اختار من شعر بشار — تحقيق لجنة وطبع لجنة التأليف بالقاهرة .

ابن تغرى بردى :

١٨ — النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة — طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة .

١٩ — المنهل الصافى — طبع دار الكتب المصرية .

٢٠ — أنجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة — تحقيق د . حسين نصار ،

طبع دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م

نعم بن المهز .

٢- ديوانه — ضيع دار الكتب المصرية .

التهامي : علي بن محمد

٢٢- ديوانه — تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمن الربيع ، طبع مكتبة

المعارف بالرياض سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٢ م .

ديوانه — تحقيق رسالة ماجستير مخطوطة ، بإشراف د . محمد زغلول

سلام ، كلية الآداب بالإسكندرية سنة ١٩٧٨ م .

الغالي :

٢٣- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر — تحقيق محمد محي الدين عبد

الحמיד ، طبع السعادة بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م .

الجاحظ : عمرو بن بحر

٢٤- البيان والتبيين — تحقيق محمد عبد السلام هارون ، طبع لجنة التأليف

سنة ١٩٤٨ م .

ابن حجة الحموي :

٢٥- ثمرات الأوراق — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم سنة ١٤٠٠ هـ .

٢٦- خزانة الأدب — طبع مصر سنة ١٣٠٤ هـ .

حسن إبراهيم حسن :

٢٧- تاريخ الدولة الفاطمية — طبع القاهرة سنة ١٩٣٢ م .

الحصري القيرواني : إبراهيم بن علي (أبو اسحاق)

٢٨- زهر الآداب — ضبطه ، دكتور زكي مبارك ، طبع مصر .

حسين نصار (دكتور)

٢٩- ظافر الحداد .

ابن حيوس :

٣٠- ديوانه — تحقيق خليل مردم ، طبع المجمع العلمي بدمشق سنة

١٩٥١ م .

- داعى الدعاة : هبة الله بن موسى الشيرازى
 ٣١ — سيرة المؤتة — تحقيق د . محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى
 بمصر سنة ١٩٤٩ م .
 ٣٢ — المجالس المؤتية — تحقيق د . مصطفى غالب ، ط . دار الأندلس
 بيروت سنة ١٩٧٤ م .

ابن دقماق

- ٣٣ — الانتصار لواسطة عقد الأمصار .
 داعى الدعاة :
 ٣٣ — ديوان داعى الدعاة — تحقيق د . محمد كامل حسين ، ط . دار
 الكاتب المصرى سنة ١٩٥٠ م .

الدينورى : أبو حنيفة — أحمد بن داود

- ٣٤ — الأخبار الطوال — تحقيق عبد المنعم عامر ، طبع القاهرة سنة
 ١٩٦٠ م .

الريق القيروانى :

- ٣٥ — تاريخ أفريقيا والمغرب — تحقيق المنجى الكمى ، نشر وطبع تونس .
 ٣٦ — قطب السورور فى أوصاف الخمور — طبع المجمع العلمى بدمشق .

ابن رشيق

- ٣٧ — الأنموذج فى شعر القيروان — طبع تونس .
 ٣٨ — الصلوة فى الشعر .

ابن سعيد المغربى :

- ٣٧ — المغرب — الجزء الأول من قسم مصر — تحقيق د . زكى محمد
 حسن ، د . شوقى ضيف ، طبع جامعة فؤاد سنة ١٩٥٣ م .

السيوطى :

- ٣٨ — بغية الرعاة — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبع القاهرة سنة
 ١٩٦٥ م .
 ٣٩ — حسن المخاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .
 ٤٠ — تاريخ الخلفاء .

ابن شاکر الککبی :

- ٤١- عبود التواریخ - ج ١٢ ، تحقیق دکتر فیصل السامر ، ط . العراق
سنة ١٩٧٧ م .
٤٢- فوات الوفيات - تحقیق د . إحسان عباس ، طبع بیروت سنة
١٩٧٣ م .

الشابشتی :

- ٤٣- الدہارات - طبع دار الکب بمصر .
الشریف العقیل :
٤٤- دیوانه .

ابن الصیری :

- ٤٥- الوزراء المصرية - طبع مديولی بالقاهرة .
٤٦- الوزراء المصرية - طبعة أورویة .
٤٧- قوانین الدولین - طبع القاهرة .
٤٨- قوانین الدولین - طبع مديولی بالقاهرة .
٤٩- الأفضلیات - تحقیق د . ولید قصاب ، ود . المانغ ، طبع دمشق سنة
١٩٨٢ م .

الصوری : عبد المحسن

- ٥٠- دیوانه - محقق . طبع بغداد سنة

الصفدی : صلاح الدین

- ٥١- الرواق بالوفیات - مجموعة أجزاء ، طبع معهد المشرقین الألمان .
٥٢- الفیث المسجدة ، شرح لامية المعجم ، طبع بیروت .
٥٣- نکت الحمیان -

طه حسین

مع أبی العلاء فی مسجده

طلایع بن رزیک :

- ٥٤- دیوانه جمع د . أحمد أحمد بدوی - ط . مكتبة نهضة مصر بالقاهرة
سنة ١٩٥٨ م .

٤٥- ديوانه جمع محمد هادى الأمين - نشر المكتبة الأهلية بالجيزة بالقاهرة
سنة ١٩٦٤ م

ابن الطوير :

٥٥- نزعة المقلتين فى أخبار الدولتين - حققه د . أيمن فؤاد السيد ، طبع
بمصر سنة ١٩٩٢ م .

ظافر الحداد :

٥٦- ديوانه بتحقيق د . حسين نصار ، طبع مكتبة مصر بالقاهرة سنة
١٩٦٩ م .

ابن ظهيرة :

٥٧- الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة - تحقيق مصطفى السقا ،
ط . دار الكتب سنة ١٩٦٩ م .

عبد الرحمن ياغى :

٥٨- حياة القيروان - طبع المكتب الإسلامى بدمشق .

عادل زعتر (مترجم) :

٥٩- نجال الإسلام .

على إبراهيم أبو زيد

٦٠- وسائل ابن أوى الشخباء - طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩١ .

على بن خلف :

٦٠- مواد البيان - طبع الجامعة الليبية بطرابلس .

عبد اللطيف حمزة : دكتور :

٦١- أدب الحروب الصليبية - طبع دار الفكر سنة ١٩٤٨ م .

٦٢- الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوى والملوكى - طبع دار
الفكر سنة ١٩٦٨ م .

على بن ظافر :

٦٣- بدائع البدائى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع مكتبة الأنجلو
بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٦٤ — تاريخ الدولة السلجوقية .

٦٥ — أخبار الدولة الحمدانية — تحقيق تمية السروات — طبع دار حسان .

عماد الدين الأصبهاني :

٦٥ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر — طبع القاهرة سنة

١٩٥١ م .

٦٦ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام — طبع المجمع العلمي

بدمشق .

٦٧ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب — طبع تونس .

أبو العلاء المعري :

٦٨ — رسالة الغفران — تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، طبع المعارف

بمصر سنة ١٩٥٠ م .

٦٩ — ديوان سقط الزند .

٧٠ — ديوان اللزوميات .

ابن العماد الحنبل :

٧١ — شلرات الذهب في أخبار من ذهب .

العامل : بهاء الدين

٧٢ — الكشكول — تحقيق أحمد الزواوي ، طبع الحلبي بالقاهرة سنة

العباسي : عبد الرحيم

٧٣ — معاهد التنصيص على شواهد التلخيص — تحقيق محمد محيي الدين عبد

الحמיד ، ط . السعادة بمصر سنة ١٩٤٧ م .

عمارة الجني :

٧٤ — النكت العصرية في الوزراء المصرية .

الفارق :

٧٥ — تازيخ الفارق — تحقيق د . بدوي عبد اللطيف ، ط . دار الكتب

البنانية بيروت سنة ١٩٧٤ م .

أبو الفرج الأصبهاني :

٧٦— الأغاني طبع دار الكتب المصرية .

القفطى : على بن يوسف

٧٧— إنباه الرواة على أنباه النحاة — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

٧٨— المحدثون من الشعراء — تحقيق رياض مراد ، طبع دمشق سنة

١٩٧٥ م .

القلقشندى :

٧٩— صبح الأعشى فى صناعة الإنشا — طبع دار الكتب المصرية .

محمد عبد الغنى حسن :

٨٠— مصر الشاعرة فى العصر الفاطمى — طبع مصر .

٨١— تميم بن المعز الأمير الشاعر — طبع دار الرفاعى بالرياض سنة ١٩٨٠ .

محمد كامل حسين :

٨١— فى أدب مصر الفاطمية — ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٧١ م .

محمد عبد الله عنان :

٨٢— الحياة الفكرية فى مصر حتى آخر الدولة الفاطمية — طبع النهضة العربية .

محمد عبد الحميد سالم . دكتور

٨٢— شعر المذهب — تحقيق ودراسة ، طبع دار هجر بالقاهرة سنة

١٩٨٨ م .

٨٤— الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية — نشر الخانجى سنة ١٩٨٣ .

المقرئى :

الخطوط :

٨٣— البيان والإعراب — تحقيق د . عبد المجيد عابدين ، طبع القاهرة سنة

١٩٦١ م .

٨٤— امتاع الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء — تحقيق ونشر د . جمال .

٨٥— كتاب النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم — تحقيق د. حسين مؤنس — طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٠ .

٨٥— الدين الشيال — ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٤٨ م .

المقدسى : شهاب الدين

٨٦— كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين — تحقيق د . محمد حلمى بالقاهرة سنة ١٩٦٢ م .

محمد مصطفى رضوان :

٨٧— المهذب بن الزبير حياته وشعره — طبع دار الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م .

المحاسبي :

٨٨— أخبار مصر فى سنتين — طبع المجمع العلمى .

المسيحي :

٨٩— أخبار مصر — تحقيق وليم ميلورد ، طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

المقرئ :

٩٠— نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب — تحقيق إحسان عباس سنة ١٩٦٨ م .

النويري :

٩١— نهاية الأدب — طبع دار الكتب المصرية ..

النعمان القاضى : (مترجم) .

٩٢— دعائم الإسلام — تحقيق آصف فيظى ، نشر دار المعارف بمصر .

ابن هالء :

٩٣— ديوانه — طبع بيروت سنة ١٩٦٤ م .

ابن واصل : جمال الدين محمد

٩٤— مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب — تحقيق د . جمال الدين الشيال طبع مصر سنة ١٩٥٣ م .

الوطواط :

٩٥ — مناهج الفكر ومباهج العبر — تحقيق عبد العال الشامي ، طبع الكويت
سنة ١٩٨١ م .

اليافعي :

٩٦ — مرآة الزمان — ج ٣ ، طبع بيروت .

ياقوت الحموي :

٩٧ — معجم الأدباء .

٩٨ — معجم البلدان .

Lane Poole: History Of Egypt In Middle Ages.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الأول : حال الشعر والشعراء	٧
حال الشعر	٩
موضوعات الشعر	١٤
شعراء العصر	٣٨
الفصل الثاني : شعراء مصريون في القرن الرابع	٤٣
١- تميم بن المعز	٤٥
٢- الرّسبيون	٨٧
٣- ابن وكيع التنيسي	٩٦
٤- الشريف العقيلي	١٠٢
٥- شعراء مصريون آخرون في القرن الرابع	١١٥
الفصل الثالث : شعراء وافدون في القرن الرابع	١٢٥
١- أبو الرقعمق الأنطاكي	١٢٧
٢- الرقيق القيراني	١٣٧
٣- صريع الدلاء البغدادي	١٤٤
٤- عبد المحسن الصوري	١٤٧
الفصل الرابع : شعراء مصريون من القرن الخامس	١٥٩
١- ظافر الحداد	١٦١
٢- ابن مكنسة	١٩٦
الفصل الخامس : شعراء وافدون من المشرق في القرن الخامس	٢٠٥
١- التهامي	٢٠٧
٢- داعي الدعاة شمس الدين	٢٤٠
٣- ابن حيوس	٢٤٧

- ٢٥٥ الفصل السادس : شعراء معاصرون بالشام
- ٢٥٧ ١- أبو العلاء المعري
- ٢٩٦ ٢- ابن سنان الحفاجي
- ٣٠٣ ٣- ابن الجيايط
- ٤١٥ ٤- إبراهيم الغزي
- ٣٢٣ الفصل السابع : شعراء وافلون من المغرب
- ٣٢٥ ١- التجيبي
- ٣٢٨ ٢- ابن القطاع الصقلي
- ٣٣١ ٣- أمية بن أبي الصلت
- ٣٤٢ ٤- ابن أبي البشائر
- ٣٤٨ ٥- شعراء وافلون آخرون
- ٣٤٨ ٦- محمود بن عبد الجبار الطرسوسي
- ٣٥٠ ٧- الرشيد الصقلي
- ٣٥٢ ٨- القلعي الأصم - محمد بن عبد الله
- ٣٥٥ ٩- مجير الصقلي
- ٣٦٥ الفصل الثامن : شعراء مصريون في القرن السادس
- ٣٦٩ ١- حسن بن زيد الأنصاري
- ٣٧٣ ٢- ابن النضر
- ٣٧٧ ٣- داود بن مقدم الحلبي
- ٣٨١ ٤- ابن الضيف
- ٣٨٤ ٥- ابن الكيراني
- ٣٨٩ الفصل التاسع : شعراء نهاية العصر (ابن رزيك وجماعته)
- ٣٩١ ١- ابن رزيك
- ٤٣١ ٢- أسامة بن منقذ
- ٤٥٧ ٣- القاضي الرشيد بن الزبير
- ٤٦٤ ٤- المهذب بن الزبير

٤٧٩

٤٩١

٤٩٤

٤٩٩

٥ — عمارة اليمنى

٦ — ابن قادوس

٧ — القاضي الجليل

المصادر والمراجع

